الدكتور
أحمد محمد الحوفي
أستاذ الأدب العربي
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

المرأة في الشعر الجاهلي

الطبعة الثانية
معدلة ومزيدة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

— ١ —

فكرة خايلت لى منذ درست الأدب ودرّسته ، وما زالت تخايل لى ، وقد استجبت لها بكتابين : أولهما (الحياة العربية من الشعر الجاهلى) ، وثانيهما (الغزل فى العصر الجاهلى) ، ويسعدنى أن أستجيب لها بهذا الكتاب الثالث [1] .

أما هذه الفكرة التى سيطرت على نفسى فهى أن درس الأدب لا يشوق ولا يثمر ، ما لم يندمج دارسوه بقائليه اندماجاً يتيح لهم أن يتعرفوا ينابيع هذا الفيض العاطفى ، وبواعثه ، وبيئته التى استوحاها ، وأن يستمدوا من هذا الأدب ألواناً لتصوير الحياة فى شتى مناحيها ، ويهتدوا بالحياة فى الكشف عما يخفى من معانى الأدب وبواعثها ومراميها ؛ لأن الأدب والحياة يتبادلان التأثير والتأثر ، ويتقارضان الأخذ والعطاء ، ففى الأدب مظاهر من عصره ، وفى العصر ملامح من أدبه .

وقد شاء لى الحظ أن يكون الشعر الجاهلى من مجال دراستى هذه ، فشعرت بالرضا ، لأنى أدرس هذا الشعر المتّسم بالأصالة والصدق والحيوية والتجاوب مع بيئته وعصره ، ولأنى شاركت فى إبراز معالمه ، والتنويه بقيمته ، ثم لأنى تمثلت منه جوانب شتى من حياة العرب فى الجاهلية .

ولست أدعى أن هذه الأفكار قد تبلّجت لى على حين فجأة ، أو تمثلت لى

---

(١) ثم كانت محاولة رابعة بعد (المرأة فى الشعر الجاهلى) هى أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى .

دفعة ، فلقد انبثق أمامى أول شعاع من الفكرة حين شرعت أستنبط من الشعر الجاهلى ما يتصل بحياة العرب فى الاجتماع والأخلاق والدين والعادات فى كتابى (الحياة العربية من الشعر الجاهلى) . حينئذ ازددت يقيناً بقيمة الشعر فى دراسة العصر الجاهلى ، و بوثاقة الروابط بينه و بين الحياة العربية . فلما درست الغزل فى العصر الجاهلى تفتحت لى ميادين أخرى للبحث والاستنباط ، والاعتداد بالشعر الجاهلى ، والاعتماد عليه فى تمثيل الاجتماع العربى فى صوره المختلفة .

— ٢ —

ثم حفزتنى تلك الدراسات إلى أن أستنير بالشعر الجاهلى فى تجلية هذه المشكلات :

١ — أردت أن أتعرف من الشعر مكانة المرأة فى الأسرة ، وفى القبيلة ، وفى المجتمع العربى ، والصور التى رسمها لها فى هذه البيئة فى السلم ، وفى الحرب ، وماذا كان لها فى الحياة العربية من أثر ؟ أكان أثرها عظيما قويا أم ضعيفاً خافتاً ، أم لم يكن لها أثر ؟ أكانت تعامل معاملة الرقيق ؟ أم كانت علية القدر ، ذات رأى ومكان مرموق ؟

٢ — وقصدت إلى أن أسْبُر غَوْرَ هذا الشعر فى تصويره لحياة المرأة ، فأعرف قيمة الصور التى رسمها ، أهى صور صادقة تتفق ونظم الحياة البدوية ، والمعالم التاريخية ؟ أم هى صور تجافى نظم البادية ، وحقائق التاريخ الصحيح ؟

٣ — ثم أردت أن أسترفد هذا الشعر لجلاء منزلة العرب فى الحضارة القديمة ـ من حيث ما يتصل بمنزلة المرأة فى الأسرة والقبيلة والمجتمع ـ فكثيراً ما تناقض الباحثون فى هذه المكانة ، بعضهم يسمو بها ، و بعضهم يهبط ، بعضهم يرى أن العرب كانوا قبل الإسلام فى يقظة ووعى وتطور ناهض ، فلما جاء الإسلام سار بهم إلى نهاية الشوط ، و بعضهم يذهب إلى أنهم كانوا شعباً همجياً فى الدرك الأسفل من نظمه وعقائده وعاداته وأخلاقه ، فبزغ الإسلام عليهم

بزوغ الشمس بعد ليل طويل غاسق ، فهداهم إلى الحق الذى جهلوه ، وإلى الخير الذى تنكبوه ، وقرر لهم نظما أسرية واجتماعية لم يكن لهم بها عهد .

٤ — ومشكلة أخرى تخايل لى أيضا ، أريد أن أعرف مقدرة المرأة على قرض الشعر فى العصر الجاهلى ، ومنزلتها من شعراء عصرها ، وإلى أى مدى حامت بجناحيها فى سماء هذا الفن الرفيع ؟ وهل كانت لشعرها خصائص تميزه من شعر الرجال ؟ أو أن شعرها كان صورة من شعرهم ؟

— ٣ —

١ — سلكت السبيل إلى غايتى منقبا فى أشتات المراجع مخطوطة ومطبوعة من دواوين الشعراء ، وكتب الأدب ، والتاريخ ، والسير ، والاجتماع ، واللغة ، والفقه ، والتفسير ، والحديث ، والتراجم ، والمذاهب .

ذلك بأنه لم يفرد للمرأة أو للأسرة أو للقبيلة دراسة خاصة أو شبيهه بالخاصة فى العصر الجاهلى . بل إن هذا العصر — من الوجهة التاريخية — ما زال يكتنفه غموض واضطراب ، ونقص فى المصادر والمراجع ، والذين كتبوا عن العرب من القدماء مثل آخليس Aéschylus (٥٢٥ — ٤٥٦ ق . م) وهيرودوت (٤٨٠ — ٤٢٥ ق . م) وتيوفراست Theophrastus (حوالى ٣٧١ — ٢٨٧ ق . م) وديودور الصقلى Diodorsu Siculus (٤٠ ق . م) وسترابون Strabon (٦٤ ق . م — ١٩ م) ، ومن النصارى مثل اسبيوس Ousebius (٢٦٥ — ٣٤٠ م) وزكريا (المتوفى ٥٦٨ م) وملالا Malalas (المتوفى ٥٧٨ م) ومن المسلمين كابن هشام والطبرى والمسعودى وابن مسكويه وابن الأثير والبلاذرى واليعقوبى وابن خلدون ، هؤلاء وأولئك لم يعرضوا الحياة العامة ، ولم يدرسوا أحوال المجتمعات .

وليس هذا بعجب ، إذ كان ذلك منزع المؤرخين جميعا ، يعنون بالملوك والقادة والوقائع والثورات والفتوح ، ولا يكادون يحفلون بالجماعات والعادات

والأخلاق والنظم ، ومن البديهى أننا لا نظفر ببحث عن المرأة أفرده لهـا أى واحد من هؤلاء ، و بذلك حرمت المرأة الجاهلية ما نالته المرأة المسلمة من حفاوة، إذ عنى بها كثير من المؤرخين والـكتاب ، وأفرد بعضهم لهـا مجالا رحيبا فيما كتب ، كابن حجر فى كتاب الإصابة ، وابن الأثير فى أسد الغابة ، وابن سعد فى الطبقات الـكبرى ، وابن عبد البر فى الاستيعاب ، وابن قيم الجوزية فى أخبار النساء ، وابن طيفور فى بلاغات النساء .

نقبت فى آثار العرب ، واستخبرت ما خلفوا من شعر ، وما كتب عنهم وعن غيرهم ، متجرداً من آراء سابقة فى بعضها حيف ، وفى بعضها إنصاف ، لأتسمع القول من الألسنة الأولى وأتبصره ، وأتمثل منه الحقيقة التى يمـكن أن تتمثل .

٢ — وكان الشعر الينبوع الأول الذى استقيت منه ؛ لأنه فى الشعب العربى كالآثار المادية ، والآثار المدونة ، فى مصر واليونان وغيرهما من الأمم التى خلفت أبنية ونقوشا ، وخطوطا وآثارا وتاريخا مدونا « وليس فى الأرض أمة بها طِرْق — قوة — أولها مُسْكة ، ولا جيل لهم قَبْض ولا بَسْط إلا ولهم خط ، وكل أمة تعتمد فى استيفاء مآثرها ، وتحصين مناقبهـا على ضرب من الضروب ، وشكل من الأشكال ، وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والـكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها .. .. وذهبت العجم على أن تقيد مآثرها بالبنيان[١] »

٣ — ولقد يعترضنا هذا السؤال : أليس هذا الينبوع الذى نستقى منه عرضة للـكدرة واحتمال أخلاط من غيره ؟

بلى . وقد سبق إلى التنبيه على ذلك القدماء كابن سلام وابن هشام وأبى الفرج ، ثم كان لهذا دوى فى مصر منذ ربع قرن ، ولـكن التنبيه القديم والدوى

---

(١) الحيوان للجاحظ ١/٢ تحقيق هارون .

الحديث يلتقيان عند هدف واحد لاخلاف عليه هو أن قليلا من هذا الشعر منتحل أو منحول[1] ، ثم يفترقان إذ يطمئن القدماء إلى أن الكثرة الغالبة صحيحة ، و يغالى بعض المحدثين فينفى عن الكثرة هذه الصحة .

(ا) وأرى أن الحق مع القدماء ، وأن هـذا القليل قطرات فى جدول يزخر بالماء الأصيل الصحيح المصفّى ، فهى لا تعكره ولا تغيره ، ولا تطغى على طبعه وخصائصه . فمن حقنا إذاً ألا نتشكك فى الشعر الجاهلى كله : لأن شأن الشعر فى هذا شأن التاريخ ، كلاهما يتطرق إليه الكذب والمبالغة ، ولقد يكون التاريخ أيسر منالاً للروايات المدخولة ، والآراء المنحولة ؛ لأنه تسجيل فرد أو أفراد ، فهو أدنى إلى أن يميل مع الهوى والعاطفة ، لذلك تختلف فيه الآراء ، وتتناقض . أما الشعر فهو تسجيل آلاف من الشعراء ، من قبائل شتى ، ومن مواطن عدة ، فى زمن طويل ، لذلك أرى أنه أرحب مجالاً لاستنباط الحقائق من سجلات منوعة ، خلفها الشعراء الذين عبروا عن عواطفهم صادقين ، وصوروا حياتهم العامة غير قاصدين ولا كاذبين ، وتناولوا عفواً ما أهمل التاريخ من نظم الاجتماع فى ذلك العصر البعيد .

فلم أعتمد إلا على ما وثقت بصحته من شعر ، مهتديا بقيمة المصادر ، ومهتديا بحاستى الفنية ، و بملاءمة الشعر للحياة البدوية الجاهلية .

(ب) ثم إن الموضوع الذى أدرسه بمنجاة من النحل ومن الوضع ؛ لأنه مستمد من أبيات ذكرها الشعراء فى قصائدهم عَرَضا لا قصداً ، فى مطالع القصائد أو فى خلالها ، مفتخرين أو هاجين ، أو واصفين ، أو راثين ، أو مادحين ، ولم يدر بخلد واحد منهم أن يعمد إلى تصوير مقصود لحياة النساء ومنزلتهن ، وإنما جرى مع فطرته فى إيراد المعانى ، وتصوير ما يشعر به .

---

(١) عرضت لهذا الموضوع بالتفصيل فى الطبعة الرابعة من كتاب الحياة العربية من الشعر الجاهلى .

أما الوضع فإنه يتطرق إلى ضروب أخر من الشعر ، يتطرق إلى الشعر الذى يؤازر السياسة والحزبية والعصبية ، ويتسلل إلى الشعر الذى تحلى به القصص والأسمار ، ويتعرض له الشعر الذى يناصر نزعة شعوبية ، أو يلجىء إليه التباهى بالحفظ والتكاثر بالرواية ، أو الحجاج على مسألة فى اللغة أو النحو ، أو ما شاكل ذلك من فنون المقال .

(حـ) وشىء آخر أستوثق به من هـذا الشعر الذى أستقى منه ، أقصد إجماع جمهرة من الشعراء على حقيقة ما ، كحديثهم مثلا عن عزازة الأم ، أو حماية المرأة من السبي ، أو محبة البنات ، وبغضة البنات ، أو سفور المرأة ، وحجابها ، أو ما شاكل ذلك مما يتفقون فيه جميعا على رأى واحد ، أو ينقسمون فيه إلى فريقين . فليس من الطبيعى أن يكون هذا الشعر الذى يصور لونا من ألوان الحياة مكذوبا ، أو منحولا كله ، إذ لو كان كذلك لبرز فيه التناقض والخلط والمجافاة لما تمليه البيئة بسلطانها العام .

(د) ولست أنسى أن الشعر مجال للخيال والمبالغة ؛ لأن طريقته فى التصوير كثيراً ما تقتضى ذلك ، فهو إذاً ليس تصويراً دقيقا للواقع .

لكننى لا أنسى أيضاً أن الخيال فى هذا الشعر ضيق المجال ، لايعدو التشبيه والاستعارة والكناية ، ونحن فى دراستنا نعرف ماذا يريد الشاعر إذا شبه أو استعار أو كَنَى . أما المبالغة فهى نادرة فيما خلف شعراء الجاهلية ، وهى لا تفهم على صورتها اللفظية فى أى عصر من الأعصار .

(هـ) كذلك أعلم أن من خصائص الشعر الإيجاز والإدماج واللمح ، وألا يحفل بالتفصيل ، أو يجنح إلى الإطناب . لذلك استقيت أيضاً من التاريخ والحضارة والاجتماع وغيرها ، لأجلو الصور ، وأكمل خطوطها ، وأوضح ألوانها ، وأفصل ما أدمج الشعر وأجمل .

٤ — على أنى فى دراسة الشعر الجاهلى — وزمانه لا يتجاوز قرنين قبل

الإسلام ، ومكانه جزيرة العرب – لم أغفل حياة العرب فى مطلع الإسلام ، فاستمددت من شعر المخضرمين ما يجرى فى طَلَق واحد مع شعر الجاهليين ، مرجحاً أنه من نتاجهم قبل أن يسلموا ، أو من نتاجهم بعد أن أسلموا ، وقبل أن يصبغهم الدين بصبغته .

وكذلك استقيت من حياة النساء المخضرمات ما يتفق وحياة الجاهليات .

وأرانى على حق فى هـذا ؛ لأن حياة الشعراء وغيرهم فى مشرق الإسلام امتداد لحياتهم قبل إشراقه ، إذ لم يكن الإسلام قد رست قواعده ، ولم تكن قد كملت تعاليمه ، ولم تـكن النفوس كلها قد أشربته إشرابا ينسخ حياتها الأولى .

وهل من المعقول أن ينقلب العرب بين عشية وضحاها من حياة إلى حياة ؟

وهل من الطبيعى أن ينسى الشاعر على إثر إسلامه ما استقر فى نفســه من عادات وأخلاق وأوضاع ؟

إنما الطبيعى أن يمضى زمن على العقيدة الجديدة ، لتظهر آثارها فى قصـائد الشعراء ، وفى أخلاق الناس .

٥ — ورأيت أن تجلية مكانة المرأة فى الجاهلية لا تتضح إلا بموازنات بينها و بين معاصراتها ، والسوابق لها من نساء العالم القديم ، فى الأمم والحضارات التى اتصل العرب بها ؛ لأعرف قيمة المرأة العربية بالقياس إلى هؤلاء .

كذلك قايست المرأة الجاهلية بالمسلمة ، لأتبين قيمة المرأة قبل الإسلام بالنسبة إلى قيمتها بعد الإسلام ، إذ أستبين ما أحدث الإسلام فى النظم الجاهلية المتصلة بالمرأة من تجديد أو تأييد ، ومن تغيير أو إبطال ، ولأخلص من هذه المقايسة إلى تمثل مكانتها فى الجاهلية تمثلاً صحيحاً مستمداً من عصرها ، ومستمداً من المشابهة بينها و بين أختها المسلمة فيما بعد .

— ٤ —

وقد بدأت ببحث تمهيدى جلوت فيه صلات العرب بغيرهم من المعاصرين.

لهم ، ووضحت مكانة المرأة عندهم ، لأوازن بينها و بين المرأة العربية موازنة جزئية في غضون البحث ، ثم موازنة عامة فى مكان خاص .

فليس من شك اليوم فى أن عزلة العرب قبل الإسلام ، وجهلهم بالعالم الخارجى ، وجهالة العالم الخارجى بهم ، حتى إنهم لم يؤثروا فيه ، ولم يتأثروا به ، ليس من شك فى أن هـذه دعوى باطلة . وسنرى وسائل اتصالهم بالأمم التى عاصرتهم ، ومظاهر هذا الاتصال ، و بعض معالم التأثير والتأثر ، وخاصة ما يتصل بالمعتقدات والنظم الأسرية .

ثم قسمت الكتاب ثلاثة أبواب : تحدثت فى فصول الباب الأول عن المرأة فى الحياة الأسرية : أمًّا ، وزوجةً ، و بنتا ، وأختا ، وقريبة ، وتحدثت عن حقوقها المالية .

وفى فصول الباب الثانى درست أحوال المرأة فى الحياة العامة : درست أخلاقها ، وسفورها ، وحجابها ، وصناعاتها ، وأعمالها ، وثقافتها ، وعملها فى الحرب ، وتحدثت عن السبايا ، والإماء .

أما الباب الثالث وهو المرأة فى الحياة الفنية ، فقد عقدت له ثلاثة فصول : تحدثت فى الفصل الأول عن المرأة المغنية ، وفى الثانى عن المرأة راوية للشعر وناقدة ، وفى الثالث عن المرأة الشاعرة .

— ٥ —

و بعد . .

فالموضوع ـ فيما أعلم ـ غير مطروق بهذا النهج ، والمراجع التى ترفد دارسه من قريب أو من بعيد ليست معينة محددة ، والمعلوم منها غير مفهرس ، وغير مرتب ، وكثير منها مخطوط ، بعضه بالى الورق ، مغلق الخط . لهذا كنت أستعرض كل ما يمكن أن تصل إليه يدى من مراجع ومظان ، لأفتش بها عن فكرة أو عن شعر .

وكم من كتب سكبت نور عيني على صفحاتها ، لأجتني منها ثمرة لاتكافىء بعض ما بذلت ، وكم من كتب عبرتها من المنبع إلى المصب ، أجوس خلالها ، وأجوب ما بين ضفافها فى يقظة وأيْد ، ولكنْ لم يعلق منها بشبا كى صيد .

لكن المشقات التى كانت تعترضنى فى الإعداد ، والصعوبات التى احتملتها فى التنقيب والتنقير ، كل هذه لا مندوحة عنها لمن يتصدى للبحث ، فيصبر ويصابر ، ويدأب ويثابر ، ليخط فى سجل المعرفة سطراً ، يلبى به رغبة ، أو يقضى به حقاً ، أو ينال به ذكراً .

القاهرة { ذو القعدة ١٣٨٢ / إبريل ١٩٦٣ }

أحمد محمد الحوفى



صلات العرب بالأمم والحضارات ومكانة المرأة فيها

لم يكن العرب فى العصر الجاهلى — كما صورهم كثير من المؤرخين والباحثين — يعيشون بجزيرتهم فى عزلة عن العالم ، ونجْوة عن الشعوب واصطراعها ، ونبْوة عن تيارات الحضارات ، وإنما اتصل العرب بالأمم المجاورة ، وغير المجاورة ، وشاركوا فى الصراع السياسى الدائر بين الأمم المعاصرة بقدر اتصالهم به ، واتصالهم بالمصطرعين ، وعرفوا العالم القديم ، وعرفهم ، بل إن بلادهم على جدبها ، ووعورة المسالك إليها ، كانت مُهاجر كثير من الشعوب ، فقد نزح إليها من الشام ومصر والعراق فارُّون من ظلم أو ضغط ، أو ممتنعون على الحكومات لسبب ما ، وكان أكثر النازحين عدداً اليهود ، لكثرة ما قاسوا الاضطهاد منذ خروجهم من مصر ، إلى أن اضطهدهم الروم فى عهد طيطس وغيره . وهاجر إليها كثير من اليونان والرومان والفرس والهنود والحبش(١) . لذلك لم يكن سكان جزيرة العرب كلهم عربا ، بل كان يختلط بالعرب هؤلاء النازحون ، وغيرهم من الفاتحين والأرقاء والموالى والحلفاء من أمم وأديان شتى ، فيهم الفارسى ، والهندى ، والرومانى ، والكلدانى ، وفيهم اليهودى ، والنصرانى ، وكان هؤلاء يتوالدون ، وتختلط ذراريهم بالعرب ، ويضيع نسبهم ، كالكلدان والسريان ، وبعضهم كان يحالف العرب وينتمى إليهم كبعض اليهود والنصارى ، وآخرون كانوا ينخرطون فى عداد العبيد ، ويحملون ألقاب سادتهم كالحبش ، والفرس ، والهنود . فهم جميعا إما عرب ، وإما مستعربون ، إلا بعض اليهود وبعض النصارى من الروم ، وبعض الفرس الذين يعرفون بالأبناء(٢) .

وكانت بلاد الشام والعراق أيضا حافلة بأشتات من الأمم ، فقد ظهر الإسلام ، وبها بقايا من الآراميين الأصليين من سريان ويهود وسامريين ، وبها أنباط ، وعرب من المناذرة والغساسنة وإياد وربيعة ، وأشتات من أمم

---

(١) التمدن الإسلامى ٥/١٧ .
(٢) الأغانى ١٦/٥٣ .

أخرى كالجراجمة والجرامقة ، وأخلاط من مولدى اليونان والرومان والفرس والأكراد ، وبها أديان شتى[١] . وطبيعى أن يكون لهذا الاتصال أثره فى الحياة العربية ، فإن من الحقائق الثابتة اليوم أن علاقات الأمم من أكبر العوامل فى رقيها ، وليس بمستطاع أن نوضح تقدم الشعوب أو تأخرها اعتماداً على المميزات الجنسية ، والمعتقدات الدينية ، وتأثير البيئة فى السكان فحسب ، بل بموقعها الجغرافى أيضا الذى يَسَّرلها العلائق بشعوب أخرى فى عصور مختلفة[٢] .

وسأفصل فى الفقرات التالية أسباب الاتصال بين العرب والأمم التى عاصرتهم ، والحضارات التى أظلّت العالم فى عهدهم ، وأبين بعض السِّمات الدالة على تأثر العرب بغيرهم ، وأتعرف مكانة المرأة فى نظر هذه الأمم والحضارات ، ثم أجعل ذلك أساسا للموازنة بين المرأة العربية وغيرها .

(١) Literary History of Persia . . . Browne P. 154 .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية . بارتولد ٧ .

صِلةُ العرب باليهود

مقدم اليهود إلى الحجاز

وفد اليهود إلى الحجاز منذ عهد بعيد ، ولم يتفق المؤرخون على تحديد أول هجرة من هجراتهم إلى هناك ، وإن كانوا جميعا على أن هذه الهجرات بدأت فى عهد مبكر .

وإذا ما استقينا من التاريخ الوثيق لليهود وجدناهم يُضْطَهَدُون مرات ، ويُسامون الخسْف فى فِلسْطين ، فيلوذ بعضهم بالبلاد القريبة ، ويحق لنا أن نستنبط من هذا الفرار المتكرر أن بعضهم لجأ إلى الحجاز . فقد حمل عليهم الملك الأشورى شلمناصر سنة ٨٥٤ ق . م[(١)] والملك سنحاريب سنة ٧٠٢ق.م[(٢)] ، والملك بختنصر (نبوخذ نصر) سنة ٥٧ ق . م[(٣)] وانقضّ عليهم الكلدان سنة ٥٨٦ ق . م[(٤)] ، ثم أنتيوخوس والى مصر سنة ١٦٨ ق . م[(٥)] ، ثم الإمبراطور الرومانى بومبى سنة ٦٤ ق . م[(٦)] ، والإمبراطور الرومانى تيطس سنة ٧٠ م[(٧)] ، وهادريان سنة ١٣٤ م[(٨)] .

---

(١) نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق ٤٨ يوسف غنيمه وتاريخ العرب ١/٥٤ فيليب حتى (٢) نزهة المشتاق ٤٩ .

(٣) تاريخ اليهود للسامرى ٦٥ ونزهة المشتاق ٥٠ . (٤) نزهة المشتاق ٥٢ .

(٥) تاريخ يوسيفوس اليهودى ٥٣ والعقد الأنفس فى ملخص التاريخ المقدس ١١٦ ترجمة تادرس وهبى .

(٦) L,Histoire des Arabs. De Perceval. 1-PP . 642-645 . And A Literary History of The Arabs. Nicholson P . 137 .

(٧) تاريخ يوسيفوس اليهودى ٢٥٣ ـ ٣١٣ و History of The Arabs. Hitti. P. 62 .

(٨) الدعوة إلى الإسلام ٢٩ توماس أرنولد و Encyclopedia Britanica art Hadrian.

ومن الراجح أنهم نزحوا إلى الحجاز فى بعض هذه النكبات ، و إن كان نزوحهم ثابتا لما هدم بختنصر بيت المقدس ، وأجْلَى من أجلى ، وسبى من سبى من بنى إسرائيل ، ففر قوم منهم إلى الحجاز ، ونزلوا وادى القُرى و يثرب وتَيْماء[١] . ثم لحق بهؤلاء إخوانٌ لهم فراراً من بومبى ، ومن تيطس ، ومن هادريان .

والحقيقة أن جموعا من اليهود المضطهدين كانوا كلما حَزَبَهُم الأمر بحثوا لهم عن ملجأ ، وكان هذا الملجأ هو الحجاز[٢] . ومن المحتمل أن الأنباط حين غزوا فاسطين أسروا كثيراً من اليهود ، وأن هؤلاء الأسرى وغيرهم يمموا شطر الجنوب موغلين[٣] .

على أن عددهم بالحجاز قبل الميلاد بقرن كان ضئيلا ، لأن جر يزل Grayzel نشر خريطة دقيقة لمواطن اليهود فى العالم القديم فى القرن الأول من الميلاد ، وسجل فيها عددهم فى كل مواطن ، وليس بها إشارة إلى يهود بالحجاز أو باليمن[٤] .

وفى الحجاز أقام اليهود ، و بنوا الحصون ، وثمروا الأموال ، وزرعوا الأرض[٥] ، و بتطاول الزمان صارت لهم فى الحجاز مستعمرات عدة ، منها خيبر ، وفدك ، ووادى القرى ، وتيماء ، ومِقْنا[٦] . وكانت قرى كثيرة شمالى يثرب آهلة باليهود ، وهى والمستعمرات اليهودية تصور مبلغ كثرتهم وانتشارهم بالحجاز[٧] .

---

(١) تاريخ الطبرى ١/٢٨١ وفتوح البلدان للبلاذرى ٢١ ــ ٢٣ .

(٢) De Perceval P. 642

(٣) A History of the Jews. Grayzel. P. 244

(٤) المرجع السابق ١٣٨ .

(٥) خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودى ٧٩ ونشر المحاسن اليمانية ١٦ مخطوط والأعلاق النفيسة لابن رسته ٧ / ٦٠ .

(٦) فتوح البلدان للبلاذرى ٢٩ و ٣٦ و ٤١ و ٤٢ و ٦٦ .

(٧) تاريخ اليهود فى بلاد العرب . إسرائيل ولفنسون ١٤ .

اختلاطهم بالعرب :

كثر اليهود بالحجاز ، واختلطوا بالعرب ، لأن الأوس والخزرج حين نزلوا يثرب وجدوا بها عدة قبائل من بنى إسرائيل ، هم بنو عِكْرِمة ، و بنو ثعلبة ، و بنو محمر ، و بنو زغورا ، و بنو قَيْنُقاع ، و بنو زيد ، و بنو النَّضِير ، و بنو قُرَيْظَة ، و بنو بَهْدَل ، و بنو عوْف ، و بنو الفُصَيْص ، وهم جميعا من أهل الشرف والثروة والعز على سائر اليهود(١) . وكان هنالك أيضا بنو صخْم ، و بنو ماسكة ، و بنو القِمْعَة ، و بنو زيد اللات ، و بنو حجر ، و بنو زهرة ، و بنو زَبالة ، و بنو ناغضة ، و بنو عُكْوة ، و بنو مَزَايَة(٢) ، حتى لقد نيفت قبائلهم على العشرين ، وزادت آطامهم وآطام من نزل معهم من العرب على السبعين(٣) .

وكانت معهم بطون من العرب ، منهم بنو الحَرْماز ـ حى من اليمن ـ و بنو مَرْثد ـ حى من بَلِيّ ـ و بنو نيف ـ من بلى ـ و بنو معاوية ـ من بنى سليم ـ و بنو الشظية ـ من غسان(٤) ـ ، و بنو مُرِيد (مزيد) ـ من بلى ـ و بنو الجَذْمَى (الجذماء) ـ من اليمن(٥) .

ثم بعد سيل العرم وفد إليهم الأوس والخزرج ، واستوطنوا المدينة ، وأقام بعضهم بين القرى اليهودية ، وأقام آخرون مع اليهود فى قراهم ، ونزل بعضهم وحده لا مع اليهود ولا مع العرب الذين كانوا قد تألفوا إلى اليهود(٦) .

وقضى الأوس والخزرج رَدَحا من الزمن فى ضيق ، لأن الخيرات كانت فى قبضة اليهود ، ثم تحالفوا وتعاملوا ، وظلوا على ذلك زمنا طويلا(٧) ، حتى قدم أبو جُبَيْلة الغسانى إلى يثرب فآزر الأوس والخزرج ، وأفنى كثيراً من اليهود ،

---

(١) معجم البلدان ٧ / ٤٢٨ والأغانى ١٩ / ٩٥ .
(٢) الأعلاق النفيسة ٧ / ٦٢ .
(٣) خلاصة الوفا ٧٦ .
(٤) الأغانى ١٩ / ٩٥
(٥) الأعلاق النفيسة ٧ / ٦٢ وخلاصة الوفا ٧٩ .
(٦) خلاصة الوفا ٨٢
(٧) الأغانى ١٩ / ٩٦ والأعلاق النفيسة ٧ / ٦٣ .

فقالت سارة القرظية فى رثائهم :

بنفسى أمـة لم تغن شيئا   بذى حُرُض تعفّيها الرياح
كهولٌ من قريظة أتلفتها   سيوف الخزرجيـة والرماح
رزئنا والرزية ذات ثقل   يمرّ لأهلها المـاء القراح
ولو أربوا بأمرهم لجالت   هنالك دونهم جأوى ردَاح[1]

وقد أشاد الشعراء بأبى جبيلة ، وافتخروا به[2] ، وكان أبو جبيلة من الخزرج الذين نزحوا إلى الشام ، واندمج فى الغساسنة ، فمن الطبيعى أن يستجيب لنصرة قومه[3] .

ثم نكل مالك بن العجلان مرة أخرى باليهود ، فنقموا منه ، ولعنوه فى بيعهم وكنائسهم ، فقال فى ذلك :

تحانى اليهود بتلعانها   تحانى الحمير بأبوالها
فماذا علىّ بأن يلعنوا   وتأتى المنايا بإذلالها

ولكنهم بعد ذلك ذلوا وتخوفوا بطش العرب ، وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشىء يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض ، كما كانوا يفعلون ، بل يذهب اليهودى إلى جيرانه الذين يعيش بين أظهرهم ؛ لأن كل قوم من يهود قد لجئوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم[4] .

ويذهب المؤرخ جريتز Greatz إلى أن بطون الأوس والخزرج لم تكاشف اليهود بالعداء إلا بعد النكبة التى حلت باليهود فى اليمن ، لأنه لا يتصور أن يضطهد اليهود فى الحجاز فى العصر الذى كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على

(١) الأغانى ١٩ / ٩٦ والبدء والتاريخ للمقدسى ج ٣ والروض الأنف ٢ / ٢٤ ومعجم البلدان ٧ / ٤٢٨ وخلاصة الوفا ٧٩ — ٨٠ .
(٢) الأغانى ١٩ / ٩٦ و ٩٧ .
(٣) De Perceval I. P.650
(٤) الأغانى ١٩ / ٩٧ .

اليمن ، و يتعصبون لدينهم ، و يناهضون كل من يعارضهم أو يعتدى عليهم[١].
وأضيف إلى هذا سببا آخر هو أن الأوس والخزرج قد تكاثروا ، ونبتت منهم فروع عدة ، فتطلعوا إلى تملك الأرض التى يتملكها اليهود ، ونفسوا عليهم أن يستأثروا بخيرات يثرب وغيرها ، وأن يكون لهم السلطان المالى على العرب ، فانتهزوا سقوط دولة اليهود فى اليمن فرصة يتحللون فيها من نفوذ يهود الحجاز ، فكان لهم ما أرادوا .

و إذاً فلم يكن بين العرب واليهود حائل يمنع الاختلاط ؛ « فإن قبائل عربية يمنية قد شرعت تنتشر فى الحجاز بين الجاليات اليهودية »[٢] .

ولقد كان يدعو إلى الاتصال أيضا أن اليهود أهل مهارة فى الصناعة ، و براعة فى تثمير المال ، فلم يكن للعرب بدّ من أن يعاملوهم ، فمثلا كان بنو قينقاع صاغة بالمدينة[٣] ، وكانت لهم سوق عظيمة ذات ضجيج ، حتى لقد نَفَرَت من ضجتها ناقة النابغة الذبيانى[٤] ، وكان آل أبى الحُقيق مهرة فى صناعة الحلى بخيبر ، والعرب يقصدونهم ليشتروا لنسائهم من حليهم[٥] .

ثم إن تجار العرب كانوا يفدون إلى الأسواق اليهودية فى شمالىّ الحجاز ليبتاعوا من حاصلات اليهود وصناعاتهم ، وكذلك كان اليهود يعرضون بضاعتهم فى أسواق العرب . وكان العرب يمرون بمستعمراتهم على طريق القوافل بين الحجاز واليمن ، و بين الحجاز والشام ، « فينتج من التعاون الاقتصادى ، والاختلاط الاجتماعى تبادل فى الآراء ، وجدال فى الديانات »[٦] .

على أن الاختلاط كان يتخذ مظهراً أقوى فى تحالف بعض العرب مع اليهود ضد إخوانهم العرب ، فالأوس تحالف قريظة ضد الخزرج ، والنَّبيت

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٦١ و Greatz V. 3. P 91
(٢) De Perceval. P. 646 (٣) المغازى للواقدى ١٨٠
(٤) الأغانى ٢١ / ٦٢ (٥) المغازى ٢٧٧
(٦) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٧٤ .

تذهب إلى خيبر تحتمى بيهودها ، فتعيرها الخزرج وتفتخر عليها[١] ، و بنو النضير يحالفون بنى عامر[٢] ، و بنو قينقاع حلفاء لعبادة بن الصامت ، ولعبد الله بن أبىّ[٣] ، وأهل خيبر حلفاء لغطفان[٤] ، و يهود وادى القرى وما والاه حلفاء لقبائل سعد هُذَيْم من قضاعة ، يمنعونهم من العرب ، وهم الذين حموهم من غزو النعمان بن الحارث الغسانى ، وظلوا حماتهم إلى أن أشرق الإسلام[٥].

وكان العرب حراصا على الوفاء لليهود بحلفهم ، حتى فى بأساء اليهود ومحنهم ، فقد وَجَدَ الرسول عليه الصلاة والسلام على بنى قريظة بعد غزوة أحد ، فحاصرهم حتى نزلوا على حكمه ، وسألوا حلفاءهم من الأوس أن يشفعوا فى إطلاقهم ، فتواثبت الأوس ، وقالوا : يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت ــ كان الرسول قد حاصر بنى قينقاع حلفاء الخزرج ، فسأله إياهم عبد الله بن أبى بن سلول ، فوهبهم له[٦] .

ولم يقتصر الوفاء على الشفاعة والرجاء ، بل تعدى إلى التناصر ، ذلك بأن أهل خيبر لما بلغهم أن النبى يتجهز ليسير إليهم ، بعثوا إلى حلفائهم أسد وغطفان فأتوهم[٧].

و يظهر أن بعض العرب كانوا يحبون اليهود ، و يشاركونهم فى آلامهم، فإنه لما أحرق النبى نخل بنى النضير وقطعه ، قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

لعزَّ على سراة بنى لُؤَىّ حريق بالبُوَيْرة مستطيرُ

فأجابه حسان بن ثابت بقوله :

أدام الله ذلكمُ حريقا وضُرِّم فى طوائفها السعير

(١) خلاصة الوفا ٨٩ (٢) المغازى ٣٥٤
(٣) المغازى ١٧٩ ــ ١٨٠ والتنبيه والإشراف للمسعودى ٢٠٦
(٤) معجم ما استعجم للبكرى ٢ / ٥٢٣ .
(٥) معجم البلدان ٧ / ٧٤ ومعجم ما استعجم ١ / ٤٣ .
(٦) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٧ و ٢ / ٤٢٨ (٧) المغازى ٣٨٩

هم أوتوا الكتاب فضيعوه   فهم عمى عن التوراة بور[١]

اليهود باليمن وما جاورها :

منذ عهد بعيد كانت لليهود صلة باليمن ، فقد كان لسبأ صيت تجارى ذائع عند اليهود ، وكانت قوافل سبأ تفد إلى أسواق اليهود والكنعانيين[٢] ، وكان تجار اليود يرحلون إلى جنوبى جزيرة العرب[٣] ، وقصة سليمان وملكة سبأ ثابتة بنص القرآن الكريم والتوراة[٤] .

وقد أثبت العالم جلازر Glaser أن اليهود كانوا فى اليمن وحضرموت منذ عهد بعيد قبل الإسلام ، وهم الذين مهدوا لدينهم هناك ، ثم ظهرت أسباب عند ملك أو ملوك حببت إليهم اليهودية[٥] .

على أن اليهودية لم تنتشر باليمن إلا بعد الغزو الحبشى سنة ٣٤٠ م ، إذ فر ملوك حمير إلى الحجاز ، وقضوا به خمساً وثلاثين سنة ، ثم عاد مالك كرب يوهامين فى جيش إلى اليمن ليطرد الحبش ، وكان قد دان باليهودية ليقاوم بها المسيحية ، دين المستعمرين لبلاده[٦] ، ولم يمض إلا زمن قصير ، حتى كان تبع الآخر ـ تبان أسعد أبو كرب ، وهو حسان تبع ـ قد تعلم اليهودية ، وعاد إلى اليمن فنشرها[٧] .

وقد ذهب المستشرق بروكك Brocock إلى أن دولة حمير تهودت فى القرن

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ٢٥ .

(٢) سفر أشعيا اصحاح ٤٣ آية ٣ وإصحاح ٤٥ آية ١٤ وسفر حزقيال إصحاح ٢٣ آية ٤٢ .

(٣) سفر الملوك الأول اصحاح ١٠ آية ١١ و ٢٢

(٤) سورة النمل وسفر الملوك الأول ١٠ : ١ ـ ١١

(٥) تاريخ اليهود فى بلاد العرب . ولفنسون ٣٥ و ٣٧ و ٤٠ .

(٦) The Bak ground of Islam. P. 132 Phelby.

(٧) الكامل لابن الأثير ١ / ١٤٦ والعبر لابن خلدون ٢ / ٥٣ وسيرة ابن هشام ١/١٤ ـ ٢٤ والتنبيه والإشراف ١٧٢ وتاريخ اليعقوبى ١/٢٩٨ .

الأول قبل الميلاد ، والعالم سافستر دى ساسى silvester. de sacy, إلى أن ظهور اليهودية فى اليمن لم يسبق القرن الثانى بعد الميلاد[١] .

ولكن ذلك مردود ؛ لأنه كما يقول المؤرخ اليهودى شيفر : ليس من المعقول أن تكون دولة حمير يهودية فى القرن الثانى ولا يذكرها التلمود ، إذ أنه ألف بعد ذلك ، وتم فى القرن الرابع الميلادى[٢]. ولا شك فى أن اليمن عرفت اليهودية فى القرن الثانى بعد الميلاد[٣] ، ولكن اليهودية لم تصر ديناً رسمياً إلا بعد ذلك . وقد أثبت العالم بيرون Perron أن دولة حمير لم تعتنق اليهودية رسمياً إلا فى القرن الخامس الميلادى ، ونقض ما يرجع بتهود ملوك حمير إلى أقدم من هذا القرن[٤].

ويتفق معه فى هذا الرأى المؤرخ الثقة Grayzel ، ويذكر أن ذا نواس تهود هو وشعبه فى أوائل القرن السادس ، وأنه انتقم من المسيحيين ثأراً لليهود المضطهدين فى الدولة الرومانية الشرقية ، فبعث إمبراطور الروم ملكَ الحبشة ليغزو اليمن[٥].

على أن نفوذ الدولة اليهودية الحميرية تجاوز اليمن إلى الشمال[٦] ، ودان بها كثير من الجنوب ، كبنى كنانة ، و بنى الحارث بن كعب ، وكندة[٧] . وكان بنجران يهود دفعوا الجزية للنبى عليه الصلاة والسلام[٨] ، وكان بالبحرين يهود

---

(١) Memoires sur divers. evenement de l'Histoire des Arabes avant Mahmet . . . .

(٢) Journal Asiatique 1838 Novmbre. p. 358

(٣) The Jews of Asia P. 164 Mendelssohn

(٤) Journal Asiatique 1838 Novembre P. 358

(٥) AHistory of the Jews. P. 244. Grayzel.

(٦) De Perseval. 1. P. 654

(٧) المعارف لابن قتيبة ٢٠٥ وطبقات الأمم لصاعد ٤٣ والأعلاق النفيسة ٧ / ٢١٧ وبلوغ الأرب لمحي الدين العطار ٨٨

(٨) فتوح البلدان ٧٥ .

دفعوا الجزية أيضا[1] ، وكان بها يهود صالحوا على الجزية العلاء بن عبد الله الحضرمى مبعوث النبي إليهم فى السنة الثامنة من الهجرة[2]، وفى أما كن متفرقة من اليمن أقام يهود على دينهم ودفعوا الجزية لعمال رسول الله[3] .

وليس أدل على صولة اليهودية فى اليمن من أن الملك اليهودى ذا نواس كان متعصبا لها جادًّا فى نشرها ، يعامل المسيحيين بما تعامل به الدولة الرومانية اليهود[4] .

ثم إن اليهودية وصلت إلى الحيرة ، فقد كان للنعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة زوجات كثيرات من العرب والفرس واليهود ، وكانت المتجردة اليهودية آثرَ نسائه عنده ؛ لجمالها وحسن تبعلها ، وهى التى ذكرها النابغة فى شعره[5] .

أثر اليهود فى العرب :

١ — من المتعذر أن نضع حدوداً فاصلة بين اليهود والعرب تميز الأخلاق والنظم والعادات . ذلك بأن بنى إسرائيل نتاج الصحراء ، ولم تنقطع صلتهم بالصحراء فى عصور حضارتهم ، والمميزات الصحراوية بارزة فى لغتهم وخيالهم ، لهذا كان الكنعانيون والمصريون والفلسطينيون يسمونهم بالعبريين ، لعلاقتهم بالبادية ، ولتمييزهم من أهل الحضارة[6] .

---

(١) فتوح البلدان ٨٦ .   (٢) فتوح البلدان ٨٥ .

(٣) فتوح البلدان ٧٥ و ٧٩ .

(٤) سيرة ابن هشام ١ / ٣٥ وتاريخ الطبرى ٢ / ١٠٥ و ١٠٦ وتاريخ ابن خلدون ٢ / ٥٩ وتفسير الطبرى ٣٠/٨٤ — ٨٦ والنيسابورى ٣٠ /٦١ — ٦٢ على هامش الطبرى ومعجم البلدان ٧ / ٢٦٢ والكامل لابن الأثير ١ / ١٢٨ وبين الحبشة والعرب لعبد المجيد عابدين ٥٢ — ٥٤ و
AHistory of the Jews. 244 Grayzel.

(٥) كتاب حرب بنى شيبان مع كسرى أنو شروان ٦٥ .

(٦) تاريخ اللغات السامية ولفنسون ٧٨ — ٨٠ واليهود فى تاريخ الحضارة ٤٣ لودفيج و
Israel From its Begining. pp. 190 — 191. Adolphe lods.

وأولئك اليهود الذين سكنوا بلاد العرب كانوا مطبوعين بالطابع البدوى من قبل ، ثم عاشوا فى البادية ثانية ، وخالطوا العرب كما سبق ، فتأثروا بأخلاقهم ، و ببعض عاداتهم ، وجروا على كثير من نظمهم . « ولا أعلم فى تاريخ اليهود القديم إقليما تأثر فيه اليهود بأخلاق أبنائه وعاداتهم ونظمهم إلى هذا الحد سوى إقليم الجزيرة العربية[1] » . حتى لقد أنستهم البيئة ما ورثوا من روحانية ، وأخضعتهم للعقلية البدوية[2] ، ولم يختلفوا عن عرب الصحراء إلا فى مظاهر سطحية[3] . لهذا أنكر يهود دمشق وحلب فى القرن الثالث الميلادى أن فى الجزيرة العربية يهودا ، لأنهم لم يتمسكوا بالدين ، ولم يخضعوا لقوانين التلمود[4] .

وكذلك كان حالهم من الوجهة اللغوية ، فقد اصطنعوا اللغة العربية لغة أدبيّة لهم ، وكان فيهم شعراء نظموا الشعر فى الموضوعات التى مارسها العرب ، ولا يختلف شعرهم عن الشعر العربى وزنا وقافية وتصويرا وخيالا ومعنى ، كالسموأل ، وأوس بن دَنِىّ ، وكعب بن الأشرف ، والربيع بن أبى الْحُقَيْق ، وشَعْيَة بن الغَريض ، وشُرَيْح بن عِمْران ، وأبى قيس بن رفاعة ، وأبى الذيال . ودرهم بن يزيد[5] ، وقد أجاز الربيع أبياتا للنابغة فأعجب ببديهته وقال له : أنت يا ربيع أشعر الناس[6] .

٢ — وقد عجزت اليهودية أن تكتسح الوثنية الجاهلية . ولعل مردّ ذلك إلى مشقة أحكامها ، حتى لقد قال أحد فلاسفتهم يهودا فيلون (٣٠ ق م ـ ٥٠ م) إن إسرائيل بين الأمم كاليتيم المضيع بين الغرباء ، وذنبهم عند الناس أنهم

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٢٢ ولفنسون (٢) المرجع السابق ١٢

(٣) اليهود فى تاريخ الحضارة لودفيج ٣٠

(٤) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ١٣ ولفنسون .

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام بتحقيق محمود شاكر ٢٣٥ ـ ٢٤٧ والوحشيات لأبى تمام ٩١ مخطوط والأغانى . (٦) الأغانى ٢١ / ٦٢

يأخذون أنفسهم بالفرائض الصارمة ، والصرامة ثقيلة على الطباع[١] ، ومن هذه الصرامة عند طائفة الآسين أو الأسينيين تحريم الرق ، واعتبار التجارة عملا خبيثا ، وأخبث منه حمل السلاح للقتال ، وازدراء المادة ، لأنها مصدر الشرور[٢] . ولقد يكون السبب أيضا أن اليهود لم يتحمسوا لنشر دينهم[٣] ، وليس دينهم تبشيريا يجدُ أتباعه فرضا عليهم أن ينشروه ويهدوا مخالفيه ، وإنما هو والبرهمية والزرادشتية دين غير تبشيرى ، أما التبشيرى فالبوذية والمسيحية والإسلام[٤] .

على أن اليهودية تطورت فصارت تعتبر الناموس التلمودى وعقائده أساسا لا محيد عنه لمن يرغب فى التهوّد ، والذين دانو بالتوراة وحدها لم يقبل تهودهم ، وربما كان هذا سببا فى انصراف اليونان والسريان إلى النصرانية[٥] .

ويزيد التهود عسراً أن اليهود كانوا فى عصر ميلاد المسيح فريقين ، أحدهما يتبع الحكيم شماى ، وهم متحرجون يردون الراغبين فى اليهودية من غير اليهود ، والآخر لايتحرج كما يتحرج هؤلاء[٦] .

وبعد فقد كان الصراع عنيفــا بين النصرانية واليهودية فى الحجاز ، وفى اليمن ، ولم يَفُل من غربه إلا نزاع الفرس والرومان ، وكان من المنتظر أن تنتشر اليهودية والمسيحية فى بلاد العرب أكثر مما انتهت عنده ، ولكن الإسلام جاء ففلهما جميعا[٧] .

٣ — لكن هذا لم يمنع من أن يتهود بعض عرب الحجاز[٨] ، فكان

---

(١) عبقرية المسيح ٦٧ العقاد (٢) عبقرية المسيح ٢٧
(٣) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٢٢ ولفنسون .
(٤) الدعوة إلى الإسلام ١٧ توماس أرنولد ترجمة حسن إبراهيم وعابدين والنحراوى ، وقد أعجب أرنولد بهذا التقسيم الذى نقله عن **Max Muller**
(٥) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٢٢ (٦) عبقرية المسيح ٢٥
(٧) **Skyzen and Vorabeiten. V. 4. P. 8 Wellhousen.**
(٨) تاريخ اليعقوبى ٢ / ٤٩ وتاريخ العرب ١ / ١٤٦ فيليب حتى ومعجم البلدان ٤ / ٤٦١

حول مكة قبائل عربية متهودة ، هى بطون من كنانة و بنى الحارث بن كعب و بنى كندة[١] ، وتهود قوم من غسان ومن جذام[٢] ، وهاد بنو حشنة بن عكارمة من بلى بتيماء[٣] ، وهاد بعض الأوس والخزرج لما جاوروا اليهود[٤] .

والذين لم يتهودوا كانوا يتصلون باليهود ، و يتأثرون بهم ، فقيس بن الخطيم يتغزل فى يهودية[٥] ، والحارث بن عباد يشبه بعيد اليهود وطبولهم[٦] ، وكانت نساء بعض الخزرج ينذرن إن ولدن ولدا أن يهودنه إذا عاش ، لأن اليهود أهل علم وكتاب[٧] .

وقد انتشرت بين العرب بعض تعاليم التوراة وما يتصل بها من شروح وأساطير ، سمعها العرب فى الجاهلية ، وسمعها المسلمون فى الإسلام[٨] ، ومما يدل على ذيوعها أن القرآن الكريم كثيراً ما يجادلهم ، ويدحض آراءهم .

ولا شك أن اليهود كانوا فى نظر العرب أكثر منهم ثقافة ، واستنارة ، لأنهم أهل كتاب ، لذلك كان يقتدى بهم الأوس والخزرج فى كثير من الأعمال[٩] ، وكان ابن إسحاق صاحب السيرة المتوفى ١٥٠ هـ يحمل عن اليهود والنصارى ، ويسميهم فى كتبه أهل العلم الأول[١٠] .

وقد علم اليهود بعض العرب الكتابة العربية ، وجاء الاسلام وفى الأوس والخزرج عدة يكتبون ، ثم أمر النبي زيد بن ثابت أن يتعلم كتابة اليهود فتعلمها[١١] ، وكان الكتاب بالمدينة كثيرين ، لأنهم يجاورون و يخالطون اليهود[١٢] .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ١ / ٢٩٨ وعيون الأخبار ٣ / ٤٠٨

(٢) تاريخ اليعقوبى ١ / ٩٨ (٣) معجم ما استعجم ١ / ٢٩

(٤) الروض الأنف للسهيلى على هامش السيرة ٢ / ٢٤ وتاريخ اليعقوبى ١ / ٢٩٨

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ٤٩ مخطوط (٦) كتاب بكر وتغلب ٨٠

(٧) الروض الأنف ٢ / ٢٤ (٨) فتح البارى ١٣ / ٤٣١

(٩) محاسن النساء لابن هشام ٤٨ مخطوط و Grayzel P.P. 141-255. and Sources of Islam P. 13.

(١٠) الفهرست لابن النديم ٩٢ (١١) فتوح البلدان ٤٧٩ وتاريخ الخميس ١/٥٢٣

(١٢) الموشح للمرزبانى ٣٨ .

على أن العرب خالفوا اليهود فى بعض المعتقدات ، فاليهود – ربانيين وقرائين – يتفقون على تحريم لحم الجمل ، والعرب كلفون به . واليهود يحرمون أكل الشحم ما خلا شحم الظهر ، والعرب يأكلون الشحم كله. واليهود يحرمون أكل الحوايا والعرب يأكلونها[١] .

وقد نص القرآن الكريم على ذلك : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم[٢] » .

المرأة اليهودية

كانت النظم اليهودية مصطبغة بسمات صحراوية كما سبق ، وما برحت عاداتهم البدوية غلابة على أجيالهم المتعاقبة ، وفى التوراة إشارات إلى أصلهم الصحراوى[٣] .

لذلك قامت شريعة إسرائيل على ما يقتضيه نظام الأمة الحربية من خضوع المرأة للرجل ، والرغبة فى كثرة النسل .

فالمرأة تُسبَى ، وتباع ، وتورث ، وللآباء أن يؤجروا أبناءهم لموعد ، وأن يبيعوا بناتهم القاصرات بيع الرقيق ، وأن يقتلوهن[٤] .

ولم ترفع التوراة من قدر المرأة ، ففى سفر الجامعة أن المرأة أمرُّ من الموت ، وأن الصالح التقى هو الذى ينجو منها « رجلا واحداً بين ألف وجدت ، أما امرأة فلم أجد واحدة بين كل أولئك[٥] » .

وكانت المرأة فى المجتمع اليهودى – كما فى المجتمعات البدائية – مملوكة

(١) صبح الأعشى ١٣ / ٣٦٢
(٢) سورة الأنعام ١٤٦ ١١
(٣) سفر التثنية ٣٢ : ١٠ وسفر أرميا ٢ : ٢ وسفر هو شع ٩ : ١٠
(٤) حضارة العرب ٤٩٢ جستاف لوبون و Israel From its Begining. Adolphe Lods. 190.
(٥) سفر الجامعة ٧ : ٢٦ – ٢٩

لأبيها قبل زواجها ، تشترى منه عند نكاحها ، لأن المهر كان يدفع لأبيها أو لأخيها على أنه ثمن شراء ، ثم تصير مملوكة لزوجها ، وهو سيدها المطلق ، لأن كلمة (بعل) معناها سيد ، وليس لنذرها أو قسمها قيمة مالم يؤيده زوجها[١] ، فإذا مات زوجها ورثها وارثه ، لأنها جزء من التركة ، وله أن يبيعها أو يعضلها[٢] .

وكان الزواج بالأخت ذائعاً عندهم قديماً ، فمثلاً تزوج إبراهيم بسارة أخته من أبيه[٣] ، والربانيون ـ الربائيم إحدى طوائف اليهود الثلاث ـ يبيحون زواج بنت الأخ ، وبنت الأخت ، وبنت امرأة الأب[٤] ، وقد بعث عيسى ـ عليه السلام ـ يحيى بن زكريا فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس ، وكان فيما نهوهم عنه نكاح بنات الأخ[٥] .

ثم بعد ذلك حرموا الأم ، وامرأة الأب ، والأخت لأب أو لأم ، وابنة الابن ، والعمة ، والخالة ، وزوجة الابن ، وبنت امرأة الأب ، والأصول والفروع[٦] .

وجروا على تعدد الزوجات ، ولم يعارضه القانون الشرعى أو المدنى[٧] ، وعرفوا زواج المتعة ، ومارسوه ، ثم نهى الكتاب عنه ؛ لأنه لا يليق أن يكون الاقتران لأجل تبعا لهوى النفس ، ثم تحدث بعده فرقة بغير مسوغ شرعى[٨] .

وبديهى أن المرأة التى تورث ، كالمتاع لا حق لها فى الميراث ، فالقاعدة أن الرجل إذا مات وليس له أبناء ورثه بنو عشيرته ، أما النساء فلا نصيب لهن مما ترك الرجل ، بل كن يُورَثْن .

---

(١) اليهود فى تاريخ الحضارة ٥٢ ، و Israel From Begining. P. 191

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ٦٧

(٣) سفر التكوين الإصحاح ٢٠ : ١٢ (٤) العقائد ٨٠

(٥) تاريخ الطبرى ٢ / ١٢

(٦) سفر اللاويين إصحاح ١٨ آية ٦ ـ ١٨ وشعار الخضر .

(٧) اليهود فى تاريخ الحضارة ٥٠

(٨) شعار الخضر ١٠١

فإذا مات الزوج ولم يكن قد أولد الزوجة ورثها أخوه أو بعض أقاربه .

وكانت البنت إذا مات عنها والدها ورثها أقرب الرجال إليها ، ثم عدلت هذه القاعدة فى عصر متأخر ، فسمح للبنت أن ترث أباها إذا لم يكن له ولد .

أما الزوجة فلا نصيب لها من تركة زوجها ، بل ظلت جزءاً من متاعه يرثها ذوو قرباه . على أن التوراة اشترطت على البنت التى ورثت أباها أن تتزوج رجلاً من عشيرته[١] .

واختلفوا فى توارث الزوجين ، فالربانيون يورثون الرجل زوجته ، والقراءون يمنعونه ، ولا يلزمونه مؤجل صداقها ، ويمنعونها أيضاً أن ترثه ، ولكن لها مؤجل صداقها[٢] .

وقد خولت القوانين اليهودية القديمة الرجل أن يطلق زوجته إذا فعلت ما لا يَرْضَى ، ولم يكن هناك ما يكفه عن استعمال هـذا الحق المطلق إلا بعض روابط واهية لا تجدى فتيلاً . ولم يسمح للنساء أن يطلبن الطلاق من أزواجهن ، وليس قبولهن الطلاق شرطاً لصحة وقوعه[٣] ، ثم فى عصور متأخرة أباح القراءون للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها[٤] .

وكان اليهود قديماً ينسبون أبناءهم إلى أمهاتهم ، ففى التعاويذ السحرية اليهودية يقرن اسم الرجل باسم أمه لا باسم أبيه ، وقد عكف يوليوس ولهوزن على دراسة التوراة ، وخلص إلى أن النسب إلى الأم هو الشائع فى جداول الأنساب فى الجزء الذى حرره أتباع المدرسة اليهودية ، وهذه الجداول يرمز إليها بحرف (J) وأن النسب إلى الأب هو الشائع فى القسم الذى حرره أتباع المدرسة الكهنوتية ،

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧٠ وشمار الخضر ١٥٢-١٦٤ والأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين ١٦٩ - ١٧٢

(٢) شمار الخضر ١٦١ - ١٦٣

(٣) الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين ٩٧ ومركز المرأة فى الإسلام للسيد أمير على الهندى ٧٣ والإسلام والحضارة العربية ١ / ٨٠

(٤) شمار الخضر ١٢٦

وهى التى يرمز إليها بالحرف (P) ، و إذا علمنا أن الساميين كانوا يضعون قيوداً شديدة وحدوداً مرعية للزواج بذوى الأرحام ، ولا يضعون مثل هذه القيود فى الزواج بالعصبة ، فهم مثلا يبيحون الزواج بالأخت لأب ، إذا علمنا ذلك تبين لنا أنهم كانوا فى وقت ما يعدون صلة الأبوة أوهىَ من صلة الأمومة ، و يرون أنها لا تفرض نهياً ولا تحريماً فى الزواج[١] ، ووجود هذه العادة يفسر قول إلههم يهوه عن اتحاد الرجل بالمرأة (سوف يترك الرجل أباه وأمه ، و يلتصق بزوجته) ، ولا تزال لهـذه العادة آثار فى اليهود إلى اليوم ، وفى الأمم العربية ومصر عادة نسبة الولد إلى أمه فى التعاويذ والرقى والتمائم . و يرى نولدكه أنها تدل على مرحلة قديمة من نظام الأمومة[٢] .

وقد أباح العهد القديم للوالد أن يبيع بنته بيع الأرقاء لمن يرضى أن يتزوجها لنفسه أو لأحد أبنائه[٣] .

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٦ ــ ٨٨ و Israel From Its Begining. P. 192

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٨١ (٣) سفر الخروج ٢١ / ٧ ــ ١٢

(٣ المرأة فى الشعر الجاهلى)

صلة العرب بالنصارى

النصرانية فى الشمال والوسط :

كانت النصرانية قد ذاعت واستقرت أركانها فى البلاد المحيطة بجزيرة العرب ، فى الدولة الرومانية ومصر والحبشة . وكان النصارى يتعبدون بنشر دينهم والتبشير به ، فيجوبون البلاد ، ويجوسون القفار ، ويحتملون المشقات . وكان من أثر ذلك أن نفذت المسيحية إلى بلاد العرب ، وعرفت فى أرجائها ، ودان بعض العرب بها .

فالغساسنة فى الشام نصارى[1] على المذهب المنوفستى الذى كان شائعاً فى ديارهم ، وعرف فيما بعد بالمذهب اليعقوبى ، نسبة إلى يعقوب البرذعانى[2] ، وهم حماة الكنيسة فى الشرق ، يدل على ذلك أن الحارث بن أبى شِمْر (حوالى ٥٢٩ — ٥٦٩ م) كان نصرانياً يعقوبياً حامياً للكنيسة[3] .

وفى الحيرة نصارى أكثرهم من النساطرة ، وقد انتقلت النصرانية إليهم من الشام ، لأن الإمبراطور جستنيان اضطهد النساطرة فرحب بهم كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) وأسس لهم مدرسة جنديسابور فى فارس ، فنشروا مذهبهم هناك[4] ، وغلب هذا المذهب على فارس وخراسان والعراق والموصل[5] .

وقد دان بالمسيحية أشراف الحيرة ، منهم من بنى تميم آل عدىّ بن زيد العبادي ، ومنهم أناس من سَليم ومن طيىء وغيرهم[6] . وفى عام ٤١٠ م

---

(١) المعارف لابن قتيبة ٢٠٥ وطبقات الأمم لصاعد ٤٣ والأعلاق النفيسة لابن رسته ٧ / ٢١٧ .

(٢) الفصل لابن حزم ١ / ٤٩

(٣) العرب قبل الإسلام ١٩١ جرجى زيدان

(٤) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ١٦ و ١٨ دى بور ترجمة أبو ريده

(٥) الفصل لابن حزم ١ / ٤٩

(٦) البلدان لليعقوبى ٣٠٩

ورد ذكر أسقف على الحيرة ، وفيما بين ٥٥٩ و ٥٧٥ م كان أحودمه يبشر بالنصرانية بين التنوخيين[١] .

ولما فتح العرب العراق كان على شواطىء الفرات مسيحيون ، وكان بعض البدو ممن انتجعوا الجزيرة قد دخلوا فى حوزة الكنيسة[٢] . وقد نزل خالد بن الوليد فى طريقه إلى العراق سنة ١٢ هـ بقرى يقال لها بانقيا وباروسما وأُلَّيْس فصالحه أهلها النصارى[٣] . وقد بقيت كتب من القرن السادس تدل على أن اللغة العربية استعملت لغة للكنيسة[٤] .

وكانت على النصرانية قبيلة تغلب ، وقد دانت بها بعد يوم خَزَاز ، ذلك أن نزار لم تكن تستنصف من اليمن ، ولم تزل اليمن قاهرة لها حتى هذا اليوم[٥] ، فلما انتصر عرب الشمال على اليمن شعروا بنعمة الاتحاد ، والتفوا حول زعيمهم كُلَيْب، ووجدوا أن عرب اليمن يهود ونصارى ، وعرب الشام والحيرة نصارى ، فاعتنق النصرانية كليب و بعض حلفائه من ربيعة ومن مضر ، ومن إياد ، ومن طيئ ، ومن قضاعة ، ومن قيس بن ثعلبة ، و بنى كليب كنيسة ينافس بها حرم مكة ، وهو إنما يريد أن يثبت ملكه على دعائم من العقيدة الدينية والعصبية القبلية . ولم ترم تغلب عن المسيحية ، وما زالت عليها إلى عهد عمر بن الخطاب « ولما أراد أخذ الجزية منهم انطلقوا هاربين ، فقال له زُرْعَة ابن النعمان أو النعمان بن زرعة التغلبى أو عبادة بن النعمان التغلبى : أنشدك الله فيهم ، فإنهم قوم عرب يأنفون من الجزية ، وهم قوم لهم نكاية ، فلا تعن عدوك عليك » فضاعف عمر عليهم الصدقة ، وشرط عليهم ألا ينصروا أولادهم[٦] ، وكانت هذه معاملة خاصة بالتغلبيين ، إذا اعتبر عمر أن المضاعفة

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٥/٥١٣ عن نو Nau فى كتابه Les Arabes. P. 16

(٢) الحضارة الإسلامية ٧٣ فون كريمر (٣) تاريخ الطبرى ٤ / ٣

(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية ٩ بارتولد (٥) معجم البلدان مادة خزز

(٦) المعارف ١٩٣ والخراج لأبى يوسف ٦٨ والخراج للقرشى ٦٦ وفتوح البلدان ١٨٩

بمنزلة الجزية على غيرهم « وليس يؤخذ من غيرهم من أهل الذمة صدقة مضاعفة[١] .

وكان بعض قبيلة بكر - تيم اللات وضبيعة و بعض بنى عجل - نصارى[٢] ، وكان قرب منازل تميم من منازل بكر وتغلب وسيلة إلى أن يعتنق بعضهم النصرانية[٣] ، وقد افتخر الزبرقان بن بدر أمام النبي بنصرانيته فى قوله :

نحن الكرام فلا حىٌّ يعادِلُنا منا الملوك وفينا تُنْصَبُ الْبِيَعُ[٤]

كما اعتنقها جماعة من إياد، منهم قس بن ساعدة[٥] ، وجماعة من جُذام[٦] ، وجماعة من قُضاعة[٧] ، ودان بها أناس من النَّمِر[٨] ، وأناس من طيء كعدى ابن حاتم[٩] ، وأبى زُبَيْد[١٠] .

وكان فى أيلة نصارى ، ضرب عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة دينار كل سنة ، وأن يضيفوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثا ، ولا يغشوا مسلماً[١١] .

أما فى قلب الجزيرة وبخاصة مدن الحجاز التجارية فلم تكن المسيحية مجهولة ، ذلك بأن سكان هذا الإقليم كانوا على اتصال دائم بأهل الشمال ، ولا شك أن الرهبان الذين كانت صوامعهم تنتثر من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء كان لهم أثر عظيم فى تعريف العرب بالنصرانية .

---

(١) الخراج للقرشى ١٠

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بكر المجلد الرابع العدد الأول ٤٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٢٥ ودائرة المعارف الإسلامية ٥ / ٤٧٤

(٤) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٢٥

(٥) التنبيه والإشراف ١٧٦ ودائرة المعارف الإسلامية ٣ / ١٦٦

(٦) دائرة المعارف الإسلامية ٦ / ٣١٣

(٧) المعارف ٢٠٥ وطبقات الأمم ٤٣ والأعلاق النفيسة ٧ / ٢١٧

(٨) تاريخ الطبرى ٤ / ٧٣

(٩) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٤٦ .

(١٠) الشعر والشعراء ١٠١ والأغانى ١١ / ٢٣

(١١) الأم للإمام الشافعى ٤/١٠١

على أن الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرسمية[١]، ففى ناحية من نجد كشف بلى pely عن عمود مسيحى حطمه الوهابيون[٢].

وقد تنصر من قريش بنو أسد بن عبد العزى، منهم عثمان بن الحويرث وورقة ابن نوفل[٣]، وكان ورقة قد استحكم فى النصرانية حتى علم من أهل الكتاب كثيراً[٤].

وفى يثرب كان من المحاربين ضد النبى عند مقدمه إليها شريف من الأوس مطاع اسمه أبو عامر عبد عمرو بن صيفى، كان قد ترهب ولبس المسوح وسمى الراهب[٥]، وكان بمكة نصرانى اسمه مَوْهب ضرب عليه النبى ديناراً كل سنة[٦].

وكان بالبحرين نصارى، ففى سنة ٧ هـ صالحهم العلاء بن الحضرمى نيابة عن رسول الله[٧].

على أننا نجد أسماء كثير من النصارى فى أماكن شتى من الجزيرة[٨]. وكان بكندة نصارى منهم حُجَيَّة بن المُضَرَّب[٩]، وامرؤ القيس بن عابس الكندى[١٠].

النصرانية فى اليمن:

سلكت المسيحية طريقها إلى اليمن منذ أواسط القرن الرابع الميلادى.

---

(١) العرب والإمبراطورية العربية ٢٩ بروكلمان.

(٢) عصر ما قبل الإسلام ٩ (٣) تاريخ اليعقوبى ١ / ٢٩٨

(٤) سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٣ والأم للشافعى ٤ / ١٠١ والخراج للقرشى ٧٣ والأغانى ٣ / ١٢٠ (٥) سيرة ابن هشام ٢ / ٢١٦

(٦) سيرة ابن هشام ١ / ٢٠٦، و ٢٤٣.

(٧) فتوح البلدان ٨٥ (٨) المعارف ٢٠ ومروج الذهب ١ / ٢٩ - ٣٢ وتاريخ الخميس ١ / ٣٢ ومجالس ثعلب ١ / ٦٥٣ وديوان المتلمس. مخطوط.

(٩) الأغانى ٢١ / ١٠ وسمط اللآلى ١ / ٢٠٤.

(١٠) أسد الغابة ١ / ١١٥.

وتضافرت على فسح المجال لها هناك عوامل شتى ، بعضها سياسى ، و بعضها تجارى ، و بعضها دينى .

ذلك بأن قياصرة الروم لما تنصروا أخذوا يهتمون بنشر دينهم ، و يستعينون به على بسط نفوذهم ، وتوسيع المجال لمتاجرهم ، فأرسل الإمبراطور قنسطنطيوس constantius (٣٥٣ — ٣٦١) مبشراً هو فرومنتوس إلى الحبشة نصبه أسقفاً عليها سنة ٣٥٤م فنشر النصرانية فيها [١] . وفى سنة ٣٥٦ م بعث ثيوفيلوس ليبشر باليمن ، واستطاع أن ينشىء كنيستين بأرض حمير ، وثالثة بعدن ، وليس مايمنع من أن نصدق أن المسيحية وفدت أيضاً من الشمال بعد ذلك [٢] .

وكان بنجران كنيسة بناها بنوعبد المدان الحارثى، وسموها كعبة نجران [٣] وقد ذكرها الأعشى فى قوله لناقته :

وكعبة نجران حتمٌ عليـــــك حتى تناخى بأبوابها

نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً همُ خير أربابها [٤]

ثم كانت الغزوة الحبشية الأخيرة لليمن فى ٥٢٣ م ، فاعترف نصارى اليمن بالحبش ، وراجت الدعوة إلى النصرانية ، واستطاع أبرهة أن يحكم اليمن ، وكان نصرانياً ورعاً متحمساً لبث دينه فى بلاد العرب ، فبنى القلّيْس بصنعاء [٥] ، وهى كنيسة لم ير الناس أحسن منها ، ولما أتم بناءها كتب إلى النجاشى : إنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب [٦] . وفى سبيل ذلك حاول أن يهدم الكعبة ، وكانت غزوة الفيل التى باء كيدها بتضليل .

---

(١) دائرة المعارف للبستانى ٦ / ٦٧٩ .
(٢) العرب قبل الإسلام ١٢٦ زيدان و History of the Arabs. P. 97 Hitti.
(٣) الكامل لابن الأثير ١ / ١٤٩ وسيرة ابن هشام ١ / ٣٠ ـ ٣٤ و Hitti P.67.
(٤) الأغانى ١٠ / ١٣٥ ـ ١٣٧ وديوان الأعشى ١٧٣ .
(٥) تاريخ ابن خلدون ٢ / ٦١ والقاموس المحيط (قلس)
(٦) معجم البلدان ٧ / ١٥٥ و ١٥٧ .

ومن تنصر باليمن طيئ ومَذْحِج وبَهْراء وسَليح[١] .

وهذه الكثرة تُخَوِّلنا أن نرفض قول تسدال Tisdall إن المسيحية لم يعتنقها من العرب إلا بنو الحارث فى نجران ، وبنو حنيفة فى اليمن ، وبعض طيئ فى تيماء[٢] .

وما جاء الإسلام حتى كانت النصرانية ذائعة فى الجنوب ، يدل على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم وجّه عماله إلى اليمن لأخذ الجزية ممن أقام على النصرانية [٣] ، وصالح وفد نجران على ألفى حُلة فى صفر وألفى حُلة فى رجب .. وأن عليهم عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيراً ، إن كان باليمن كيد[٤] ، ومع كل حلة أوقية من الفضة[٥] . وهذا دليل على كثرة العدد والثروة ، لذلك لاعجب أن يبلغوا فى عهد عمر أربعين ألفاً ، وأن يتحاسدوا ، فأتوا عمر فقالوا : أجْلنا ـ وكان قد خافهم على المسلمين ـ فاغتنم الفرصة وأجلاهم[٦] .

أثر النصرانية فى العرب

١ ـ كانت النصرانية ذات آثار شتى فى العرب ، فبعضهم مال إلى الرهبنة وبناء الأديار كحنظلة الطائى ، إذ فارق قومه ونسك ، وبنى ديراً بالقرب من شاطىء الفرات ، وترهب فيه حتى مات سنة ٥٩٠ م [٧] ، وقس بن ساعدة كان يسكن القفار ويتناول قليلا من الطعام[٨] .

وكان القسس والرهبان يعظون الناس فى الجامع والأسواق ، ويذكرونهم بالبعث والحساب والجنة والنار ، ومن هؤلاء قس بن ساعدة ، وقد سمع النبى

---

(١) تاريخ اليعقوبى ١ / ١٩٨ .

(٢) Original Sources of The Quran P. 136.

(٣) فتوح البلدان ٧٥ .

(٤) فتوح البلدان ٧٠ .

(٥) الخراج لابن يوسف ٤١ .

(٦) فتوح البلدان ٧٣ .

(٧) معجم البلدان ٤ / ١٤٣ وشعراء النصرانية ١ / ٩١ .

(٨) الأغانى ١٤/٤١ وشعراء النصرانية ٢١١ .

صلى الله عليه وسلم إحدى خطبه فى عكاظ ورواها[١] .

ومما يدل عن انتشار آرائهم أن القرآن الكريم يحكى كثيراً من أقوالهم ويفندها ، وأن كثيراً من الشعراء كانوا نصارى ، وللمسيحية آثار فى شعرهم وخيالهم وعقائدهم ، كأمية ابن أبى الصلت[٢] ، وذى الإصبع العَدوانى[٣] ، وعدى ابن زيد العبادى[٤] ، والأعشى[٥] ، والنابغة الجعدى[٦] وغيرهم[٧] .

على أن العرب كانوا يتزوجون بنصرانيات فى الجاهلية وفى الإسلام ، وكن ينسان لهم بعض الأشراف ، ذكر كثيراً منهم ابن رُسْتَه ، كالحارث بن عبدالله ابن أبى ربيعة المخزومى[٨] .

٣ — وإذا كانت اليهودية قد عجزت عن أن تصرع الوثنية الجاهلية ، فكذلك قد عجزت المسيحية ؛ لأنها لاتوائم طباع العرب الميالين إلى الثأر والانتقام والأنفة من الضيم ، وما من عربى يرضى أن يدير لضاربه خده الأيسر إذا ضربه على خده الأيمن .

ثم إن المسيحية كانت قد اختلطت تعاليمها بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة[٩] ، ففقدت بساطتها ، وامتلأت بالشبهات والغموض ، يقول تايلور **Canon Taylor** إن أئمة اللاهوت فى إفريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتا فيزيقية عويصة ، ودعوا إلى العزوبة والعزلة ، وادعوا أن القذارة من خصائص الرهبنة ، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضر أو مستقبل ؛ فلما جاء الإسلام أبطل ذلك كله[١٠] .

(١) البيان والتبيين ١ / ٥٢ ونقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر ٩٨ .
(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ٢٢٠ والأغانى ٤/ ١٢٥ وديوان أمية ابن أبى الصلت .
(٣) الأمالى ١ / ٢٥٥ والأغانى ٣ / ١٠٥ .
(٤) البيان والتبيين ٢ / ٢٨٥ . (٥) الأغانى ٨ / ٧٦ ساسى .
(٦) طبقات الشعراء ١٠٣ — ١٠٥ .
(٧) الحياة العربية من الشعر الجاهلى . أحمد الحوفى ٨١ — ٨٢ والمفضليات ٢ / ٥٢ والمؤتلف والمختلف للامدى ٧٤ والبيان والتبيين ٣ / ٥٣ و ١ / ٥٤ .
(٨) الأعلاق النفيسة ٧ / ٢١٣ .
(٩) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ٢٦ دى بور ترجمة أبو ريدة .
(١٠) الدعوة إلى الإسلام ٦٦ و ٦٧ أرنولد .

لذلك كان من العسير أن يُشْرَب العرب هذه التعاليم .

على أن العرب خالفوا النصارى فى أشياء ؛ فالنصارى يحرمون الإبل وألبانها ، ولكن العرب أحلوها ، والكنيسة تحرم تعدد الزوجات والعرب يعددون ، والنصارى يحظرون الطلاق والعرب يستبيحونه[١] .

المرأة النصرانية

أعزت المسيحية المرأة بعض الإعزاز ، وحمتها بعض الحماية من المهانة التى كانت تُمْنَى بها ، فلا جرم أن تهرع النساء إلى المسيحية أفواجاً ؛ لأنهن أحببن من تعاليمها أنه « لا يهودى ولا إغريقى ، لا عبد ولا حر ، لا ذكر ولا أنثى ، كلكم واحد فى يسوع المسيح » فى وقت كانت النساء فيه محتقرات ؛ ينظر إليهن على أنهن يقمن بعمل ثانوى فى النسل ، حتى لقد كان اليهودى الورع يحمد الله دائماً على أنه لم يخلقه غير يهودى ، ولم يجعله عبداً ولا امرأةً .

وقد قامت المسيحية فى أول عهدها على جهد النساء إلى حد كبير : فكنَّ مبشرات ، وكن يهبن لها المال ، ويُذِعْنها فى حماسة ، وقد اعْتُرف بهن قسيسات ، وبلغت القسيسات عشرات[٢] ، وأظهرت المبشرات كثيراً من ضروب الشجاعة والإيمان ، والتمسك بالعقيدة ، واحتمان العذاب راضيات[٣] .

وكان أعظم ما أنعمت به المسيحية على المرأة أن حرمت تعدد الزوجات ، والتسرى ، وحدَّت من الطلاق[٤] ؛ فقد سأل المسيحَ تلاميذه عن الطلاق : فقال لهم : « من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى ، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر تزنى[٥] » .

(١) صبح الأعشى ١٣ / ٢٨٥ .
(٢) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ١٩٣ . نشره السير جون هامرتن .
(٣) المرأة فى العصور ٣١ أحمد خاكى .
(٤) المرأة فى العصور ٣٦ .
(٥) إنجيل مرقس . الإصحاح ١٠ .

ولكن إعزاز المسيحية للمرأة كان بقدر ضئيل ، لم يرفع من شأن المرأة ، ولم يطلقها من سلطان الرجل ، ولم يحمها من عسفه وازدرائه ولم يضف إليها حقاً من حقوقها الكثيرة المسلوبة ؛ فالإنجيل يخص الرجل بالذكر دون المرأة : « لأن الرجل مخلوق على صورة الله ، وأما المرأة فإنها مخلوقة من جنب الرجل ».

وقد أيدت آراء رجال الدين أن المرأة هابطة المكانة ، وأنها خلقت للرجل ؛ ففي رسالة بولس إلى أهل كورنثوس : أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، ولم يخلق الرجل من أجل المرأة ، بل خلقت المرأة من أجل الرجل [1] . وجاء في رسالته إلى أهل أفسس : « يا أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب ؛ لأن الرجل رأس المرأة ، كما أن المسيح رأس الكنيسة » . وإن كان قد أوصى الرجال بحب النساء : « أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة» [2] ، وشبيه بهذا ما ورد في رسالة بطرس الأولى [3] .

وقد فسر بعض رجال الدين قصة آدم وحواء كما وردت في الإنجيل بأن المرأة حليفة الشيطان ؛ فهي جديرة بالاحتقار ، وعدها بعضهم مصدراً للرجس ، وكان من أثر ذلك انتشار الرهبنة والتبتّل [4] .

ومن عجب أن بحث المجتمعون في مجمع (ماكون ٥٨١ م) فيما إذا كان للمرأة نفْس ، وهل تعد من البشر ؟ وبعد جدال طويل عنيف كان الجواب أن لها نفساً ، وأنها بشر ، ولكنه كان بأكثرية قليلة [5] . ، وإن كانت الفكرة الغالبة عليهم أن المرأة خالية من الروح الناجية ، ماعدا السيدة مريم .

---

(١) رسالة بولس الأولى إلى كورنثوس الإصحاح ١١ : ٢ .
(٢) من رسالة بولس إلى أهل أفسس الإصحاح ٥ : ٢٢ ، ٢٥ .
(٣) الإصحاح ٣ : ١ — ١٠ .
(٤) المرأة في العصور ٣١ ـ ٣٦ وتاريخ العالم مجلد ١ جزء ٧ ص ٣٩٧ .
Ray Strachey
(٥) المرأة في التاريخ والشرائع ٦٢ جميل بيهم .

صلة العرب بالفرس

يحدث التاريخ بصلة قديمة جداً بين العرب والفرس ، نشأت قبل أن تؤسس مملكة الحيرة بقرون ؛ فقد أدوا الجزية للملك قورش سنة ٥٥٠ ق.م ، وكانوا أعواناً لقمبيز فى فتح مصر سنة ٥٢٥ ق.م ، ثم كانوا مع الفرس فى حملتهم على اليونان سنة ٤٩٢ ق.م[١] .

وقد ذكر الكاتب اليونانى كينوفند (٤٠١ ق.م) أن كورة فى شرق الفرات كانت تدعى (العربية)[٢] . وكانت البلاد الواقعة شرقى الفرات أسفل مصب نهر الخابور تسمى بلاد العرب منذ عهد قرطاجنة سنة ٤٠١ ق.م[٣] .

وفى عهد سابور الأول بن أردشير (٢٤١ ـ ٢٧٢ م) كانت بين دجلة والفرات مدينة اسمها « الحضر » ، يحكمها عربى من قضاعة ، وقد شمل ملكه أرض الجزيرة ، و بلغ الشام ، ثم إنه أغار على بلاد الفرس فحاربه سابور[٤] .

وفى أوائل القرن الثالث للميلاد تنازعت إياد ومضر بعد انتصارهما على جرهم وإجلائها عن مكة ، فهزمت إياد وهاجرت إلى العراق ، وكان أكبر موطن لها عين أباغ ، على أنها استوطنت أجزاء متفرقة من جنوبى الحيرة[٥] ، منها سنداد ـ نهر فيما بين الحيرة إلى الأُبلَّة ـ وكانوا ذوى منعة لا يعطون الإتاوة أحداً من الملوك ، وقد أغاروا على كسرى وهزموه مرتين[٦] .

---

(١) العرب قبل الإسلام ١٠١ نقلا عن هيرودوت .

(٢) مجلة المجمع اللغوى ٣ / ٣٣١ .

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ بارتولد .

(٤) تاريخ الطبرى ٢ / ٦٢ والأغانى ٢ / ١٤١ ومعجم البلدان ٣ / ٦٧ وسيرة ابن هشام ١ / ٧٨ ومروج الذهب ١ / ٢٩٦ والكامل لابن الأثير ١ / ١٣٥ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٣ / ١٦٧ .

(٦) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٧٣ .

ثم كانت حروب بين العرب وسابور الثانى المسمى بذى الأكتاف (٣٠٩ ـ ٣٧٩ م) بعد أن أغار العرب على أطراف مملكته ، ومكثوا بها مدة ، فغزاهم فى بلادهم ، وأسر منهم كثيراً ، وأسكن أسراهم مع بكر بن وائل كرمان ، ومن بنى حنظلة الأهواز[١] ، وأسكن عدداً عظيماً من أسرى العرب إقليم تَوَّجَ أيضاً ، وكانت حملة سابو حوالى ٣٥٠ م[٢] .

وبذلك تعددت الفرص لأن يحتك العرب بالفرس من قديم ، وأن يخالطوهم ويساكنوهم .

ثم بعد ذلك ساعد الفرس العرب على تأسيس إمارة الحيرة ، التى ظلت نحو أربعة قرون (٢٦٨ ـ ٦٣٣م)[٣] ، وصُلة بين العرب والفرس ، وكان أهلها أكثر حضارة من عرب الجزيرة ، وكان الفرس يعجبون بهم ، حتى لقد أرسل يزدجرد الأول (٣٩٩ ـ ٤٢٠ م) ابنه بهرام جور إلى النعمان بن امرىء القيس ابن عمرو (النعمان الأعور ٤٠٣ ـ ٤٢١ م) ليربيه تربية عربية ، وأمره ببناء قصر الخورنق له ، وأن يخرجه إلى بوادى العرب[٤] ، وقد رضع بهرام من امرأتين عربيتين وامرأة فارسية ، وتتلمذ لأساتذة من الفرس ومن العرب ، ثم أعانه العرب فى أن يخلف أباه على عرش فارس[٥] ، وتوسط عظماء الفرس وأهل البيوتات بالعرب ليتجاوز بهرام عن مساءتهم إليه ويعفو عنهم[٦] .

وأثرت التربية العربية فى بهرام ؛ فأجاد اللغة العربية كما أجاد لغات أخرى ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٦٦ ـ ٦٩ و ٣ / ٦٨ ومروج الذهب ١ / ١٢٢ ـ ١٢٤ وتاريخ ابن خلدون ٢ / ١٦٩ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بكر .

(٣) تاريخ الطبرى ٢ / ٣٧ و ٧٢ و ٧٤ و ٧٦ و ٧٨ و ١٥٦ وفجر الإسلام ١٨ وتاريخ الإسلام السياسى حسن إبراهيم ٤٨ ومروج الذهب ١ / ١٢٦ .

(٤) تاريخ الطبرى ٢ / ٧٢ ونهاية الأرب للنويرى ١ / ٣٧٢ .

(٥) تاريخ الطبرى ٢ / ٧٤ ـ ٧٦

(٦) الطبرى ٢ / ٧٨ .

وقرض الشعر العربى والفارسى[1] .

وقد ذكر محمد عوفى فى كتابه (لباب الألباب) وذكر شمس الدين الرازى فى كتابه (المعجم فى معايير أشعار العجم) أن بهرام جور أوّل من نظم شعراً فارسياً ، وأنه أخذ الشعر عن عرب الحيرة ، وأن علماء الفرس استهجنوا منه قرض الشعر ، ونهوه عنه[2] .

وكان إقليم الحيرة وما جاوره مجمعاً لأديان شتى أيضاً فى العصر الجاهلى ، فقد فتح المسلمون هـذه البلاد ، وعلى شاطىء دجلة والفرات أناس من أديان شتى ؛ فرس يعتنقون الزرادشتية ، ومسيحيون يدينون بالمسيحية ، وإلى هؤلاء جميعاً كان أتباع الديانة المانوية ـ وهى ديانة نشأت من اتحاد دين زرادشت بالأفكار المسيحية والهندية ـ وأتباع لديانات قديمة وثنية ، وقد بقيت آخر طائفة منهم وهى الصابئة بحران حتى القرون الوسطى[3] .

على أنهم حكموا اليمن عهداً طويلاً منذ استنجد بهم سيف بن ذى يزن لطرد الحبشة ، وظلوا يحكمونها إلى أن أشرق الإسـلام[4] ، وقد اشترط أنوشروان على سيف بن ذى يزن ـ أو معديكرب ـ بعد أن سـاعد اليمانين على إجلاء الحبش شروطاً . منها أن الفرس يتزوجون بنسـاء اليمن ، ولـكن لا يتزوج اليمانون بنساء الفرس ، وفى ذلك يقول الشاعر :

على أن ينـكحوا النسوان منهم　　وألا ينـكحوا فى الفارسينا[5]

---

(١) مروج الذهب ١ / ١٢٦ .

(٢) الأدب الفارسى الإسلامى للدكتور عبد الوهاب عزام . من قصة الأدب فى العالم ١ / ٤٤٨ ، ٤٥٠ .

(٣) Literary History of Persia of persia, Browne. P. 154
والحضارة الإسلامية ٨٣ فون كريمر . والفهرست ١٧ .

(٤) تاريخ الطبرى ٢ / ١١٥ ـ ١٢٤ وسيرة ابن هشام ١ / ٦٥ ـ ٧٣ والأغانى ١٦ / ٧٣ و Original of the Quran. P. P. 212-215.

(٥) مروج الذهب ١ / ٢١٨ .

وقد سمى العرب الفرس الذين قدم بهم سيفٌ بنى الأحرار ، يقول أمية بن أبى الصلت فى تهنئته ومدحه لسيف بن ذى يزن :

حتى أتى ببنى الأحرار يَقْدَمُهُمْ   تخالهم فوق متن الأرض أجبالا

لله درهم من فتيـــــة صبروا   ما إنْ رأيت لهم فى الناس أمثالاً (١)

على أنهم حكموا البحرين أيضاً ، وهَجَر ، وقد بعث رسول الله إلى أتباع كسرى بهَجَر فلم يسلموا : فوضع عليهم الجزية ديناراً على كل رجل (٢).

ثم إن الفرس كانوا يستخدمون بعض العرب فى دواوينهم ؛ فمثلا لقيط الإيادى كتب لـكسرى وترجم له (٣) ، وعدى بن زيد كان من تراجمة كسرى ابرويز (٥٩٠ ـ ٦٢٨ م) ، وأبوه زيد كان يقرأ العربية والفارسية ، وزيد بن عدى كان من تراجمة كسرى بعد أبيه (٤).

وقد رحل بعض العرب إلى فارس ليتعلموا ، كالحارث بن كلدة الثقفى ، رحل من الطائف إلى جُنْدَيْسابور وغيرها من فارس ، فتعلم الطب ، وضرب العود ، ووفد على كسرى وله معه حديث طويل (٥).

وكذلك رحل ابنـه النضر إلى الحيرة وإلى فارس ، وكان يشترى كتب الفرس ليحدث منها ، ويعاند الدعوة الإســلامية (٦) .

ورحل الأعشى إلى فارس ، ومدح كسرى ، وأدخل فى شعره كلمات فارسية كثيرة (٧).

ووفد عبد الله بن جُدْعان على كسرى أنوشروان (٨) ، وكان لعبيد بن شَرْية

---

(١) طبقات الشعراء ٢١٨ والأغانى ١٦ / ٧٣ .

(٢) المغازى ٨٥ و ٨٨ .   (٣) معجم ما استعجم للبـكرى ١ / ٧٥

(٤) الأغانى ٢ / ١٠١ ـ ١٠٦ .

(٥) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١ / ١٠٩ ـ ١١٣ وأخبار الحـكماء للقفطى ١١١

(٦) سيرة ابن هشام ١ / ٣٢٠ وعيون الأنباء ١ / ١١٣ .

(٧) معجم البلدان ٢ / ٥١ ودراسة الشعراء المرصفى ٩٢ .

(٨) الأغانى ٨ / ٤ .

المخضرم علم بأخبار ملوك العرب والعجم[١] .
وكانت ترد على أهل مكة فى الجاهلية دراهم الفرس البَغْلية والكسْروية[٢] .

أثر الفرس فى العرب

ليس من أغراضى هنا أن أبسط القول فى أفانين التأثير الفارسى فى العرب ؛ لأن ذلك يبعد بى عما أقصد الآن إليه ، وله مجال آخر[٣] ؛ لهذا سأقصر بحثى على تبيان التأثير الفارسى فى الحياة الاجتماعية ، وما يتصل بالمرأة ، وإذْ كانت الزرادشتية والمانوية والمزدكية دعائم العبادة والاجتماع عند الفرس : فإن من حقها أن تفرد بكلمة .

أما زرادشت : فهو عند الفرس نبى أسموه زرتشترا ، وسماه اليونان زرواستر ، ونسبوه إلى زمن قديم ، ولكن المؤرخين المحدثين يرون أنه كان بين القرن العاشر والسادس قبل الميلاد[٤] ، وقد ظهر بين الفرس وهم يعبدون مثرا إله الشمس ، وأناهيتا إلهة الخصب والأرض وغيرهما ؛ فثار ضد المجوس أو الكهنة الذين كانوا يلون شئون هذه العبادة ، وأعلن وحدانية الله ، وسماه أهورا مزدا إله النور والسماء ، وأعلن أن ما عداه من آلهة إن هى إلا مظاهر من صفاته . وآزره فى نشر هذه العقيدة دارا الأول ، وجعل الزرادشتية وحدها الدين الرسمى للدولة بعد أن كانت بغيضة إلى الأهلين[٥] .

رمز زردشت إلى أهورا مزدا برمزين هما : الشمس والنار ، ودعا إلى تقديسهما على هذا الاعتبار[٦] ، ولكن أتباعه عبدوا النار من بعده ، وعدوها

---

(١) الفهرست ٨٩ .   (٢) فتوح البلدان ٤٧١ – ٤٧٢ .
(٣) فصلت القول فى هذا فى كتاب (التيارات المذهبية بين العرب والفرس) .
(٤) قصة الحضارة الفارسية ٣٨ ول ديورانت .
(٥) قصة الحضارة الفارسية ٣٩ والدعوة إلى الإسلام ١٧٩ أرنولد
(٦) قصة الأدب الفارسى ٣٢ حامد عبد القادر .

من آلهتهم ، وأسموها (آنز) وجعلوها ابنا لإلههم الأعظم إله النور والضياء ، وكانوا يقدمون للشمس والنار وأهورا مزدا قرابين من الأزهار والخبز والفاكهة ومن الحيوان ، وأحيانًا من البشر[1] .

وأما المانوية : فقد ظهرت فى إيران سنة ٣٤٢ م فى زمن سابور بن أردشير ، إذ ادعى مانى النبوة ، وصدقه خلق كثير ، هم الذين سموا المانوية .

والمانوية قائمة على الزرادشتية وبعض تعاليم من المسيحية ، إذ أن مانى لم ينكر نبوة زرادشت وبوذا والمسيح .

وأهم تعاليمها أن العالم تسيطر عليه قوتان : النور منشأ الخير ، والظلام منشأ الشر . وقد فرض مانى على أتباعه عدة فروض ، منها التوانى فى العمل ، وتعلم السحر ، والامتناع عن الكذب والسرقة والزنا والقتل ، والكف عن ذبح الحيوان حماية له من الألم ، والامتناع عن الزواج ، وإيثار العزلة والرهبنة ، حتى يفنى العالم ، ويعود النور إلى موطنه الأصلى .

ومن الموازنة بين الزرادشتية والمانوية يتبين أن الأولى كانت تشجع على العمل والتعمير والتناسل ، وأن الثانية كانت تدعو إلى الكسل والخمول .

ولهذا قال هرمز بن سابور إن مانى جاء ليدعو الناس إلى تدمير العالم[2] .

ولهذا أطلق أتباع زرادشت كلمة ملاحدة أو زنادقة على أتباع مانى .

وأما مزدك : فقد ظهر فى أوائل القرن السادس فى عهد قباذ والد كسرى أنوشروان معاصر البعثة المحمدية ، ووافق زرادشت فى بعض ماجاء به ، وزاد ونقص ، ولكنه استحل المحارم والمنكرات ، وسوى بين الناس فى الأموال والأملاك والنساء ، والعبيد والإماء ؛ فكثر أتباعه من السفلة والطغام ، وصاروا عشرات الألوف ، فعظم شأنه ، وتبعه الملك قباذ ؛ فعظمت البلايا على الناس ، وصار الرجل

---

(١) قصة الحضارة الفارسية ٤٨ ول ديورانت .

(٢) قصة الأدب الفارسى ٥٤ والملل والنحل ١/٢٢٤ .

لا يعرف ولده ، والولد لا يعرف أباه . فلما مضت عشر سنين من ملك قباذ اجتمع موبذان موبذ والعظماء ، وخلعوا قباذ وولوا عليهم أخاه جامسب ، ثم أعيد قباذ بعد قتل كثير من المزدكية[1].

ويتحدث نظام الملك فى تفصيل عن المزدكية ، فيبين أن كبراء الدولة لما أقروا مزدك على شيوعية الأموال قال لهم : وكذلك الشأن فى نسائكم ، فهى كالأموال بينكم ، فمن يرغب فى امرأة فليجتمع بها ، فليس فى ديننا غيرة ولا حمية ، وبهذا لا تحيا النساء بغير نصيب من لذة الدنيا وشهواتها .

وإذاً فقد فتح مزدك أبواب الفساد لجميع الناس ، ورغبهم فى مذهبه ولا سيما العامة . ومن نظمه التى وضعها أنه لو دعا شخص عشرين رجلاً إلى منزله فعليه أن يمدهم بالطعام والطرب ، ويبيح لهم مجامعة نسائه ... ولكن أنوشروان ألب رجال الدين على مزدك وعلى أبيه ، وبيَّن لهم وخامة هذا العمل وسوء عقباه على الملك والدولة ، وأوعز إليهم أن ينصحوا أباه ، وأن يناظروا مزدك ، وأسرَّ إلى كبراء الدولة أن عقل أبيه قد اختل ، فاستمعوا إلى نصحه ، وقُتل مزدك وكثير من أتباعه[2].

وإذاً فقد حاول مزدك أن يفلسف مذهبه ، ويصبغه بصبغة فيها خير للمجتمع ، فادعى أنه ينهى عن التباغض والتقاتل ، وأن أكثر مابين الناس من شحناء وسفك دماء إنما سببه النساء والأموال « فأحل النساء ، وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كالماء والنار والكلأ »[3].

وأغلب الظن أن الدعوة إلى شيوع النساء فى فارس أقدم من مزدك هذا ،

---

(١) الكامل لابن الأثير ١ / ١٤٤ والأغانى ٨/٦١ ساسى والملل والنحل ١/٢٢٩.

(٢) سياسة نامة ٢٤٠ تأليف نظام الملك. ترجم هذه الفقرة صديق الدكتور محمد موسى هنداوى .

(٣) الملل والنحل للشهرستانى على هامش الفصل ٢ /٨٦ وصبح الأعشى ١٣ / ٢٩٧

لأن الطبرى يذكر أن مبتدع هذه الدعوة رجل منافق من أهل فسا ، يقال له زرادشت بن خركان ، وقد تابعه الناس على بدعته ، ثم دعا العامة إليها بعده رجل يقال له مزدق [١] ، وبهذا الرأى أخذ براون [٢] . ويعززه أيضاً أن ابن النديم ذكر أن اثنين دَعَوَا إلى هذا المذهب ، كل منهما اسمه مزدك ، أحدهما قديم ، والآخر ظهر فى أيام قباذ ، وقتله أنوشروان [٣] ، وفتك بأتباعه [٤] .

وأياما كان الأمر فقد قضى أنوشروان على مزدك وأتباعه بعد سنوات من ذيوع المذهب فى الناس ، ولكن الطائفة لم تنقرض ، بل بقى عدد منهم تعقبه أنوشروان بعد استوائه على العرش ٥٣١ م ، ومن المرجح أن بعضهم ظلوا متمسكين بدينهم خفية حتى جاء الإسلام ، فانتقلت بعض عقائدهم إلى بعض الفرق الهدامة التى ظهرت فى الدولة الإسلامية .

بعض مظاهر التأثير الفارسى فى العرب :

١ — عبد الفرس النار بعد زرادشت كما سبق ، وكانت بيوتها منبثة فى العراق مثل بيت النار الذى بنته بوران بنت كسرى ابرويز ، وغيره من بيوت كثيرة بناها المجوس هناك [٥] ، ناهيك بما كان فى فارس نفسها من بيوت النيران ، حتى لقد قال ابن حوقل عن كورة اصطخر: إن بيوت نيرانها كثيرة، والعلم بها من غير الديوان متعذر ، إذ ليس من بلد ولا رُسْتاق ولا ناحية إلا بها عدد كثير منها [٦]، وظلت معابدهم إلى ما بعد الفتح الإسلامى بثلاثة قرون فى العراق وفارس [٧]

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٩١ .

(٢) Litery History of Parsia Browne P. 170.

(٣) الفهرست ٣٤٢ .

(٤) التنبيه والإشراف للمسعودى ٨٩ والفهرست ٣٤٢ .

(٥) مروج الذهب ١/ ٢٦٨

(٦) المسالك والممالك لابن حوقل ١٨٩

(٧) مروج الذهب ٤/٨٦ والإصطخرى ١٠٠ و ١١٨ والمسالك والممالك ٨٩

وكان المجوس منبثين فى بقاع شتى من جزيرة العرب ، وقد دفعوا الجزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم مجوس نجران [١] ، ومجوس اليمن ، ومجوس هَجَر [٢] ، ومجوس عُمَان [٣] ، والبحرين [٤] . وكان بالقَطيف و بالزّارة مجوس امتنعوا من أداء الجزية للنبى ، وبالغابة ودَارين مجوس أيضاً [٥] ، وكان بتميم مجوس ، منهم زرارة بن عُدُس ، وابنه حاجب ، والأقرع بن حابس ، وأبو سُود جد وكيع بن حسان وغيرهم [٦] . وكان سلمان الفارسى مجوسيا أسلم [٧] .

وقد ظلت المجوسيه عقيدة لبعض العرب إلى عهد النبى ، بل إلى عهد عمر ، فقد ذكر له فى خلافته قوم يعبدون النار وليسوا يهوداً ولا نصارى ولا أهل كتاب ، فقال : ما أدرى ما أصنع بهؤلاء ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سنوا بهم سنة أهل الكتاب [٨] .

لذلك لا عجب أن تزوج كثير من العرب مجوسيات ، أفرد لهم أبو الحسن المدائنى كتاباً سماه (كتاب فيمن تزوج مجوسية) [٩] . ولم يكن هذا الزواج فى الإسلام ، لأن الإسلام لا يبيح زواج المجوسية ، إذ أن المجوس مصدقون بنبوة زرادشت مكذبون بسائر الأنبياء [١٠] .

وقد تجلى تقديسهم للنار فى مظاهر شتى ، فهم حلفوا بها ، إذ كانت نار باليمن ، لها سدنة ، وسموها الهُولة والمَهُولة ، وكان سادنها إذا أتى برجل هيبه الحلف بها بأن يطرح فيها الملح والكبريت لتستشيط وتنتفض ، فيهول بذلك على

---

(١) فتوح البلدان ٧٥ .

(٢) فتوح البلدان ٧٥ و ٧٨ والخراج لأبى يوسف ٧٤ .

(٣) فتوح البلدان ٨٤ (٤) فتوح البلدان ٨٦ (٥) فتوح البلدان ٩٢ و ٩٣

(٦) الأعلاق النفيسة ٧ / ٢١٧ والمعارف ٢٠٥ وطبقات الأمم ٤٣ والكامل لابن الأثير ١/٢١٣ .

(٧) أسد الغابة ٢/٣٢٩ .

(٨) الخراج لأبى يوسف ٧٤ والرسالة للشافعى ٤٣٠ .

(٩) الفهرست ١٠٢ (١٠) الفصل ١/١١٣ .

الحالف لينكل إذا كان مذنباً ، ويجرؤ على الحلف إذا كان بريئاً [١] ، يقول أوس بن حجر :

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه ... كما صدّ عن نار المُهَوِّل حالف [٢]

وذكرها غيره من الشعراء كالأعشى [٣] أُفنون التغلبى [٤] ، ثم ذكرها الكميت فى العصر الإسلامى [٥] .

وكان العرب يتحالفون على النار ، وربما يدنون منها حتى تكاد تحرقهم [٦] . ثم إنهم استمطروا بها أيضاً [٧] ، وفى شعر أمية بن أبى الصلت تسجيل لهذا الاستمطار [٨] .

وقد روى أن بشار بن برد كان يدين بهذا المذهب ، لذلك فضل النار على التراب ، وإبليس على آدم فى قوله :

الأرض سافلة سوداء مظلمة ... والنار معبودة مذ كانت النار [٩]

وقوله :

إبليس أفضل من أبيكم آدم ... فتبصروا يا معشر الفجار

النار عنصره وآدم طينة ... والطين لا يسمو سمو النار

وقد رد عليه صفوان الأنصارى بقصيدة طويلة مطلعها :

زعمت بأن النار أكرم عنصراً ... وفى الأرض تحيا بالحجارة والزَّند [١٠]

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/٩٦ وأبيات المعانى لأبى هلال العسكرى وأساس البلاغة والقاموس المحيط مادة هول وأيمان العرب للنجيرى ٣١ والحيوان .

(٢) ديوان أوس بن حجر ١٦ والبيان والتبيين ٣/٦ وأساس البلاغة مادة هول .

(٣) الأغانى ٢٠ / ١٣٩ (٤) المفضليات ٢/٦٢ .

(٥) البيان والتبيين ٣/٦ وأساس البلاغة مادة هول .

(٦) أيمان العرب للنجيرى ٤/٤٧ الكاتب ٣١ مخطوط

(٧) الحيوان للجاحظ ٤/١٥٠ ساسى

(٨) ديوان أمية ٤٥ والحيوان للجاحظ ٤/١٥٠ .

(٩) الأغانى ٣/٢٠ ساسى والبيان والتبيين ١/١٦ بتحقيق هارون .

(١٠) البيان والتبيين ١/٢٧ ـ ٣٥ تحقيق هارون .

٢ — وعبد وبعض العرب الشمس أيضاً يسجدون لها إذا أشرقت ، وإذا توسطت السماء ، وإذا غربت . ومن عبادها ثمود ، و « كانت تميم أدنى من غيرها ثقافة فألهوا الشمس بخاصة [1] » . وعبدها عرب من حمير قبل أن يتهودوا منهم ملكة سبأ ، يقول تعالى على لسان الهدهد لسليمان . « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله [2] » .

وعبد بعض اليمانيين ودا إله القمر ، وعبدته بعض قبائل من كنانة ، وعبدت تميم الدَّبَران ، وعبدت لخم وجذام المشترى ، وعبدت طيىء سُهَيْلا ، وعبدت قيس الشعرى العَبُور ، وعبدت أسد عطارد [3] . وعبادة الكواكب والنجوم وثيقة الصلة بعبادة الشمس .

ومن عبدة الكواكب صابئة حران ، لذلك برعوا فى الفلك والسحر ، وظلوا على دينهم إلى سنة ٨٣٠ م إذ سألهم المأمون عن دينهم فأجابوا بما لا مقنع فيه ، فهددهم بالقتل إن عاد من رحلته فلم يجدهم على دين سماوى ، فقبلوا نصيحة بعض فقهاء المسلمين ، وأعلنوا أنهم من الصابئة ، وتحت ستار هذا الاسم استمتعوا بحقوق أهل الكتاب ، وإن ظلوا على عقائدهم القديمة [4] .

وكان فى العرب صابئة آخرون ، قال تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون [5] » .

وقال : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون [6] » . وقال :

---

(١) العرب والإمبراطورية العربية . بروكمان ٢٧ .

(٢) سورة النمل ٢٤ (٣) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ٤٣ .

(٤) Encyclopaedia Britannica (Art Sabians) والفهرست ٣٢٠

(٥) البقرة ٦٢ .

(٦) المائدة ٦٩

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد [(١)] » .

وهم فى بعض الأقوال يعبدون الملائكة [(٢)] ، أو يعبدون الكواكب [(٣)] ، أو هم لايعبدون الكواكب ولكن يعظمونها ، كما يعظم المسلمون الكعبة بالتوجه إليها [(٤)] . وفى الصابئة أقوال أخرى [(٥)] .

وقد كان بعض العرب يعبدون الملائكة ، قال تعالى : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون» [(٦)] .

وهم الذين قال الله فيهم : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون [(٧)] » . وقال : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله

---

(١) الحج ١٧ .

(٢) تفسير الطبرى ١٧/٩٧

(٣) هذا رأى الصاحبين أبى يوسف ومحمد . عيون المسائل ٥٠

(٤) هذا رأى أبى حنيفة . عيون المسائل ٥٠

(٥) يكذبون بنبوة إبراهيم ومن بعده ويصدقون بنبوة إدريس وغيره (الفصل ١/١٠٢) وليس لهم كتاب وإنما لهم حدود وأحكام (الملل ١/٤٤) . وقد يجعلون من النصارى وقد يجعلون من غيرهم (تفسير النيسابورى ١٧/٩٧) أو هم يدينون بكتاب ينسبونه إلى شيث. **Original Sources of Qoran. Adolphe Lods P. 52. and Browne P. 145**

وتعرف شريعة شيث عندهم بالملة الحقيقية (قصص الأنبياء ٤٢) وكان شيث قبل إدريس ونوح (قصص الأنبياء ٣٨ و ٤٥) . وكانت له دراية بالفلك والنجوم (قصص الأنبياء ٤٠ و ٤٣) أو هم على دين نوح (القاموس مادة صبأ) أو دينهم يشبه دين النصارى ويزعمون أنهم على دين نوح وهم كاذبون (التهذيب للأزهرى وهامش القاموس مادة صبأ) . وقد اعتبرهم المسلمون من أهل الذمة يدفعون الجزية كغيرهم من الكتابيين (الخراج لأبى يوسف ٦٩) والذى هو المتمسك بكتاب كاليهود والنصارى . أما من زعم أن له كتابا كصحف إبراهيم وزبور داود ففيه خلاف ، والأصح عقد الذمة له ، وكذلك الصابئة إن وافقت أصولهم أصول النصارى . ولكن لا يعقد لزنديق ولا عابد وثن ولا لعابد الملائكة والكواكب (صبح الأعشى ١٣/٣٦١) .

(٦) سبأ ٤٠ و ٤١

(٧) النحل ٥٧

الأنثى ؟[١] » وقال : « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا . إنكم لتقولون قولا عظيما [٢] » ومن هؤلاء قريش كانوا يدعون أن الملائكة بنات الله ويعبدونها [٣] ، وآخرون من العرب زعموا أن الملائكة والأوثان بنات الله[٤] .

ومن مظاهر عبادة العرب للكواكب والنجوم اعتقادهم في الأنواء ، ونسبتهم المطر والرياح وكثيراً من الأحداث إليها ، كما سأبين في (ثقافة المرأة) . وكذلك تسميتهم الشمس إلهة ، قال عتبة بن الحارث اليربوعي :

تروّحنا من اللّعباء عصرا   وأَعْجَلْنا الإلهة أن تئوبا [٥]

وكان الغلام إذا سقطت سنه قذفها إلى الشمس قائلا : أبدليني بها سناً أحسن منها ، ولتَجْر في ظلمها إياتُك . وزعموا أنه إذا فعل ذلك أمن على أسنانه العوج . وإلى هذا يشير طرفة بقوله :

سقته إياةُ الشمس إلا لثاته   أُسِفّ ـ ولم تكدم عليه ـ بإثمد[٦]

وقال أيضاً :

بدّلَتْه الشمس من منبته   بَرَدًا أبيض مصقول الأُشُر [٧]

٣ — واعتنق بعض العرب المزدكية ، اعتنقها ملك كندة الحارث بن عمرو ابن حُجْر ، وكان معاصراً لقباذ بن فيروز نصير المزدكية ، وكان المنذر بن ماء السماء في عهد قباذ عاملا له على الحيرة ونواحيها ، فدعاه قباذ إلى الدخول معه في

---

(١) النجم ٢٢ .

(٢) الإسراء ٤٠   (٣) تفسير الطبرى ٦٨/٢٣ .

(٤) تفسير الطبرى . سورة النحل ٥٧ .

(٥) لسان العرب مادة أوب . اللعباء : اسم مكان . تروحنا : رجعنا . أعجلنا : سبقنا. تئوب : تغرب .

(٦) ديوان طرفة ٢٥ إياة الشمس : شعاعها . لم تكدم عليه : لم تعض بأسنانها عضا يذهب تحزيز أسنانها . أسف عليه بإثمد : ذر على لثته إثمد وهو حجر للكحل .

(٧) ديوان طرفة ٦٥ الأشر : تحزيز الأسنان .

المزدكية فأبى ، فدعا الحارث فأجابه ، فولاه الحيرة مكانه . ثم لما تولى أنوشروان أعاد المنذر وأبعد الحارث (١) .

المرأة الفارسية

لم تسمُ المرأة الفارسية إلى مكانة علية ، و بحسبنا من الدلالة على أنها كانت فى نظر الرجال مستمتعاً رواجُ الدعوة المزدكية ، وهشاشة العامة لها ، ورضا بعض الخاصة بها ، حتى لقد ناصرها الملك قباذ عشر سنوات .

ثم إنه كان للفارسى أن يتصرف فى المرأة كما يتصرف فى سلعة ، بل لقد كان له أن يحكم عليها بالموت (٢) .

ولم تتعلم النساء شيئاً سوى تدبير منازلهن (٣) .

ولا يناقض هذه المكانة أن مَلَّكَ الفرس عليهم سنة ٦٣٠ م بوران بنت كسرى أبرويز فلبست التاج ، ووعدت الحاضرين أن تسير فيهم بأحسن سيرة ، فنثروا عليها الجواهر ، وأظهروا البشائر ، ودام ملكها نحو سنة وأربعة أشهر حتى ماتت . ثم ملكوا بعدها آزرم دخت بنت كسرى نفسه ، فلبست التاج ، ووعدت أن تعدل كما وعدت أختها ، ولكن ملكها لم يمكث إلا نحو أربعة أشهر ، وماتت أو سُمت (٤) .

وكان قدماء الفرس يبيحون للرجل أن يتزوج بينته ، و بأخته الشقيقة ، أو غير الشقيقة (٥) و يبيحون الأمهات ، والجمع بين الأختين (٦) ، فيتزوج الأب

---

(١) الأغانى ٨/٦١ وتارخ اليعقوبى ١/٢٩٩ و
Original Sources of the Quran P.P 212 - 215

(٢) تحرير المرأة قاسم أمين ٢٣ (٣) تاريخ التربية ١/١١٦ القطان .

(٤) الشاهنامه للفردوسى ٢/٢٦١ ـ ٢٦٢ ترجمة عزام وتاريخ الطبرى ٢/١٦٨ والتنبيه والإشراف للمسعودى ٩٠ مع اختلاف يسير فى مدة الحكم .

(٥) الأسرة والمجتمع ٤٧ (٦) صبح الأعشى ١٣/٢٩٥ .

ابنته ، والابن أمه ، والأخ أخته ، لأن الزرادشتية تبيح ذلك [١] .

وإذا كان الإيرانيون وبخاصة ال (كبر) قد ادعوا فى القرون الوسطى أن العقائد المجوسية لم تحل المحارم ، فإنهم يخالفون الحقيقة الواقعة [٢] .

على أن تعدد الزوجات كان مباحاً أقرته شريعة زرادشت ، كما أباحت التسرى ، واتخاذ الحظايا والخليلات [٣] .

وكان الحجاب شديداً على نساء الطبقة الراقية ، حتى لقد كن لا يخرجن إلا فى هوادج مرخاة عليها السدول ، وكان محظوراً عليهن أن يخالطن الرجال فى مجتمع عام أو خاص ، بل لقد حيل بين المتزوجات ورؤية آبائهن أو إخوتهن . أما الفقيرات فكن حرات فى التنقل ؛ لاضطرارهن إلى الكد والعمل . وكانت الخليلات والحظايا يتمتعن بقسط عظيم من الحرية ؛ لأن المفروض فيهن أنهن يرفهن عن سادتهن وعن ضيوفهم [٤] .

وكان الفرس يتشوقون إلى ولادة الذكور ، ويغالون فى تقديرهم ، ويعدونهم ثروة اقتصادية لآبائهم ، وعدة حربية لملوكهم .

أما البنات فكانت ولادتهن تجلب اللوعة والحسرة ، لأن الغرض من تربيتهن إعدادهن لمنزل رجل آخر يجنى فائدتهن . ومما قاله الفرس إن الرجال لا يبتهلون إلى الله مطلقا من أجل البنات ، وكذلك الملائكة لا تعتبر البنات بركة يجوز منحها للبشر [٥] .

---

(١) قصة الحضارة الفارسية ٥٩ ول ديورانت وتاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢ بارتولد
(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢
(٣) قصة الحضارة الفارسية ٥٨
(٤) قصة الحضارة الفارسية ٦٠
(٥) قصة الحضارة الفارسية ٦١

صِلة العرب بالرُّومان

١ — إذا كانت صلة العرب بالفرس قد نجمت قبل أن تؤسس إمارة الحيرة ببضعة قرون ، فإن علاقة العرب باليونان والرومان قد نبتت قبل أن تنشأ إمارة غسان ببضعة قرون أيضاً .

فقد عزم الإسكندرعلى فتح بلاد العرب ، لأن الإغريق كانوا يعتقدون أنها غنية ، ثم كانت الغزوة التى قام بها نيارك حول بلاد العرب نذيراً بإزماع الإسكندر على غزو بلاد العرب نفسها ، ولكن موته وقاها هذا الغزو .

وحوالى ٢٤ ق . م أرسل الإمبراطور أغسطس قيصر حملة خرجت من مصر بقيادة والى مصر إيلوس جالوس **Aeilus Gallus** لتستولى على طرق التجارة التى يحتكرها الحميريون ، ولتستغل موارد الثروة فى اليمن لصالح روما ، وتوغلت الحملة حتى نجران ، ثم باءت بالخيبة ، وكان يرافقها المؤرخ سترابون[١] ، وقد استعان فيها جالوس بالأنباط[٢] .

ثم كانت دولة الأنباط مسلكا للاتصال بين العرب والرومان ، وقد قامت هذه الدولة قبل القرن الرابع قبل الميلاد ، ودامت مستقلة إلى أن دخلت فى حوزة الرومان سنة ١٠٦ م ، وكان اليونان يسمونها العربية الحجرية **Arabia Petra** نسبة إلى عاصمتها بطرا (الحِجْر[٣]) وكانت مملكته الأنباط ، ولاسيما عاصمتها مركزاً تجاريا بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب .

٢ — ولما سقطت بطرا فى قبضة الرومان انتعشت إمارة أخرى هى تَدْمُر ، وطمع فيها الرومان كما طمعوا فى بطرا ، وحاولوا فتحها فى منتصف القرن الأول

---

(١) تاريخ العرب ١/٥٨ فيليب حتى (٢) العرب قبل الإسلام زيدان ٦٨ ــ ٧٦

(٣) العرب قبل الإسلام ٦٨ .

قبل الميلاد بقيادة ماركس أنطونيوس ، ولكنهم لم يفلحوا .

و بلغ بعض ملوكها من القوة إلى حد أن ساعدوا الروم فى حربهم للفرس، مساعدة تكفل النصر للروم ، بل لقد انتصر أُذَيْنَة (٢٦٥ م) على ملك الفرس سابور الأول ، فثأر لهزيمة الإمبراطور فاليريانوس ، فكافأ الإمبراطور أذينة بأن جعله إمبراطور الشرق ، وأشركه معه فى لبس رداء الملك الأرجوانى .

ولكن هذا الصفاء بين الرومان ومملكة تدمر لم يدم طويلا ، فقد تنكر الرومان لتدمر ، وقاتلوا الزباء زوجة أذينة ، فانتصرت عليهم انتصاراً مبيناً ، ثم عاودوا حربها وهزموها سنة ٢٧٢م ، و بعد موتها أخذت المسيحية تنتشر بتدمر ، وعاش بها بعض الأساقفة ، وشيد بها جستنيان كنيسة . واستمرت تدمر خاضعة للرومان زهاء ثلاثة قرون إلى أن أخذها العرب[١] .

والأنباط والتدمريون جميعاً عرب ؛ لأن مؤرخى اليونان المعاصرين لهم ذكروا أنهم عرب ، ولأن أسماء ملوكهم عربية كالحارث وعبادة ورئبال وأذينة ووائل وعدى وعميرة ، ولأنهم كانوا يتكلمون العربية .

ولا ينافى هذا أن آثارهم التى كشف عنها مكتوبة باللغة الآرامية ، فقد كانت لغة الكتابة فى ذلك العهد ، وكان هذا شأن الدول القديمة بالشرق ، وخاصة فيما يتصل بالآثار السياسية والدينية[٢] . و يصح لنا أن نقول إن اللغة الآرامية كانت لغة دولية[٣] ، وفى التوراة مايؤيد أن الإسرائيليين كانوا يتكلمون بها لما حاصر سنخاريب بيت المقدس[٤] وليس هذا بقادح فى نسب الإسرائيليين . وكذلك كان عرب الحيرة يتكلمون العربية ، و يستعملون السريانية غالبا فى كتابتهم[٥] ، وعرب

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣/١٤ و ٥/١٣ وتاريخ العرب ١/١٠٠ فيليب حتى

(٢) تاريخ الأدب السريانى ٨ مراد كامل والبكرى والعرب قبل الإسلام ٧٨ و ٨٩

(٣) تاريخ الأدب السريانى ٥ و ٩ .

(٤) سفر الملوك الثانى ١٨ : ٢٦ وسفر أشعيا ٣٦ : ١١ .

(٥) عصر ما قبل الإسلام ١٣٥

غسان يستعملون الآرامية لغة ثانية لهم [١] ، وهذه الحال تشبه حالنا الآن ، فنحن نصطنع العامية فى حديثنا والفصحى فى كتابتنا ، بل لقد يصطنع بعضنا لغة أجنبية فيما يكتب ، وفى الشئون الدولية بخاصة .

٣ — ثم أسست مملكة غسان ، وكانت صلتها بالرومان وثيقة ، وهى مشهورة شهرة تخولنى أن أكتفى هنا بالإشارة إليها .

على أن قبائل عربية كانت تخضع للروم وتتصل بهم ، فمثلا كانت قبيلة إياد تنزل بقرًى من أرض الروم ، وكان بعضها يسكن حمص وأطراف الشام [٢] ، ثم دانت لغسان وتنصرت [٣] .

وكان نفوذ الرومان قد تسرب إلى قلب الجزيرة ، نتيجة للاتصال التجارى الدائم بين العرب والشام والرومان ، حتى إن أوليرى يرجح أنه كان بمكة قناصل رومانيون يرعون مصالح قومهم التجارية [٤] . وقد قدم عثمان ابن الحويرث على قيصر ، ورغبة قيصر فى أن يحض قريشاً على الإقبال بتجارتهم إلى الشام ، وقيل إنه ولاه أمر مكة ، لكن قومه انقضوا عليه بعد أن بايعوه [٥] .

ثم إن الدنانير الهرقلية كانت ترد على أهل مكة فى الجاهلية [٦] ، وقد شبهت امرأة عربية طلحة بأنه دينار هرقلى [٧] .

و بعض العرب تزوجوا روميات ، فمثلا أبو الروم بن عُمَيْر بن هاشم بن عبد مناف أمه أَمَةٌ رومية [٨] . ونجد فى الجزيرة أشخاصاً من الروم ، وأسماء رومية ،

---

(١) المرجع السابق ١٤٢ . (٢) معجم ما استعجم ١/٧١

(٣) معجم ما استعجم ١/٧٥ .

(٤) Arabia Before Muhammed. O'leary. P. 184

(٥) الروض الأنف ١/١٤٦ والمنتقى من أخبار أم القرى ١٤٣ .

(٦) فتوح البلدان ٤٧١ — ٤٧٢

(٧) الحيوان ٤/٢٥٢ وعيون الأخبار ٤/٢٥

(٨) أسد الغابة ٥/١٩٤

مثل زِنِّيرة الرومية التى أعتقها أبو بكر [١] . والأزرق غلام الحارث بن كلدة [٢]، وأبى الروم ، وأبى رومى [٣] .

أثر الرومان في العرب :

كان العرب المتصلون بالرومان على قسط عظيم من الحضارة ؛ لأنهم يقبسون من حضارة الروم ، فمثلا يصف حسان بن ثابت مجلساً من مجالس الغناء عند جبلة بن الأيهم وصفاً يدل على ترف وتحضر ، ويقول إنه سمع عشر قيان يغنين ، منهن خمس روميات يغنين بالبرابط [٤] .

على أن الرومان كانوا من بواعث نشر المسيحية فى بلاد العرب كما سبق ، وقد أعانهم الغساسنة فى نشرها وحمايتها ، حتى لقد كان الحارث بن أبى شِمْر حاميا للكنيسة فى الشرق ، والرومان هم السبب فى نشر المسيحية فى اليمن منذ بعثة تيوفيلوس ٣٥٦ م كما سبق .

المرأة الرومانية واليونانية

١ — كانت المرأة فى نظر الرومان القدماء شراً يجتنب ، وإن كانت مخلوقة للمتعة ، وهى دائماً خاضعة للرجل أباً أو زوجاً ، « وكان زوجها يملك مالها ، ويقيم عليها وصيا قبل موته [٥] »

فهى فى نظره ونظر المجتمع أمة لاقيمة لها ، بيد أبيها أو زوجها حق حياتها وحق موتها ، وإذ كانت ملك أبيها فى شبابها ، فإنه هو الذى يختار لها زوجها ، فإذا ما تزوجت ملكها ، ويقول الفقهاء إنها فى يمينه مثل ابنته [٦] . وعلى كثرة المشرعين فى روما فإنهم لم يحفلوا بالمرأة ، ولم يعترفوا لها بحق ، وإنما عينوا ما عليها من واجب . فهى فى نظرهم أمة شرعية يتصرف فيها رب الأسرة كما يتصرف

(١) أسد الغابة ٥/٤٦٢ .
(٢) أسد الغابة ٥/٤٨١
(٣) أسد الغابة ٤/٤٢٧ .
(٤) الأغانى ١٦/١٤ .
(٥) المرأة فى العصور ٢٥
(٦) حضارة العرب ٤٩٤ .

في عبيده وقطعانه [(١)].

على أنها في بعض الأحوال عمود النسب ، فإذا تزوج رومانى امرأة أجنبية ، ولم يكن بينهما حق المصاهرة لحَق الولد بأمه ، وكان غريبا ، وإذا تزوج لاتيني امرأة رومانية لحق الولد بأمه أيضاً[(٢)] .

وإلى هذا النظام يشير أبو العلاء إشارة سافرة في قوله :

ولُحبٍّ الصحيح آثرت الرو م انتساب الفتى إلى أمهاته
جهلوا من أبوه إلا ظنونا وطَلا الوحش لاحقٌ بمهاته[(٣)]

ولكن المرأة تنفست في عصر روما الذهبي ، وتحررت وسادت ، وأمسى الرجال أسارى النساء ، كأنما تواضع الرجال والنساء على تبادل ما كان ، وهال نفوذ النساء كاتو أحد عظماء روما السياسيين (٢٣٤ — ٣١٥ م) ، وهاله أن عم الرخاء ، و بالغت النساء في زينتهن ، وتدخلت الماجنات في سياسة الدولة ، وتسلطن على الأباطرة حتى أضعف سلطانهن روما نفسها ، عندئذ حاول كاتو أن يؤيد القانون الذى يحرم النساء الثروة ، فعجز ، وازداد التحسن في مركز النساء، وتقدير الرجال لهن ، حتى إنه بعد الإمبراطور ديوكلتين (٢٨٤ — ٣٠٥ م) لم يبق أثر من سلطة الآباء والأزواج الشديدة ، وما زال الحال كذلك إلى أن كاد المشرعون في عصر جوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) يساوون النساء بالرجال في الحقوق[(٤)] .

وسواء نظرنا إلى العصر الذهبي أو إلى ما قبله، فإنا نجد المرأة لم تعامل معاملة الرجل، ولم تنافسه في مرتزقه ، فلم ترب البنت كما يربى الولد ، بل وجهت إلى فنون المنزل ، وأعدت للحياة الزوجية ، واتخذت من أمها معلمة لها ، وكانت تجيد الغزْل

---

(١) تاريخ الحضارة . شارل سنيوبوس ١٩٩ .
(٢) أساس العدالة في القانون الرومانى ٣٦ .
(٣) اللزوميات ٢/٩٦ .
(٤) المرأة في التاريخ والشرائع ٨٥ والمرأة في العصور ٣٠ .

والنسيج والخياطة[١] وشئون المنزل ، وكان من تشريفها أن تدعى أم الأسرة كما يدعى الرجل أبا الأسرة ، ومن تشريفها أن تكون زاهدة ، « فإذا ماتت كتبوا على قبرها مادحين : إنها التزمت بيتها ، ولم تبرحه ، وغزلت الصوف[٢] » .

كذلك كانت المرأة فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية ربة البيت ، ولها نفوذ فى مجال عملها المنزلى ، ونفوذ على أطفالها[٣] .

وكان الطلاق مألوفاً عند الرومان ، وقد كثر فى عهد الجمهورية الأخيرة[٤] .

وقد اعترف الرومان بأنه نظام مرعى منذ العصور الأولى فى تاريخهم ، فإن قوانين الاثنتى عشرة مائدة سوغته وأقرته ، ولكن ليس للزوجة حق فى أن تطلبه ، فإذا حاولت الفراق عرضها عملها للعقاب الصارم[٥] .

ولولا أن المسيحية أطفأت من شرّته لظل سيفاً مصلتاً على العلاقة الزوجية إلى عصر متأخر[٦] .

٢ — أما المرأة الإغريقية فلم تكن أسعد حالا ، ولا أرفع مكانة ، لأن الإغريق عامة عدُّوا النساء من المخلوقات المنحطة ، وليست المرأة عندهم إلا بطنا يدفع النسل ، وإلا حفيظة على شئون المنزل ، وإذا وضعت المرأة ولداً دميما قضوا عليها . قال مسيو تروبلونغ : « إن المرأة السيئة الحظ كانت تضع ولداً غير قوى صالح للجندية ، فتقتل » . وقال : « كانت المرأة الولود تؤخذ من زوجها عارية لتلد للوطن أولاداً من رجل آخر » . ولم ينل إبان ازدهار الحضارة اليونانية الحظوة من نساء الإغريق سوى بنات الهوى اللائى كن وحدهن لا يتحرجن[٧] .

---

(١) تطور النظرية التربوية ١١٨ (٢) تاريخ الحضارة ١٩٩ .
(٣) الإمبراطورية البيزنطية ٣٣ تأليف نورمان بينز وترجمة مؤنس وزيدان .
(٤) الإسلام والحضارة العربية ١/٨٠ .
(٥) مركز المرأة فى الإسلام للسيد أمير على الهندى ٧٣ .
(٦) الإسلام والحضارة العربية ١/٨٠ .
(٧) حضارة العرب ٤٩٢ جستاف لوبون .

وهى كأختها الرومانية مسودة دائماً ، فإن كانت فتاة سيطر عليها أبوها ، وإن كانت زوجة سيطر عليها زوجها ، وإن كانت أرملة سيطر عليها أهلها[١] .

وقد سفرت فى إسبرطة وأثينا ، لكن هذا السفور ليس دليلا على علو مكانتها ، لأن وظيفتها ولا سيما فى إسبرطة كانت أن تحمل وتلد للدولة ، فالزنا غير محظور ، والحجاب عبث .

وانحطت منزلة المرأة فى أثينا حتى عدت من سقط المتاع ، فكانت النساء يبعن ويشترين فى السوق ، ومنزلتهن فى الدرك الأسفل ، كأنهن رجس من عمل الشيطان . وكان مصرحا للأثينى أن يتزوج بأى عدد يشاء . وقد فاخرديموستين بأن فى عصمته ثلاث طبقات من النساء ، اثنتين منها زوجات شرعيات وشبيهات بالشرعيات[٢] » .

ومن عجب أن فلاسفة اليونان لم يَسْمُوا بمركز المرأة ، فإن سقراط لم يجد حرجاً عليها فى أن يقرضها زوجها أصدقاءه . ولم تكن فى رأى أفلاطون أسعد حالا ، لأنه قسا عليها كما قسا قانون مانو الهندى القديم ، وأكد فى جمهوريته الواجب تداول النساء كما تتداول الحاجات[٣] . ثم لم يحاول أرسطو أن يبدل هذه النظرة ، فقد قرر أن الخير قد يوجد فى أشخاص من كل نوع ، حتى فى المرأة والعبد مع أن المرأة أميل إلى الشر منها إلى الخير[٤] .

واصطبغت هذه النظرة للمرأة بصبغة القانون ، لأن قوانين ليكورغ مشرع إسبرطة — قبل تسعة قرون قبل الميلاد — جوزت الشيوع فى النساء ، وأباحت

---

(١) La grande Encyclopedia. Tome 14. P. 143-170

(٢) مركز المرأة فى الإسلام للسيد أمير على الهندى ٣٦ .

(٣) جمهورية أفلاطون ١٢٣ و ١٣١ ـ ١٣٥ ومقدمة الحضارات الأولى ٣٩ جستاف لوبون .

(٤) الشعر لأرسطو ٦١ ترجمة إحسان عباس .

للزوجة أن يستمع بها غير زوجها بإذن منه ، وخولته أن يدفعها للاستبضاع من آخر على أن يكون الولد للزوج[١] .

وليس من مجافاة الحق أن نقرر أن المدنية اليونانية كانت تزدهر والمرأة اليونانية تافهة القدر ، ومتعة للرجل ومسلاة ، وقائمة بخدمة الدار ، وقد تبينت تفاهتهن فى ضيق آفاقهن ، وضحولة معلوماتهن ، وطاعتهن العمياء للرجال[٢] .

ومن الطبيعى أن تستتبع هذه المكانة إجحافا بالحقوق المالية للمرأة ، فهى لا تملك ، ولا ترث[٣] ، فإذا مات أبوها ورثه إخوتها وحدهم ، وإن لم يكن لها إخوة تزوجها الأكبر من ورثة أبيها الأقربين ، وينسب ابنهما إلى جده والد أبيه ، وإليه ينتقل إرث جده[٤] .

وكان الطلاق شائعاً عند الأثينيين بغير قيد أو شرط[٥] .

على أن الأولاد كانوا فى التاريخ القديم للإغريق — المنتهى سنة ٤٧٦ م — ينسبون أحياناً إلى أمهاتهم ، وفى إلياذة هو ميروس أثارة من هذا[٦] .

وهنا يتشابه الإغريق والإسرائيليون فى تقدير الأمومة أكثر من الأبوة ، لأن الإغريق أيضاً كانوا يبيحون للرجل أن يتزوج أخته لأبيه ، ولا يبيحون له أن يتزوج أخته لأمه[٧] .

---

(١) المرأة فى التاريخ والشرائع ٧٢ والأمومة عند العرب ٢٦ .

(٢) تاريخ العالم مجلد ١ عدد ٧ ص ٣٨٩ Mrs Ray Strackey

(٣) حضارة العرب ٤٩٤ جستاف لوبون (٤) المرأة فى التاريخ والشرائع ٧٤

(٥) مركز المرأة فى الإسلام للسيد أمير على الهندى ٧٣ .

(٦) المرأة فى التاريخ والشرائع ٧٢ ومقدمة الحضارات الأولى ٣٥ .

(٧) الأسرة والمجتمع ٤٧ .

صلة العرب بمصر

كلما أوغلنا فى الماضى لنميط الحجب عن تاريخ العرب فى جاهليتهم شعت أمامنا أنوار تكشف عن مجهول ، أو تضيف جديداً إلى مانعلم. فلقد كان يبدر إلى الخاطر أول وهلة أنه لاعجب فى أن يتصل العرب بالعبرانيين والنصارى ، لأنهم مختلطون أحياناً، ومتجاورون أحيانا ، وأنه لا عجب أيضا فى أن يتصلوا بالفرس ، لأنهم تجاوروا وتغاوروا قبل أن تؤسس إمارة الحيرة ، و بعد أن أسست ، ثم لا غرابة فى أن اتصلوا بالرومان ، لأنهم تصاقبوا وتحاربوا وتحالفوا منذ كانت دولة الأنباط وتدمر ، ثم منذ نشأت إمارة غسان .

ولكن العجب فى أن يتصلوا بمصر منذ زمن موغل فى القدم ، « ففى الدور الْبِنْطِى باليمن الذى انتهى حوالى ٣٠٠٠ ق . م كانت رحلات تجارية مصرية أيام الأسرة الخامسة تقوم من مصر إلى الجنوب ، منها رحلة الملك ساحورع من ملوك القرن السادس قبل الميلاد إلى بلاد بنط ـ وكان يظن أنها الصومال الحديثة فحسب ، ولكن ثبت أخيراً أنها الأرض التى على جانبى باب المندب بشقيه الإفريقى والأسيوى ، وأيدت هذا الرأى البحوث التى قامت بها كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م ، و بحوث الأستاذين رانجنر وفون وسمز ـ ثم رحلة الملكة حتشبسوت حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م ، وهى مدونة على جدران المعبد الكبير الذى أنشأته فى الدير البحرى[١] » .

وتعددت حملات المصريين على بلاد العرب الجنوبية للحصول على اللبان والعطور وغيرهما[٢] .

---

(١) تاريخ العرب ١ / ٤١ فيليب حتى وعصر ما قبل الإسلام ٦٣ ـ ٦٥ مبروك نافع .

(٢) تاريخ العرب ١ / ٤١ ـ ٤٣ فيليب حتى .

وقد عرف العرب مصر زمن قديم ، وكانوا يفدون على الجزء الشمالى الشرقى من مصر ، وقد سماهم المصريون شاسو ، أى البدو ، وكانوا يتنقلون فى بادية مصر الشرقية بين النيل والبحر الأحمر ، كما يتنقل بدو العصر الحاضر .

وكان لهم فى سيناء وما يليها سيادة وحكومة من أقدم أزمنة التاريخ .

وكثيراً ما جاس العرب فى شرقى وادى النيل ، وكثيراً ما سطوا على مدن مصر وسلبوا السابلة من عهد مينا ، وكثيراً ما استعان بهم الفراعنة فى حروبهم ، لما كانوا يعلمون من شدة بأسهم .

ثم سنحت لهم فرصة وثبوا فيها على مصر وامتلكوها ، وعرفت دولتهم بدولة البدو ، واليونان يسمونهم هكسوس ، والعرب يسمونهم العمالقة أو العرب البائدة[1] .

والمؤرخون مختلفون فى زمن امتلاكهم مصر ، ولكن إخراجهم منها يكاد يكون حوالى ١٥٨٠ ق . م على يد أحمس الأول ، وبذلك حكموا مصر نحو قرن ونصف قرن[2] . وقيل إنهم قدموا إلى مصر فى أوائل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، وما زالوا بها إلى أوائل القرن الثامن عشر[3] ، وبذلك قضوا فى مصر نحو خمسة قرون .

ولقد يقرب مسافة الخلاف أن الهكسوس لم يغزوا مصر دفعة واحدة بين عشية وضحاها ، بل كان غزوهم تدريجيا ، واكتسب قوته بمرور الزمن ، كالشجرة التى تضرب بجذورها فى أرض خصبة فتزداد نمواً على مر الأيام ، وذلك أنهم وفدوا على مصر جماعات صغيرة متفرقة ، ثم صار لهذه الجماعات سلطان عظيم ، حتى حكموا مصر حوالى سنة ١٧٣٠ ق.م. ولما طردهم أحمس الأول لم يَزُل نفوذهم الثقافى

---

(١) العرب قبل الإسلام ٥٢ ــ ٥٦ جرجى زيدان .
(٢) مصر القديمة ، سليم حسن الجزء الرابع .
(٣) العرب قبل الإسلام ٥٢ .

من مصر ، بل استمرت ثقافتهم تطبع الحياة المصرية بطابعها الخاص إلى مدة من عهد الأسرة الثامنة عشرة .

وهم الذين جلبوا الخيل والعربات إلى مصر ، ولا شك أنهم كانوا على جانب عظيم من المدنية[١] .

والراجح أنهم عرب كما قرر ذلك يوسيفوس المؤرخ الإسرائيلي المتوفى فى أواخر القرن الأول للميلاد ، نقلا عن ما نيثون المؤرخ الإسكندرى المتوفى فى أواسط القرن الثالث قبل الميلاد[٢] .

ودليل آخر أن العرب يسمونهم فى كتبهم عمالقة مصر[٣] .

ثم إن لفظ هكسوس أصله هيك شاسو ، وكان يظن أن معناه ملوك الرعاة ، ثم تبين أن معناه ملوك البدو أو البادية ، وهم العرب . وقد ورد فى الآثار المصرية أن الهكسوس جاءوا من بلاد العرب قديماً ، وهذا يرجح عروبتهم .

على أن المصريين بعد أن أجلوهم من مصر استمروا يناصبونهم العداء ، ويغزونهم فى أرضهم ، كما فعل رعمسيس الثانى وتحوتمس ،واستمر العرب أيضاً يهاجمون مصر بغزواتهم ، وقد ناصروا الفرس فى فتحهم لمصر[٤] ، مما يدل على ميل إلى الثأر مستحكم بين العرب والمصريين .

والذين لايذهبون إلى عروبتهم يقررون أن الساميين هم العنصر الغالب فى الهكسوس[٥] ، ومن المحتمل أن بعض أجناس قد اختلطت بهم[٦] .

وقد ارتاد رعمسيس الثالث بلاد الحبشة والصومال وبلاد العرب بأسطوله ، ولم يكن له بدّ من توطيد العلاقة الودية بين مصر وشواطىء البحر الأحمر واليمن ، ليفسح المجال للتجارة بين مصر وأقصى الشرق ، لذلك أنشأ طريقا للقوافل منظما

(١) مصر القديمة ٤ / ١٦٣ .
(٢) العرب قبل الإسلام ٥٦ عن josephees. wars of the jews. 1-19
(٣) تاريخ ابن خلدون ٢ / ٢٧ .
(٤) العرب قبل الإسلام ٥٩
(٥) مصر القديمة ٤/١٨٧ .
(٦) مصر القديمة ٤/١٩٧

بين القصير وقفط ، تسلكه التجارة ، بعد أن تعبر المحيط الهندى مارة ببلاد العرب .

واقتدى به رعمسيس الرابع (١١٦٦ ق . م) فافتتح طريقا مختصراً إلى بلاد العرب ، وكان الطريق إليها طويلا[١] .

فلا عجب أن يكثر العرب بقفط ، وأن يذكر استرابون أن نصف سكانها كانوا فى زمانه (القرن الأول قبل الميلاد) من العرب[٢] ، لأن مصر ضعفت بعد دولة الرعامسة، وطمع فيها جيرانها، وشرع بعض العرب يفدون إليها بأنعامهم وخيامهم ، ويسطون على مدنها كما فعلوا من قبل ، ونزلوا قِفْط ، وملكوها قرونا[٣] .

ولم تكن قفط وحدها هى المعمورة بالعرب ، بل كانت مدن كثيرة فى صعيد مصر حافلة بالعرب منذ زمن استرابون إلى القرن الأول بعد الميلاد[٤] . ويذكر هيرودوت وبلينيوس وغيرهما أن الأقسام الشرقية من مصر وخصوصاً المتصلة بطور سيناء كانت مأهولة بقبائل عربية قبل زمن هيرودوت وبلينيوس[٥] .

وإذا كانت كلمة العرب لم ترد فى النصوص المصرية القديمة ، فإن هذا ليس دليلا على أن العرب لم يتصلوا بمصر . فقد كانت شبه جزيرة سيناء وثيقة الصلة بمصر، وسكانها عرب . وكلمة (عرب) لم تطلق علما على قوم إلا قبيل الميلاد ، فمن الجائز أن المصريين قصدوا من كلمة (عمو) التى أطلقوها على البدوى والأسيوى الأعراب الرحل فى الأرض المصرية وحولها[٦] .

---

(١) العرب قبل الإسلام ٩٦

(٢) مجمع فؤاد الأول للغة العربية ٣/٣٣١ (٣) العرب قبل الإسلام ١٠٢ .

(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ بارتولد .

(٥) تاريخ العرب قبل الإسلام ٢/٢٨٦ جواد على .

(٦) تاريخ العرب ٤١ فيليب حتى وتاريخ العرب قبل الإسلام ٢/٢٨٦ جواد على

على أن التجارة كانت عروة أخرى من عرى الاتصال ، فكان السبئيون ينقلون العروض الهندية والحبشية على قوافلهم إلى مصر[١]، ثم كان عرب الشمال يحملون المتاجر إلى مصر ، وهم الذين اشتروا يوسف وباعوه بها . جاء فى سفر التكوين : « ثم جلسوا يأكلون – إخوة يوسف – ورفعوا عيونهم ونظروا ، فإذا قافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد ، وجمالهم محملة . . . . وهم سائرون لينزلوا مصر[٢] » .

ثم نجد قبيلة حَوْتَكة تنزل بمصر فى العصر الجاهلى بعد نزاع بينها وبين غيرها[٣] .

وأخيراً نجد أثارة من هذا الاتصال فيما يروى عن وفود عمرو بن العاص على مصر فى الجاهلية ، فى قصة جال فيها الخيال وصال[٤] . وإذا كنت أدفع خيالها ، وأرفض تفاصيلها ، فإنى لاأستبعد جوهرها ، لأن عمراً تاجر ، ومصر من البلاد التى كان العرب يتجرون معها .

لذلك عثر الباحثون فى اللغة المصرية القديمة على ألوف من الكلمات العربية . وقد ألف المرحوم أحمد كمال معجماً كبيراً فى ذلك لم يطبع بعد .

المرأة المصرية

أما المرأة المصرية فقد كانت سامية القدر ، لها أن تتولى الملك إذا فقد الوارث للعرش من الذكور ، ومع أن هذا النظام سن قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة كما روى ديودور ، فإن جدول ملوك مصر لم يذكر غير خمس ملكات بإزاء أربعمائة وسبعين ملكاً[٥] .

---

(١) العرب قبل الإسلام ١٢٠

(٢) سفر التكوين ٣٧ : ٢٥ .

(٣) معجم ما استعجم ١/٤٠

(٤) حسن المحاضرة للسيوطى .

(٥) La uestion Feministe. P. 187 Rosle

ويظهر أن شعور المصرية بأنوثتها كان السبب فى أنها ـ وإن كانت ملكة ـ تشعر بأن الملك أليق بالرجل ، لأن الملكة حتشبسوت ـ قبل ١٥٥٠ ق . م ـ اضطرت إلى أن تلبس ثياب الرجل ، مراعاة للرأى العام[١] . وكان المصريون يدينون للملكة بالولاء ، ويجلونها ، حتى ليقول ديودور الصقلى : إنها كانت تنال من السلطة والتكريم أكثر مما ينال الملك ، ويرجع هذا إلى الذكرى المجيدة التى خلفتها فى مصر الإلهة إيزيس[٢] .

وكانت الزوجة جليلة القدر ، حتى إن الملك لا يكاد يصور على الآثار إلا مع زوجته ، وهذا عام لا يقتصر على الطبقة العالية .

وكان لقبها أنها ربة البيت[٣] . وكانت النساء يحضرن مع أزواجهن الحفلات العالية ، وهذا مظهر لم يعهده العالم القديم ولا الشرق الحديث ، فالمصرى كانت امرأته بجانبه أينما وجد ، ولم يكن من الأدب المرعى الفصل بين زوجين ، وهذا يشبه ما نراه الآن فى الحفلات الأوروبية ، فالزوج المصرى وزوجته يجتازان الحياة واليد فى اليد كما نرى فى الصور التى على القبور[٤] .

ومما يدل على العناية بالزوجة أن فتاح حتب ـ ابن ملك من الأسرة الخامسة ـ أذاع وصاياه لما طعن فى السن على بنى وطنه ، وكان منها : إذا كنت عاقلا فأجد تموين بيتك ، وأحب امرأتك ، ولا تشاحنها ، وغذها ، وزينها ، وعطرها ، ومتعها ما حييت ، فهى مِلْك يجب أن تكون جديرة بالمالك ، ولا تكن معها فظاً غايظاً[٥] .

وكانت المرأة تتناول مهراً من زوجها بعقد زواجها ، وقد ذكر ديودور أنه

---

(١) المرأة فى التاريخ والشرائع ١٩ .
(٢) الحضارة المصرية القديمة لوبون ١٣ .
(٣) المرأة فى مختلف العصور ١٨ .
(٤) الحضارة المصرية القديمة ٦٣
(٥) الحضارة المصرية القديمة ١١٦ .

نص فى شرط عقد من عقود الزواج على أن المتزوجين اتفقا على أن يطيع الرجل المرأة[١] .

وقد أباح الفراعنة والبطالسة الزواج بالأخت[٢] ، وكان ذلك عاما فى الشعب كما ذكر ديودور[٣] ، وفى أحيان قليلة كان زواج بالأم[٤] .

وعرف المصريون تعدد الزوجات عن طريق التسرى، لأن النظام الاجتماعى كان يقضى بتقسيم الشعب إلى طبقات ، ولم يكن مباحا للرجل أن يتزوج إلا امرأة واحدة من طبقته ، ولكن له أن يتسرى ، على أن تكون زوجته سيدة سراريه[٥] .

وعرفوا النسب إلى الأم أحيانا بدلا من النسب إلى الأب ، إذا كانت الأم من أسرة عالية القدر[٦] ، على أن النسب إلى الأب كان هو الشائع[٧] ، ولعل هذا من تأثير الأمومة الأولى التى وجدت آثارها إلى عهد الإمبراطورية الوسطى . وفى نقوش ذلك العهد نرى أن الجدة من جهة الأم تتقدم فى سيرها على جميع أفراد الأسرة[٨] .

وتميزت المرأة المصرية من بعض معاصراتها بأنها تملك ، بل لقد استأثرت بالملكية أحيانا، لذا كان يناط بالبنات تغذية أهليهن إذا طعنوا فى السن، ولا يكاف الذكور ذلك . وهذا دليل على أن النساء لبثن وحدهن زمنا طويلا يملكن ويرثن[٩] . ثم تطور النظام فصارت المرأة تأخذ من تركة أبيها نصيبا يعادل

---

(١) الحضارة المصرية القديمة ٧٢
(٢) قصة الحضارة ٧٣/١
(٣) الأسرة والمجتمع ٤٧ .
(٤) المرأة فى التاريخ والشرائع ١٧
(٥) المرأة فى التاريخ والشرائع ١٧
(٦) La grande Encyclopedie, Tome. 17. P. 143-170
والحضارة المصرية القديمة ٧٢ .
(٧) المرأة فى التاريخ والشرائع ١٣ .
(٨) الحضارة المصرية القديمة ٧٢ .
(٩) الحضارة المصرية القديمة ٧٢ .

نصيب شقيقها[١] ، وكان هذا قبل الحكم اليونانى .

وكانت النساء يمارسن التجارة ، فقد ذكر هيرودوت أن النساء المصريات كن يذهبن إلى السوق ، ويفرغن للتجارة ، أما الرجال فكانوا فى منازلهم ينسجون[٢] .

وبعد الحكم اليونانى لمصر أباح فرعون بوحورس للأعيان أن يتملكوا الأرض — وكان تملكها قبل ذلك مقصوراً على الملك والأشراف والكهنة والقواد ، ولم يكن لعامة الناس ما يستحق أن يملك ويورث — فخيف من استئثار الرجال بالملكية عقب أن شاع تعدد الزوجات ، فعمدت المرأة إلى كبح استئثاره بالاشتراط فى عقود الزواج ، حتى كانت إحداهن تشترط عليه أن تنتقل أملاكه كلها إلى ولده منها إذا تزوج بغيرها .

ثم حد فيلوباتور أحد بطالسة اليونان من حق الزوجات فى التصرف فيما يملكن ، فأمر بإبطال تصرفهن إلا بإجازة بعولتهن ، وبذلك وضع المرأة فى وصاية الرجل ، وجعل الرجل صاحب الحق فى توزيع الثروة ، فانحطت مكانة المرأة بتأثير المدنية اليونانية[٣] .

---

(٥) تاريخ التربية لأحمد فهمى القطان ١/٤٤ .

(٦) الحضارة المصرية القديمة ٧١ (٧) المرأة فى التاريخ والشرائع ١٧

البَابُ الأول

المرأة في الحياة الأسرية

الفصل الأول

الأمُّ

أريد أن أُرُوز قدر المرأة فى الأسرة ، وأن أفصل نواحى القول فيها ، سواء أكانت أما أم زوجة أم بنتا أم أختا أم قريبة ، معتمداً على ما يبضّ به الشعر ، وما يسجله القرآن الكريم ، ومتخذاً من التاريخ والأحداث والاجتماع جلاء لما غمض ، ولقد أعتمد على غير الشعر لأمهد للموضوع ، وأعدّ له جواً ملائما .

١ — ورأيت أن أبدأ بمكانة المرأة فى الأسرة ، لأن الأسرة أساس القبيلة ، والنظرية التى قال بها العلامة روبرتسن سميث **Robertson Smith** وهى « أن النظام الاجتماعى فى بلاد العرب كلها واحد ، يمكن تلخيصه فى أن القبيلة هى الوحدة السياسية والاجتماعية[1] » ، قد أبطلتها البحوث الحديثة التى قام بها العلامة روبرت لوى **R. Lowie** لأنه أثبت أن الأسرة هى أصغر وحدة اجتماعية ، وأن الجماعات الكبيرة كالعشيرة والقبيلة قد نشأت من نمو الأسرة ،

---

(١) **Kinship & Marriage in early Arabia. P. I. by Robertson smith**

وبهذا نقض ما ذهب إليه من قبل ماك لنان وسمث من أن العشيرة أصغر وحدة اجتماعية[١] .

لهذا عدت الأسرة عند أكثر الأمم قديماً وحدة اجتماعية ، فكانت حكومة صغيرة فى الأمة الكبيرة ، الأب فيها رئيس مطلق وبطريرك قديم ، يحف به أولاده وعبيده وأحفاده وقطعانه[٢] .

ومن الأسر المشتركة فى الدم تنشأ القبيلة ، موسومة بطابع الأسر التى كونتها .

وإذاً فالقبيلة العربية هى الأساس الاجتماعى الكبير للحياة العربية ، وعاداتها هى الغالبة ، سواء أكان أفرادها يعيشون فى قبائل بدوية تقوم حياتها الاقتصادية على الرعى ، أم يعيشون فى قبائل تجارية تحرس اللطائم ، أو تجوس البلاد حاملة السلع والمتاجر .

أما الزراعة فلم يكن العرب يمارسونها فى الحجاز ونجد ، لذلك لما فتح النبى خيبر لم يجد من المسلمين ذوى خبرة بالزراعة ، فأبقى اليهود فى أرضهم يزرعونها ، على أن لهم الشطر من نخلها وزرعها[٣] ، ثم لما فتح وادى القرى ترك النخل والأرض فى أيدى اليهود ، وعاملهم على نحو ما عامل أهل خيبر[٤] .

وقد حافظ العرب على العادات القبلية زمناً طويلا ، حتى بعد انتقالهم إلى الحياة الحضرية ، فكانت العلاقة بين رجال قبيلة واحدة أوثق من العلاقة بين سكان مدينة واحدة ، وإذا فتحت مدينة أنشئت فيها أحيـــاء للقبائل ، ولقد يفصل بين الأحياء أو بين الشوارع بأسوار ذات أبواب ، كما كان الحال فى دمشق والكوفة وغيرهما ، وهذا دليل على خضوعهم للحياة القبلية فى المدن أيضاً . وهم حملوا هذه النزعة إلى إيران فيما حملوا[٥] .

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ١٠ عن R. Lowie. Primitiv society & smith Religion of the semites. P. 38

(٢) مقدمة الحضارات الأولى . جستاف لوبون ٣٢ . وتاريخ العرب ١/٢٣ فيليب حتى

(٣) فتوح البلدان ٣١ و ٣٢ وسيرة ابن هشام ٣/٣٨٩ .

(٤) فتوح البلدان ٤١ .

(٥) تاريخ الحضارة الإسلامية ٣٠ بارتولد .

٢ — وبدأت بالأم ، لأنها المعين الذي يفيض بالأفراد والأسر والجماعات ، هي التربة الخصيبة التي ينبت فيها الحب ، فإذا ما نضج أنبت حباً آخر .

الأم هي التي تمنح بنيها — بعد الخالق سبحانه وتعالى — الحياة ، فهم في بطنها أجنة يقضون أشهراً في قرار مكين يغتذون من دمها . ثم هم بعد الوضع أطفال يرتضعون من لبنها ، وينعمون برعايتها وحبها ، ويتشكلون إلى حد كبير بتربيتها . ثم هم فتيانا وشبانا معقد آمالها ، وهي أيضاً نَجِيُّ أنفسهم، وملاذ الخائف منهم ، وقسيمة الفرح المحبور . فإذا ما اكتهلوا فهم فخارها وذَراها ، وهم حينئذ ذكرانا وإناثا حياتها المتجددة ، وثمراتها الواعدة ، ترى خلودها فيهم ، وفي ذراريهم . فهي أجدر بالتقدمة على الزوجة لهذا ، ولأنها بالأمومة ذات صفتين : فهي زوجة لرجل ؛ وهي أم لبنين .

أما الزوجة فكثيراً ما تكون ذات صفة واحدة ، لأنها زوجة فحسب قبل أن تنسل ، فإذا ما نسلت صارت أماً وزجة ، وجنح بها الوصف إلى الأمومة أكثر من الزوجية .

والأم مقدمة على الزوجة وعلى البنت معاً ، لأنها أصل الكلتيهما ، ولأنها تجمع صفات ثلاثا لا تتحقق كلها فيهما ، فالأم ابنة لرجل ، وزوجة لرجل ، وأم لأبناء .

وقد قيل إن البنت أولى بالتقدمة ، لأن حواء ـ أول أنثى ـ خلقت بنتا ، لكن رد ذلك ميسور ، إذ أن حواء قد خلقها الله زوجة لا بنتا ، قال تعالى : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها »[(١)] ، فلو أني تتبعت النشأة الأولى لقدمت الزوجة لا البنت . على أن تتبع هذه النشأة ليس محتوما ، لأن للأم صفات تؤثرها بالتقديم ، ولأنني أستطيع أن أقول إن

---

(١) سورة الأعراف ١٨٩ .

الغاية من خلق حواء لا أن تكون بنتا ولا زوجة ، وإنما أن تكون أماً يكثر بها بنوها ، وتعمر بهم الأرض .

أثر الأم فى القرابة

جرى العرب على أن الأب هو الأصل فى القرابة وربط الأسرة ، ولكن الأم كانت ذات شأن عظيم فى القرابة أيضا ، وكثيراً ما كانت المصاهرة وشيجة قوية بين الأسر وبين القبائل ، لأن العرب كانوا يجلون الأم إجلالا عظيما ، « ولا يعزون المرأة إلا أن تكون أما »[1] ، وإذا ماولدت المرأة ارتفع قدرها ، وتوثقت بها العرى[2] .

وكان هذا شأنها عند اليونان أيضاً ، فهى كالأمَة إلى أن تلد .

وكان الفرس يعلون من قدر المرأة إذا ولدت ، ومازال هذا دأب أهل البادية إلى اليوم[3] . لذلك عبر العرب عن القرابة بالرَّحِم ، والرَّحِم فى اللغة منشأ الجنين ومستقره ، وهو القرابة أيضاً ، أو أصلها وأسبابها ، واشتقوا منه الرحمة بمعنى الرأفة والتعطف والمغفرة ، قال الهذلى :

ولم يك فظا قاطعـــا لقرابةٍ ولكن وَصولاً للقرابه ذارُحْم[4]

وقال القتّال الكلابى يحكى استعطافه لابن عمه زياد :

نشدتُ زيادا والمقامةُ بيننا وذكرته أرحام سِعْر وهيثَم[5]

وقال آخر :

---

(١) العقد الفريد ٢/٢٦٤ . (٢) التمدن الإسلامى ٤/١٥ .

(٣) التمدن الإسلامى ٤/١٥ .

(٤) القاموس المحيط وأساس البلاغة مادة رحم .

(٥) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٢٠١ أى أقسمت عليه وأهل المجلس حاضرون . وذكرته الرحم التى تجمعنا من هذين الرجلين

أفيقوا بنى حزن وأهواؤنا معاً وأرحامنا موصولة لم تُقَضَّب [١]

وكثيراً ما يتردد هذا التعبير عن القرابة [٢] ،

وهم دلوا على القرابة أيضاً بكلمة بطن ، والبطن وعاء الرحم ، لذلك قالوا : نثرت المرأة بطنها ، إذا أكثرت الولد ، وألقت ذات بطنها إذا ولدت ، وهو أيضاً دون القبيلة أو دون الفخذ وفوق العمارة ، واشتقوا من البطن ما يدل على الصداقة والمصافاة ، فقالوا : هو بطانة فلان أى من خواصه [٣] .

وكثيراً ما كان الشاعر يعبر عن الإخوة الأشقاء بأنهم أبناء أمه — كما سيجىء فى إعزاز الأم لبنيها — فى مجال الاستعطاف وإحياء المودة ، أو فى مجال الفخر ، أو اللوم على قطع أرحام كان يجب أن توصل ، كقول الشنفرى :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى أهل سواكم لأميل [٤]

وكقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

تقول ابنة العَمْرِىِّ مالك بعدما أراك حديثاً ناعم البال أفْرَعا

فقلت لها : طولُ الأسى إذ سألتِنى ولوعة حزن تترك الوجه أسْفعا

وفقدُ بنى أم تداعوا فلم أكن خلافهم أن أستكين وأضْرَعا [٥]

وقول النابغة الجعدى فى رثاء ابنه محارب ، يخاطب زوجه :

ألم تعلمى أنى رزئتُ مُحارباً فمالك منه اليوم شىء ولاليا

ومن قبله ما قد رُزِئتُ بوَحْوَحٍ وكان ابن أمى والخليل المصافيا [٦]

وكان هذا هو السبب فى أن عشيرة الأم تناصر أولاد هذه الأم ، وإن

---

(١) المرزوق ١/٣١٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٨٢ وديوان النابغة ٤١ والأغانى ٢٠/١٥٩ .

(٣) أساس البلاغة والقاموس المحيط مادة بطن .

(٤) أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى ٣ .

(٥) المفضليات ٢/٦٨ ابنة العمرى : زوجته . أسفع : مغبر . تداعوا : تتابعوا إلى الموت . خلافهم : بعدهم . أضرع : أذل وأستكين

(٦) شرح الحماسة للتبريزى ٣/٥١

كانوا من قبيلة أخرى ، لأن الخئولة قرابة قوية كما سيجىء فى الحال .

وكان الرجال يتقربون إلى أخوالهم ، ويقبسون من شرفهم ، ويخايلون بفخارهم . يقول نابغة بنى جعدة فى آمنة بنت أبان بن كليب زوجة أمية بن عبد شمس :

وشاركنا قريشا فى تقاها   وفى أنسابها شِرْكَ العِنان
وما ولدت نساء بنى هلال   وما ولدت نساء بنى أبان[1]

وكانوا يخايلون أيضا بالجد لأم ، يقول عمرو بن كلثوم :

ورثت مهلهلا والخير منه   زهيرا ، نعم ذخر الذاخرينا[2]

الأم الحرة

١ — أغرم العرب بأن يفخروا بنسبهم ، وبأن يشيدوا بآبائهم ، وأولعوا أيضا بأن يباهوا بأمهاتهم ، ويزهوا بحريتهن ، وعراقة نسبهن . وسنعرف فى دراسة (الأَمَة) أنها كانت دون الحرة مقاما، وأن أبناءها كانوا يعيرون استرقاقها .

وكأنما كان العربى الذى يخايل بأمه يزاوج فخره ويضاعفه ؛ لأنه إذاً يفخر بأبيه أيضا ، فما كان العبد ليتزوج حرة ذات عراقة . وهذا الفخار بالأم صراحة وبالأب ضمنا — وإن كانوا كثيراً مافخروا بالأب صراحة — يستتبع أيضامباهاة عن الفاخر بسجاياه ومزاياه وعراقته التى ورثها من أبويه .

يقول جعفر بن عُلْبَة الحارثى إن الحرب والكرب لا يكشفهما إلا ابن الحرة الشجاع ، لأنه برىء من شوائب الهجنة ، فصار كرم أصله مهيجا لأنفته ، ومشجعا له على الاستبسال :

لاَ يكْشِفُ الغَمَّاء إلا ابنُ حرةٍ   يرى غمرات الموت ثم يزورها[3]

---

(١) الأغانى ١/٩ ساسى . شرك العنان : شركة متساوية لأن عنان الدابة طاقتان متساويتان

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٣٩ .

(٣) شرح الحماسة للتبريزى ١/٥٠ .

ويقول القتال الكلابى فى فخره بأمه عمرة بنت حرقة من ربيعة :

لقـــــد ولدتنى حُرَّةٌ رَبَعِيَّـةٌ من اللاء لم يُحْضِرن فى القيظ دِنْدنا[(١)]

ويفخر بأنه ابن أسماء ، وهى من عشيرة أبيه وأعمامه ، وقد رضع ثديها حرة وزوجة لحر ماجد :

أنا ابن أسماء أعمامى لها وأبى إذا ترامى بنو الإِمْوانِ بالعار[(٢)]

وقد جمع المقدام بن زيد سيد بنى حى بن خولان فخره بأمه إلى فخره بأبيه فى قوله :

نمتنا إلى عمرو عروقٌ كريمـة وخُولان معقود المكارم والحمد
وأمى ذات الخير بنت ربيعـة ضَرِيَّةُ من عِيصِ السماحة والمجد[(٣)]

وكان الفخر بحرية الأم وشرفها عاما ، يشيد به العِلْية والعامة ، فالشنفرى وهو من غير العلية يقول :

أنا ابن خيـار الحِجْر بيتاً ومنصبا وأمى ابنة الأحرار لو تعرفينها[(٤)]

ولم يحل تلقيب الأم بلقب لايرضاه الشاعر أن يذكر لقبها هـذا ، ويباهى بكرمها وشرفها وعفتها ، يقول ربيعة بن عبد ياليل فى أمه قِلابة الملقبة بالذيبة :

إنى لمن أنـكرنى ابن الذيبـه كريمة عفيفـــــة منسوبه[(٥)]

---

(١) الأغانى ٢٠/١٥٩ دندن : ما اسود من نبات أو شجر والمراد أنها لم تـكاف الاحتطاب كالإماء . وفى الأصل ديدنا .

(٢) تهذيب الـكامل ٢/٣١٣ ولسان العرب ١٨/٤٧ إموان : جمع أمة .

(٣) معجم البلدان ٥/٤٣٢ ضرية : بنت ربيعة بن نزار وهى أم خولان وإخوته بنى عمر بن الحاف بن قضاعة .

(٤) الأغانى ٢١/٨٨ .

(٥) من نسب إلى أمه من الشعراء لمحمد بن حبيب . نوادر المخطوطات ٩٠ .

وسيد الأشراف محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام يقول فى يوم حنين :
أنا ابن العواتك من سُلَيْم [(١)] .

وقد تأقلم اليهود فى الحجاز كما سبق ، واحتذوا بالعرب فى فخارهم بأمهاتهم .
فالسموءل بن عادياء يفخر بأنهم من أمهات أحسنَّ حملهم أجنة ، ومن آباء
كرمت عروقهم ، فكانوا فى أعلى المراتب من ظهور الآباء الكرام ، وانحدروا
منها لوقت معلوم — يريد وقت الأطهار — إلى بطون خير الأمهات :

صفونا فلم نَكْدُرْ وأخلص سِرَّنا ... إناثٌ أطابت حملنا وفحولُ
علونا إلى خير الظهور وحطّنا ... لوقتٍ إلى خير البطون نزول [(٢)]

٢ — وَمَدحُوا أيضاً بالأم الحرة ، قال حُرَيْث بن مُحَفِّظ فى مدح قومه :

بنو المجد لم تَقْعُدْ بهم أمهاتهم ... وآباؤهم آباء صدق فأنجبوا [(٣)]

---

(١) إيضاح المدارك فى الإفصاح عن العواتك للزبيدى ٦ مخطوط والنقائض ٤٠٣ ولسان العرب ١٢/٣٥١ وإنسان العيون ١/٤٦ والمغازى للواقدى ٢٧٣ وتاريخ الخميس ١/٢٥١ امرأة عاتكة : بها ردع الطيب . قال السهيلى فى الروض الأنف إنها مصفرة من الزعفران ؛ وفى القاموس محمرة من الطيب ؛ ويؤيده قول ابن قتيبة هى من عتكت القوس إذا احمرت . وهذه الآراء راجعة إلى تغير لونها من الطيب .

وقال ابن عباد فى المحيط : هو من عتكت إذا شرفت ورأست على قومها وعشيرتها ؛ فسموا بهذا الاسم تفاؤلا على عادتهم . وقيل سميت لصفائها من قولهم نبيذ عاتك أى صاف ، وهو قول ابن دريد . وقال ابن سعد فى الطبقات : العاتكة الطاهرة فى نسبها وحسبها (إيضاح المدارك ص ٥ مخطوط) .

والعواتك : منهن أم هاشم والمطلب وعبد شمس بنى عبد مناف ؛ وهى عاتكة بنت مرة ابن هلال بن فالج بن ذكوان . وعاتكة بنت فالج بن ذكوان أم جده هاشم بن عبد مناف . وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان أم وهب بن عبد مناف بن زهرة جد الرسول لأمه آمنة . وسائر العواتك أمهات رسول الله من غير بنى سليم ؛ فهن تسع والثلاث الأوليات : الأولى عمة الوسطى ؛ والوسطى عمة الأخرى (النقائض ٤٠٣ وإيضاح المدارك ١١ — ١٤ ولسان العرب ١٢/٣٥١) وقد اختلف فى عدد العواتك من جداته ؛ فن مكثر ومن مقل (إنسان العيون ١/٤٦) .

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ١/١١٩ وديوان السموءل ١٠ .

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٢ بتحقيق شاكر وفى بعض المراجع أنه ابن محفض .

وعبروا أحيانا عن الحرائر بالمهيرات، لأن المهر كان لا يدفع إلا للحرة ،قالت الخنساء فى رثاء أخيها صخر إنه ينتمى إلى السادة ذوى الحصافة والحكمة والسخاء، و إلى حرائر مواجد من حرات ماجدات :

يابنَ القروم ذوى الحجـا وابن الخضارمة المَرَافِدْ
وابن المهائر للمها ئرزانها الشِّيَمُ المواجد[1]

ولم يكن المُلْك ليحول بين الملك ومدحه بأمه كما يمدح بأبيه ، ولم تكن عظمة الملك هى المجد الفذ الذى يشيد به مادحوه ، لذلك شادوا بأمه كما نوهوا بأبيه ، فهذا حاتم الطائى يمدح الحارث بقوله :

نمتــه أُمامةُ والحـارثا ن حتى تَمَهَّل سَبْقاً جديدا[2]

بل لقد تبلغ عزة الشخص بأمه إلى أن يعلو بها على أم الملك الشهير الذى اشتهر باسم أمه ، يقول عارق الطائى فى رده على تهديد الملك عمرو بن هند :

مَنْ مبلغٌ عمرو بن هنـد رسالة إذا استَحْقَبَتْها العِيسُ تُنْضَى من البعد
أيوعدنى والرمل بينى وبينه تأمل رويداً ما أُمامَةُ من هند[3]

وكان شائعا أن ينسب الشخص إلى أمه — كما سأبين — وأن ينسب نفسه إلى أمه و إن كان أبوه ملكا ، يقول امرؤ القيس :

ألا هل أتاها والحوادث جمة بأن امرأ القيس بن تَمْلِكَ بَيْقَرا[4]

وقد ولّى رسول الله صلى الله عليه وسلم زياد بن لبيد البياضى من الأنصار

---

(١) ديوان الخنساء ٦٢ القروم : جمع قرم وهو الفحل من الإبل ؛ والمراد السيد الشريف. الخضارمة : جمع خضرم وهو البحر الطامى والمراد الكريم . المرافد : جمع مرفد وهو المعطى. المهائر : جمع مهيرة وهى المرأة الشريفة الحرة ذات المهر الغالى . المهائر : أى أن جداته مهائر

(٢) ديوان حاتم ٧ .

(٣) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٢١ ومعجم البلدان ١/١١٥ .

(٤) ديوان امرىء القيس ٦٩ تملك : اسم أمه أو إحدى جداته . بيقر : أقام فى الحضر وترك أهله فى البادية .

حضرموت ، ثم ضم إليه كندة ، فانتقضت كندة كلها عليه إلا السكون ، فقال شاعرهم :

ونحن نصرنا الدين إذ ضل قومنا شقاء وشايعنا ابن أم زياد
ولم نبغ عن حق البياضيِّ مَزْحَلاً وكان تُقَى الرحمن أفضل زاد[1]

وكان شائعاً أيضاً أن تكنى المرأة باسم ابنها تكريماً لها .

قال زيد الخيل فى رثاء أوسٍ بن خالد :

فلا تجزعى يا أم أوس فإنه تصيب المنايا كلَّ حافٍ وذى نعل[2]

وقال عمرو بن الأهتم :

ألا طرقت أسماء وهى طَروق وبانت على أن الخيال يَشُوقُ
ذرينى فإن البخل يا أم هيثم لصالح أخلاق الرجال سَرُوقُ[3]

وكانت هذه الكنية أثيرة عند المرأة ، لذلك قالت السيدة عائشة يوماً للنبى وهى حزينة إن كل نسائه لهن كُنًى إلا هى . فقال لها : تكنى بابنك عبد الله — وهو ابن أختها أسماء — فصارت من ذلك الحين تكنى بأم عبد الله[4] . ولما ولدت أم هاشم خالد بن يزيد بن معاوية تركت كنيتها الأولى واكتنت بأم خالد . يقول فيها يزيد :

وما نحن يوم استعبرت أمُّ خالد بمرضى ذوى داء ولا بصِحاح[5]

ويتصل بهذا الفخر والمدح التبرؤ من أن تكون الأم أَمَة، والتعيير بالأمة ، يقول القتال الكلابى :

أنا ابن أسماء أعمامى لها وأبى إذا ترامى بنو الإموان بالعار

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ١٠٧ (٢) الشعر والشعراء ٩٥ .
(٣) المفضليات ١/١٢٣
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/٤٣ والسنن الكبرى للبيهقى ٩/٣١٠ .
(٥) الأغانى ١٦/٨٥ .

أما الإماء فلا يدعونني ولدا   إذا تُحُدِّثَ عن نقضي وإمراري
لا أرضع الدهرَ إلا ثدي واضحة   لواضح الخد يحمي حَوْزة الجار[1]

ويهجو عويف القوافي خصومه - في الإسلام - بأنهم جبناء، وبأن أمهم وضيعة النسب:

وما أمكم تحت الخوافق والقنا   بثكلى ولا زهراء من نسوة زُهْرِ[2]

ويبرأ ذو الإصبع العَدْواني من عبودية أمه، فيقول في لوم ابن عمه، — ويقال إن أمه كانت أمة — :

عني إليك فما أمي براعية   ترعى المَخَاضَ ولا رأيي بمغبون[3]

ولما عير المتلمسَ أخوالُهُ بنو يشكر — ويقال إنه ولد فيهم ومكث بينهم حتى كادوا يغلبون على نسبه، فسأل الملك عمرو بن هند مضرط الحجارة — والمتلمس عنده — الحارث بن التوأم اليشكري عن نسب المتلمس، فقال: آنا يزعم أنه من بني يشكر، وآنا يزعم أنه من بني ضبيعة، فقال عمرو بن هند: ما آراه إلا كالساقط بين الفراشين — غضب المتلمس فقال:

تعيرني أمي رجالٌ ولن ترى   أخا كرم إلا بأن يتكرما

. . . .

فلو غير أخوالي أرادوا نقيصتي   جعلتُ لهم فوق العرانين مِيسَما
وهل لي أم غيرها إن ذكرتُها   أبى الله إلا أن أكون لها ابنما[4]

وهجا عمرو بن هند بقصائد أخرى[5].

---

(١) لسان العرب ١٨/٤٧ وتهذيب الكامل ٢/٣١٣ إموان: جمع أمة. واضحة: شريفة النسب حرة.

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ٤/٢٨

(٣) الشعر والشعراء ٢٧١ والمفضليات ١/١٥٨.

(٤) الأغاني ٢١/١٢١ وشعراء النصرانية ٣٣٧.

(٥) شعراء النصرانية ٣٣٩ و ٣٤٠ والأغاني ٢١/١٢٥ و ١٢٩ و ١٣١ و ١٣٥ ودتوان المتلمس ١

وظل الاعتزاز بحرية الأم إلى ما بعد العصر الجاهلي — كما سيجيء في الإماء — فقد افتخر الحجاج بن يوسف بقوله : لم تلدني أمة بيني وبين آدم ما خلا هاجر [١] .

الأم المنجبة

زُهيت الأم بأبنائها السادة الماجدين ، وحق لها أن تزهَى لأنهم بعضها ، وثمراتها الجنية الشهية التي حملتها وتعهدتها حتى أنضجتها . فهي الوعاء الذي ضمهم أجنة ، وهي التي حضنتهم وأرضعتهم وربتهم أطفالا ، فإذا كانت كريمة العنصر وأنجبت نسب إليها قسط من نجابة بنيها ، وإن كانت خسيسة العنصر وولدت ولداً وضيعاً ذمت به وذم بها . لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس .

ولذلك زهيت الأم المنجبة بأبنائها ، وزهى أبناؤها بها ، لأنهم يدينون لها بكثير من عظمة نفوسهم ، وسلامة أبدانهم ، وشهرتهم ومجدهم ، وسميت الأم التي يشرف بنوها مُنْجِبة .

وقد رفع العرب من أقدار المنجبات ، فنوهوا بهن ، وعدوهن مُثُلا عالية يرمقونها ويقيسون عليها ، لذلك ضربوا ببعضهن المثل فقالوا : أنجب من ماوِيّة [٢] ، وأنجب من فاطمة بنت الْخُرْشُب [٣] ، وأنجب من أم البنين [٤] ، وأنجب من عاتكة [٥] ، وأنجب من خَبيئة [٦] .

---

(١) البيان والتبيين ٢/٨٢ تحقيق هارون .
(٢) مجمع الأمثال ٢/٢٧٦ .
(٣) جمهرة الأمثال ٢/٢٤٢ ومجمع الأمثال ٢/٢٧٦ .
(٤) مجمع الأمثال ٢/٢٧٦ وجمهرة الأمثال ٢/٢٤٢ .
(٥) مجمع الأمثال ٢/٢٧٦ وجمهرة الأمثال ٢/٢٤٢ .
(٦) جمهرة الأمثال ٢/٢٤٢ ومجمع الأمثال ٢/٢٧٦ .

أما ماوية فهى بنت عبد مناة بن مالك من تميم، أم لقيط وحاجب وعلقمة ومعبد بنى زُرارة بن عُدُس [(١)] .

وأما فاطمة بنت الخرشب الأنمارية فقد ولدت لزياد العبسى الكَمَلَة : ربيعاً الكامل، وقيس الحفاظ، وأنس الفوارس، وعمرا الوهاب أو عمارة، وكل منهم ساد فى الجاهلية، وقاد جيشا . وقد سئلت : أى بنيك أفضل ؟ فقالت : الربيع، بل عمارة، بل قيس، بل أنس . ثم قالت : ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل، هم كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها [(٢)] .

أما أم البنين فهى ابنة عمرو بن عامر فارس الضَّحْياء ، ولدت مالك بن جعفر بن كلاب ملاعب الأسنة ، وفارس قُرْزُل طُفَيْل الخيل والد عامر الشاعر الفارس، وربيع المقترين ربيعة والد عَبِيد ، ونَزّال المضيق سُلْمِىّ ، ومُعَوِّذ الحكماء معاوية ، وهى التى افتخر بها لبيد فى قوله :

نحن بنو أم البنين الأربعة [(٣)] .

وأما عاتكة فهى بنت هلال بن مرة بن فالج بن ذكوان، ولدت لعبدمناف ابن قصى هاشما وعبد شمس والمطلب [(٤)]

وأما خبيئة فهى بنت رباح بن الأشلّ الغنوية ، ولدت لجعفر بن كلاب خالداً ومالكا وربيعة [(٥)] .

لا عجب إذا فى أن يحفل الشعر بالإشادة بالأمهات المنجبات ، لأن الإعجاب

---

(١) الأغانى ١٦/١٩ ومجمع الأمثال ٢/٢٧٥ .

(٢) مستقصى أمثال العرب للزمخشرى ٧٦ مخطوط والأغانى ١٦ / ١٩ وأمالى المرتضى ١ / ١٣٤ ومجمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ .

(٣) جمهرة الأمثال ٢ / ٢٤٢ ومجمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ والأغانى ١٦ / ٢٢ والمعارف ٣٠ وديوان لبيد ٧ وأمالى المرتضى ١ / ١٣٧ ومستقصى الأمثال ٣٨ مخطوط .

(٤) مجمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ وجمهرة الأمثال ٢ / ٢٤٢ .

(٥) مجمع الأمثال ٢ / ٢٧٦ وجمهرة الأمثال ٢ / ٢٤٢ والأغانى ١٦ / ١٩ .

بين والفخار يهز القلوب الشاعرة ، ويرفد بالمحامد النفوس الفاخرة . فهذا أُنَيْف بن حكم — أو ابن زبان — النبهانى يفخر بأن قومه يأبون الضيم ، لأن أمهم أكثرتهم وأنجبتهم :

أبى لهم أن يعرفوا الضيم أنهم   بنو ناتِقٍ كانت كثيراً عيالها [1]

ويفخر لبيد بجدته أم البنين على مسمع من النعمان بن المنذر بقوله :

نحن بنو أم البنين الأربعه   ومن خيار عامر بن صعصعه

المطعمون الجفنة المدعدعه   والضاربون الهام تحت الخَيْضَعَه [2]

وقد كرر لبيد الفخار بقوله :

أنبئت أن أبا جنيف لامنى فى اللائمينا

أَبُنَيَّ هل أحسست أعمامى بنى أم البنينا

وأبى الذى كان الأرامل فى الشتاء له قطينا [3]

وقد بلغ إعجاب قيس بن زهير العبسى بفاطمة بنت الخرشب أم بنى زياد أن لقبها بالجنية ، لأنها أنجبت أسوداً بسلاء لاتنجب إنسية مثلهم :

لعمرك ما أضاع بنو زياد   ذمار أبيهم فيمن يضيع

بنو جِنِّيَّةٍ ولدت سيوفا   صوارم كلها ذَكَرٌ صنيع [4]

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٧٧ الناتق : الكثيرة الأولاد

(٢) الأغانى ١٦ / ٢٢ والمعارف ٣٠ وديوان لبيد ٧ وأمالى المرتضى ١ / ١٣٢ ومستقصى الأمثال للزمخشرى مخطوط ٣٨. والبنون الأربعة خمسة فى الحقيقة هم : مالك بن جعفر ملاعب الأسنة ، وطفيل بن مالك أبو عامر بن الطفيل فارس قرزل ، وربيعة بن مالك والد لبيد وهو ربيع المقترين ، وعبيدة بن مالك الوضاح ، ومعاوية بن مالك معوذ الحكماء . وهمأشراف بنى عامر . وقد جعلهم أربعة لأن أباه كان قد مات والأربعة أحياء (خزانة الأدب للبغدادى وأمالى المرتضى ١/ ١٣٧) وليس بصحيح أنه جعلهم أربعة للقافية كما فى مجمع الأمثال للميدانى وجمهرة الأمثال لأبى هلال . المدعدعة : الملأى . الخيضعة: غبار الحرب .

(٣) ديوان لبيد ٤٥ .

(٤) شرح الحماسة للمرزوقى ١ / ٤٦٩ وسمط اللآلىء ١ / ١١٧ وفى ديوان حاتم الطائى ١٧ أنها لحاتم .

النسب إلى الأم

مظاهره

منذ زمن قديم عرف الساميون والعرب النسب إلى الأم ، ويتكشف هذا في مظاهر عدة :

١ — كان للمرأة أحيانا أن تسمى أبناءها ، وتنسبهم إليها ، وكان لعشيرتها هذا الحق ، وقد استمر هذا إلى قبيل الإسلام . يدل على ذلك أنه لما خطب عمرو بن حُجْر إلى عوف ابن مُحَلَّم الشيبانى ابنته أم إياس قال له : نعم أزوجكها على أن أسمى بنيها ، وأزوج بناتها. فقال عمرو : أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا ، وأما بناتنا فننكحهن أكفاءهن من الملوك[1] . وأستنتج من هذه القصة أن عوف بن محلم استمسك بهذه التسمية كبرياء منه ، واعتزازا بنفسه، أو جريا على عرف اجتماعى فى عشيرته ، وأن عمرو بن حجر رفضه ، لأن هذا النظام غير سائد فى قومه .

٢ — كان الولد أحياناً إذا ما كبر عاد إلى قبيلة أمه ، وانتسب إليها ، كما فعل زهير بن أبى سلمى ، فقد كان بشامة بن الغدير خال أبيه ، فانقطع زهير إليه ، واختار هذا الحى من أخواله غطفان لخئولتهم . ولما حضرت الوفاة بشامة جعل يقسم ماله فى أهل بيته وبين بنى إخوته ، فأتاه زهير فقال : ياخالاه لو قسمت لى من مالك ؟ فقال : والله يابن أختى لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله . قال زهير : وما هو؟ قال : شعرى ورثتنيه . ثم أحذاه نصيبا من ماله[2] .

٣ — نسبت كثير من العشائر الآرامية إلى أمهاتها ، فى النقوش الآرامية

---

(١) العقد الفريد ٣ / ١٩١ .
(٢) الأغانى ٩ / ١٤٩ .

التى كشف عنها فى الحِجْر أسماء عشائر تنتسب إلى الأم لا إلى الأب[(١)] .

وقد سبق أن هذا النسب كان معروفا للإسرائيليين ، فهناك شواهد قديمة تذكر سلالات من بنى إسرائيل نسبت إلى الأم ، وظلت الأم الإسرائيلية قرونا تحتفظ بنسب بنيها إليها[(٢)] .

وما زال علماء الاجتماع يعترفون به فى بحوثهم ، فلما ارتقت حضارة الساميين ارتفعوا إلى نظام الأبوة ، لأن الحضارة تؤكد الجانب الأبوى .

وكثير جداً من القبائل العربية عزت نسبها إلى أمهاتها ، فمثلا باهلة قبيلة من قيس عيلان ، سموا باسم أمهم باهـلة بنت ضب بن سعد العشيرة[(٣)] . وخندف نسبوا إلى أمهم زوجة إلياس بن مضر ، واسمها ليلى بنت حلوان من قضاعة[(٤)] ، وبجيلة حى من اليمن وهم ولد امرأة اسمها بجيلة[(٥)] ، وبنو العدوية من تميم نسبوا إلى أمهم ، وبنو طُهَيَّة من تميم أيضاً نسبوا إلى أمهم[(٦)] ، ونسب بنو مرة بن صعصعة إلى أمهم فعرفوا ببنى سَلول[(٧)] ، ونسب الأوس والخزرج إلى أمهم قَيْلَة فسموا بنى قيلة[(٨)] ، ونسب بنو دُهن بن وديعة من لـكيز من ثقيف إلى أمهم واثلة[(٩)] ، ونسب بعض بنى الحارث بن ذهل بن شيبان إلى أمهم الورْثَة من بنى يشـكر ، فقيل بنو الورثة ، ونسب بعضهم إلى أمهم جَـذْرَة ، وهى سبية من اليمن ، ونسب بعضهم إلى أمهم الشَّقيقة[(١٠)] .

والذى يبدو لى أن نسب القبائل إلى أمهاتها كان شائعا فى القبائل ، وفى

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٦ .

(٢) Israel from its begning. Lods P. 192.

(٣) منتخبات من أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميرى ١٠ .

(٤) نسب عدنان وقحطان المبرد ، والأغانى ١/١٢ الدار .

(٥) منتخبات من أخبار اليمن ٥ . (٦) المعارف ٢٦ .

(٧) المعارف ٢٩ وشرح الحماسة للتبريزى ٢ / ١٩٣ والشعروالشعراء ٢٤٨ ودائرة المعارف الإسلامية ٣ / ٣٢٠ .

(٨) المعارف ٣٦ والتنبيه والإشراف ١٧٤ ودائرة المعارف الإسلامية ٣ / ١٥٠ .

(٩) المعارف ٣١ . (١٠) المعارف ٣٣ .

أماكن شتى ، سواء فى ذلك أهل الجنوب وأهل الشمال ، وسواء فى ذلك الحضر والبدو ، وسواء فى ذلك أكانت الأم حرة أم أمة .

٤ — ولا يقل نسب الأفراد إلى أمهاتهم كثرة عن نسب القبائل إلى أمهاتها .

وقد ألف محمد بن حبيب كتابا فيمن نسب إلى أمه من الشعراء ، ذكر فيه ٣٩ شاعراً عددت من بينهم ٣٦ شاعراً جاهليا (١) .

وفى غيره من المراجع مئات من أشخاص انتسبوا أو نسبوا إلى أمهاتهم ، منهم عبد مناف جد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد نسب إلى أمه زُهرة دون أبيه (٢) ، وأوس بن مغراء شاعر نسب إلى أمه (٣) ، وشبيب بن البرصاء نسب إلى أمه ، وهو القائل :

أنا ابن بَرْصاء بها أجيبُ ... هل فى هجان اللون ما يعيب (٤)

وخُفَاف بن نُدْبة منسوب إلى أمه وكانت سوداء سبية (٥) ، ونسب الأشهب ابن ثور إلى أمه رُمَيْلة وهى سبية من سبايا العرب (٦) ، ونسب قيس بن منقذ ابن عمرو بن عبيد إلى أمه الحُدادية (٧) ، ونسب ربيعة بن عبد ياليل الثقفى إلى أمه قِلابة ، وكانت تلقب بالذيبة ، فقيل ربيعة بن الذيبة (٨) ، وكان يكنى عن ثابت بن عمرو بن مالك من بنى النجار بأنه ابن خنساء (٩) ، ويكنى عن سواد بن وهب بن بَلِيّ من قضاعة بأنه سواد بن غَزِيّه (١٠) ، وغير هؤلاء كثير (١١) .

---

(١) من نسب إلى أمه من الشعراء لمحمد بن حبيب . مخطوط بدار الكتب .

(٢) المعارف ٤٣ .

(٣) الأغانى ٢ / ٦٢ و ٤ / ١٣١

(٤) طبقات الشعراء ١٦٢ والأغانى ١١ / ٨٩

(٥) المعارف ١٤٢ .

(٦) الأغانى ٨ / ١٥٣ ساسى .

(٧) الأغانى ١٣ / ٢ .

(٨) مجالس ثعلب ١٧٣ والمؤتلف والمختلف ١٢٠ .

(٩) الطبقات لابن سعد ٣ / ٧٠ .

(١٠) الطبقات لابن سعد ٣ / ٧٢ .

(١١) المعارف ٢٥٧ .

وما زال النسب إلى الأم حتى صدر الإسلام ، وحتى ما بعده ، فقد كنوا عن الحسين بن على بأنه ابن بنت رسول الله ، تكريما له بأمه[١] ، و إسماعيل بن عُلَيّة منسوب إلى أمه ، وأبوه إبراهيم بن عائشة منسوب إلى جدة له ، وكان أبوه أيضا يعرف بابن عائشة ، وابن القِرِّيَّة منسوب إلى أمه ، واسمه أيوب بن زيد ، وابن الإطنابة منسوب إلى أمه ، وكذلك ابن مَيَّادة[٢] ، وكان ممن يهاجى الفرزدق الأشهب بن ثور ، وقد اشتهر بأنه ابن رُمَيْلَة وهى أمه[٣] .

آراء فى أصل النسب إلى الأم

ذهب بعض العلماء إلى أن الأمومة كانت النظام الذى خضع له العرب القدماء .

١ — فى رأى سمث أن العرب كانوا فى عصر قديم ينتسبون إلى آباء من الحيوان أو النبات يعبدونها و يقدسونها ، و يحملون أسماءها ، و يحرمون أكلها ، وكانوا يجرون فى زواجهم على ماتجرى عليه القبائل المتوحشة فى أستراليا وأمريكا و إفريقية من القبائل التوتمية[٤] ، ومن نظم التوتمية أن يتبع الولد توتم أمه لا توتم أبيه ، ومن نظمها أيضاً أن زواج الرجل من امرأة تتفق معه فى توتمه محظور .

---

(١) بلوغ الأرب ٣ / ١٩٦ . (٢) المعارف ٥٨٠ والإصابة ٨/١٤٤ .

(٣) طبقات الشعراء ١٩٣ .

(٤) التوتمية هى أن يرتبط أفراد الأسرة أو العشيرة برابطة قرابة متحدة الدرجة ، ليست قائمة على صلات الدم . وإنما هى قائمة على إنتماء الأفراد لتوتم واحد **Totem** . وهو نوع من الحيوان أو النبات تتخذه العشيرة رمزاً لها ، ولقباً لجميع أفرادها ، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ، وتنزله وتنزل الأمور التى ترمز إليه منزلة التقديس . فانتماء مجموعة من الأفراد لتوتم واحد يجعلهم أفراد أسرة واحدة ، ويربطهم بقرابة متحدة فى درجتها وقوتها أيا كانت صلة بعضهم ببعض من ناحية القرابة الطبيعية ووشيجةالدم.فليست درجة القرابة التى تربط الولد بأبويه لتزيد على درجة القرابة التى تربطه بأى فرد آخر من العشيرة.بل لقد كان يعتبر أجنبياً عن أبويه أو عن أحدهما إذا قضت النظم المتبعة بانتمائه إلى عشيرة أخرى غير عشيرتهما أو عشيرة أحدهما (الأسرة والمجتمع٨ الدكتورعلىعبد الواحد).

ورأى أن انتساب العرب إلى إسماعيل بن إبراهيم وإلى قحطان ، وأن سلسلة أنسابهم كما تذكرها كتب الأنساب ، اختلاق وضع فى صدر الإسلام ، متأثراً بنظام الاستحقاق للعطاء الذى وجد فى ديوان عمر بن الخطاب [١] .

ويقول إن حروبهم كانت دائمة ، وإنهم لم يعرفوا الملكية ، بل كانت أموالهم ونساؤهم مشاعة بينهم ، وإذا أسرت المرأة لم يستأثر بها رجل واحد ، فهم يشبهون جماعة بدائية تدين بالشيوعية [٢] . واستدل على أمومة العرب باستعمالهم كلمة البطن والفخذ للدلالة على القرابة ، وظن أن كلمة بطن كان لها مدلول آخر غير ما تعارفت عليه الأنساب ، ودليله على ذلك استعمال كلمة رحم [٣] وقال إن البطن والحى هما أول المجتمعات عند الساميين ، والحى فى نظره وحدة اجتماعية سياسية متميزة [٤] ، وفى رأيه أن كلمة حى ذات صلة بالحياة ، فالحى رابطة قرابة وصلة رحم [٥] .

٢ — وذهب ماك لينان Mac Lannan إلى أنه فى بعض الشعوب المتوحشة وبعض الأمم المتمدنة قديما وحديثا كان الخاطب أو رفاقه يتظاهرون على اغتصاب فتاة له من غير قبيلته . واستنتج أن هذه العادة بقية من عادة قديمة مدارها أن يتزوج رجال القبيلة بنساء قبيلة أخرى ، وأخذ يبحث فى أصل هذه العادة ، فخيل إليه أن سببها شيوع الوأد عند بعض القبائل ، حتى لقد أدى إلى زيادة عدد الرجال على النساء ، فاضطروا إلى مباشرة امرأة واحدة .

وفى رأيه أن هذا أصل تعدد الأزواج ، وظهور نظام الأمومة ، لأن الأصل فى الأمومة أن أم الولد معلومة وأباه مجهول ، ثم استنتج أن قلة عدد النساء فى بعض القبائل اضطر رجالها إلى اغتصابهن من قبائل أخرى ، ولهذا كان تعدد

---

(١) Kinship & Marriage in early Arabia P. 6.

(٢) P. 150

(٣) P. 37

(٤) P. 47.

(٥) P. 47

الأزواج شائعا فى القبائل ذات النكاح الخارجى ، وكانت هذه القبائل لاتعترف إلا بقرابة الأم[١] .

٣ — وإلى ذلك ذهب ولكن wilken ، فإنه بعد أن استعرض أنواع النكاح عند العرب فى الجاهلية قال إنه لم يكن سبيل إلى معرفة الأب ، بل لم تكن حاجة إلى هذه المعرفة ، لأن الاتصال الجنسى فى الأعصر الخالية — حين كان الزواج الشرعى مجهولا — من شأنه أن يتبع الولد أمه فى كل شىء ، ولم يكن هذا ليمنع الرجل من الحنو على الطفل الذى شارك فى وجوده[٢] .

وله على ذلك أدلة ، منها أن هذا النظام ما زال معروفا عند بعض القبائل إلى اليوم ، وأن العرب استعملوا كلمة بطن بمعنى القبيلة ، وأن بعضهم نسبوا إلى أمهاتهم ، وأن أبناء الأخت كانوا يرثون خالهم[٣] .

٤ — ويعلل شارل لوتورنو للأمومة بأن الناس كانوا فى العهد الوحشى عاجزين عن إدراك العلاقة بين الزواج والولادة ، فقام نظام الأسرة على الأمومة، ذلك أنه من الطبيعى أن الرجال الذين لايدركون العلاقة بين المباشرة والإنسال ، لجهلهم السبب فى الحمل ،أولشيوع النساء بينهم واختلاط أنسابهم،لايهتمون بعزو أولادهم إليهم[٤] .

مناقشة هذه الآراء

١ — أغلب الظن أن أصحاب هذه النظريات متأثرون فى رأيهم عن العرب بما ذكره سترابون فى معجمة الجغرافى من زواج المشاركة فى اليمن[٥] ، وبما ذكره الكاتب اللاتينى Ammianus Marcellinus من أن عرب الجاهلية لم يعرفوا زواجا مستمراً ترتبط فيه المرأة برجل معين لأجل غير مسمى ، لأنهم كانوا

---

(١) Primitive Marriage. 124.

(٢) الأمومة عند العرب . ولكن . ترجمة بندلى الجوزى ٣٢ .

(٣) الأمومة عند العرب ٣٥ — ٤٣ .

(٤) المرأة فى التاريخ والشرائع ٦

(٥) strabo Xvl. 7

يجرون على نظام النكاح المؤقت ، فهم يقضون حياتهم فى تجوال وتنقل ، ونساؤهم يجامعن من يردن من الرجال ، وقد بقى النكاح المؤقت شائعاً بينهم إلى مشرق الإسلام ، وأباحه النبى (عليه الصلاة والسلام) لأصحابه ، (فترة من الزمن) و يعرف هذا النكاح بنكاح المتعة [١] .

ولكن ما ذكره سترابون من اشتراك الإخوة فى زوجة واحدة باليمن نوع من الأقاصيص ، لأنه لم يطأ أرض اليمن ولم يخالط أهلها ، وإنما كان مصاحبا لحملة جالوس التى تحدثت عنها من قبل ، فلعله سمع من بعض الناس هذه الرواية فصدقها وعممها ، أو لعلها كانت حادثة فردية شاذة ضخمها خيال الرواة لغرابتها. وكتب السياح حافلة بالأساطير ، وما زال كثير منهم يعزون إلى بلاد الشرق التى يزورونها ولا يقيمون بها إلا قليلا أموراً لا تمت إلى الحقيقة بسبب .

وفى التاريخ أمثلة كثيرة لهذا الخلط والاختلاق مثل زعم بولوجيوس — أحد كهنة قرطبة العلماء المخالطين للمسلمين — أن النبى أنبأ أصحابه بأن الملائكة ستحمله إلى السماء بعد موته بثلاثة أيام [٢] .

على أن سترابون نفسه صدر روايته بقوله (Ondit) أى يقال[٣] . و يقول: للإخوة جميعا امرأة واحدة ، والزناة — وهم الذين يتزوجون من غير قبيلتهم — يعاقبون بالقتل ؛ و إذاً فالقصة تشير إلى اشتراك الإخوة فى الزواج بامرأة واحدة، ولا تذكر أن العشيرة كلها تشترك فى امرأة ، فنظام الأسرة قائم ، وهذا يناقض ما ذكره سمث وغيره فى نظام الأمومة من تحريم الزواج من العشيرة التوتمية .

ثم إن قصة سترابون تصرح بأن الزواج الخارجى محرم ، حتى ليعدزنا يعاقب فاعله بالقتل ، والزواج الخارجى أساس الأمومة فى رأى القائلين بها .

و يستدل الأستاذ محمود جمعه على بطلان قصة سترابون بأن النقوش المعينية

---

(١) الأمومة عند العرب ٢٠
(٢) أنساب العرب القدماء . زيدان ٢٠ .
(٣) أنساب العرب القدماء ٢٠ .

منذ الألف قبل الميلاد تبين أن عرب الجنوب كانوا يشعرون بشعور ديني قوى فى مراعاة قوانين الخلاط الجنسى ، و يعدون أى انحراف عن مراعاة هذه القواعد أمراً إدًّا بنفرون منه نفورا شديدا ، و إذا ما زلّ أحدهم فارتكب فاحشة سارع إلى التوبة ، لذلك لا يمكن افتراض أن الإباحية الجنسية كانت عامة[١] .

و إذاً فدعوى سترابون أن زواج المشاركة كان ذائعا فى اليمن مردودة لاتؤيدها الحقائق التاريخية ، وعلمه بأحوال بلاد العرب ناقص ، لأنه تلقفه من قصص التجار والمغامرين والمتزيدين .

٢ — أما أدلة سميث على توتمية العرب فقد نقضها كثير من علماء الاجتماع[٢] . وأهم أدلته :

ا — أن كثيراً من القبائل كانت تتسمى بأسماء الحيوان كأسد وفهد وكلب الخ . . لأن هذه الحيوانات هى توتم القبائل التى تسمت بها .

وهذا مردود ، لأن عدد العشائر التى تسمت بأسماء الحيوان لايعدو الأربعين، وأسماء القبائل بضع مئات .

ثم إن هذه الأسماء التى أطلقت على القبائل وعلى الأفراد أوحت بها ظروف وملابسات خاصة ، عرض لها الجاحظ بقوله : « والعرب إنما كانت تسمى بكلب وحمار وحجر وجُمَل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك . وكان الرجل إذا ولد له ولد ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فإن سمع إنسانا يقول حجراً أو رأى حجراً سمى ابنه به ، وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وأنه يحطم مالقى . وكذلك إن سمع إنسانا يقول ذئبا أو رأى ذئبا تأول فيه الفطنة والخب والمكر والكسب . و إن كان حمارا تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد ، و إن كان كلبا تأول فيه الحراسة واليقظة و بعد الصوت وغير ذلك[٣] .

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٢٨ .

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٩٩ ـ ١٤٢ .

(٣) الحيوان للجاحظ ١ / ٣٠٤ بتحقيق هارون .

ولقد يختارون الأسماء المرهبة المرعبة لتوحى إلى المسمى بالقوة والشدة ؛ ولترهب الأعداء ، فقد سئل أبو العرفيش الأعرابى : لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو ذئب وكلب ، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ فقال ، إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا[١] .

ب ـ وأن العرب عبدوا الحيوان .

وهذا مردود أيضا بأننا لا نعرف أن العرب عبدوه كما عبده المصريون القدماء .

وليس فى أصنام العرب ما كان على صورة حيوان ، إلا ما جاء من بعض الآراء فى يغوث ويعوق ونسر ، فقد ذكر الزمخشرى والنيسابورى أن يغوث كان على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر[٢] .

على أن الطبرى لم يذكر هذا ، وإنما روى أنها كانت على صورة أناسى ، وقد عبدها قوم نوح ، ثم عبدها العرب ، وتابعه الزمخشرى فذكر ذلك أيضاً[٣]

وليس فى كتاب الأصنام ما يشير إلى شبهها بالحيوان[٤] . فنحن الآن أمام رأيين : فإذا اعتمدنا أن هذه الأصنام الثلاثة كانت على صورة حيوانات فعلينا أن نتذكر أنها قلة قليلة بالنسبة لما نعرف من عدد أصنام العرب[٥] ، وإذا أخذنا بأنها كانت على صورة البشر بطلت الدعوى. وسواء أكانت على هذه الصورة أم تلك فإنها لم تكن من مبتدعات العرب ؛ وإنما هى بقايا من عهد نوح :

وهناك عشرات من أصنام العرب لم تكن على شكل حيوان ، وبعضها كان على هيئة إنسان[٦] .

---

(١) حياة الحيوان للدميرى ٢ / ٢٤٢ وتاريخ الخميس ١/١٧٣ ونهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب للقمشدى ٢١ .

(٢) الكشاف للزمخشرى ٢ / ٤٩٢ وتفسير النيسابورى ٢٩ / ٥٢ .

(٣) تفسير الطبرى ٢٩ / ٦٢ والزمخشرى ٢ / ٤٩٢ .

(٤) الأصنام لابن الكلبى ١٠ و ١١ و ٥٧ و ٥٨ .

(٥) فى كتاب الاصنام لابن الكلبى ثلاثون صنماً وفى ملحق الكتاب سبعة وأربعون .

(٦) الاصنام ٩ و ٢٨ و ٥٦ و ٥٩ وتفسير الطبرى ٢٩ / ٦٢ والنيسابورى ٢٩/٥٣ والزمخشرى ٢ / ٤٩٢ .

وشتان بين عبادة الحيوان فى التوتمية وعبادة صنم على هيئته ، لأن أصحاب التوتم يعبدون حيوانات لاأصناما شبيهة بها ، و يمارسون ضروبا من السحر والرق لحفظ التوتم حيا .

ولا يصح أن نغفل عن تقرير القرآن الكريم أن العرب كانوا لا يعبدون الأصنام لذاتها ، بل لتقربهم إلى الله زلفى « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى »

(ح) وأما دليله على توتمية العرب بأنهم حرموا لحم بعض الحيوان ، فهو مردود بأن العرب لم يحرموا حيواناً ، ولو أن العرب دانوا بالتوتمية لحرموا لحمان الثور والبكر والظبي والعنز والفهد وغيرها من الحيوانات التى سموا بها .

(د) على أن التوتمية تقضى أن ينسب الولد إلى توتم أمه لاتوتم أبيه ، ولو دان العرب بالتوتمية لكان النسب إلى الأم هو الغالب السائد ، ولكن الذى حدث أن النسب إلى الأب كان السائد الغالب .

(ه) ثم إن من أسس التوتمية ألا يتزوج الرجل امرأة تتفق معه فى توتمه كما يقول سميث وغيره . وسنجد فى فصل (الزوجة) أن العرب كانوا يتزوجون بأقاربهم وبنات أعمامهم ، كما كانوا يغتربون ، لا لأنهم يدينون بالتوتمية ، بل لأنهم يستجيدون النسل ، و يحققون منافع أخرى ستجىء .

و إذاً فقد بطلت نظرية سميث فى توتمية العرب ، فبطلت النتائج التى بناها عليها ، وأهمها نظرية الأمومة .

٣ — أما التعبير عن القرابة بالبطن فليس دليلا على الأمومة ، وقد أسلفت أن التعبير بالرحم والبطن دليل على عظم أثر الأم فى القرابة . على أنهم عبروا أيضاً بالفخذ والشعب والعمارة ، وليس فى واحد من هذه أثارة من الدلالة على الأمومة.

٤ — ثم إن الأنساب لم تخلق فى عهد عمر ، ولم يختلط بعضها ببعض ، لأن العرب منذ العصر الجاهلى كانوا حراصاً على حفظ أنسابهم ، وكانوا يتشددون فيها ، و يردون من يدعى نسباً ليس له .

ولا شك أن النظام القبلي كان يحتم عليهم الحفاظ على أنسابهم ، لأن القبيلة وحدة متماسكة، يتداعى أفرادها للنصرة . ورد الغارة، و يتضامنون في تحمل المغارم والديات ، و يتعاونون على تحقيق كثير من المنافع ، وهذا كفيل بحرصهم على معرفة أنسابهم ، وتحريهم الصدق فيها ، و إبعادهم كل دخيل ليس منهم « فيؤمن عليهم اختلاط أنسابهم وفسادها ، ولا تزال بينهم محفوظة صريحة . واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة ، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع ، و بعدوا من أرياف الشام والعراق ، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ، ولا عرف فيهم شَوْب [١] » .

وكيف نصدق أن تلفق الأنساب في عهد عمر ، وهو نفسه كان يحض العرب على حفظ أنسابهم بقوله : « تعلموا النسب، ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا [٢] » .

وكان من العرب نسابون ثقات أطبق الناس على أمانتهم وسعة معارفهم [٣] .

وكثيراً ما تباهى الشعراء بأنسابهم ، واعتزوا بها وحرصوا عليها . من ذلك قول بشامة بن جَزْء النهشلي :

إنا بني نهشل لا نَدَّعي لأب ... عنه ولا هو بالأبناء يَشْرينا [٤]

فلم يكن عجباً أن رفضت بجيلة أن يولى عليها عرفجة بن هرثمة ، وسألوا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٢٦ . (٢) مقدمة ابن خلدون ٤٢٦ .

(٣) مثل جبير بن مطعم وأبي بكر وسعيد بن المسيب وعمر بن الخطاب والخطاب ونفيل ودغفل وعمير وصبح وابن الـكيس والأزهر بن عبد الحارث وابن عطاء الليثي وابن كريز والأبرش والخطفي وغيرهم (البيان والتبيين ١ / ١٤٤ و ٢٥٣ و ٢٥٨ و ٢٦٩ و ٢٧١ و ٢٧٣ و ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٢ و ٢٨٣) والأنساب للسمعاني ٨ .

(٤) شرح الحماسة المرزوقي ١ / ١٠٢ وعيون الأخبار ١ / ١٩٠ وفي شرح التبريزي ١ / ٥٠ وخزانة الأدب ٣/ ٥١٥ أن القائل بشامة بن حزن النهشلي . وفي الشعر والشعراء ٢٤٢ أنه نهشل بن حري .

عمر أن يعفيهم منه ، وقالوا : هو فينا لزيق ، وطلبوا أن يولى عليهم جريرا . فسأل عمر عرفجة عن ذلك ، فقال له : صدقوا يا أمير المؤمنون لست منهم ، ولكنى رجل من الأزد ، كنا أصبنا فى الجاهلية دما فى قومنا ، فاحقنا بجيلة ، فبلغنا فيهم من السؤدد ما بلغك .

فهم على علم بوشائج كل شخص ، يردون نسبه صراحة إن ادعى لغير قومه ، ولا يرضون بدخيل رئيسا عليهم .

٥ — وإن صدقنا أن النسب مختلق فى عهد عمر لنيل العطاء ، فكيف نصدق أن القبائل التى نُحِّى نسبها عن قريش فقل عطاؤها رضيت بذلك ؟ وكيف تقر نسبها الموضوع ، وهو لا يرضيها ، ويظل ذلك إلى العصور اللاحقة وإلى الآن فى كتب التاريخ ؟ ثم كيف غفل الشعوبية عن هذا النسب المختلق المنحول أو المنتحل ؟ ولا سيما الفرس فى وقت كانت المفاخرة فيه على أشدها وأعنفها ، إذ كان العرب يفاخرون الفرس بأنسابهم ، ولم يأل الفرس جهداً فى النيل من العرب ، حتى لقد نسبوهم إلى الوحشية وقالوا : «إنهم كالذئاب العادية ، والوحوش الضارية يأكل بعضهم بعضاً ، ويغير بعضهم على بعض ، فرجالهم موثوقون فى حلق الأسر ، ونساؤهم سبايا مردفات على حقائب الإبل ، فإذا أدركهن الصريخ استنقذن بالعشى وقد وطئن كما توطأ الطريق المهيع[(١)] » .

ولو استطاع شعوبى أن ينكر على العرب أو على بعضهم نسبهم لفعل ، مع أنهم أنكروا على العرب دعواهم أن الهند والبربر والديلم وبُرْجان أصلهم من العرب . قال بحير يعير العرب ذلك :

زعمتم بأن الهند أولاد خِنْدِفٍ	وبينكم قُرْبَى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل	وبُرْجان من أولاد عمرو بن عامر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم	وأولى بقربانا ملوك الأكاسر[(٢)]

(١) العقد الفريد ٢ / ٧٠ .

(٢) العقد الفريد ٢ / ٧١ .

نعم كان الفرس أحق الناس بطعن هذه الأنساب التى نحلها العرب أنفسهم، لأنهم على صلة بهم من قديم ، بالجوار والحرب والسلم والحكم ، ولأنهم اتصلوا بهم بعد الإسلام اتصالا أقوى وأعمق ، وكان يمهد لهم هذا الطعن أن كثيراً من المؤرخين والنسابين فى الإسلام من أصل فارسى ، فلماذا سكتوا ؟ ولماذا روجوا لأنساب مدخولة يستطبعون أن ينالوا من العرب بنقضها وتزييفها ؟

٦ — على أن الساميين فى عصورهم التاريخية اعتبروا النسب إلى الآباء هو النظام الاجتماعى المألوف ، حتى لقد حسبوا أن كل شعب قد نجله أب واحد، فهو ينتسب إليه . فالأشوريون نَسَل بهم أب واحد اسمه أشور ، والكنعانيون نجلهم رجل واحد هو كنعان ، والمؤابيون أبناء أب واحد اسمه مؤاب ، والإسرائيليون أولاد إسرائيل وهكذا . ومعنى هذا أن القبيلة تنتسب إلى أولاد الرجل الذى انحدر منه الشعب ، وأن العشيرة تعتزى إلى أحفاده وهكذا[١] .

وقد دونت شريعة حمورابى نحو القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ، وجاء فيها عن نظام الزواج والطلاق ما يدل على أن الرجل رب الأسرة ، ولم يرد فيها ما يشير إلى نظام الأمومة .

فالانتساب إلى الأب هو النظام السائد بين الأمم السامية منذ العصور التاريخية ، لأن الأب رب الأسرة ، و بيده تصريف أمورها الدينية والمدنية ، وهو الذى يقرب القرابين لإله العشيرة ، و يهيمن على بنيه وأهله ، فكان له أن يبيع أبناءه و بناته بيع العبيد[٢] ، وكان له أن يقتلهم أو يحرقهم إذا شاء[٣] ، إلى أن حرمت التوراة عليه ذلك[٤] ، ثم شدد القرآن الكريم النكير على الوائدين كما سيجىء . لذلك دل الساميون على الرجل بكلمة بعل ، ومعناها الزوج والسيد .

---

(١) Israel from its Begining. Adolphe Lods P. 199.

(٢) سفر الملوك الثانى الإصحاح الرابع الآية الأولى . وسفر الخروج الإصحاح ٢١ الآية ٧

(٣) سفر التكوين الإصحاح ٣٨ الآية ٢٤ .

(٤) سفر التثنية الإصحاح ٢١ الآية ١٨ .

٧ — ثم إننا نجد أحياناً نسباً مزدوجاً فى العرب إلى الأب والأم معا ، فبعض القبائل نسبت إلى أبيها وأمها ، كالأوس ، نسبوا إلى أمهم قَيْلَة وإلى أبيهم حارثة[١] ، وبنو خندف انتسبوا إلى أبيهم إلياس بن مضر ، كما انتسبوا إلى أمهم خِنْدِف ، وفى ذلك يقول قصى بن كلاب من مرة :

إنى أرى الحرب تلىّ وأبى عنـد تناديهم بهابِ وهَبِى
معترم الصولة عالى النسب أمهتى خندف والياس أبى[٢]

وبنو طُهَيَّة نسبوا إلى أمهم وإلى أبيهم سود بن مالك بن حنظلة[٣] ، وأولاد مرّ بن أدّ نسبوا إلى أمهم ظاعنة وإلى أبيهم[٤] .

كذلك كان بعض الأفراد يعرفون بأبيهم وأمهم معا ، كالحارث بن ثعلبة ابن جفنة ، أمه مارية ذات القرطين ، من جفنة ، أو مارية بنت ظالم من كندة ، وقد نسب جماعة من ملوك غسان إليها[٥] ، وعنترة بن الأخرس من طيء نسب أيضاً إلى أمه عُـكْبُرَة[٦] .

٨ — وإنا لنجد إصراراً من بعض العـرب على نسبهم إلى آبائهم لا إلى أمهاتهم ، من هؤلاء المتامس (جرير بن يزيد أو ابن عبد المسيح من ضبيعة بن نزار) فقد ولد فى أخواله بنى يشكر ، ونشأ بينهم حتى كادوا يغلبون على نسبه ، فسأل عمرو بن هند يوما الحارث اليشكرى عن نسب المتامس فقال : أوانًا يزعم أنه من بنى ضبيعة . فقال عمرو : ما أراه إلا كالساقط بين الفراشين ، فغضب المتامس ، وهجا عمرا ، وهدد الحارث[٧] ، لأنه كان حريصاً على نسبه

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣ / ١٥٠ .
(٢) مروج الذهب ١ / ٢٧٥ هاب ، هبى : زجر للخيل أى أقدمى وأقبلى .
(٣) المعارف ٢٦ . (٤) المعارف ٢٥ .
(٥) مروج الذهب ١ / ٢٠٧ .
(٦) شرح ديوان الحماسة المرزوقى ١ / ٢٢٠ .
(٧) ديوان المتلمس ١ مخطوط والأغانى ٢١/١٢٥ — ١٣٥ وشعراء النصرانية ٣٣٩.

لأبيه ، يدل على ذلك قول أبى الفرج إن الحارث اليشكرى أراد أن يَدَّعى المتلمس ، فقال المتلمس :

ومن كان ذا عِرْض كريم ولم يصُنْ ۞ له حسباً كان اللئيم المذمَّما
أحارثُ إنا لو تُساطُ دماؤنا ۞ تَزايَلْن حتى لا يَمسَّ دم دماً
أمُنْتَفِياً من نَصْر بُهْثَةَ خِلْتنى ۞ ألا إننى منهم وإن كنت أينما
وإن نصابى إن سألتَ وأسرتى ۞ من الناس قوم يقتنون المزنّما
فلو غيرُ أخوالى أرادوا نقيصتى ۞ جعلت لهم فوق العرانين ميسما
وقد كنتَ ترجو أن أكون لعقْبكم ۞ زنيماً فما أحرزتُ أن أتكلما[1]

ولما خطب عمرو بن حُجْر إلى عَوْف بن محلَّم الشيبانى ابنته أم إياس قال له : أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا ، وأما بناتنا فننكحهن أكفاءهن من الملوك[2] .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يؤثر أن ينسب إلى جده الأعلى النَّضْر لا إلى جدته ، من ذلك أنه لما قدم عليه الأشعث بن قيس فى وفد كندة قال الأشعث : يارسول الله ، نحن بنو آكل المُرَار ، وأنت ابن آكل المرار . فتبسم رسول الله ، وقال : ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث ـ وكانا تاجرين إذا شاعا فى بعض العرب فسئلا ممن هما قالا نحن بنو آكل المرار ، يتعززان بذلك ، لأن كندة كانوا ملوكا ـ ثم قال لهم : لا ، بل نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفو أمنا ، ولا ننتفى من أبينا[3] .

وجاء الإسلام فحرم النسب المختلق المتعمد ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الأغانى ٢١/١٢١ والأصمعيات من مجموعة وليم البروسى ١/٦٤ بهثة : ابن وهب ابن جلى بن أحمس بن ضبيعة . تساط : تخلط .
(٢) العقد الفريد ٣ / ٢١٠ .
(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٥٤ .

« من ادعى إلى غير أبيه متعمداً حرم الله عليه الجنة[١] » وأمر القرآن الكريم بنسب المُتَبَنَّيْن إلى آبائهم ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ، وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم[٢] ﴾ ، فنسبة الشخص الذى يُعْلَمُ أبوه إلى غير أبيه حرام فى الإسلام[٣] .

٩ — ولقد اعتمد وِلْكِنْ على تشابه أسماء البطون فى دعواه أن الأنساب مختلقة ، لأن التشابه فى نظره وليد الانتحال والاختلاق ، ودليل على تشعب الآراء وتصرف الأهواء .

ولكن دفع هذا ميسور ، فقد تشترك قبيلتان أو أكثر فى لقب واحد كالأراقم ، فهو لقب جُشَم ومالك وعمرو وثعلبة والحارث ومعاوية بنى بكر بن عمرو من تغلب[٤] . ولعل سبب تلقيبهم بالأراقم أن عيونهم تشبه عيون الحيات الرقم ، يدل على ذلك قول المبرد إن الأراقم قبيلة من بنى تغلب ، لقبوا بذلك لأن عيونهم شبهت بعيون الحيات الأراقم ، فعرفوا بهذا الاسم[٥] . وكذلك بنو أبان بطون شتى من قبائل شتى ، بعضها من العدنانية وبعضها من القحطانية[٦] . وبنو أنمار حى من عدنان وحى من كهلان[٧] . وبنو عبد مناف علم على ثلاث بطون من العدنانية[٨] . وبنو أسد بطن من أزد كهلان من القحطانية ، وبطن من قضاعة من حمير . وبنو الأوس بطن من قحطان ، وبطن من عدنان . وكذلك بنو تغلب وبنو بكر[٩] .

وقد تتفرع من القبائل بطون تشترك فى اسم واحد لفظاً ونطقاً ، فمن هوازن

---

(١) تفسير الطبرى ٢١ / ٧٥ .
(٢) سورة الأحزاب ٤ .
(٣) تفسير الطبرى ٢١ / ٧٦ .
(٤) المعارف ٣٢ .
(٥) الكامل للمبرد ١٢٧ .
(٦) نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب للقلقشندى ٣٠ .
(٧) المرجع السابق ٢٦ .
(٨) المرجع السابق ٢٨٠ .
(٩) المرجع السابق .

هلال بن عامر بن صعصعة ، ومن ضبة هلال بن عامر بن ربيعة ، ومن ربيعة ابن نزار هلال بن ربيعة بن زيد ، ومن الأزد هلال بن عمرو بن كعب ، ومن النَّخع هلال بن عمرو بن جشم ، ومن قضاعة هلال بن جشم بن القين ،وكل هؤلاء بطون[١] ،فالاقتصار على هلال وحده وأحياناً عليه وعلى ما بعده يدعو إلى اللبس ، لذلك ألف ابن حبيب كتاباً عرض فيه نواحى من هذا التشابه والاشتباه .

١٠ — وسنرى فى الزواج أن العرب كانوا يجرون على أنواع ، أقر الإسلام واحداً منها ، وأبطل ثلاثة هى نكاح الاستبضاع ، ونكاح الرهط ، ونكاح البغايا ، وحتى فى هذه الأنواع كان ينسب الولد إلى أبيه ، لأن الأب فى نكاح الاستبضاع كان يطمع فى نجابة الولد وينسبه إليه ، وفى نكاح الرهط كانت المرأة ترسل إلى من باشروها وتعين واحداً منهم فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع ، وفى نكاح البغايا كان القافة يلحقون المولود بالذى يرون فيدعى ابنه ، ولا يرفضه[٢] .

فإذا كان الولد ينسب إلى أبيه فى هذه الأنواع التى لم يقرها الإسلام ، فأحرى به أن ينسب إلى أبيه فى النوع الذى أقره ، وهو الذى كان ذائعاً شائعاً ، ولو أن العرب كانوا يدينون بالأمومة لكان نكاح الرهط ونكاح البغايا أفسح مجال لها ، لأن الأب فيهما مجهول ، أو على الأقل مشكوك فيه .

ومن أمثلة ذلك أن جارية بن سليط بن الحارث اتصل ببغىّ فى سوق عكاظ ، فقالت له : لعلى سأعلق ولداً ، فموعدك فصال ولدى إن حملته ، فعرّف الجارية اسمه ، ثم وافى عكاظ بعد ثلاثة أعوام ، فوجدها قد ولدت غلاما وفطمته ، وأقبلت معها أمها وخالتها يلتمسنه بعكاظ ، ثم دفعن إليه الغلام ، فسماه

---

(١) مختلف القبائل ومؤتلفها ١٨ لابن حبيب .

(٢) ربيع الأبرار للزمخشرى ١٤٩ مخطوط وفضل العرب على العجم ٣٩ مخطوط وأمثال العرب للضبى ١٨ وفتح البارى ٩ / ١٥٨ والاعتصام للشاطبى ٢ / ١٨٤ وإنسان العيون ١ / ٤٧ والملل والنحل للشهرستانى على هامش الفصل ٣ / ٢٣٣ .

عوفا[١] . والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها اشتراك أبى لهب وأمية بن خلف وهشام بن المغيرة وأبى سفيان بن حرب والعاص بن وائل فى مباشرة النابغة أم عمرو بن العاص ، وحكمها هى بأنه للعاص[٢] .

١١ — وسنرى فى فصل (البنت) أن الوأد لم يكن عاما ، وفى (فصل الزوجة) أن العرب لم يجروا على المشاركة فى النساء ، وبهذين يبطل ما ذهب إليه مالك ليناتن ولكن من أن عموم الوأد اضطر العرب إلى المشاركة فى النساء ، وكانت هذه المشاركة هى السبب فى نظام الأمومة عندهم ، لأن الأم معلومة والأب مجهول .

رأيى فى أصل النسب إلى الأم :

لم أرتض أن يكون الباعث على النسب إلى الأم عند العرب هو نظام الأمومة ، ولكنهم قد نسبوا أحيانا إلى الأمهات ، فلماذا نسبوا إليهن ؟

أرى أن مرد هذا النسب إلى أمور شتى منها :

١ — تكريم الأم المنجبة ، وتمجيدها ، والإعلاء من قدرها ، كما نسب إلى أمه عمرو بن هند مُضَرِّط الحجارة ، وكما نسب المناذرة إلى أمهم ماء السماء ، وهى ماوية بنت عوف بن جُشَم ، وكما انتسب الحارث الأعرج إلى أمه مارية وانتسب إليها الغساسنة . يقول حسان بن ثابت فى مدح جبلة بن الأيهم :

لله در عصـــابة نادمتهم ... يوما بجِلّقَ فى الزمان الأول

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المُفْضل[٣]

---

(١) أمثال العرب للضبى ١٨ (٢) ربيع الأبرار ورقة ١٤٩ مخطوط .

(٣) الأغانى ١٤ / ٣ وهى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية الكندى أخت هند الهنودَ امرأة حجر آكل المرار الكندى (المعارف ٢٦٣ وربيع الأبرار ٢٠٦ مخطوط والفاخر للكوفى ٨٧ ومستقصى أمثال العرب للزمخشرى ١٠٠ وخزانة الأدب للبغدادى ٢ / ٢٣٨) .

ويقول النابغة الذبياني – أو حسان بن ثابت – في مدح عمرو بن الحارث الأعرج وتفضيله على المنذر :

قَذالُك أحسنُ من وجهه   وأمك خيرٌ من المنذر[١]

وقد انتسب إلى أمه ملك الحيرة عمرو بن المنذر الأكبر ، وعرف بأنه عمرو ابن هند ، وهي بنت عمة امرىء القيس الشاعر ، يقول عمرو بن كلثوم في معلقته :

بأى مشيئة عَمْرَو بن هند   تُطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟

بأى مشيئة عمرو بن هند   نكون لقيلكمْ فيها قطينا[٢]

ويقول طرفة في تحريضه له على الثأر من مُراد الذين قتلوا أخا عمرو بن هند :

أعمرو بن هند ما ترى رأى معشر   أماتوا أبا حسان جاراً مجاوراً

فإن مُراداً قد أصابوا حَرِيمَهُ   جهاراً وأضحى جمعهم لك واترا[٣]

وفي مدح الحارث بن حِلِّزة اليشكري للملك قيس بن شَرَاحِيل بن همام الشيباني كناية عنه بابن مارية (بنت سيار بن ذهل بن شيبان) :

وإلى ابن مارية الجواد وهل   شَرْوَى أبى حسان فى الإنس[٤]

ويمدح قيس بن زهير العبسى بنى زياد ، فيكنى عنهم بأنهم أبناء جنية في فضلهم وسؤددهم ودهائهم :

لعمرك ما أضاع بنو زياد   ذمار أبيهم فيمن يُضيعُ

بنو جنية ولدت سيوفا   صوارمَ كلها ذكرٌ صنيع[٥]

وقد نسب بعض المحدثين النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمه :

صلى الإله على ابن آمنة التى   جاءت به سَبط البَنان كريمًا[٦]

---

(١) الأغانى ١٤ / ٤ .   (٢) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٣٦ .

(٣) معجم البلدان ٧ / ١١٩ .

(٤) المفضليات ١ / ١٣١ شروى : مثل .

(٥) شرح الحماسة للمرزوقى ١ / ٤٧٠ .

(٦) تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه للفيروزابادى ١٠٠ من نوادر المخطوطات .

٣ — الفخار بها ، لعراقتها ، أو لادّعاء عراقتها كقول سلمة بن دُريد بن الصِّمّة وقد رمى أبا عامر الأشعرى فقتله ، حين بعثه رسول الله فى آثار من توجه إلى أَوطاس :

إن تسألوا عنى فإنى سَلَمَهْ   ابنُ سَمَادير لمن تَوَسَّمَه
أضرب بالسيف رءوس المُسْلِمَه(١)

وكقول وَزَر بن جابر النبهانى وقد رمى عنترة بن شداد : خذها وأنا ابن سَلْمَى ، فتحامل عنترة بالرمية حتى أتى أهله ، فقال وهو جريح :

وإن ابن سلمى عنده فاعلموا دمى
وهيهات لا يُرجَى ابن سَلْمَى ولا دمى(٢)

وكثيراً ما كان يقول الضارب : خذها وأنا ابن فلان أو فلانة .

وكان حسان بن ثابت ينسب إلى أمه الفُرَيعة ، وقد ناداه عمرو بن الحارث الأعرج معجباً بشعره بقوله يابن الفريعة أربع مرات فى مجلس واحد(٣) ، وكان حسان يلقب نفسه بذلك ، كقوله :

أمسى الخلابيس قد عَزُّوا وقد كثروا   وابن الفريعة أضحى بيضةَ البلد(٤)

وفى فخر الحارث بن حلزة قوله :

وولدنا عمرو بن أم أُناسٍ   من قريب لما أتانا الحِباء(٥)

وفى فخار الحُصين بن الحُمَام المرى بنفسه قوله :

أَبَى لابن سلمى أنه غير خالد   مُلاقِى المنايا أَىَّ صَرْفٍ تيمما(٦)

---

(١) سيرة ابن هشام ٤ / ٨٨ سمادير : أمه .

(٢) الأغانى ٧ / ١٤٥ .   (٣) الأغانى ٤ / ٣٤ .

(٤) الإصابة ٨ / ١٦٦ والأغانى ٤ / ١١ . الخلابيس : اللئام الأنذال .

(٥) شرح القصائد العشر ٢٨٧ يريد عمرو بن حجر الكندى جد الملك عمرو بن هند . وأم أناس هى أم الأول وهى من ذهل بن شيبان ، أى أن النسب بيننا وبين الملك قريب

(٦) المفضليات ١ / ٦٧ سلمى : أمه أو وجدته . أى صرف تيمم : أى جهة قصد أى أبى أن يحتمل الذل والعار لأنه لابد أن يموت .

ويقول الأحنف بن قيس :

أنا ابن الزافِريّةِ أرضعتْنى　　بثدىٍ لا أَجَدُّ ولا وخيمُ

أَتَمَّتْنى فلم تَنْقُضْ عظامى　　ولاصوتىإذا اصطَكَّ الخصوم(١)

ويقول إياس بن قبيصة الطائى إنه لا يستحق أن يكون ابن أمه العفيفة الشريفة النسب إن شايع هواه فى طلب امرأة :

ما ولدتنى حاصنٌ رَبَعِيَّةٌ　　لإن أنا ما لأتُ الهوى لاتّباعها(٢)

وقد سبق فخر النبي عليه الصلاة والسلام بأنه ابن العواتك .

٣ — مدح أبنائها بأنهم نسابها ، كما يمدح الملوك وأبناء المنجبات ، من ذلك أن أعشى بنى عوف — ضابىء أو يزيد بن خليد بن مالك — حمد جوار أبناء هند ، وهى امرأة من شيبان ، فقال :

فلم أرَ جيرانا إذا الحرب شمّرت　　كمثل بنى هند أعفّ وأكرما(٣)

وقول رُشَيْد بن رُمَيْض العَنَزِىّ فى غارة شُرَيْحْ بن شُرَحْبيل على اليمن :

باتوا نياما وابن هند لم ينم　　بات يقاسيها غلام كالزَّلَمْ(٤)

ومدح المساور بن هند بن قيس قومه إذ نفروا له لما استنفرهم ، وفداهم بنفسه وأبويه :

فِدًى لبنى هند غداة دعوتُهم　　بجوِّ وَبالَ النفسُ والمالُ(٥)

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٦٥ الزافرية : أمه واسمها حبى وهى من باهلة . لا أجد : ليس يابساً . وخيم : ثقيل . اصطك الخصوم : تقارعوا فيما بينهم . وقال يونس إنه عنى بعظامه أسنانه لأنها إذا تمت تمت الحروف وإذا نقصت نقصت الحروف .

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ١ / ١١١ والمرزوقى ١ / ٢٠٨ .

(٣) معجم الشعرا للمرزبانى ١٣ .

(٤) شرح الحماسة للمرزوقى ١ / ٣٥٤ والتبريزى ١ / ١٨٤ .

(٥) شرح الحماسة للتبريزى ٤ / ٩٨ الجو : الأرض المطمئنة . وبال : اسم ماء .

وقد افتخر موسى بن جابر ـ وكان يعرف بابن ليلى و بابن الفريعة أيضاً ـ برجلين من آبائه كنى عنهما بابنى العنبرية :

إذا ذكر ابنا العنبرية لم تضق ذراعى وألقى باسته من أفاخر
هلالان حمّالان فى كل شتوة من الثقل ما لا تستطيع الأباعر[1]

وكان رجل من عبد القيس ـ يقال له ابن أمية ـ قتل ، فرثته زوجته ، ومن رثائها قولها :

أجيرانَ ابنِ ميّة خبّرونى أعينٌ لابن مية أم ضِمار[2]

٤ — ولقد تكون الأم أعظم شهرة وعراقة من الأب فينسب إليها بنوها ، أو تكون الأم هى التى كفلت أبناءها وربتهم ، لأن أباهم مات وهم صغار ، فيشتهرون بها .

على أن من أسباب ذلك أيضاً التمييز بين الأبناء حين يتزوج الرجل بامرأتين أو أكثر ، ويولد له من زوجاته أولاد يشترك بعضهم فى اسم واحد ، فينسب كل منهم إلى أمه ـ مع انتسابه لأبيه ـ تمييزاً له من أخيه .

ومن أمثلة ذلك ما حدث فى الإسلام ، فقد كان لعلى بن أبى طالب أولاد من زوجات ، سمى ثلاثة منهم باسم محمد ، فنسب أكبرهم إلى أمه خولة بنت جعفر من بنى حنيفة ، وعرف بمحمد بن الحنيفة ، ولو أنه كان فى الجاهلية لعرف أعقابه ببنى الحنفية ، كما قيل فى الجاهلية بنو العدوية .

ولقد تكون الأم هى الوشيجة بين ابنها ومن ينسبه إليها ، فيؤثر أن يذكره بها لا بوالده ، كما قال النابغة فى رثاء أخيه لأمه :

لا يهنأ الناسَ ما يرعون من كلأ وما يسوقون من أهل ومن مال

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقى ١ / ٣٦٩ والتبريزى ١ / ١٩٠ .

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٤ / ١٤١ العين: النقد الحاضر . الضمار : الدين لا يرجى قضاؤه والمراد أتدركون ثأره أم تطلون دمه ؟

بعد ابن عاتكة الثاوى على أَمَرٍ   أمسى ببلدةٍ لا عمٍّ ولا خال[١]

٥ — وسنعرف فى حديثنا عن الزواج أن من أحوال النسب إلى الأم أن تعيش الزوجة مع زوجها فى عشيرته ، فإذا طلقها عادت إلى أهلها وحملت معها أولادها ، أو أن تعيش فى عشيرتها و يعيش زوجها معها ، فإذا طلقها عاد إلى عشيرته ، وترك أولاده مع أمهم،أو أن تعيش فى عشيرتها و يعيش هو فى عشيرته على أن يتردد عليها ، فإذا طلقها احتفظت بأولادها[٢] . وفى هذه الحالات ينسب الولد إلى أمه .

٦ — و يحق لنا أن نستنتج من بعض الهجاء أن التلقيب بالأم كان يقصد به التحقير أحياناً .

من ذلك قول الطِّرماح بن جَهْم السَّنْبَسِى لنافذ بن سعد المَعْنى :

متى قدتَ يابن الحنظلية عُصْبة   من الناس تهديها فجاج المَخارم ؟
فقُدْ بزمام بَظْر أمك واحتفر   بأَيْر أبيك الفَسلِ كُراثَ عاسِم[٣]

وقول آخر فى هجاء :

يا قبيح الله أقواما إذا ذُكروا   بنى عُمَيْرَةَ رهط اللؤم والعار[٤]

وقول أعشى باهلة فى رثاء أخيه لأمه المنتشر بن وهب يذكر قاتله هندا :

أصبتَ فى حَرَم منا أخا ثقة   هندَ بن سلْمى فلا يَهْنا لك الظفر[٥]

و إن عنترة ليفصح عن ذلك بأن قومه كانوا فى السلم حين لا تحوجهم نجدته

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢ / ١٨٥ ذو أمر : موضع .
(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٤ .
(٣) شرح الحماسة للتبريزى ٤ / ٣٠ المخارم : جمع مخرم وهو أنف الجبل . الفسل : الضعيف . عاسم : رمل لبنى سعد .
(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٤ / ٤٩ .
(٥) جمهرة أشعار العرب للقرشى ٢٨٢ .

يلقبونه بابن زبيبة ، وكانوا فى الحرب حين يستصرخونه و يفتقرون إلى بلائه يلقبونه بابن الأطايب :

ينادوننى فى السلم بابن زَبِيبة وعند صِدامِ الخيل بابن الأطايب[١]

ومن هذه الزراية قول بشر بن أبى خازم :

قل للمثلم وابن هند بعده إن كنت رائم عِزّنا فاستقدم[٢]

٧ ــ على أن الأب قد يموت فى حياة أمه أو أم زوجته ، فتكفل أحفادها وترعاهم ، فينسبون إليها ، أو تكون ذات شهرة فيعرفون بها ، كما نسب إسماعيل ابن إبراهيم بن مقسم الأسدى إلى جدته لأمه عُلَية ، ونسب إليها أيضاً ابن ابنه[٣] . وكما نسب عبد الله بن مالك الأزدى إلى أم أبيه عبدة بنت الحارث ابن عبدالمطلب ، ولقبها بُحَيْنَة[٤] ،ونسب سهل بن عمرو إلى أم أبيه الحنظلية[٥] ونسب الحارث بن مالك إلى أم أبيه أيضا ، واسمها عبدة ولقبها البَرْصاء[٦] . ونسب سعد بن عُقَيب إلى أم جده الحنظلية فعرف بابن الحنظلية[٧] .وفى الإسلام نسب جميل بن مَعْمَر إلى أم جده معمر فعرف بابن قميئة[٨] .

٨ ــ وفى قليل من الأحيان كان الولد ينسب إلى حاضنته و إن لم تكن أماً ولا جدة . فقد كان للنعمان بن المنذر ولد أودعه أخته لأمه ــ سلمى بنت ظالم المرى ــ لتحضنه وتربيه ، ثم اعتدى النعمان على جيران للحارث بن ظالم المرى أخى سلمى ، وغنم أبلهم ، فغضب الحارث ، واحتال على أخته حتى دفعت إليه ابن النعمان فقتله وقال :

فإن تك أذوادٌ أُصِبْنَ وصبية فهذا ابن سَلْمَى رأسه متفاقم[٩]

---

(١) ديوان عنترة ٢٥ .
(٢) جمهرة أشعار العرب ١٨٤ .
(٣) تحفة الأبيه ١٠٢ .
(٤) تحفة الأبيه ١٠٧ .
(٥) تحفة الأبيه ١٠٦ .
(٦) تحفة الأبيه ١٠٤ .
(٧) تحفة الابيه ١٠٥ .
(٨) سمط اللالى ١ / ٢٩ .
(٩) المفضليات ٢ / ١١٢ الأذواد : جماعات الإبل . متفاقم : مكسر .

وقد نسب أولاد إلى زوجة أبيهم ، لأنها حضنتهم ، فمثلا نسب إلى باهلة تسعة رجال ، وليست أما لغير اثنين منهم ، وإنما حضنت الجميع فغلبت عليهم[1] بل لقد نسب عوف بن عبد مناة بن أد بن طابخة إلى أمة سوداء حضنته ـ اسمها عكل ـ فغلبت على اسمه ، وإليه يشير البَعيث فى هجاء جرير بقوله :

وجئنا بعمرو بعد ما حلَّ سَرْبَهَا محل الذليل خَلْفَ أطْحَل أو عُكْلِ[2]

مظاهر حب الأم لبنيها

إذا كان الأولاد قد مَجَّدوا أمهاتهم ، وباهوا بعراقة نسبهن ، وإذا كان العرب قد عظموا المنجبات وضربوهن مثلا عالية تحتذى فى مجتمع يقدر الأم ، ويجل المرأة ، فإنهم خلفوا أيضاً من الآثار الأدبية ما يكشف عن حب الأم لبنيها ، وحسن تربيتها لهم ، وخلفت المرأة أيضاً ما يدل على إدراكها لواجبها نحو بنيها ، وتعهدها لثمرات حياتها .

وقد تجلى حبها لأبنائها فى مظاهر شتى :

١ – تربيتها لهم :

كانت العرب تعير من قصرت أمه فى تربيته ، وتسبه بذلك[3] ، وقد تجلت تربيتها لأبنائها فى مظهرين :

المظهر الأول التربية الجسمية : فهى تتعهد وليدها قبل أن تتحمله ، ذلك بأنها كانت لا تحمل إلا فى طهر ، ولعل الأب كان يشاركها فى ذلك ، لأنهم اعتقدوا أن الحمل فى أعقاب الحيض أو قبيل الحيض ينتج ولداً سقيما .

---

(١) لسان العرب وطهارة العرب للشنقيطى ٣٢ .

(٢) النقائض ١٥٦ عمرو : يريد عمرو بن تميم . أطحل : جبل ينزله بنو ثور بن عبد مناة

(٣) عيون الأخبار ١ / ٤٥٤ .

يقول أبو كبير الهذلى فى وصف تأبط شرا ابن زوجته إن أمه حملت به وهى طاهر ليس بها بقية من حيض :

ولقد سَرَيت على الظلام بِمِغْشَمٍ   جلد من الفتيان غــير مُثَقَّلِ
ومُبَرَّأٍ من كل غُبَّرِ حيضــة   وفساد مُرْضِعَةٍ وداء مُغْيِلِ[١]

ويشير إلى ذلك أحد شعراء الحماسة فى وصفه لابنه :

حميت على العُهّار أطهارَ أمه   وبعض الرجال المُدَّعَيْنَ غُثاء[٢]

وزعموا أن النطفة إذا وقعت فى الرحم فى أول الهلال ، خرج الولد قويا ضخما ، وإذا كان فى المحاق خرج ضئيلا ضامراً . قال الشاعر فى وصف مولود كامل اجتمعت له شرائط السلامة والصحة :

لَقِحَتْ فى الهلال عن قُبُلِ الطهـ   ـر وقد لاح للصباح بشير[٣]

لذلك هجا البعيث خصمه بقوله :

لَقَى حملته أمه وهى ضيفــة   فجاءت بِيَتْنٍ للضيافة أرشَمَا[٤]

وكانوا يعتقدون أن أنجب الأولاد ولد الفارك، لأنها تبغض زوجها ، فيزعمون أنه يسبقها بمائه ، فيخرج الولد مذكراً شبيهاً بأبيه ، وكان بعض الحكماء يقول إذا أردت أن تطلب ولد المرأة فأغضبها ، ثم قع عليها فإنك تسبقها بالماء .

وكذلك ولد الفزعة ، قال الأصمعى : إن المرأة إذا حملت وهى مذعورة فأذكرت جاءت به لا يطاق .

ذكر أبو كبير الهذلى فى وصف ابن زوجته تأبط شراً أن أمه حملت به وهى

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ١/٨٧ والشعر والشعراء ٢٥٧

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ١/١٤٣ لأن حمايته لأمه من الزناة وهى فى طهرها دليل على عفتها وغيرته ، ودليل على أن الطهر هو الزمن المتخير للحمل .

(٣) البخلاء للجاحظ ٢/٢٤

(٤) لسان العرب ١١/١١٣ و١٧/٣٤٧ الضيفة : الحائض . اليتن : الذى يولد منكوسا تخرج رجلاه قبل رأسه ويديه .

غير مستعدة لفراش ؛ لأنها فزعة ، فنشأ محموداً مرضياً لم يدع أحد عليه بالهلاك :

ممن حملن به وهن عواقــدٌ حُبُكَ النطاق فشبَّ غير مُهَبَّلِ
حملت به فى ليــلة مزءودة كرها وعقدُ نطاقها لم يُحْلَلِ(١)

وروى عن أم تأبط شرا قولها: حملت به فى ليلة ظلماء،وإن نطاق لمشدود(٢)، وقولها : لقد حملت به فى ليلة مظلمة وتحت رأسى سرج ، وعلى أبيه درع(٣) .
وكذلك قالوا فى ولد الغضبى والفارك :

تَسَنَّمْتُها غضبى فجاء مُسَهَّدًا وأنفع أولاد الرجال المُسَهَّدُ(٤)

ب ـ فإذا ما أتمت حملها ، ووضعت جنينها افتخرت بأنها وضعته وضعاً سليما صحيحاً لاعسر فيه ولا شذوذ ، روى عن أميمة أم تأبط شراً أنها قالت : والله ما ولدته يَتْنا(٥) ، ونسب هذا القول أيضاً لفـاطمة بنت الخُرْشُب(٦) ، ولعلهم كانوا يتحامون الحمل قبيل الحيض و بعيده حتى لا يولد الولد يتنا ، يدل على ذلك قول البعيث فى الهجاء كما سبق :

لَقًى حملته أمه وهى ضيفــة فجـاءت بَيتْنٍ للضيــافة أرشما

وقد رجعت إلى كثير من الأطباء الإخصائيين فى طب الأطفال وأمراض النساء ، فقرروا أن ما سبق فى الحمل ، وفى المرأة الفارك ، والمذعورة ، وفى الاستدلال على فساد المولود بنزوله منكساً ، قرروا أن هذا كله لا أساس له ولا صحة فيه .

---

(١) تهذيب الكامل ٢ / ٤٩ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقى ١ /٨٧ وكتاب المعانى الكبير لابن قتيبة ١ / ٥١٩ ليلة مزءودة : ذات فزع ويجوز نصب مزءودة على الحال من فاعل حملت .

(٢) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٨٨ (٣) المرزوقى ١/ ٨٧

(٤) المرزوقى ١/٨٥

(٥) الحيوان للجاحظ ١ / ٢٨٦ طبعة هارون والعقد الفريد ٣ / ٢٢٤ ولسان العرب ١٧/٣٤٧ وتهذيب الكامل ٢/٥٠ وشرح الحماسة للمرزوقى ١ /٨٧ اليتن : خروج رجل المولود قبل رأسه ، وذلك علامة سوء فيما يزعمون .

(٦) مجمع الأمثال للميدانى ٢/٢٧٦ والأغانى ١٦/٩٧ .

حـ ـ فإذا ما وضعته سقته من لبنها ،وهى فى حال تـكفل دَرَّه صافياً مغذياً ، فليست ترضع وهى حبلى ، لأنهم عرفوا بتجاربهم أن لبن الحبلى ضار بالرضيع . وقد ذكرت أم تأبط شرا فى حديثها السابق : « ولا سقيته غَيْلا » . وفى ذلك يقول أبو كبير الهذلى :

ومُبَرَّأٍ من كل غُبَّرِ حيضة وفساد مرضعـة وداء مُغْيل

ويقول الراجز : « كان أبوه غائباً حتى فطم » أى لم يسق غَيْلا[1] .

ويقول شاعر :

ثم نَمَّى ولم تُرضِّعْ فَلُوًّا ورضاع المُجِجِّ عيب كبير[2]

لذلك قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « هممت أن أنهى أمتى عن الغَيْلة ، حتى علمت أن الروم وفارس يصنعون ذلك ، فلا يضر أولادهم[3] » .

د ـ وهى إلى ذلك تتوخى راحته ، فتضاحكه وتداعبه ، وتنيمه على مسرة ، جاء فى حديث أميمة السابق (ولا أبتّه على مَأْقة) ، يقول الجاحظ : أما قولها فى المأقة فإن الصبى يبكى بكاء شديداً متعباً موجعاً ، فإذا كانت الأم جاهـلة حركته فى المهد حركة تورثه الدوار ، أو نومته بأن تضرب بيدها على جنبـه ، ومتى نام الصبى وتلك الفزعة أو اللوعة أو المـكروه قائم فى جـوفه ، ولم يعلل ببعض ما يلهيه و يضحكه و يسره ، فإن ذلك مما يعمل فى الفساد . والأم الجاهلة والمرقصة الخرقاء إذا لم تعرف ما بين هاتين الحالتين كثر منها ذلك الفساد وترادف، حتى يخرج الصبى مائقا[4] .

و يعلل المبرد تعليلا آخر فيقول : « لم أبته مغيظا ، وذلك أن الخرقاء تبيت

---

(١) تهذيب الـكامل ٢/٥٠ .

(٢) البخلاء ٢/٢٥ نمى : نما . الفلو : المهر والجحش إذا فطما والمراد الصبى . المجج: الـكبيرة البطن من الحمل .

(٣) السنن الـكبرى للبيهقى ٧/ ٤٦٥ وتهذيب الكامل ٢/٥٠ .

(٤) الحيوان للجاحظ ١/٢٨٦

ولدها جائعا مغموما لحاجته إلى الرضاع ، ثم تحركه فى مهده حتى يغلبه الدوار ، فينومه ، والـكيِّسة تشبعه وتغنيه فى مهده ،فيسرى ذلك الفرح فى بدنه من الشبع ، كما يسرى ذلك الغم والجوع فى بدن الآخر»[١] . وهما معا يلتقيان فيما نفهمه من العبارة أن نوم الطفل غضبان باكيا مهتاجا ـ وإن عولج بالمدهدة المنومة ـ ضار بالطفل .

هـ ـ ثم هى لاتمنعه الرضاع إذا اشتد الحر ، لتطفىء ظمأه ، ولا تسقيه الرَّثيئة من اللبن . تقول فاطمة بنت الخرشب : « ولا منعته قَيْلا ، ولا سقيته هُدَبداً[٢] » . وروى أن ليلى الأخيلية أجابت الحجاج ـ وقد أعجبه شباب ابنها فسألها عن تربيتها له ـ بما سبق من حديث أميمة وفاطمة[٣] .

المظهر الثانى التربية الخلقية :

أسلفت أن العرب كانوا يدينون بأن الولد يرث من أمه ومن أبيه ، وأنهم كانوا يرون فيه من خاله ملامح ، ومشابه فى الجسم والخلق ، وهم يحدثوننا أن غلاما نزع إلى جدته لأمه ، وكانت سوداء فجاء أسود[٤] ، وأن حاتما الطائى ورث الجود عن أمه غنية بنت عفيف الطائية ، وكانت سخية لاتبقى على شىء[٥] ، وكانت ذات يسار لا يسألها أحد شيئا فتمنعه ، حتى لقد حجر عليها إخوتها[٦] .

لذلك طلق أبو رمادة امرأته حين وجدها لثغاء ، مخافة أن تجيئه بولد ألثغ ، وقال :

لثغاء تأتى بحيفَسٍ ألثغ   تميس فى المَوْشِىِّ والمصبَّغِ[٧]

ونهى النبى عن إرضاع الحمقاء : « لاترضع لـكم الحمقاء فإن اللبن يُفسِد »

---

(١) تهذيب الكامل ٢/٥٠

(٢) مجمع الأمثال للميدانى ٢/٢٧٦ الهديد : الرثيئة : اللبن الخاثر الحامض جداً .

(٣) العقد الفريد ٣/١٧٧   (٤) إرشاد السارى ١٠/٣٨

(٥) مجمع الأمثال للميدانى ١/١٦٧   (٦) الأغانى ١٦/٩٣

(٧) البيان والتبيين ١/٦٤ الحيفس : الولد القصير الصغير الدميم .

وعن إرضاع سيئة الخلق : « لاترضع لـكم سيئة الخلق »(١) .

تعهدت الأم ولدها منذ طفولته ، فسكبت فى سمعه غناءها ، وحملت هـذا الغناء أمانيها فى أن يكون ولدها كما تشتهى مجداً وكرما وشجاعة ، وكانت ترقصه وتغنى له ، وترقيص الصبيان بالغناء والكلام الموزون من طبائع الإنسان أنى وجد ، حتى لتجدنه فى الحيوان الأعجم ، إذ تراه يهارش ولده ، ويداعبه فى صوت لين ، وحنو كحنو الإنسان على ولده (٢) . وقد احتفل بهذا الضرب من تأديب الطفل وإيناسه محمد بن المعلى الأزدى اللغوى فألف كتاب الترقيص(٣) .

ولاشك أن الآباء أيضاً كانوا يرقصون أطفالهم ، ولـكن الأمهات أكثر مزاولة للترقيص وخبرة ، وهن أندى صوتاً من الرجال ، وأصبر على مداعبة الأطفال وتهدئتهم .

ولقد نتساءل : هل من المعقول أن يفهم طفل معانى الغناء الذى ترقصه به أمه ؟ وإذا كان لايفهمها فكيف نعتدها ذات أثر فى خلقه ؟ لا نستطيع أن ندعى أن الطفل يفهم هذه المعانى ؛ ولـكنا لا ننسى أن إخوته الأسن منه كانوا يسمعونها من أمهم إذا مارقصت أطفالها ، فيفهمونها ويتأثرون بها .

ومن أمثلة ذلك ما غنت به ضُباعة بنت عامر بن قُرْط لابنها المغيرة بن سلمة وهى ترقصه ، فازدهت بآبائه ، وأشادت بسيادتهم وكرمهم وعزهم ، تأمل أن يكون ابنها نبعة من هذه الدوحة :

نما به إلى الذرى هشـامُ قـَرْمٌ وآباء له كـرامُ
جحاجحٌ خضـارمٌ عظامُ من آل مخزوم هم الأعلامُ
الهامة العلياء والسنامُ(٤)

(١) المبسوط للسرخسى ١١٩/١٥ والسنن الكبرى للبيهقى ٤٦٤/٧

(٢) الغناء للأطفال عند العرب الدكتور أحمد عيسى صفحة ه

(٣) من علماء القرن الرابع ذكره صاحب كشف الظنون ، والبغدادى .

(٤) الأمالى ١١٦/٢ جحاجح : سادة مسارعون إلى المكارم . خضارم: كرماء سادة. قرم : سيد

وكانت الشَّيماء بنت السيدة حليمة السعدية أخت النبي فى الرضاعة ـ وكانت تحضنه مع أمها ، ولذلك كانت تدعى أم النبي أيضا ـ ترقصه بدعائها له أن يرعاه الله :

هـــذا أخ لى لم تلده أمى   ليس من نسل أبى وعمى
فأَنْمِهِ اللهم فيما تُنْمِى[٤]

وقد تمنت أم الفضل بنت الحارث الهلالية لطفلها عبد الله بن عباس أن يسود العرب جميعاً حسبا وكرما :

ثكلت نفسى وثكلت بكرى   إن لم يسد فهرا وغير فهر
بالحسب العِدِّ وبذل الوَفْرِ   حتى يوارَى فى ضريح القبر[١]

٢ ـ الأم بفطرتها تواقة إلى أن يعيش بنوها ، لأنهم ثمراتها ، وبُضعٌ منها ، ولأنها تجد فى حياتهم حياتها مكررة ، وشخصها باقيا ، فهى ترى مباهج الحياة كلها فى طفلها ، وتحس من عظم فرحها وسعادتها به أنها لاتدانيها أم أخرى فى فرحها وسعادتها بابنها ، قالت أعرابية وهى ترقص ولدها :

يا حبــذا ريح الولدْ   ريح الخزامى فى البلدْ
أهكذا كل ولد   أم لم يلد قبلى أحد ؟

ويقيناً أنه لاحب يسامى حب الأم لابنها ، فقد تخون الحبيبة ، ويصد الأب ، ويجفو الأخ ، وتبغض الزوجة ، ويتقلب الصديق ، لكن الأم فوق هؤلاء جميعا ، لاينضب معين حبها ولا يترنق ، ويكاد عفوها يسبق دائما ذنب ابنها ، ولا تيأس من أن يعود إليها ابنها العاق فيندم على عقوقه ، ويطلب منها المغفرة .

ولقد يضطرها الرجاء فى أن يعيش ابنها إلى ضرب من الخرافات ، لا تجارى العقل ، ولكنها تساير الوهم ، فقد زعموا أن المرأة المقلات إذا وطئت قتيلا شريفا عاش بنوها[٢] ، قال الشاعر :

---

(١) السيرة الحلبية ١/١١٤
(٢) الأمالى ٢/١١٧
(٣) الأمالى ٢/١١٦

تظل مقاليتُ النساء يَطَأْنه ‏ يقلن ألا يُلْقَى على المرء مِئْزَرُ[١]؟

وفى مدحة الكميت للحسين بن على تسجيل لهذه العادة فى عصره :

وتطيل المرزَّآتُ المقاليـــــت إليه القعود بعد القيامِ[٢]

ومازالت بقية من هذه العادة فى بعض جهـات مصر ، إذ تتخطى المرأة العقيم أو المقلات قتيلا لتحمل ، ليعيش ولدها .

٢ — ولقد تنكب بموت زوجها ، فتعكف على رعاية أولادها ، وتأبى أن تتزوج وإن كانت فى عسرة ، من ذلك أن أم إثال آمَتْ ، وكانت أجمل نساء اليمامة ، فخطبها أشراف اليمامة فردتهم ، وقالت إنها لا تؤثر أحدا على ابنها ، ولا ترضى زواجا وإن كانت فى شظف ، وإنها تبقى على كرامة ابنها بين الناس، لأن زواجها يطامن من عزته ويحزنه ويؤذيه :

لعمرى إثالٌ لا أُفَدِّى بعينـــه ‏ وإن كان فى بعض المعاش جفاء

إذا استجمعت أمُّ الفتى غَضَّ طرفه ‏ وشـاعَرَه دون الدثار بلاء[٣]

بل رفضت المرأة الزواج من الرسول إشفاقا على أولادها ، وبقيا على راحتهم، فإنه لما خطب رسول الله أم هانئ بنت أبى طالب بعد موت زوجها هبيرة ، قالت : والله لهو أحب إلى من سمعى وبصرى ؛ ولكن حقه عظيم وأنا مؤتمة ، فإن قمت بحقه خفت أن أضيع أيتامى ، وإن قمت بأمرهم قصرت عن حقه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « خير نساء ركبن الإبل صوالح نساء قريش، أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على زوج فى ذات يده »[٤] .

٣ — وقد كان حبها لبنيها مدعاة إلى أن تحرص على مالهم ، وتحاول كفهم

---

(١) محاضرات الأدباء ١/٧٣ المقلات : المرأة التى لا يعيش ولدها .

(٢) أساس البلاغة مادة قلت وشرح الهاشميات ٣٢ المرزآت : اللائى مات أولادهن .

(٣) بلاغات النساء لابن طيفور ١٣٢

(٤) فتح البارى ٩/١٠٧ والعقد الفريد ٣/٢١٣ وأخبار النساء لابن القيم ٦٧

عن بذله فيما تحسبه إسرافا وحمقا ، وفى هذه المحاولة تشترك الأم والزوجة ، و يتبرم الشعراء بلومهما ، وسأتحدث عن هذا فى أخلاق المرأة .

ولم يُخفِ الشاعر أن أمه لامته على جوده ، ولم يجد غضاضة فى أن يبوح بما قالت له و بما قال لها ، فهذا حُطائط بن يَعْفُر يقص لوم أمه ـ رُهْم بنت العُباب ـ له ، ودفاعه عن نفسه :

تقول ابنة العُباب رُهْمٌ حَرَبْتَنا	حطائط لم تترك لنفسك مَقْعَدا
إذا ماجمعنا صِرْمةً بعد هَجْمَةٍ	تكون علينا كابن أمك أسودا
فقلت ـ ولم أعي الجواب ـ تأملى	أكان هزالا حتف زيد وأرْبَدَا ؟
أريني جوادا مات هُزْلا لعلنى	أرى ماترين أو بخيلا مُخَلدا
ذريني أكن للمال ربا ولا يكن	لى المال ربا تحمدى غِبَّهُ غدا
ذريني فلا أعيا بما حل ساحتى	أسُودُ فأكفى أو أطيع مُسَوَّدَا
ذريني يكن مالى لعرضى وقاية	يقى المال عرضى قبل أن يتبددا(١)

٤ — بينا تسعد الأم بطفلها ، وتتوسم فى مخايله سيادة وعزة و براً ، و بينا تنعم بولدها الذى شب أو اكتهل ، تستمتع ببره ، وتتسمع أعذب الثناء عليه فتزهى وتنتشى ، إذا بالدهر يبدد سعادتها ، و يطيح بنعمائها ، فيخطف ابنها . إنها الساعة المشئومة التى كانت لاتسمح لطيفها أن يلم بخاطرها ، إنها النكبة الكبرى التى لاتلتئم جراحها ، إنه الحزن الذى يجثم فى قلبها لايبرحه مارددت أنفاسها ، وأى حزن على فقيد يعدل حزن الأم ؟ بل أين ذلك الحزن الذى يدانى حزن أم على ولدها ؟

وقد يتنفس هذا الحزن فى نشيج أو فى وجوم أو فى دموع ، فإذا كانت

(١) الأغانى ١١/١٣٣ حربتنا : سلبت مالنا . صرمة : قطعة من الإبل من عشرين إلى ثلاثين ، وقيل غير ذلك . هجمة : قطعة من الإبل من أربعين إلى ما فوقها أو من سبعين إلى مئة . أسود : أخو حطائط .

الأم شاعرة تنفس حزنها فى قصيد أيضاً . وكثيرات الأمهات الراثيات ، وفى مراثيهن تصوير للوعة ، وقسوة الدهر ، وتصويح الأمل ، و إشادة بالمناقب .

فالأم إذ تيأس من أن يواتيها الصبر تود لو أنها كانت الفداء لابنها ، قالت أم تأبط شراً أو أم السليك فى رثائه :

ليت قلبي ساعة صَبْرَه عنك مَلَكْ
ليت نفسى قُدِّمَتْ للمنــايا بدلك[1]

وهى تخدع نفسها إذ تعلم بالفاجعة ، فتشك فى صدق الخبر ، ثم يفجعها الواقع فتحزن ، حتى تشعر أن الحزن قد جفف مخ عظمها ، وتحار وتسائل النــاس أو تــكاد تسائلهم : ماذا تفعل ؟ وأين تجد ابنها ؟ هكذا كان حال أم حكيم بنت قارظ زوجة عبيد الله بن عباس لما ذبح بُسْر بن أرطأة ولديها ، وكان معاوية قد بعثه إلى اليمن ونواحيها ، وكان عبيــد الله عاملا لعلى بن أبى طالب على اليمن ، وكانت أم الطفلين قد وارتهما ، فأخذهما من تحت ذيلها وذبحهما :

يا من أحسَّ بُنَيَّيَّ اللذين هما كالدرتين تَشَظَّى عنهما الصَّدَفُ
يا من أحس بنيي اللــذين هما سمعى وطرفى فطرفى اليوم مختطف
يا من أحس بنيي اللــذين هما مخ العظام فمخى اليوم مُزْدَهَفُ
نبئت بسراً ـ وماصدقت مازعموا من قولهم ومن الإفك الذى اقترفوا
أنحى على وَدَجَىْ طِفْلَيَّ مرهفة مشحوذة ، وعظيمُ الإفك يقترف
من دلَّ والهــة حرى مفجعــة على صبيين غابا إذمضى السَّلف[2]

٥ ـــ و إذا ماقتل ابنها وقبل زوجهاديته ثارت ، فهذه أم قرفة قتل ابنها فى حرب داحس والغبراء ، قتله قيس بن زهير ، فحمل ربيع بن زياد العبسى ديته إلى

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٩١

(٢) النقائض ٧١٧ وتهذيب الكامل ٢/٢٢٢ وبلاغات النساء ١٨٤ والأغانى ١٥/٤٥ مزدهف : فان هالك . الودج : عرق فى العنق .

أبيه حُذَيْفَة ، فرضيها ، وسكن الناس، فلما علمت أم قرفة بما فعل زوجها هاجت هياج المغيظ المحنق ، ودعت عليه بالهلاك ، وعيرته قبول الدية ، وحرضته على أن يثأر لابنه :

حذيفة لاسلمت من الأعادى ولا وُقِّيتَ شَرَّ النائبات
أيقتل قِرْفَةً قيسٌ وترضى بأنعام ونوق سارحات
نخذ ثأراً بأطراف العوالى وبالبيض الحِداد المرهفات[1]

مظاهر حب الأبناء لأمهاتهم

حفظ العرب لأمهاتهم صنيعهن،وأدركوا حقوقهن عليهم فأدوها ، وبروهن على خير مابر الولد والديه .

ولعلهم كانوا أكثر برا بالأمهات وحدبا عليهن من برهم وحدبهم على الآباء ، لأنهن أضعف ،وأشد حاجة إلى الحب والعطف ، وأكثر لصوقا بالطفل من الأب .

ويظهر أن هذا شعور عام فى الناس ، فقد جاء فى شريعة مانو الهندى : « الأم أجدر بالاحترام من ألف أب »[2] . وأبدع القرآن الكريم فى تذكير الأبناء بما قاست أمهاتهم فى حملهم وإرضاعهم ، وكرر الأمر ببر الوالدين ، وقرنه كثيرا بطاعة الله . وأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حينما أمر ببر الأم ثلاث مرات ، وقفاهن ببر الأب[3] .

حتى الأم الرضاعية كانت لها مكانة فى نفس المسترضع منها ، فقد وفد على النبى أشراف من هوازن ـ قوم السيدة حليمة السعدية مرضع الرسول ـ بعد غزوة حنين ، فقالوا ، يارسول الله إنما فى الحظائر عماتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك . ولو أننا مَلَحْنا ـ أرضعنا ـ للحارث بن أبى شمر أو للنعمان بن المنذر ،

---

(١) رياض الأدب فى مراثى شواعر العرب ٤٠
(٢) حضارة الهند . جستاف لوبون ٣٢٨
(٣) البخارى ٢/٨

ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائدته . فقال رسول الله : ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهولكم . وقالت قريش والأنصار : ما كان لنا فهو لله ورسوله . و بذلك أطلقت سبايا هوازن[١] .

وقد اتضح إعزاز الأم فى عدة مظاهر :

١ — حمايتها من المهانة أيا كان مصدرها ، وأياما كانت نتائج هذه الحماية، فقد حاول عمرو بن هند أن يستذل أم عمرو بن كلثوم ، فثارت ليلى بنت كليب أم عمرو بن كلثوم ، وثار ، وقتل الملك فى ثورته[٢] ، وقال فى ذلك قصيدته المشهورة ، وخطب بها فى سوق عكاظ[٣] ، و بنو تغلب تعظمها جدا ، و يرو يها كبارهم وصغارهم ، حتى لقد هجوا بذلك :

ألهى بنى تغلب عن كل مَكْرُمةٍ قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونهـا أبدا مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسئوم

وكأن التغلبيين لم يكفهم فخر عمرو ، على روعته وكثرته ، فافتخر شعراؤهم بجرأته وأنفته ، يقول أُفنون بن صُرَيم التغلبى :

لعمرك ماعمرو بن هند وقد دعا لتخدم أمى أمـه بموفَّقِ
فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتا فأمسك من نَدْمانه بالمُخَنَّقِ
وجاله عمرو على الرأس ضربة بذى شُطَبٍ صافى الحديدة رونق[٤]

وسواء أكانت القصة صحيحة أم فيها خيال ومبالغة ، فإنها تدل على إعزاز الأم ؛ لأن الذى اخترعها أو زاد عليها جارى العرف العام .

ثم قتل مرة بن كلثوم أخو عمرو المنذرَ بن النعمان وأخاه ، و إياه عنى الأخطل يقوله لجرير :

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/١٣٤ (٢) الكامل لابن الأثير ١/٢٢٦

(٣) الأغانى ٩/١٧٥

(٤) الأغانى ٩/١٧٦ والحيوان للجاحظ ٣/١٣٥ والكامل لابن الأثير ١/٢٢٦ المخنق : الحلق . ذو شطب : سيف به طرائق .

أبنى كليب إن عمىَّ اللـذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا(١)

٢ — الفخر بها ، كما سبق ، وقد افتخر خُفاف بن نُدْبة بأمه ، وفضلها على أم العباس بن مرداس :

أبى الشتم أنى سيد وابن سادة مطاعين فى الهيجا مطاعيم للجَرم
أدِبُّ على أنماط بيضاء حُرة مقابلة الجَدَّين ماجدة العم
وأنتَ لحنْفاءِ اليدين لو انها تباع لما جاءت بزَنْدٍ ولاسهم(٢)

٣ — وهم يُفَدُّون بالأم كثيراً ، إشعارا بأنها أعز إنسان عليهم ، وأحيانا يقرنون بها عزيزا آخر ، وأحيانا يفردونها . يقول العباس بن مرداس فى مدح حُلَيْس النصرى بعد ماثأر له من قاتل أخيه :

فدى لك أمى إذ ظَفِرْتَ بقتله وأقسم أبغى عنك أما ولا أبا(٣)

ويقول عبد الله بن جِذْل الطعان :

فِدًى لهم نفسى وأمى فدى لهم ببُرْزَةَ إذ يَخْبِطَنهم بالسنابك(٤)

ولما رَدَّتْ بنو لَحْيان غزاتها من بنى كعب مدحهم مالك بن خالد الهذلى أو حذيفة بن أنس الهذلى بقوله :

فِدًى لبنى لَحيانَ أمى وخالتى بماصعوا بالجزْعِ ركبَ بنى كعب(٥)

وقد افتخر حسان بن ثابت بانتصار الخزرج على الأوس فقال .

فدى لبنى النجار أمى وخالتى غداة لقوهم بالمثقفة السُّمْر(٦)

---

(١) الأغانى ٩/ ١٧٦
(٢) الأغانى ١٦/١٣٨ أنماط : نسب أوضرب من البسط . مقابلة الجدين : كريمة النسب من جهتهما . حنفاء : معوجة .
(٣) الأغانى ١٣/٦٦
(٤) معجم البلدان ٢/١٢٥ برزة : موضع كانت به وقعة قتل فيها مالك بن خالدبن صخر الشريد . (٥) معجم البلدان ٤/٩٦
(٦) الكامل لابن الأثير ١/٢٤٣

وفى يوم أحد نثل النبى كنانته لسعد بن أبى وقاص ، وقال : ارم فـداك أبى وأمى[1] .

٤ — ثم إن الأولاد كانوا يستجيبون مشورة أمهاتهم ، فإنه لما هجا بشر بن أبى خازم الأسدى — وكان عبداً — أوس بن حارثة الطائى ، وذكر أمه سعدى ، أغار أوس على نوقه ، فهرب منه ، ثم قدم عليه ، فأشار عليـه قومه بقتله ، فقال أوس : هجوتنى ظالمـاً فلا مفر من قطع لسانك ، أو حبسك حتى تموت ، أو قطع أطرافك وتخليتك .

ثم دخل على أمه سعدى ، فقالت له: يابنى ، مات أبوك، فرجوتك لقومك، فأصبحت أرجوك لنفسك . زعمت أنك قاطع رجلا هجاك ، فمن يمحو ما يقوله غيره؟ قال : فماذا أصنع ؟ قالت : تـكسوه حلتك ، وتحمـله على راحلتك ، وتعطيه مائة ناقة ، فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه . ففعل ما أمرت به أمه ، فقال بشر : لا مدحت أحدا حتى أموت غيرك ، ومدحه بقصيدته التى يقول فيها :

إلى أوس بن حارثة بن لَأْمٍ ليقضى حاجتى ولقـد قضاها
فما وطىء الحصا مثل ابن سُعْدَى ولا لبس النعال ولا احتذاها[2]

وكثيراً ما كانت الأم تحرض ابنها على الثأر ، فتؤجج حماسـته ، وتذكى بغضته ، فيندفع لثأره لا يلوى على شىء ، كما سأبين فى أثر المرأة فى الثأر .

٥ — وقد أسلفت أنهم كانوا يعبرون عن الإخوة الأشقاء بأنهم أبناء أمهم ، يستعطفونهم بذلك ، أو يذكرونهم بصلة حبيبة يجب أن توصل ، أو يظهرون عظم الفجيعة فى أخ عزيز ، أو يتحسرون على مودة مقطوعة ، الخ . . . يقول الشنفرى :

---

(١) فتح البارى ٧/٢٧٦ وتاريخ الطبرى ٣/١٨ نثل : نفض .
(٢) بلاغات النساء لابن طيفور ١٤٠ والـكامل لابن الأثير ١/٢٦٣

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأمْيَلُ[١]

ويقول أبو زُبَيْد الطائى :

يابن أمى ويا شقيق نفسى أنت خلّيتنى لأمر شديد[٢]

ويقول متمم بن نويره فى رثاء أخيه مالك :

. . . .

وفقد بنى أم تداعوا فلم أكن خلافهم أن أستكين وأضرعا[٣]

ويقول أيضاً :

فإن يك إخوانى توفوا وأخطأت بنى أمك الدنيا حُتوفُ الرواصد

فكل بنى أم سيمسون ليلة ولم يبق فى أعيانهم غير واحد[٤]

ويقول أوس بن حجر فى هجاء طفيل بن مالك :

لعمرك ما آسى طفيلُ بن مالك بنى أمه إذ ثابت الخيل تَدَّعِى

. . . .

فراراً وأسلمت ابن أمك عامراً يلاعب أطرافَ الوشيج المُزَعْزَعِ[٥]

وتقول أم حاتم الطائى تعاتب إخوتها لأنهم يلومونها فى كرمها :

وماذا ترون اليوم إلا طبيعة فكيف بتركى يابن أم الطبائعا؟[٦]

ويقول معد يكرب بن الحارث فى رثاء شقيقه شرحبيل :

يا بن أمى ولو شهدتك إذ تد عو تميما وأنت غير مجاب

لتركت الحسام تجرى ظُباه من دماء الأعداء يوم الكُلاب[٧]

وفى يوم أحد خرجت صفية بنت عبد المطلب ، وقد انكشف المسلمون ،

---

(١) أعجب العجب فى شرح لأمية العرب ٢ (٢) الموشح للمرزبانى ٩٧

(٣) المفضليات ٢/٦٨ (٤) حماسة البحترى ٣٦٢

(٥) ديوان أوس ١٣ تدعى : تتلاحق وتفر . الوشيج : الرماح .

(٦) الأغانى ١٦/٩٤ (٧) شعراء النصرانية ٢

فقالت : يا رسول الله ، أين ابن أمي حمزة ؟ (١) .

ووفدت أم هانىء بنت أبي طالب على النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح ، فقالت : يا رسول الله زعم ابن أمي عليٌّ أنه قاتِلٌ رجلا قد أجرته (٢) .

٦ — وإذا ما تزوج الرجل أجد رابطة جديدة بامرأة جديدة ، يتخذها سكنه ، ويعاطيها كأس المودة دهاقا ، وليست له مندوحة من أن تخلف زوجته أمه فى رعايته ، وتعرف دخيلته ، ومشاركته فى كثير من شئون حياته .

ولقد تفتر علاقته بأمه ، ولقد تتراوح بين القوة تارة والضعف تارة ، وربما تسعده ظروفه فتتيح له أن يغمر أمه وزوجه بعطفه كما يغمرانه . لكن حدثاً قد يلم به ، فيوحى إليه أن أمه أصبر عليه فى نكبته من زوجته ، فيؤثر أمه عليها ، لأنه يعلم بتجربته وبتجارب غيره ، ويعلم بفطرته أيضاً أن أمه أبقى له وأوفى ، وهى عليه أحْنى .

حدث هذا لصخر بن عبد الله الشريد ، كان يتعشق ابنة عمه سلمى بنت كعب ، وكان يخطبها فتأبى عليه ، فأقام على ذلك حينا ، ثم أسرت سلمى ، واستنقذها صخر بعدما أصابته طعنة فى جنبه ، وتزوج بها ، وكان يحبها ويكرمها ويؤثرها على أهله . ثم انتفض جرحه ، فمرض حولا ، وكان نساء الحى يدخلن إلى سلمى عوائد ، فيقلن : كيف أصبح صخر ؟ فتقول : لا حَيٌّ فيرجى ولا ميت فينسى . فسمعها صخر ، وعرف أنها تبرمت به ، فى حين أنه يرى تحرق أمه عليه ، فقال لها ناولينى السيف لأنظر أصدىء أم لا ، وهو يريد قتلها، فناولته، فإذا هو لا يقدر على حمله ، فقال :

أرى أم صخر لا تمل عيادتى ... وملت سليمى مضجعى ومكانى
وما كنت أخشى أن أكون جنازة ... عليك ، ومن يغتر بالحَدَثان ؟

---

(١) المغازى ٢٨٣ — (٢) فتح البارى ٦/١٩٦

فأى امرىء ساوى بأم حليلةً ... فلا عاش إلا فى شَقًا وهوان

أُهُمُّ بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العَيْر والنَّزَوان

لعمرى لقد أيقظتِ من كان نائما ... وأسمعتِ من كانت له أذنان

فللموتُ خير من حياة كأنها ... مُعَرَّسُ يَعْسُوب برأس سنان[١]

ويشفع لتصديق هذه القصة الإجماع على روايتها، وتسجيل صخر لها فى شعره، وأمر آخر أهم من هذين أن سلمى كانت فاركا له، راغبة عنه منذ خطبها، ولقد تزوجها شبه مرغمة بعد أن استنقذها من السبى. ويظهر أن نفرتها منه كانت شديدة لم يلطف من حدتها حبه لها وإيثاره إياها.

٧ – الإخوة لأم

قلت إن الأم كانت وشيجة قوية فى القرابة، وأرجح أن الإخوة لأم كانوا أكثر تعاطفا وتراحماً وتوادا من الإخوة لأب، ذلك بأنا نجد الشعراء كثيراً مايعبرون عن إخوتهم الأشقاء بأنهم أبناء أمهم، كقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك بن نويرة:

تقول ابنة العمرىِّ مالك بعدما ... أراك قديماً ناعم البال أفرعا

فقلت لها طول الأسى إذ سألتِنى ... ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا

وفقدُ بنى أم تولوا فلم أكن ... خلافهم أن أستكين وأضرعا[٢]

وقول حسان بن ثابت يعير الحارث بن هشام فراره يوم بدر، وتركه أخاه الشقيق أبا جهل:

---

(١) الأغانى ١٣/١٣١ وأخبار النساء لابن القيم ٧٦ وتهذيب الكامل ٢/١٩٣ ومستقصى أمثال العرب للزمخشرى ٩٩ مخطوط والحماسة البصرية ٢٢٤ مخطوط. ووفيات الأعيان ١/١٣٢ والشعر والشعراء ١/٣٩٣ تحقيق شاكر.

(٢) جمهرة أشعار العرب ٢٩٤

هلاّ عطفتَ على ابن أمك إذ ثوى قَعصَ الأسنة ضائع الأسلاب[1]

ولم يجد دريد بن الصمة فى تصاريف الدهر ، وتفريقه شمل الأحبة، أقسى من تفريقه بين الشخص وابن أمه ، وقطعه ما بينهما فينفد كما ينفد زاد المسافر ، يقول فى رثاء أخيه عبدالله بن الصمة :

أعاذلتى كل امرىء وابنُ أمـهِ متاعٌ كزاد الراكب المتزود[2]

ثم إنا نستشف من اللغة نفسها ما يثبت أن الإخوة لأم أعظم تحابا من الإخوة لأب ، لأن الأعيان الإخوة لأب وأم ، والأقران والأخياف بنو أم واحدة من رجال شتى ، و بنى العَلاَّت بنو رجل واحد من أمهات شتى[3] .

وكلمة أقران جمـع قِرن وهو الـكفء[4] ، ففيها دليل على تكافؤ الإخوة لأم وتماثلهم ، وكلمة أخياف معناها أن فى سحنهم وألوانهم وخلقتهم بعض الاختلاف ، لأن آباءهم مختلفون ، ولعلها مشتقة من الخيَف وهو زرقة إحدى عينى الفرس وغيره وسواد الأخرى[5] . أما العَلاَّت فهن الضرائر ، ويكفى التعبير عن الإخوة بأنهم أبناء ضرائر، للدلالة على ما بينهم من تجاف وتباغض .

على أنا ما زلنا نشعر بالجفوة بين أبناء العلات ، مستعلنة تارة ، ومستترة إلى حين تارة ، وما زلنا نشعر بالتعاطف بين الأخياف ، وتساقيهم الود صافيا .

ومردّ ذلك إلى أن الأم الواحدة تقرب ما بين بنيها ، أما الضرائر فيباعدن بينهم بالوقيعة والدس ، و بث عوامل الغيرة والتنافس والتحاسد .

ثم إن أبناء الضرائر أكثر تنازعا على الميراث من الأشقاء ، أما الإخوة لأم فلم يتنازعوا على ميراث ، وقلما حدث ذلك ، لأن الثروة للأب فى الأعم الأغلب .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٨٦ وديوان حسان ١٧ قعص الأسنة : القتل بها فى سرعة .

(٢) الأغانى ٩/٤ (٣) لسان العرب ١٧/١٨١

(٤) القاموس المحيط مادة قرن . (٥) القاموس مادة خيف .

يتجلى حب الأخ لأم فى أن ضرار بن عمرو صُرع فى معركة بين القَنا ، فأسرع إليه إخوته لأمه فأنقذوه ، ثم استشالوه حتى ركب فرسه ، فرفع عقيرته بعكاظ فقال : ألا إن خير حائل أم ، ألا فزوجوا الأمهات[1] . ويتجلى أيضاً فى رثاء كثير من الشعراء لإخوتهم لأمهاتهم ، كرثاء أعشى باهلة لأخيه المنتشر بن وهب ، وهو رثاء تتأجج فيه اللوعة والحزن ، كقوله :

فَظَلْتُ مكتئبا حَرّان أندُبه ... وكنت ذا حذر لو ينفع الحذر

عشنا به حقبة حيا ففارقنا ... كذلك الرمح ذو النصلين ينكسر

فإن جزعنا فإن الشر أجزعنا ... وإن صبرنا فإنا معشر صُبُرُ

فإن سلكتَ سبيلا كنتَ سالكها ... فاذهب فلا يَبْعَدَنْكَ الله منتشر[2]

وفى هذه القصيدة عدد الشاعر مناقب أخيه ، وأشاد بمآثره إشادة المعتز بها ، الأسيف على ذهابها .

كذلك رثى أبو العِيال الهذلى أخاه لأمه عَبْد بن زهرة ، فأشاد بشجاعته ، وصور الحزن يصيب رأسه بالصداع وجسمه بالألم ، وصور عينه تذرف الدمع غزيراً ، كأنه سيل يتسرب من مزادة مثقوبة ، ثم صور ليله كئيبا ، لأن الذكريات تتوافد عليه ، ولأن فراغه فى الليل يسلمه لهواجسه و بلابله :

ألا لله درك من ... فتى قوم إذا رَهِبُوا

وقالوا مَنْ فتى للحر ... ب يَرْقُبنا ويُرتقبُ

فكنت فتاهم فيها ... إذا يدعى لها يثِبُ

ذكرت أخى فعاودنى ... صداع الرأس والوصَبُ

فدمع العين من بُرَحا ... ء ما فى الصدر ينسكب

كما أودى بماء الشَّنَّـ ... ـة المخروزة السَّرَب

(١) البيان والتبيين ١/١٦ تحقيق هارون . حائل : لم تحمل .

(٢) جمهرة أشعار العرب ٢٨٢ وخزانة الأدب ١/١٣٠

على عَبْد بن زهرة طو   ل هذا الليل أ كتئب[١]

و كذلك رثى النابغة الذبيانى أخاه لأمه[٢] ، ورثى سلمة الجُعْفى أخاه لأمه[٣] .

٨ — إعزاز الخال

أسلف أن الأم مانحة ابنها الحياة ، وموَرِّثة إياه بعض مميزاته الجسمية والعقلية والخلقية ، وأن العرب خايلوا بعراقتها وشرفها وسمو أخلاقها و إنجابها .

وسنرى فى الزواج أنهم يجيدون اختيار الزوجة ، و يتحرون أصولها ، وأخوها مقياسهم فى ذلك ، لأنه النبعة المماثلة للأم ، فهو مرآة لها ، وهى صورة منه .

فإذا كان أخو الأم سيداً شجاعاً جواد فصيحاً كان الأمل قو يا فى أن ينزع إليه ابن أخته نزوعا يعضد ما يرثه من أبيه . و إذا كان الخال رعديداً كزا مهينا تسر بت رذائله كلها أو بعضها إلى ابن أخته ، فعاندت وراثته الخيرة من أبيه ، أو سايرت رذائله الموروثة من أبيه ، وغذتها ونمتها .

فالولد أحيانا يشبه خاله جسداً ، يقول الراجز فى ولده وقد غلبته أمه على شكله :

والله ما أشبهنى عصامُ   لا خلقٌ منه ولا قوامُ

نِمْتُ وعرق الخال لا ينامُ[٤]

وأحيانا يرث من خاله خلقاً أو ميلا ، كما ورث زهير خال أبيه بشامة بن الغدير ، وكان بشامة يعرف أن زهيراً وارث شعره ، فإنه لما حضرته الوفاة جعل يقسم ماله فى أهل بيته و بين بنى إخوته ، فأتاه زهير فقال : ياخالاه ،

---

(١) الأغانى ٢٠/١٦٦ و ٢/٦١ وشرح أشعار الهذليين للسكرى ١٣٧

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٨٥

(٣) شرح الحماسة للتبريزى ٣/٥٩

(٤) تهذيب الكامل ٢/٥٠

لو قسمت لى من مالك ؟ فقال : والله يا ابن أختى لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجز له . قال : وما هو ؟ قال : شعرى ورثتنيه[١] .

وقد أتى الشعر امرأ القيس بن حُجْر من قبل خاله مهلهل[٢] ، وأتى الأعشى من قبل خاله المسيَّب بن علَس ، وأتى خُفَاف بن نَدْبة السلمى من قبل خاله تأبط شرا ، وأتى دُرَيْد بن الصمة من خاله عمرو بن معديكرب[٣] . وكان لهذه الوارثة أثر فى أن ولدت الخنساء بنيها شعراء جميعاً[٤] . واعترف الفرزدق بأنه ورث الشعر من خاله العلاء بن قَرَظة[٥] وقرر النابغة الجعدى أنهم شاركوا قريشاً فى تقواها وأنسابها ، لأن آمنة بنت أبان أم الأعياص وأم أبى مُعَيْط منهم :

وشاركنا قريشاً فى تُقاها ... وفى أنسابها شِرْكَ العنان
بما ولدت نساء بنى هلال ... وما ولدت نساء بنى أبان[٦]

نصرة الخال لابن أخته

لا جرم كان الخال فى هذه البيئة التى تعتز بالخال يحدب على ابن أخته ، و يقيه أو ينصره ما وسعه النصر ، لأن الأم إذا مانسات أنشأت عصبية الخئولة ، وهى نصرة إخوة الأم وأقاربها لابن أختهم ، وأحيانا لعشيرة الزوج كلها .

ولقد كانت تحدث هذه النصرة بين القبائل المتباعدة الأصول ، كاليمنية والمضرية ، من ذلك تأييد الخزرج و بنى النجار خاصة ، وتأييد إخوانهم الأوس للنبى عليه الصلاة والسلام ، لأن أمه من بنى النجار من الخزرج ، فالخزرج كلهم أخواله ، وخئولتهم له مكررة ، لأن أخوال عبد المطلب من المدينة ، فأمه سلمى

---

(١) طبقات الشعراء ٥٦٤ والأغانى ٩ / ١٥٠ ورسالة الغفران ٥٤٧ تحقيق عائشة عبد الرحمن وديوان زهير ٣٠٥ (٢) سمط اللالى ١/٣٨ (٣) سمط اللآلى ١/٣٩
(٤) سمط اللآلى ١/٣٢
(٥) الشعر والشعراء ١٣٦ بتحقيق شاكر وسمط اللآلى ١/٣٩
(٦) الأغانى ١/١٧ شرك العنان : التساوى فى الشركة لأن عنان الدابة طاقتان متساويتان .

بنت عمرو من بنى النجار ، وأمها منهم أيضا ، وكذلك أم أمها[1] ، وأخوال عبد الله بن عبد المطلب من المدينة أيضاً ، وقد توفى عندهم شابا[2] ، وإن كان بنو زهرة يقولون إنهم أخوال النبى ، لأن السيدة آمنة منهم وإن لم يكن لها أخ[3] ، لأن أمه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة[4] .

لذلك لما كبر عبد المطلب وتسلم مال أبيه عرض له نوفل بن عبد مناف فى رُكح له ــ ساحة ــ فاغتصبه إياه ، فسأل عبدالمطلب رجالات قومه أن ينصروه ، فرفضوا أن يدخلوا بينه وبين عمه ، فكتب إلى أخواله يصف لهم ما فعل نوفل ، فقال :

أبلغ بنى النجار إن جئتهم　　أنى منهم وابنهم والخميس
فإن عمى نوفلا قد أبى　　إلا التى يغضى عليها الخسيس

فخرج أبو أسعد بن عدس النجارى فى ثمانين راكباً ، وهدد نوفلا ، فرد الرُكح إلى عبد المطلب ، فقال عبد المطلب :

بهم رد الإله علىّ رُكحى　　وكانوا فى التَّنَسُّب دون قومى

وقال فى ذلك سمرة بن عمير الكنانى :

لعمرى لأخوالُ لشيبة قَصْرَةً　　مِنَ أعمامه أبَرُّ وأوصل
أجابوا على بعد دعاء ابن أختهم　　ولم يثنهم إذ جاوز الحقَّ نوفل
جزى الله خيراً عصبة خزرجية　　تواصوا على برٍ وذو البر أفضل

فلما رأى ذلك نوفل حالف بنى عبد شمس كلها على بنى هاشم[5] .

فلا عجب فى أن تؤيد الخزرج النبى عليه الصلاة والسلام ، وأن ينضم إليهم إخوانهم الأوس ، فنجد أن أول من لباه من المدينة أخواله ، لأنه لما عرض

---

(١) المعارف ٢٤ و ٤٢ وسيرة ابن هشام ١/١١٩ والتنبيه والإشراف ١٩٧ .
(٢) المعارف ٣٨　　(٣) المعارف ٤٢ .
(٤) سيرة ابن هشام ١/١٢٠ .
(٥) تاريخ الطبرى ٢/١٧٨ .

نفسه فى مستهل الدعوة على نفر من الخزرج آمنوا به ، وكانوا تسعة ، فيهم اثنان من بنى النجار[١] ، ثم بايعه اثنا عشر رجلا بيعة العقبة الأولى ، فيهم عشرة من الخزرج ، ومن هؤلاء ثلاثة من بنى النجار[٢] ، ثم بايعه ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان بيعة العبة الكبرى ، وكان النقباء من هؤلاء اثنا عشر ، منهم تسعة من الخزرج ، ونتبين من المبايعة تسعة وثلاثين رجلا من الخزرج ، بينهم أحد عشر من بنى النجار ، هذا إلى امرأة نجارية من المرأتين المبايعتين[٣] . على أن المِرْبَد الذى بركت فيه ناقة الرسول فى مقدمه إلى المدينة مهاجرا كان لغلامين يتيمين هما سَهْل وسهيل ابنا رافع بن عمرو من بنى النجار[٤] .

وقد اشتهر الخزرج و بنو النجار ومن يمت إليهم بقرابة بشدة دفاعهم عن الرسول وغيرتهم عليه[٥] ، وكان النبى إذا استَحَرَّ القتال جلس تحت راية الأنصار كما فعل يوم أحد[٦] ، وكان أعداء الإسلام إذا هجوا النبى والمسلمين خصوا بنى النجار بالهجاء ، يقول عمرو بن العاص — فى يوم أحد قبل أن يسلم — :

خرجنا من الفَيْفا عليهم كأننا ... مع الصبح من رَضْوَى الحَبِيكُ المُنَطَّقُ
تمنت بنو النجار جهلاً لقاءنا ... لدى جنب سَلْعٍ والأمانىُّ تَصْدُق
فما راعهم بالشر إلا فجاءة ... كراديس خيل فى الأزقة تَمْرُق
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا ... ودون القباب اليوم ضرب مُحَرِّق
وكانت قبابا أومِنَتْ قبلَ ما ترى ... إذا رامها قوم أُبيحوا وأُحنقوا
كأن رءوس الخزرجيين غُدْوَةً ... وأيمانَهُمْ بالمشرفية بَرْوَقُ[٧]

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٨ .
(٢) سيرة ابن هشام ٢/٣٩ — ٤١
(٣) سيرة ابن هشام ٢/٤٧ — ٧٥
(٤) الروض الأنف للسهيلى ٢/١٢ .
(٥) سيرة ابن هشام ٢/٤٧ — ٧٥ و ١١٢ والمعارف ٢٤ و ٣٨ و ٤٢ .
(٦) سيرة ابن هشام ٣/١٩ .
(٧) سيرة ابن هشام ٣/١١٠ الفيفا : الفيفاء وهى الأرض المقفرة . الحبيك : الذى فيه طرائق . المنطق: المحزوم جيداً سلع : جبل أو موضع قريب من المدينة . القباب: جمع قبة . أحنقوا : غيظوا . بروق : شجيرة ضعيفة تشبه البصل .

ويقول ابن الزِّبَعْرَى فى رثائه قتلى أحد من المشركين :

وَجَمْع بنى النجار فى كل تَلْعَة بأبدانهم من وقعهن نجيع[١]

فيرد عليه حسان بقوله :

وحامَى بنو النجار فيه وصابروا وما كان منهم فى اللقاء جزوع[٢]

ويقول ابن الزبعرى أيضاً :

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسَل.[٣]

فيرد عليه حسان أيضاً[٤] .

هذه النصرة لايَهُبُّ لها إلا مجتمع يقدر الخال ، ويعز ابن الأخت ، لأنه معدود من القوم .

ويؤيد ذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام دعا الأنصار فقال : هل فيكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا، إلا ابن أخت لنا . فقال : ابن أخت القوم منهم[٥] . وكان النبى بقولته الحكيمة مترجماً عن شعوره ، وعن شعور العرب جميعاً .

ويؤيد ذلك أيضاً قول الأخنس بن شَرِيق قبيل موقعة بدر — وكان أعرابياً حليفاً لبنى زهرة — : يابنى زهرة قد نجّى الله عيركم ، وخلص أموالكم، وإنما محمد رجل منكم ابن أختكم ، فإن يك نبيا فأنتم أسعد به ، وإن يك كاذبا يلى قتله غيركم خير من أن تلوا قتل ابن اختكم ، فارجعوا ، واجعلوا جبنها بى . . . فأطاعوه ، ولم يشهد بدر أحد من بنى زهرة ، وكانوا مئة أو ثلاث مئة[٦] .

ولقد يتجلى إعزاز الخال لابن أخته فى إيثاره بالمكرمة والمحمدة ، من ذلك أن رجلا من بنى سعد اسمه طاحة كان له إبل أغار عليها جيرانه بنو ربيعة بن

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/١٠٦ (٢) سيرة ابن هشام ٣/١٠٨ .
(٣) سيرة ابن هشام ٣/٩٧ وطبقات الشعراء ١٩٩ تحقيق شاكر .
(٤) سيرة ابن هشام ٣/٩٨ (٥) فتح البارى ٦/٤٠٢ .
(٦) المغازى للواقدى ٣٧ .

عِجْل ، فأتى الأسود بن يعفر يسأله أن يرد عليه إبله التي اغتصبها جيرانه — وهم أخوال الأسود — فقال الأسود لأخواله :

يا جار طلحـــــة هل ترد لَبُونَه ... فتـكون أدنى للوفاء وأكرما

تالله لو جاورتموه بأرضـــه ... حتى يفارقـكم إذاً ما أجرما

فبعث بنو عجل بإبل طلحة إلى الأسود ، وقالوا: أما إذ كنت شفيعه فخذها وتولَّ ردها ، لتحرز المكرمة عنده دون غيرك(١) .

ويتجلى أيضاً فى أن يؤثر البقيا على الشخص من تصله بأمه قرابة من بعيد، ذلك أن عمرو بن هند وَجَّه طرفة بكتاب إلى عامل البحرين يأمره فيه بقتله ، فقال له العامل : هل تعلم ما أمرت به فيك ؟ قال : نعم ، أمرت أن تجيزنى ، وتحسن إلى . فقال لطرفة : إن بينى وبينك خئولة ، أنالها راع حافظ ، فاهرب من ليلتك هذه ، فإنى قد أمرت بقتلك (٢) .

نصرة الوالد لخاله

تبادل الخال وابن أخته النصرة ،لأن كلا منهما يعز الآخر ويعتز به ، وإذا كان الخال يرى فى ابن أخته ولده ، فإن الولد كان يرى فى خاله أباه ، ويعرف له حقوقه . يقول المرقش الأكبر فى رثائه لابن عمه ثعلبة بن عوف ، واستعطافه ملكا من آل جفنة — هو الذى قتل عوفا — : إن قومه خئولة هذا الملك ، فحق لهم ألا يعتدى عليهم :

فنحن أخوالك عَمْرَكَ وال ... خال له معاظِمٌ وحُرَمٌ (٣)

لهذا كان الخال أحياناً يكل لابن أخته أن يثأر له إذا قتل ، فقد جد تأبط شراً فى الثأر لخاله ، وتوقع أن يثأر له ابن أخته إذا هلك :

---

(١) الأغانى ١٣١/١١ .
(٢) شرح المعلقات السبع لابن الأنبارى ١٩ مخطوط .
(٣) المفضليات ٢/٠٤ عمرك : أقسم بحياتك .

إن بالشِّعْبِ الذى دون سَلْعٍ   لقتيـــلا دمه ما يُطَلُّ
خَلَّفَ العبْء علىَّ وولَّى   أنا بالعبْء له مُسْتَقِلُّ
ووراء الثأر منِّى ابن أخت   مَصِعٌ عقدتُه ما تُحَلُّ
مُطْرِق يرشح سما كما أطـــرق أفعى ينفث السمَّ صِلُّ(١)

وكثيراً ما حقق أبناء الأخت أمل أخوالهم فى الثأر لهم ، كما ثأر تأبط شرا لخاله ، وكما ثأر عدى بن حاتم لخاله :

من مبلغ أفناء مَذْحِج أننى   ثأرتُ خالى ثم لم أَتَأَثَّمِ(٢)

بل لقد يؤثر ابن الأخت أخواله على عشيرته ، ويشتفى بالثأر منها لأخواله، يدل على ذلك أن بنى جعفر بن كلاب وبنى العجلان اقتتلوا ، فقتلت بنو جعفر رجلا من بنى العجلان ، ورضى هؤلاء أن يأخذوا دية قتيلهم ، فعيرهم القتال الكلابى — وهم أخواله لأن جدته أم أبيه عجلانية — وقال :

إذا ما لقيتم غَضْبةً جعفريةً   كرهتم بنى اللَّكْعاء وَقْعَ السنابك
فلستم بأخوالى فلا تَصْلُبُنَّنى   ولكنما أمى لإحدى العواتك
قُتِلْتُم فلما أن طَلَبْتم عُقِلْتُمُ   كذلك يؤتى بالذليل كذلك(٣)

وكان الرجل لا يغتفر لأحد أن يتنقص من قدر أخواله ، وإن كان المتنقص ألصق الناس به ، فقد بلغ ذلك بحسان بن ثابت أن طلق امرأته عمرة الأوسية ، غضباً لأخواله إذ بخستهم أقدارهم ، وأفضلت الأوس عليهم ، ولم يثنه عن تسريحها أن كلا منهما كان معجباً بصاحبه ومحباً له . وكأنما لم يشف الطلاق غضبه ، فأخذ يفخر بأخواله ، ليمحو ما مسهم من زوجته ، وليسمو بهم على قومها الأوس . قال فى ذلك :

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٦٠ ورسالة الغفران للمعرى ٥٤٥ الشِّعب : الطريق فى الجبل . سلع : جبل أو مكان بقرب المدينة . لا يطل : لا يهدر . مصع : ثابت شديد القتال . مطرق : ناظر بعينيه إلى الأرض . صل : خبيث من الأفاعى .

(٢) حماسة البحترى ٤٣   (٣) الأغانى ٢٠/١٦١ .

لا يكن حبك حبا ظاهراً ليس هذا منك يا عمر بِسِرّ
سألتْ حسان من أخواله إنما يَسْأل بالشىء الغُمَرْ
قلت أخوالى بنو كعب إذا أسلم الأبطال عوارتِ الدُّبُر
رب خال لى لو أبصرته سَبِطِ المِشْيةِ فى اليوم الخَصِر[١]

الفخر بالخال والمدح :

من الطبيعى إذاً أن يزدهى الولد بخاله ، وأن يشيد به فى مجال المباهاة . ولقد يشفع خيلاءه بخاله إلى فخاره بأبيه وأجداده ، كقول عوف بن الأحوص :

ولكن نلت مجد أب وخال وكان إليهما يَنْمى العلاء[٢]

وقول قصى :

عَبْدٌ يناديهم بهَابِ وَهَبِى أمّهتى خِنْدِفٌ والْياس أبى
حَيْدَرَةٌ خالى لقيطٌ وعلى وحَاتم الطائى وهّاب المئِي[٣]

وقول الزبير بن عبد المطلب لأخيه العباس وقد أقعده فى حجره صغيراً ، وأخذ يغنى له ، مفتخراً بأعمامهما وأخوالهما :

أكرم بأعراقك من خال وعم[٤] .

وقول حسان بن ثابت :

جدّى أبو ليلى ووالده عمرو وأخوالى بنو كعب[٥]

وهذا الضرب من الفخر كثير[٦] .

---

(١) ديوان حسان ٥٢ والأغانى ٣/١٤ سر : حسن الغمر : غير المجرب . سبط المشية : كريم العمل . الخصر : البارد يريد وقت الجدب .
(٢) المفضليات ١/١٧٣ ينمى : يرتفع
(٣) لسان العرب ١٧/٣٦٤ هاب وهبى : زجر للخيل لتقدم فى الحرب .
(٤) الأمالى ٢/١١٥ (٥) ديوان حسان ١٥ .
(٦) البيان والتبيين ٢/١٥٨ و ٢/٢٥٩ وديوان حسان ٩٩ .

وكان الشخص يمدح بعراقة خاله ، كما يمدح بشرف أبيه ، قال الأسود بن يعفر فى ابنه الجراح :

فآباء جـراح ذؤابة دارمٍ وأخوال جراح سَرَاة بنى نَهْـد[١]

وجاء فى وصف المنذر الأكبر للجارية التى سباها فى غارته على الحارث الأكبر الغسانى ، وأراد أن يهديها إلى أنو شروان : « كريمة الخال ، تقتصر بنسب أبيها دون فصيلتها ، و بفصيلتها دون جِمَاع قبيلتها[٢] » وأحيانا كان الخال يمدح ابن أخته بأنه يزدان بمفاخر أخواله ، وهو بهذا يجمع المدح والفخر معاً ، كقول سلمة بن الخُرْشب يمجد ابن أخته الربيع بن زياد العبسى ، وقد هم قوم بمحاربته :

أتيتم إلينا تَرْجُفُون جماعةً فأين أبو قيس وأين ربيع ؟
وذاك ابن أخت زانه ثوبُ خاله وأعمامه الأعمام وهو نزيع
رفيقٌ بداء الحرب طَبٌّ بصعبها إذا شتَّ رأى القوم فهو جميع[٣]

وكان التجنى ربما يحتمل على مضض من عريق الأخوال والآباء ، أما من غيره فإنه مرّ لا يذاق ، وشنار لا يُغْضَى عنه ، يقول أعرابى :

فلو أنى بُليتُ بهاشِمىٍّ خُئُولته بنو عبد المدان
صبرت على أذيَّتِه ولَـكِنْ تعالىْ فانظرى بمن ابتلانى[٤]

على أن بعض الأبطال الذين انحدروا من آباء معرقين وأمهات شريفات قد خايلوا بمجدهم الذى كسبوا ، و بمجدهم الذى ورثوا ، يقول عامر بن الطفيل :

فإنى و إن كنت ابن فارس عامر وفى السِّرِّ منها والصريح المهذَّب

---

(١) الأغانى ١١/١٣٣ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك ٢/١٥١
(٣) الأغانى ١٦/٢٠ .
(٤) حماسة الخالديين ١٦٤ مخطوط .

فما سوّدتنى عامرٌ عن وراثة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب[١]

الثأر من الخال

مأزق ضيق حرج أن يضطر الولد إلى الترجيح بين أبيه وخاله ، أيهما ينصر على الآخر ؟ ومن أيهما يثأر للآخر ؟

وليس يخلصه من هذا المأزق إلا أن يستوحى فطرته ، فيجد الأب أقرب لحمة ، وأعظم نعمة ، وأنه العصبة التى يحمل اسمها ، فيؤثر أباه على خاله ، ويثأر من خاله لأبيه . فقد ثأر الهِجْرِس بن كليب التغلبى من خاله جسّاس ، وكان قد قتل أباه وهو جنين ، ثم وضعته أمه بين قومها ، فلما شب قتل خاله ثأراً لأبيه ، فلم يقبِّح ما فعل[٢] ، وقال فى ذلك :

أصاب أبى خالى وما أنا بالذى ... أُمثِّل أمرى بين خالى ووالدى
وأوردتُ جسَّاس بن مرّة غُصَّةً ... إذا ما اعترتنى حَرُّها غير بارد

وقال :

يا للرجال لقلب ما له آس ... كيف العزاء وثأرى عند جساس؟

ولما قتل خاله قال أيضاً :

ألم ترنى ثأرت أبى كليبا ... وقد يُرْجَى المرشَّح للذُّحُول
غسلت العار عن جُشَمَ بنِ بكر ... بجساس بن مرةَ ذى التُّبول[٣]

ثم قد يبتلى الشخص بوتر له عند خاله الذى قتل أخاه ، فيحار ، ويتردد ، ويسأل نفسه : أيهما أولى بأن يبقى عليه ؟ وأيهما أحق بأن يغضى عنه ؟ وتتنازعه فى ذلك النوازع ، فيجنح أحيانا إلى الشفقة على أمه حتى لا يضاعف نكبتها

(١) ديوان عامر القصيدة ١ من الملحق . Lyall
(٢) رسالة الغفران للمعرى ٥٤٥ تحقيق عائشة عبد الرحمن .
(٣) معجم الشعراء للمرزبانى ٤٨٩ والمستطرف ١/١٩١ .

بفقد ابنها وأخيها ، ولكنه يحسم هذا التردد بأن يثأر ، هكذا فعل توبة بن مضرّس السعدى ، إذ قتل خاله بأخيه ، وقال :

بكت جزعا أمى رُمَيْلَةُ أن رأت ... دما من أخيها فى المهنَّد باديا
فقلت لها لا تجزعى إن طارقا ... حميمى الذى كان الخليل المصافيا
وما كنت لو أعطيت ألفَىْ نجيبة ... وأولادَها لَغْواً وستين راعيا
لأقبلها فى طارق دون أن أرى ... دما من بنى عوف على السيف جاريا
وما كان فى عوف قتيل علمتُهُ ... ليوفينى من طارق غَيْرَ خاليا (١)

الصبر على أذى الخال

على أن الرجل قد يصفح عن مساءة خاله ، المساءة التى لا وتر فيها لأب أو أخ ، لأنه موقن أن فى القصاص منه إيلاما لنفسه ، فكأنما يقطع كفه . يقول المتلمس فى صفحه عن أخواله ، وتصوير المشاعر التى احتجزته عن القصاص منهم:

ولو غيرُ أخوالى أرادوا نقيصتى ... جعلت لهم فوق العرانين مِيسَما
وما كنت إلا مثل قاطع كفه ... بكف له أخرى فأصبح أجذما
يداه أصابت هذه حِقْفَ هذه ... فلم تجد الأخرى عليها مُقَدَّما
فلما استقاد الكف بالكف لم يجد ... دَرا كا لها فى أن تبين فأحجما
فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى ... مساغا لنابَيْه الشجاع لصمَّما(٢)

وقليلا ما كان الأخوال يعتدون على ابن أختهم ، كما اعتدى بنو سعد على ابن أختهم غسان بن رعلة ، أو كما اعتدى على النمر بن تولب أخواله ، وأغاروا على

---

(١) الوحشيات لأبى تمام ٦٧ مخطوط ورسالة الغفران ٥٤٥ والمختلف والمؤتلف للآمدى ٦٨ لغو : ما لا يعتد به فى المعاملة وكانوا لا يحتسبون أولاد الإبل الصغار فى الدية . لذلك يقول الشاعر (كما ألغيت فى الدية الحوارا) .

(٢) الوحشيات لأبى تمام ٩٥ مخطوط . أجذم : مقطوع الكف . حقف : أصل . استقاد . أراد أن ينتقم ويقتص . دراكا : بدا . الشجاع : الثعبان .

إباه ، فتذهب به الظنون شتى المذاهب ، ويركن أخيراً إلى أنهم عدوا عليه؛ لأنه لا عصبية له ، ولا أعمام أماجد ، قال غسان أو النمر :

إذا كنت فى سعد وأمك منهم ... غريباً فلا يغررك خالك من سعد
فإن ابن أخت القوم مُصْغًى إناؤه ... إذا لم يزاحم خاله بأب جَلْد[1]

التعيير بالخال

إذا كانت للخال هذه المنزلة فإن ابن أخته يعير به كما يعير بأبيه ، لأنه أحد أصليه ، من ذلك قول عمرو بن كلثوم فى هجاء النعمان ، يعيره لؤم خاله وصناعته :

لحى الله أدنانا إلى اللؤم زُلْفةً ... وألأمنا خالا وأعجزنا أبا
وأجدرنا أن ينفخ الكيرَ خالُهُ ... يصوغ القروط والشُّنوف بيثربا[2]

وقول عامر بن الطفيل :

وأنت لسوداء المعاصم جَعْدةٍ ... وأقعسَ من نسل الإماء العوارك
أبوك أبو سَوْءٍ وأمك مثله ... وهل تشبهن إلا أباك وخالك[3]

الخال فى الإسلام

ظلت الخئولة فى الإسلام رابطة قوية تشد ما بين الأفراد ، وتشد ما بين القبائل ، واستغلتها السياسة ، وأفلحت فى استغلالها . فمثلا نصر بنو كلب ــ من اليمن ــ معاوية على علىّ ، لأن نائلة امرأة عثمان منهم ، وقد تلطخت أصابعها بدمه حين مقتله ، ولأن معاوية تزوج منهم أم يزيد . وقد ناصروا يزيد أيضاً ، لأنهم أخواله . وكان خالد بن يزيد متعصباً لكلب على قيس فى الحرب التى نشبت بينهم ، لأن الكلبيين أخوال أبيه وأخوال زوجته ، فقال شاعر من قيس:

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢/٤٠ وأساس البلاغة مادة صغى .
(٢) الأغانى ٩/١٧٨ زلفة : منزلة .
(٣) ديوان عامر القصيدة ٣٥ .

يا خالد بن أبى سفيان قد قَدَحَتْ   منا القلوب وضاق السهل والجبل
أأنت تأمر كلباً أن تقاتلنـا   جهلا وتمنعهم منا إذا قُتِلوا ؟[١]

وكانت مناصرة الأخوال فى الإسلام أمراً متواضعا عليه ، وإن لم يتصل بالسياسة ، يدل على ذلك قول غسان بن ذهيل فى هجاء جرير :

ستعلم ما يُغْنِى مُعَيْدٌ ومُعْرِضٌ   إذا ما سَلِيطٌ غَرَّقتك بحورها[٢]

ثم جاء العصر العباسى فناصر الفرس المأمون على الأمين ، لأن أمه منهم ، وكان المعتصم يؤثر الترك ، ويُجَنِّد منهم ، ويقدمهم على الفرس ، لأن أمه تركية .

عقوق الأمهات

ليس أجلب للعقوق من زوجة الابن المشاكسة الماكرة ، فإنها تريد أن تستأثر بزوجها ، كما استأثرت أمها بأبيها ، أو كما حاولت أن تستأثر .

وعزيز على الأم التى حملت وأرضعت وربت وأملت ، وكانت نَجِىَّ ولدها ومفزعه فى مساءته ، وشريكه فى حبرته ، وكان ريحانة نفسها وسر سعادتها ، عزيز عليها أن تنتزعه منها هـذه الفتاة الطارئة انتزاعا فجائيا قاسيا لا يجامل ولا يتدرج . وهنا يقع الابن فى الحيرة ، وتصطرع فى نفسه عاطفتان قويتان ، فيحسم الخلاف بحسن سياسته ، ويحاول أن يخمد النار كلما بدا من خلل رمادها وميض ، أو يجنح إلى ناحية من الناحيتين .

وإذا ما جنح إلى زوجته عق أمه ، فألقـاها فى أتون متسعر من الهم والحسرات . يقول عروة فى شكواه من أصحابه الذين أحسن إليهم وأساءوا إليه إنه وإياهم كالأم وابنها العاق ، حملته وفدته وربته وناطت به آمالها ، فلما كبر وحق لها أن تنتظر نفعه وشكره تزوج ، فقرب دونها فتاة جميلة تتكحل وتتزين

(١) الأغانى ١٦/٨٨ .
(٢) النقائض ٧ معيد : جد جرير لأمه . معرض: من أخواله .

لتجتذبه ، فهامت أمه ، وباتت تصيح وتتألم مما نالها ، وإنها لحيرى بين أمرين ما من أحدهما بد ، وما فى أحدهما راحة ، أن تفقد ولدها وهذا لا يطاق ، وأن تصبر وتتجلد وهذا أيضا لا يطاق ، ولكنه مر المذاق :

فإنى وإياهم كذى الأم أَرْهَنَتْ ... له ماء عينيها تُفَدِّى وتَحْمِلُ

فلما تَرَجَّتْ نفعه وشبابه ... أتت دونها أخرى جديداً تَكَحَّلُ

فباتت لِحِدِّ المِرْفَقَين كليهما ... تُوَحْوِحُ مما نالها وتولول

تَخَيَّرُ من أمرين ليسا بغبطة ... هو الثُّكْل إلا أنها قد تَجَمَّلُ (١)

وليس من الطبيعى أن يكون الأولاد جميعا بررة ، بل الطبيعى أن يشذ بعضهم ، فيسىء إلى أمه وأبيه ، ولو أن الشعر صمت عن هذه المساءة أو صور الأبناء كلهم أخياراً لكان قد كذب أو قصر .

هذه أم ثواب الهِزَّانية تذكر تربيتها لابنها ، وتتوجع من عقوقه لها ، وإساءته إليها ، وتنظر إليه بقلب الأم وعينها ، فترى طفولته وتتذكرها ، وتدهش من لحيته ولمَّته . ثم تشير إلى أمر تكتمه فى نفسها ، أو هو ينفلت منها على غير إرادة ، ذلك أن كَنَّتها هى التى أوغرت صدره ، وزينت له أن يضرب أمه ، ويمزق ثوبها . على أنها تتظاهر بالعطف عليها وإن كانت تود إهلاكها :

ربيته وهو مثل الفرخ أَعْظَمُهُ ... أُمُّ الطعام ترى فى ريشه زَغَبا

حتى إذا آض كالفُحَّال شَذَّبه ... أَبَّارُه ونفى عن متنه الكَرَبا

أنشا يمزق أثوابى ويضربنى ... أبعد ستين عندى يبتغى الأدبا ؟

إنى لأبصر فى ترجيل لِمَّته ... وخَطِّ لحيته فى وجهه عجبا

قالت له عِرْسُه يوما لتسمعنى ... رِفْقًا فإن لنا فى أمنا أَرَبا

---

(١) شعراء النصرانية ٨٩٤ وديوان عروة ٢٧ .

ولو رأتنى فى نار مسعرة من الجحيم لزادت فوقها حطبا[١]

وقد صور أبو العلاء ما يختلج فى نفس بعض الأمهات أحيانا من تخوفها سوء عشرة كَنَّتها لها ، وإيثارها أن يشغل ابنها نفسه بطلب المجد عن الزواج ، وتحذيرها إياه إغراء الخاطبات الخادعات :

عليك السابغات فإنَّهُنَّهْ يدافعن الصوارم والأسنه

. . . .

فخنَّ إلى المكارم والمعالى ولا تثقل مطاك بعبء حَنَّه

فإنى قد كبرت وما كعاب ملائمة عجوزاً مُقْسَئِنَّه

ترى تنَوُّمها وترى ثغامى فتهزأ من مَنْهَبِلةٍ مسنه

إذا حاورتُها نبذت حِوارى وإلا تُلْفِ لى ذنبا تَجَنَّه[٢]

والحطيئة مَثَلٌ سائر فى هجائه لأمه ـ وإن كان قد هجا نفسه وزوجته وأباه ـ فهل كان مرجع هجائه لأمه أنه شاعر ساخر ذو شر وسفه لا يبالى أين وقع مقاله ، ولا يرعى حرمة نفسه ، ولا حرمة غيره ؟

أو كان سبب هجائه لأمه راجعا إلى عقدة نفسية ، وهذه العقدة هى التى أضرمت فى نفسه المجازفة بالقول ، وجعلته لا يبالى ؟

أرجح أن هذا هو السبب ، وأرجع هذه العقدة النفسية إلى أنه مجهول النسب ، لا يعرف أباه معرفة يقين ، لأنه من أولاد الزنا . وقد سأل أمه من أبوه فخلطت عليه ، فقال :

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٤٣ وثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى ١/٢٠٥ وتهذيب الكامل ١/١٨٣ أعظمه أم الطعام : أكبر ما فيه بطنه . الفحال : فحل النخل . الأبار : الملقح للنخل . الكرب : أصول السعف . ترجيل لمته : غسل شعره وتمشيطه ورواية الثعالبى للبيت الأول : أطعمه أم الطعام . وفسر أم الطعام بالحنطة .

(٢) شرح التنوير على سقط الزند ٢/٢٩٣ مقسئنة : يابسة من الكبر . تنومها : شعرها الأسود الشبيه بثمر شجر التنوم . الثغام : نبت يشبه الشعر الأبيض . منهبلة : عجوز تمشى فى ضعف . تجنه : تتجنى وتدعى على ذنبا لم أفعله .

تقول لى الضَّرَّاء لستَ لواحد ولا اثنين، فانظر كيف شِرْكُ أولئكا
وأنت امرؤ تبغى أبا قد ضللته هُبِلْتَ ألما تَسْتَفِقْ من ضلالكا ؟

لذلك كان نسبه متدافعا بين القبائل ، فينتمى إلى واحدة إذا غضب على الأخرى ، فآنا يدعى أنه ابن عمرو بن علقمة ، وحينا ينتسب إلى بنى ذهل بن ثعلبة ، وتارة يعتزى إلى بنى عبس ، وآونة يلتصق ببنى الأفقم .

ثم إن أمه تزوجت — بعد أبيه ، والحطيئة كبير — بالكلب بن كنيس ، وهو ابن أمة ، وولد زنا أيضا[1] . أعتقد أن تخليط أم الحطيئة عليه فى نسبه ، وجهله أباه الحقيق ، واضطراره إلى الالتصاق بأناس شتى ، وأن زواج أمه برجل مجهول النسب أيضاً ، وخزيها له فى كبره ، أعتقد أن ذلك بابل خواطره ، ومزج بالسخط حياته ، وركب فى نفسه احتقار أمه ، وامتهان نفسه ، وكل عزيز عليه . يقول فى هجائها وهجاء زوجها :

ولقد رأيتك فى النساء فسؤتنى وأبا بنيك فساءنى فى المجلس

وقال أيضاً :

جزاك الله شرا من عجوز ولقّاك العقوق من البنين
فقد مُلّكتِ أمر بنيك حتى تركتهم أدقّ من الطحين
لسانك مبرد لا خير فيه ودَرّكِ دَرُّ جاذبة دَهين[2]

ويقول أيضا :

تنحى فاجلسى عنى بعيداً أراح الله منك العالمينا
أغِرْبالاً إذا استودعت سرا وكانوناً على المتحدثينا
حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا[3]

---

(١) الأغانى ٢/١٦٠ ـ ١٦٤

(٢) درك : لبنك . جاذبة : ناقة لا تدر . دهين : ناقة قليلة اللبن لا تدر .

(٣) كانون : ثقيلة .

وله فى هجائها وهجاء غيرها شعر كثير[١] .

وقال سعد بن قرط من بنى جذيمة يهجو أمه :

يا ليت ما أمنا شالت نعامتها إيما إلى جنة إيما إلى نار
تلتهم الوسق مشدودا أشظته كأنما وجهها قد طُلِىَ بالنار
ليست بشبعى ولو أوردتها هجرا ولا بَرِيًّا ولو قاظت بذى قار[٢]

على أن عقوق بعض الأبناء لم يقتصر على الأمهات ، بل تعدى إلى الآباء ، يقول المنازل بن الأعرف يتشكى من ابن عاق اسمه خليج :

تظالمنى مالى خليج وعقَّنى على حين كانت كالْحَنِىِّ عظامى
وكنت أرجِّى الخير منه، وأمه حَرامية ، ماغرنى بحرام ؟
وربيته من بعد ذا فرحاً به فلا يفرحَنْ بعدى أب بغلام[٣] .

ويقول أمية بن أبى الصلت فى ابنه :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعا تُعَلُّ بما أَحْنِى عليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكر لم أبت لشكواك إلا ساهراً أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى طُرِقْتَ به دونى فعينى تَهْمُل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى إليها مدى ما كنت منك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
وسميتنى باسم المفنَّد رأيه وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل

---

(١) الأغانى ٢/١٦٢ والعقد الفريد ٣/٢٢٢ وخزانة الأدب ٢/١٧٥ ومجمع الأمثال ١/١٤٢ .

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٤/١٧٥ شالت نعامتها : ماتت . إيما : أصله إما . الوسق ستون صاعا . الأشظة : جمع شظية وهى الفلقة من عصى ونحوها . هجر : بلد باليمن كثير التمر . قاظ : أقام فى القيظ وهو الحر . ذوقار : موضع .

(٣) معجم الشعراء ٥١ الحنى : القسى .

فليتك إذ لم ترع حق أبوتى فعلت كما الجار المجاور يفعل[١]

وكذلك يشكو أعشى بنى مازن أو بنى الحرماز[٢].

وإذاً فقد كان عقوق الأمهات نادراً، وكان العقوق — على ندرته — يصيب الأمهات والآباء، ولو أنه أصاب الأمهات وحدهن لكان معناه أن الأم أقل فى نظر بنيها مكانة من الأب، أو أقل عزازة.

(١) ديوان أمية ٣٧ (٢) معجم الشعراء ١٦.

الفصل الثانى

الزوجة

المصاهرة رباط بين المتصاهرين :

ما من شك فى أن المصاهرة كانت لحمة قوية بين الأفراد والعشائر ، تقوى ما بين الأقرباء وتقرب ما بين البعداء ، وتطفئ نار العداوة والشحناء ، لأنها صلة جديدة مختارة من شأنها أن تمزج المتصاهرين .

يقول خالد بن يزيد بن معاوية : كان أبغض خلق الله عز وجل إلىّ آل الزبير ، حتى تزوجت منهم رملة ، فصاروا أحب خلق الله إلىّ [1] ، وفيها يقول :

أحب بنى العوّام طرًّا لحبها ... ومن حبها أحببت أخوالها كلبا [2]

وقد استعطف عدى بن زيد العبادى النعمان بن المنذر بمصاهرته له ، لأنه كان زوج أخته كما ذكر العلماء من أهل الحيرة ، أو زوج ابنته هند كما ذكر رواة العرب ، وفى استعطافه يقول :

أَجْلَ نُعْمَى ربِّهـا أوَّلُكم ... ودُنُوِّى كان منكم واصطهارى

وفى تهديد النابغة لعمرو بن هند مضرط الحجارة قوله : إننا لابد أن نقابل شرَّك بمثله ، وإن كنت قد ذكرت ما بيننا من مصاهرة ومودة :

نَجْزِيك إنذاراً بما أنذرتنـا ... وذكرت عطف الود والإصْهار [4]

---

(١) بلوغ الأرب ٢/٧

(٢) الأغانى ١٦/٨٦

(٣) الأغانى ٣/١٣ . أجل : نصب على نزع الخافض ى من جل . ربها : نماها

(٤) ديوان النابغة ٤٣

الزوجة المثلى :

علم الرجل أن الزواج شركة فى الحياة ، وأساس لمشرة طويلة ، ولُحْمة وثيقة بينه و بين من يصاهر . وعلم أيضاً أن الزوجة سكنه ، ومتاعه ، وقسيمته فى إنتاج أولاده ، يرثون منها كما يرثون منه ، وينطبعون على كثير مما تطبعهم عليه ، وتأخذهم به منذ الحداثة ؛ لذلك تخير الزوجة جهده ، وكانت الزوجة المثلى ممتازة بصفات تحببها إلى الرجل .

١ — بعض هذه الصفات راجع إلى حسبها وشرف قومها .

وليس الحسب فى نظر العربى هو الغنى ، وإنما هو المجد وحسن الأحدوثة ، والاشتهار بمكارم الأخلاق ، سواء اقترن به ثراء أم لم يقترن .

يدل على ذلك أن قيس بن زهير سيد عبس و بطلها طلب من النمر بن قاسط من ربيعة أن يختاروا له زوجة أذلها الفقر وأدبها الغنى [(١)] . وشبيه به قول خالد ابن صفوان لرجل : « اطلب لى بكراً . . قد عاشت فى نعمة ، وأدركتها حاجة ، فخلق النعمة فيها ، وذل الحاجة معها [(٢)]

لذلك أوصى أكثم بن صيفى قومه بقوله : « لا يكفيكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فإن المناكح الكريمة مدرجة الشرف [(٣)] » وهو يريد شرف أبنائه . وامتن أبو الأسود الدؤلى على بنيه بقوله : أحسنت إليكم كباراً وصغاراً وقبل أن تولدوا . قالوا : كيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ قال اخترت لكم من النساء من لا تسبون بهن [(٤)] »

ثم جاء النبى صلى الله عليه وسلم فعزز هذه الفكرة بقوله : « احتفظوا لنطفكم فإن العرق نزّاع » . وقال : « وإياكم وخضراء الدِّمَن » قيل : ما خضراء

(١) العقد الفريد ٣/٢١١ (٢) اللطائف والظرائف للثعالبى ٦١

(٣) نزهة الأبصار والأسماع فى أخبار ذوات القناع ٣٢ ومحاضرات الأدباء ٢/١١٧ ومجمع الأمثال ٢/٢١٨ (٤) إسماع الصم فى إثبات الشرف من قبل الأم ٤ مخطوط

الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء [١] » .

وجرى المسلمون على حكمته ، فقد أوصى عثمان بن أبى العاص الثقفى بنيه بتخير زوجاتهم وأصهارهم ، وضرب لهم من نفسه مثلا : « يا بنى إنى أمجدتكم فى أمهاتكم . . والناكح مفترس ، فلينظر امرؤ منكم حيث يضع غرسه ، والعرق السوء قلما ينجب ولو بعد حين [٢]

ولما خطب عبد الله بن الزبير مبشراً بفتح إفريقية فى مجلس عثمان بن عفان أعجب به أبوه الزبير فقال : « يأيها الناس انكحوا النساء على آبائهن و إخوتهن فإنى لم أر لأبى بكر الصديق ولداً أشبه به من هذا [٣] » .

لاعجب إذاً فى أن افتخر بعض الأزواج بحسب زوجاتهم ، لأن فى حسبهن، شرفا لأزواجهم . من ذلك أنه كانت ملاحاة بين لقيط بن زرارة ورجل من بيته اسمه زيد ، فعيره زيد أنه لم يتزوج ، لأن الأكفاء يرغبون عنه ، فخطب إلى قيس ابن مسعود ، فلما زوجه قال :

ألم يأت زيداً حيث أصبح أننى   تزوجتها إحدى النساء المواجد
عقيلة شيخ لم يكن لينا لما   سوى عُدُسِيٍّ من زُرارة ماجد
إذا اتصلت يوما بنسبتها انتهت   إلى آل مسعود بن قيس بن خالد

وعير عامر بن الطفيل خصومه بأنهم حقراء لا يتسامون إلى الخطبة من الكرام ، ولا إلى أن يخطب إليهم أحد ، لذلك تَعْنُس بناتهم ولا يخطبن :

لا يخطبون إلى الكرام بناتهم   وتثيب أَيِّمهم ولما تُخْطب [٤]

و إذاً فالزوجة نبعة من قومها ، تثمر مثل ثمرهم ، وتتخلق بأخلاقهم ، وأبناؤها صورة منها ، لهذا يقول أعشى بنى مازن أو بنى الحرماز فى عقوق بنيه وشراسة زوجته :

(١) كنز العمال ٨/٢٨٨ ومحاضرات الأدباء ٢/١١٧
(٢) البيان والتبيين ٢/٦٧
(٣) الحيوان للجاحظ ١/٦٠٤
(٤) ديوان عامر القصيدة ٨ .

إن بنىّ ليس فيهم برٌّ وأمُّهم مثلهم أو أشرُّ

إذا رأوها نبحتنى هرّوا (١)

ويقول رافع بن هُرَيْم فى عتاب أبناء إخوته إنهم أخسّة لأنهم ورثوا عن أمهم الخسة :

عفاريتا علىّ وأخذ مالى وعجزا عن أناس آخرينا

فهلا غيرَ عمكم ظلمتم إذا ما كنتم متظلمينا

فلو كنتم لكيِّسَة أكاست وكيْسُ الأم أكيس للبنينا

ولكن أمكم حَمُقَتْ فجئتم غِثاثاً ما نرى فيكم سمينا (٢)

وكانت المرأة نفسها بصيرة بذلك ، فقد أتى رجل إلى ابنة الخُسِّ يستشيرها فى امرأة يتزوجها ، فقالت : انظر رَمْكاء جسيمة ، أو بيضاء وسيمة ، فى بيت جَدّ أو بيت حَدّ أو بيت عز . قال : ما تركت من النساء شيئاً (٣) .

وقد أمر النبى بإيثار المرأة ذات الخلق القويم والتدين ، قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها ، فعليك بذات الدين تربت يداك (٤) »

وزوج عمر بن الخطاب ابنه عاصماً بنت امرأة تبيع اللبن ، لأن خلقها أعجبه (٥)

٢ — وبعضها راجع إلى أوصافها الجسدية والنفسية ، وقد فصلت هذا ، ووضحت نموذج الجمال فى نظر الرجال ، فى كتاب آخر (٦) ويكفى أن أذكر هنا قول لقيط بن زرارة فى وصف زوجته :

كأن رضاب المسك دون لثاتها على شَبِمٍ من ماء مُزْنَةٍ بارد

لها بَشَرٌ صافى الأديم كأنه لجين تراه دون حُمْر المجاسد

---

(١) معجم الشعراء ١٦ (٢) البيان والتبيين ١/١٨٦

(٣) الأمالى ٢/٢٥٦ رمكاء : سمراء .

(٤) فتح البارى ٩/١١٥ واللطائف والظرائف للثعالبى ٦١ وعيون الأخبار ٤/١

(٥) مجمع الأمثال ٢/١٠٢ (٦) الغزل فى العصر الجاهلى ٢١ — ١٢٥ .

إذا ارتفعت فوق الفراش حسبتها ... شريحة نبع زُيِّنتْ بالقلائد [١]

٣ — وهم آثروا الشابة البكر على الثيب ، ولعلهم نظروا إلى أنها كاللؤلؤة لم يزايلها صدفها ، وراعوا أنها أسلس قياداً ، وأيسر انطباعاً ، وأكثر نسلا وولادة ، وهم يعرفون بالمشاهدة أن الرجل أبعد أمداً فى النسل من المرأة « فهى تنقطع عن الحبل قبل أن ينقطع الرجل عن الإحبال بدهر [٢] .

لذلك قال الحارث بن كلدة : لاتتزوجوا من النساء إلا الشباب [٣] .

وقد خدع جهم فى امرأة من بنى فقعس اسمها قُمامة ، فباع إبله ، ومهرها ، فلما دخل بها وجدها عجوزاً ، فقال :

وما لمتُ نفسى مذ فُطِمْت بلَحْيةٍ ... كما لمت نفسى فى عجوز بنى شمس

فبانت — ولم أُغْبَنْ — غداة اشتريتها ... وبعت تلاد المال بالثمن البخس

فإن مات جهْمٌ غيلةً فاقتلوا به ... قُمامة إن النفس تقتل بالنفس [٤]

والشعراء مكثرون من الوصاة بتجنب العجوز والأيم ، كقول أحدهم :

لا تنكحنَّ الدهرَ ما عشتَ أيِّما ... مُخَرَّمَةً قد مُلَّ منها ومُلَّت

تجود برجليها وتمنعُ دَرَّها ... إذا طُلِبَتْ منها المودة هَرَّت [٥]

ويقول آخر :

لا تنكحنَّ عجوزا إن أُتيتَ بها ... واخلع ثيابك عنها ممعنا هرَبا

وإن أتوك فقالوا إنها نَصَفٌ ... فإن أمثل نصفيها الذى ذهبا

---

(١) أمثال العرب للضبى ٢١ (٢) الحيوان للجاحظ ٥/٢٠٨ .

(٣) مطالع البدور ٢/٢٧ .

(٤) عيون الأخبار ٤/٤٧ فى الأصل فبنت ، ورجح مصححو الكتاب أن هذا تحريف صوابه فبت . لكن هذا لا يتفق مع المعنى ، لأن الشاعر يذكر أنه فارقها غداة دخوله بها مسروراً لم يشعر بحسرة على ماله ، لأنه قنع بالخلاص منها . لهذا رجحت أن يكون التصويب (فبانت) أى طلقها أو يكون (فبتت) أى قطعت صلتى بها .

(٥) شرح الحماسة للتبريزى ٤/١٩٧ مخرمة : دعا عليها أهل زوجها السابق أن تتخرمها المنية .

وقد شدد النبي عليه الصلاة والسلام فى اختيار البكر[١] . وروى عن عمر قوله : « انكحوا الجوارى الأبكار ، فإنهن أطيب أفواها ، وأنتق أرحاما[٢] » . وقال النبي لجابر بن عبد الله لما أخبره أنه تزوج ثيبا : « أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك » والمراد بالجارية البكر[٣] .

وقد آثر أفلاطون المرأة الشابة ، لأن الناس يسلكون ذلك فى استيلاد الحيوان ، ليحصلوا على نسل قوى ممتاز . وذهب إلى أن شباب المرأة يبدأ من العشرين ، وينتهى بالأربعين ، أما الرجل فإن شبابه من الثلاثين إلى الخامسة والخمسين[٤] .

٤ — وهم يحبون المرأة الولود ، وكان هذا من بواعث إيثارهم للشابة البكر ، لأنهم كانوا يفرحون بكثرة الأولاد — ولا سيما الذكور — ويعتزون بهم ويكاثرون ، وهم طالما خايلوا بكثرة عددهم ، وعيروا بقلته ، لأن حياتهم القبلية كانت تعتمد على العصبية والنصرة والحروب ، وفى كثرة العدد عز ومنعة ، وفى قلته ضعف واستبانة ، لذلك كانت القبيلة تهنأ وتقيم العرس لثلاث : غلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تنتج[٥] . يقول عمرو بن كلثوم :

ملأنا البر حتى ضاق عنا   وظهر البحر نملؤه سفينا

وكان الرجل يعتمد فى نصرته على بنيه أولا ، يقول الأشهب بن رُمَيلة أو نهشل بن حَرِىّ :

قال الأقارب لا تغررك كثرتنا   وأغن نفسك عنا أيها الرجل

---

(١) فتح البارى ج ٩ وكنز العمال ٨/٢٨٥ والسنن الكبرى للبيهقى ٧/٨ .
(٢) كنز العمال ٨/٢٨٨ وفى جمهرة الأمثال لأبى هلال ٧٦ أنه حديث .
(٣) فتح المبدى ٢/١٧٨ وفتح البارى ٩/١٠٤ والسنن الكبرى للبيهقى ٧/٨٠ .
(٤) جمهورية أفلاطون ١٣٢ — ١٣٤ .
(٥) العمدة لابن رشيق ١/٣٧ .

عَلَّ بَنِي يشدُّ الله أعظمهم والنبع يَنْبُتُ قضبانا فيكتهل[١]

لهذا كان من الأسباب التي بغّض بها زهير بن أبي صُرَد عيينة بن حصن، في عجوز استمسك بها من سَبْي هوازن ولم يطلقها كما أطلق رسول الله والمهاجرون والأنصار سبيهم قوله له : والله ما فوها ببارد ، ولا ثديها بناهد ، ولا بدنها بوالد[٢] .

وتأبى أنوثة المرأة إلا أن تستعان في تفضيلها المرأة الولود وإن كانت مئناثا ، تقول ابنة الخُسّ : أفضل النساء . . . متوركة جارية ، في بطنها جارية ، تتبعها جارية[٣] .

وقد أكد النبي هذا الميل بحضه على إيثار الزوجة الولود ، جاءه رجل فقال : إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال : لا . ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة ، فقال النبي : تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم[٤]

ولم يصرفهم عن المرأة الولود إلى العاقر أن العاقر أخوف من الضرة ، فهي أرعى للزوج ، حتى تلهيه بتبعّلها عن عقمها ، فلا يجنح إلى زواج غيرها ، يقول المُعَقَّر البارقي في وصف الخيل :

يفرِّج عنا كلَّ ثغرٍ مخافةٍ مِسَحٌّ كسِرْحان القسيمة ضامر
وكلُّ لجوج في العناق كأنها إذا اغتمست في الماء فَتْخاء كاسر
لها ناهضٌ في الوكْر قد مَهَدَتْ له كما مَهَدَتْ للبعل حسناء عاقر
تخاف نساء يبتدرن حليلها مُحَرَّدة قد حَرَّدتها الضرائر[٥]

---

(١) البيان والتبيين ٣/٤٧ (٢) سيرة ابن هشام ٤/١٣٧ . (٣) الأمالي ٢/٢٠٧ .
(٤) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول ٣/٣٤١ وكنز العمال ٨/١٨٥
(٥) الأغاني ١٠/٤٤ مسح : جواد سريع . سرحان : ذئب . العناق : الإسراع . اغتمست في الماء : بللها عرقها من شدة عدوها . فتخاء : عقاب . كاسر : منقضة مفترسة . ناهض : فرخ أو شك أن يطير .

وقد شاركهم اليهود فى حب النسل ، وكانت كثرته تلوح أعظم ما يمن به (يهوه) على الرجل ، وكان عقم المرأة يعد عاراً[١] . يقول السموءل بن عادياء مدافعاً عن قلة عددهم :

تعيرنا أنا قليـــلٌ عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل[٢]

٥ — ومن كمال الزوجة أن تكون أريبة لقنة فصيحة ، لتبشر بأن ابنها سيكون كذلك . فقد طلق أبو رمادة امرأته لما وجدها لثغاء ، مخافة أن تلد له ولداً ألثغ ، ولم تفتنه بأن تتبخر فى ثيابها الموشاة فتنسيه لثغها ، قال :

لَثْغَاء تأتى بِحِيَفْسٍ ألثغ تميسُ فى المَوْشِيِّ والمُصَبَّغ[٣]

ويزعمون أن امرأ القيس آلى ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين ، فجعل يخطب النساء ، فإذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر ، فبينما هو يسير ليلا إذا برجل يحمل ابنة له صبية كأنها البدر ليلة تمامه ، فأعجبته ، فسألها سؤاله ، فقالت : أما ثمانية فأطباء الكلبة ، وأما أربعة فأخلاف الناقة، وأما ثنتان فثديا المرأة . فخطبها إلى أبيها ، فزوجه إياها[٤] .

وهذه القصة تحمل فى طياتها بواعث الشك فيها ، فلست أعقل أن يخطب امرؤ القيس ويتزوج صبية لما يزل يحملها أبوها ، ولست أعقل أن يقصد امرؤ القيس فى اختياره لمن يخطبها إلى اختبارها بهذا الضرب من الإلغاز ، الذى لا يتهدى إلى مرماه إلا مخترعه ، وأرجح أنها قصة موضوعة لتعليم الفروق اللغوية ، وللدلالة على أن اللغة تخص هذه الأثداء بكلمات مختلفة ، ثم إنها

---

(١) اليهود فى تاريخ الحضارة ٤٩ (٢) ديوان السموءل ٨ .
(٣) البيان والتبيين ١/٥٧ وعيون الأخبار ٤/٧ وفيه نسب الشعر لزياد .
(٤) الأغانى ٨/٧١ ساسى ومجمع الأمثال ٢/٢١١ .

مشفوعة بقصة أخرى لا تقل عنها غرابة ، تدل على ذكاء هذه الصبية وقدرتها على التمييز[١] .

صفات مذمومة فى الزوجة :

١ — تحاموا المرأة الحمقاء ، لأنها تلد الحمق ، جاء فى وصية أكثم بن صيفى إلى طيء : « وإياكم ونكاح الحمقاء ، فإن نكاحها غرَر ، وولدها إلى ضياع[٢] » ، وكذلك قال الحارث بن كعب لبنيه : « إياكم والورْهاء ، وتجنبوا الخرقاء » . وفى الحديث الشريف : «لاتتزوجوا الحمقاء، فإن صحبتها بلاء ، وفى ولدها ضياع » و « لا تسترضعوا الحمقاء فإن لبنها يغير » وقال عمر بن الخطاب « لم يقم جنين فى بطن حمقاء تسعة أشهر إلا خرج مائقا[٣] » .

٢ — وتحاموا ضربا من النساء يخدع مظهره ، ويسوء مخبره ، هذا الضرب هو النسوة اللائى منحن وسامة وقسامة ، لكنهن نشأن فى بيئة لاتغذى بأخلاق فاضلة . يقول أكثم بن صيفى : « لا يغلبنكم جمال النساء على صراحة النسب ، فإن المناكح الكريمة مدرجة الشرف[٤] » ويحس الشاعر أن الخسة قد تأتى من الأم والخالة لأن وراثة الشر قوية فيقول :

فأدركْنَهُ خالاتُهُ فخذلْنَهُ ألا إن عرق السوء لابد مدْرك[٥]

وشبيه بهذه التربة الناشئة فى لؤم وخسة ، وقد نفر منها أكثم بن صيفى فى وصيته لابنه ، « يابنى إياك واختيار اللئيمة بما عندها من المال ، فإن المال يذهب به ، ويبقى فى حالك اللؤم الذى لا يغنيه شيء[٦] .

---

(١) الأغانى ٨/٧١ .
(٢) مجمع الأمثال ٢/١١٨ غرر : تعرض للضرر .
(٣) السنن الكبرى للبيهقى ٧/٤٦٤ والمبسوط للسرخسى ١٥/١١٩ ونزهة الأبصار والأسماع ٣٢ .
(٤) محاضرات الأدباء ٢/١١٧ ونزهة الأبصار والأسماع ٣٢ وجمهرة الأمثال ٤ .
(٥) جمهرة الأمثال ٥ (٦) نزهة الأبصار ٣٢ .

ثم أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بقوله ، « إياكم وخضراء الدمن[١] » يريد المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، كالنبات المعجب الذى نبت على البعر ، يروق ظاهره ، وليس فى باطنه خير ، لأن عرق السوء لابد أن يظهر .

٣ — وكانت المرأة الثيب غير محببة إليهم فى الأعم الأغلب ، وكذلك المرأة المتمارضة ، والغنية التى تمن بمالها ، وغير المتصونة .

قال رجل لولده . « يابنى لاتتخذها حنّانة ولا أنانة ولامَنّانة ولاعُشْبَة الدار ولا كَيَّة القفا[٢] » ، ينهاه عن المرأة الثيب التى تحن إلى زوجها الأول ، أو التى لها ولد من غيره فهى تحن عليهم . و ينهاه عن التى تئن من غير علة ، لأنها إما مترفة مبالغة فى ترفها؛ و إما خبيثة تتمارض لأرب فى نفسها ، أو هى التى مات عنها زوجها ، فكلما رأت زوجها الثانى أنت . و ينهاه عن ذات المال التى لاتفتأ تذكر زوجها بما قدمت له ولبنيه من خير . و ينهاه عن الحسناء فى بيئة فاسدة . و ينهاه أخيراً عن المرأة التى تتناولها الألسنة ، فإذا قام زوجها من المجلس قالوا : فعلت كذا وكذا ، وكان بينها و بين فلان كذا .

على أن الثيب كانت تشتهر أحيانا بعراقة أو بجمال ، أو خلق كريم ومال ، أو تجتذب الرجال بحبالة مافتتزوج مرات . وهم يضربون المثل بأم خارجة ، فيقولون : أسرع من نكاح أم خارجة ، كما قالوا ولدت فى العرب فى نيف وعشرين حيا ، من آباء شتى ، وكان الرجل يقول خِطْب ، فتقول نِكْح[٣] ، حتى لو قال قائل إنه لا يكاد يتخلص من ولادتها كثير من الناس لكان قد قارب[٤] ، على أن المفضل الضبى ذكر أنها تزوجت خمس مرات فحسب[٥] ، وابن حبيب ذكر أنها تزوجت أكثر من ثمانية رجال[٦] .

---

(١) كنز العمال ٨/٢٨٨ (٢) المحاسن والأضداد ١٦٩ والأمالى ٢/٢٥٦

(٣) تهذيب الكامل ٢/١١٧ .

(٤) محاسن النساء لابن هاشم ٦٦ مخطوط .

(٥) أمثال العرب للضبى ١١ (٦) المحبر ٤٣٥ لابن حبيب .

وكثيرات من النساء غير أم خارجة قدأَرْدفْن ، منهن مارية بنت الْجُعَيْد ، ذكر ابن حبيب أسماء أزواجها ،وعددهم عشرة ،ودختنوس بنت لقيط بن زرارة تزوجت ثلاثة ، وهند بنت عتبة تزوجت ثلاثة أيضاً[١] ، والسيدة خديجه بنت خويلد تزوجت قبل المصطفى مرتين[٢] ، وضباعة بنت عامر بن قرط تزوجت ثلاثة[٣] . وقد استنبطت من رسالة المردفات لأبى الحسن المدائنى ثمانى وعشرين مردفة فى الجاهلية .

وكذلك أرْدفتْ كثيرات فى الإسلام ، كأم هشام بنت عبد الله بن عمر ابن الخطاب[٤] ، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، أردفت خمسة رجال[٥]، وتزوجت أم كلثوم بنت عقبة أربع مرات[٦] ، وجميلة بنت عبد اللهبن أبىّ بن سلول تزوجت أربع مرات[٧] .

ولكن الميل العام كان للبكر كما سبق ، فى الجاهلية والإسلام . ويدل على ذلك أيضاً قول الجاحظ : إن الزواج بالثيب كان قبيحاً فى العصر الأموى والعباسى[٨] .

٤ ــ ومن عيوبها تقطيب الجبين ،والصَّخَب ، والضِّجاج ، والمشارَّة . قال شيخ من بنى سليم لابنه : يابنى إياك والغضوب القطوب[٩] ، وقالت ابنة الْخسّ شر النساء السُّوَيداء المراض ، الكثير المظاظ[١٠] .

وخير تصوير لذلك قول عبد الله بن أوفى الخزاعى فى امرأته :

---

(١) المحبر ٤٣٥ ـ ٤٥٥ .
(٢) الإصابة ٨ / ٦٠ .
(٣) الإصابة ٨ / ١٣٣ .
(٤) الأغانى ١١ / ١٣٨ .
(٥) الأغانى ١٦/١٢٧ وأسد الغابة ٥/٤٩٩ ونزهة الأبصار ١٤ والإصابة ٨/١٣٧ والاستيعاب ٢/٧٦٨ .
(٦) المردفات من قريش لأبى الحسن المدائنى ٥١ من نوادر المخطوطات .
(٧) الإصابة ٨ / ٤٢ .
(٨) رسالة القيان ٥٩ .
(٩) بلوغ الأرب ٢ / ٢٢ .
(١٠) الأمالى ٢ / ٢٥٦ المظاظ : المشارة والمشاقة .

نكحتُ ابنة المُنْتَضَى نكْحةً ... على الكره ضرّتْ ولم تنفع

ولم تُغنِ من فاقة مُعْدمًا ... ولم تُجْد خيراً ولم تَجْمَع

مُنجّذةٌ مثل كلب الهراش ... إذا هجع الناس لم تهجع

مُفَرّقة بين جيرانها ... وما تستطيع بينهم تقطع(١)

الزوجات الغريبات

١ — كان العرب يجرون على نظام الزواج من العشيرة ، ومن غير العشيرة ، لكنهم كانوا يؤثرون الاغتراب ، لأنهم يرون أن ولد الرجل من قرابته يجىء ضاوياً نحيفاً ، قال الشاعر يدعو على شخص اسمه عبيد :

ذاك عُبَيْدٌ قد أصاب ميا ... ياليته ألقحها صبيًّا

فحملت فولدت ضاويًّا(٢)

وفى أمثالهم : النزائع لا القرائب . قال ابن السكيت : النزيعة ، الغريبة ، لأن الغريبة أنجب . ويقال اغتربوا لا تضووا ، أى انكحوا فى الأباعد حتى لا يولد لكم ضاوىّ ، قال الشاعر :

فتى لم تلده بنت عم قريبة ... فيضوى وقد يضوى رديد القرائب

تعلم من أعمامه البأس والندى ... وورثه الأخوال حسن التجارب

هو ابن غريبات النساء وإنما ... ذوو الشأن أبناء النساء الغرائب(٣)

وقال آخر فى تخيره زوجة غريبة :

تَنَحَّيْتُها للنسل وهى غريبة ... فجاءت به كالبدر خِرْقاً معمما(٤)

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٤ / ٤٢ ابنة المنتصى : زوجته التى وطئها مرة واحدة . منجذة : مجرب ما عندها . الهراش : تحريش كلب بكلب . إذا هجع الناس لم تهجع : نمامة .

(٢) لسان العرب ١٩ / ٢٢٥ .

(٣) مجمع الأمثال ٠ / ٢٧٠ ولسان العرب ١٩ / ١٢٥ وجمهرة الأمثال ١٥ والمعانى الكبير لابن قتيبة ١ / ٥٠٢ وحماسة الخالديين ١٣٥ مخطوط والتنبيه على أوهام أبى على فى أماليه ١٢٤ .

(٤) حماسة الخالدين ٦٥ مخطوط والبيان والتبيين ٣ / ٦٨ ولسان العرب ١٩ / ٢٢٥ تنحى : اعتمد ورواية البيان : تنخبتها أى اخترتها . خرق : كريم الخليقة . معمم : سيد .

وقال آخر :

أنذر من كان بعيد الهم تزويج أولاد بنات العم
فليس بناج من ضوى وسقم وأنت إن أطعمته لاينمى[١]

وقال غيره .

ألا فتًى نال العلا بهمِّهِ ليس أبوه بابن عم أمِّهِ
ترى الرجال تهتدى بأَمهِ[٢]

وافتخر شاعر بأن أمه غريبة :

مكننى بيت رفيع وجرأة وخال كعُرْيَان النجوم نزيع[٣]

وقد جرى المسلمون على هذا ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يأمر باختيار الغريبات مخافة ضعف النسل « اغتربوا لا تضووا[٤] » ، وعمر بن الخطاب ينظر إلى قوم من قريش صغار الأجسام فيقول : مالكم صغرتم ؟ قالوا : قرب أمهاتنا من آبائنا ، فيقول : صدقتم ، اغتربوا . فتزوجوا فى البعداء فأنجبوا[٥] . وقال جرير فى ابنه بلال :

إن بلالا لم تَشِنْه أمه لم يتناسب خاله وعمه[٦]

على أن بعضهم كان يؤثر بنات العم ، لأنهن فى زعمه أصبر على ريب الزمان ونَبْوة الخلق . ومن هؤلاء بنو عبس ، وقد سئلوا أى النساء وجدتم أصبر ؟ قالوا : بنات العم[٧] .

---

(١) محاضرات الأدباء ١ / ٢٠٧ وتاج العروس ١٠ / ٢٢١ والإمتاع والمؤانسة للتوحيدى ١ / ٩٤ .

(٢) تاج العروس ١٠ / ٢٢١ أمه : قصده .

(٣) المعانى الكبير لابن قتيبة ١ / ٥٠٢ خال كعريان النجوم : واضح النسب شهير كالنجم السافر .

(٤) لسان العرب ١٩/٢٢٥ وتاج العروس ١٠/٢٢١ ومحاضرات الأدباء ١/٢٠٧

(٥) كنز العمال ٨ / ٢٨٨ ومحاضرات الأدباء ١ / ٢٠٧ والعقد الفريد ٣ / ٣٢٤ وعيون الأخبار ٤ / ٣ .

(٦) ديوان جرير ٥٣٣ .

(٧) عيون الأخبار ١ / ١٩٧ .

وهذا النظام الذى سار عليه العرب فى الاغتراب يشبه ما كان سائداً فى بعض الدول المسيحية الأوروبية ، إذ كانت تحرم التزاوج بين أولاد الأعمام والعمات ، والأخوال والخالات ، وما زال العرف الأوروبى — بعد إباحة الزواج بهن — يفضل غيرهن عليهن[١] .

والسبب الذى زين للعرب أن يغتربوا هو عقيدتهم أن الاغتراب يقوى النسل جسميا وعقليا وأن الاقتراب يضعفه ، فهل هذا صحيح ؟ نعم لأنه إذا كان فى الأسرة ضعف موروث ، فإنه يتفاقم .

وقد تنبه القدماء لهذا ، يقول الجاحظ : « ورأينا الخلاسىَّ من الناس ــ وهو الذى يتخلق بين الحبشى والبيضاء ــ ، والعادةُ من هذا التركيب أنه يخرج أعظم من أبويه ، وأقوى من أصليه ومشمريه[٢] » .

وذهب أبو العباس ــ وكان يدين بالنجوم ولا يقر بشىء من الحوادث إلا بما يجرى على الطباع ــ إلى أنه لايكون الحظ إلا فى نتاج شكلين متباينين ، فالتقاؤهما هو الإكسير المؤدى إلى الخلاص ، وهو إن تزاوج بين هندية وخراسانى ، فإنها لا تلد إلا الذهب الإبريز[٣] .

وقد دلل على صواب ذلك أبو حيان التوحيدى بأن تراب الأرض إذا حوِّل وقلِّب زكت الزروع . فإذا كان الاغتراب يؤثر من التراب إلى التراب فالأولى أن يؤثر الإنسان فى الإنسان بالاغتراب ، لأن الإنسان أيضا من تراب[٤] .

ثم جاء العلم الحديث فعزز ما عرفه العرب بالتجربة ، ذلك بأن الوراثة فى رأى كثير من العلماء أعظم مؤثر فى الحياة ، بل هى مجرى الحياة نفسه ، لأن كل كائن حى نتاج أبوين[٥] . وما أصدق قول منتانى : يالها من قوة خطيرة

---

(١) الأسرة والمجتمع ٤٧ .

(٢) الحيوان ١ / ١٥٧ .

(٣) الحيوان ١ / ١٤٨ .

(٤) الإمتاع والمؤانسة ١ /٩٥ .

(٥) The Science of living things. Heredity By Eldon Moore P. 455

تلك القطرة المنوية الدقيقة التي تتكون منها ، فتنقل إلينا صفات آبائنا الجسمية وأفكارهم وميولهم[(١)] .

وليس بين العلماء شك في انتقال الصفات الجسدية بالوراثة إلى الأبناء والأحفاد ، فإذا تزاوج اثنان أحدهما أبيض الشعر والآخر أحمر الشعر نسلا وليداً كُمَيْتَ الشعر . وإذا تزوج من هذا النسل اثنان نسلا واحداً أحمر الشعر واثنين كميتين وواحدا أبيض ، أى أن اثنين نزعا إلى الجدين واثنين نزعا إلى الأبوين .

وقد انتهى مندل Mendel من بحوثه إلى أن كلا من الأبوين يمنح الطفل خلاياه ، وأن خلاياهما تصطحب فى طفلهما اصطحابا متقارنا ، وما الطفل والكائن الحى إلا نتاج مزدوج من عناصر الحياة فى الأب والأم[(٢)] . ولقد تظهر الصفات الوراثية فى السلالة البعيدة بعد أن اختفت أجيالا ، وهذه هى الوراثة غير المباشرة[(٣)] .

وكثير من العلماء على أن الصفات العقلية والخلقية تورث أيضا ، سواء منها الصالح والطالح ، كالذكاء والحلم والكرم والورع ، وكالجنون والعتة والجبن والخجل المفرط والميل إلى العهارة أو الانتحار[(٤)] .

وإذاً فقد كان العرب على صواب فى إيثارهم الاغتراب فى الزواج . يقول العالم النفسى إلدن مور Elden moore ، يجب على الرجل أن يحذر حين يتزوج ابنة عمه أو عمته أو خاله أو خالته ؛ لأن هذا الزواج الداخلى قد يسبب ضعفاً فى الجسم أو العقل ، أو يجر بعض الأمراض كالسل وغيره . والسبب الذى يوجب الحذر فى الزواج أنه إذا كان الزوجان جيدى الصحة والعقل كان النسل مثلهما ، وإذا كانا ضعيفى الجسم أو غبيين أو بهما نقص ما نسلا أولاداضعافاً أو مُخْدَجين[(٥)] .

---

(١) فى التربية ١٥٥ على عبد الواحد .

(٢) The Science of living things. p. p. 466-467

(٣) Ebid P. 470

(٤) فى التربية ١٣٤ .

(٥) The Science of living things. P. 484

وقد تبين مما سبق أن الصفات الموروثة بعضها مباشر يرجع إلى الوالدين ، وبعضها غير مباشر يرجع إلى الأجداد ، فالحيطة تقضى بإيثار الزواج الخارجى نجوة من تأثير صفات مستكنة مجهولة تضرب إلى الأصول .

أما الخلاسيون « فمن الخطأ الزعم أنهم يحملون أسوأ صفات الجنسين ، لأن الدراسة تبين أنهم أصحاء وأقوياء، كالجالية الصينية الإنجليزية فى ليفربول وبعض جزر الهند الصينية (١) .

على أن لاغتراب العرب بواعث أخر ، فالمصاهرة بين قبيلتين تصلهما برباط من المودة والتحالف ، أو تزيد ما بينهما من محبة وتآلف . والزواج من قبيلة أخرى دليل على الفتوة والرجولة وحسن الأحدوثة ، ثم إن نشأة الفتى بين قريباته قد تصرفه عن جمالهن وجاذبيتهن ، لأنه ألف أن يراهن ، ولكن بعد الغريبات عنه يضفى عليهن سحرا وجاذبية .

وقد ذهب المرحوم الشيخ حمزة فتح الله إلى تعليل آخر ، فذكر أن السبب فى ضعف الولد من القريبة أن شهوة أبيه إلى أمه ضعيفة ، لأن الإحساس بالنظر واللمس يقوى بالأمر القريب الجديد ، فأما المعهود الذى دام النظر إليه مدة فإنه يضعف الحس عن تمام إدراكه والتأثر به ، ولا تنبعث به الشهوة (٢) .

ولكن هذا التعليل لا يقره العلم كما سبق، ثم هو مردود بأن الرجل يتزوج الغريبة ويألفها بعد حين ، كما كان يألف القريبة قبل الزواج .

لم يقف اغتراب العرب عند الزواج من قبيلة أخرى ، بل تعداه إلى الزواج من أمم أخرى ، وأنا أريد بالزواج هنا الاتصال بين الرجل والمرأة .

ا — فكانت الزوجة فى كثير من الأحيان حبشية، وكان للعرب ميل خاص إلى الحبشيات ، يدل على ذلك قول أبى حازم المدنى :

---

(١) Ebid. P. 483

(٢) باكورة الكلام على حقوق النساء فى الإسلام ٢٢ .

ومن يك معجبا ببنات كسرى   فإنى معجب ببنات حام

وقول الأصمعى لرجل : أى الرجال أخف أرواحا ؟ قال : الذين أعرقت فيهم السودان . وقول على بن أبى طالب : من تزوج سوداء فطلقها فعلىّ مهرها[١] . وساعدهم على هذا كثرة الإماء من الحبشة ، وحسن رأيهم فى الحبشيات ، حتى لقد كان اليمنيون يؤثرون الحبشيات و بنات الحبشيات فى زواجهم[٢] .

ولم يكن هذا الميل ناشئاً عن المساواة التى بثها الإسلام ، فإن كثيرا من العرب فى الجاهلية أمهاتهم حبشيات ، فأم عنترة زبيبة وهى أمة حبشية[٣] ، وأم خفاف بن عُمَيْر أمة سوداء اسمها نُدْبة وإليها نسب[٤] . وكانت بركة أم أيمن مولاة النبى صلى الله عليه وسلم وحاضنته أمة سوداء ، وقد تزوجها عبيد بن زيد الخزرجى فولدت له أيمن ، ثم زوجها النبى من زيد بن حارثة فولدت أسامة[٥] ، وهناك بركة غيرها تكنى بأم أيمن أيضاً ، وهى حبشية كانت خادما لأم حبيبة ، وقد ترجم لها ابن حجر[٦] ، ويذكر صاحب المحبّر عدة من الحبشيات زوجاتٍ وأمهاتٍ ، منهن صهال كانت لهاشم بن عبد مناف ، وولدت نضلة بن هاشم ونفيل بن عبدالعزى وعمرو بن ربيعة بن الحارث ، ومنهن حُبّة كانت لجابر بن حبيب ، وهى أم الخطاب بن نفيل ، وقد عير ثابت بن قيس الأنصارى عمر بن الخطاب بقوله يابن السوداء ، فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنو لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » ، ومنهن أم عمرو بن العاص بن وائل السهمى ، وأم معمر بن عثمان التيمى ، وأم المتلمس الضبى ، وأم عثمان بن الحويرث الخ[٧] .

---

(١) عيون الأخبار ٤ / ٤٠ .

(٢) رسالة فخر السودان من مجموعة رسائل الجاحظ ٧٥ .

(٣) الأغانى ٧ / ١٤١ والمحبر ٣٠٦ .

(٤) الأغانى ١٦/١٣٥ والشعر والشعراء ١٢٢ .

(٥) الإصابة ٨ / ٣١٢ .   (٦) الإصابة ٨ / ٢٧ .

(٧) المحبر لابن حبيب ٣٠٦ ـ ٣٠٩ .

ب ــ وتزوجوا بروميات ، كسمية ، فهى رومية الأصل سباها اليشكرى ووهبها للحارث بن كلدة ، وكان يطؤها بملك اليمين ، فولدت له نافعاً ثم نفيعاً، ثم وهبها لزوجته صفية الثقفية ، فزوجتها عبدا روميا لها يقال له عبيد ، فولدت له زيادا ، فأعتقته صفية[١] ، ثم خلف عليها الأزرق ، فولدت له سلمة[٢] .

حـ ــ لكنهم لم يتزوجوا بفارسيات ، لأن الفرس كانوا لايزوجون بناتهم للعرب في الجاهلية[٣] ، ولكن بعض الإماء والقيان كن فارسيات ، وكن يستولدن . وقد ألف على بن محمد المدائنى كتابا سماه (كتاب من تزوج مجوسية[٤]) .

وكأنما أراد العرب أن يثأروا في العصر الأموى لترفع الفرس عليهم في الجاهلية، فلم يرتضوا الفرس أزواجا لبناتهم ، تحقيراً لشأن الأعاجم ، كما سيجيء فى كفاءة الزوج . ثم انكب المسلمون على الزواج بالفارسيات فى العصر الأموى والعباسى، حتى لتجد كثيراً من الخلفاء والأمراء من أمهات غير عربيات[٥] .

د ــ على أن بعضهم عاب الزواج بالنبطيات ، يدل على ذلك أنه كان فى شَيْهم بن ذى النابين فشَلٌ وضعف رأى ، فأتى أرض النبيط فى نفر من قومه ، فهوى جارية نبطية حسناء ، فتزوجها ، فنهاه قومه ، وقال أخوه محارب :

لم يَعْدُ شَيْهَمُ أن تزوج مثله ... فهُما كشيهمة علاها شيهم

ورسوله الساعى إليها تارةً ... جُعَلٌ وطوراً عَضْرَفوطٌ مُلْجَمُ

ولم يكن فى قومة إلا ساخر به عائب له[٦] . ولعل مَرَدَّ ذلك إلى أن العرب كانوا يرون النَّبط أهل زراعة واستقرار وخضوع للحكام[٧] ، ولا يدينون بعصبية

(١) الإصابة ٨ / ١٩ (٢) الإصابة ٨ / ١١٤ .

(٣) مروج الذهب ١ / ١٩٦ . (٤) معجم الأدباء ١٤ / ١٣٣ .

(٥) المحبر لابن حبيب ٤٥ يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان أمه فارسية. إبراهيم ابن الوليد بن عبد الملك أمه أم ولد . مروان بن محمد أمه كردية . أبو جعفر المنصور أمه بربرية. موسى وهارون ابنا الرشيد أمهما جرشية . المأمون أمه باذغيسية الخ . . . .

(٦) مجمع الأمثال ١ / ١٥٥ شيهم : قنفذ . جعل : دويبة كالخنفساء . عضر فوط : ذكر العظاء وهو كسام أبرص ، وفى زعمهم أنه من دواب الجن وركائبهم .

(٧) هؤلاء غير الأنباط الذين كانت لهم دولة بالشام .

كما يدين العرب فى الجزيرة ، ولا يعتزون بأنسابهم مثلهم . يدل على ذلك قول عمر بن الخطاب: تعلموا الأنساب، ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال : أنا من قرية كذا[١] وقوله : تَمَعْدَدوا ولا تستنبطوا ، أى تشبهوا بمَعَدّ ، ولا تتشبهوا بالنبط فى سكناها واتخاذ العقار والمِلْك . ويدل على ذلك أن رجلا قال لآخر : يانبطى . فقال لاحَدّ عليك ، كلانا نبط . يريد الجوار والدار دون الولادة . وفى كلام أيوب بن القِرِّيّة : أهل عمان عرب استنبطوا ، وأهل البحرين نبيط استعربوا[٢] .

الزوج الكفء فى نظر المرأة وآلها .

بالغ العرب فى تخير الأزواج لبناتهم ،ودققت الفتيات فى اصطفاء أزواجهن، كما تحرى الرجال ــ فيما سبق ــ زوجات متسمات بصفات خاصة .

وكانت الفتاة وآلها يهشون للخاطب الكفء و يابون خطبته ، ولا يردونه. بذلك نصح حصن بن حذيفة بن بدر أبناءه فى قوله : «أنكحوا الكفء الغريب ، فإنه عزّ حادث[٣] » وأوصى قيس بن زهير النمر بن قاسط بعد أن تزوج منهم وجاورهم بقوله : « لا تردوا الأكفاء عن النساء فتخرجوهن إلى البلاء ، فإن لم تجدوا الأكفاء فخير أزواجهن القبور[٤] »وقال الأحنف بن قيس : ثلاثة لا أناة فيهن عندى. قيل:وما هن يا أبا بحر ؟ قال :.... وأن تنكح الكفء أيّمك[٤] » وكان يقال :لأفعى تحكك فى ناحية بيتى أحب لى من أيم رددت عنها كفئا ، وما بعد الصواب إلا الخطأ ، وما بعد منعهن من الأكفاء إلا بذلهن للسِّفْلة والغوغاء [٥] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٢٦ . (٢) لسان العرب مادة نبط .

(٣) أمالى المرتضى ٢ / ١٦٨

(٤) العقد الفريد ٣ / ٢١١ وأمالى المرتضى ١٤٩ .

(٥) البيان والتبيين ٢ / ٩٩ .

أما الشروط التي راعتها المرأة وراعاها قومها في الزوج فإنها تدور كلها حول الكفاءة لهذه المصاهرة .

١ ــ فالزوج الشاب أثير مستحب ، لأنه أدنى إلى الزوجة سنا ، وأشبه بها خلقا وميلا ، ولأنه في ريعانه وعنفوانه . لذلك رفضت الخنساء أن تتزوج بدريد ابن الصمة لما خطبها ، لأنها تبينت أنه هرم ، ولم يثنها أبوها عن رفضها[(١)] . وحاول أخوها معاوية ــ وكان صديقا لدريد ــ أن يرغمها فما استطاع ، وفي ذلك تقول :

أَتُكْرِهُنى ــ هُبِلْتَ ــ على دُرَيْد وقد أَصْفَحْتُ سيدَ آل بدر
معاذَ الله يَرْضَعنى حَبَرْكَيَ قصير الشِّبْر من جُشَم بن بكر[(٢)]

فغيظ دريد وهجاها ، وتمنى ألا تتزوج زواجا سعيداً[(٣)] .

ولما خطب الحارث بن سَليل الأسدى إلى علقمة بن خَصَفة الطائى ــ وكان الحارث شيخاً ــ قال علقمة لأم الجارية : أريدى ابنتك على نفسها . فقالت لها : أى بنية أى الرجال أحب إليك ؟ الكهل الجحجاح ، الواصل المنَّاخ ، أم الفتى الوضاح ؟ قالت : لا بل الفتى يا أماه :

إن الفتاة تحب الفتى كحب الرِّعاء أَنيقَ الكلا

ولكن أمها لم تزل بها حتى غلبتها على أمرها ، فتزوجت الحارث . وبينما هو ذات يوم جالس وهي إلى جانبه أقبل شباب من بنى أسد يعتلجون ، فتنفست صعداء ، ثم بكت ، فقال لها : مايبكيك ؟ قالت : مالى وللشيوخ الناهضين كالفروخ .

---

(١) عيون الأخبار ٤ / ٤٦ .

(٢) ديوان الخنساء ١٢٠ أصفحت : رددت : سيد آل بدر : كان زعيمهم خطبها فردته . حبركى : طويل الظهر قصير الرجلين أو ضعيف الرجلين يكاد يكون مقعداً . قصير الشبر : متقارب الخطو . يرضعنى يتزوجنى .

(٣) الأغانى ٩/١١ و ١٣/١٣٨ ومنتهى الطلب ٣٢٤ مخطوط .

فقال لها : أما وأبيك لرب غارة شهدتها ، وسبية أردفتها ، وخمرة شربتها ، فالحقى بأهلك فلا حاجة لى فيك . وقال :

تهزأت بى أن رأتنى لابساً كِبَراً … وغاية الناس بين الموت والكبر
فإن بقيتِ لقيتِ الشيب راغمة … وفى التعرف ما يمضى من العبر
عنى إليك فإنى لا يوافقنى … عُورُ الكلام ولا شربٌ على الكدر [(1)]

وودت بنت ذى الأصبع العدوانى أن يكون لها زوج شاب :

ألا ليت زوجى من أناس ذوى غنى … حديث الشباب طيب الريح والعطر [(2)]

٢ — وأن يكون الزوج حسن العشرة ، حدباً على الزوجة ، رفيقاً رقيقاً ، وهن قد أعلنّ ذلك فى أحاديثهن ، جاء فى حديث نسوة من بنى سعد قول واحدة منهن : « خير الرجال الحظىّ الرضىّ القنوع ، غير الخَظَّال »

وقول ثانية : « بل خير الرجال الوفىّ السنىّ الذى يكرم الحرة ، ولا يجمع الضرة » ، وقول ثالثة : « بل خير الرجال الغنى المقيم الراضى لا يلوم [(3)] » وتحدثت بنات ذى الإصبع العدوانى عن الصفات التى تتمناها كل منهن فى زوجها حديثاً طويلا [(4)] يعنينا منه الآن قول الكبرى :

ألا ليت زوجى من أناس ذوى غنى … حديث الشباب طيب الريح والعطر
طبيب بأدواء النساء كأنه … خليفة جانٍ لا ينام على وتر

وإن الزوجة لترجو أن يكون زوجها مرحا باسم الثغر لتجد الأنس فى قربه ، والراحة فى عشرته . قيل لابنة الخس : ألا تتزوجين ؟ قالت : بلى ، لا أريده أخا

---

(١) عيون الأخبار ٤/٤٨ وجمهرة الأمثال ١/١٨٣ ومجمع الأمثال ١/١١٠ والفاخر للمكوفى ٨٩ جحجاج : سيد كريم

(٢) الأغانى ٣/٩٤ .

(٣) الفاخر ١٩٣ وجمهرة الأمثال ٢/١٣٣ الخظال : المقتر على أهله .

(٤) الأغانى ٣/٩٤ وتهذيب الكامل ١/٣٠٥ ومجمع الأمثال ١/٢٩٣ وأمالى المرتضى ١٧٧ وأخبار النساء لابن القيم ٤٨ وجمهرة الأمثال ١/٢٢٥ .

فلان ولا ابن فلان ، ولكن أريده كسوبا إذا خرج ، ضحوكا إذا أتى [(١)] .

وما زالت هذه نظرتها إلى زوجها فى الإسلام ، فإنه لما خطب عمر أم أبان بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس — بعد مقتل زوجها أبان بن سعيد بن العاص ابن أمية — أبت فقيل لها : لم ؟ قالت : يدخل عابساً ويخرج عابساً. ثم خطبها الزبير ابن العوام ، فأبته ، فقيل لها: لم ؟ قالت : ليس لزوجته منه إلا قضاء حاجته ، ويقول كنت وكان وكان وخطبها عليّ فقالت : ليس للنساء منه حظ . وخطبها طلحة فرضيته ، قالوا لها : وكيف ذلك ؟ قالت: إنى عارفة بخلائقه ، إن دخل ضاحكا، وإن خرج بساما ، إن سألت أعطى ، وإن سكت ابتدأ ، وإن عملت شكر ، وإن أذنبت غفر [(٢)] .

وهذه الصفات التى جاءت فى حديث بنات سعد وبنت ذى الإصبع وابنة الخس ، وأم أبان ليست إلا ألواناً من العشرة الحلوة والأخلاق الرضية التى تأنس إليها الزوجة فى زوجها .

٣ — وأن يكون الزوج متحلياً بالفضائل التى تعارفت عليها العرب ، واقتضتها البيئة من كرم وشجاعة وأنفة وغيرها ، فهى تؤثره جواداً، لأن جوده يحقق آمالها فى حياة ناعمة ، ويكفل له شهرة وسيادة ، قالت إحدى بنات ذى الإصبع :

ألا ليته يَمْلَأ الجِفانَ لضيفه ... له جَفنة يَشْقَى بها النِّيبُ والجُزْرُ [(٣)]

ومما يدل على تطلبها أن يكون زوجها كريماً أن ماوية بنت عفزر كانت ذات حرية تتزوج من أرادت ، وقد أتاها حاتم والنابغة ورجل من النبيت يخطبونها، فطلبت منهم أن يقول كل منهم شعراً يذكر فيه فعاله ، ثم ينشدونها فى الصباح ما قالوا ، وستصطفى أكرمهم زوجاً لها. وفى الصباح أنشدوها ، وكان من قول حاتم:

أماوى إن المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر

---

(١) عيون الأخبار ٤/ ١١ (٢) أعلام النساء ١/ ١٢ .

(٣) النيب : النوق المسنة . الجزر : النوق التى تذبح .

فقالت: إن حاتماً أكرمكم وأشعركم . ثم رضيته زوجاً لها على أن يخلى سبيل امرأته فأبى ، فلما ماتت امرأته تزوجته ماوية وولدت له عَدِيّاً[١] . وهى تريدأن يكون شجاعا ، لتعتز بحمايته . وتفخر برهبته ، ولتعلو مكانته فى قومه ، فلاينام على وتر كما قالت بنت ذى الإصبع ، وكما قالت امرأة فى وصف زوجها : ليث عَرِينَة ، وجمل ظعينة ، وظل صخر ، وجوار بحر[٢] . وفى رثاء الخنساء لأخيها صخر نموذج للرجل الأثير عند النساء بكرمه وشجاعته وسيادته ، وطالما رددت هذه المعانى كقولها :

جَلْدٌ جميل المحيّا كامل ورع ... وللحروب غداة الروع مِسْعار
مثل الرُّدَيْنىّ لم تنْفَدْ شبيبته ... كأنه تحت طى البرد أُسْوَار
عَبْل الذراعين قد تُخْشى بديهته ... له سلاحان : أنياب وأظفار[٣]

وقد سئلت ابنة الخس أى الرجال أحب اليك ؟ فقالت : السهل النجيب ، السمح الحسيب ، الندب الأريب ، السيد المهيب . وأفضل منه الأهيف الهفهاف الأنِفُ العيّاف ، المفيد المتلاف ، الذى يخيف ولا يخاف[٤] . وذكر أبو على القالى حديثاً طويلا بين ثلاث فتيات وصفن ما يحببن من أزواجهن ، ماخصه أنهن يتطلبن فى الزواج الكرم والشجاعة[٥] .

لذلك هجا عامر بن الطفيل أناساً بأنهم حقراء لا يخطبون بنات السادة ، ولا يقبل أحد على الخطبة منهم :

---

(١) الأغانى ١٦/٩٩ ـ ١٠١ وذيل الأمالى ١٥٤ .
(٢) مجالس ثعلب ١/٤٥ .
(٣) ديوان الخنساء ٨٠ مسعار : مشعل . أسوار : سوار كما فى شرح الديوان ، وأرى أنه فارس الفرس ، لأن هذا أليق بمدحه .
(٤) ذيل الأمالى ١١٩ الأهيف والهفهاف : الضامر البطن الدقيق الخصر . الأنف العياف : الأبى للضيم .
(٥) الأمالى ٣/١٦ .

لا يخطبون إلى الكرام بناتهم   وتشيب أيِّمهم وما تُخْطَبِ [١]

وقد أبت حسينة بنت جابر العجلى أن تعود إلى زوجها ابن عمها ، لأنه فرفى الحرب وتركها تسبى [٢] . ورأت امرأة زوجها قد قبع فى منزله والرجال يقاتلون عدوهم ، وهى تنظر إليهم معجبة ، فضربها ، فقالت أغيرة وجبنا ، فذهبت مثلا [٣].
وفى حديث بن عمر بين الخطاب وعمرو بن معد يكرب قول عمرو : كنا نغير على بنى مالك ، فأتينا على قوم سراة ، فجلست فى موضع أسمع كلامهم ، وإذا بجارية قد خرجت من خيمتها ، وجلست بين صواحب لها ، ثم دعت وليدة من ولائدها فقالت : ادعى لى فلانا . فلما جاء قالت له : إن نفسى تحدثنى أن خيلا تغير على الحى ، فكيف أنت إن زوجتك نفسى ؟ قال : أفعل وأصنع ، وجعل يصف نفسه ويفرط ، فقالت له : انصرف حتى أرى رأيى . وأقبلت على صواحبها وقالت : ما عنده خير . ثم استدعت آخر ، وخاطبته فأجابها كجواب الأول ، فصرفته . ثم قالت لوليدتها : ادعى لى ربيعة بن مكدم ، فدعته ، فقالت له مثل قولها للرجلين ، فأجابها : إن أعجز العجز وصف الرجل نفسه ، ولكنى إن لقيت أعذرت ، وحسب المرء غناء أن يُعْذر . فقالت له : قد زوجتك نفسى ، فاحضر غداً مجالس الحى ليعلموا ذلك [٤] .

لذلك كان الرجال كثيراً ما يتوجهون بفخارهم بالشجاعة إلى المرأة ، ويطالبون منها أن تسقيهم الخمر جزاء وتقديراً ، قال المرقش الأكبر :

يا ذات أجوادنا قومى فحيينا   وإن سقيت كرام الناس فاسقينا
وإن دعوت إلى جلَّى ومكرمة   يوماً سَراة خيار الناس فادعينا [٥]

وقال عمرو بن كلثوم :

---

(١) ديوان عامر القصيدة ٨
(٢) أشعار النساء للمرزبانى ٥٧ ــ ٥٩ .
(٣) الميدانى ٢/٤ .
(٤) الأغانى ١٥/١٣٢
(٥) المفضليات ٢/٢٣١ .

ألا هبي بصحنك فاصْبَحينا ولا تبقى خمور الأَنْدَرِينا [١]

وقال الدَّهَّان بن جَنْدل بعد انتصار العرب فى ذى قار :

إن كنت ساقيه يوماً على كرم فاسقى فوارس من ذهل بن شيبانا

واسق فوارس حاموا عن ديارهم واعلى مفارقهم مسكا وريحانا

وقال بكر بن الأصم :

إن كنت ساقيه المدامة أهلها فاسقى على كـرم بنى هَمَّام

وأبا ربيعـــة كلها ومُحَلَّما سبقوا بغاية أفضل الأقسام [٢]

ولقد يشهدها الرجل على مفاخره ، كقول أمية بن الصلت :

فإما تســألى عنى لُبَيْنَى وعن نسبى أُخَبِّرْكِ اليقينا

ثقى أنى النبيـــه أبا وأما وأجدادا سَمَوْا فى الأقدمينا [٣]

٤ ــ ولقد تؤثر الفتاة أن تتزوج فتى من عشيرتها ، ايثاراً لقربها من آلها ، ورغبة فى أن تقيم بوطنها، وتهيبا من معاشرة من لاتعرف . ولقد يكون السبب أيضاً كما قرر ولها وزنWellhausen أن النساء كن يحتمين بعشيرتهن حتى وهن متزوجات ، وكان أقاربهن يحمونهن و يدافعون عنهن . وفى الحـكومة الجمهورية بغير حا كم ــ كما يحلو لولها وزن دائماً أن يطلق على الحياة السياسية للعرب البداة ــ كانت القبيلة هى التى تـكفل السلام والحماية لأفرادها جميعاً ، وكان الفرد يسعى ليحقق أهدافه الخاصة فى نطاق لايعدو على مصالح القبيلة ، والمرأة عضو فى هذا الاتحاد ، فيجب على القبيلة أن ترعى أمنها وسلامتها وحقوقها، حتى بعد أن تتزوج فى قبيلة أخرى [٤] .

و يدل على إيثارهن للزوج القريب قول إحداهن :

---

(١) شرح القصائد العشر ٢١٨ (٢) الأغانى ٢٠/١٣٨ .

(٣) جمهرة أشعار العرب ١٨٧ .

(٤) Women in the Aiyam Al Arab. P. 66

لصوقٌ بأكبادالنساء ، وأصله   إذا ما انتمى من سِرِّ أهلي ومحتدى

وقول بنت أوس بن حارثة الطائى لأبيها إذ استشارها فى أن يزوجها الحارث ابن عوف : لست بابنة عمه فيرعى رحمى ، وليس بجارك فيستحى منك[١] . ونصحت أخت أختها ألا تقبل غريبا زوجا لها ، وقالت لها : إن شرالغريبة يُعْلَن وخيرها يدفن ، تزوجى فى قومك ، ولا تغررك الأجسام[٢] . وجاء فى قول الخنساء لأبيها وقد رفضت دريد بن الصمة زوجا : أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح ، وناكحة شيخ بنى جُشَم[٣] .

وقد نقمت امرأة عامرية من أبيها وأخيها أنهما زوجاها فى عشيرة أخرى :

لا تحمدنَّ الدهرَ أختٌ أخا لها   ولا ترثينَّ الدهرَ بنتٌ لوالد

هم جعلوها حيث ليست بحرة   وهم طرحوها فى الأقاصى الأباعد[٤]

ولما خطب عثمان بن عفان نائلة بنت الفرافصة ـ وكان أبوها نصرانيا ـ أمر ابنه ضبا ـ وكان مسلما ـ أن يتولى أمر زواجها ، فزوجها عثمان ، فلما حملت كرهت الغربة ، فقالت لأخيها ضب :

ألست ترى ياضَبُّ بالله أننى   مصاحبة نحو المدينة أَرْكُبا

إذا قطعوا حَزْناً تخث ركابهم   كما زعزعَتْ ريح يراعا مثقّبا

لقد كان فى أبناء حصن بن ضمضم   لك الويل ما يغنى الخباء المُطَنَّبا[٥]

قضى الله حقاً أن تموتى غريبة   بيثرب لا تلقين أما ولا أبا[٦]

ثم بعد ذلك جاءت مَيْسون بنت بَحْدَل الكلبية ،وكانت بدوية ، فتزوجها معاوية ، وأقامت بالشام فى بحبوحة الملك وخفض العيش ونضرة الحضارة ،وكانت

---

(١) الأغانى ٩/١٤٢   (٢) مجمع الأمثال ١/١٢٤ .
(٣) الأغانى ٩/١١ والشعر والشعراء ١٢٢ .
(٤) تهذيب الكامل ٢/١٢٤ وأشعار النساء للمرزبانى . مخطوط .
(٥) الأغانى ١٥/٦٧ ورسالة الحنين إلى الأوطان ٢٢ وعيون الأخبار ٤/٧٦ .
(٦) معجم البلدان ٨/٤٩٩

قد حملت بولده يزيد ، فلم تتجلد على انتظار الوضع ، بل أخذت تهتف بقصيدة تقول فى آخرها :

خشونة عيشتى فى البدو أشهى إلى نفسى من العيش الطريف
فما أبغى ســوى وطنى بديلا فحسبى ذاك من وطن شريف[١]

وكثيرا ما كانت المتزوجات فى غربة يتغنين بالحنين إلى أوطانهن ، تقول امرأة شيبانية كانت متزوجه فى بنى يشكر :

أصبحت فى آل الشقيق غريبة علىّ الذى لا عيب فيه مَعِيبُ
وإن زمانا ردنى فى عشيرتى إلىّ وإن لم أرجُــــهُ لحبيب

فسمعها زوجها ، فردها إلى قومها[٢] .

وكان الخاطب من قومها يهتاج إذا ما آثرت عليه غريباً . خطب شقيق بن السليك امرأة من قومه فردته ، وتزوجت غريباً ، فدعا عليها بألا تسعد، وألا تنسل، وأن يكون زوجها هرما كثير الإماء سيىء العشرة ضروبا لزوجاته ، قذرا قبيح الصورة :

ونبئتها أَحْرَمتْ قومها لتنكح فى معشر آخرينا
فإما نكحتِ فلا بالرفاء إذا ما نكحت ولا بالبنينا
زُوِّجْتِ أشْمط فى غربة تُجَنُّ الحليلة منــه جنونا
خليــل إماء يرا وخنـه وللمحَصنات ضروبا مهينا
إذا ما نقلت إلى داره أعد لظهرك سوطا متينا
وقلبت طرفك فى شاهق تظل الحمام عليه وكُونا
يُشمُّكِ أخبثَ أضراسه إذا ما دنوت فتستنشقينا
كأن المساويك فى شدقه إذاهن أكْرِهْن يقلَعْنَ طيناً

---

(١) حماسة الخالديين ٢٣٢ مخطوط .

(٢) أشعار النساء المرزبانى ٥١ مخطوط .

فأبعدك الله من جارة وألزمك الله ما تكرهينا [١]

٥ — وقد راعت الفتاة وقومها أن يكون الزوج عربياً ، لأن العرب كانوا ذوى حمية وأنفة واعتداد بالنفس والجنس إلى حد الغلو ، يرون أنهم أرق الأمم وأصفاها ، فليس شعب بكفء لأن يصهر إليهم .

وكان كثير من الأمم يجرى على ذلك ، فالعبريون كانوا يحرمون تزويج الكنعانيين وغيرهم ، لأنهم اعتقدوا أنهم شعب الله المختار . واليونانيون كانوا لايزوجون شعباً آخر ، لأنهم أطلقوا على غيرهم من الشعوب كلمة برير ، ونظروا إليهم على أنهم دونهم . وأيد فلاسفتهم هذه النظرية ، فأرسطو يرى أن اليونان وحدهم مزودون بالعقل والشجاعة ، ومن عداهم من الشعوب (البربر) مزودون بالشجاعة وحدها . وكذلك كان الرومان ، فقد أصدر الإمبراطور فالنتيان قانوناً يقضى بعقوبة الإعدام على كل رومانية تتزوج بغير رومانى [٢] .

وتشدد العرب فى حظر تزويج غير العربى وإن كان ملكا . ومن أمثلة ذلك أن النعمان رفض أن يزوج كسرى بن هرمز ابنته حُرَقة ، وكان من نتائج هذا الرفض أن قتل كسرى النعمان ، ثم أن قامت حرب ذى قار وانتصر فيها العرب [٣] .

وإن أقدم عربى على تزويج عِلْج سخر منه العرب واحتقروه ، قال الأسعر الجُعْفى فى هجاء أبى حُمْران : [٤]

باعوا جوادهم لتسمَنَ أمهم ولكى يعود على فراشهم فتى
عِلْجٌ إذا ما بَزَّ عنها ثوبها وتخامصَتْ قالت له : ماذا ترى

ولما جاء الإسلام قضى على نزعة العصبية الجنسية ، وأحل محلها الدين فى الكفاءة ، نقل عن عمر وابن مسعود وغيرهما — وهو الظاهر من مذهب مالك.

---

(١) لسان العرب ١٥/١٧ وحماسة الخالديين ٣٥٢ مخطوط والحماسة البصرية ٢٢٤ مخطوط . مارد : حصن أو قصر . وكون : جمع وا كن أى جاثم يريد أن الحمام يقف على الحصن فلا يذعر لارتفاعه .

(٢) الأسرة والمجتمع ٣٣ ـ ٣٥

(٣) تاريخ الطبرى ٢/١٠٠ .

(٤) الأصمعيات من مجموع أشعار العرب لوليم بن الورد البروسى ١/٣ .

الاعتداد بالدين وحده ، لقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ولقوله صلى الله عليه وسلم : « ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى » وقوله : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه » وغير هؤلاء يعتدون الكفاءة فى الدين والحرية والنسب والصناعة [١] .

ولكن بعض العرب ظلوا يستمسكون بنعرتهم القديمة ، ففى الإسلام زوج إبراهيم بن النعمان بن بشير الأنصارى يحيى بن أبى حفصة مولى عثمان بن عفان ابنته على عشرين ألف درهم ، فقال شاعر يعيره :

لعمرى لقد جلّلت نفسك خَزْيَة ... وخالفت فعل الأكرمين الأكارم
ولو كان جداك اللذان تتابعا ... ببدر لما راما صنيع الألائم

فرد عليه إبراهيم بقوله :

فما تركت عشرون ألفاً لقائل ... مقالا فلا تَحفلْ ملامة لائم
وإن أكُ قد زوجت مولى فقد مضت ... به سنة قبلى وحبُّ الدراهم [٢]

وكان يحيى هذا يهودياً فأسلم [٣] ، أو كان أبوه يهودياً فأسلم [٤] .

وروى أن يحيى هذا خطب لابنيه بنتى مقاتل بن طَلْبَة بن قيس بن عاصم ، فأجابه ، فقال القُلاخُ بن حَزْن المنقرى :

نُبِّئْت خولة قالت حين أنكحَها ... لطالما كنتُ منك العارَ أنتظر
أنكَحْتَ عبدين ترجو فضل مالهما ... فى فيك مما رجوتَ التُّرب والحجر
لله در جياد أنت سائسها ... بَرْذَنْتَها وبها التحجيل والغُرر [٥]

وكرر هذا الهجاء [٦] .

وفى العصر الأموى عيّر الكميت اليمانين بأنهم زوجوا بناتهم للفرس والحبش

---

(١) عيون المسائل ٥٩ .
(٢) الكامل للمبرد ١/٢٨١ وعيون الأخبار ٤/١٦ .
(٣) عيون الأخبار ٤/١٦
(٤) الأغانى ٩/٣٦ .
(٥) عيون الأخبار ٤/١٦
(٦) الأغانى ٩/٣٦ .

فى العصر الجاهلى ، وافتخر بأن النزاريين لم ينحدروا إلى هذا الدرك :

وما ضربَتْ فحولَ بنى نزار ... قَوَالِحُ من فحول الأعجمينا

وما حملوا الحمير على عتاق ... مطهمة فيلْفَوا مُبْغَلينا

بنى الأعمام أنكحنا الأيامى ... وبالآباء سمَّينا البنينا[١]

وكان عقيل بن عُلَّفة شديد العجرفة والبذخ بنسبه فى بنى مرة ، لا يرى أن له كفئاً ، وقد صاهرته قريش وخلفاؤها وأشرافها ، منهم يزيد بن عبد الملك ، وسلامة بن عبد الله بن المغيرة ، ويحيى وخالد والحارث أبناء الحكم بن أبى العاص[٢]

ولما خطب إليه عبد الملك بن مروان لأحد بنيه ، وكانت لعقيل إليه حاجة ، قال : أما إذ كنتَ فاعلا فجنبنى هجناءك[٣]. فهو لا يرفض غير العربى فحسب ، وإنما يرفض من أمه غير عربية . وكذلك يرفض أحد الأغنياء لأنه هجين ، وإن كان ذا مال كثير :

لعمرى لئن زوجت من أجل ماله ... هجينا لقد حُبَّتْ إلى الدراهم

أأنكح عبداً بعد يحيى وخالد ... أولئك أكفائى الرجال الأكارم

أبى لى أن أعطى الدنية أننى ... أَمُدُّ عنانا لم تخنه الشكائم[٤]

٦ — وهم ترفعوا عن تزويج العبد ، والحر المنحدر من عبد .

ولم ينفردوا وحدهم بهذا الترفع ، فكذلك كان العبريون واليونانيون والرومان[٥] ، ومازالت آثار من هذا النظام بأمريكا . يقول فوليه **Alfred Fouillée** تحدث مشاهد فى الولايات المتحدة لا تجلب فخراً للأمريكان ، وذلك

---

(١) العقد الفريد ٣/٢٣٣ الفحول : الرجال البينو الفحولة . قوالح : من قلخ الفحل إذا هدر . مبغلين : مهجنين .

(٢) الأغانى ١١/٨٢ .

(٣) تهذيب الكامل ١/٢٦٨ وأخبار النساء لابن قيم ٥٤ وعيون الأخبار ٤/١٢ .

(٤) الأغانى ١١/٨٦ .

(٥) أساس العدالة فى القانون الرومانى ٢٩ والأسرة والمجتمع ٣٣ — ٣٧ .

أن الزنوج يحبون النساء البيض حباً جماً ، ولقد يثور بهم هذا إلى أن يرووا شهوتهم بالعنف ، ويقضى القانون بأن يطلى من يأتى ذلك بالقطران ، ويحرق كما تحرق الشموع ، وتضطر الحكومة السود الذين يعيشون فى المنطقة التى حدث فيها الجرم أن يشهدوا إحراق رفيقهم ، وهم لا يفعلون ذلك ولا قريباً منه بالبيض إذا ما ارتكبوا هذا الجرم [١] .

نعم هنالك فى أمريكا يعيش وسط مائة مليون من الرجال والنساء النازحين من أوربا اثنا عشر مليوناً من أصل إفريقى ، و بين البيض والسود حاجز حصين من اللون يحرص البيض على بقائه وصيانته ، كما يحرص غيرهم على حدود مملكته ، والصلات الاجتماعية محظورة على جانبى هذا الحاجز العنصرى ، و إذا ما حاول أحد من السود أن يتخطى هذا الحاجز ثار البيض [٢] .

ومهما يكن العرب قد أحسنوا معاملة العبيد فإنهم فى نظرهم عبيد ، فقد كان الشنفرى أسيراً عند بنى شَبَابة ، فأعطوه لبنى سُلامان ، وعاش فيهم كأنه أحدهم وكان السلامى اتخذه ولداً له ، فقال الشنفرى لبنت السلامى : يا أخية اغسلى رأسى . فأنكرت عليه أن يكون أخاها ولطمته ، فذهب مغاضباً ، وسأل حتى علم أنه من الأواس بن الحجر ، فقال :

ألا ليت شعرى والتلهف ضلة ... بما ضربت كفُّ الفتاة هجينها
ولو علمت قُعْسُوسُ أنساب والدى ... ووالدها ظلت تقاصر دونها
أنا ابن خيار الحِجْر بيتاً ومنصباً ... وأمى ابنة الأحرار لو تعرفينها [٣]

فإذا كانت ترفضه أخا متبنى ، فهى أشد رفضاً لأن يكون زوجا ، لذلك خطب شقيق بن السليك امرأة من قومه فردته ، وأرجح أنها ردته لأن أباه ابن

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ١/١٤ .
(٢) تاريخ العالم عدد ٦ مجلد ١ ص ٣٢٣ Sir Arthur. Keith
(٣) الأغانى ٢١/٨٧ قعسوس : لقب للمرأة الدميمة .

أمة ، فغضب شقيق ، وتمنى لها شقوة فى زواجها كما سبق [١] .

وجاء الإسلام فجعل الحرية شرطاً ، والكفاءة فيها كالكفاءة فى الإسلام خاصة بالعجم ، لأن العرب لايُسْتَرَقُّون ، إذ لايقبل منهم إلا الإسلام أو القتل ، فالأعجمى الرقيق ليس كفئاً للحرة ، والحر بنفسه ليس كفئاً لمن لها أب نشأ فى الحرية ، ومن له أب لم يسترق ليس كفئاً لمن لها أبوان ، ومن له أبوان كفء لمن لها آباء [٢] .

وظلت بعض النساء فى الإسلام و بعض الرجال يتشددون فى النظر إلى حرية آباء الزوج ، يدل على ذلك أن نُصَيْبا علق جارية ، ومكثت زمانا تمنيه بالأباطيل ، فلما ألح عليها قالت : إليك عنى، فوالله لكأنك من طوارق الليل . فقال لها : وأنت والله لكأنك من طوارق النهار . فقالت : ما أظرفك ياأسود . فغاظه قولها ، فقال لها : هل تدرين ما الظرف ؟ إنما الظرف العقل . ثم قالت له : انصرف حتى أنظر فى أمرك ، فأرسل إليها بهذه الأبيات :

فإن أكُ حالكا فالمسك أَحْوَى ... وما لسواد جلدى من دواء
ولى كرم عن الفحشاء ناء ... كبعد الأرض من جو السماء
ومثلى فى دياركم قليل ... ومثلك ليس يُعْدَمُ فى النساء
فإن ترضَىْ فردِّى قول راض ... وإن تأبَىْ فنحن على السواء

فلما قرأت الشعر قالت : المال والشعر يأتيان على غيرهما ، وتزوجته [٣] .

٧ — ثم إلى ذلك كله لابد أن يكون الزوج كفئا للزوجة وقومها عراقة نسب وكرم أصل .

وكان العرب يتشددون فى عراقة النسب، ومساواة الخاطب لهم فى الشرف ،

---

(١) لسان العرب ١٥ /١٧ وحماسة الخالديين ٣٥٢ مخطوط والحماسة البصرية ٢٢٤ مخطوط
(٢) عيون المسائل ٦٤ وكنز العمال ٣١٢/٢ .
(٣) الأغانى ٣٥٤/١ .

ويرفضون من يهبط نسبه ، ويضؤل شرفه . يقـول جرير بن كليب ـ أو جزء ابن كليب ـ الفقعسى إن ابن كُوز تطلب الزواج من نساء سادتنا ، لأنه رأى أزمة حلت بنا ، فرددناه فى خزى ، لأنه تجاوز قدره ، ولأننا وإن عضنا الزمان ذوو حفاظ يمنعنا مصاهرة غير الأكفاء :

تَبَغَّى ابن كُوز والسفاهة كاسمها ... ليَسْتادَ منا أن شَتَوْنا لياليـا
فمـا أكبرُ الأشياء عندى حزازة ... بأن أُبْتَ مزرياً عليك وزاريا
وإنا على عض الزمان الذى ترى ... نعالج من كره المخازى الدواهيا
فلا تطلبنهـا يابن كوز فإنه ... غذا الناسُ مذ قام النبي الجواريا
وإن التى حُدِّثْتَها فى أنوفنـا ... وأعناقنا من الإباء كما هيا[(١)]

ومهما تنزل بالعربى نكبات تفقده ماله أو جاهه فإنه يعتز بشرفه الموروث ، ويزن الخاطب وزن المدقق المتحرى ، فان أرغم على تزويجها من غـير كفء فى العراقة حزن ، كما حدث للمهلهل إذ نفر عن قومه بعد حرب البسوس ، ونزل فى بنى جَنْب ـ حى من مذحج ـ فخطبوا إليه ابنته ، فقال : إنى طريد فيكم ، فمتى زوجتكم قالوا اقتسروه . وهو يريد أن يتنصل ، ولكنهم أجبروه على تزويجها ، وساقوا إليه صداقها أَدَما ، فقال :

أعزز على تغلب بمـا لقِيَتْ ... أخت بنى الأكرمين من جُشَم
أنكحها فقـدُها الأراقمَ فى ... جَنْب ، وكان الحباء من أَدَم
لو بأبانَيْنِ جاء يخطبهـا ... ضُرِّجَ ما أنفُ خاطب بدم
ليسوا بأكفائنا الكرام ولا ... يغنون من عَيْلَة ولا عُدُم[(٢)]

ولام عميرة بن جُعَل قومه بنى تغلب، لأنهم يزوجون بناتهم من حقراء النسب:

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٢٤١ .

(٢) أشعار المراقسة ٦٩ وعيون الأخبار ٣/٩١ وشرح الحماسة للمرزوقى ١/١١٨ والمعارف ٣٥ وتهذيب الكامل ٢/١٤ أبانين : جبل فى سفحه منازل تغلب . ضرج أنفه بالدم : قرع أنفه ووجهه بالعصا كما يقرع الفحل الهجين إذا تعرض لناقة كريمة .

ترى الحاصن الغراء منهم لشارف أخى سَلَةٍ قد كان منه سليلها[١]

٨ — وقد انفرد الحُمْسُ — قريش ومن دان بدينها من خزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشاً ، وكنانة وجديلة قيس وثقيف وعامر بن صعصعة . وكانت لهم مناسك خاصة فى الحج — باشتراطهم فى الخاطب أن يكون على دينهم ، لأنهم قد شددوا على أنفسهم فى الدين ، وشددوا على الناس[٢] ، فلم يزوجوا بناتهم إلا للحُمْس أو لمن يتحمس فى دينه .

ومثل هذا القيد عام فى الشعوب ، ففى الهند لا يصح التزاوج بين البرهميين وغيرهم من الطبقات ، والقوانين اليهودية القديمة تحرم الزواج بين اليهود وأهل الديانات الأخرى حتى النصارى والمسلمين[٣] .

وفى الإسلام لا يصح زواج مسلمة بغير مسلم وإن كان كتابيا ، ولا يجوز زواج مسلم إلا بمسلمة أو كتابية . على أن بعض الفرق الإسلامية ذهبت إلى تحريم الزواج من الفرق الأخرى . واشتد أبو حنيفة فى مراعاة الإسلام ، فذهب إلى أن أقدمية الآباء فى الإسلام من مقاييس الكفاءة ، فمن له أب واحد فى الإسلام ليس كفئا لمن لها أبوان ، ولكنه يقف عند حد الأبوين ، فمن له أبوان مسلمان كفء لمن لها آباء .

---

(١) المفضليات ٢/٥٨ شارف : كبير . سلة : سرقة ، أى مسروق النسب . الحاصن : الكريمة العفيفة . سليلها : ولدها .

(٢) المحبر ١٧٩ والقاموس المحيط مادة حمس وإنسان العيون ١/٢٣٠ ومعجم البلدان ٨/١٣٨ وبلوغ الأرب ٢/٢٨٩ إذا نسكوا لم يسلئو سمنا ولم يطبخوا أقطا ولم يدخروا لبنا ، ولم يأكلوا ما طبخوا فى الحرم ، ولا يمسون دهنا ولا يطوفون فى ثياب أتوا بها من الحل ، وتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها مع اعترافهم أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها ، وإنما يطوفون فى ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا طافوا عراة ، فإن طاف رجل منهم أو امرأته فى الثوب الذى جاء به من الحل ألقاه بعد الطواف فلا يمسه ولا ينتفع به ، وكانت العرب تسمى هذا الثوب اللقى ولكن الإسلام أبطل ذلك (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟) .

(٣) الأسرة والمجتمع ٣١ .

وقد بقى الاعتداد بالكفاءة فى الحسب إلى الإسلام ، فمذهب أبى حنيفة على أن غير العربى ليس كفئا للعربية ، وأن غير القرشى ليس كفئا للقرشية ، اعتماداً على قول النبى صلى الله عليه وسلم : « قريش بعضهم أكفاء لبعض ، رجل برجل » فلا يصح على هذا المذهب زواج عربية من أعجمى أو قرشية من غير قرشى إلا إذا تنازل أولياؤها عن حقهم فى الكفاءة[1] .

ولما كتب زياد إلى سعيد بن العباص يخطب إليه، و بعث له بمال كثير قسم سعيد المال بين جلسائه ، ثم كتب إلى زياد : أما بعد فإن الإنسان ليَطْغَى أن رآه استغنى[2] .

حريتها فى اختيار زوجها

أسلفت أن الرجل كان فى خطبته يتحرى مميزات خاصة فيمن يصطفيها شريكة حياته ، وأن الفتاة وقومها كانوا يتوخون فيمن يخطب إليهم مميزات خاصة أيضا ، لأن الزواج رباط وثيق مأمول الدوام ، ولأنه عشرة بين الزوج وزوجته .

وقد استمتعت المرأة العربية بحريتها فى اختيار زوجها ، فلم تكن تقسر على زوج لا ترتضيه ، أو تزوج بغير مشورة ، ولم يكن للآباء ما كان لهم عند اليونان من سلطة مطلقة على البنات لا تحد ، إذ كان للولى أن يزوجها بغير استشارتها ، وكل عقد تبرمه بغير رضاه باطل[3] . ولم يكن للعرب أن يبيعوا بناتهم أو يزوجوهن بغير علمهن كما كان يفعل اليهود .

ولهذا كان مركز المرأة العربية جديراً بأن نشيد به ، وبأن يشيد به المستشرقون ، يقول نيكلسون : كان مركز المرأة ونفوذها فى الحياة الاجتماعية قبل الإسلام عالياً وعظيما ، فقد كانت النساء حرات فى اختيار أزواجهن ، وكن يستطعن العودة إلى ذويهن إذا أسيئت معاملتهن ، وفى بعض الحالات كن يهبن

---

(١) عيون المسائل ٦٣ والأسرة والمجتمع ٣٦

(٢) عيون الأخبار ٤/١٧ (٣) المرأة فى التاريخ والشرائع ٧٤

أنفسهن للزوج ، وكان لهن حق الطلاق ، ولم يكنَّ يعددن عبيداً أو أسارى ، بل أندادا ورفيقات [١] » .

ولهذه الحرية مظاهر :

١ — كانت المرأة تختار زوجها ، وتزوج نفسها أحياناً ، فعلت ذلك ماويّة بنت عَفْزَر من بنات ملوك اليمن إذ وازنت بين خاطبيها الثلاثة : النابغة الذبيانى وحاتم الطائى ورجل من النبيت ، وقيل هم زيد الخيل وأوس بن حارثة وحاتم ، وآثرت حاتما[٢]. وفعلت هذا أيضاً امرأة من هُذَيْل من بنى سهم إذ خطبها تأبط شراً ، فقال لها قائل : لا تنكحيه فإنه وشيك أن يقتل ، فرفضته ، فقال :

وقالوا لها لا تنكحيه فإنه   لأول نصل إن يلاقى مُجَمَّعَا

فلم تر من رأيٍ فتيلا وحاذرت   تأيُّمهَا من لابس الليل أروعا[٣]

وكذلك فعلت الرَّباب من بنى ذُهل ثم من بنى سَدُوس ، فقد خطبها خِداش بن حابس التميمى بعد ما هام بها زمنا ، وكان أبواها يتمنعان لجمالها وميسمها ، و يردان خداشا ، فأضرب عنها زمانا ، ثم أقبل ذات ليلة راكبا ، فانتهى إلى محلتهم وهو يتغنى بقوله :

ألا ليت شعرى يارباب متى أرى   انا منك نُجْحاً أو شفاء فأشتفى

فقد طالما عنيتنى ورددتنى   وأنت صفيي دون من كنت أصطفى

لَحَى الله من تسمو إلى المال نفسه   إذا كان ذا فضل به ليس يكتفى

فَيُنْكِح ذا مال دميا ملَّوما   و يترك حرا مثله ليس يَصْطَفى

فعرفت الرباب منطقه ، وجعلت تتسمع إليه ، وأرسلت إلى الركب الذين منهم خداش أن انزلوا بنا الليلة ، فنزلوا ، وبعثت إلى خداش أن قد عرفت حاجتك ، فاغدُ على أبى خاطبا ، ورجعت إلى أمها فقالت : هل أتزوج إلا من

---

(١) Aliterary History of the Arabs. Nickolson. P . 87

(٢) الشعر والشعراء ٧٢ والأغانى ١١/١٠٤ و ١٦/١٠٠

(٣) الأغانى ١٨/٢١٧ وشرح الحماسة للتبريزى ٢/٢٦ والمرزوق ٤٩١

أهوى ؟ قالت : لا ، فما ذاك ؟ قالت : زوجيني خداشا . قالت أمها : ومايدعوك إلى ذلك مع قلة ماله ؟ قالت إذا جمع المالَ السّيء الفعال فقبحا المال . فأخبرت الأم أباها بذلك فرضي [١] . وقد سبق مافعلته المرأة الكنانية حين اختبرت ثلاثة من قومها ، وانتقت ربيعة بن مكدّم [٢] .

٢ — وكانت كثيراً ما تستشار فى زواجها ، فلا يستبد به وليها كما كان يستبد الأب العبرى واليونانى ، فالخنساء استشارها أبوها حينما خطبها دريد بن الصمة ، لأنها كما قال لدريد : « لها فى نفسها ما ليس لغيرها » ، فرفضت ، مؤثرة بنى عمها . ولما أراد أخوها معاوية أن يكرهها ـ وكان صديق دريد ، وصخر غائب فى غزوة ـ قالت :

تباكرنى حميدة كل يوم — بما يُولِى معاوية بن عمرو
فإلا أُعْطِ من نفسى نصيبا — فقد أودى الزمان إذاً بصخر
أتكرهنى ـ هُبلتَ ـ على دُريد — وقد أَحْرَمْتَ سيد آل بدر
معاذ الله يَرْضَعُنى حَبْركى — قصير الشِّبْرِ من جُشَمَ بن بكر [٣]

ولما خطب الحارث بن سليل الأسدى إلى علقمه بن خصفة الطائى ، قال علقمة لأم الفتاة أريدى ابنتك على نفسها ، فاستشارتها [٤] وكذلك فعل أوس بن حارثة الطائى لما خطب إليه الحارث بن عوف المرى ، فإنه استشار ابنته [٥] . واستشار عتبة بن ربيعة بنته هند لما خطبها أبو سفيان وسُهيل بن عمرو [٦] ، وآثرت هند أبا سفيان فخنق عليها سهيل ، وقال :

نُبّئت هندا تَبّرَ الله سعيها — تأبّتْ وقالت وصفَ أهوج مائق

---

(١) مجمع الأمثال ١/٤٤٠ (٢) الأغانى ١٥/١٣٢

(٣) الأمالى ٢/١٦١ والأغانى ٩/١١ و١٣/١٣٨ أحرمت : منعتنى من زواجه. حبركى قصير الرجلين أو ضعيفهما . الشبر : الخطو أو الخير والعطاء . يرضعنى : يتزوجنى .

(٤) عيون الأخبار ٤/٧٤ ونهاية الأرب ٣/٢١ ومجمع الأمثال ١/١٠٧ والمحاسن والأضداد ١٨٣ وجمهرة الأمثال ١/١٨٣

(٥) بلاغات النساء ١٤٩ والأغانى ٩/١٤٢ (٦) الأمالى ٢/١٠٤

فلم تنكحى ياهند مثلى وإننى   لمن لم يَتّقنى فاعلمى غيرُ وامق [١]

على أن أم الفتاة كانت ذات رأى فى تزويج ابنتها ، يستشيرها الأب ، وتشير عليه ، وتهتدى البنت برأيها . هكذا فعلت زوجة أوس بن حارثة ، فإنه رفض أن يزوج بنته للحارث بن عوف ، ودخل على امرأته مغضباً ، فسألته ، فأخبرها ، فقالت له : إذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ وأشارت عليه أن يتدارك ما كان منه ، ففعل وزوجه ابنته [٢] . وكذلك فعلت زوجة علقمة بن خصفة الطائى لما خطب الحارث بن سليل بنتها [٣] . ويظهر أن المرأة كانت أحياناً تغلب زوجها على أمره ، فقد خطب إلى رجل فأبى ، ورضيت زوجته ، ومازالت به حتى زوج ابنته كارها ، وقال : أنكحنا الْفَرا فسنرى [٤] .

الإسلام وتزويج المرأة نفسها

١ — جاء الإسلام ، وكان لا بد من التشريع الذى يصون سمعة الأسرة ، فاختلف الفقهاء فى تزويج البالغة العاقلة نفسها ، فذهب الشافعى ومالك إلى منعها من مباشرة عقد زواجها وزواج غيرها ، وعليه كثير من الصحابة مستدلين بأدلة ، منها قوله عليه الصلاة والسلام : «لانكاح إلا بولى» وقوله : « أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل باطل » وقوله : « لا تزوج المرأة المرأة ، ولا تزوج المرأة نفسها ، فإن الزانية هى التى تزوج نفسها » .

وذهب أبو حنيفة إلى إثبات هذا الحق لها ، واستدل هو وغيره بأدلة منها قول النبى صلى الله عليه وسلم: « الثيب أحق بنفسها من وليها » وقوله : « البكر تُستأذن فى نفسها وإذنها صمتها » .

والذى يؤخذ من الأحاديث التى استدل بها الحنفية أن الولى يستأذن المرأة

---

(١) العقد الفريد ٣/٢١٢ يمق : يحب   (٢) الأغانى ٩/١٤٢ ساسى

(٣) الفاخر ٨٩ ومجمع الأمثال ١/١١٠ وجمهرة الأمثال ١/١٨٣

(٤) مجمع الأمثال ٢/٢٦٣ .

فى زواجها ولا يستبد به . والذى يؤخذ من الأحاديث التى استدل بها مخالفوهم أن المرأة ليس لها أن تستبد بأمر زواجها ، ولكن لها أن تباشر العقد بنفسها [١]

وبهذا صان الإسلام مكانة الأسرة من أن تعبث بها الأهواء ، أو تعصف بها النزوات ، وحمى المرأة من سوء القالة ومن الشبهات .

٢ — وعَضَد الإسلام حق المرأة فى رضاها بزوجها ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح الأيِّمُ حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن » قالوا : يارسول الله وكيف إذنها ؟ قال : أن تسكت [٢] .

وللكبيرة التى أكرهت على الزواج أن تفسخه ، فقد كانت خنساء بنت خُذام الأنصارى تحت أنيس بن قتادة ، فقتل عنها يوم أحد ، فأنكحها أبوها رجلا وهى كارهة ، فأتت النبى ، فقالت يارسول الله : إن أبى تفوّتَ علىّ فزوجنى ولم يشعرنى . قال : « لا نكاح له ، انكحى من شئت » فرد نكاحه وتزوجت غيره [٣] ، واشترت السيدة عائشة بَرِيرة وأعتقتها ، وكان زوجها مغيث مولى ، فخيرها رسول الله ، فاختارت فراقه . وكان يحبها ويمشى فى طرق المدينة يبكى ، واستشفع إليها برسول الله ، فقال لها فيه ، فقالت : أتأمر ؟ قال : بل أشفع ، قالت : فلا أريده [٤] .

أما الصغيرة فاختلف فى أمرها ، ألها الخيار إن كان أبوها هو المزوج أم لا ؟ وفى رأى مالك وابن حزم أنه ليس لأحد سوى الأب أن يزوج الصغيرة لوفور شفقته ، وضم الشافعى الجد إلى الأب .

وفى الحديث أن قدامة بن مظعون زوج ابنة أخيه عثمان من ابن عمر ،

(١) تيسير الوصول ٣/٣٤٥ — ٣٤٦ وعيون المسائل ٦٧ — ٦٩ وحجة الله البالغة ٢/٩٥

(٢) فتح البارى ٩/١٦٤ وتيسير الوصول ٣/٣٤٦

(٣) فتح المبدى ٣/٢٣٣ والطبقات لابن سعد ٨/٣٣٤ والإصابة ٨/٦٥ والمبسوط ٥/٢

(٤) الإصابة وأسد الغابة ٥/٤٠٩ والطبقات الكبير ٧/١٦٢ والتجريد الصريح ٣/٢٥٥ والمبسوط للسرخسى ٥/٩٨

فردها رسول الله وقال إنها يتيمة ، وإنها لا تنكح حتى تستأمر . قال ابن عمر لقد انتزعت من نفسي بعد أن ملكتها [١] . على أن بعض المجتهدين كابن شبرمة وأبي بكر الأصم لم يثبتا الولاية على الصغيرة لأحد ، والحنفية يثبتونها للأب والجد وغيرهما من العصبات [٢] .

وكثيراً ما تخيرت المسلمات أزواجهن ، فأم كلثوم بنت أبي بكر رفضت أن تتزوج عمر بن الخطاب ، فقالت لها عائشة أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت : نعم إنه خشن العيش ، شديد على النساء [٣] . وكذلك رفضت بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عبدَ الملك بن مروان ، وآثرت عليه يحيى بن عبد الحكم [٤] ، وفضلت عائشة بنت طلحة ابن عمها على بشر بن مروان [٥] .

الخطبة والإملاك

لا يكاد يختلف نظامهم في الخطبة والإملاك عما يجري في العالم الإسلامي إلى اليوم ، ذلك بأنهم كانوا يخطبون المرأة إلى أبيها أو أخيها أو عمها أو بعض بني عمها [٦] ، فيقول الخاطب : خِطْب ، ويقول أهل الزوجة : نِكْح ، ويقوم ذلك مقام الإيجاب والقبول [٧] .

فإذا كان يوم العقد اجتمع القوم ، ونحرت لهم الذبائح ، وخطب خطباء من آل الزوجين ، كما حدث في يوم عقد النبي على السيدة خديجة ، فقد خطب عمه أبو طالب معدداً بعض مناقب قريش ، ومُنوِّهاً بمناقب ابن أخيه محمد بن عبد الله ، وذكر أنه خطب خديجة على مهر قدره اثنتا عشرة أوقية ونَشّاً ، ثم رد عليه عمها عمرو بن أسد أو ابن عمها ورقة بن نوفل معدداً مناقب قريش ومفاخر بيت

(١) المبسوط ٤/٢١٢ ـ ٢١٥
(٢) عيون المسائل ٧٢
(٣) العقد الفريد ٣/٢٧٥
(٤) العقد الفريد ٣/٢٨١
(٥) الأغاني ١٠/٥٤
(٦) المحبر لابن حبيب ٣١٠
(٧) إنسان العيون ١/٤٥

عبد المطلب ، ومشهدا الحاضرين على قبوله هذا الزواج . ثم أو لم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن و يغنين (١) .

وكانت العروس تزين يوم الإملاك بما تملك ، ، ولقد يستعار لها . حدث عبد الواحد بن أَعْيَن عن أبيه قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها وعليها درع قِطْرٍ ثَمَنَ خمسةِ دراهم ، فقالت : ارفع بصرك إلى جاريتى وانظر إليها ، فإنها تزهى أن تلبسه فى البيت ، وقد كان لى منهن درع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فما كانت امرأة تُقَيَّنُ بالمدينة إلا أرسلت إلىّ تستعيره (٢) .

وفى يوم الإملاك يحتفل قومها وقومه و ينحرون ، و يسمرون الليل غناء وعزفا ورقصاً . تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب ، وجاء فى حديثه : « قلت ليلا لغلام من قريش كان يرعى معى بأعلى مكة : لو أنك أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة ، فأسمر كما يسمر الشباب ؟ فقال : أفعل . فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بغرابيل ومزامير . فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : هذا فلان ابن فلان ، تزوج فلانة بنت فلان فجعلت أنظر ، وضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا مسّ الشمس (٣) .

ولما تزوج السيدة خديجة نحر جزوراً أو جزورين وأطعم الناس (٤) .

ثم لما زوج بنته فاطمة لعلى بن أبى طالب قال : يا على ، لا بد للعرس من وليمة ، فأولم (٥) .

وهم فى احتفالهم بيوم الخطبة أو الزفاف يشبهون الشعوب كلها ، ولكنهم

---

(١) إنسان العيون ١/١٥٤

(٢) صحيح البخارى بشرح الكرمانى ١١/١٤٩ وفتح البارى ٥/١٧٨ درع : قميص. تقين : تزين وتزف . قطر : ضرب غليظ من البرود فى بعضها قطن . ثمن : منصوب على نزع الخافض .

(٣) تاريخ مكة للفاكهى ٧ من كتاب المنتقى فى أخبار أم القرى .

(٤) إنسان العيون ١/١٥٤ وبلوغ الأرب للعطار ٢٩

(٥) بلوغ الأرب فى مآثر العرب للعطار ٣٣

لم يفعلوا ما كان يفعل الرومان ، إذ كان يقبل جماعة من الفتيان أصدقاء العروس فيأخذون عروسه ، ويمضون فى منظر يمثل أنهم انتزعوها من أهلها قسراً . وكان العروس الإسبرطى يذهب إلى عروسه ليلا فيأتى بها كأنه اختطفها [١] . والذى يظهر لى أن تمثيل عادة الاختطاف لم يكن فى العرب ، لأنهم ذوو حمية وغيرة وأنفة ، فلا يرتضى أهل الزوجة ذلك المظهر .

المهـــــر

المهر والصداق

المهر فى الأصل العوض الذى يدفع لأهل المرأة ، أما الصداق فالعوض الذى يدفعه الرجل للزوجة .

وكان العبريون والسريان يطلقون كلمة مهر على الثمن الذى يدفع نظير اقتناء الزوجة ، وكان يدفع لأبيها ، لأن الساميين القدماء كانوا ككل القبائل البدائية ينظرون إلى الفتاة على أنها سلعة قيمة تزيد مال أبيها [٢] . ومن الأدلة على أن المهر كان للأولياء قوله تعالى على لسان شعيب لموسى « إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك » [٣] . ويظهر أن العرب كانوا كذلك ، فى اللغة : النافجة البنت ، لأنها تعظم مال أبيها بمهرها [٤] ، لذلك كانوا يهنئون من ولدت له بنت بقولهم : هنيئاً لك النافجة . أى المنفجة لمالك ، لأنك تأخذ مهرها فتضمه إلى مالك فينتفج [٥] ، وأحياناً كانوا يعبرون عن الزواج بأنه شراء ، قال جَهْم فى امرأة من بنى قَقْعَس باع إبلاله ومهرها ، وتزوجها ثم وجدها عجوزاً فطلقها :

فبانت ولم أُغْبن غداة اشتريتها ... وبعت تلاد المال بالثمن البخس [٦]

---

(١) دائر المعارف للبستانى ٩/٣٣٦

(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٤١

(٣) سورة القصص ٢٧

(٤) القاموس المحيط مادة نفج

(٥) مجمع الأمثال ٢/٣٢٧

(٦) العقد الفريد ٣/٢١٠ وفى الأصل فبت

ولما خطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظَّرِب قال عامر : « إنك أتيتنى تشترى منى كبدى . . . »[١] .

وهم أطلقوا كلمة الحُلْوان على ما يأخذه الرجل من مهر ابنته أو أخته أو امرأة ما[٢] ، ولم يكن هذا شائعاً ، بدليل أن امرأة فخرت بأن زوجها لم يأخذ من بناته حلوانا : « لا يأخذ الحلوان من بناتيا »[٣] .

ولكن هذه التفرقة بين المهر والصداق توارت فى الإسلام ، فالمهر والصداق معاً ما يستحق به الحرائر من النساء[٤] ، وإن ظل بعضهم يطلق الصداق على الإبل التى تساق مهراً ، ويسميها النافجة ، ويقول : ساق الرجل إلى المرأة صداقها ، قال الشاعر :

وليس تلادى من وراثة والدى ولا شاد مالى مستفاد النوافج

فإذا كان الصداق عينا وورقاً لا يقال ساق إليها صداقها[٥] .

وجعل الإسلام المهر أو الصداق حقاً للمرأة لا لوليها ، ونهى الأولياء عن أخذه لأنفسهم ، لقوله تعالى : « وآتوا النساء صَدُقاتهن نِحْلة » وإن كان كثير من العرب ما زالوا إلى اليوم يستأثرون به وهو حرام[٦] ، لأن المهر ما يجب على الزوج لزوجته فى مقابل ملك استمتاعه بها ، وهو حق خالص لها ، تقبضه هى نفسها أو وكيلها إذا كانت رشيدة ، أو يقبضه ولى مالها إذا كانت صغيرة ، وإذا استهلكه كان ضامناً لمثله أو قيمته[٧] .

وأبطل الاسلام أيضاً زواج الشِّغار ، وهو نوع من زواج المبادلة ، وسمى شغارا لخلوه من المهر ، والطراز الشائع من هذا الزواج أن يزوج الرجل ابنته أو أخته لآخر على أن يزوجه الآخر ابنته أو أخته . وكان هذا الضرب من الزواج

---

(١) العقد الفريد ٣/١٩١ (٢) المخصص ٤/٢٥ والأمال ٢/٢٧٦ ولسان العرب ١٨/٢١٠ (٣) لسان العرب ١٨/٢١٠ والأمالى ٢/٢٧٦
(٤) المخصص ٤/٢٥ (٥) الحيوان للجاحظ ١/٣٣٤
(٦) روح المعانى ٤/١٩٨ (٧) عيون المسائل ٨٥ و٢٠٦و١٠٧

شائعاً عند الساميين قديما ، ومارسه العرب إلى أن جاء الإسلام ، فنهى عنه النبى وقال ببطلانه كثير من الفقهاء ، وذهب الحنفية إلى فساد التسمية ، وأوجبوا مهر المثل لكل من الزوجتين [١] .

نوعه ومقداره

١ — كان المهر يقدم إبلا أو نقداً ، لأن الثروة عند الشعوب الراعية قطعان من الماشية ، والماشية كالنقد ، « وقد احتفظت اللغات الأوروبية بآثار من هذه الحال البدائية ، الدالة على أن الماشية كانت تستعمل استعمال النقود ، لأنها الثروة الوحيدة ، فهو ميروس يتكلم عن بنات بأنهن أحضرن ثيرانا لوالدهن ، يكنين عن رغبة الناس فيهن ، وأنهم سيدفعون فيهن مالا عظيما . والقانون الإيرلندى يقدر الغرامات والأثمان عادة برءوس الماشية ، وظلت الحال على ذلك إلى العصور الوسطى [٢] » .

وكذلك كان الحال عند العرب . وكان مقدار المهر يتفاوت باختلاف المقدرة والمكانة والثروة ، فقد مهر عبد المطلب بن هاشم فاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب [٣] ، ومهر الحارث بن سليل الأسدى الزباء بنت علقمة ابن خصفة الطائى مائة وخمسين من الإبل وألف درهم [٤] ، وزوج ذو الجَدَّين ابن قيس بن خالد بنته للقيط بن زرارة على مائة من الإبل ، ليس فيها مصبورة ولا ناب ولا كَزُوم [٥] ، وزوج مطرود البجلى ابنته خودة على مائة ناقة ومعها رعاتها [٦] . وكان أهل كندة مشهورين بالتغالى فى مهورهم ، بدليل قوله صلى الله

---

(١) عيون المسائل ٨٨ والنظم الاجتماعية والسياسية ٤٠

(٢) اللغة ٦٢٩ ج فاندريس ترجمة الدواخلى والقصاص

(٣) إنسان العيون ١/٥٠

(٤) الميدانى ١/١١٠ والمحاسن والأضداد ١٨٤ وفى جمهرة الأمثال ١/١٨٣ أنه خمس ومائة من الإبل وخادم وألف درهم .

(٥) الأغانى ١٩/١٣١ مصبورة : مشرفة على الموت . وفى الأصل مصابرة . ناب : مسنة . كزوم : ذهبت أسنانها هرما

(٦) بلوغ الأرب فى أحوال العرب ٢/٣٣

عليه وسلم : « اللهم أذهب ملك غسان وضع مهور كندة[١] » ، وذكر المحبى أنهم كانوا لا يزوجون بأقل من مائة من الإبل ، وربما مهرت الواحدة ألفاً[٢] ، وقد أصدق عمرو بن حجر أم إياس بنت عوف بن محلم الشيبانى عقاراً فى كندة، ومنحها حاجات قومها لا ترد لأحد منهم حاجة[٣] .

وكان المهر الذى قدمه النبى للسيدة خديجة عشرين بَكْرة[٤] ، وقيل إنه كان خمسمائة درهم[٥] ، وقيل إنه أصدقها اثنتى عشرة أوقية ذهباً ونشاً[٦]، ورأى السهيلى أنه لا تناقض بين رواية البكرات والدراهم ، فمن الجائز أن تكون البكرات عوضاً عن الصداق المذكور ، أو أن أبا طالب أصدقها من ماله نقداً ، وزاد عليه النبى تلك البكرات[٧] .

وقد افتخروا بعظمة المهر ، لأنها دليل فى نظرهم على علو الشأن ، قال الأبيرد ابن هرثمة العذرى ، وقد مهر القَفْعاء بنت سنان العذرى خمسين بعيراً :

إنى لسمح إذ أفَرِّج بينها ... بأكثبة البَقَّار يا أم هاشم
فأفنى صداقُ المحصناتِ إفالها ... فلم يبق إلا جِلَّةٌ كالبراعم[٨]

وقال خالد بن جعفر يمن على هوازن بقتله زهير بن جذيمة :

وجعلتُ مهرَ بناتهم ودماءهم ... عَقْل الملوك هجائنا أبكارا[٩]

على أن بعضهم كان يقنع بحسب الخاطب ، ولا يتطلب منه مهراً ، من

(١) البيان والتبيين ٢/٢٨
(٢) ما يعول عليه فى المضاف والمضاف إليه
(٣) العقد الفريد ٣/١٩١
(٤) سيرة ابن هشام ١/٢٠٦
(٥) إنسان العيون ٤/١٥٤
(٦) بلوغ الأرب للعطار ٢٨ وطبقات ابن سعد ٨/١١٥ الأوقية : أربعون درهما ، والنش : نصف أوقية فتكون جملة الصداق خمسمائة درهم ذهبا (بلوغ الأرب للعطار ٢٩ وفتح المبدى ٢/١٧٩ والطبقات ٨/١١٥ وإنسان العيون ١/١٥٤)
(٧) إنسان العيون ١/١٥٤
(٨) معجم الشعراء ٢٥ البقار : واد . البراعم : شماريخ الجبال . الإفال : الإبل الصغار
(٩) الأغانى ١٠/١٤

ذلك أن لقيط بن زرارة بن عُدُس خطب إلى قيس بن خالد سيد ربيعة ، فزوجه ، وساق عنه المهر وهداها إليه من ليلته[١] .

ومن المهر الضئيل رقاع الجلد التى أجبر المهلهل على أخذها من قبيلة جَنْب ـ وكان قد اعتزل قومه بعد حروبهم مع بكر ، إبقاء عليهم أن تفنيهم الحرب بسبب الثأر لأخيه كليب ـ وسار إلى اليمن ونزل فى جنب وهم حى من مذحج ، فخطبوا إليه ابنته فمنعهم ، فأجبروه وصدقوها جلوداً من أدم ـ فتحسر وتألم بقوله:

أعزز على تغلب بمـا لقيت أخت بنى الأكرمين من جُشَمِ
أنكحها فقدها الأراقِمَ فى جَنْبٍ وكان الحِباء من أَدَمِ[٢]

وذكر الجاحظ أن الأعرابى الفقير ربما صاد ضبا فاحتمله إلى كفيئته فكان مهرها ، وقد قال فى ذلك أحدهم :

أمهرتهـا بعد المطـال ضَبَّين من الضِّباب سَحْبَلَيْنِ سَبْطَيْنِ
نِعْم لعمر الله مهر العرسين[٣]

٢ — أراد النبى عليه الصلاة والسلام أن يخفف من غلواء العرب فى مهور بناتهم ، وأن يقيم الزوجية على دعائم أخرى من الدين والخلق غير دعامة المال ، فنهى عن المغالاة فى المهور بأحاديث كثيرة ، منها : « لا تغالوا بالنساء فإنما هن سُقْيا الله[٤] » ، وقوله لسهل بن سعد : « اذهب فاطلب ولو خاتماً من حديد » فذهب وطلب ، ثم جاء فقال : ما وجدت شيئاً ولا خاتماً من حديد ، فقال : « هل معك من القرآن شىء ؟ » قال : معى سورة كذا وسورة كذا ، قال : « اذهب فقد أنكحتكها بما معك من القرآن[٥] » ، وفى حديث ابن عباس

(١) جمهرة الأمثال ٢/٢٠١ وأمثال العرب للضبى ٢٠

(٢) أشعار المراقسة ٦٩ وعيون الأخبار ٣/٩١ وشرح الحماسة للمرزوقى ١/١١٨ والمعارف ٣٥ وتهذيب الكامل ٢/١٤ وخزانة الأدب ٢/٢٨ والشعر والشعراء ١٠٠ والكامل لابن الأثير ١/٢٢١ .

(٣) الحيوان ٦/٣٦ السحبل : الضخم . السبط : الحسن القد والمنظر

(٤) البيان والتبين ٢/٢٧

(٥) فتح البارى ٩/١٧٨ وتيسير الوصول ٢/٢٨٢

أن النبي زوج رجلا بدون مهر ، على أن يعلم زوجته أربع سور أو خمساً من كتاب الله ، وفى حديث أبى هريرة أن يعلمها عشرين آية[١] . وروى عن النبي أن خير النساء أيسرهن صداقاً[٢] .

ونهى عمر عن المغالاة فى المهر بقوله : لا تغالوا فى صدقات النساء ، فإنه لو كان تقوى الله أو مكرمة فى الدنيا كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أولاكم بذلك ، ما أصدق نساءه ولا بناته أكثر من اثنتى عشرة أوقية[٣] .

على أن ذلك لم ينزع من العرب ما ألفوا ، وظلوا حراصاً على عظم المهر ، وظلت النساء مزهوات بكثرته ، يدل على ذلك أن عمر نهى عن المغالاة فى المهور ، فردت عليه امرأة بقولها : ليس ذلك لك ياعمر ، إن الله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطاراً من ذهب » ــ وهى كذلك فى قراءة ابن مسعود ــ فقال عمر : امرأة خاصمت عمر نخصمته[٤] . وروى أن عمر نفسه أصدق أم كلثوم بنت على أربعين ألفاً، وأن ابنه عبد الله أصدق ابنة أبى عُبَيْدالثقفى عشرة آلاف درهم[٥] . وقد أصدق مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة خمسمائة ألف ، وأهدى إليها خمسمائة ألف ، فقال أنس بن أبى أنس :

بُضْعُ الفتاة بألف ألف كامل ... وتبيت سادات الجنود جياعا
لو لأبى حفص أقول مقالتى ... وأبثـه ما قد أرى لالتاعا[٦]

وأصدق عبد الرحمن بن عوف امرأة من الأنصار ثلاثين ألفاً[٧] ، وأصدق يحيى بن أبى حفصة بنت إبراهيم بن النعمان بن بشير عشرين ألف درهم[٨] . وفى رأى الفقهاء أن أقل المهر ما يمكن أن يتمول به ، وهو ما يجب فيه قطع اليد

(١) فتح البارى ٩/١٧٩ وتيسير الوصول ٢/٢٨٢
(٢) تيسير الوصول ٢/٢٨٤ وسنن أبى داود ١/٢١٠
(٣) الطبقات لابن سعد ٨/١١٥ وتيسير الوصول ٢/٢٨٣
(٤) فتح البارى ٩/١٧٥ والكشاف ١/٩٧
(٥) عيون الأخبار ٤/٧١
(٦) المردفات من قريش ٧٠ من نوادر المخطوطات
(٧) الطبقات ٣/٨٧
(٨) الكامل للمبرد ١/٢٨١ وعيون الأخبار ٤/١٦

فى السرقة (ثلاثة دراهم وقيل خمسة وقيل عشرة) أو هو أربعون أو خمسون على أنه لا يقدر أقله[1] ، وخالف فى ذلك المالكية والحنفية ، فعند الحنفية أقله عشرة دراهم ، وهى تساوى الآن خمسة وعشرين قرشاً[2] .

ويظهر أن التغالى فى المهور كان يحنق كثيراً من العاجزين عن دفع مثلها ، يقول أعرابى :

يقولون تزويج وأشهد أنه هو البيع إلا أنَّ من شاء يكذب[3]

وصايا للزوجة عند زفافها :

إذا ما تأهبت البنت لتنتقل من رعاية أبويها إلى كفالة زوجها زودتها أمها وأبوها بوصايا من نتاج الخبرة والتجربة .

١ — فمن وصايا الأمهات ما أوصت به زوجة عَوْف بنُ مُحَلِّم الشيبانى لما زفت بنتها أم إياس إلى عمرو بن حُجْر ، قالت لها : أى بنية إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت إلى رجل ، لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة يكن لك عبداً ، واحفظى له خصالا عشراً يكن لك ذخراً .

أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة ، وحق السمع والطاعة . وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع مَلْهَبة ، وتنغيص النوم مغضبة . وأما السابعة والثامنة فالاحتراس بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير . وأما التاسعة والعاشرة فلا تَعْصِينَّ له أمرا ، ولا تُفْشِنَّ له سرا ، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما ، والكآبة بين يديه إذا كان فرحا[4] .

---

(١) فتح البارى ٩/١٧٥ (٢) عيون المسائل ٩٠ (٣) عيون الأخبار ٤/٧٢

(٤) العقد الفريد ٣/١٩١ ومحاضرات الأدباء ٢/١٢٣ وشرح نهج البلاغة ٤/٣٠٨ ومجمع الأمثال ٢/١٩٢ ونزهة الأبصار والأسماع ٣٣ ومحاسن النساء لابن هشام ٧ مخطوط وأعلام النساء ١/٦٠

وفى هذه الوصية قوام السعادة الزوجية ، لأنها تريد ابنتها على طاعة زوجها ، وتريدها على العناية بنظافتها ونظافة بيتها ، وأن تراعى راحته فى منامه وطعامه ، وأن تقتصد فى نفقاتها ، وتربى أولادها ، وتراقب خدمها ، وأن تصون أسراره ، وتشاركه مشاركة وجدانية فى أفراحه وأتراحه .

إنها إن فعلت ذلك كانت زوجة صالحة ، بل كانت مثلا عاليا فى الزوجات .

وإذا كانت قد نبهتها على النظافة ـ كما سينبه غيرها ـ فإنها بتجربتها تتفق مع ما يقرره الطب الحديث من أن التهاون فى تنظيف الجسم والأعضاء التناسلية ينفر أحد الجنسين من الآخر ، فتنشأ عن هذه النفرة عوامل نفسية عدة ، كالتقزز والاشمئزاز وغيرهما [١] .

وقد فصلت القول فى أثر الروائح العطرية فى الجاذبية فى كتاب آخر [٢] .

وليس يعدم المجتمع أن يكون فيه الخيّر والشرير ، والمسالم والمشاغب ، وأن تكون من الأمهات الشرسة الحريصة على أن تكون ابنتها مثلها ، فقد أوصت امرأة ابنتها بقولها : اختبرى زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه ، انزعى زجّ رمحه ، فإن سكت فقطعى اللحم على تُرْسه ، فإن سكت فكسرى العظام بسيفه ، فإن سكت فاجعلى الإكاف على ظهره وامتطيه [٣] .

٢ ـ وللآباء فى هذا المجال إرشاد وتوجيه . ومن هؤلاء الزبرقان بن بدر ، كان إذا زوج ابنة له دنا من خدرها وقال : أتسمعين ؟ كونى له أمة يكن لك عبدا [٤] . ومنهم ذو الجدين ، قال لابنته لما زفت إلى لقيط بن زرارة : كونى له أمة يكن لك عبدا ، وليكن أكثر طيبك الماء ، واعلمى أن زوجك فارس مضر ، وأنه يوشك أن يقتل أو يموت ، فلا تخمشى عليه وجهاً ، ولا تحلقى شعراً [٥] .

---

(١) الأزمات الزوجية وعلاجها للدكتور محمد زكى شافعى ١٠٣

(٢) الغزل فى العصر الجاهلى ١١٢

(٣) عيون الأخبار ٤/٧٧ ومحاضرات الأدباء ٢/٢٠٤ والإحياء للغزالى ٢/٤١

(٤) عيون الأخبار ٤/٧٧

(٥) الأغانى ١٩/١٢١ والعقد الفريد ٣/٢١١ وأمثال العرب للضبى ٢٠

وكذلك أوصى عامر بن الظرب ابنته بأن تتنظف بالماء[١] . ولما زفت نائلة بنت الفرافصة الكلبي إلى عثمان رضى الله عنه قال لها أبوها : يابنية إنك تقدمين على نساء قريش،وهن أقدر على الطيب منك ، فلا تُغْلَبي على خصلتين : الكحل والماء ، فتكحلي وتطيبي بالماء حتى يكون ريحك ريح شن أصابه مطر[٢] .

وما زال الآباء يوصون بناتهم فى الإسلام ، فمثلا أسماء بن خارجة الفزارى قال لابنته وقد زفها إلى الحجاج : يا بنية إن الأمهات يؤدبن البنات ، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة ، فعليك بأطيب الطيب الماء ، وأحسن الحسن الكحل ، وإياك وكثرة المعاتبة ، فإنها قطيعة للود ، وإياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق ، وكونى لزوجك أمة يكن لك عبدا ، واعلمى أنى القائل لأمك :

خذى العفو منى تستديمى مودتى ولا تنطقى فى سَوْرتى حين أغضب
ولا تنْقُـــرينى نَقْرة الدف مرة فإنك لا تدرين كيف المَغيبُ
فإنى وجدت الحب فى الصدر والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحبُّ يذهب[٣]

وهذه الوصايا من الآباء تدور حول النظافة والطاعة وحسن التبعل عامة .

مكانة الزوجة عند زوجها

حبه لها :

حظيت المرأة العربية عند زوجها ، وأولاها من تقديره ورعايته وحبه مايدل على علو مكانتها فى نفسه ، وأنه نظر إليها على أنها شريك فى الحياة جدير بالرعاية والحب والإعزاز ، وأحيانا كان الزواج يسبق بحب ، وكثيرا ما نبتت من الزواج شجرة الحب[٤] . فهذا دريد بن الصمة يحب الخنساء ويتغزل بها ، ويخطبها إلى أبيها ، ويجىء فى غزله قوله :

---

(١) عيون الأخبار ٤/٧٦

(٢) نثر الدر : صورة شمسية بدار الكتب ، وعيون الأخبار ٤/٧٦ والأغانى ١٥/٧٦

(٣) الأغانى ١٨/١٢٨ وفوات الوفيات لابن شاكر ١/١٢ وعيون الأخبار ٤/٧٧ أن القائل أبو الأسود .

(٤) الغزل فى العصر الجاهلى ١٩ والأغانى ٢/١٢٨ـ ١٣٢

أخُناسُ قد هام الفؤاد بكم　　واعتاده داء من الحب[١]

وكثير من العشاق كانوا يحبون ويريدون أن يتزوجوا بمن يحبون ، كالمرقِّش الأكبر[٢] ، وعُروة بن حِزام[٣] ، وعمرو بن كعب بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء[٤] ، وعدّى بن زيد العبادى[٥] ، وأبى مالك بن عبد الله بن مسعود[٦] ، وعُتْبة بن الحُبَاب بن المنذر بن الجموح[٧] ، والمخبَّل القيْسى[٨] .

وقد تغزل بعض الشعراء فى زوجاتهم ، لأنهم أحبوهن حبا حارا كما يحب الرجل فتاة لا ينالها ، فمثلا تغزل زهير بن أبى سُلمَى فى زوجته أم أوفى[٩] ، وبدأ معلقته بقوله :

أمن أم أوفى دِمنةٌ لم تكلم　　بحومانة الدّرّاج فالْمَتثلَّمِ[١٠]

وامرؤ القيس تغزل فى زوجته أم جُندب بقوله :

خليلىّ مرّا بى على أم جُنْدُب　　لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

فإنكما إن تَنْظرانى ساعة　　من الدهر تنفعنى لدى أم جندب

ألم تريانى كلما جئت طارقا　　وجدت بها طيبا وإن لم تطَيَّب

عقيلة أتراب لها لا دميمة　　ولا ذات خَلْقٍ إن تأملت جانب[١١]

وتغزل حسان بن ثابت فى زوجته الشعثاء[١٢]. ثم حدث هذا أيضا فى العصر الأموى من الحارث بن خالد المخزومى إذ شبب بزوجته أم عمران[١٣] .

وإذا فلم يكن العرب شعبا بدائيا ، يجهل عاطفة الحب ، ويقيم الزواج على أنه اتصال حيوانى الغرض منه إشباع اللذة ، وإنسال الولد فحسب ، ذلك بأن البدائيين

---

(١) الأغانى ٩/١١ والأمالى ٢/١٦١

(٢) الأغانى ٣/١٧٩ والشعر والشعراء ٥٤ وتزيين الأسواق ٨٨ وديوان طرفة ١١٨

(٣) فوات الوفيات ٢/٣٥ والأغانى ٢٠/١٥٣ والنوادر ١٦١ وتزين الأسواق ٧٧

(٤) الدر المنثور ٣٤٨

(٥) الأغانى ٢/١٢٨ ـ ١٣٢

(٦) تزيين الأسواق ٩١

(٧) تزيين الأسواق ٩١

(٨) الأغانى ٢١/١٦

(٩) الأغانى ٩/١٥٠

(١٠) شرح القصائد العشر ١٠٣

(١١) ديوان امرىء القيس ٣١ جانب: ضخم قصير

(١٢) الإصابة ٨/١٢٠

(١٣) الأغانى ٣/٣٣٠

لا يعرفون عاطفة الحب ، وقلما تغنوا بشعر يصورها ، لذلك لما ترجم المبشرون المسيحيون الكتاب المقدس إلى لغة قبيلة ألجونكون Algonquins لم يجدوا فى لغتهم كلمة تعبر عن الحب ، وفى قبيلة الهوتنتوت نجد الزواج عملا آليا ، ولا يأبه أحد الزوجين بالآخر ، وكذلك فى ساحل الذهب وعند الأستراليين البدائيين[(١)]

والمتأخرون بعامة أقل من المتمدينين ميلا إلى النساء ، حتى لقد يبقى الرجال أعزابا مدة طويلة من أعمارهم ، ثم تطرأ عليهم الرغبة فى الاتصال الجنسى . وهم فقراء عاطفةفىعاطفة الحب الجنسى، لهذا لايعمر الغرام بالمرأة قلوبهم أوخيالهم[(٢)].

بل كان العرب شعباً متحضراً يؤسس العشرة بعد الزواج على دعائم من الحب والتعاطف والاعتزاز .

وكانت الزوجة العربية أرفع مكانة من اليونانية والرومانية ، لأن هذه لم تكن تنال مثل ما نالت العربية من حب زوجها وتقديره « ولم يعرف الأوربيون للمرأة هذه المكانة الرفيعة إلا بعد أن فتح العرب الأندلس ، ونقل عنهم الإسبان والأوروبيون حب المرأة وتقديرها فيما نقلوا »[(٣)] .

نداؤها بلقب التكريم :

ومن دلائل حبه وتقديره أنه كان يلقبها بألقاب فيها تكريم وإشعار بالعزازة، فمثلا قيس بن عاصم يقول لزوجته منفوسة بنت زيد الفوارس الضبى وقد أتته بطعام ، أو حاتم يقول لزوجته :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ... ويا ابنة ذى البُرْدَيْن والفرس الوَرْدِ
إذا ما صَنَعْتِ الزاد فالتمسى له ... أكيلا فإنى لست آكله وحدى[(٤)]

---

(١) قصة الحضارة ٧١ ول ديورانت

(٢) The psychology of Mrriage. P. 240. Waltee M. Gallichan

(٣) تراث الإسلام ١/١٥٩

(٤) الأغانى ١٢/١٤٤ وتهذيب الكامل ٢/١٠٢ وفى شعراء النصرانية ١٣٣ وشرح الحماسة للتبريزى ٤/١٠٠ وحماسة الخالديين ٢٨٩ مخطوط أن القائل حاتم الطائى .

وعروة بن الورد يلقب زوجته بأبيها العظيم :

أقلى علىّ اللوم يا بنــة منـذر ونامى فإن لم تشتهى النوم فاسهرى[(١)]

ولقد يلقبها زوجها باسم ابنها ، إعزازا لها ومسرة ، كقول أوس بن حجر التميمى لزوجته :

ألم تعلمى أمّ الجلاس بأننـا كرام لدى وقع السيوف الصوارم[(٢)]

وقول عروة فى امرأته سلمى :

ذكرت منازلا من أم وهب محل الحى أسفل ذى النّقير

وأحدث معهـد من أم وهب مُعَرّسُنا فويْقَ بنى النضير[(٣)]

وقوله أيضا لزوجته ملقبا بأم مالك تارة وبأم حسان تارة :

سلى الطارق المُعْتَرّ يا أم مالك إذا ما أتانى بين قِدرى ومجْزِرِى

أيُسفرُ وجهى إنه أول القِرَى وأبذل معروفى له دون مُنـكر ؟

وقوله أيضاً :

ذرينى ونفس أم حســان إننى بهـا قبل ألا أملك البيع مشتر

أحاديثَ تبقى والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامةً فوق صيّر[(٤)]

وربما ناداها الزوج باسمها مجرداً ، إشعاراً بالألفة وقرب النفس إلى النفس ، وهذا هو الغالب ، وربما ناداها باسمها مصغراً تدليلا و إيناسا ، وربما كنى عنها بميزة من مميزاتها ، وخاصة من خواص عملها . قال الشاعر :

ألم تعلمى ياربة الخـــدر أننى أبىّ إذا رام العدو تهَضُّمِى

ذو البردين : عامر ابن أحيمر بن بهدلة أخذ من المنذر بن ماء السماء بردى ابنه عمرو بن هند فى جمع من وفود العرب مكافأة له لأنه من أعزهم قبيلة وأكثرهم عددا (النقائض ٧١٤)

(١) شعراء النصرانية ٨٨٣

(٢) حماسة البحترى ٢٤٢ (٣) شعراء النصرانية ٨٩٠ ذو النقير : ماء أو موضع لبنى القين ولـكلب . (٤) شعراء النصرانية ٩١١ وديوان عروة ١٣ وجمهرة أشعار العرب ٢١٤ ومجموع أشعار العرب ١/ ٢٩ هامة : طائر يخرج من القبر فى زعمهم يطلب الثأر. صير : قبر

وقال أزهر بن هلال التميمى :

أعاتكُ ماوليت حتى تبــددت رجالى وحتى لم أجد متقدَّما[١]

وقال تأبط شرا :

إلا تكلما عِرْسى منيعَة ضُمِّنَتْ من الله إثما مُسْتَسِرًّا وعالنا[٢]

وذكرها المثقب العبدى أو علبة بن يزيد بأنها عرسه :

تهزأت عِرْسى واستنــكرت شيبى ففيهـا جَنَفٌ وازورار[٣]

وصغَّر تأبط شراً اسمها فى قوله :

تقــول سُلَيْمى لجاراتها أرى ثابتاً قد غدا مُرْمِلا[٤]

إشهادها على مفاخره

إذا كان العربى كلفا بأن يشيد بمفاخره ، ويذيع محامده ، فإنه كان كلفا أيضا بتوجيه الخطاب إلى المرأة ـ زوجته أو حبيبته ـ وإشهادها على هذه المفاخر.

من ذلك قول عروة بن الورد فى إشهاد زوجته على محامده :

وقد علمت سليمى أن رأيى ورأى البخل مختلف شَتيتُ

وأنى لا يرينى البخلَ رأى سواء إن عطشت وإن رويت

وأنى حين تشتجر العوالى حوالِى اللب ذو رأى زَميت[٥]

وقول حاتم أوقيس بن عاصم لزوجته :

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسى له أكيلا فإنى لست آكله وحدى

أخا طارقا أو جار بيت فإننى أخاف ملامات الأحاديث من بعدى[٦]

وقول أوس بن حجر :

ألم تعلمى أمّ الجلاس بأننــا كرام لدى وقع السيوف الصوارم ؟

(١) حماسة البحترى ٥١ (٢) الأغانى ١٨/٢١٣ (٣) الحماسة البصرية ١٠ مخطوط
(٤) الحماسة البصرية ١٢ (٥) ديوان عروة وشعراء النصرانية ٩٠٦ زميت : وقور . (٦) ديوان حاتم ٩ وشرح الحماسة للتبريزى ٣/١٠٠ وفى الأغانى ١٢/١٤٤ وتهذيب الكامل ٢/١٠٢ أن القائل قيس بن عاصم

وأنا لنعطى الحق منا وأننا لنأخذه من كل أبلج ظالم(١)

وقول عروة :

سلى الطارق المعترّ يا أم مالك إذا ما أتانى بين قِدرى ومجزِرى

أيسفر وجهى إنه أول القرى وأبذل معروفى له دون منكر(٢)

وإنه ليتمادى فى إشهادها على محامده تماديا ، فيتطاب منها أن تسائل المحاربين، عن شجاعته لتزهى به ، ويزهى بإعجابها . يقول عامر بن الطفيل :

فلو علمت سليمى عِلْمَ مثلى غداة الرَّوْع واصات الكراما(٣)

ويقول :

هلاّ سألت بنا وأنت حفيّة بالقاع يوم تورّعت نهدُ

هذا مقامى قد سألتِ وموقفى وعن المسير فسائلى بعدُ

أسألت قومى عن زياد إذ جَنَى فيه السنان وإذ جنى عبد(٤)

ويقول عنترة بن شداد :

سلى عنا الفزاريين لمّا شفينا من فوارسها الكبودا(٥)

ويقول :

يا عبل كم من غمرة باشرتها بمثقَّف صاب القوائم أسمر(٦)

ويتهدد عامر بن الطفيل زوجته بالطلاق إن هى تغاضت عن الحفاوة ببلائه، يقول:

طُلِّقتِ إن لم تسألى أى فارس حليلك إذ لاقى صُدَاء وخَثْعَما

أكر عليهم دعْلجاً ولبانُهُ إذا ما اشتكى وقع الرماح تحمحما(٧)

اعتذاره انها من فراره

أحيانا كان المحارب يضطر إلى أن يفر ، وهو يعلم أن الفرار مخزاة ومعرة ،

---

(١) حماسة البحترى ٢٥٢

(٢) شعراء النصرانية ٩١١ (٣) ديوان عامر بن الطفيل القصيدة ٢

(٤) الديوان القصيدة ٣ (٥) ديوان عنترة ٥٦

(٦) ديوان عنترة ٨٦ (٧) ديوان عامر القصيدة ١٩ ملحق

فيجعل يبرر فراره ، وينحل لنفسه المعاذير ، ويختص زوجته بأعذاره ، لأنها الشخص الأول الذى يهمه أن يشهد له بالشجاعة ، ويخجله أن يصمه بالجبن .

فرّ أوس بن حجر عن بنى عبس ، وكان فيهم زهير بن جذيمة العبسى وأولاده شأس ومالك وقيس ، فاعتذر لزوجته بأن أعداءه ذوو دهاء ، ففرّ حتى لا يقتل ، ولم يفر عن جبن ، لأن شجاعته معلومة من قبل :

أجاعلةٌ أم الحُصيْن خزايةً ... علىّ فرارى أن لقيتُ بنى عبس

ورهْط أبى سهم وعمرو بن عامر ... وبكرا فجاشت من لقائهم نفسى

أو :

لقيت أبا شأس وشأسا ومالكا ... وقيسا فجاشت من لقائهم نفسى

كأن جلود النُّمْر جِيبَتْ عليهم ... إذا جعجعوا بين الإناخة والحَبْس

فضموا علينا حَجْرَتَيْنا بصادق ... من الرأى حَشّ النارفى الحطب اليَبْس

فأُبْتُ سليمى لم يُخَرَّقْ عمامتى ... ولا صفحتى وَقْعُ القواضب فى التُّرْس

وليس يعاب المرء من جبن يومه ... إذا عُرفتْ منه الشجاعة بالأمس (١)

ويعتذر زهير بن هلال لزوجته بأنه لم يفر إلا بعد أن هزم رجاله وتفرقوا ، فلم يجد من الكياسة والحصافة أن يتقدم وحده ، على أنه قد فرّ بعد أن أثخن الجراح فى أعدائه :

أعاتكُ ماولّيتُ حتى تبددت ... رجالى وحتى لم أجد مُتَقَدَّما

أعاتكُ إنى لم أُلَمْ فى قتالهم ... وقد عض سيفى كبشهم ثم صمما

أعاتك أفنانى السلاح ومن يُطلْ ... مقارعة الأبطال يرجع مكلّما (٢)

ويعتذر شاعر آخر لزوجته بأنه خشى الأسر ، ولم يخش القتل :

قالت سلامة لا أرى لك عادة ... أن تترك الأعداء حتى تُعذِرا

لو كان قتل يا سلام فراحة ... لكن فررت مخافة أن أوسرا (٣)

(١) ديوان أوس بن حجر ١٠ والحماسة البصرية ١٢ مخطوط وحماسة البحترى ٥٢ وفى العقد الفريد ١/١٧٥ أن القائل عمرو بن معديكرب . الحبس : الشجاعة

(٢) حماسة الخالديين ٢٤٤ مخطوط وحماسه البحترى ٥١ (٣) المرأة العربية ١/٢٢

ولقد نظرت امرأة حماس بن قيس إليه وهو يُحِدُّ حربة يوم فتح مكة ، فقالت له : ما تصنع بهذه ؟ قال : أعدها لمحمد وأصحابه ، فقالت : ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء . قال : والله إنى لأرجو أن أُخدمك بعضهم . فلما لقيهم خالد بن الوليد يوم الخندمة انهزم الرجل وفر ، وقال لامرأته : أغلقى علىّ بابى . فقالت له : فأين ما كنت تقول ؟ فاعتذر لها بأن سادة قريش فروا ، وأن المسلمين غلابون ضرّابون :

إنك لو شهدت الخيل يوم الخندمه ⁂ إذ فرّ صفوان وفر عكرمه
وابو يزيد قائم كالمؤتمه ⁂ ولحقتنا بالسيوف المُسلمه
يَفْلقْنَ كل ساعد وجمجمه ⁂ ضرباً فلا نسمع إلاّ غمغمه
لهم نهيتٌ خلفنا وهمهمه ⁂ لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمه[1]

فخره بحسن عشرته لها :

كان من سراوة الخلق وسمات الرجولة أن يحسن الرجل عشرة زوجته ، لذلك خايل بعضهم بأنه لا يسيء عشرتها ، كقول ذى الإصبع العدوانى إنه يابى نداء جارته وكّنتها ، ولا يفجع زوجته بشرّ :

ثم سلا جارتى وكّنتها ⁂ هل كنت فيمن أراب أو فرَعا ؟
أو دعتانى فلم أجبْ ولقد ⁂ تأمن منى حليلتى الْفجَما[2]

ومع شهرة التيميات بالدل وصعوبة المراس كن حظيات عند أزواجهن ، ينعمن بدماثة أخلاقهم[3] .

---

(١) العقد الفريد ١/١٧٣ (القائل اسمه الحارث) وفى سيرة ابن هشام ٤/٢٦ ومعجم البلدان عند الكلام على الخندمة أن القائل حماس بن قيس بن خالد وفى السيرة أيضاً ٤/٢٨ أن القائل اسمه الرعاش الهذلى وفى الكامل للمبرد ٣٦٥ طبعة أوروبا أنه أبو عثمان الهذلى الرعاش أو حماس بن قيس . أبو يزيد : حذفت همزته لضرورة الشعر . المؤتمة : التى قتل زوجها فبقى لها أولاد أيتام . المسلمة : المسلون . الغمغمة : صوت الأبطال فى الحرب . نهيت : نوع من صياح الأسد همهمة : صوت فى الصدر .

(٢) الأغانى ٣/٩٧ . الكنة : امرأة الابن أو الأخ . أراب : فعل مايريب . فرع : أفحش أو تسلل إلى غير زوجته من فرع العروس إذا غشيها أو فرع فى الجبل إذا صعد فيه وفى الأصل فدع . الفجم : الأذى

(٣) الأغانى ١٠ /١٥

على أن الرجال لم يكونوا على نسق واحد فى معاملة الزوجات ، وهذا طبيعى ، فقد روى عن عمر بن الخطاب قوله : كنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار ، فصخبت على امرأتى ، فراجعتنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، فقالت : ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى ليراجعنه ، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل . فأفزعنى ذلك . . وفى رواية يزيد بن رومان : كنا ونحن بمكة لا يكلم أحد امرأته إلا إذا كانت له حاجة . وفى رواية عبيد ابن حنش : ما نعد للنساء أمراً . وفى رواية الطيالسى : كنا لا نعتد بالنساء ولا ندخلهن فى أمورنا[١] .

ولكن فى هذا نظراً ، لأن كثيراً من القرشيين كانوا يحفلون بنسائهم ، أو يشركونهن فى أمورهم كما سبق ، وكما سيجىء . ويظهر لى أن خلق عمر كان فيه بعض جفاء فى معاملة النساء ، وربما شركه بعض القرشيين فى خلقه ، وربما توهم بعضهم أن القرشيين مثله . ولسنا نستطيع أن ندعى أن العرب كلهم كانوا يحسنون معاملة النساء ، لأن هذا مغاير للطبائع ، وما زلنا إلى الآن نرى المرأة علية القدر فى بعض البيئات ومهينة فى بعضها الآخر ، من الوطن الواحد .

ثم إن حسن المعاملة لم يتدل بالزوج إلى أن يكون خنوعاً لزوجته ، أو إمعة لا رأى له ، لأن الخلق العربى مدعوم برجولة وفتوة ، لذلك يقول الشنفرى لزوجته : طلقينى إذا رضيت بمخالفتك لى فيما نهيتك عنه ، لأنك إذا الزوج ، ومن حقك أن تؤدبينى بسوطك :

إذا ما جئتِ ما أنهاك عنه ... ولم أنكر عليك فطلقينى
فأنت البعل يومئذ فقومى ... بسوطك لا أبالك فاضربينى[٢]

ويقول عروة إنه لا يصيخ لزوجته إذا أمرته بعقوق :

(١) فتح البارى ٩/٢٤٥ (٢) محاضرات الأدباء ٢/١٢٧

إذا أمرتنى بالعقوق حليلتى ... فلم أعصها إنى إذاً لمُضيعُ[1]

وإن لخولة الرجل لتتضح حينما تسىء زوجته إلى ابنه من غيرها، أو إلى أخى زوجها، فيردعها ردعا، من ذلك أنه كان لعمرو بن شاس ابن يقال له عَرّار من أمة سوداء، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به، وكان عرار يشتمها، فغضب عمرو وهددها بالطلاق إن لم تحسن معاملة ابنه، لأنه يحبه ويعزه ويحميه:

أرادت عراراً بالهوان ومن يرد ... عراراً لعمرى بالهوان فقد ظلم

وإن عراراً إن يكن غير واضح ... فإنى أحب الجَوْنَ ذا المنكب العَمَم

وإن عراراً إن يكن ذا شكيمة ... تقاسينها منه فما أملك الشيم

فإن كنت منى أو تريدين صحبتى ... فكونى له كالسمن رُبَّتْ له الأدَم

وإلا فسيرى مثل ما سار راكب ... تعجل خِمْسا ليس فى سيره أمم[2]

وأنف دريد بن الصمة أن تشتم زوجته أخاه، لأنها إذاً تشتمه أيضاً:

أعبد الله لو شتمتك عرسى ... تساقط لحم بعضى فوق بعض

معاذ الله أن يَشْتُمن عرضى ... وأن يملكن إمرارى ونقضى

إذا عِرْس الفتى شتمت أخاه ... فليس بحامض الرئتين مَحْض[3]

استماع مشورتها:

هذه العشرة التى يتعاطى الزوجان صفوها، ويتبادلان فيها الثقة والإعزاز جديرة بأن تمهد للزوجة أحياناً سبيل المشورة على زوجها فيما يعود عليهما بالخير، وهو

(١) شعراء النصرانية ٩١٤

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٧ تحقيق شاكر والأمالى ٢/١٨٩ وشرح الحماسة للمرزوقى ٢/٢٨٠ والأغانى ١٠/٦٠ غير واضح: غير أبيض جميل. العمم: التام الطويل. شكيمة: جفوة. ربت له الأدم: دهن الوعاء بالرب ليصلح السمن الذى فيه، أى أحسنى معاملته ظاهرة وباطنة بحيث لا يكون فيها تغير كالسمن المربوب وعاؤه. تعجل خمساً: سار مسرعاً إلى الماء ليسقى إبله بعد أن عطشت أربعة أيام. أمم: إبطاء.

(٣) الوحشيات لأبى تمام ١٠١ مخطوط. حامض الرئتين: مر اللحم. محض: خالص النسب

لا يجد غضاضة فى أن يستمع إليها ويحقق ما تريد .

ولقد تكون المشورة إصلاحا بين القبائل ، كما حدث لما خطب الحارث بن عوف بُهَيْسة بنت أوس بن حارثة الطائى ، فلما هم بها قالت : أتفرغ لنكاح النساء ، والعرب تتقاتل ؟ — وكان ذلك فى أيام حرب عبس وذبيان — فقال لها : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم . فخرج هو وهرم بن سنان فأصلحا بين القوم ، وحملا عنهم الديات، فانصرفا بأجمل الذكر، وشاد بهما زهير بن أبى سلمى[١] .

ولقد تشير الأم على زوجها فى تزويج ابنته ، ويرتضى هذه المشهورة كما سبق فى اختيار الزوج . ولقد تكون مشورتها فى شأن من شئون الحياة كالرحلة مثلا ، فقد أراد الحطيئة أن يسافر، فأتته امرأته بعد ما أعد راحلته ليركب، فقالت :

أذكرْ تَحَنُّنَنا إليك وشوقنا — واذكر بناتك إنهن صغار

فقال : حطوا الرحال ، لا رحلت أبدا[٢] .

على أنها كانت ذات أثر عظيم فى تشجيع زوجها وحفز همته ، وخير مثل فى ذلك السيدة خديجة ، فقد آمنت بالنبى ، وصدقت بما جاء من الله ، وآزرته على أمره ، فخفف الله بمؤازرتها عن نبيه ، وكان لا يسمع بما يكرهه من الرد عليه والتكذيب له إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبته وتصدقه وتهون عليه أمر الناس[٣] .

غيرته عليها وحمايتها :

فى هذه البيئة التى قامت الأخلاق فيها على الإباء ، والاعتزاز بالشرف، وحسن الأحدوثة كان لابد للرجال من الغيرة على العرض ، وكان العدوان عليه يجر حربا وويلا .

---

(١) الأغانى ٢/١٤١ والمستطرف ٢/٢٢٢ (٢) الأغانى ٢/١٧٧

(٣) سيرة ابن هشام ١/٢٥٩

وقد افتخر العرب بالعفة ، ومدحوا بها ، وهؤلاء المفتخرون بالعفة والمادحون بها غُيُرٌ على النساء ، وما زالت غيرتهم مضرب الأمثال ، لذا قالوا : « كل شيء مَهَةٌ ما خلا النساء وذكرهن » يريدون أن كل شيء يسير جميل مقبول يحتمله الرجل إلا ذكر الحرم ، فإنه يتمعض منه ولا يطيقه[(١)] .

ولهم فى الغيرة حديث عجب،فمثلا قتل آكل المرار حُجْر بن عمرو بن معاوية الكندى أو الحارث بن عمرو بن حُجْر الكندى امرأته هندا ، لأن عمرو بن الهَبُولة سباها فى غيابه ، فلما قدم تبعه وقتله واستنقذها ، وعلم أنه نال منها ، فربطها فى أذناب الخيل حتى تقطعت أوصالها[(٢)] . وكذلك فعل الحارث بن عمرو إذ غزاه ابن هُبَيْرَة الغسانى فى غيبته ، فأخذ ماله وسبى امرأته ، فأصابها فى الطريق ، ثم لحقه الحارث فقتله ، وتخلص امرأته ، ولما عرف أنها مست أمر بها فوثِقَتْ بين فرسين ، ثم أحضرهما حتى تقطعت ، وأنشد :

كل أنثى وإن بدا لك منها آية الود حبها خَيْتَعُور

إن من غره النساء بود بعد هذا لجاهل مغرور[(٣)]

وأرجح أن الحادثة واحدة ، ولكنها نسبت إلى شخصين ، بدليل تشابهها

---

(١) مجمع الأمثال ٢/٧٠

(٢) الأغانى ١٥/٨٢ وسيرة ابن هشام ٤/٢٥٥ . سمى آكل المرار لأنه حنق من سبى امرأته حتى أكل المرار وهو يعبث به ولا يدرى (الأغانى ١٥/٨٢ ــ ٨٤ و (سيرة ابن هشام ٤/٢٥٥) أو لأنه اكل هو وأصحابه شجر المرار فى غزوة (سيرة ابن هشام ٤/٢٥٦) وأنا أرجح أحد هذين السببين وأستبعد الرأى الثالث وهو أن امرأته قالت لسابيها : كأنى برجل آدم (مسترخى الشفتين) أسود كأن مشافره مشافر بعير آكل مرار ، قد أخذ برقبتك . والمرار شجر مر إذا أكلته الإبل قلصت مشافرها فبدت أسنانها وفى آكل المرار خلاف . أم هو حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث بن معاوية (سيرة ابن هشام ٤/٢٥٦ والأغانى ٨/٦١ و ١٥/٨٢ وشرح القصائد العشر للتبريزى ٣) فهو الجد الثالث لامرئ القيس . أم هو الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية (هامش الأغانى ١٥/٨٤ والاشتقاق لابن دريد وسيرة بن هشام ٤/٢٥٥ والقاموس المحيط مادة مر) فهو جد امرىء القيس لأنه عاش حوالى سنة ٤٨٠ (تاريخ العرب ١/١١٥ فيلب حتى) .

(٣) أخبار النساء ٣ ومجمع الأمثال ٢/١٧٧

وأن صاحب العقد يذكر هذين البيتين بعد قصة آكل المرار[١] .

أما حماية الزوج لزوجته فإنها صورة من حماية العربى للمرأة عامة ، فلا داعى لتفصيل القول فيها الآن . وحسبنا هنا هذه اللمحة ، يقول مالك بن أبى كعب الأوسى إنه يستعيذ بالله من أن تقول زوجته إنه فَرَّ عنها ، وإنه يجود بآخر قطرة من دمه ليحميها من الأسر :

معاذ الإله أن تقول حليلتى ألا فَرَّ عنى مالك بن أبى كعب
أقاتل حتى لا أرى لى مقاتلا وأنجو إذا غُمَّ الجبان من الكرب[٢]

وعير عامر بن الطفيل قيساً أنه أسلم زوجته سبية :

وأَفْلَتَنَا على الحَوْمان قيس وأسلم عِرسَهُ ثم استقاما[٣]

و إذا ما تهاون فى حمايتها نبذته ، ورفضت أن تعاشره ، لأنه فى نظرها فسل لا تعتز فى رحابه ، ولا تطمئن إلى حمايته . من ذلك أن بنى عبد مناة أغاروا على عِجْل وحنيفة فى يوم العَدَاب ، و يسمى أيضا يوم الصعاب ، وسبى عمرو بن الحارث أو الحارث بن تولب حسينة بنت جابر العجلى ، وكانت زوجة لابن عمها تمام بن سوادة ، ففر عنها فأسرت ، ثم إن زوجها وأباها أتياها ليفادياها ، فرفضت واختارت سابيها وقالت تعير زوجها :

تمامُ قد أسلمْتَنى لرماحهم وخرجتَ تركُض فى عجاج القَسْطَلِ
وتومنى ألا أكُرَّ عليكم هيهات ذلك منكم لا أفعل

ثم افتداها أخوها ، وسار معها عمرو بن الحارث حتى جوزها أرض تميم ، وقال :

وخيَّرنا حُسينْة إذ أتاها سَوادَةُ ضارعا معه الفداء
وقالت إن رجعتُ إلى تميم مُخَيَّرةً فقد ذهب الحياء
وهبناها لأبْحَرَ إذ أتانا وفينا غيرها منهم نساء

---

(١) العقد الفريد ٢/٧٠ (٢) حماسة الخالديين ١٠ مخطوط .

(٣) ديوان عامر القصيدة ٢

وفى ذلك يقول جرير للأخطل :

ورأت حسينة بالعذاب فوارسا تحوى النهاب وتقسم الأنفالا[١]

الإسلام ومعاملة الزوجات

لاشك أن الإسلام هذب الأخلاق الجامحة ، وشذب العادات الطالحة ، وسَنَّ جديدا من الآداب ، وزاد من عطف الرجال على الزوجات .

فقد شرع القرآن الكريم وسائل تأديب الزوج لزوجته : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا »[٢]

وشرع التحكيم بين الزوجين المتخاصمين: « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا »[٣] .

وأوصى النبى عليه الصلاة والسلام بالنساء خيرا فى حجة الوداع: «استوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله »[٤]

وبين النبى أنه لاغضاضة ولاضيرفىمداعبة الرجل زوجته: «اللهو فى ثلاث: تأديب فرسك ، ورميك بقوسك ، وملاعبتك أهلك »[٥] .

وكان صلى الله عليه وسلم أنبل زوج معاملة ، وأظرف زوج عشرة . وحسبنا قوله : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى »[٦] .

وقد نهى عن ضرب النساء ، فقيل له يارسول الله إنهن قد فسدن ، فقال : « اضربوهن ولا يضرب إلا شراركم »[٧] .

---

(١) أشعار النساء للمرزبانى ٥٧ ـ ٥٩ مخطوط (٢) سورة النساء ٣٤ (٣) سورة النساء ٣٥ (٤) تيسير الوصول ٢/٢٥٦ والمغازى للواقدى ٤٣٤ والبيان والتبيين ٢/٣٢ .

(٥) كنز العمال ٧/٣٣١ وعيون الأخبار ٤/٨١

(٦) كنز العمال ٨/٢٥٨ (٧) الطبقات لابن سعد ٨/١٤٧

وقال فى خطبة الوداع : « إن الله قد أمر أن تهجروهن وتضربوهن ضربا غير مبرح » وهاله أن يلجأ الأزواج إلى الضرب فى قلة مبالاة ، فقال : « لقد طاف بآل محمد الليلة سبعون امرأة كلهن قد ضربت ، ما أحب أن أرى الرجل ثائراً فريصُ عصبِ رقبتِهِ على مُرَيْئَته يقاتلها ».وشكت إليه امرأة أن زوجها قد ضربها ضربا شديدا ، فقام فأنكر ذلك وقال :« يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبد ، ثم يظل يعانقها ولا يستحى »[١] . وللنبى عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة فى الوصاية بالزوجات والحث على إحسان معاملتهن[٢] .

واهتدى بهديه المسلمون ، وساعدهم على تمتيع النساء أن كثرت أموالهم ، حدث محمد بن ربيعة بن الحارث أن أصحاب رسول الله كانوا يوسعون على نسائهم فى اللباس الذى يصان و يتجمل به ، وأنه رأى على عثمان مِطْرَفَ خز ثمنه مئتا درهم ، فقال له عثمان : هذا لنائلة كسوتها إياه ، فأنا ألبسه أسرها به .

ولا شك أن الإسلام زاد مكانة المرأة عزا وعلوا ، وعضدها فى حريتها فى اختيار زوجها، وكفل لها معاملة حسنة ،حتى لقد دلت بعض المسلمات بمكانتهن، فاشترطن على أزواجهن ، وشططن فى معاملتهم ، فمثلا اشترطت سكينة بنت الحسين على زوجها زيد بن عمرو بن عثمان ألا يمنعها سفرا ولا مدخلا ولا مخرجا، بل لقد منعته مرة من زيارتها بالطائف حيث أقامت ببيت لها ، ثم أمرت بالرحيل إلى المدينة ، وأذنت له فجاءها[٣] ، وكانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة لعبد الملك بن مروان ، وقد غضبت عليه وهو خليفة ، فاحتجت عنه حتى شق ذلك عليه ، فأرسل إليها من يحتال فى إرضائها[٤] وقد فعلت ذلك عائشة بنت طلحة مع زوجها مصعب بن الزبير ، حتى أصلح بينهما ابن قيس الرقيات[٥] .

---

(١) كنز العمال ٨/ ٢٦٠ والطبقات ٨/ ١٤٨ (٢) كنز العمال ٨/ ٢٥٨ - ٢٦١
(٣) الأغانى ١٧/ ٩٣ (٤) الأغانى ٢/ ١٣٥
(٥) الأغانى ١٠/ ٥١

مكانة الزوج عند زوجته

أسلفت القول فى الصفات التى كان يتوخاها الخاطب فى الفتاة ، ليطمئن إلى حياة منزلية هادئة سعيدة ، وما زال الأزواج يتمدحون فى زوجاتهم مظاهر الأنوثة الكاملة التى تتجلى فى لين العريكة، ودماثة الخلق، وحسن السمع والطاعة.
يقول البراء بن قيس فى زوجته :

كانت إذا غَضِبَتْ علىَّ تظلَّمَتْ وإذا كرِهتُ كلامها لم تُثْقِل[1]

ويمدح عمرو بن أحمد الباهلى المرأة بأنها ليست ثرثارة الحديث ولا مغالبة ، وبأنها كيسة ، لاتتكلم إلا بما ينفع[2] .

وقد كانت مكانة الرجل عند امرأته عالية ، وتجلى ذلك فى عدة مظاهر ،

منها :

إذا ما انتقلت المرأة من بيت أبيها إلى بيت زوجها فقد شهدت بيتاً آخر جديداً ، تقيم فيه عمرها ، وتغرس آمالها ، وتصل حياتها بزوجها ، تبثه أمانيها ، وتشكو إليه آلامها ، بل تمتزج بهذا الزوج عواطفها ، فتجاوبه ويجاوبها ، هو رجلها ، وهو حاميها وعائلها ، ووالد بنيها ، فهى إذا تحبه ويسعدها أن يحبها .

ولقد تسلك فى تحببها إليه أن تتبقَّل له ، وأن تنجب ، وأن تتذرع بجمالها وحسن خلقها .

ولقد يسوقها الحرص على حبه لها أن تتذرع بضرب من الخرافة والوهم ، فتعلق الخرزات ، وتقرأ الرقى . والمرأة هى المرأة فى كل عصر وفى كل بيئة ، فما زالت بعض النساء يدنَّ بالتعاويذ والرُّقَى والتمائم ، ويعتقدن أنها وسائل ناجعة فى أن يجتذبن أزواجهن ، ويعمرن قلوبهم .

---

(١) معجم البلدان ٨/٣٨٧ (٢) البيان والتبيين ٢/١٧٢

وكانت الخرازات فى الجاهلية أنواعا ، منها : الهِنَمة ، وكن يقلن : أخَذْتُه بالهنمة ، بالليل زوج و بالنهار أمة ، ومنها العَطْفة والفَطْسة والكحْلة والصَّرْفة والسُّلْوانة أو السُّلوان والهَبْرة والقبَل والقبَلة[١] . ومن خرزاتهن أيضا الدُّرْدَبيس ، وهى خرزة سوداء كأن سوادها لون الكبد تشف مثل العنبة الحمراء، تتحبب بها المرأة إلى زوجها ، وتوجد فى قبور عاد[٢] ، والقِرْزَحْلة خرزة تلبسها المرأة ليرضى بها زوجها ولا يبتغى غيرها ولا يشرك معها أحداً[٣] والكَرَار والهَمْرة ، ورقيتهما : يا كرار كرّيه ، ياهمرة اهْمُريه ، إن أقبل فسرِّيه . وإن أدبر فضريه[٤] . وقد أنشد ابن برى فى القرزحلة :

لا تنفع القِرْزَحْلةُ العجائزا إذا قَطَعن دونها المَفاوزا[٥]

وقال شاعر فى الدربيس وشدة تأثيرها :

قطعت القيد والخرزات عنى فمن لى من علاج الدَّرديبس[٦]

وقال آخر فى القبل والفطسة والدردبيس :

جمعن من قَبَلٍ لهن وفطسة والدردبيس مُقابَلاً فى المنظم[٧]

وما من شك فى أن هذه الودعات خرافة ، لكن لم تقتصر على المرأة العربية، فقد كان الأقدمون يتخذون الودع والأصداف رموزاً لقدرة النساء على أن يلدن ويهبن الحياة ، ثم زاد شأنه إلى أن صار يقى الأحياء خطر الموت ، ويمنح الموتى طول البقاء، لذلك أصبح التمنطق بالودع وسيلة لإغراء الرجال بالنساء، ففى الملاحم البابلية أن أشتار **Ishtar** ربة الحب والحرب وأم الحياة جميعها كانت إذا خلعت منطقتها وقفت حركة التناسل حتى تعود إلى لبسها ، واشتهرت منطقة أفروديت **Aphrodite** بقدرتها على إرغام الناس على الحب، وكانت قوة برنهلد **Brunhild** مودعة فى منطقتها[٨] .

---

(١) لسان العرب ١٦/١٠٧ ومواد الكلمات . (٢) لسان العرب ٧/٣٨٤
(٣) اللسان ١٤/٧٢ (٤) اللسان ٢/٤٥٢ (٥) اللسان ١٤/٧٢
(٦) اللسان ٧/٣٨٤ (٧) اللسان ٧/٣٨٤و٨/٤٥ (٨)تاريخ العالم عدد٦مجلد١

ومردّ ذلك إلى خضوع الناس لسلطان القوى الغيبية فى شئونهم الدنيوية . وما زالت الكثرة العظمى تخضع لهذا السلطان إلى اليوم ، وليس ذلك مقصوراً على غير المثقفين ، لأن الذين تتيح لهم ظروفهم أعظم الفرص للتعلم والتثقف ينتشر بينهم كثير من الخرافات والأوهام التى لاتمت إلى الأديان الراقية بصلة . وليست الرقى والتمائم وقراءة الكف ونحوها إلا قليلا من كثير من الأمثلة التى تدل على ضروب العرافة والسحر المتعددة ، وما زالت باقية بين الطبقات العالية فى المجتمعات[1] .

ومن مظاهر حبها لزوجها أنها كانت إذا غاب عنها فى سفر تأخذ تراباً من قدمه وموضع رجله ، معتقدة أن ذلك يسرع بعودته . قالت امرأة من العرب :

أخذت تراباً من مواطىء رجله غداة غدا كيما يثوب مُسلما

وقالت أخرى :

قالت له واقتبضَتْ من أثَرِه يا رب أنت جاره فى سفره[2]

و يتجلى هذا الحب فى أن الزوجة كانت تعظم فجيعتها فى زوجها أكثر من فجيعتها فى أخيها وخالها ، فقد عاد رسول الله من غزوة فلقيته حَمْنة بنت جحش ، فنعى لها أخاها عبد الله بن جحش ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزة ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت وولولت ، فقال رسول الله : « إن زوج المرأة منها لبمكان » لما رأى تثبتها عند مصرع أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها[3] .

خوفها عليه من القتل :

مهما تكن المرأة العربية كلفة بالشجاعة و بالبطولة فإنها لا بد أن تتخوف على زوجها الردى ، لئلا تحرم حمايته و إعزازه وعشرته ، ولئلا تترمل ، ويتيتم بنوها ،

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٥ اليوت سمث (٢) بلوغ الأرب ٢/٢٣٩

(٣) تاريخ الطبرى ٣/٢٧ وسيرة ابن هشام ٣/٥٠ والمغازى ٢٨٥

فهى معذورة فى أن تحاول أحيانا أن تثنيه عن الحرب وعن الغارات .

وممن صوروا ذلك عروة بن الورد ، كان قد أجدب هو وصعاليكه ، فأراد أن يخرج ليغزو ، فنهته امرأته خوفا عليه من الردى ، فعصاها وخرج غازيا ، وأصاب إبلا عاد بها على نفسه وصحبه وقال :

أرى أم حسان الغَداةَ تلومنى تخوفنى الأعداء والنفسُ أخوف
تقول سُلَيْمَى لو أقَمْتَ لسَرَّنا ولم تدر أنى للمقام أطوِّف
لعل الذى خوفتنا من أمامنا يصادفه فى أهله المتخلف[1]

ويكرر هذا المعنى فى قوله :

تقول لك الويلات هل أنت تارك ضُبُوًّا برَجْـل تارة وبمَنْسرِ
ومُسْتَثْبِتٌ فى مالك العام إننى أراك على أقتاد صَرْماءَ مُذْكِرِ
فَجوعٌ لأهل الصالحين مَزَلَّةٌ مَخُوفٌ رداها أن تصيبك فاحذر[2]

وهو حفى بتكرير هذا[3] .

ويشركه فى هذا الحديث عمرو بن براقه الهمذانى :

تقول سليمى لا تَعَرَّضْ لتَلْفَةٍ وليلك عن ليل الصعاليك نائم[4]

وعمرو بن معد يكرب :

أعاذلُ عدتى بَزِّى ورمحى وكل مقلّص سلس القياد
أعاذل إنما أفنى شبابى إجابتى الصَّريخ إلى المنادى[5]

---

(١) الأغانى ٣/٨٢ وشعراء النصرانية ٨٩٨ وديوان عروة ٢٣

(٢) شعراء النصرانية ٨٨٤ ضبوا : لصوقاً بالأرض لختل الصيد والمراد أصحاب المال . رجل : رجال . منسر : خيل والمراد خيالة. أقتاد صرماء مذكر : الأقتاد خشب الرحل أو جميع أداته والمراد الرحال . صرماء : مفازة لاماء فيها (أساس البلاغة) مذكر : داهية شديدة أو طريق مخوف والمراد على شفا هلاك. فجوع: تفجع الناس بالسطو عليهم . الصالحين : ذوى المال

(٣) ديوان عروة ١٣ و ٢١ (٤) حماسة الخالديين ٥ مخطوط .

(٥) العقد الفريد ١/١٤٣

وكعب بن سعد الغنوى يفصل حواراً بينه وبين زوجته فيقول :

لقد أغضبتنى أم قَيْسٍ تلومنى ... وما لوم مثلى باطلا بجميل
تقول : ألا يا استبق نفسك لاتكن ... تساق لغبراء المقام دَحُول
أراك امرأ ترمى بنفسك عامدا ... مرامى تغتال الرجال بغول
ألم تعلمى ألا يراخى منيتى ... قعودى ولا يدنى الوفاةَ رحيلى
فانك والموت الذى ترهَبينه ... علىَّ وما عَدَّاً له بعقول
كداعى هَدِيل لا يجابُ إذا دعا ... ولا هو يسلو عن دعاء هديل[١]

هؤلاء الشعراء ومن على شاكلتهم كمضرس بن ربعى[٢] قد يكون تصويرهم هذا صادقا ، وقد يكون ضربا من الفخار بالبسالة واقتحام المهالك ، ولكنه على الحالين تعبير عن دخيلة الزوجة ، وخشيتها على زوجها ، لأن الشاعر ما كان ليتخذ عذلها وتخوفها مدرجة إلى فخره إلا وهو على يقين من صوابه فى تصوير نفسية زوجته .

حرصها على ماله :

من أحق من الزوجة المحبة الوفية بالحرص على مال الزوج ؟ إن الأم تحرص على مال ابنها بدافع الأمومة ، غير متأثرة بنفع شخصى تتوقعه ، أما الزوجة فإنها تحرص بدافع المشاركة فى الحياة ، وبدافع شخصى من شعورها بأن هذا المال لها ولبنيها ولزوجها ، وأنها تحقق به آرابها ، فهى أشد من الأم حرصاً ، وأشد منها لوما للرجل على الإسراف ، وهى ترى إسرافا ما يعتده الزوج أريحية وواجباً محتوما.

لهذا أكثر الشعراء من تصوير الزوجات لوامات على البذل ، فهل كان ذلك لأنهم يتوسلون بهذا التصوير إلى الفخر بالكرم ؟ أو كان هذا تخيلا من الشاعر أراد به أن يعظم من عزيمته ومروءته ، فهو يكرم حين يلام ؟

(١) الأصمعيات ١/٦٠ (٢) معجم البلدان ٥/٤١٥

أرى أن الرجل كان صادقا فى حديثه عن لوم امرأته ، فليس من المعقول أن يصمَ زوجته أو أمه بالبخل المدّعى ليمهد به إلى أن يفخر بكرمه وغلبته على اللوم المتخيّل ، لأنه بذلك يسيء إلى نفسه أيضاً . وإنما كان الأكمل لفخاره أن تكون أمه كريمة أورثته الكرم ، وأن تكون زوجته كريمة ، لأنها نشأت على الكرم فى بيت أبيها صهره ، وعاشت مع زوجها الكريم فصادف كرمه فى نفسها هوى .

وإذاً فالراجح فى نظرى أن الشعراء كانوا صادقين فى تصويرهم ، وأن النساء كن أبخل من الرجال ، كما سأبين فى أخلاق المرأة . وقد حاولت ماوية بنت عفزر أن تكف زوجها حاتماً عن سخائه فتأبّى عليها ، فلما ضاقت به طاقته [١] ، وفى ذلك قال قصيدته التى مطلعها :

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غد ... كذاك الزمان بيننا يتردد

يفخر فيها بكرمه ، ويشيد بآثاره [٢] . ويظهر أن حاتما كان قد أجهد نفسه فى الدفاع عن مذهبه ، وفى تحبيب السخاء إلى زوجاته ، بضرب الأمثال ، كقوله لماوية :

أماويّ إن المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر

أماويّ إنى لا أقول لسائل ... إذا جاء يوماً : حل فى مالنا نَزْر

أماوى ما يُغْنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

أماوى إن يصبح صداى بقفرة ... من الأرض لا ماء هناك ولا خمر

تَرَىْ أن ما أهلكت لم يك ضرنى ... وأن يدى مما بخلتُ به صِفر [٣]

وقوله لنوار وقد حاولت أن تصده عن سخائه فرفض [٤] ، وقوله لزوجتيه معا وقد هددتاه بالطلاق :

---

(١) ذيل الأمالى ١٥٣ والأغانى ١٦/١٠٢ (٢) الأغانى ١٦/١٠٢ (٣) زهر الآداب ٣/١٨٣ وشعراء النصرانية ١٠٩ والعقد الفريد ١/٣٣٦ وديوان حاتم ١١

(٤) العقد الفريد ١/٣٣٤

وعاذلتين هَبَّتا بعد هجعة ... تلومان متلافا مفيدا ملوّما

تلومان لما غوّر النجم ضَلّةً ... فتى لا يرى الإنفاق فى الحق مَغْرما

فقلت وقد طال العتاب عليهما ... وأوعدتمانى أن تبينا وتَصْرِما

ألا لا تلومانى على ما تقدما ... كفى بصروف الدهر للمرء محْكِما

فإنكما لا مَضَى تدركانه ... ولست على ما فاتنى متندما[1]

وقد أضاف النمر بن تولب قوما، وعقر لهم أربع قلائص، واشترى لهم زق خمر، فخنقت زوجته ولامته، فقال لها إن لومك سفه، وإنك تتخوفين الغد، ولكنك لا تستطيعين أن تردى الفقر عنى ببخلك، ثم قال إنها بكت لما سبأ الزق لضيوفه، على أنه اشتراه بجمل مسن مهزول، وبكت لأنه نحر لهم قلائص أربعا، على أنه قد نحر مثلها لغيرهم من قبل، فهذا البكاء ضلة منها وسفه، بل إنه تباك لا بكاء. ثم أمرها أن تفسح لإخوته ليستمتعوا معه بما يملك، وقال إنه لابد أن يموت ويترك ماله فماذا يقسره على البخل؟ ثم ضرب لها أمثلة بمن ماتوا وخلفوا المال لغيرهم:

قالت لتعذلنى من الليل: اسمع ... سَفَهٌ تبيُّتُكِ الملامة فاهْجعى

لا تجزعى لغدٍ وأمرُ غدٍ له ... أتعجّلينَ الشرّ مالم تمنعى؟

قامت تُبكّى أن سبأتُ لفتية ... زِقًّا وخابيةً بعَوْدٍ مُقْطَع

وقريتُ فى مَقْرَى قلائص أربعا ... وقريتُ بعد قِرَى قلائص أربع

أتبكّيا من كل شىء هين ... سفهٌ بكاء العين ما لم تدمع

فإذا أتانى إخوتى فدعيهم ... يتعللوا فى العيش أو يلهوا معى

لا تطرديهم عن فراشى إنه ... لابد يوما أن سيخلو مضجعى

هلا سألت بعادياء وبيته ... والخلّ والخمر التى لم تمنع

---

(١) ديوان حاتم وخزانة الأدب للبغدادى ٢/٢٩٠

لا تجزعى إن مُنْفِسٌ أهلكْتُه ... وإذا هلكت فعند ذلك فاجزعى[1]

وهذا الضرب من المقال كثير[2] .

ولبعض الرجال مع نسائهم البخيلات الحريصات على المال أقاصيص ، كهذه التى رووها عن حُجَيَّة بن المضرَّب ، فقد رأى جاريته معها قعب من لبن فقال : أين تذهبين ؟ قالت إلى أولاد أخيك اليتامى ، فأراقه . فلما أراح راعيه إبله عليه قال لعبديه : أريحا هذه الإبل على أولاد أخى . فأراحها كلها عليهم ، فغضبت امرأة حجية غضبا شديدا ، فقال قصيدة يتحدث فيها عن غضب زوجته وغيظها ، وعن أنفته أن تهدى إلى أولاد أخيه لبنا فى قعب كما يجاد على السائلين والبائسين ، وأنه أمر عبديه أن ينيخا النوق عند أولاد أخيه ، ليحتلبوا ما يشاءون ، ولم يعبأ بغضب زوجته وحنقها ، بل إنه أرضى نفسه بهذا الصنيع ، وهو ليس بليد الحس للومها ، وليس أحمق فتخدعه بكحلها لتنسيه ماوجب عليه من رعاية أولاد أخيه ، وإنما هو رجل يحتفظ لنفسه بمقومات الرجولة ، فلتعش معه على مايريد فيعزها ، وإلا فلتفارق ، ثم ذكر الباعث له على حفاوته بأبناء أخيه أنه وفاء لأبيهم :

لججنا ولجَّت هذه فى التَّغضُّب ... ولطَّ الحجاب دوننا والتجنب

وخطَّت بعود إثْمِدٍ فوق عينها ... لِتُذْهِب عقلى بالنَّواكة زينبى

تلوم على مال شفانى مكانه ... فلومى على ما فاتك اليوم واغضبى

ولا تحسبينى بَلْدَمًا إذ نكحتِهِ ... ولكننى حُجَيَّة بن المضرَّب

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ١/٢١٥ تبكى : تهيج للبكاء . سبأ : اشترى للشرب . خابية : جرة عظيمة . عود : مسن من الإبل . مقطع : مهزول . قريت فى مقرى : أضفت فى مضيف . فراشى : المراد بيتى . عادياء : أبو السموءل . الخل : جمع خلة وهى الخمر أو حامضتها أو المتغيرة بلا حموضة ، والمراد بالخل والخمر أنه كان يجود بالخمر بنوعيها (٢) ديوان حاتم ٨ والأغانى ١٩/١٥٨و٢١/١٠ والأمالى ١/٣٨،١٩و٢/٤،٢٨٠ والمفضليات ١/١١٦،٢٣و٢/١٥٦ وشعراء النصرانية ١٢٦ وشرح الحماسة للتبريزى ٤/١١٧ ومنتهى الطلب من أشعار العرب ١/١٧ ، ١٥٩ مخطوط والمؤتلف والمختلف ٨٦ والأصمعيات ١/٥ وخزانة الأدب ١/٢١٥ و ٢/٢٩٠ وديوان عبيد القصيدة ٢٨ .

فإن تجلسى فأنت أقْنَى عيالنا ... وإن تكرهى هذى المعيشة فاذهبى
رحمت بنى مَعْدَان إذ ساف مالهم ... وحُقَّ لهم منى وربِّ المحصَّب
ولما رأيت النفسَ ألا تُقرَّها ... هدايا لهم فى كل قَعْبٍ مُشَعَّب
رثيتُ لهم لما رأيت سَوَامَهُمْ ... عطاء الموالى من أفيلٍ ومُصْعَب
فقلت لعبْدَيْنَا : أريحا عليهمُ ... سأجعل بيتى مثل آخر مُعْزِب
وقلت : خذوها واعلموا أن عمكم ... هو اليوم أولى منكم بالتكسب
عيالى أحق أن ينالوا خَصاصة ... وأن يشربوا رَنْقًا إلى حين مكسب
أحابى بها قبر امرىء لو أتيته ... حَرِيبًا لآسانى على كل مركب
أخى والذى إن أدعُه لعظيمة ... يجبنى وإن أغضب إلى السيف يغضب[١]

لم تقتصر الزوجة على أن تلوم فى الكرم ، بل لامت أيضا فى إعزاز الخيل وتقديم اللبن لها ، ونحن نعلم أن العرب كانوا يرعون خيلهم و يؤثرونها أحيانا على أنفسهم وأهليهم[٢] . يقول ربيعة بن مقروم :

وجُرْداً يقرَّبن دون العيال ... خلال البيوت يَلُكْنَ الشَّكيما[٣]

وكانوا يخصونها بلبن الإبل تقوية لها وإعزازا ، قال المتلمس :

أبقت لنا الأيام واللَّزْ ... بَاتُ والعانى المرَهَّق
جُرْداً بأطناب البيوت ... تُعَلُّ من حَلَبٍ وتُغْبَق[٤]

غضبت الزوجة من هذا الإعزاز ، ورأت أنه إسراف ، فلامت زوجها ، لكنه لم يصغ إليها ، يقول قبيصة بن النصرانى إنها لامته ، وإنها تجهل قيمة الحصان إذا حزب الأمر :

---

(١) المؤتلف والمختلف ١٨٣ والأغانى ٢١/١٠ لط : لزم . بلدم : أحمق ثقيل وخم . أقنى عيالنا : خيرهم . النواكة : الحمق . ساف : نفد . أفيل : ولد الناقة . مصعب : فحل من الإبل . حريب : فى شدة .

(٢) الحياة العربية ٢٥٧   (٣) المفضليات ١٨٣/١ .

(٤) ديوان المتلمس ٩ مخطوط .

هاجرتى يابنت آل سـعد أإن حلبتُ لِقْحَـةً للوَرْد
جهلتِ من عِنانه الممتـد ونظرى فى عِطْفِـه الألَدِّ
إذا جياد الخيل جاءت تَرْدِى مملوءة من غضب وحَرْد[١]

وقال الأعرج المَعْنىّ إنها عذلته ، وهى لاتدرى أن الحصان أنفع منها إذا جد الجد ، وأنه سيجزى صاحبه حين الحرب :

أرى أم سهل ماتزال تَفَجَّعُ تلوم وما أدرى علام تَوَجَّع ؟
تلوم على أن أعطى الوَرْد لِقْحَةً وما تستوى والوردَ ساعة تفزع
إذا هى قامت حاسرا مُشْمَعِلَّةً نخيبَ الفؤاد رأسها ما تُقَنَّع
وقمت إليـه باللجـام مُيَسَّراً هنالك يَجْزِينى الذى كنتُ أصنع[٢]

وكذلك تحدث خُزَز بن لَوْذان[٣] وحِبال بن حِسْل[٤] وحاجب بن حبيب الأسدى[٥] وغيرهم .

وعذلت فى الخمر أيضا وأكثر الشعراء من الحديث عن عذلها، قال أبو ذؤيب:

رأتنى صريع الخمر يوما فسؤتها بِقُران إن الخمر شُعْثٌ صحابها

وضاق أحدهم بلومها فتهددها بالتغالى فى الشراب إن لم تـكف عن اللوم ، ولا يخلو تهديده من تصوير فـكه :

غضبت علىّ لأن شربتُ بجَزّة فلئن أبيْتِ لأشربَنْ بخروف
ولئن غضبتِ لأشربنَّ بنعجة دَهْسَاءَ مالئة الإناء سَحَوف
ولئن غضبت لأشربنَّ بناقة كَوْماء ناوية العظام صفُوف
ولئن غضبت لأشربنَّ بسابحٍ نَهْدٍ أشمِّ المَنكِبَيْنِ مُنيف

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢/٨٩ .

(٢) معجم الشعراء ٢٥١ وشرح الحماسة للمرزوقى ١/٣٤٩ مشمعلة : مسرعة . نخيب الفؤاد : طائرة اللب . ميسراً : مهيئاً .

(٣) البيان والتبيين ٣/٣١٦

(٤) المؤتلف والمختلف ٨٦

(٥) المفضليات ٢/١٦٨ .

ولئن غضبت لأشربنّ بواحدى ولأجعلنّ الصبر منه حليفى[(١)]

وذهب سُحَيم بن وَثيل الرياحى إلى أن الخمر هى الثناء والفخار ، وأنها لب الحياة ، وهى خير من زوجته اللائمة :

تقول حوراء ليس فيك سوى الخمـ ـر معيب يَعيبه أحـد

فقلت : أخطأتِ بل معاقرتى الخمـ ـر وبذلى فيها الذى أجد

هو الثناء الذى سمعت به لا سَبَدٌ مُخْلدى ولا لَبَد

ويحك لولا الخمور لم أحفل العيـ ـشَ ولا أن يضمنى لَحَدَ

هى الحيا والحياة واللهو لا أنت ولا ثروة ولا ولد[(٢)]

ويبدو أن الليل كان الظرف الملائم لهذه الملامة ، لأن الزوج حينئذ يخلو إلى زوجته فتنفرد به ، ويتناولان معا شئون اليوم ، قال حاتم :

وعاذلتَيْن هبّتا بعد هجعة تلومان مِتْلافا مفيدا مُلَوَّما

تلومان لما غوّرَ النجمُ ضِلَّةَ فتى لا يرى الإنفاق فى الحمد مَغْرما[(٣)]

ويقول عبيد بن الأبرص :

هبت تلوم وليست ساعة اللاحى هلا انتظرت بهذا اللوم إصباحى[(٤)]

ويقول النمر بن تولب :

قالت لتعذلنى من الليل اسمع سَفَهٌ تبيُّتك الملامة فاهجعى[(٥)]

ويقول ضَمْرة بن ضمرة إن زوجته عجلت بلومه بعد موهن من الليل :

بكرت تلومك بعد وَهْنٍ فى الندى بَسْلٌ عليك ملامتى وعتابى[(٦)]

---

(١) الأمالى ١/١٥٠ دهساء : محمرة اللون أو عظيمة الإلية . سحوف : عليها طبقتان من الشحم . كوماء : عظيمة السنام . ناوية العظام : سمينة . صفوف : تصف بين رجليها عند الحلب وأن تحلب فى محلبين أو ثلاثة ، فهى غزيرة اللبن . سابح نهد : فرس ضخم .

(٢) البيان والتبيين ٣/٣٤٤

(٣) خزانة الأدب ٢/٢٩٠ .

(٤) ديوان عبيد القصيدة ٢٨

(٥) خزانة الأدب ١/٢٥١ .

(٦) الأمالى ٢/٢٨٠ بكرت : المراد عجلت . بسل : حرام .

وفاؤها لها :

إذا ما فجعها الدهر فى زوجها وفت له ما عاشت ، ولهذا الوفاء عدة مظاهر .

١ — فهى تذكره بالخير ، ولقد يتزوجها غيره فلا تنكل عن هذه الذكرى ، بل ترطب بها لسانها على مسمع من زوجها الثانى ، من ذلك أنه لما قتل لقيط ابن زرارة تزوج امرأته بنت هانىء بن قبيصة رجل من أهلها ، فكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنت من لقيط ؟ قالت : كل أموره حسن ، ولكنى أحدثك أنه خرج إلى الصيد مرة فرجع إلىّ و بقميصه نضحٌ من دماء الصيد ، والمسك يضوع من أعطافه ، ورائحة الشراب من فيه ، فضمنى ضمة ، وشمنى شمة ، فليتنى مت ثمة . ففعل زوجها مثل ذلك يوماً ، ثم ضمها ، وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ قالت : ماء ولا كصَدّاء[1] .

٢ — ولقد تعاف الزواج بعده ، وتقضى حياتها أيِّماً ، أو تترهب ، كما ترهبت هند بنت النعمان بن المنذر لما قتل أبوها زوجها عدى بن زيد ، وحبست نفسها فى الدير المعروف بدير هند فى الحيرة ، ثم خطبها المغيرة بن شعبة والى الكوفة فى عهد معاوية فرفضت[2] .

وكذلك فعلت فى الإسلام نائلة بنت الفُرافصة الكلبية ، فإنه لما قتل عثمان خطبها معاوية وألح عليها ، فقالت : ما يعجب الرجل منى ؟ قالوا : ثناياك ، فكسرت ثناياها ، وبعثت بها إليه فأمسك . ومثلها الرباب بنت امرىء القيس ، كانت زوجة للحسين بن على ، وكان يحبها وتحبه ، يقول فيها وفى بنته سكينة :

لعمرك إننى لأحب داراً تحل بها سكينة والرباب

---

(١) جمهرة الأمثال ٢/١٥٣ ومجمع الأمثال ٢/٢٠٦ صداء: بئر عذبة لم يكن عندهم أعذب من مائها وفيها يقول ضرار السعدى .

وإنى وتهيامى بزينب كالذى تطالب من أحواض صداء مشربا

(٢) الأغانى ٢/١٣١

فلما قتل خطبت ، فقالت : والله لااتخذت حموا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] .

وروى الأصمعى عن رجل من بنى ضبة أنه عرض على فتاة تأيمت أن يتزوجها ، فأطرقت ساعة ، ثم رفعت رأسها ، وعيناها تذرفان دموعاً وقالت :

كنا كغصنين من بان غذاؤهما ماء الجداول فى روضات جنات
فاجتثَّ صاحبَها من جنب صاحبه دهر يَكُرُّ بفرحات وترحات
وكان عاهدنى إن خاننى زمن ألا يضاجع أنثى بعد موتاتى
وكنت عاهدته أيضاً فعاجله ريب المنون قريباً مُذْ سُنَيَّات
فاصرف عتابك عمن ليس يصرفه عن الوفاء له خَلْبُ التحيات[٢]

٣ — ولقد يدفعها وفاؤها لزوجها أن تحمس أخاه ليثأر له ، وتلومه على تغافله عن القصاص لأخيه ، كما فعلت أميمة امرأة عروة بن مرة إذ دخلت على أخيه أبى خراش خويلد بن مرة فرأته يلاعب ابنه ، فقالت له : ياأبا خراش ، تناسيت عروة ، وتركت الطلب بثأره ، ولهوت مع ابنك ، أما والله لو كنت المقتول ما غفل عنك ، ولطلب قاتلك حتى يقتله فبكى أبو خراش ، وقال :

لعمرى لقد راعت أميمةَ طلعتى وأنى ثوائى عندها لقليل
وقالت أراه بعد عروة لاهياً وذلك رزء لو علمت جليل
فلا تحسبى أنى تناسيت فَقْدَهُ ولكن صبرى يا أميم جميل[٣]

٤ — وإنها لتتفجع على زوجها إذا ما اختطفه المنون ، لأنه سندها قد تقوض ، وأملها الفينان قد صوّح ، وقلما تصبر على البلوى ، فتذهب تقص شعرها ، وتخمش وجهها ، وتشق جيبها ، وتلطم خدها ، وتدعو بدعوى الجاهلية .

قال طرفة لزوجته :

---

(١) المحبر ٣٩٦ وأخبار النساء ٦٢ والمستطرف ١/١٨٥
(٢) عيون الأخبار ٤/٣١ وأخبار النساء ٦١ . (٣) الأغانى ٢١/٤٥

فإن مت فانعيني بما أنا أهله وشقى علىّ الجيب يا بنة معبد[1]

وقال ضابىء بن الحارث البرجمى :

هممت ولم أفعل ، وكدت وليتنى فعلتُ فكان المعولاتِ حلائله[2]

وخشى قيس بن مسعود الشيبانى على ابنته أن تفعل ذلك إذا قتل زوجها لقيط بن زرارة أو مات ، فأوصاها فيما أوصى بألا تخمش وجهها ، ولا تحلق شعرها[3] . وقد جزت نساء قريش شعور رءوسهن حزناً على قتلى بدر[4] . وكان بعضهن من المهتاجات يصفقن وجوههن وصدورهن بنعلين ، يدل على ذلك قول عبد مناف بن رِبْع الهذلى :

يريعُ قلبَ ابنتىْ رِبْع عويلهما لا ترقدان ، ولا بؤسَى لمن رقدا

كلتاهما أَبْطنت أحشاؤها قصباً من بطن حَلْيَةَ لا رطْبا ولا نَقداً

إذا تأوب نوحٌ قامتا معه ضرباً أليما بِسِبْتٍ يَلْعَجُ الجِلَدا[5]

ويدل على ذلك أيضاً قول الخنساء فى رثاء أخيها معاوية :

ولكنى رأيت الصـــبر خيراً من النعلين والرأس الحليق[6]

هذه الفجيعة العظمى التى تفجع بها الزوجة ، فتهيجها وتفقدها رشدها حلت بالمرأة اليونانية أيضاً فأحست بأنها أشد وأدهى من فجيعة الأب بابنه والأم بابنها ، قالت أندروماخ إن مصابها بقتل هكطور أشد من مصاب أبيه وأمه وأقاربه :

---

(١) ديوان طرفة ٣٥ (٢) حماسة البحترى ٥ .

(٣) العقد الفريد ٣/٢١١ (٤) المغازى ١١٦ .

(٥) الكامل للمبرد ٣/٢٦٣ ابنتا ربع : أختاه . قصبا : مزمارا يريد أنهما لنواحهما كأن فى جوفهما مزمارا . لا رطباً ولا نقداً : ليس القصب رطباً يكتم الصوت ولا متآكلا يسرع إليه العطب فيخفى الصوت . تأوب نوح : عاودهن نوح فى جنح الليل . سبت : نعل. يعلج : يهيج . الجلد : الجلد ، والكلمة بسكون اللام وتحريكها كما فى القاموس .

(٦) لسان العرب ١١/٣٤٥ وديوان الخنساء ١٧٣ .

جلّ عن واجب التأسّى أساكا ولقد هدّ والديك رداكا
إنما لى فوق الجميع شجاكا[١]

ولما جاء الإسلام نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الغلو فى الحزن ، فقال ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية[٢] ، وروى عنه أنه برىء من الصّالقة والحالقة والشّاقّة[٣] .

٥ — وكثيراً ما كانت الزوجة ترثى زوجها ، تصور فى رثائها لوعتها وفجيعتها ، وتتحدث عن مآثره فى قومه . قالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية فى رثاء زوجها الجراح إنها تلتذ البكاء بدموع غزار تتحدر من جوانب عينيها ، فقد كان ملاذها وتركها بغير ملاذ ، وكان أبياً حميّا تعتز به ، وتحتمى بسلطانه ، وتمشى مختالة فى الناس ، ولكنها اليوم ذليلة تخضع للذليل ، ويُعْتدى عليها ، فتضطر إلى أن ترد المعتدى بيدها :

ياعين بكّى عند كل صباح جودى بأربعة على الجراح
قد كنتَ لى جبلا ألوذ بظله فتركتنى أضْحى بأجردَ ضاح
قد كنتُ ذات حمية ما عشتَ لى أمشى البَرازَ وكنت أنتَ جناحى
فاليوم أخضع للذليل وأتقى منه وأدفع ظالمى بالرّاح
وأغض من بصرى وأعلم أنه قد بان حدّ فوارسى ورماحى
وإذا دعت قمرية شَجَنا لها يوماً على فنن دعوت صباحى[٤]

وقد تمثلت السيدة عائشة بهذه الأبيات بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم[٥]

---

(١) الألياذة ١١٤٥ (٢) شرح المبدى من مختصر الزبيدى ٢/٣٥ .
(٣) شرح المبدى ٢/٣٦ الصالقة : الرافعة صوتها فى المصيبة . الحالقة : التى تقص شعرها حزناً . الشاقة : التى تشق جيبها حزناً .
(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٨٩ والأمالى ٢/١ جودى ٢/١ جودى بأربعة : بالموقين واللحاظين أو يشقون أربعة . دعوت صباحى : قلت واسوء صباحى .
(٥) الأمالى ٢/١ .

وصورت جليلة بنت مرة فجيعتها فى زوجها كليب ، ووجيعتها من قتل أخيها جساس له ، بقصيدة حارة ، يهمنا منها هنا أن قتل زوجها قوض بيتها ، وهدم أملها ، ورماها فأصماها ، وأحرقها بنار الهم والحزن ، حتى لقد تمنت لو أن حياتها كانت فداء لزوجها :

جلَّ عندى فعل جساس فيا ... حسرتى عما انجلت أو تنجلى
فِعْلُ جساس على وجدى به ... قاطع ظهرى ومدنٍ أجلى
ياقتيلا قوض الدهر به ... سقف بيتىَّ جميعاً من عل
هدم البيت الذى استحدثته ... وانثنى فى هدم بيتى الأول
ورمانى قتله من كثب ... رمية المُصْمى به المستأصل
يا نسائى دونكن اليوم قد ... خصنى الدهر برزء معضل
خصنى قتل كليب بلظى ... من ورائى ولظى من أسفل
ليته كان دما فاحتلبوا ... دِرَراً منه دمى من أكحلى[1]

أما حديثهن عن شجاعة الزوج ، وبلائه فى الحروب ، وسيادته ، وكرمه ، ومحامده فإنه لايغاير ماردده الرجال فى مراثيهم ، كرثاء خِرْنِق لزوجها[2] ، ورثاء الخنساء مرداس السامى[3] ، ورثاء دختنوس لزوجها عمير بن معبد بن زرارة[4]

ولم تختلف الزوجات المسلمات عن هؤلاء فى شىء[5] ، وسأفصل القول فى ذلك فى (شعر المرأة) .

---

(١) أشعار النساء مخطوط ٣/٥٠ والوحشيات ١٠٧ مخطوط والكامل لابن الأثير ١/٢١٦ والأغانى ٥/٦٣ ونهاية الأرب ٥/٢١٤ .

(٢) ديوان خرنق ٣ ــ ٥ مخطوط وأشعار النساء مخطوط والأمالى ٢/١٥٨ .

(٣) ديوان الخنساء ١٩٧ وبلاغات النساء ١٦٨ والأغانى ١٣/٧٢ .

(٤) الشعر والشعراء ٢٧٢ .

(٥) مثل رثاء عاتكة بنت نفيل لأزواجها الأربعة (الحماسة البصرية ٨٤ مخطوط وحسن الصحابة فى شرح أشعار الصحابة ١/٢٩٤ ورثاء الرباب لزوجها الحسين بن على (الأغانى ١٤/١٥٨) .

ممرد

ليس من الطبيعى أن يطرد حسن العشرة فى النساء جميعاً ، وأن يكن كلهن على طراز من الخلق الكريم ، وإنما الطبيعى أن يتفاوتن فى ذلك ، وأن يكون بعضهن جاسيات الطبع ، نابيات العشرة .

وقد تحدث الشعر عن هؤلاء أيضاً ، كما تحدث عن الصالحات .

١ — فالمرأة قد تَشْغَب على زوجها ، كما يقول عامر بن الطفيل إن زوجته أصبحت تلومه على غير ذنب ، وإذا ماردّ عليها دعوى أتته بأخرى ، وهذا ضرب من المعاملة لايرضاه ــ على أنه مازال فى طبع بعض النساء إلى اليوم — ثم يرى أنه لا خير فى صلة وهت أسبابها وتزايلت عراها :

وقد أصبحت عرسى الغداة تلومنى على غير ذنب هجرها وصدودها

فإنى إذا ماقلت : قُولى ، فانقضى أتتنى بأخرى ، خطةٌ لا أريدها

فلا خير فى ود إذا رَثَّ حبله وخيرحبال الواصلين جديدها[١]

ويقول عمرو بن قميئة إن زوجته قد ارتحلت إلى أهلها مغضبة ، وهو راض عن فرقتها هذه ، بل يدعو عليها بالهلاك ، ويقول إنها قد شغبت عليه ، فلا بد أن يقابل شغبها بمثله ، فقد جرب معها اللين والدمائة ، فلم تكن لينة ولا دمثة :

فبينى على نجم شَخيسٍ نُحوسُه وأشأمُ طير الزاجرين سنيحها

فإن تشغبى فالشّغْب منى سجية إذا شيمتى لم يؤتَ منها سجيحها[٢]

ويتحدث أعشى بنى مازن أو بنى حرماز (الحارث بن قراد بن سفيان) عن شغب زوجته شاكياً إلى ملك من ملوك العرب ، فيقول إنه خرج يبتغى من خيرات الأرض ، فنازعته زوجته ، وهربت إلى قومها ، ناكثة بعهدها ، ويختم شكواه بأن النساء شر غالب للرجال :

---

(١) ديوان عامر القصيدة ٦

(٢) ديوان عمرو بن قميئة ١٤ شخيس نحوسه : متعدد شؤمه . سجيح : لين سهل .

يا سيد الناس وديّانَ العربْ إليك أشكو ذِرْبَةً من الذِّربْ
خرجتُ أبغيها الطعام فى رجب فخلّفتنى بنزاع وهـرب
أخلفت العهد ولطّت بالذّنَبْ وهن شر غالب لمن غلب(١)

٢ — وقد تتبرم بفقر زوجها ، ونحن نعلم أن العرب عاشوا كما عاش غيرهم متفاوتى الفقر والغنى ، وأن الفقر كان أكثر شيوعاً وأوسع دائرة . وكثيراً ماشكا بعضهم آلام الفقر ، وضاقوا ببرم الناس بالفقير أو استهانتهم به ، وكثيراً ما شكا بعضهم تبرم الزوجات بفقر بعولتهم ، فمثلا عروة بن الورد يزيده ضجراً أن تجتوى الزوجة زوجها الفقير، لأن تنكرها له أشد عليه مرارة من تنكر الناس :

ذرينى للغنى أسـعى فإنى رأيت النـاس شرهم الفقير
وأهـونهم وأحقرهم لديهم وإن أمسى له نسب وخِير
ويُقْصَى فى النّدىِّ وتزدريه حليلتـه وينهره الصغـير(٢)

ويشتد البرم بعبيد بن الأبرص فلا يحفل فراق زوجته التى قَلَتْهُ لفقره ، وأساءت عشرتها له :

تلك عرسى غضبى تريد زِيالى ألبـين تريد أم لدلال ؟
إن يـكن طبّك الفراقُ فلا أحفل أن تعطفى صدور الجمال
كنت بيضاء كالمهـاة وإذ آ تيـك نشوان مُرْخِياً أذيالى
فاتركى مط حاجبيك وعيشى معنـا بالرجاء والتّـأمال
زعمْت أننى كبرت وأنى قل مالى وضنَّ عنى الموالى(٣)

ومنّى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل زوجتيه ـ وقد سألتاه الطلاق لما افتقر ـ

---

(١) معجم الشعراء ١٥ الذربة : السليطة اللسان . لطت بالذنب : أصرت على الجد فى رحلتها وفرقتها .

(٢) ديوان عروة ٢٠ والبيان والتبيين ١/١٩٨ وشعراء النصرانية ٨٨٨ .

(٣) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١/٢٣٦ .

بأن ماله قد يكثر، فيقتنى العبيد والخدم والإماء، و يمتعهما ويكسوهما أنفس الكسا:

تلك عرساى تنطقان على عمـــد لى اليوم قول زور وهَتْر

ســالتانى الطلاق أن رأتا مــا لى قليلا ، قد جئتمانى بنُكْر

فلعلى أن يكثر المال عندى ويُعَرَّى من المغــارم ظهرى

وتُرَى أعبــد لنا وأواقٍ ومناصيف من خوادم عشر

وتجُرّا الأذيال فى نعمــة زَوْ ل تقولان : ضع عصاك لدهر[١]

ولقد عبست أم حبيش فى وجه زوجها ذى الخِرَق (خليفة بن حمل بن عامر) وخاصمته ، لأنه افتقر ، ورأت إبله مهزولة لا تحمل إلا خرقاً ، وحضته على أن يجهد فى كسب المال :

ما بال أم حبيش لا تــكلمنا لما افترقنا وقــد نُثْرِى فنتفق

تُقَطِّع الطرف دونى وهى عابسة كما تشاوسَ فيك الثائر الحنق

لمــا رأت إبلى جاءتْ حمولتها غَرْثَى عِجافاً عليها الريش والخِرق

قالت ، ألا تبتغى مالا تعيش به عما نلاقى وشر العيشة الرَّمق[٢]

وكذلك حضت تماضر زوجها عروة بن الورد[٣] ، و بذلك تحدث تأبط شرا[٤] وعبيد[٥] وجابر الطائى[٦] .

و يظهر أن هذه الخصلة لم تزايل المرأة بعد العصر الجاهلى ، فقد تحدث أعشى همذان عن تبرم زوجته بفقره :

قالت تعــاتبنى عرسى وتسألنى أين الدراهم عنــــا والدنانير ؟

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٣٥ وفى الأغانى ١٦/٦٠ أن الشعر لنبيه بن الحجاج السهمى . مناصيف : ج منصف وناصف وهو الخادم ، زول : ظريف .

(٢) المؤتلف والمختلف ١١٠ وخزانة الأدب ١/٢٧ تشاوس : نظر بمؤخر عينه . غرثى جياع . الرمق بكسر الميم وفتحها الشىء القليل الذى يحفظ بقية الحياة .

(٣) ديوان عروة ٩ (٤) الحماسة البصرية ١٢ مخطوط .

(٥) البيان والتبيين ١/٢٣٦ (٦) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٣٠٤ .

فقلت أنفقتهـا والله يخلفها   والدهر ذو مرّة عسرٌ وتيسير
إن يرزق الله أعدائى فقد رُزقتْ   من قبلهم فى مراعيها الخنازير
قالت : فرزقك رزقٌ غير متسع   وما لديك من الخيرات قِطْمير
وقد رضيت بأن تحيا على رَمَق   يوما فيوما كما تحيا العصافير[1]

لهذا لما سألت السيدة عائشة رسول الله شيئاً من عرض الدنيا زيادة فى النفقة أو غيرها[2] نزل قوله تعالى : « يأيها النبى قل لأزواجك : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعـكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منـكن أجراً عظيما »[3] فعرض ذلك على زوجاته ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة[4] .

٣ — ولقد تتبرم بشيبه وكبرة سنه ، وقد اتفق علقمة بن عبدة[5] وامرؤ القيس[6] والأعشى[7] وعنترة[8] وعبيد بن الأبرص[9] والأسود بن يعفر[10] وغيرهم من شعراء الجاهلية ، ثم كثير من شعراء الإسلام كجران العود النُّمَيْرى وعمر بن أبى ربيعة ، اتفق هؤلاء على أن الشباب والمال — ومايستتبعان من مجد ومحامد ومتعة طبعا — هما وسيلة اجتذاب المرأة ، ونيل إعجابها .

وربما كانت المرأة أكبر بغضة للشيب من الفقر ، لأن الفقر عارض قد يزول ، وأما الشيب فإنه وافد لا يبرح ، وتشتد وطأته حينا بعد حين .

يقول علقمة إنه بصير بنفسية النساء ، عليم بأنهن لا يقبلن على أشيب أو معدم ، وإنما يقبلن على الثرىّ وعلى الغَنِىّ :

---

(١) الحيوان للجاحظ ٧/٦٢   (٢) تفسير الطبرى ٢١/٩٩ .
(٣) سورة الأحزاب ٢٨ و٢٩ (٤) الطبقات الـكبير ٨/٤٧ وتفسير الطبرى ٢١/٩٩
(٥) ديوان علقمة ٣ وعيون الأخبار ٤/٤٥ وحماسة البحترى ٢٨٩ والعقد الفريد ٣/٢١٨ والمفضليات ٢/١١٩ والشعر والشعراء ٥٩ .
(٦) ديوان امرئ القيس ٩٨   (٧) ديوان الأعشى ١٥١ ومعجم البلدان ٢/١٣٨
(٨) ديوان عنترة ٥٦   (٩) ديوان عبيد القصيدة ٥و١٣
(١٠) المفضليات ٢/٢١٨ .

فإن تسألونى بالنساء فإننى بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس له من ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيثُ علمنه وشَرْخ الشباب عندهن عجيب[١]

وقد أعجب أبو عمرو بن العلاء بهذا الرأى، وقال إن صاحبه أعلم الناس بالنساء[٢].

تحدث الشعراء بكراهية زوجاتهم لشيبهم، وهرمهم، فمثلا يقول عبيد بن الأبرص إن زوجته تعرض عنه، وتغلظ فى مقالها له، وتمط حاجبيها، لأنها تراه قد كبر:

ألا عتبت علىّ اليوم عرسى وقد هبت بليل تشتكينى
فقالت لى: كبرتَ فقلت هنّا لقد أخلفتُ حيناً بعد حين
تر ينى آية الإعراض منها وفظّت فى المقالة بعد لين
ومطتْ حاجبيها أن رأتنى كبرتُ وأنْ قد ابيضت قرونى[٣]

ويحدثنا المثقب العبدى أو عابة بن زيد بأن زوجته سخرت منه لما رأت شيبه، وجفته وهجرته:

تهزأت عرسى واستنكرت شيبى ففيها جَنفٌ وازورار
لا تكثرى هُزْءا ولا تعجبى فليس بالشيب على المرء عار[٤]

الإسلام يوصى المرأة بزوجها

أقام الإسلام الحياة الزوجية على دعائم من التعاطف والمشاركة القلبية والثقة المتبادلة والهناءة المستطاعة، وقد أسلفت أن النبي عليه الصلاة والسلام كان حفياً بالزوجات، يوصى بهن الرجال خيراً. وهو كذلك طالما أوصى النساء بأزواجهن[٥]،

---

(١) المفضليات ٢/١٩٢ (٢) العقد الفريد ٣/٢١٨.
(٣) ديوان عبيد القصيدة ١٣ هنا: تنحى وابعدى (٤) الحماسة البصرية ١٠ مخطوط
(٥) كنز العمال ٨/٢٦١ ــ ٢٦٨و٣٠٢ ــ ٣٠٤.

كقوله : « إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع » [١]. وقوله : « انظرى أين أنت منه إنما هو جنتك ونارك » [٢]. وقوله: « خِدْمتك زوجك صدقة [٣] » . وقوله : « خير النساء من تسرك إذا أبصرت ، وتطيعك إذا أمرتَ ، وتحفظ غيبتك فى نفسها ومالك » [٤] .

تعدد الزوجات

وحدة الزوجة

١ — جرى العالم على وحدة الزوجة ، وعلى تعدد الزوجات ، وقديماً اشترط لابان على يعقوب ألا يقترن بغير ابنته [٥] .

وكانت الأسر الشريفة فى مصر و بابل تشترط على الزوج فى عقد الزواج ألا يقرب الجوارى والإماء . وفى أوراق البردى التى كشف عنها فى أسوان عقد زواج ينص على تعهد الزوج ألا يقترن بامرأة أخرى غير زوجته ، فإن فعل قدّم لها غرماً [٦] . ويذكر ديودور الصقلى أن الكهنة فى مصر كانوا يقتصرون على زوجة واحدة ، أما سائر الشعب فإنهم كانوا يعددون الزوجات ، ويختارون منهن من يشاءون ، على أن هيرودوت ذكر من قبله أن المصرى كان مثل اليونانى يقتصر على زوجة واحدة [٧] ، ومن الممكن أن نرجع هذا التباين إلى أن ديو دور جاء بعد هيرو دوت بأربعة قرون ، فمن المنتظر أن تكون العادات التى شهدها هيرودوت قد اندثرت أو تزعزعت .

وسار الإسبراطيون على نظام آخر ، ذلك بأنهم لم يسمحوا للرجل أن

---

(١) كنز العمال ٨/٢٦١
(٢) كنز العمال ٨/٢٦١ .
(٣) كنز العمال ٢٦٧
(٤) كنز العمال ٨/٢٦٧ .
(٥) سفر التكوين إصحاح ٣١ آية ٥
(٦) النظم الاجتماعية والسياسية ٧٣
(٧) الحضارة المصرية . لوبون ٧٠ .

يتزوج غير واحدة إلا فى ظروف خاصة ، ولكنهم أباحوا المرأة أن تتزوج عدة رجال فى وقت واحد ، وكانت النساء جميعاً تقريباً يمارسن هذه العادة [١] .

ولم يستطع الباحثون أن يقروا أى النظامين كان أسبق : وحدة الزوجة أم تعدد الزوجات ؟ فبعضهم يرى أن الزواج بواحدة كان هو الأصل عند آبائنا الأقدمين ، وآخرون يخالفون هذه النظرية ، ويذهبون إلى أن المجتمع ابتدأ بتعدد الزوجات ، ويعزز باخوفن Bachofen هذا الرأى ، ويرى أن النساء ثرن على هذا النظام فجنح الرجال إلى وحدة الزوجة [٢] .

٣ — أما العرب فقد اقتصر بعضهم على زوجة واحدة ، واشترط بعض الآباء وبعض النساء على الرجل ألا يتزوج بأخرى . يقول عدى بن زيد :

بنات كرام لم يُرَبْنَ بضَرَّة ... دُمًى شرقاتٍ بالعبير روادعا [٣] .

وجاء فى حديث بين الجعفاء بنت علقمة وثلاث نسوة قول إحداهن : « خير الرجال الذى يكرم الحرة ولايجمع الضرة» [٤] ، ورفضت ماوية بنت عفزر أن تتزوج حاتما الطائى بعد أن اختارته وآثرته على خاطبيها إلا على شرط أن يسرح زوجته ، فأبى ، فلما ماتت زوجته رضيته وتزوجته [٥] .

كذلك استوثقت حَرْقَفة البلوية من خاطبها مُرَّة بن عوف ألا يتزوج عليها — وكان زوجا لمُلَيْكه بنت خُصَيْلة المرّية — فحلف لها وأغلظ الحلف ألا يتزوج غيرها ، فرضيته ، ثم خرج بها يسير حتى نظرا نيران أهله ، فقالت حرقفة : ما هذه النيران ؟ فقال : أما هاتيك فنار بنىّ وامرأتى ، فقالت : أغدرا من أول ليلة ؟ قال : ما غدرت بك ، ولكنى غدرت بسواك [٦] .

---

(١) مركز المرأة فى الإسلام ٢٦ وتاريخ اليونان ، جرون ٦/١٣٦ .

(٢) The Paychology of marriage P. 287. waltr. m, gallichan.

(٣) الأغانى ٢/١٥٠ . روادع : فيهن أثر الطيب .

(٤) جمهرة الأمثال ١٦٢ . (٥) الأغانى ١١/١٠٤ .

(٦) شرح الحماسة للتبريزى ١/٢٠٢

تعدد الزوجات

كان التعدد وما زال نظاما طبيعياً ، كثيراً ما تلجىء إليه الضرورات ، « وقد ظن رجال الدين فى العصور الوسطى أن التعدد نظام ابتكره النبى محمد ابتكاراً لم يسبق إليه[١] » ، ولكنهم مخطئون جد الخطأ ، لأن التعدد أسبق من الإسلام بمئات الأعوام .

ذلك بأن الأمم القديمة كانت تعدد الزوجات ، فالعبريون عددوا منذ عهد قديم[٢] يدل على ذلك أن التوراة أباحته ، ولم تحدد العدد ، ثم حدد التلمود العدد[٣] ، وما روى عن كثرة عدد نساء سليمان[٤] ، ثم عددوا فى عصر متأخر ، ولكنهم اشترطوا على الزوج أن يعدل بين نسائه ،فلا يقبل على واحدة و يعرض عن أخرى .

وحدد الربانيون العدد بأربع ، مستدلين بأن يعقوب جمع بين أربع ، وذهب بعض العلماء إلى منع التعدد ، ورأى بعضهم إباحته إذا عقمت المرأة الأولى[٥] .

وظل اليهود يعددون زوجاتهم فى أوروبا إلى القرون الوسطى ، وهم لا يزالون يمارسون التعدد إلى اليوم فى العالم الإسلامى[٦] .

وكانت تعاليم زرادشت تخول الفرس أن يعددوا زوجاتهم ، وأن يتخذوا الحظايا والخليلات ، لأن الشعوب المحاربة فى حاجة دائمة إلى الفتيان[٧] . لذلك عدد الفرس ولم يكن عندهم قانون يمنع التعدد أو يحدده[٨] .

---

(١) قصة الحضارة ، ول ديوانت ١/٧٠

(٢) حضارة العرب لوبون ٤٨٣ وقصة الحضارة ١/٧٠ .

(٣) النظم الاجتماعية والسياسة ٦٨ .

(٤) سفر التثنية إصحاح ١٧ وتاريخ الطبرى ١/٢٦٠ .

(٥) شعار الخضر ٨٣ (٦) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٨ .

(٧) قصة الحضارة الفارسية ٥٨ و ل دورانت .

(٨) مركز المرأة فى الإسلام ٤٤ وحضارة العرب ٤٨٣ .

وقد عدد الرومان ، ويكفى أن نعلم أن الإمبراطور سيلا جمع خمس نساء ، وأن قيصر جمع بين أربع ، و بومبى جمع أربعا . وأن ملك فرنسا داغو برت الأول جمع بين ثلاث[١] :

أما المسيحيون فقد تحايل بعضهم على الشريعة وعدد كالإمبراطور قسطنطين وابنه[٢] بل إن الأمبراطور فلافيوس فالنتيان **Flavius Valentinien** سن قانوناً يبيح التعدد ، وكان ذلك فى منتصف القرن الرابع الميلادى[٣] ، أباح فيه لرعايا الدولة جميعاً أن يتزوجوا عدة زوجات إذا شاءوا ، ولم يحتج الأساقفة ورؤساء الكنائس المسيحية . ومارس التعدد الأباطرة الذين خلفوا فالنتيان ، واستمر العمل بقانونه إلى عصر جستنيان ، حيث حرم التعدد ، على أنه لم ينجح فى تحريمه ، ولم يكن فى هذا التحريم متأثراً بالمسيحية ، لأن أكبر مستشاريه كان غير مسيحى ، لذلك لم يخضع لتحريم التعدد إلا قلة من المفكرين ، أما أكثر الشعب فلم يعيروه طاعة[٤] .

ونحن نعلم أن المنذر بن الحارث بن أبى جبلة الغسانى كان بطريقاً وحامياً للكنيسة الشرقية ، ولكنه قد تزوج نساء كثيرات ، وكذلك النعمان ملك الحيرة تزوج عدة نساء حتى بعد تنصره ، ويظهر أن الكنيسة لم تكن تبالى ذلك ما دام هؤلاء الأمراء غير متزوجين كنسياً إلا بواحدة[٥] .

وكان مصرحا للأثينى أن يتزوج أى عدد من النساء ، حتى لقد افتخر ديموسين بأن فى عصمته ثلاث طبقات من النساء ، طبقتان منهما تعتبران الزوجات الشرعيات ، والشبيهات بالشرعيات[٦]

---

(١) باكورة الكلام على حقوق النساء فى الإسلام ٧٤ .
(٢) مركز المرأة الإسلام للسيد الأمير على ٤٢ .
(٣) Histoire Des PaPes. Tome . 1.P. 255.
(٤) مركز المرأة فى الإسلام ٤٢ (٥) أمراء غسان . نولدكه ٣١ .
(٦) مركز المرأة فى الإسلام ٢٠ و ٣٦ .

وقد سبق أن المصريين فى عهد ديودور كانوا يعددون ، وكان نبلاؤهم يستمتعون بالإماء وما ملكت اليمين[١] .

على أن شعوبا أخرى كانت تمارس التعدد كالهندوس القدماء والميديين والبابليين والأشوريين[٢] .

٢ — لاعجب إذا فى أن يعدد العرب فى الجاهلية ، وفى أن يشيع هذا النظام بينهم ، فيمارسه من تواتيه ظروفه ، أو تلجئه حاجة ، أو يتوقع منه خيراً ، فقد بزغ الإسلام وفى ثقيف رجال عند كل منهم عشر نسوة ، كمسعود بن معقب وعروة بن مسعود وسفيان بن عبد الله وأبى عقيل مسعود بن عامر وغيلان بن سلمة، فلما أسلم غيلان وسفيان وأبوعقيل نزل كل منهم عن ست وأمسك أربعا[٣] ، وكان عند قيس بن الحارث ثمانى نسوة ، وعند نوفل بن معاوية خمس ، فخيرهما النبي فى أربع[٤] ، وقد كان لعبد عبد المطلب بن هاشم ست نسوة ، ولدن له عشرة رجال وست نساء[٥] ، وكان عند أبى سفيان بن حرب ست ، وعند صفوان بن أمية ست أيضاً[٦] . وكان المغيرة بن شعبة قد تزوج سبعين امرأة[٧] وقد ألف أبو الحسن المدائنى كتابا فيمن جمع أكثر من أربع[٨] .

عداء الضرائر :

التعدد نظام اجتماعى شائع فى الأمم ، لكن شيوعه لم يكن كفيلا ، ولن يكون كفيلا بالتخفيف من تباغض الضرائر وتحاسدهن ، لهذا كانت الزوجة

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٨ والحضارة المصرية القديمة . لوبون ٧١ .

(٢) مركز المرأة فى الإسلام ٣٤ .

(٣) المحبر ٣٥٧ ومجمع الأمثال للميدانى ١/٣٥ (٤) عيون المسائل ٥٦ .

(٥) سيرة ابن هشام ١/١١٩ (٦) الإصابة ٨/١٣٩ .

(٧) كنز العمال ٨/٢٨٨ وفى الأغانى ١٤/١٣٧ أنه تزوج ثمانين أو تسعاً وثمانين أو ثلاثاً وتسعين .

(٨) معجم الأدباء ١٤/١٣٣ والفهرست ١٠٢ .

تفجع بالضرة ، وكان بعض النساء يشترطن على الزوج ألا يضارهن بأخرى كما سبق .

وكان عداء الضرائر معهوداً معلوماً ، حتى إن بنت مرة بن عاهان لما قتلته باهلة لم تجد ما تشبه به ما بينهم وبين باهلة من بغضة إلا داء الضرائر :

إنا وباهلة بن أعْصُر بيننا داء الضرائر بغضةٌ وتنافُ[1]

وكانت المودة لا تصفو بين ضرتين ، وكثيرا ما تشغب الأولى ، فمثلا كانت الورثة بنت ثعلبة زوجة لذهل بن شيبان ، وكان كلما تزوج امرأة شارَّتها الورثة وضربتها وأجْلتها ، فلما تزوج رقاش بنت عمرو تحرشت بها الورثة ، ثم وثبت عليها لتضربها ، فأمسكتها رقاش وغلبتها ، فقالت الورثة .

يا ويح نفسى اليوم أدركنى الكبَرْ أأبكى على نفسى العشية أو أذرْ ؟
فوالله لو أدركت فىَّ بقية للاقيت ما لاقى صواحبك الأخرْ[2]

على أن الأزواج كانوا أحياناً يؤدبون زوجاتهم بالضرائر ، ويعاقبونهن بالتعدد ، يدل على ذلك قول الطهوى :

لقد خشيت أن يقوم قابرى ولم تمارسك من الضرائر
ذاتُ شذاةٍ جَمَّة الصراصر حتى إذا جرَّس كلُّ طائر
قامت تُعَنْظى بك سمع الحاضر تُصرُّ إصرار العُقاب الكاسر[3]

ثم إن المرأة تحدثت بغيرتها فى غير مواربة ، من ذلك أن ليلى بنت الخطيم وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم فقبل ، ثم عادت إلى قومها تخبرهم فقالوا : أنت امرأة غيرَى ، وهو صاحب نساء ، ارجعى فاستقيليه ، فرجعت وقالت :

---

(١) طهارة العرب ٣٢ باهلة .

(٢) أمثال العرب للضبى ٥٥ ومجمع الأمثال للميدانى ١/٩٩ .

(٣) طهارة العرب ٣٢ ذات شذاة ، ذات خصومة وحدة . جمة الصراصر : الصراصر جمع صرصرة وهى الصوت الشديد ، والمراد صخابة جهارة بالسوء من القول . جرس : صوت والمراد الصياح الباكر . تعنظى : تذكرك بالفحش لتسمع الحى . تصر : تنصب أذنها للاستماع

إنك نبي الله وقد أحلَّ لك النساءَ ، وأنا امرأة طويلة اللسان ، لاصبر لى على الضرائر ، فأقالها [(١)] .

ولما خطب النبي هند بنت أبي أمية القرشية المخزومية قالت له : فيَّ خلال ثلاث : أنا كبيرة السن ، وأنا امرأة معيلة ، وأنا امرأة شديدة الغيرة . فقال : أنا أكبر منك سناً ، وأما العيال فإلى الله ، وأما الغيرة فأدعو الله فيذهبها عنك ، وتزوجها [(٢)] :

ولم يكن الإسلام والتدين بقدير على أن يجتث من المرأة غيرتها ، ومن الشطط أن تتطلب منه ذلك ، وإلا فما بال عائشة أم المؤمنين كانت غيرى شديدة الغيرة ؟ كانت تظهر غيرتها فيما تقول وفيما تعمل [(٣)] . من ذلك قولها : دخل عليَّ رسول الله فقلت : أين كنت ؟ قال : يا حميراء كنت عند أم سلمة ، فقلت ما تشبع من أم سلمة ، فتبسم . فقلت : ألا تخبرنى عنك لو أنك نزلت بُعْدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رعيت ، أيتهما كنت ترعى ؟ قال : التى لم ترع . قلت : فأنا ليس كأحد من نسائك ، كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل غيرى ، فتبسم رسول الله [(٤)] .

وكانت تغار حتى من ضرتها المتوفاة،التى توفيت قبل أن تكون هى زوجة ، ذلك بأن النبي كان عظيم الوفاء والحب للسيدة خديجة ولذكراها ، وكانت السيدة عائشة تغار من ذلك ، قالت : «ماغرت على امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما غرت على خديجة ، لكثرة ذكر رسول الله إياها وثنائه عليها [(٥)] . ولم تضبط غيرتها يوماً ، وقد سمعت الرسول يكثر من ذكر خديجة ويطريها ، فقالت : هل كانت إلا عجوزاً ؟ فقد أبدلك الله خيراً منها . فغضب وقال : والله ما أبدلنى الله خيراً منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتنى وكذبنى الناس ، وواستنى فى

---

(١) الإصابة ٨/١٨١ (٢) الإصابة ٨/٢٠٣ والطبقات ٨/٦٣.
(٣) أخبار النساء ٩ وعيون الأخبار ٤/١٩ .
(٤) الطبقات ٨/٥٥ وفتح المبدى ج ٣ (٥) فتح البارى ٩/٢٨٥ .

مالها إذ حرمنى الناس . » قالت عائشة : فقلت فى نفسى : لا أذكرها بسيئة أبداً [١] .

وقد اتفقت عائشة وسودة وصفية — حين علمن أن النبى مكث عند حفصة أطول مما كان يمكث ، وشرب عندها عسلا — على أن يدعين أن فى فم النبى رائحة مغافر ، فآلى ألا يذوق العسل [٢] ، فنزل قوله تعالى : « يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم » [٣] وسواء أكان هذا هو السبب فى نزول الآية ، أم كان السبب أن النبى خلا بجاريته مارية فى يوم حفصة ببيتها أو فى يوم عائشة ، فما زالت به حتى حلف ألا يقربها [٤] ، سواء أكان هذا أم ذاك ، فإن الغيرة محققة فى الحالين ، لأنهن أردن تبغيض عسل صفية إلى النبى ، فزعمن أنه مغافر [٥] ، أو أردن الحيلولة بينه و بين جاريته مارية.

وربما كان الرجل يبرع فى حيلة لطيفة يطفىء بها جذوة من الغيرة ، كما فعل عبد الله بن رواحة ، ذلك بأنه أصاب جارية له ، فسمعت به امرأته ، فأخذت شفرة وأتته فقالت : أفعلتها يابن رواحة ؟ قال ما فعلت شيئا . فقالت : لتقرأن قرآنا و إلا بعجتك بها . قال : ففكرت فى قراءة القرآن ، وأنا جنب فهبْت ذلك ؛ وهى امرأة غَيْرَى وفى يدها شفرة، لا آمن أن تأتى بما قالت، فقلت:

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه	إذا استثقلتْ بالكافرين المضاجع

فلما سمعت ألقت السكين ، وقالت : آمنت بالله وكذبت البصر . ثم أتيت

(١) أسد الغابة ٥/٤٣٨ والاستيعاب ٢/٧٤١ .
(٢) الطبقات ٨/٥٩ وتفسير الطبرى ٢٨/١٠٢ وتفسير النيسابورى ٢٨/٩٩ .
(٣) التحريم ١ (٤) تفسير الطبرى ٢٨/١٠٠ والنيسابورى ٢٨/٩٩ والجلالين ٤٧٦
(٥) المغافر : شىء ينضحه الثمام والعشر والعرفط مثل الصمغ وهو حلو كالعسل يؤكل ولكن له رائحة كريهة (القاموس مادة غفر وغثر وتفسير النيسابورى ٢٨/٩٩) .

النبي فأخبرته بذلك ، فضحك ، وأعجبه ما صنعت[١] .

على أن بعض الرجال فى الإسلام كان يتحامى هذه الحياة المشوبة ، من هؤلاء أعرابى شاعر يصور فى أسلوب فكه بلواه من زواج اثنتين ، ويوصى بالعزوبة :

تزوجت اثنتين لفرط جهلى ... بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت : أصير بينهما خروفا ... أنَعَّمَ بين أكرم نعجتين
فصرت كنعجة تُضْحى وتُمْسى ... تُداول بين أخبث ذئبتين
رضا هذى يُهيج سخط هذى ... فما أعرى من احدى السّخطتين
وألقى فى المعيشة كل شرٍ ... كذاك الضُّر بين الضَّرتين
لهذى ليلة ولتلك أخرى ... عتاب دائم فى الليلتين
فإن أحببت أن تبقى كريماً ... من الخيرات مملوء اليدين
فعش عَزَباً فإن لم تستطعه ... فضرْباً فى عِراض الجحْفلين[٢]

هل فى التعدد منقصة للمرأة ؟

عرفنا أن الأمم كانت تمارس تعدد الزوجات ، وأنه لم يكن مقصوراً على عرب الجاهلية ، ولم يكن بدعة إسلامية ، بل إن الاسلام حدد العدد المطلق ، وأوصى بالمعدلة بين الزوجات .

وقد ظهر لكثير من الباحثين والمؤرخين وعلماء الانتوجرافيا ، كالأساتذة وسترمارك،وهو بوز،وهيلير،وجنسبرج(**westermarck, Hoboose, mheeler and Gensberg**)أن هذا النظام لم يبد فى صورة واضحة إلا فى الشعوب المتقدمة

---

(١) أخبار النساء ٤٤ .

(٢) الأمالى ٢/٣٥ وسمط اللآلىء ٢/٦٦٩ ضرباً فى عراض الجحفلين : تعرض الموت والاستشهاد .

فى الحضارة ، وأنه قليل الانتشار أو معدوم فى الشعوب البدائية المتأخرة[١] .

ويعزز لوى Lowie ذلك بقوله فى تحليله العوامل النفسية لتعدد الزوجات :
إن هذا النظام ليس دليلا على انحطاط المرأة ، أو على الشعور بضعتها ومهانتها ، وليس الدافع إليه الانغماس فى الشهوة والتهالك عليها ، إذ قد يحدث أن تدفع المرأة زوجها إلى الاقتران بأخرى ، لشدة رغبتها فى طرح جزء من أعباء واجباتها المنزلية على عاتق امرأة أخرى ، وقد يكون الدافع إليه الرغبة الطبيعية فى النسل وكثرة الذرية[٢] .

وكذلك يذهب جستاف لوبون إلى أنه نظام حسن ، يرفع المستوى الأخلاقى فى الأمم التى تدين به ، ويزيد الأسر ارتباطا ، ويمنح المرأة احتراما وسعادة لا تجدهما فى أوروبا[٣] .

ويرد منسينور لوروا على الذين ذهبوا إلى أن التعدد أثر للاختلاط بين الرجال والنساء بأنه قد استيقن أن هذا الاختلاط ليس له أثر فى أية ناحية من إفريقية ــ حيث يكثر التعدد ــ إلا فى قطعان البقر الوحش ، ويؤكد أن تعدد الزوجات ليس نتيجة لحياة بدائية همجية كما يزعم الماديون ، وإنما هو أثر لحضارة قديمة غربت شمسها[٤] .

وليس من موضوعى أن أبسط حكمة التعدد والأحوال التى تلجىء إليه ، وحسبى أن التعدد ليس دليلا على مهانة المرأة ، لأخلص من ذلك إلى أن العرب لم يكونوا شعبا همجيا بدائيا ، وأن المرأة العربية لم تكن مهينة القدر .

وإذاً فقد بطلت دعوى انحطاط المرأة العربية التى اعتمد القائلون بها على تعدد الزوجات.

---

(١) الأسرة والمجتمع ٨٢ .
(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٧٤ .
(٣) حضارة العرب لوبون ٤٨٣ .
(٤) Monseigneur Leory. La Reeligion des Primitifs. P. 95

وإنى لأسأل : أيهما أدل على ضعة المرأة فى نظر زوجها ، وضعته هو فى نفسه ، أن يتزوج أخرى أو أخريات زواجا متعارفا عليه معلوما للناس ، أم أن يتخون نفسه ورجولته وزوجته فيجعل يخادن غيرها من النساء ؟

إن الرجل الغربى لايكاد يقتصر على زوجة واحدة ، بل يُخالّ غير زوجته، ولقد تضطر هى أيضا إلى أن تخال غيره ، وفى هذا فساد وضلال وانحلال ، لذلك آثر كثير من مفكريهم نظام التعدد .

« وإن رجال الأكليروس أنفسهم كانوا يتخذون أكثر من زوجة ، شرعية أو غير شرعية ، على الرغم مما تقتضيه قداستهم »[١] .

ثم إن الإسلام راعى الأحوال التى قد تلجىء إلى التعدد ، فأقره فى حدود معلومة ، وجعل الحد الأقصى أربع نسوة ، وأوجب العدل بينهن ، وما من شك فى أن الإسلام كان يحدب على النساء ويرفع من قدرهن ، فلو أن التعدد منقصة للمرأة لحظره الإسلام حظراً كما حظر الزيادة على أربع . وقد جهل بعض أعداء الإسلام هذا كله ، فزعموا أن النبى هو الذى أباح تعدد الزوجات ليستجلب الرجال إلى دينه ، بل زعم بيرون أنه أراد بذلك استمالة الرجال والنساء . وبلغ من تعصب رينان فى كتابه (ابن رشد) أن وصف الإسلام بأنه دين الخنازير والقوم المنهمكين فى الشهوات . وزعم الأب بروغلى أن تعدد الزوجات نتيجة للإسلام[٢] .

وبحسبنا فى الرد على هؤلاء أنهم يجهلون ما كان قبل الإسلام عند العرب وعند غيرهم من الأمم ، وأنهم يجهلون أو يتجاهلون ما أضفى الإسلام على المرأة من رعاية وتقدير . وقد اعترف كثير من الغربيين بفضل الإسلام على المرأة ،

---

(١) مركز المرأة فى الإسلام ٣٩ .

(٢) الإسلام . الكونت هنرى دى كاسترى . ترجمة أحمد فتحى زغلول ٥٢ .

يقول مسيو ريفيل : إننا لا نجد عملا أفاد النساء ورفع من قدرهن أعظم مما أتى به النبي محمد ، فهن مدينات له بأمور كثيرة ، وفى القرآن آيات ساميات فى تقرير حقوقهن ، وما يجب لهن على الرجال[١] .

أنكحة الجاهلية

قلت فيما سبق إن الرجل كان يخطب المرأة إلى نفسها أو إلى وليها ، فيجاب أو يرفض، فإذا أجيب إلى طلبه مهر زوجته ، ثم جمع بعض قومه وجمع ولى الزوجة بعض قومها واحتفلوا بهذا الزواج ، فهو إذا زواج قائم على الإيجاب والقبول ، وهو الضرب الذى كان شائعاً فى العرب ، وجاء الإسلام فأقره .

على أنهم كانوا يعرفون ضروبا أخرى من اتصال الرجل بالمرأة ، ذكرت السيدة عائشة أربعة منها ، لعلها كانت أكثرها شهرة .

قالت : إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء[٢] :

١ — « فنكاح منها نكاح الناس اليوم — فى الإسلام — يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها » . وقد أقر الإسلام هذا النوع ، وكان قد ساد وعم فى آخر العصر الجاهلى ، وصار هو القاعدة ، حتى إن المرأة إذا ولدت عن الدعارة أو نكاح الرهط نسب وليدها إلى شخص واحد[٣] .

وليس بعجيب أن يوافق الإسلام ما أطبق عليه عرب الجاهلية من نظام يكفل للمرأة صيانة ومعزة ، ويصون للأسرة شرفها واستقرارها ، لأن الإسلام أقر كثيراً مما تعارفوا عليه من صالح العمل وطيبه ، فمثلا كانوا يقطعون يد السارق اليمنى ، ويصلبون قاطع الطريق ، يقول مالك بن عميلة — فى مليح ومدرك ابنى عوف وكانا قد سرقا حلى الكعبة فى الجاهلية — يخاطب حميد بن زهير بن عم مليح :

---

(١) المرجع السابق ٢٨ .

(٢) فتح البارى ٩/١٥٨ وإنسان العيون ١/٤٧ والاعتصام للشاطبى ٢/١٨٤ .

(٣) Muslem Law. P. 24

تمنى حميدٌ أنه كان حَيْضةً ليالى بانت من مليح أصابعه
ليالى بانت كفه من ذراعه فأصبح لا يدنو لقرن ينازعُه
ودِرْاسَ مخزومٍ تركنا مجدّلا بما قدمت أظفاره وأشاجعُه
فأمسى تَليلاً للسباع تنوبه تسيل دما آرابه وكراسعُه(١)

وكانوا لا يأكلون الميتة ، فإن حارثة بن أوس الكلبي يقول :

لا آكل الميتة ما عُمِّرت نفسى وإن برح إملاق(٢)

ومما دعا إليه الإسلام وكانوا يمارسونه : المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب والختان والاستنجاء وتقليم الأظافر الخ(٣) ، وسنرى أنهم كانوا يحرمون الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات ويكرهون الجمع بين أختين والزواج بامرأة الأب .

وإذا ماعرفنا أن هذا الضرب من الزواج كان هو الشائع عند العرب فى الجاهلية ، وأن الرجل كان يدفع مهراً للزوجة ، كان لنا أن نحكم بأنهم لم يكونوا همجاً أو متأخرين فى نظمهم الأسرية عن الأمم المتحضرة التى عاصروها . ذلك بأن الزواج مر بمراحل ثلاث : الاختطاف ، والشراء ، والعقد . وكان العقد عملا تقديرياً للمرأة ، وفى بعض الأحيان كان يقدم لها مهر ، وقد جرى عليه اليونان والرومان(٤) .

٢ — « ونكاح الآخر — الصنف الآخر — كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، و يعتزلها زوجها ولا يمسها

---

(١) المحبر ٣٢٨ درواس : لقب مدرك بن عوف . كان حيضة : لم يولد . الأشاجع : أصول الأصابع فى الكف . تليل : ملقى على عنقه وخده . آرابه : أجزاء يده المقطوعة . كراسعه : جمع كرسوع وهو طرف الزند الذى يلى الخنصر .

(٢) المحبر لابن حبيب ٣٢٩ .

(٣) المحبر ٣٢٩ .

(٤) The Psychology of Marriage. P. 238. walter. M.gallichan

أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد » .

وهذا الضرب لم يكن يتعارض مع النسب إلى الأب ، لأن الوليد ينسب إليه « وهو يخالف نظام تعدد الأزواج للزوج ، لأن الولد فى هذا النظام يتبع أمه [١] » .

وقد سبق فى الموازنة بين العربية وغيرها أن كثيراً من الأمم كانت تزاول نكاح الاستبضاع ، فأفلاطون قد ذهب إلى شيوعية النساء بين الرجال ، وبخاصة الحكام ، فلا يخص أحد نفسه بإحداهن ، والنسل الناتج مجهول النسب ، وملك للدولة ، فلا يعرف والد ولده ، ولا مولود أباه [٢] .

وليكورغ مشرع إسبرطة أباح شيوع النساء ، وسمح للزوجة أن تبيح نفسها لصاحبها بإذن زوجها ، وأباح للزوج أن يدفع زوجته للاستبضاع من آخر ، على أن يكون الولد للزوج [٣] .

وأباحت شريعة سولون للمرأة أن تستبضع من غير زوجها إذا عجز عن مباشرتها [٤] .

وقد أقرت شريعة مانو نظام الاستبضاع عند الهنود ، لأنها كانت تعد العقم كارثة ، وكانت تحض على الإكثار من النسل ولا سيما الذكور « ولذا تداركت العقم بطريقتين : الأولى أن يزوج الرجل — الذى عقم — ابنته ، على أن يكون مولودها الذكر ابنا له ، والثانية أنها أوجبت على الرجل العقيم أن يستولد امرأته من أحد إخوانه أو أقاربه » [٥] .

---

(١) Muslem Law P. 22

(٢) جمهورية أفلاطون ١٢٣و١٣١ ــ ١٣٥

(٣) الأمومة عند العرب ٢٦ والمرأة فى التاريخ والشرائع ٧٣

(٤) الأمومة عند العرب ٢٦ والمرأة فى التاريخ والشرائع ٧٣

(٥) Question feministe. Rosler. P. 143 .

وذكر العالم الألمانى جريمْ Grimm عن الجرمان القدماء أنهم كانوا يتوخون من الزواج الحصول على وارث شرعى ، حتى إنه كان يحق الرجل أن يطلق امرأته إذا ما تحقق عقمها ، ويأخذ غيرها من غير معارضة [١] ، وذكر أن الرجل العاجز عن المباشرة الزوجية كان يجب عليه ــ ما دامت زوجته راضية عنه ــ أن يحملها على ظهره ، وينقلها إلى رجل آخر يرضيها [٢] .

وقد ورد فى بعض القصائد القديمة عن القديسة اليصابات أن أحد فرسان تورنغ لما استوثق من عجزه عن إنجاب وارث له ، مثل أمام الأمير لودفج زوج اليصابات ، وطلب منه أن يطأ امرأته [٣] .

ويذهب وِلْـكن إلى أن هذه العادة التى كان يزاولها بعض العرب تختلف عما كان عند بعض الشعوب ، « ذلك أنه كان يحق للمرأة نفسها أن يستمتع بها غير زوجها إذا لم تنجب من زوجها أولاداً [٤] .

أريد أن أعتمد على شيوع هذا النوع من الخلاط الجنسى بين شعوب شتى ، لأخلص إلى أنه لم يقتصر على العرب كما كان يذاع .

على أنه ضرب شاذ نادر يتنافى والأخلاق العربية من غيرة وحمية ونخوة واعتداد بالنفس وفخار بعفة الزوجة ، فلا يلجأ إليه إلا رجل عاجز عن مباشرة زوجته أو فسل ساقط المروءة . وإذا فليس دليلا على مهانة المرأة العربية .

وقد سجل النمر بن تولب ــ الشاعر المخضرم ــ هذا النوع ، ذلك أنه كان لقمان بن عاد أخت مُحْمِقة ، وكذلك كان زوجها ، فقالت لإحدى نساء لقمان : هذه ليلة طهرى ، وهى ليلتك ، فدعينى أنام فى مضجعك ، فإن لقمان رجل منجب ،

---

(١) الأمومة عند العرب ٢٥

(٢) الأمومة عند العرب ٢٦

(٣) الأمومة عند العرب ٢٥

(٤) الأمومة عند العرب ٢٥

فعسى أن يقع علىّ فأنجب ، فوقع على أخته ، فحملت بلُقَيْم ، فهو قول النمر بن تولب :

لقيمُ بن لقمان من أخته فكان ابن أختٍ له وابنما
ليالى حُمِّق فاستحْصَنَتْ عليه فغُرَّ بها مُظْلِما
فأحبلها رجـل مُحْـكَمٌ فجاءت به رجـلا محـكما [1]

٣ — « ونكاح آخر ، يجتمع الرهط ، دون العشرة ، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومرّت ليال بعد أن تضع أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، إنى ولدت فهو ابنك يا فلان ، تسمّى من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل » .

وهذا النوع هو نكاح المشاركة أو نكاح الرهط ، وهو الذى ذكره سترابون عن أهل اليمن ، وقد أسلفت قوله والرد عليه فى نسب الولد إلى أمه .

على أن هذا الضرب من الاتصال الجنسى نظام اجتماعى بدائى كان فاشيا بين الساميين القدماء ، وربما كان دخيلا على العرب من الفرس زمن حكمهم لليمن ، وتسلطهم على الحيرة ؛ لأنهم كانوا يمارسون الإباحة الجنسية فى عهد الساسانيين ولا سيما جماعة المانويين ، وربما طرأ على العرب من شرقى إفريقية ، لأن بعض القبائل كانت تتبع هذا النظام هناك ، وما زالت تدين به [2] .

وقد حدث هيرودوت عن بعض الحبش المقيمين على سطح البحر الأحمر أن النساء عندهم مشتركة ، ومتى كبر الأولاد أعطى كل من الرجال ما شابهه من الأولاد [3] .

---

(١) الحيوان للجاحظ ١/٢١ والبيان والتبيين ١/١٨٤ مظلم : فى الظلام
(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ١٦ .
(٣) الأمومة عند العرب ٣٣ .

وكان تعدد الرجال للمرأة الواحدة شائعاً فى العصور القديمة [١] ، وما زال النائر ـ أعيان الملابار فى الهند ـ يجرون عليه ، كما ذكر باخوفين Pachofin فى كتابه (آراء القدماء فى القرابة [٢]) .

لم يشع هذا النوع فى العرب ، ولم يتعد قلة منهم ، وإن ادعى بعض الباحثين أن الشيوعية فى النساء كانت نظاما شائعا بين العرب ، وقد رددت عليهم فى النسب إلى الأم . ومن التعسف بل من الخطأ الفاحش أن نتسف الشيوعية من قول عنترة :

إن الرجال لهم إليك وسيلة   وابن النعامة يوم ذلك مركبي [٣]

٤ — « والنكاح الرابع : « يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها ، وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما لمن أرادهن ليدخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ، ودعوا لها القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاطته به ، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم » وهذا النوع كان محصوراً فى الإماء ، وسأعرض له بتفصيل عند الكلام على الإماء .

٥ — على أن السيدة عائشة لم تذكر نكاح المتعة ، وربما أغفلته لأنه يشبه النكاح العامّ ، غير أنه محدود الأجل . وكان العرب يعرفونه ويمارسونه ، وأباحه النبى فى بعض غزواته ثم حرمه [٤] . وإليه يشير عمر بن قعاس المرادى بقوله :

ألا رجـــــلٌ جزاه الله خيراً   يدل على مُحَصِّلة تُبيتُ

---

(١) Studies in Ancient History. mac Lennan. P. 276

(٢) الأمومة عند العرب ٢٨ .

(٣) ديوان عنترة ٢٠ ابن النعامة : فرسه

(٤) فتح البارى ٩/١٠٢ و ١٤٤ ـ ١٤٩و١٨٢ و ٧/٣٦٩ وصحيح مسلم ٤/١٣٠ ـ ١٣٥ والمبسوط ٦/١٥٢ وتفسير الطبرى ٥/٨ والكشاف ١/٢٠٠ وروح المعانى ٥/٦ والسنن الكبرى ٧/٢٠٠ ـ ٢٠٢

تُرَجِّل لِمَّتِى وتَقُمُّ بيتى وأعطيها الإتاوة إن رضيت [١]

وكان اليهود يمارسون نكاح المتعة ، ثم نهى الكتاب عنه [٢] .

٦ — ولم تذكر نكاح الشِّغار ، وربما كان مرد ذلك إلى أنه زواج فردى. كالزواج العام إلا أنه لامهر فيه ، وهو أن يزوج الرجل ابنته أو موليته لآخر على أن يزوجه الآخر ابنته أو موليته ، ولا صداق فيه لكلتيهما . وقد نهى عنه النبى صلى الله عليه وسلم [٣] ، وقال ببطلانه كثير من الفقهاء، وصححه الحنفية ، ولكنهم قالوا بفساد التسمية ، وأوجبوا مهر المثل [٤] .

وهذا النوع من الزواج كان معروفاً عند الأمم السامية قديماً [٥] ، ولاتزال له بقايا فى كثير من الأمم المتمدينة [٦] .

المحرمات فى الجاهلية والإسلام

١ — حرم العرب على أنفسهم أنواعا من الأقارب . ثم جاء الإسلام فأقر هذا التحريم. كانوا لاينكحون الأمّهات والبنات والأخوات والعمات والخالات [٧] وذهب ابن عباس وغيره إلى أنهم كانوا يحرمون ما حرم الله تعالى إلا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين [٨] .

(١) خزانة الأدب ٢/٢٤٦ أنشد الأزهرى هذا البيت وما بعده فى التهذيب بفتح صاد محصلة وقال : هما لأعرابى أراد أن يتزوج امرأة بمتعة . وفى لسان العرب مادة حصل أن المحصلة بكسر الصاد هى التى تحصل تراب المعدن أو التى تميز الذهب من الفضة ، وذكر البيتين وقال إن الأزهرى قال تبيت أى تبيتنى عندها لأجامعها ، والجوهرى قال تبيت تفعل كذا. والذى أراه أن الكلمة بكسر الصاد والشاعر يريد أنها خبيرة بالرجال فهى تميزه وتؤثره

(٢) شعار الخضر ١٠١

(٣) السنن الكبرى للبيهقى ٧/١٩٩

(٤) فتح البارى ٩/١٤٠ والمبسوط ٥/١٠٥

(٥) النظم الاجتماعية ٤٠

(٦) الأسرة والمجتمع ١١٤

(٧) الملل والنحل على هامش الفصل ٣ / ٢٣١ وبلوغ الأرب للعطار ٣١ والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ١/٩٩

(٨) تفسير الطبرى ٤/٢١٧ _ ٢١٩ وروح المعانى ٤/٢٦١

وقد تباعد أهل مكة فى المناكح عن البنت، وبنت، البنت والأخت، وبنت الأخت ، غيرة ونفورا من المجوسية ، ونزل القرآن الكريم بتوكيد صنيعهم وحسن اختيارهم[١] .

ولاشك أنهم بهذا التحريم سموا على كثير من الشعوب القديمة ، لأن زواج الأخت الشقيقة كان مباحاً عند الأشوريين والفرس والمصريين ، فقد تزوج بطليموس فيلادلفيوس شقيقته — فى مصر — وتزوج قمبيز شقيقته ـ فى فارس ـ وجاء فى كتاب زرادشت أن اقتراناً كهذا من أفضل القُرَب . وما زال المجوس إلى اليوم على آثار أجدادهم . وكان الإسيرطيون يبيحون زواج الأخت لأم[٢] .

أما زواج الأخت لأب فقد كان مباحاً فى كثير من الشعوب المتحضرة القديمة كالعبريين واليونان والفينيقيين وبعض شعوب الصقالبة[٣] .

وقد تزوج الملك اليهودى هيرود أخته هيرودية ، وزوجها لايزال على قيد الحياة ، ولم يرتض يوحنا المعمدان هذا الزواج فندد بالملك وبأخته تنديداً ، وأمره بتطليقها فراراً من غضب الله ، لكن هيرود استجاب له بأن قتله[٤] .

وكان الفراعنة والبطالسة يتزوجون الأخوات على الإطلاق[٥]

أما زواج البنت فقد جرى عليه الفرس والميديون[٦]

وكان العبرانيون يتزوجون بنات الأخ ، يدل على ذلك أن عيسى عليه السلام بعث يحيى بن زكريا فى اثنى عشر حواريا يعلمون الناس ، وكان فيما نهوهم عنه نكاح بنات الأخ[٧] .

---

(١) معجم البلدان ١٣٧/٨

(٢) دائرة المعارف للبستانى ٣٣٨/٩

(٣) قصة الحضارة ٧٣/١ والنظم الاجتماعية والسياسية ٨٥ والأسرة والمجتمع ٤٧

(٤) عبقرية المسيح . العقاد ١١٥

(٥) الأسره والمجتمع ٤٧ والنظم الاجتماعية والسياسية ٨٥ وقصة الحضارة ٧٣/١

(٦) المرأة فى التاريخ والشرائع ١٧ والأسرة والمجتمع ٤٧

(٧) تاريخ الطبرى ١٣/٢

لكن ذلك مازال قائما ، لأن طائفة الربانيين (الربائيم) وهم سواد اليهود يبيحون زواج الرجل بابنة أخيه وابنة أخته وابنة امرأة أبيه . والسامرة والقراءون يمنعون ذلك[١] .

أما نكاح زوجة الأب فإن العرب لم يحرموه، بدليل قوله تعالى : «ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف »[٢] والآية تعنى رجالا خلفوا آباءهم على أزواجهم[٣] . وقد سجل ذلك عمرو بن معد يكرب إذ قال فى زوجته التى خلف أباه عليها :

فلولا إخوتى وبَنِىَّ منها ملأتُ لها بذى شُطَب يمينى
لَصَلْصَلَةُ اللجام برأس طِرْفٍ أحَبُّ إلىَّ من أن تنكحينى[٤]

ولما جاء الإسلام حظر نكاح امرأة الأب ، وفسخ زيجات أربعا كانت قائمة[٥]

على أن العرب كانوا يمقتون هذا النوع ، ويسمون المولود عليه الْمَقْتِىّ ، ومن ثم قال تعالى : « إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » كأنه قال فاحشة فى دين الله بالغة فى القبح ، قبيح ممقوت فى المروءة[٦] ، وكانوا يسمون من يخلف أباه على امرأته الضَّيزن، ويتهمونه بأنه فارسى يدين بالمجوسية، قال أوس بن حجر :

والفارسية فيكم غير منكرة فكلكم لأبيه ضَيْزَنٌ سَلِفُ[٧]

---

(١) العقائد .عمر عنايت ٨٠ ــ ٨٢
(٢) سورة النساء ٢٢
(٣) تفسير الطبرى ٤/٢١٧
(٤) لسان العرب مادة نكح
(٥) الإصابة ٨/٥٤ والمعارف ٣٧و٥٠ والأغانى ٣/١٢٣ و١/١٧ والملل والنحل ٣/٢٣٢ وأسد الغابة ٢/٢٣٨ والروض الأنف ١/١٤٦ والمحبر ٣٢٥ والكشاف ١/١٩٧ وإنسان العيون ١/٤٤ والمبسوط ٤/١٩٨ وروح المعانى ٤ / ٢٠١ والمستطرف ٢ / ٧٢ ومعجم البلدان ٨/١٣٧
(٦) الكشاف ١/١٩٧
(٧) ديوان أوس ١٧ ولسان العرب ١٧/١٢٢

ولم يكن هذا النوع شائعا إذا ، لأن أحق شخص بامرأة المتوفى ابن زوجها الأكبر ، وقلما يقدم عليه لقبحه .

وقد ظلت زيجة من هذا النوع إلى عهد عمر ، ذلك أن منظور بن زبان كان قد تزوج امرأة أبيه ولم تزل معه إلى خلافة عمر ، ففرق بينهما ، فقال منظور :

لَعَمْرُ أبي دِينٌ يفرق بيننا وبينــك قسْرًا إنه لعظيم

وهجاه حجر بن معاوية بقوله :

لبئس ماخلف الآباء بعــدهم في الأمهات عِجان الـكلب منظور

قد كنت تغمزها والشيخ حاضرها فالآن أنت بطول الغمز معذور[١]

كذلك لم يحرم العرب الجمع بين الأختين بدليل قوله تعالى « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف » .

وقد ألف أبو الحسن المدائني كتابا فيمن جمع بين أختين[٢] . وبعضهم أبغضوا هذا النوع كما أبغضوا سابقه ، ثم حرمه الإسلام[٣] وإن بقي أثره إلى عهد عمر ، فقد فرق بين أختين عند رجل من جذام ، حاف أنه لايعلم أن الإسلام حرم الجمع بين الأختين[٤] .

على أن العرب لم ينفردوا بهذا الضرب ، فقد كان العــبريون يجمعون بين الأختين ، كما جمع يعقوب بن إسحاق بنتي خاله لبان : راحيل وليا ، وأنجبتا له ، وكان الناس يومئذ يفعلون ذلك ، إلى أن بعث موسى عليه السلام ، وأنزلت عليه التوراة[٥]

٢ — وإذاً فقد كان العرب يحرمون ماحرم الإسلام في قوله تعالى : «حرمت

---

(١) الأغاني ١١/٥٣

(٢) معجم الأدباء ١٤/١٣٣ والفهرست ١٠٢

(٣) المحبر ٣٢٧ وإنسان العيون ١/٤٤ والملل والنحل ٣/٢٣١ وروح المعاني ٤/٢٦١

(٤) فتوح الشام للبصري ٢٣٧

(٥) تاريخ الطبري ١/١٦٣

عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم »[١]

وزاد الإسلام تحريم امرأة الأب ، والجمع بين الأختين ، و بين المحارم مطلقا، فقد نهى رسول الله أن تنكح المرأة على عمتها أو العمة على بنت أخيها ، والمرأة على خالتها ، أو الخالة على بنت أختها ، لاتنكح الصغرى على الكبرى ، ولا الكبرى على الصغرى[٢] .

ولا شك أن العرب بمقتهم نكاح امرأة الأب ، ويتباعدهم عن الجمع بين الأختين ، وبتحريمهم ماحرم الإسلام بعد ، قد تساموا عن أمور كانت بين الساميين وغيرهم ذكرتها التوراة[٣] .

ولم يتقول مختلق أو شعوبى على عربى أنه تزوج أمه ، كما تزوج مارك أنطونيو فاربوس هليوجو بال أمه، وكان يعبد الشمس كملوك الفرس، ويقدم لها القرابين من أجمل بنات إيطاليا ، وقد قتله جنده هو وأمه سنة ٢٢٢ م[٤] ، وكان الكنعانيون يأتون المحارم كلها[٥] .

أما دعوى زواج لقيط بن زرارة بنته ، فقد فندتها فيما سبق .

وبذلك امتاز العرب من الأمم التى كانت تبيح الأخت والبنت وبنت الأخ كما سبق ، وامتازوا من العبريين الذين حرمت عليهم عماتهم وخالاتهم ،ولكنهم

---

(١) سورة النساء ٢٣

(٢) حجة الله البالغة ٢/٩٧

(٣) سفر اللاويين الإصحاح ١٨ آية ٦ـ٣٠ وحضارة العرب ٤٨٧

(٤) Histoire Des papes. Tome I. P. 187 Paris

(٥) شعار الخضر فى الأحكام الشرعية للاسرائيليين ١٣

جروا على الزواج بهن[١]. وامتازوا من الرومان فى زمن القيصر كلوديوس، لأنهم أباحوا فى عهده ابنة الأخ وابنة الأخت حتى نقض قسطنطين ما أباحوا[٢].

٣ — وللإسلام الفضل فى تحريم نظامين كان العرب يضارون بهما النساء أولهما العَضْل، ذلك أن الورثة كانوا يمنعون المرأة المتوفى عنها زوجها من التزوج، لتفتدى نفسها بما ورثت من زوجها، أو تعطيهم الصداق الذى أخذته، وكان الأزواج أيضا يمسكون زوجاتهم أحياناً من غير حاجة إليهن، فيضاروهن ويضيقون عليهن، ليستردوا بعض ما آتوهن بأن يختلعن بمهورهن. وقيل كان الرجل القرشى بمكة ينكح المرأة الشريفة وربما لا توافقه، فيفارقها على ألا تتزوج إلا بإذنه، فان أعطته وأرضته أذن لها، وإلا عضلها[٣].

هذا هو العضل فى رأى المفسرين والفقهاء، وهو فى اللغة التضييق، ومنع المرأة الزواج ظلما[٤]، وليس يهمنا أن يكون العاضل هو الوارث، أو الزوج، أو غيرهما، فإن الأب قد يعضل بناته، كذلك الذى عضلهن ومنعهن الأكفاء فتأذين، فزوجهن[٥].

وواضح أن عضل الورثة كان الغرض منه أن تبقى فى العشيرة ثروة الرجل الرجل المتوفى، وأن عضل الزوج كان الباعث عليه أن يسترجع ماقدم من صداق. أما عضل الأب فليس له من باعث إلا الأنفة والغيرة، أو الأثرة، وهو على أى حال عمل شاذ مباين لما كان عليه الآباء.

لكن العرب لم يتوحَّدوا بهذا العمل، فقد كان العبريون يعتدون المرأة

---

(١) دائرة المعارف للبستانى ٩/٣٣٨

(٢) المرجع السابق ٩/٣٣٨

(٣) فتح البارى ٨/١٨٥ وروح المعانى ٤/٢٤٢

(٤) القاموس المحيط مادة عضل

(٥) الأمالى ٢/١٠٥

جزءاً من متاع الرجل ، تورث كما يورث ما خلف ، وللوارث أن يبيعها أو يعضلها [١] .

ومن نعم الإسلام على النساء أن حظر العضل : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » [٢] .

ثانيهما الزواج بالميراث ، ذلك أن الرجل كان إذا مات وترك زوجة ألقى عليها ابنه أو قريبه ثوبه فمنعها الناس ، فإن كانت تعجبه تزوجها ، وإلا حبسها حتى تموت . وفى رواية البخارى وأبى داود أن أولياء الرجل كانوا أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاء زوجها ، وإن شاء منعها الزواج حتى تموت ، أو ترد عليهم مهرها ، فهم أحق بها من أهلها [٣] .

وكان للولد الأكبر إذا ما طرح ثوبه على امرأة أبيه أن يتزوجها بغير مهر ، وله أن يزوجها أحد إخوته بمهر [٤] ، وله أن يعضلها كما سبق ، فلا ينفق عليها ، ولا يخلى سبيلها لتلحق بأهلها . وقد شكت كبيشة بنت معن إلى النبى صلى الله عليه وسلم ابن زوجها محصن ابن أبى قيس بن الأسلت لما فعل بها ذلك ، فأنزل الله عز وجل : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » ، ثم شكت إليه نسوة أخر كما شكت كبيشة فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن [٥] .

ولم ينفرد العرب بهذا النظام ، فقد كان شائعا عند الإسرائيليين والبابليين والآشوريين ، وكان عند الساميين يعتبر حقاً يتضمن الملكية ، وإذا كانت الزوجة

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٧ و١٧٠ (٢) النساء ١٩ (٣) الكشاف ٤/٢٠٧ وروح المعانى ٤/٢٤١

(٤) الملل والنحل على هامش الفصل ٣/٢٣٢ والمستطرف ٢/٧٢

(٥) المحبر ٣٢٦ والبخارى ٦/٢٨٨ وروح المعانى ٤/٢٤١

تعد جزءاً من متاع الرجل فإنها كانت تورث كما يورث غيرها من ماله ، وللوارث أن يبيعها أو يعضلها [١] . بل إن شريعة موسى أوجبت على أخى الزوج أن يتزوج زوجة أخيه المتوفى ، وإذا لم يفعل شكته إلى الشيوخ ، فإذا أصر خلعت نعله من رجله أمامهم ، وبصقت فى وجهه ، وصرخت قائلة : « هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه » ، فيسمى مخلوع النعل [٢] ، وتصبح المرأة بعد خلع النعل حرة ، لها أن تتزوج من تشاء ، فكأن خلع النعل طلاق [٣] .

وواضح أن الغرض من الزواج بالميراث كالغرض من العضل ، إنما هو البقيا على ثروة المتوفى والاحتفاظ بها فى العشيرة ، والتحلل من تقديم مهر جديد ، وميراث الزوجة هو السبيل إلى ذلك .

الطلاق

ضرورته :

هل من الحتم اللازم أن يتخطى الزوجان مراحل العمر متماسكين بعلاقة وثيقة مصفاة لا تنفصم ولا تترنق ؟ إن هذا مخالف لنواميس الاجتماع ، مناقض لطبائع الناس ، مباين للمشاهد فى كل مجتمع .

لقد كانت الحياة الزوجية فى كل قبيل تهزها هزات عنيفة تقوض أركانها ، ومازالت إلى الآن عرضة لرجات قوية تهدم بنيانها ، فكان من الطبيعى أن يفزع العالم القديم إلى الطلاق ، وكان من تنظيم الأسرة أن تبيحه الشرائع السماوية الثلاث فى حدود وقيود .

فهل عرف العرب الطلاق ؟ وعلى أى الصور عرفوه ؟ وهل كان هذا الحق حكرة للرجل يستأثر به ؟ أو أن المرأة كان لها نصيب من هذا الحق ؟ ثم

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٦ – ٦٧

(٢) المرأة فى التاريخ والشرائع ٤٨ . (٣) النظم الاجتماعية والسياسية ٦٥

ما الصورة التى نستشفها من نظام الطلاق، لنتصور مكانة المرأة فى المجتمع العربى ؟ وماذا كانت نظرة الإسلام إلى ما تعارف عليه العرب من صور الطلاق ؟

الطلاق عند الأمم :

مارس العبرانيون الطلاق(١) ، وخولت القوانين العبرية القديمة الرجل أن يطلق زوجته ، ولم تخول الزوجة أن تطلب الطلاق(٢) ، ولم تمنح المرأة العبرية حق المطالبة بالطلاق إلا فى عصور متأخرة ، إذ أباح القراءون للمرأة أن تطلب الطلاق(٣) ، وليس قبولها الطلاق إلا شرطاً لوقوعه(٤) . وإذا فلم يكن من حقها أن تطلق زوجها .

ثم جاءت المسيحية فضيقته جداً ، حتى لقد روى عن المسيح أنه حرمه ، ذلك أن تلاميذه سألوه عنه فقال لهم : « من طلق زوجته وتزوج أخرى يزنى ، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت آخر تزنى(٥) » ، ولكن الكنائس أباحته فى ظروف خاصة ، سواء فى ذلك الكنيسة الرومية والمذهب الأرثوذكسى والمذهب البروتستانتى(٦) . والكاثوليك يحرمون الطلاق لكنهم يفسخون العقد لأسباب قليلة كزنا المرأة ، ويعدون هذا انفصالا لا طلاقا ، ولا يجوز لأحد الزوجين أن يتزوج بعده(٧) .

وإذا ما عدونا التشريع السماوى وجدنا أن الرومان قد زاولوه وأنه شاع فى عهد الجمهورية الأخيرة ، وانتشر طمعاً من الرجال فى المال ، وإعجاباً بالجمال ، وغراما بالنساء . وقد طلق الخاصة والقياصرة كما طلق الشعب ، فإن يوليوس قيصر

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ٢/٨٠ ودائرة المعارف للبستانى ١١/٣٣٧ والمرأة فى العصور ٨٥

(٢) الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين ٩٧ ومركز المرأة فى الإسلام ٧٣ والإسلام والحضارة العربية ١/٨٠

(٣) شعار الخضر ١٢٦

(٤) الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين ٩٧

(٥) إنجيل مرقس الإصحاح ١٠

(٦) الأسرة والمجتمع ١٢٧

(٧) دائرة المعارف للبستانى ١١/٣٣٧

طلق مرتين ، وأنطونيو طلق ثلاثاً ، وأوكتافيو طلق أربعاً . وظل الطلاق منتشراً حتى خففت المسيحية من شِرَّته ، ثم حظر حظراً [١] .

لـكن الزوجة الرومانية لم تخول المطالبة به ، فإذا حاولت الفراق عرضها عماها للعقاب الصارم [٢] .

وكذلك مارسه الأثينيون بدون قيد أو شرط ، وجعلوه حقاً للرجل وحده ، فلا نصيب للمرأة منه [٣] . وقد أقرته شريعة سولون ، ومنحت المرأة ما كانت محرومة منه . أما ليـكورغ فقصر حق التطليق على الرجال [٤]

وكان حق الطلاق مباحا للزوجين فى بابل [٥] . وأما المصريون القدماء فقد حرموه تحريماً ، ونقل الإسكندر المقدونى عنهم تحريمه .

دواعى الطلاق عند العرب :

ليس بمستطاع أن نتعرف بواعث الطلاق كلها ، وبحسبنا أن نمثل ببعضها ، فقد يكون من بواعثه الفقر ، فمثلا سألت نبيه بن الحجاج السهمى زوجتاه أن يطلقهما لأنه افتقر فقال :

تلك عِرْساى تنطقان على عَـــمْد لى اليوم قول زور وهتْر
سالتانى الطلاق أن رأتا ما لى قليلا ، قد جئتمانى بنكْر [٦]

ولقد ينضم الـكبر فى السن إلى الفقر ، وفى هذين يقول عبيد بن الأبرص :

تلك عرسى غضبى تريد زِيالى ألبـــينٍ تريد أم لدلال ؟
زعمت أننى كـبرت وأنى قـل مالى وضَنَّ عنى الموالى

(١) دائرة المعارف للبستانى ١١/٣٣٦ والإسلام والحضارة العربية ١/٨٠
(٢) مركز المرأة فى الإسلام ٧٣ للسيد أمير على الهندى
(٣) مركز المرأة فى الإسلام ٧٣ (٤) دائرة المعارف للبستانى ١١/٣٣٦
(٥) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٨٧ Mrs Ray Strachey
(٦) الأغانى ١٦/٦٠ وفى البيان والتبيين ١/١٩٩ أن القائل سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل . وعند الزمخشرى أنه زيد بن عمر بن نفيل

وعجا باطلى وأصبحت شيخاً لا يواتى أمثالها أمثالى [١]

وبسبب الكِبَر طلق عمرو بن عُدُس دُخْتَنُوس بنت عمه لقيط بن زرارة ، لأنه كان شيخاً هرماً ، فرآها يوماً تتأفف منه ، فقال لها : أيسرك أن أفارقك ؟ قالت : نعم ، فطلقها [٢] .

وربما يدفع إلى الطلاق أن تتطاول الزوجة على قوم الزوج وتنال منهم ؛ فيندفع بعصبيته لهم إلى تطليقها ، فمثلا كان حسان بن ثابت زوجا لعمرة بنت الصامت الأوسية ، وكانا متصافيين متحابين ، ولما أجار الأوس مخلَّد بن الصامت الساعدى قال أبو قيس بن الأسلت :

أجرتَ مُخَلَّدًا ودفعت عنه وعند الله صالحُ ما أتيت

فتكلم حسان فى أبى قيس بكلام أغضب عمرة ، فعيرته أخواله ، وفخرت عليه بالأوس . فغضب لهم فطلقها [٣] . وكذلك طلق دريد بن الصمة زوجته أم معبد لأنها عاتبته على جزعه على أخيه عبد الله ، وصغرت من شأنه وسبته ، فطلقها وقال فيها :

أعبدَ الله إن سبَّتكَ عِرْسى تقدم بعضُ لحمى قبل بعض

إذا عِرْسُ امرىء شتمت أخاه فليس فؤاد شانئه بحَمْضِ

معاذ الله أن يشتمن رهطى وأن يملكن إبرامى ونقضى [٤]

وشبيه بذلك أن عمرو بن شاس كان له ابن أسود من أمة ، يقال له عرار ، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به ، فهددها بالطلاق فى قوله :

فإن كنت منى أو تريدين صحبتى فكونى له كالسمن رُبَّتْ له الأَدَمْ

---

(١) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١/١٩٩

(٢) مجمع الأمثال للميدانى ١/١٦٤ والأغانى ١٠/٣٨ وتاج العروس ٤/١٤٧ .

(٣) الأغانى ٣/١٤ .

(٤) الأغانى ٩/٥ . الفؤاد الحامض : الفاسد المتغير .

وإلا فسيرى مثل ما سار راكب   تعجل خِمْسا ليس فى سيره أَمَمْ[1]

ولقد يطلق الرجل امرأته لأنه لا يأنس إليها ، ولا يجد فيها الخلال التى يريد ، كما فعل الأعشى لما تزوج امرأة من عنزة فلم يرضها ، ولم يستحسن خلقها فطلقها ، وقال :

فبينى فإن البين خير من العصا   وألا ترَىْ لى فوق رأسك بارقه

وما ذاك عندى أن تكون دنيئة   ولاأن تكونى جئت عندى ببائقه

ويا جارتا بينى فإنك طالقــه   كذاك أمور الناس غاد وطارقه[2]

ولقد يطلقها لأنه يجد فيها ميلا إلى غيره ، وتبرماً به ، كما طلق الحارث ابن سليل الأسدى الزباء بنت علقمة لما رأى إعجابها بشبان من قومها[3] .

وربما يتوسم الرجل فى المرأة التى خطبها شباباً وجمالا ، فإذا هى عجوز شمطاء فلا يجد بدا من تسريحها ، حدث هذا لجهم ، إذ خطب من بنى فقعس ، وباع إبلا له ومهرها ، فلما دخل بها وجدها عجوزاً مولية ، فطلقها وقال :

وما لمتُ نفسى مذْ فطمْتُ بلَحْيَةٍ   كما لمت نفسى فى عجوز بنى شمس

فبانَتْ ولم أُغْبَنْ ـ غداةَ اشتريتها   وبعتُ تِلاد المال بالثمن البخس[4]

أنواع الطلاق عند العرب

١ ـ الطلاق :

كانت العرب تطلق فى الجاهلية ثلاثاً على التفرقة ، والزوج أحق بزوجته إلى أن يستوفى ثلاث طلقات ، فإن استوفاها انقطع سبيله إليها[5] ، وفى

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ١٦٧ . ربت له الأدم : الأدم جمع أديم وهو الجلد المدبوغ تتخذ منه الزقاق والأوعية ونحوها ، وربب الوعاء دهنه بالرب وهو خلاصة التمر بعد طبخه وعصره ليمنع فساد السمن . يقول لها : عامليه برعاية كما تستصلحين السمن بدهن وعائه .

(٢) ديوان الأعشى ١٨٣ وشعراء النصرانية ٣٦٣

(٣) مجمع الأمثال للميدانى ١/١١١ والمحاسن والأضداد ١٨٤

(٤) عيون الأخبار ٤/٤٧ .

(٥) المحبر ٣٠٩ والملل والنحل على هامش الفصل ٣/٢٤٣ وبلوغ الأرب للألوسى ٢/٤٩

ذلك يقول الأعشى لزوجتـــة .

فبيني حَصان الفرج غير ذميمة　　وموموقةً فينا كذاك ووامقـــه
وذوقي فتى قومٍ فإني ذائقٌ　　فتاةَ أناسٍ مثل ما أنت ذائقه
فبيني فإن البينَ خيرٌ من العصا　　وألا تَرَىْ لي فوق رأسك بارقه
ويا جارتا بيني فإنك طالقـــه　　كذاك أمور الناس غادٍ وطارقه(١)

فـكرر الطلاق ثلاث مرات متفرقات .

وكان هذا هو الغالب . وقد التزم أهل مكة هذا التفريق ، يدل على ذلك قول ابن عباس إذ سئل عن طلاق العرب : كان الرجل يطلق امرأته تطايقة ، ثم هو أحق بها ، فإن طلقها ثنتين فهو أحق بها أيضاً ، فإن طلقها ثلاثاً فلا سبيل له إليها (٢) .

وأحياناً كانوا يوقعون الثلاث دفعة واحدة ، يدل على ذلك قول الشاعر :

فإن تَرْفُقي يا هند فالرفق أيمن　　وإن تخْرُقي يا هند فالْخرْقُ أشأم
فأنت طلاقٌ والطلاق عزيمـــة　　ثلاثٌ ومن يَخْرُقْ أعقٌّ وأظلم
فبيني بها أن كنت غير رفيقة　　وما لامرىء بعد الثلاث مُقَدَّم

ولـكن طلاق الثلاث دفعة واحدة في الإسلام كان لا يقع إلى عهد عمر إلا طلقة واحدة ، روى مسلم عن ابن عباس أن الطلاق كان في عهد رسول الله وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر : إن الناس قد استعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه عليهم(٣) .

على أنه وردت آراء أخرى في أن العرب كانوا يطلقون ويراجعون ، ولاحد لهم ينتهون إليه ، وكانوا يضارون النساء بذلك ، فنزل قوله تعالى : « الطلاق

---

(١) ديوان الأعشى ١٨٣ والأغاني ٨/٨٠ .
(٢) معجم البلدان ٨/١٣٨
(٣) تفسير القرطبي ٣/١٣٠ والسنن الـكبرى للبيهقي ٧/٣٣٦ .

مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان[١] » . ولكنى أرجح أن هذا لم يكن نظاماً عاماً ، لأن رأى ابن عباس أجدر بالقبول ، وأقرب إلى المعقول ، ولأن بعض ما روى عن هذا الإطلاق غير مقبول ، وكيف نقبل ما ذكره ابن زيد أن الرجل كان يطلق امرأته مائة ، ثم إذا أراد أن يراجعها كان ذلك له[٢] ؟ وكيف نقبل ما ذكره الرازى أن الرجل كان له أن يطلق امرأته ألفا ، ثم يراجعها بعد كل مرة[٣] ؟

ومهما يكن من شيء فإن الإسلام قد وافق العرب كلهم أو أكثرهم فى أن جعل الطاقات ثلاثاً ، ثم زاد أموراً ، منها أن الزوجة لا تحل لزوجها بعد الطلقة الثالثة إلا إذا تزوجت غيره . ثم إن العرب كانوا يطلقون ثلاثا دفعة واحدة ، ولما جاء الإسلام اختلف الفقهاء فى حكم هذا الجمع ، فذهب جمهور الفقهاء إلى وقوع الطلاق ثنتين أو ثلاثاً دفعة واحدة ، وذهب بعض المجتهدين والمحققين إلى وقوعه واحدة[٤] .

٢ — الخلع :

وكان من صور الطلاق فى الجاهلية أن تفتدى المرأة من زوجها بمالها،وتختلع منه إذا أساء عشرتها[٥] ، من ذلك أن عامر بن الظرب زوج ابنته ابنَ أخيه ، وبعد أشهر جاءته مشجوجة ، فقال لابن أخيه : « يابنى ارفع عصاك عن بكرتك ، فإن كانت نفرت من غير أن تُنَفَّر فذاك الداء الذى ليس له دواء ، و إن لم يكن بينكما وفاق ، ففراق الخلع أحسن من الطلاق ، ولن تترك مالك وأهلك » ورد

---

(١) تفسير الطبرى ٢ /٢٧٦ والنيسابورى على هامش الطبرى ٢/٣٦١ وتفسير القرطبى ١٢٦/٣ (٢) تفسير الطبرى ٢/٢٧٦ والسنن الكبرى للبيهقى ٧/٣٣٣ .

(٣) تفسير الرازى ٢/٢٧٢ .

(٤) تفسير القرطبى ٣/١٣٠ وعيون المسائل ١٤٥ ــ ١٦٠ .

(٥) الكشاف ١/١٩٧ .

عليه صداقه وخلعها [١] ، وكذلك خلع دعج بن عبد الله من رجل إيادى زوجته وتزوجها [٢] .

ولما جاء الإسلام أقر الخلع [٣] ، مراعاة لصالح المرأة ، لأنها قد تبغض زوجها وتتأذى بعشرته ، ويأبى هو أن يخلصها ، حرصاً عليها ، أو نكاية لها ، أو أسفاً على ما أنفق من ماله فى زواجها . قال تعالى : « ولا يَحِلُّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به [٤] .

ولقد يكون فى الخلع رعاية لصالح الزوج أيضاً ، فيما إذا أتت الزوجة بفاحشة مبينة كما فى الآية ، والمراد بها النشوز وسوء الخلق أو الزنا [٥] ، وقد كشفت جميلة بنت عبد الله بن أُبَىّ للنبى صلى الله عليه وسلم عن كراهيتها لزوجها ، ورغبتها فى فراقه ، فقال زوجها : إنى أعطيتها أفضل مالى ، حديقة ، فلترد علىَّ حديقتى . فأمرها النبى بردها عليه ، وفرق بينهما [٦] ، ورويت هذه الحادثة بطرق أخرى ، ولكنها كلها تدل على أن العرب كانوا يعرفون الخلع ، وإلا لم يطلب الأزواج ما لهم قبل الفرقة .

على أن الإسلام حذر الزوجة أن تختلع ، أو تطلب الطلاق من غير حاجة ، أو خضوعا للهوى ، لقوله تعالى : « إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله » ، والمراد النشوز والبغضة من الزوجة ، والتقصير فى الحقوق من الزوج ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : أيما امرأة اختلعت من زوجها من غير ما بأس به لم تُرِحْ رائحة الجنة »

---

(١) أوائل الأوائل لأبى هلال العسكرى ٤٣ مخطوط وفتح البارى ٩/٣٤٦ وعيون الأخبار ٤/٧٦ .

(٢) الفاخر . الكوفى ٤٩ .

(٣) تفسير القرطبى ٣/١٣٧ .

(٤) البقرة ٢٢٨ .

(٥) روح المعانى ٤/٢٤٢ .

(٦) السنن الكبرى للبيهقى ٧/٢١٣ وتفسير الطبرى ٢/٢٨٠ والنيسابورى ٢/٣٦٣

و « أيما امرأة سألت زوجها طلاقا فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة »
و « المختلعات هن المنافقات[(١)] » .

٣ — الظهار :

قال الشافعى رضى الله : « سمعت من أرْضَى من أهل العلم بالقرآن يقول : « كان أهل الجاهلية يطلقون بثلاث : الظهار ، والإيلاء ، والطلاق . فأقر الله تعالى الطلاق طلاقا ، وحكم فى الإيلاء والظهار بما بيّن فى القرآن »[(٢)] . ذلك بأن الرجل كان يظاهر من زوجته فى الجاهلية ومطلع الإسلام بقوله لها : « أنت علىّ كظهر أمى » يريد تحريمها على نفسه تحريما مؤبداً ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم لخولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت حين فزعت إليه لما ظاهر منها زوجها « حرمت عليه[(٣)] » . ثم أنزل الله تعالى حكم الإسلام . وقيل إنهم كانوا يعدونه طلاقا ، ويجيزون للمظاهر أن يتزوج زوجته ثانياً[(٤)] ، ولكن جواب الرسول لخولة يناقض هذا . وربما كان الأكثر يحرمون بالظهار ، والأقل لا يحرمون به .

أما حكم القرآن فى الظهار فواضح من قوله تعالى : « ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل[(٥)] » ، ومن قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم

---

(١) السنن الكبرى للبيهقى ٧/٣١٦ وتيسر الوصول ١/٣٣٨ .
(٢) بلوغ الأرب ٢/٥٠ .
(٣) تفسير الطبرى ٢٨/٣ والقرطبى ٢٨/٢٧٠ وطبقات بن سعد ٨/٢٧٦ .
(٤) تفسير الطبرى ٢٨/٦ والنيسابورى ٢١/٨٢ والمبسوط ٦/٢٢٤ .
(٥) سورة الاحزاب ٤ .

من نسائهم ما هن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور ، والذين يظاهرون من نسائهن ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً »[١] .

وبهذا أبطل الإسلام الظهار وحرمه ، ونفى الخالق تعالى أن يكون لرجل قلبان فى جوفه ، وقاس لهم على هذا المستحيل أن يزعم الرجل أن زوجته محرمة عليه كأمه ، ثم جعل عقوبة الظهار الكفارة .

٤ — الإيلاء :

كان الإيلاء من أنواع الفرق فى الجاهلية كما ذكر الشافعى[٢] والقرطبى[٣] ، يولى الرجل من زوجته السنة والسنتين وأكثر ، إيذاء لها ، فلا يقربها . فلما جاء الإسلام عين للرجل مدة يراجع فيها نفسه ، ثم يطلق إن شاء أو يفىء فى يمينه ، « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم »[٤] فمن آلى بأقل من ذلك فليس بإيلاء حكمى[٥] .

حق المرأة فى الطلاق

١ — تميزت المرأة العربية بأن لها الحق فى أن تكون العصمة بيدها فتطلق

---

(١) سورة المجادلة ١ — ٤ .

(٢) بلوغ الأرب ٢/٥٠ .

(٣) تفسير القرطبى ٣/١٠٣ .

(٤) سورة البقرة ٢٢٦و٢٢٧ .

(٥) تفسير القرطبى ٣/١٠٣ .

الرجل ، وبأن لها أن تطالب الرجل بالطلاق ، سواء أكان على بدل أم لم يكن، وهذا حق لم تظفر به امرأة فى الأمم التى عاصرت العرب . « فكان النساء أو بعضهن يطلقن الرجال فى الجاهلية ، وكان طلاقهن أنهن إن كن فى بيت من شعر حولن الخباء ، فإن كان بابه قبل المشرق حولنه قبل المغرب ، وإن كان بابه قبل اليمن حولنه قبل الشام ، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها قد طلقته فلم يأتها[١] » ولعل السبب فى هذا المظهر أن الخباء كان عند الساميين ملكاً للمرأة ، وهو عند أهل المدر كالبيت عند أهل الحضر[٢] ، فإذا جاء الرجل ووجد المرأة قد حولت باب خبائها علم أنها قد أعرضت عنه وطلقته . أما الحضريات فكانت لهن طريقة أخرى فى الإعلام بالتطليق ، ذلك أنهن لا يعالجن للزوج طعامه إذا أصبح[٣] .

ومن هؤلاء اللائى امتزن بحق التطليق سلمى بنت عمرو بن زيد أم عبد المطلب بن هاشم ، إحدى نساء بنى عدى بن النجار ، كانت لا تتزوج إلا وأمرها بيدها ، فإذا كرهت من زوجها شيئاً تركته[٤] ، وأم خارجة عمرة بنت سعد البجلية ، ومارية بنت الجعيد العبدية ، وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج السلمية ، وفاطمة بنت الخرشب الأنمارية ، والسوداء العنزية الهزانية[٥] ومنهن ماوية بنت عفزر ، وقد طلقت زوجها حاتماً الطائى لما تخرق فى كرمه وضاقت به[٦] .

وقد ورد فى الشعر ما يثبت ذلك ، قالت امرأة من بنى جذيمة بن عامر وقد أوقع بهم خالد بن الوليد بالغُمَيْصاء :

---

(١) الأغانى ١٦/١٠٢ وذيل الأمالى ١٥٣ .
(٢) النظم الاجتماعية والسياسية ٨٧ .
(٣) مجمع الأمثال للميدانى ١/٣١٨ .
(٤) الأغانى ١٣/١١٩ والميدانى ١/٣١٨ .
(٥) الميدانى ١/٣١٨ والمحبر ٣٩٨ .
(٦) الأغانى ١٦/٩٩ وذيل الأمالى ١٥٣ .

فكائنْ ترى بالغُمَيْصاء من فتى أصيب ولم يَجْرَحْ وقد كان جارحاً
ألظَّتْ بخُطّاب الأيامى وطلَّقَتْ غداتئذٍ منهن من كان ناكحاً[1]

ويقول عبيد بن الأبرص لزوجته :

وعيشى بالذى يغنيك حتى إذا ما شئت أن تَنْأَىْ فبينى[2]

ويقول الشنفرى :

إذا ما ماجئت ما أنهاك عنه ولم أنكر عليك فطلقينى[3]

وحتى على فرض أن هذا تهكم من الرجل فإنه دليل على أن للمرأة أن تطلب الطلاق .

٢ — وكان للمرأة أن تطلب الطلاق ، فلم تكن كغيرها من نساء الأمم المعاصرة لا رأى لها ولا اختيار . وهى إما أن تطلب الطلاق بالاختلاع كما سبق، وإما أن تطلق بغير اختلاع كما حدث عبيد بن الأبرص عن زوجته :

تلك عرسى غضبى تريد زيالى ألبين تريد أم لدلال
إن يكن طِبَّكِ الفراقُ فلا أحفل أن تعطفى صدور الجمال[4]

وكما حدث سعيد بن عمرو بن نفيل عن زوجتيه :

تلك عرساى تنطقان على عمد لى اليوم قول زور وهَتْر
سالتانى الطلاق أن رأتا ما لى قليلا قد جئتما بنُكْر[5]

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٥٧ ومعجم البلدان ٦/٣٠٧ ألظت : لزمت . الغميصاء : موضع قرب مكة .

(٢) ديوان عبيد القصيدة ١٣ .

(٣) الوحشيات لأبى تمام ٢٧ مخطوط وأخبار النساء ٥٤

(٤) ديوان عبيد القصيدة ١١ والبيان والتبيين ١/١١٩ .

(٥) البيان والتبيين ١/٩٩ وفى الأغانى ١٦/٦٠ أنه نبيه بن الحاج .

ويقول أبو قُرْدُودة :

كُبَيْشة عِرْسى تريد الطلاقا وتسألنى بعــد وَهْنٍ فراقاً[١]

وقد سألت ضُباعة بنت عامر بن قرط زوجها عبد الله بن جدعان أن يطلقها، لأنه كان كبيراً، وعاشت معه زماناً لاتلد ، ولأن هشام بن المغيرة المخزومى أغراها بطلب الطلاق . فقال لها عبدالله : أخاف أن تتزوجى هشام بن المغيرة ، قالت : لا أتزوجه . قال : فإن فعلت فعليك مائة من الإبل تنحرينها بين إساف ونائلة ، وتغزلين لى خيطا يقطع مابين الأخشَبَيْن، وتطوفين بالبيت عريانة . فأرسلت إلى هشام تخبره ، فأرسل إليها : ما أيسر ما سألك ، وما يَلْويك هذا ، وأنا أيسر قريش فى المال ، ونسائى أكثر نساء رجل من قريش ، وأما طوافك بالبيت عريانة فأنا أسأل قريشاً أن يخلوه لك ساعة ، فلا تأبَىْ عليه . فقالت لزوجها ، فإن تزوجت هشاماً فعلىَّ ما قلت . فطلقها ، فتزوجها هشام ونحر عنها مائة من الجُزُر ، وجمع نساءه فنسجن ثوباً يسع ما بين الأخشبين ، ثم طافت بالبيت عريانة [٢] .

على أن المرأة كانت لبقة فى تصرفها بعصمتها ، لا تطلق زوجها حماقة وهوى ، وإنما كانت تحرص على رباط الزوجية ، لا تفصمه إلا إذا لم تجد بداً من فصمه . فهؤلاء اللائى كانت العصمة بأيديهن لم يتلاعبن بها ، يدل على ذلك أن ماوية لم تطلق حاتماً إلا بعد ما يئست من كفه عن التخرق فى كرمه ، ولخشيتها على مستقبلها ومستقبل بنيها إن أنجبت منه [٣] . ويدل على ذلك أن رجلا من آل أبى طالب غضب على امرأته يوماً فقال لها : «أمرك بيدك . فقالت : أما والله لقد كان فى يدك عشرين سنة ، فحفظته وأحسنت صحبته ،

---

(١) الحيوان للجاحظ ٥/٤٦٣ .

(٢) الإصابة ٨/١٣٣ و ٤/٣٥٣ ورسالة القيان للجاحظ ٥٧ وأشعار النساء للمرزبانى ٢٤

(٣) الأغانى ١٦/١٠٢ .

فلا أضيعه إذ كان فى يدى ساعة من نهار ، وقد رددت عليك حمقك . فأعجبه قولها وأحسن صحبتها[١] .

٣ — ثم جاء الإسلام فأبقى على حق المرأة فى الطلاق إذا اشترطته على الزوج . وإلى ذلك ذهب الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة[٢] .

وأباح لها أن تختلع ، وأن تطلب التفريق لعيب فى الزوج ، أو لامتناعه عن الإنفاق ، أو لسوء عشرته ، أو لغيبته الطويلة[٣] .

وأباح للتى زوجت صغيرة أن تفسخ زواجها عند بلوغها ، أو أن تمضيه[٤] .

والفكرة العامة التى نستنبطها أن الإسلام أبقى على بعض النظم العربية الصالحة فى الطلاق ، وأبطل الإيلاء على أنه طلاق ، وحرم الظهار ، وصان المرأة حقها فى الطلاق إذا كانت قد شرطت ذلك على زوجها .

ثم إنه بغض الطلاق إلى الرجال ، فقد ورد فى القرآن الكريم : « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »[٥] و « يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة »[٦] و «إن خفتم شقاق بينهما فابعثو حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما»[٧] وقال صلى الله عليه وسلم : أبغض الحلال إلى الله الطلاق[٨]

---

(١) بلاغات النساء لابن طيفور ١٣٢ .
(٢) عيون المسائل ١٦٩ .
(٣) عيون المسائل ٢٠٥ .
(٤) عيون المسائل ٧٧
(٥) سورة النساء ١٩ .
(٦) سورة الطلاق ١ .
(٧) سورة النساء ٣٥ .
(٨) السنن الكبرى للبيهقى ٣٢٢/٧ .

وقال: أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة[١]، وذهب الفقهاء إلى أنه قد يكون محرماً وقد يكون مكروهاً[٢]، كما أنه قد يكون واجبا وقد يكون مستحبا[٣].

وما من شك فى أن الطلاق نظام طبيعى لا مفر منه أحيانا، وليس أدل على ذلك من لجوء بعض المسيحيين إليه، « والأفضل أن يقتصر الإنسان على امرأة واحدة لا يبدلها، ولكن قد يحدث زواج غير موفق، فعلينا أن نسن قوانين تخول الرجل أن يفصم هذه الزيجة التى لا مندوحة من تغييرها، مراعاة لصالحه وصالح المجتمع »[٤]

حسرة بعد الطلاق

قد يثور الزوج، وقد تهتاج المرأة، وقد تنزل بهما عارضة فيفترقان، وهذه حال طبيعية لا منجاة منها. فإذا ما وجدنا الرجل يندم على الطلاق، ويتحسر على سعادة قد ذهبت، وإذا ألفينا المرأة المطلقة تُثنى على زوجها، وتأسف على صلة قد انقطعت، كان لنا أن نوقن بأن العلاقة الزوجية فى العصر الجاهلى كانت وطيدة الدعامة، علية المكانة.

١ — أما الزوج فكثيراً ما حزن وندم، وإذا كانت أخبار حزنه وندمه أكثر من أخبار المرأة، فذلك لأنه هو المطلِّق فى الأعم الأغلب، ثم لأنه لا يخجل من البوح بما يمضه من الألم والندم والحنين إلى زوجته التى طلقها، أما الزوجة فإنها فى موضع المرغوب عنها، فلا تكشف عن حسرتها وندمها، وهى إلى ذلك تستحى أن تعلن توجعها وتلهفها على أن تعود.

---

(١) حجة الله البالغة للدهلوى ٢/١٠٣ :
(٢) المبسوط للسرخسى ٢/٦ .
(٣) عيون المسائل ٢ ١٤٧ .
(٤) The Psychology of Marriage P. 240 Walter M. Callichan

كانت أم أوفى زوجة زهير بن أبى سلمى ، وقد ولدت له أولاداً ماتوا ، ثم تزوج فغارت ، وطابت الطلاق ، فطلقها ، لـكنه حسب أنها ملته لطول عشرتها له ، وأقسم أنه حسير النفس لفرقتها ، وهى لا تبالى بالفرقة ، وأوصاها ألا تتقول عليه لآلها ، فتدعى أنه أساء عشرتها ، ثم ذكرها بما كان بينهما من صلة الأولاد والمودة ، وبرعايته لها وتمتيعها :

لعمـرك والخطوب مُغَيِّرات　　وفى طول المعاشرة التقـــالى
لقد باليتُ مَظْعَنَ أم أوفى　　ولـكنْ أم أوفى لا تبالى
فأما إذا ظعنتِ فلا تقولى　　لدى صِهْرٍ أُذِلْتِ ولم تُذالى
أصبتُ بنىَّ منك ونلتِ منى　　من اللذات والُحلل الغوالى(١)

وكان لسلمىْ بن ربيعة زوجة ، وقد فارقته لأنه يستهلك ماله ، ويعرض نفسه للمعاطب ، ولحقت بقومها ، فأخذ يتلهف عليها ويتحسر ، ويبكى بكاء حاراً :

حلت تُماضر غُرْبَةً فاحتلت　　فَلْجًا وأهلك باللِّوى فالحُلة
وكأن بالعينين حب قرنفل　　أو سنبلا كحلت به فانهلّت(١)

وقد تهيب أبو قُرْدودة أن يطلق، لأنه يحب زوجته الحسناء ، فلا يطيق صبراً على فراقها ، ولـكنها أصرت على الفراق فآلمته وأبـكته :

كُبَيْشة عرسى تريد الطلاقا　　وتسألنى بعد وَهْنٍ فراقا
كبيشة إذ حاولتْ أن تبـــينَ　　يستبقُ الدمع منى استباقا
وقامت تريك غداة الفراق　　كَشْحًا لطيفاً ونخذا وساقا

---

(١) ديوان زهير بشرح ثعلب ٣٤٢ والأغانى ٩/ ١٥٠ .

(٢) شرح التبريزى للحماسة ٢/ ٥٥ غربة : دار بعيدة . الحلة : موضع فى بلاد بنى ضبة . فلج : واد فى طريق البصرة وبين الحلة وفلج مسير عشر . القرنفل والسنبل : من أخلاط الأدوية التى تحرق العين وتسيل دموعها .

ومنسدلا كمثانى الحبـــــال   توسعه زَنْبقًا أو خِلاقا [١]

ولما تحايلت على عروة بن الورد امرأته ، ولحقت بأهلها أرق ، لما شام البرق من ناحيتها ، ودعا لدارها بالسقيا ، وتحسر وتذكر ، وتغزل بها :

أرقت وصحبتى بمضيق عُمْقٍ   لبرق من تهامـة مستطير
سقى سَلمى وأين ديار سلمى   إذا كانت مُجاوِرَة السرير
إذا حلت بأرض بنى علىٍّ   وأهـــلى بين إمَّرَةٍ وكِير
ذكرت منازلا من أم وهب   محل الحى أسـفل من نَقير
وأحدثُ معهد من أم وهب   مُعَرَّسنا بدار بنى النضـير
وقالوا : ما تشاء فقلت : ألهو   إلى الإصباح آثَرَ ذى أثير
بآنسة الحديث رُضابُ فيها   بُعَيْدَ النوم كالعنب العصير
سقونى الخمر ثم تـكنفونى   عداةُ الله من كذب وزور
وقالوا : لست بعد فداء سلمى   بمغنٍ ما لديك ولا فقــــير
فيا للناس كيف غلبتُ نفسى   على شىء و يكرهه ضميرى [٢]

ولقـد يأسى بعض الأزواج إرعاء على ولده من مطالقته ، لا حسرة على الزوجة ، لأنها ذات شغب وصخب ، يقول الغَزْر لما فارقته زوجته الناقمية :

أجــدَّ فراق الناقمية فانتوت   أم البين يَحْلَوْلِى لمن هو مولع ؟
لقد كنت أهوى الناقمية حقبة   وقد جعلت أقران بين تَقَطَّع

---

(١) الحيوان للجاحظ ٥/٤٦٣ . منسدلا : شعرا مسترسلا . الزنبق : دهن الياسمين . قال الأزهرى وأهل العراق يقولون لدهن الياسمين دهن الزنبق . الخلاق : ضرب من الطيب وهو الخلوق .

(٢) الأغانى ٢/٧٧ وديوان عروة ١١ والشعر والشعراء ٢٦٠ مضيق عمق : موضع قرب المدينة . السرير : موضع ببلاد بنى كنانة . أمرة : منزل فى طريق مكة من البصرة . كير : جبل بأرض غطفان . نقير : موضع بين هجر والبصرة . آثر ذى أثير : أول كل شىء

فلولا بُنَيَّاها هُبَيْرَةُ إنه ... بُنَيَّ الذي يشفي سقامي، وصَعْصَعُ
لكان فراق الناقية غبطة ... وهان علينا وصابها حين يُقْطَعُ (١)

بل لقد بلغ الحزن بعبد الله بن العجلان لما طلق زوجته هند، ثم تزوجت غيره أن مات أسفاً عليها، ذلك بأن أباه اضطره إلى تطليقها اضطراراً فقال:

فارقتُ هنداً طائعاً ... فندمت عند فراقها
فالعين تذري دمعها ... كالدر من آماقها
متحلباً فوق الردا ... ء يجول من رَقْراقها (٢)

وقال:

فما مُغْوِلٌ تبكي لفقد أليفها ... إذا ذكرتْهُ لا يكف زفيرها
بأغزر مني عَبْرَةً إذ رأيتها ... يُحَثُّ بها قبلَ الصباح بعيرها (٣)

وله فيها غزل وحنين كثير (٤). وكذلك حزن عمرو بن شاس لما طلق زوجته (٥)، وحسان بن ثابت إذ طلق امرأته عمرة (٦).

٢ — وما زال بعض الرجال يأسون بعد الطلاق إلى الإسلام، من هؤلاء عبد الله بن أبي بكر، كان قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل، وكانت من أجمل نساء قريش، فلما دخل بها غلبته على عقله، وأحبها حباً شديداً، فأمره أبوه أن يطلقها، ففعل بعد لأى، ثم جزع جزعاً شديداً، حتى عاف الطعام والشراب، وأنشد:

---

(١) أمثال العرب للضبي ٢٢. يحلولى: يحسن. هبيرة وصعصع: ولداه منها.
(٢) الأغاني ١٩/١٠٢.
(٣) الأغاني ١٩/١٠٤.
(٤) الأغاني ١٩/١٠٢ — ١٠٥.
(٥) جمهرة الأمثال ١٧٣.
(٦) الأغاني ٣/١٤.

فلم أر مثلى طلق اليوم مِثْلَها ... ولا مثلها فى غير شىء تُطَلَّق
لها خُلُق سمح ورأى ومنصب ... وخَلْقٌ سوىٌّ فى الحياة ومصْدَق
أعاتك لا أنساك ما هبت الصَّبا ... وما ناح قمرىُّ الحمام المطوَّق
أعاتك لا أنساك ماحجّ راكب ... وما لاح نجم فى السماء محلِّق
أعاتك قلبى كلَّ يوم وليلة ... إليك بما تخفى الصدور معلَّق
ولولا اتقاء الله فى حق والدى ... وطاعته ما كان منا التَّفَرُّق

فبلغ أبا بكر شعره ، فأمره فراجعها[1] ، وفرح بمراجعتها ، وفاضت فرحته شعراً طروباً كما فاض حزنه من قبل شعراً غضوبا[2] .

٣ — أما الزوجة فقد أثر عنها أحياناً ما ينبىء عن عرفانها جميل زوجها ، وتقديرها حسن عشرته بعد الطلاق. فمثلا أغار عروة بن الورد على مزينة ، وأصاب منهم امرأة اسمها سلمى ، فاستاقها وأعتقها واتخذها لنفسه ، فمكثت عنده بضع عشرة سنة ، وولدت له أولاداً ، ثم كرهت أن تكون سبّياً ، وأن تنادى بأنها أَمَةُ عروة ، فاحتالت على عروة حتى أتت قومها ، فاختارتهم ، فطلقها عروة ، فأقبلت عليه قائلة : « يا عروة ، أما إنى أقول فيك وإن فارقتك الحق ، والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك ، وأغض طرفاً ، وأقل فحشاً ، وأجود يداً ، وأحمى لحقيقة . وما مر علىّ يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلىّ من الحياة بين قومك ، لأنى لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أَمَةُ عروة كذا وكذا ، والله لا أنظر فى وجه غطفانية أبداً ، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم »[3].

---

(١) المردفات من قريش للمدائنى ، من نوادر المخطوطات ٦٢ ونزهة الأبصار والأسماع ١٣ وأسد الغابة ٥/٤٩٨ والإستيعاب ٢/٧٦٨ والأغانى ١٦/١٢٨ .
(٢) المردفات من قريش ٦٢ .
(٣) الأغانى ٢/١٨٥ .

وكذلك لما أسلم قيس بن عاصم ، وعنده امرأة من بنى حنيفة ــ أبى أبوها وأهلها أن يسلموا ، وخافوا إسلامها ، وأقسموا أنها إن أسلمت لم يكونوا معها فى شيء ما بقيت ــ طالبته بالفرقة ، ففارقها . فلما احتملت لتلحق بأهلها أثنى عليها بقوله : « أما والله لقد صحبتنى سارّة ، ولقد فارقتنى غير عارّة ، لا صحبتك مملولة ، ولا أخلاقك مذمومة ، ولولا ما اخترتِ ما فرق بيننا إلا الموت ، ولكن أمر الله ورسوله أحق أن يطاع » . فقالت له : « أنبئت بحسبك وفضلك ، وأنت والله إن كنت للدائمُ المحبة ، الكثير المودة ، القليل اللائمة ، المعجب الخلوة ، البعيد النبوة ، ولتعلمن أنى لاأسكن بعدك إلى زوج ». فقال قيس :« ما فارقت نفسى شيئاً قط فتبعته كما تبعتها[1] » .

العدة

عرف العرب الطلاق ، وجروا على طرق عدة فى إيقاعه ، ولم تقف بهم معرفتهم عند ذلك ، بل قرروا العدة بعد الوفاة استبراء للرحم ، وحداداً على الزوج ، « وكانت مشهورة معلومة فى الجاهلية ، لا يكادون يتركونها »[2] . يدل على ذلك ما ذكره البخارى أن امرأة توفى عنها زوجها ، فخشوا على عينيها، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذنوه فى الكحل، فقال :«لاتكتحل، قد كانت إحدا كن تمكث فى شر أحلاسها (أو شر بيتها) فإذا كان حول فمرّ كلب رمت ببعرة . فلا ، حتى تمضى أربعة أشهر وعشراً »[3] .

وتفصيل ذلك أن المرأة كانت إذا توفى عنها زوجها دخلت حِفْشاً ، ولبست شر ثيابها ، ولم تمس طيباً حتى تمر بها سنة ، ثم تؤتى بدابة : حمار أو شاة أو طائر ، فتفتض به ، ثم تخرج فتعطى بعرة فترمى بها ، ثم تراجع بعد ماشاءت من

---

(١) الأغانى ١٢/١٤٩ .
(٢) تفسير القرطبى ٣/١٢٦ وحجة الله البالغة ٢/١٠٦ .
(٣) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ٣/٢٥٧ وفتح البارى ٩/٤٢٨ .

طيب أو غيره . وكانت ترمى بالبعرة أمامها ، فيكون ذلك إحلالا لها ، أو ترمى بها كلباً أو غيره ، لتُرى من حضرها أن مقامها حولا أهون عليها من بعرة ترمى بها كلباً أو غيره ، أو أن رمى البعرة إشارة إلى رميها العدة كما ترمى البعرة [(١)] .

وقد أبطل الإسلام ذلك ، فجعل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ، لقوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾[(٢)] وهذه المدة كفيلة ببيان الحمل إن كان حمل .

أما المطلقة فقد ذكر أنها كانت تعتد فى الجاهلية ، ولكن لم يرد تفصيل لطريقة عدتها ، وأجلها . وذكر أيضاً أنها كانت لا تعتد ، وأن بعض النساء ولدن من أزواجهن الأولين وهن فى عصمة الآخرين[(٣)] . ويعزز ذلك أن عمر رضى الله عنه بلغه أن امرأة من قريش تزوجها رجل من ثقيف فى عدتها، ففرق بينهما ، وعاقبهما ، وقال : لا تنكحها أبداً . وجعل الصداق فى بيت المال ، وعلم علىٌّ ذلك ، فقال: رحم الله أمير المؤمنين ، مابال الصداق و بيت المال ؟ إنما جهلا، فينبغى أن يردهما إلى السنة . قيل : فما تقول أنت فيهما ؟ قال : لها الصداق بما استحل من فرجها ، و يفرق بينهما ، ولا جَلْد عليهما ، وتكمل عدتها من الأول، ثم تعتد من الثانى عدة كاملة ثلاثة أقراء ، ثم يخطبها إن شاء . فبلغ ذلك عمر ، فخطب الناس بقوله : أيها الناس ردوا الجهالات إلى السنة[(٤)] .

لكنى أرجح أن ترك العدة كان جهلا ، وأن الحوادث التى كانت فيها ولادة من الأول على فراش الثانى منشؤها الجهل أو الانخداع بأنه لا حمل من الزوج الأول .

---

(١) فتح البارى ٩/٤٢٨ والتجريد الصريح ٣/٢٥٧ الحفش : البيت الصغير . الأحلاس ج حلس وهو الثوب أو الكساء الرقيق . تفتض به: تمسح به جلدها . قال ابن قتيبه : سألت الحجازيين عن الافتضاض فذكروا أن المعتدة كانت لاتمس ماء ولا تقلم ظفرا ولا تزيل شعرا ثم تخرج بعد الحلول بأقبح منظر، ثم تفتض أى تكسر ماهى فيه من العدة بطائر تمسح به قبلها وتنبذه فلا يعيش بعدما تفتض به .

(٢) البقرة ٢٣٤ .

(٣) المحبر ٣٣٨ .

(٤) تفسير القرطبى ٣/١٩٤ .

الفصل الثالث

البنت

كشفت الدراسة السابقة للأم وللزوجة عن مكانة عالية للمرأة فى المجتمع العربى ، وعن تفوقها على غيرها من معاصراتها .

فكيف صوز الشعر الجاهلى البنت ؟ وما مكانتها التى رسمها لها ؟

حب بعضهم للبنات

١ — الفكرة الشائعة إلى الآن أن البنات كن بغيضات إلى الآباء جميعاً ، ولكن فى هذا الحكم بعض الحيف ، لأن كثيراً من الآباء كانوا يحبون بناتهم ويعزونهن ، ويحدبون عليهن ، فقد دخلت أم الحكم على أبيها الزبير بن عبد المطلب ، فهشّ لها ، وقال:

يا حبذا أم الحكمْ كأنها ريمٌ أجمّ

يا بعلها ماذا يَشَمّ ساهم فيها فَسَهَمْ[1]

وكان لمعن بن أوس — الشاعر المخضرم — ثلاث بنات ، وكان يؤثرهن ويعتز بهن ولا يحب أن يكون له بهن رجال ، لأن فى الإناث من هن أصلح من الذكور ، ولأنهن وفيات لآبائهن ، يمرضنهم إذا مرضوا ، ويعدنهم إذا سقموا ، وينحن عليهم إذا ماتوا :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم وفيهن لا تُكْذَبْ نساء صوالح

---

(١) الأمالى ٢/١١٧ أجم : ليس له قرنان وفى رواية الأمالى أحم . يشم : يختبر . ساهم فسهم : قارع فقرع وغلب .

وفيهن والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يمللنه ونوائح[١]

ويقول حسان بن الغدير فى تحبيب البنات :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم وهن البواكى والجُيُوبُ النواصح[٢]

ويتجلى حب الأب لابنته فى قول عامر بن الظرب لصعصعة بن معاوية لما خطب إليه بنته عُمَيْرة : يا صعصعة إنك أتيتنى تشترى منى كبدى ، وأرحَمَ ولدى عندى ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح أب بعد أب[٣] . وفى قول عتبة لابن أخيه عثمان بن عنبسة وقد خطب إليه ابنته : مرحباً بابن لم ألده ، أقرب قريب خطب إلىَّ أحب حبيب ... قد زوجتكها وهى أَلْوَطُ بقلبى ، فأكرمها يعذب على لسانى ذكرك ، ولا تهنها فيصغر عندى قدرك[٤] .

ولقد يتجلى حب الأب لابنته فى خشيته عليها من الحزن بعد موته ، فمثلا تخوف لبيد أن تخمش بنتاه الوجه، وتحلقا الشعر ، تفجعاً عليه إذا مات،ونصحهما ألا تماديا فى الحزن وأن ترضيا بقضاء الله :

تمنى ابنتــاى أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مُضَرْ؟

وفى ابنَىْ نزار أسوة إن جزعتما وإن تسألاهما تخبرا منهما الخبر

فإن حان يوم أن يموت أبوكما فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شَعَر

وقولا هو المرء الذى لا حليفَه أضاع ولا خان الصديق ولا غدر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر[٥]

بل روى مايدل على عطف الأب على ابنته وهو يجود برمقه ، فإنه لما طعن

---

(١) اللطائف والظرائف للثعالبى ٦٧ ومحاضرات الأدباء ١/٢٠٤ والأغانى ١٠/١٥٧

(٢) المؤتلف والمختلف ١٦٤ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٥٩ والعقد الفريد ٣/٢١٠ ومجمع الأمثال ١/٢٨٦

(٤) محاضرات الأدباء ٢/١٢٣ .

(٥) ديوان لبيد ١ والأغانى ١٤/٩٨ .

لقيط بن زرارة يوم شِعْب جَبَلة بقى يوماً ثم مات ، وجعل يقول عند موته :

يا ليت شعرى عنك دُخْتَنُوسُ إذا أتاها الخبر المرموس
أَتَحْلِقُ الرأس أم تميس لا بل تميس إنها عروس[1]

وكأنما لم يجد جحدر بن ضبيعة ما يوثق به قسمه على الجلاد والكفاح حين تشتجر السيوف والرماح غير أن يدعو على ابنته باليتم،قال فى يوم التحاليق ــ من أيام البسوس لبكر على تغلب ــ :

قد يَتِمَتْ بنتى وآمت كَنَّتى وشَعِثَتْ بعد ادِّهان جُمَّتى
ردُّوا علىَّ الخيل إن ألمت إن لم أناجزها فجزوا لِمَّتى[2]

على أن البنت كانت مدللة فى صغرها ، تلعب بالعرائس والدمى ، وتحلى بما تحلى به البنات ، قال امرؤ القيس :

وهى إذ ذاك عليها مئزر ولها بيت جَوارٍ من لُعَبْ[3]

٢ ــ ثم جاء الإسلام فزادهن عزازة ، فقد أوصى بهن النبى خيراً ، كقوله: من ابتلى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار . وقوله : من كانت له أنثى فلم يئدها ، ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده عليها ، أدخله الله تعالى الجنة . وله فى هذا أحاديث شتى[4] .

وجاء فى حديث عن السيدة عائشة أنها كانت تلعب مع الجوارى بالبنات (التماثيل الصغار يلعب بها) بعد زفافها ، فإذا دخل رسول الله خرجن ، وإذا خرج دخلن . وقد قدم رسول الله من غزوة تبوك ، فوجد فى سترها بنات لها ،

---

(١) الأغانى ٣٨/١٠ .
(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٣٣/٢ والمرزوقى ٥٠٧/٢ الكنة : زوجة الأخ أو الابن والمراد هنا امرأته هو . إدهان : المراد به هنا دهان الرأس والعناية بالشعر وفى رواية التبريزى بعد الرهان وهو تحريف .
(٣) ديوان امرىء القيس ٥٥ والكنز الثمين ١٩٦ .
(٤) تيسير الوصول ٤٧/١ وكنز العمال ٢٧٧/٨ .

فقال : ما هذا ؟ قالت : بناتى . ورأى بينهن فرساً له جناحان ، فقال : ماذا أرى وسطهن ؟ قالت : فرس ، قال : وما هذا الذى عليه ؟ قالت : جناحان . قال : فرس له جناحان ؟ قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟ فضحك رسول الله صلى الله حتى بدت نواجذه[1] .

وكانت قبل زفافها تلعب على المرجوحة[2]. وأرجح أنها كانت تلعب بالدمى فى بيت أبيها ، ثم استأنفت لعبها فى بيت الرسول .

وروى عن أم زينب بنت نبيط بن جابر أن رسول الله حلى أمها وخالتها برعاث من ذهب ولؤلؤ [3] .

وكان رسول الله المثل الأعلى فى العطف على البنات ، كان يصلى وهو يحمل على عاتقه حفيدته أمامة بنت أبى العاص [4] ، وكان يقبل بنته السيدة فاطمة إذا قدم من سفره ، وكان يكنيها بأمه [5] .

وقد رفض بعض الآباء أن يزوجوا بناتهم إلا بعد الاستيثاق من الزوج ألا يجمع الضرة كما سبق .

وكذلك رفض رسول الله أن يتزوج على بن أبى طالب ضرة على ابنته، لأنه كان يغار على بناته غيرة شديدة ، ذلك أنه لما علم أن على بن أبى طالب يريد أن يتزوج على فاطمة غضب وصعد المنبر وقال : إن بنى هاشم بن المغيرة استأذنوا فى أن ينكحوا ابنتهم علىّ بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى ، وينكح ابنتهم ، فإنما هى بُضعة منى ،

---

(١) سنن أبى داود ٢/١٩٧ و ٢٠١ والإحياء ٢/٣٤٥ وربيع الأبرار للزمخشرى والقاموس المحيط والصحاح والطبقات ٨/٤٠ .

(٢) الطبقات ٨/٤٠ .

(٣) الإصابة ٨/٤٧ وأسد الغابة ٥/٤٢١ و ٥٨٥ .

(٤) الإصابة ٨/١٤ وهى بنت بنته زينب .

(٥) أسد الغابة ٥/٥١٩ والإصابة ٨/١٥٧ .

يُريبنى ما أرابها ، ويؤذينى ما آذاها[١] .

وقد اقتدى به كثير من المسلمين فى عطفه على البنات مثل حِطان بن المعلىّ فى قوله :

لولا بُنَيّات كزُغْب القَطا رُدِدْنَ من بعض إلى بعض
لكان لى مُضْطَرَبٌ واسع فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عينى من الغمض[٢]

ويشبهه فى حدبه أبو خالد القنانى[٣] وإسحاق بن خلف[٤] والمرار بن منقذ[٥] .

على أن هؤلاء جروا أيضاً على عرق من حدب الآباء فى الجاهلية ، إذ ليس من الطبيعى أن يبدل الإسلام طباع العرب من النقيض إلى النقيض فى برهة من الزمن ، فيسلخهم من حياتهم الأولى ساخاً فى بضعة أعوام ، لأن خروج الأفكار من عقول الجماعة صعب كدخولها[٦] فلابد للانسلاخ من عاداتهم الأولى من زمان طويل يكفل تحولهم فى تؤدة .

لذلك لم يكن عجباً أن أحب العرب البنات ، وعطفوا عليهن ، ولم يكن عجباً أن أبغضهن بعضهم حتى فى الإسلام كما سيجىء .

على أنهم ما كانوا يتيمنون بالبكر الذكر ، فإن كان البكر ابن بكر تشاءموا به ، وإن كان ابن بكرين فهو فى الشؤم مثل قيس بن زهير ، فإنه كان أزرق وبكراً ابن بكرين . ثم إنهم كانوا يحبون أن تبكر البكر بجارية[٧] .

---

(١) فتح البارى ٩/٢٨٦ وسنن أبى داود ١/ ٢٠٦ وأسد الغابة ٥/٥٢١ والإصابة ٨/١٥٨ (٢) شرح الحماسة للمرزوقى ١/٢٨٧ .
(٣) المرزوقى ١/٢٨٤ .
(٤) المرزوقى ١/٢٨٢ .
(٥) المفضليات ١/٨٩ .
(٦) روح الاجتماع . جوستاف لوبون ٧٦ و ٧٧ و ٩٩
(٧) الحيوان للجاحظ ٣/١٧٤

ويعلل الجاحظ لذلك بأنهم كانوا لا يعنون بحياة الولد البكر كما يعنون بحياة الثانى ، فهم يؤثرون أن تبكر البكر بجارية ، لشدة خوفهم على الذكر . ولكن هذا التعليل لا يتفق مع قوله إنهم كانوا يتشاءمون بالبكر (الذكر) وإنهم كانوا أشد تشاؤما بالبكر ابن البكر وابن البكرين ، فالعلة إذا تشاؤم لا خوف على الوليد .

ولقد يكون مبعث تشاؤمهم أنهم اعتقدوا أن ابن البكر أو البكرين يجىء فى شرخ شباب والديه وفورتهما فيرث عنهما نزقا لا يصح أن يوصف به الرجل ، أما الأنثى فإن طبيعتها السالبة تخفف من حدة النزق والرعونة .

مدح البنت تكريما لأبيها

كانت البنت تكرم مرضاة لأبيها ، وتعظيما له ، ولم يمدحها المادح إلا لأنه يعلم عزازتها على أبيها ، وأن مدحها تبجيل له . يدل على ذلك أن أوس بن حجر كان قد سقط من فوق ناقته ، وآواه فضالة بن كَلَدَة ، وكانت تمرضه حليمة بنت فضالة حتى برىء ، فقال :

لعمرك ما ملت ثواء ثَوِيِّها ... حليمة إذ ألقى مراسىَّ مقعدى
ولكن تلقت باليدين ضمانتى ... وحل بشَرْجٍ فالقبائل عُوَّدى
ولم تلههاتلك التكاليف أنها ... كما شئت من أكرومة وتخَرُّد
سأجزيك أو يجزيك عنى مُثَوِّب ... وقَصْرُك أن يثنى عليك ويحمد[1]

ولما أغار النعمان بن وائل بن الجُلَاح الكلبى ـ قائد الحارث بن أبى شمر ـ على بنى ذبيان ، وسبى سبيا من غطفان ، وأخذ عَقْرَب بنت النابغة ، سألها من أنت ؟ فقالت : أنا بنت النابغة ، فقال لها : والله ما أحدٌ أكرم علينا من أبيك ، ولا أنفع لنا عند الملك ، ثم جهزها وخلاها ، ثم قال : والله ما أرى النابغة يرضى

---

(١) الأغانى ١٠/٧

بهذا منا ، فأطلق له سبي غطفان وأسراهم ، فقال النابغة فى مدحه :

يقودهم النعمان منه بمُحْصَفٍ وكَيْدٍ يغم الخارجىَّ مناجِدِ
فآب بأبكار وعُونٍ عقائل أوانس يحميها امرؤ غير زاهدِ
غرائر لم يلقين بأساء قبلها لدى ابن الُجلاح ما يثقن بوافد
أصاب بنى غيظ فأضحوا عباده وجللها نُعْمَى على غير واحد
فسكّنتَ نفسى بعدماطار روحها وألبستنى نُعْمَى ولستُ بشاهد[١]

اعتداد أبيها برأيها وبجوارها

١ — أليست استشارة الرجل لابنته دليلا على إعزازها وتقديرها ؟ لقد كان أبوها يستشيرها فى زواجها كما سبق ، وكان يستشيرها أيضا فى أموره الخاصة ،ويستصوب رأيها. هكذا كان يفعل لقيط بن زرارة ، فكان يرجع إلى رأى ابنته دختنوس ، ويستصحبها معه فى غزواته ، ويرجع إلى رأيها[٢] . وهكذا كان يفعل عامر بن الظرب ، فقد كانت ابنته عَمْرة تقرع له العصا إذا سها فى الحكم ، وفيه يقول المتلمس :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما عُلِّم الإنسان إلا ليعلما[٣]

ولقد بلغ بالبنت حسن الرأى وعلو القدر إلى أن تصلح ما بين أبيها وجدها لأمها ، كما فعلت الُجمانَة بنت قيس بن زهير العبسى ،إذ قالت لأبيها لما تنازع مع عمه الربيع بن زياد العبسى فى درع لقيس اغتصبها الربيع : دعنى أناظر جدى ، فإن صلح الأمر بينكما ، وإلا كنت من وراء رأيك . فأذن لها ، فأتت جدها الربيع فقالت : إذا كان قيس أبى فإنك جدى ، وما يجب من حق الأبوة علىَّ إلا كالذى يجب عليك من حق البنوة لى ، والرأى الصحيح تبعثه العناية ، وتجلى عن محضه

---

(١) شعراء النصرانية ٦٦٨
(٢) الكامل لابن الأثير ٢١٢/١
(٣) الأغانى ٣/٥ ولسان العرب مادة قرع

النصيحة . إنك قد ظلمت قيساً بأخذ درعه ، وأجد مكافأته إياك سوء عزمه ، والمعارض منتصر ، والبادى أظلم ، وليس قيس ممن يُخَوَّف بالوعيد ، ولا يردعه التهديد ، فلا تركن إلى منابذته ، فالحزم فى متاركته ، والحرب متلفة ، والسلم أرخى للبال . ثم قالت :

أبى لا يرى أن يترك الدهرَ درعه … وجدى يرى أن يأخذ الدرع من أبى

فرأى أبى رأىُ البخيل بماله … وشيمة جدى شيمة الخائف الأبى

فرق جدها ورد الدرع إلى أبيها وتصافيا [1] . ولكن الصفاء كان مؤقتاً لأن أسبابا أخرى أشعلت الحرب بينهما [2] .

٢ — وإذا أجارت نفذ أبوها إجارتها ، ولو أن أباها لا يعتد بها ما أمضى إجارتها . من ذلك أن عمرو بن عبد الملك طالب مروان بن زنباع العبسى ، فخرج هاربا حتى أتى أبيات بنى شيبان ، فلجأ إلى أعظمها — وكان لجماعة بنت عوف الشيبانى — فاستجارها ، فأجارته ، ثم لحقته خيل عمرو ، فبعثت جُماعة إلى أبيها أنها قد أجارته ، فحماه من مطارديه [3] . وكذلك أجارت فُكَيْهة بنت قتاد السليكَ بن السُّلَكة من بعض قومها ، فلما أدركوه قامت دونه ، وكشفت خمارها عن شعرها ، وصاحت بإخوتها فجاءوها ، ودفعوا عنه حتى نجا من القتل ، فمدحها السليك بقوله :

لعمر أبيك والأنباء تَنْمى … لنعم الجار أخت بنى عوارا

من الخْفرات لم تفضح أباها … ولم ترفع لإخوتها شنارا

وما عجزت فكيهة يوم قامت … بنصل السيف واستلبوا الخمارا [4]

---

(١) بلاغات النساء لابن طيفور ١٢٥

(٢) الأغانى ١٦/٢٨ وشعراء النصرانية ٩٢١ والكامل لابن الأثير ١/٢٠٤

(٣) أخبار النساء لابن قيم ٦٥

(٤) المحبر ٤٣٣ والأغانى ١٨/١٣٧ والمحاسن والأضداد ٥٥

٣ — وقد أبقى الإسلام على حقها فى الإجارة ، لأنها تكريم لها وإعزاز . من ذلك أنه لما أُسِرَ أبو العاص بن الربيع فى غزوة بدر ، وشرعت قريش تفدى أسراها ، بعثت زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم — وكانت بمكة — بمال فى فداء زوجها أبى العاص ، وفيه قلادة لها كانت السيدة خديجة أدخلتها بها على أبى العاص — وهو ابن أختها — ، فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة ، وقال : إلا رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها مالها فافعلوا . فقالوا : نعم يا رسول الله ، فأطلقوه ، وردوا عليها الذى لها . ثم فرق الإسلام بينهما ، وجاءت زينب إلى المدينة .

وبعد مدة قابلت سرية لرسول الله أبا العاص عائداً من الشام ، فأصابوا ما معه ، وهرب منهم ، ولكنه أقبل فى الليل حتى دخل على زينب ، فاستجار بها ، فأجارته . وفى صلاة الصبح صرخت من صُفة النساء : أيها الناس ، إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع . فلما سلم رسول الله أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعتُ ؟ قالوا : نعم . قال : أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم . ثم انصرف فدخل على ابنته ، فقال لها : أى بنية أكرمى مثواه ، ولا يخلص إليك ، فإنك لا تحلين له . ثم أسلم أبو العاص ، فرد عليه رسول الله زينب بالنكاح الأول ، ورد عليه ماله [(١)] .

وفى الإسلام أيضاً أجارت أم هانىء بنت أبى طالب رجلين من أحمائها ، فأجارهما النبى صلى الله عليه وسلم [(٢)] .

كنايته بأسمها :

ومن مظاهر تقدير البنت وعزازتها أن الآباء كثيراً ما كانوا يُكَنَّوْن

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٩٧ و ٣٠٤ وتاريخ الطبرى ١/٢٩١ وتاريخ اليعقوبى ٢/٧٣ والإصابة ٨/٩٢ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٥٠

(٢) سيرة ابن هشام ٤/٣٠

بأسماء بناتهم كما يكنون بأسماء أبنائهم . يقول أوس بن حجر مفتخراً بنصرهم ، وببسالة أبى ليلى :

وجاءت سُلَيمٌ قَضُّها وقضيضها ... بأكثر ما كانوا عديداً وأوكعوا
وجئنا بها شهباء ذات أشِلَّةٍ ... لها عارض فيه الأسنة تلمع
فردُّ أبو ليلى طفيلَ بن مالك ... بمنعرج السُّوبان لا يَتَقَصَّع [1]

ويقول راشد بن شهاب اليشكرى فى هجاء قيس بن مسعود الشيبانى :

فمهلا أبا الخنساء لا تشتِمَنَّنى ... فتقرع بعد اليوم سِنَّكَ بالندم [2]

وأمثال هذا كثير ، مثل حذيفة — أو سهيل — بن المغيرة كان يكنى أبا أمية [3] ، وربيعة بن رياح والد زهير اشتهر باسم أبى سُلْمى [4] ، ووالد حنظلة الطائى كنى بأبى عفراء [5] ، ومسافر بن أبى عمرو بن أمية كان يكنى بأبى أمية [6] والنابغة الذبيانى كان يسمى أبا أُمامة [7] ، ولقب معن أحد أجداد أعشى باهلة باسم بنته فسمى أبا باهلة [8] ، وكنى مالك بن عمرو بن ثابت بأنه أبو حَنَّة [9] ، وجابر بن أسامة الجهنى بأبى سعاد [10] ، وعمرو بن عبدالله الجمحى بأبى عزة [11] وحاتم الطائى بأبى سَفَّانة [12] . وهنالك أبو أمامة [13] ، وأبو ريطة [14] ، وأبو آمنة [15] ، وأبو جميلة [16] ، وأبو أسماء ، وأبو كدراء العجلى [17] ،

---

(١) ديوان أوس ١١ وأساس البلاغة مادة شل . أوكعوا : جاءوا بأمر شديد . أشلة جمع شليل وهو ما يلبس تحت الدرع . لايتقصع : لايخرج من نقب الجمل

(٢) المفضليات ٢/١٠٨
(٣) الإصابة ٨/٢٠٣
(٤) الأغانى ٩/١٣٩
(٥) الأغانى ٩/٨٩
(٦) الأغانى ٨/٤٦
(٧) الأغانى ٩/١٥٤ وخزانة الأدب ٢/٥
(٨) خزانة الأدب ١/١٣٠
(٩) الطبقات الكبير ٣/٤٥
(١٠) أسد الغابة ٥/٢٠٨
(١١) طبقات الشعر لابن سلام ٩١
(١٢) أسد الغابة ٥/٤٧٥
(١٣) المعارف ٣/٢٧
(١٤) أسد الغابة ٥/١٩٨
(١٥) أسد الغابة ٥/١٣٢
(١٦) أسد الغابة ٥/١٦٠
(١٧) الوحشيات لأبى تمام ٦٢ مخطوط

وأبو نائـلة [١] ، وأبو لبابة [٢] . ويظهر أن اليهود الذين عاشوا بالحجاز حاكوا العرب فى ذلك ، لأن أبا الحارث الذى أجلى عمر آله إلى أريحاء بفلسطين كان يسمى أبا زينب [٣] .

وإذا كان الأب يكنى باسم ابنته إعزازاً لها ، فإنه كان يتجه إليها بفخره كما كان يتجه به إلى محبوبته وزوجته . قال ثعلبة بن عمرو :

أأسماء لم تسألى عن أبيـــــــك والقوم قد كان فيهم خطوب

إن عَرِيباً وإن ساءنى أحب حبيب وأدنى قريب

ثم أخذ يعدد مفاخره ، ويصف مهره ونكايته بعدوه [٤] .

بغض بعضهم للبنات

١ — رغب كثير من العرب عن البنات ، وذاعت بغضتهم، واشتهروا بها. فقد قيل لأعرابى : ما ولدك ؟ قال : قليل خبيث ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لا عدد أقل من الواحد، ولاأخبث من بنت [٥] . وقد هجر أبو حمزة الضبى خيمة امرأته حين ولدت بنتاً ، وكان يقيل ويبيت عند جيرانه ، فمر بخبائها يوما ، فسمعها تتغنى لابنتها بقولها :

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا

غضبـان ألا نلد البنينا تالله ما ذلك فى أيدينا

وإنما نأخـــذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا

ننبت ما قد زرعوه فينا

فثاب إلى رشده ، وولج الخباء فقبل رأس زوجته ، وقبل ابنته [٦] . وكانوا

---

(١) المغازى ١٨٧ (٢) المعارف ٢٥٨

(٣) المغازى ٢٧١

(٤) سمط اللآلىء ١/٥٢ والمفضليات ٢/٥٣

(٥) اللطائف والظرائف ٦٨ ونزهة الأبصار والأسماع ٤٤

(٦) البيان والتبيين ١/١٨٦ و ٤/٤٧

إذا هنأوا بها قالوا : آمنكم الله عارها ، وكفاكم مئونتها ، وصاهرتم القبر[١] .

وقد سجل القرآن الكريم هذه البغضة فى مواضع شتى ، قال تعالى : « ويجعلون لله البنات سبحانه ، ولهم ما يشتهون * وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون »[٢] وقال : « ويجعلون لله ما يكرهون »[٣] وقال ، « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ، إنكم لتقولون قولا عظيما[٤] » وقال : فاستفتهم ألربك البنات ولهن البنون . أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون . ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ، وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون »[٥] وقال : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم[٦] على أن بعض النساء شاركن فى هذه البغضة ، قالت امرأة مُحْمِقة إنها لا تبالى أن تلد حُمْقا ، لأنهم ذكور :

وما أبالى أن أكون مُحْمِقه　　إذا رأيت خصية معلقه[٧]

وقالت قابلة لامرأة اسمها سحابة وقد ضربها المخاض ، وهى تطلق على يديها :

أيا سحاب طرِّقى بخير　　وطرقى بخصية وأير[٨]

ولا ترينا طرف البُظَيْرِ

٢ — ولم تقتصر هذه البغضة على الجاهليين ، فقد كان بعض المسلمين يبغضون البنات ، على تنديد القرآن والحديث ببغضة أسلافهم للبنات . فليس من الإنصاف أن يوصم الجاهليون وحدهم بهذه الوصمة .

---

(١) محاضرات الأدباء ١/٢٠٤　　(٢) سورة النحل ٥٧ – ٥٩

(٣) سورة النحل ٦٢　　(٤) سورة الإسراء ٤٠

(٥) سورة الصافات ١٤٩ – ١٥٤　　(٦) سورة الزخرف ٧١

(٧) البيان والتبيين ١/١٨٥

(٨) شرح الحماسة للمرزوقى ٤/١٦٨ والحيوان ٥/١٨١ والبيان والتبيين ١/١٨٥

طرق : المراد بشرى بخروج الجنين

فقد رأى عمرو بن العاص معاوية ومعه ابنته عائشة ، فقال : من هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذه تفاحة البيت . فقال عمرو : انبذها عنك ، فإنهن يلدن الأعداء ، ويقربن البعداء ، و يؤرثن الضغائن . قال : لا تقل كذا يا عمرو ، فوالله ما مَرَّض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا أعان على الأحزان إلا هن . فقال عمرو : ما أراك إلا حببتهن إلى[1] .

وكذلك كان عَقِيل بن عُلَّفَة يؤثر موت البنت على أن تحيا وتتزوج ، وإن عظم الزوج وكثر المهر :

إنى وإن سيق إلى المهر ألف وعُبْدانٌ وذَوْدٌ عَشْرُ
أحب أصهارى إلى القبر[2]

وكان إسحاق بن خلف البهرانى يود أن تموت ابنته أميمة وهو يعلم أنها كلفة بحياته ، غير أنه فى تعجله موتها صور حبه لها وحدبه عليها وحزنه من بكائها عليه إذا مات فى قوله :

لولا أميمة لم أجزع من العدم ولم أَجُبْ فى الليالى حِنْدِس الظُّلَمَ
وزادنى رغبةً فى العيش معرفتى ذلَّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ وكنت أبكى عليها من أذى الكلم
تهوى حياتى وأهوى موتها شَفَقا والموت أكرم نَزَّال على الُحرَمَ
إذا تذكرت بنتى حين تندبنى فاضت لعبرة بنتى عبرتى بدم[3]

فلما ماتت قال أبياتاً منها :

فالآن نمت فلا همٌ يؤرقنى بعد الهدوء ولا وَجْدٌ ولا حُلُمُ

---

(١) اللطائف والظرائف للثعالبى ٦٨ ونزهة الأبصار والأسماع ٤٤

(٢) زهر الآداب ٢/١٧٤ تحقيق زكى مبارك ، وذكر أنه ابن علقمة ، والصواب علفة كما فى المؤتلف والمختلف للآمدى ١٦٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى ٣٠١ وشرح الحماسة للتبريزى ١/٢٠٩ و ٣/٢٣ و ٨٦ وطبقات الشعراء لابن سلام ٥٦١

(٣) فوات الوفيات لابن شاكر ١/١٠ وزهر الآداب ٢/١٧٤

لِلْمَوْتِ عندى أياد لست أنكرها أحيا سروراً وبى مما أتى ألم[١]

وعَدَّ عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وسائل الستر التى يرجِّيها كل أب لابنته ، وفضل القبر عليها جميعاً :

لكل أبى بنت يُرَجَّى بقاؤُها ثلاثة أصهار إذا ذكر الصِّهرُ
فبيت يغطيها وبعل يصونها وقبر يواريها ، وخيرهم القبر[٢]

وروى أن الأحنف بن قيس لما بشر بابنته بكى ، فقيل له فى ذلك ، فقال : وكيف لا تأخذنى العبرة ، وهى عورة ، هديتها سرقة ، وسلاحها البكاء ، ومَهْناها لغيرى[٣] .

أما أبو العلاء المعرى فكان أشد بغضة للبنات من البنين ، ويرى فى دفنهن مكرمة .

وإن تُعْطَ الإناثَ فأى بؤس تَبَيَّنَ فى وجوه مُقَسَّماتِ

. . . .

ودفنٌ والحوادثُ فاجعاتٌ لإحداهن إحدى المكرمات[٤]

الوأد

كيف يطيق أب أن يبوىء ابنته حفرتها بيديه ؟

وأين ذهبت عاطفة الأبوة ، وآصرة الإنسانية ، وخلق الرحمة والشفقة ؟

إن الوأد صورة بشعة تستدر الدموع ، وتستثير الألم ، فكيف صبر الأب عليه ؟

وكيف احتملت الأم آلامه ؟ وهل يتفق الوأد مع ما قدمت من عزازة المرأة أمًا وزوجة وابنة ؟

---

(١) زهر الآداب ١/٢٠٤ و ٢/١٧٤
(٢) زهر الآداب ٢/١٧٤
(٣) محاضرات الأدباء ١/٢٠٤
(٤) اللزوميات ١/١٥١

سبب الوأد

١ — ذكر القرآن الكريم أن بعضهم كانوا يئدون مخافة الفقر أن ينزل بهم ، فيضيق وجْدهم عن الإنفاق على الذكور وعلى الإناث معاً ، قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم ﴾[١] .

وذكر أن بعضهم كانوا يئدون تخففاً من الأولاد ، لأنهم عاجزون عن الإنفاق عليهم: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾[٢]. لهذا قدم الله تعالى رزق الآباء على رزق الأبناء فى مقام توقع الفقر والخشية منه فى المستقبل ، وقدم رزق الأبناء على رزق الآباء فى مقام الفقر الواقع الحادث[٣] فالأولون هم الأغنياء والآخرون هم الفقراء .

كان الوأد أثراً من آثار الفقر المتخوف أو الحادث ، لأن البيئة شحيحة بالزاد ، ضنينة بالخير ، كثيرة الفواجع والمجاعات ، ليس بها زرع يمون سكانها ، ولا صناعات ينشرونها فى الآفاق ، فتدر عليهم الأموال ، والإناث فى هذه البيئة عبء على الآباء ؛ لأنهن يأخذن ولا يعطين ، وينفقن ولا يكسبن ، « ولا شك أن الوأد عادة منكرة ، ولكن المجاعات الكثيرة نتيجة لندرة الأمطار دفعت إليها »[٤] .

وإذا كان العرب قد اضطروا إلى استكمال حاجتهم بالإغارة على القبائل المجاورة، فإنهم قد اضطروا أيضاً إلى الوأد خشية الإملاق[٥] .

وكان العرب الذين يئدون يعتقدون أن الوأد يدل على الأريحية ، كما كان بعضهم يباهى به ، وبعضهم يقترفه منجاة من احتمال متاعب من بنات قد يؤسرن. ولكن القرآن الكريم يذكر الفقر وحده ، وهذا حق ؛ لأن البيئة مجدبة جدا ،

---

(١) سورة الإسراء ٣١ (٢) سورة الأنعام ١٥١
(٣) روح المعانى ٨/٥٤ (٤) Nicholson. P. 06
(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٦/٢٦٧

وقد ذكر مستر داوتى كثيراً من المشقات التى يقاسيها سكان الصحراء فى أكثر شهور السنة ، حيث لا يجد الطعام إلا الأغنياء[١] .

ومما يدل على أن الوأد كان فى الأغنياء أيضاً أن مهلهل بن ربيعة أمر زوجته حين ولدت له بنتاً أن تقتلها ، فأمرت خادماً لها أن تغيبها عندها ، ثم بدا له فأمرها بإحسان تربيتها ، فكبرت حتى تزوجت[٢] .

وسنرى أن كثيراً من الأغنياء وأدوا .

وكان الوأد مقصوراً على الإناث ، وإذاً فالمراد من الأولاد فى الآيتين الكريمتين الإناث ، وهذا هو المفهوم من حديث صعصعة بن ناجية ، ذلك بأنه خرج يبحث عن ناقتين له ، فمر على قوم من بنى أنمار من تميم ، وإذا شيخ يوقد ناراً فى مقدم بيته ، ونساء قد اجتمعن إلى امرأة ماخض ، وتكلمت النساء فقلن : « قد جاء » يعنين الولد . قال الشيخ : « إن كان غلاماً فوالله ما أدرى ما أصنع به ، وإن كانت جارية فلا أسمعنّ صوتها ، اقتلنها » قلت : « ذرها فإنها ابنتك ورزقها على الله » ، قال : « إنى أراك بها حفيا فاشترها منى » فأعطيته ناقتين وجملا[٣] .

فهذا الرجل حيران ، ماذا يصنع بابنه الذكر ؟ وكيف يطعمه ؟ ولكنه لم يهم بقتله ، بل اعتزم قتل الأنثى[٤] .

٢ — وقد ذكر المؤرخون والمفسرون أن من أسباب الوأد الغيرة على البنات أن يسبين أو يزوجن بغير أكفاء[٥] ، وقالوا إن أول من فعل ذلك قيس بن

---

(١) Moslem Law. P. 26 (٢) الأغانى ٩/١٧٥

(٣) تفسير الطبرى ١٥/٧٥ والنيسابورى ١٥/٣٣ والكشاف ١/٥٤٦ والاعتصام ٢/١٨١ (٤) النقائض ٦٦٧

(٥) النيسابورى ١٥/٣٣ و ١٤/٧٧ والكشاف ٢/٥٢٦ والقرطبى ١٠/١١٧ والاعتصام ٢/١٨١ وروح المعانى ٨/٣٢

عاصم ، ذلك بأن تميم منعت الإتاوة عن النعمان بن المنذر ، فحاربهم وسبى نساءهم ، ثم وفد قيس على النعمان ليسترد السبايا ، فآثرن العودة ، إلا ابنته فقد آثرت سابيها على أبيها ، فانصرف قيس فوأد كل بنت ، وجعل ذلك سُنَّةً كل بنت تولد له ، واقتدت به العرب ، فكان كل سيد تولد له بنت يئدها خوفاً من الفضيحة[١] ولما وفد قيس بن عاصم على رسول الله سأله بعض الأنصار عن وأده ، فأخبرهم أنه ما ولدت له بنت إلا وأدها[٢] ، وحدث رسول الله بقوله : كنت أخاف سوء الأحدوثة والفضيحة فى البنات ، فما ولدت لى بنت قط إلا وأدتها[٣] . وقد أمره النبى أن يعتق عن كل موءودة رقبة ، فقال له أبو بكر : فما الذى حملك على ذلك وأنت أكثر العرب مالا ؟ قال : مخافة أن ينكحهن مثلك . فتبسم رسول الله وقال : هذا سيد أهل الوبر[٤] .

وإنى أشك فى أن يكون قيس هذا أول وائد ، لأنه أدرك الإسلام ، وأسلم[٥] ، فليس بمعقول أن ينشأ الوأد قبيل الإسلام بسنوات ، ثم يشيع فى بعض قبائل العرب فى زمن وجيز ، ثم ليس بمعقول أن يحاكى العرب قيس ابن عاصم ويشايعوه فى عمله ، لأن حادثته فردية لا ينشأ عنها عمل إجماعى ، وكان حريًّا بالعرب أن يعيروه لا أن يحاكوه .

على أنهم اختلفوا فى أول وائد ، فقيل إنه قيس ، وقيل إنه أمير من ربيعة ، وذكروا فى سبب وأده قصة تشبه تمام الشبه قصة قيس[٦] .

ويرجع بعضهم القهقرى إلى زمن أبعد ، فينسب الوأد الأول إلى لقمان ابن عاد ، لأنه كان يقتل نساءه انتقاما ، بعد أن خُنَّه ، فلما قتل أخراهن ونزل من

---

(١) الأغانى ١٢/١٤٤ والكامل للمبرد ١/٢٨٨ وصحيح البخارى فى الوأد ومجمع الأمثال ١/٣٨٩ وشرح ابن أبى الحديد ٣/٢٤٢ ونهاية الأرب ٣/١٠٧ وفى الأغانى أن التى امتنعت بنت أخته . (٢) الأغانى ١٢/١٤٣
(٣) الأغانى ١٢/١٤٣ (٤) محاضرات الأدباء ١/٢٠٥
(٥) الأغانى ١٢/١٤٣ (٦) بلوغ الأرب ٣/٤٢

الجبل كان أول من تلقاه صَخْر ابنته ، فوثب عليها فقتلها ، وقال : أنت أيضاً امرأة ، فضربت العرب المثل بقتله صُخْراً ، قال خُفاف بن نُدْبة :

وعيّاشٌ يُدِبُّ لى المنـــايا وما أذنبت إلا ذنب صُخْر

وقال عروة بن أذينة :

أتجمع تهيـاما بليلى إذا نأت وهجرانها ظلماً كما ظُلِمَتْ صُخْرُ(١)

وسواء أكان الوائد الأول معلوما أم مجهولا، فإنى أرجح أن الخوف من العار كان باعثاً من بواعث الوأد ، لأن الحروب والغارات كانت لا تخبو نارها ، وكان السبي من آثارها ، والعرب غُيُر على النساء ، والسبي معرّة فى نظرهم ، كما سنرى فى فصل السبايا .

و إذا كان القرآن الكريم قد اقتصر على ذكر الفقر والخوف من الفقر ، ولم يشر إلى السِّباء ، فإن ذلك راجع إلى أن الفقر والخوف منه مردّهما إلى الله تعالى ، وإليه الأمل فى زوالهما ، أما السبي فمرجعه إلى العبـاد وحروبهم ، والحروب لا مندوحة عنها ، والسبي نتيجة من نتائجها ، فكيف ينهاهم القرآن الكريم عن الوأد مخافة السبي ، وهو لا محيد عنه ؟

نعم كان السبي — كما سأبين فى السبايا — متوقعاً لا مفر منه « فكان الدافع إلى الوأد النزوع إلى المحافظة على الشرف ، لأن الآباء كانوا يخشون إطعام أفواه لا فائدة فيها ، ويخشون أيضاً أن يصيبهم العار من وقوع بناتهن فى قبضة الغالبين »(٢) .

٣ — وقد ذهب الدكتور على عبد الواحد وافى إلى أن وأد البنـات دون الذكور راجع إلى عقيدة دينية قديمة .

وذلك أنهم اعتقدوا أن البنات رجس من خلق الشيطان ، أى من خلق

---

(١) الحيوان للجاحظ ١/٢١

(٢) Nicholson P. 91

إله غير آلهتهم ، فتخلصوا منهن .

وله أدلة على نظريته هذه من الآيات القرآنية الكثيرة التى تربط وأد البنات بنظام من العقيدة ، كقوله تعالى « ويجعلون لما لا يعلمون ـ أى لآلهتهم التى لاعلم لها لأنها جماد ـ نصيباً مما رزقناهم ـ من الزروع والأنعام ـ تالله لتسألن عما كنتم تفترون . ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ـ أى لآلهتهم ـ مايشتهون ـ أى البنين ـ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم[١] .

وهو يذهب إلى أن هذا نوع من الوأد مقصور على البنات ، غير الوأد الذى سببه الفقر[٢] .

٤ — وقيل إن بعضهم كان يئد نوعا من الإناث هن الزرقاء ، والشَّيْماء ـ السوداء أو التى فى بدنها بقع تخالف سائره ـ والبرشاء ـ التى بها نكت صغار تخالف بقية لونها ـ والكسحاء ، وسبب هذا الوأد التشاؤم من هؤلاء[٣] .

وإن صح هذا فلعل سببه أن اليأس من تزويجهن كان مشفوعا إلى التشاؤم منهن ، وربما كان السببان معاً مشفوعين إلى الفقر أو مخافة الفقر .

طريقة الوأد :

تنوعت وسائل الوأد ، فبعضهم كان يحفر حفيرة ، تمخض المرأة على حافتها ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها فى الحفرة ، وإن ولدت ولداً احتفظت به ، وبعضهم كان يرميها من شاهق جبل ، ومنهم من كان يغرقها ، ومنهم من كان يذبحها[٤] .

والأعم الأكثر أن توأد البنت حين ولادتها ، وإن وردت أخبار عن وأد فى الكبر ، فقد ذكر قيس بن عاصم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأته

---

(١) سورة النحل ٥٦ ـ ٥٩
(٢) الأسرة والمجتمع ١١٩ ـ ١٢٣ ومجلة الرسالة ٣ مارس سنة ١٩٤١
(٣) إنسان العيون ١/٥٠ والروض الأنف ١/١٤٨
(٤) تفسير الطبرى ١٤/٨٤ والكشاف ٢/ ٥٢٦ والنيسابورى ١٤/٧٧

ولدت بنتاً فى سفره ، فدفعتها إلى أخوالها ، فلما قدم من سفره أخبرته أنها ولدت ولداً ميتا ، ومضت سنون حتى كبرت الصبية و يفعت ، فزارت أمها يوما ، فرآها قيس فأعجبته ، فسأل عنها ، فبكت أمها وقالت له : هذه ابنتك ، وقصت عليه حيلتها . قال : فأمسكت حتى اشتغلت عنها ، ثم أخرجتها فحفرت لها حفيرة ، فجعلتها فيها ، وجعلت أقذف عليها التراب ، وهى تقول : يا أبت أمغطى أنت بالتراب ؟ أتاركى أنت وحدى ومنصرف عنى ؟ وجعلت أقذف عليها التراب حتى واريتها وانقطع صوتها . فما رحمت أحدا ممن واريته غيرها . فدمعت عينا النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن هذه لقسوة . وإن من لم يرحم لا يرحم[1] . و يذكر الزمخشرى أن الرجل كان إذا أراد أن يستحيى بنته ألبسها جبة صوف أو شعر ، وأرعاها إبله أو غنمه فى البادية ، وإن أراد أن يقتلها تركها حتى إذا كانت سداسية قال لأمها : طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ، وقد حفر لها بئراً فى الصحراء ، ثم يدفعها فيها ويهيل عليها التراب[2] .

وأرى أن إمهال البنت حتى تكبر ثم وأدها أمر بعيد الاحتمال ، فما الذى زين لأبيها أن يستحييها إلى هذه السن ؟ ولماذا لم يتخلص منها وهى وليدة ؟ لماذا أبقاها سنوات ينفق عليها ويتعلق بها وتتعلق بها أمها ثم يقتلها ؟

هل اقتصر الوأد على الإناث :

لم يقتصر القتل على الإناث ، بل تعداهن إلى الذكور ، بدليل قوله تعالى « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون . وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . قد

---

(١) الأغانى ١٢/١٤٣ (٢) الكشاف ٢/٥٢٦

خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين »[١] . وذلك أن أهل المدر والحرث كانوا يقسمون ما حرثوا قسمين : قسما لآلهتهم وقسما لله ، فإن سقط فيما لآلهتهم شيء مما لله تركوه وأقروه ، و إن سقط فيما جعلوه لله شيء مما لآلهتهم ردوه[٢].فوبخهم الله على زعمهم وسوء فعالهم ، ثم شبه بضلالهم هذا ضلالا آخر ، هو أن شركاءهم من الشياطين أو سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم بالوأد أو بالنحر للآلهة ، وكان الرجل فى الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم ، كما حلف عبد المطلب فى ابنه عبد الله[٣] ، فقد نذر أنه متى رزق عشرة أولاد ذكور ورآهم رجالا أن ينحر أحدهم للكعبة شكراً لربه ، فلما استكمل أولاده العدد ، همّ بإنجاز ما وعد ، وأجال القداح بينهم ، فكان الذبح نصيب عبد الله ، فحماه أخواله بنو مخزوم ، وأشاروا على عبد المطلب أن يحتكم إلى كاهنة بنى سعد ، فحكمت بالدية مائة بعير فداء لعبد الله[٤] :

ويظهر من نص الآيات القرآنية النهى عن قتل الأولاد ذكوراً كانوا أو إناثا[٥] .

على أننا لم نعرف حادثاً لِهَمٍّ بقتل الولد الذكر غير حادث عبد المطلب .

هل كان الوأد عاما ؟

ذهب المنتقصون من قدر العرب عامدين أو غير عامدين إلى أن الوأد كان عاما فى القبائل كلها . ونقل الميدانى عن الهيثم بن عدى أنه كان فى قبائل العرب قاطبة ، يستعمله واحد و يتركه عشرة ، فجاء الإسلام وقد قل إلا فى تميم ، فإنه

(١) سورة الأنعام ١٣٦ ــ ١٤٠ (٢) المحبر ٣٣١
(٣) الكشاف ١/٣١٢ والاعتصام ٣/١٨٣ وروح المعانى ٨/٣٢
(٤) سيرة ابن هشام ١/١٦٧ والكامل لابن الأثير ١/٢١٥ وإعلام النبوة ٢٠٦
(٥) الاعتصام ١٨٣ وبلوغ الأرب ٣/٤٤

تزايد فيهم قبل الإسلام [١] .

وذهب الباقون إلى أنه كان فى بعض القبائل ، ولم يكن فى جميعها ، وذكروا هذه القبائل وهى : تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل [٢] .

وممن لم يئدوا : الطُّلْس وهم جميع أهل اليمن ، وأهل حضرموت ، وعك ، وعجيب و إياد بن نزار [٣] .

وهذا هو الحق ، لأن إعزاز بعضهم للبنات – كما سبق – يتنافى وذلك الوأد العام . ولو أن الوأد كان عاما فى العرف كما ذهب الهيثم بن عدى لقلت النساء قلة لا تكفل للرجال تعدد الزوجات كما رأينا . ولو أنه كان عاما لتباهى به الشعراء ، ولهجوا الذين لا يئدون ، لأن الوأد فضيلة وتركه رذيلة .

الأم والوأد :

هنا تصمت المراجع والأخبار والأشعار صمتا عجيبا ، فلا تنقع غلتنا ، بل لا تبل بعض صدانا إلى معرفة حال الأم من وأد ابنتها ، أكانت تشارك الأب فى كراهيته لابنتها ؟ أم كانت تحبها وتؤثر بقاءها وتبكى لوعة وشجى حينما يختطفها أبوها ليئدها ؟

وكل ما عثرت عليه أن كبيرة بنت أبى سفيان – مخضرمة – قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى وأدت أربع بنين لى فى الجاهلية ، فقال : أعتق أربع رقاب [٤] ، والظاهر أنها تريد أربع بنات :

وأستنتج من حادثة قيس بن عاصم السابقة أن امرأته كانت حريصة على استحياء ابنتها ، لأنها أخفتها عند أخوالها ، ثم بكت لما توجست أنه سيقتلها [٥]

---

(١) مجمع الأمثال ١/٣٨٩ وبلوغ الأرب ٣/٤٢

(٢) الكامل للمبرد ١/١٨٨ وشرح ابن أبى الحديد ٣/٢٤٢

(٣) المحبر ١٧٩ و ١٨١

(٤) الإصابة ٨/١٧٦

(٥) الأغانى ١٢/١٤٣

ثم إن صعصعة بن ناحية مر برجل يحفر حفرة وامرأته تبكى ، وأخبرته أنه يريد وأد ابنتها ، فرقَّ لها صعصعة وفداها [١] .

على أنى أفزع إلى الأمومة أستنبئها ، فتخبرنى صادقة أن النساء كن فى القبائل الوائدة حسيرات القلوب ، كسيرات النفوس ، غزيرات الدموع ، وأن غريزة الأمومة وطبيعة الأنوثة لا تقر هذه القسوة ، ولا ترتضى أن تنتزع منها ثمرة من ثمراتها لتقدم طعمة للثرى .

ولم تكن المرأة العربية وحدها هى التى سُلبت بناتها فرضيت أو كظمت لوعتها ، فقد كانت المرأة فى أثينا خاضعة للزوج ، حتى إنه إذا شاء انتزع من الأم ابنتها وتركها فى الجبل أو الطريق فى جرة من الفخار ، تبكى بكاء يفتت الأكباد إلى أن تلفظ أنفاسها . ولا تستطيع الأم أن تعارضه أو تنطق بكلمة [٢] .

احياء الموءودات :

سيدان من سادات العرب حملا لواء الرحمة ، وأنقذا من ظلمات الحفائر بنات كثيرات ، هما صعصعة بن ناجية ، وزيد بن عمرو بن نفيل .

أما صعصعة جد الفرزدق فقد سمى محيي الموءودات ، وكان السبب فى مكرمته هذه أنه مر برجل من قومه ــ تميم ــ يحفر بئراً ، وامرأته تبكى ، فقال لها صعصعة ما يبكيك ؟ قالت : يريد أن يئد ابنتى هذه . فقال له : ما حملك على هذا ؟ قال : الفقر . قال : فإنى أشتريها منك بناقتين يتبعهما أولادهما تعيشون بألبانهما ، ولا تئد الصبية . فرضى الرجل ، فأعطاه الناقتين وجملا فحلا ، وقال فى نفسه : إن هذه لمكرمة ما سبقنى إليها أحد من العرب ، فجعل على نفسه ألا يسمع بموءودة إلا فداها . فجاء الإسلام وقد فدى ثلاثمائة موءودة ، وقيل أربعمائة ،

---

(١) الأغانى ١٩/٤

(٢) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٩٩ Mrs Ray Strachey

وقيل ستا وتسعين ، وقيل ثلاثمائة وستين [١] وقيل مائتين وثمانين [٢] وقيل مائة وأربعاً [٣] . وليس من المنتظر أن يبلغنا العدد الحقيقي أوالقريب منه ، لأن المبالغة والتنفج والمباهاة لابد أن تضاعف العدد أو تضخمه . ولقد يكون من الصواب أيضاً أن كثيراً من الفقراء ادعوا أنهم سيئدون لينالوا من عطاء صعصعة .

وقد خايل الفرزدق بإحياء جده للوئيدات فى عدة قصائد ، كقوله :

أبى أحد الغيثين صعصعة الذى ... متى تخلف الجوزاء والدّلوُ يُمْطِرِ

أجار بنات الوائدين ومن يجر ... على الفقر يُعْلَمْ أنه غير مُخْفَرِ

على حين لا تحيا البنات وإذ همُ ... عكوفاً على الأصنام حول المدوّر

أنا ابن الذى رد المنية فضلُهُ ... فما حسبٌ دافعتُ عنه بمُعْوِرِ

وفارقِ ليلٍ فى نساء أتت أبى ... تمارس ريحاً ليلها غيرُ مقمر

فقالت : أجرلى ما ولدتُ فإننى ... أتيتك من هزل الحمولة مُقْتِرِ

رأى الأرض منها راحة فرمى بها ... إلى جَدَدٍ منها إلى شر مَخْفَرِ

فقال لها : فيئى فإنى بذمتى ... لبنتك جارٌ من أبيها القَنَوَّر [٤]

وقال أيضاً :

وجدى الذى منع الوائدات ... وأحيا الوئيد فلم يوأد [٥]

وروى أن غالب بن صعصعة وفد على النبي وأخبره بفعال أبيه فى الموءودات ، فاستحسنه وسأله : هل له فى ذلك من أجر ؟ فقال : نعم [٦] . وروى أن صعصعة نفسه قدم على النبي فأسلم ، وقص عليه إحياءه للوئيدات ، وسأله : هل لى فى ذلك من أجر ؟ فقال : هذا باب من البرِّ لك أجره إذ مَنَّ الله عليك بالإسلام [٧] .

وأما السيد الآخر فزيد بن عمرو بن نفيل القرشى ، كان يستحيي الموءودات

---

(١) الأغانى ١٩/٣ ــ ٥ (٢) الكامل للمبرد ١/٢٨٩
(٣) المحبر ١٤١ والنقائض ٢٦٤ (٤) الأغانى ١٩/٢ وديوان الفرزدق ٤٧٧
(٥) الأغانى ١٩/٤ (٦) الأغانى ١٩/٢
(٧) الأغانى ١٩/٤

فإذا بصر برجل يهم بوأد ابنته قال له : لاتقتلها ، أنا أكفيك مئونتها . و يأخذها وينفق عليها حتى تكبر ، ثم يقول لأبيها : إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك مئونتها[١] . وقيل إنه أحيا ستاً وتسعين موءودة[٢] .

الوأد عند غير العرب :

لم يكن العرب بدعا فى وأد البنات ، لأن بعض الأمم القديمة فعلت بالبنين فعلا أبشع من فعل العرب .

فالفينيقيون كانوا يعبدون الطبيعة ، ويرمزون لها بصنم اسمه بَعْل يمثل إله النور المسمى مولوخ ، واتخذوا له زوجة أشركوها فى الألوهية سموها عشتر (الزهرة) وكانوا فى عبادة عشتر يستبيحون النساء عامة ، وفى عبادة مولوخ يضحون بالأولاد إحراقا فى النار الملتهبة[٣] .

وكان الأب الإسرائيلى يستطيع أن يبيع أبناءه ذكوراً وإناثاً للرق ، وقد حدَّتْ التوراة فيما بعد من هذا الحق ، لكن الأب ظل يملك أن يقتل أبناءه سواء أكانوا كباراً أم صغاراً[٤] .

وكان الإسبراطيون يقتلون المشوهين والمرضى والضعاف من الأولاد عقب ولادتهم ، ويتركونهم فى القفار طعاماً للوحوش والطيور . ولقد تتحقق الأم نفسها من صلاحية ولدها للحياة فتغمسه فى دن من النبيذ مدة ، فإن عاش دل على قوة بنيته وجدراته بالحياة فيربَّى ، وإن مات فقد تخلص المجتمع من إنسان ضعيف لا يستحق أن يعيش . وكان هذا النظام أو ما يقرب منه سائداً فى أثينا وروما ،

---

(١) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول ٣/١١٣

(٢) بلوغ الأرب للألوسى ٣/٤٥

(٣) المرأة فى التاريخ والشرائع لمحمد جميل بيهم ٤٤

(٤) سفر الملوك الثانى ٤ : ١ وسفر الخروج ٢١ : ٧ وسفر التكوين ٣٨ : ٢٤ وسفر التثنية ١٨ : ٩ و Israeil from its Pegining. 190. Adolphe. Iods.

وقد أقره فلاسفة اليونان وفى مقدمتهم أفلاطون وأرسطو [١] . وأحيانا كان الآباء يقذفون بأبنائهم خارج الحدود ، وإن كانوا أصحاء ، لعجزهم عن الإنفاق عليهم .

وفى روما كان يحمل الطفل عقب ولادته ويوضع عند قدمى والده ، فإما أن يرفعه فيصير فرداً من الأسرة ، وإما أن يحمله إلى مفترق الطرق ليموت أو ليصير من الرقيق [٢] .

وقد اعتاد الصينيون أن يلقوا أبناءهم وبناتهم فى البحر إذا مسهم عوز [٣] .

ولم تكن هذه الشعوب لتفرق فى القتل بين الذكر والأنثى . على أن بعض الشعوب البدائية وغيرها كانت تقتل الأولاد كلهم أو بعضهم لأسباب اقتصادية أو دينية ، فبعض العشائر الأسترالية تختص الذكور بالقتل ، وبعضها تختص الإناث ، وفى بعضها تقتل الأمهات بعض أولادهن بغير تفرقة بين ذكور وإناث [٤] ، وبعضهم لا يتركون للأم إلا ولداً أو اثنين ، ويربون الآخرين إلى سن العاشرة ، ثم يذبحونهم ويأكلونهم ، وتبكى الأم قليلا ثم لا تأبى أن تأخذ نصيبها من لحم ابنها طعاماً [٥] . وما زال الإسكيمو يئدون البنات بعد ولادتهن بزمن قصير ، لأن حياتهم شاقة ذات شظف وفقر [٦] . وللزوجين فى تاهيتى أن يقتلا طفلهما دون أن يلومهما أحد [٧] .

الوأد ومكانة المرأة العربية :

أسلفت أن الوأد عند العرب لم يكن عرفا عاما ، وأن قليلا من القبائل مارسته ، وحتى هذه القبائل نفسها لم يَفْشُ الوأد فى أفرادها جميعاً ، وإلا فكيف

---

(١) جمهورية أفلاطون ١٣٤ والأسرة والمجتمع ١١٨ وتاريخ التربية لمصطفى أمين ٣٥ و ٤٧ وتطور النظرية التربوية ٥٢ لصالح عبد العزيز

(٢) تطور النظرية التربوية ١١٥

(٣) باكورة الكلام على حقوق النساء فى الإسلام ٧٣

(٤) الأسرة والمجتمع ١١٩ (٥) مقدمة الحضارات الأولى . لوبون ٣٧

(٦) النظم الاجتماعية والسياسية ١٥ (٧) قصة الحضارة ٦٨/١

يستمتعن بالحياة ، وينجبن الأبناء ؟ كيف نجا من الوأد آلاف من النسوة اللائى أدركن الإسلام وعددن صحابيات ؟

وبينت أن اليونان والرومان وغيرهم كانوا أقسى على أبنائهم من العرب ؛ إذ قتلوا الذكور والإناث .

على أن الوأد للفقر ليس دليلا على انحطاط مكانة المرأة ، ذلك أنه حينما تضطرب الحياة نتيجة لحروب طاحنة ، أو أزمات مالية قاسية ، أو زلازل وبراكين مدمرة ، قد تتغلب الغريزة الخاصة بالطعام على غريزة الأمومة والأبوة ، فيضطر الوالدان إلى بيع أبنائهما أو تركهما [1] ، فمثلا كان الإسرائيلى يبيع نفسه أو أولاده إذا احتاج [2] .

فالوأد فى حالة العوز إبقاء على النفس ، ولتجنيب البنت ماتقاسى من شظف وجوع ، وليس فى هذا مهانة لها .

أما الوأد خشية العار من سبى يقع فليس حجة على ضعة المرأة عند العرب ، بل إنه دليل على صيانتها وإعزازها وحمايتها وتجنيبها وتجنيب قومها ما قد يلوثهم من معرة سبائها ، وفخر عدوهم بامتلاكها ، ومعيشتها بين أعداء قومها معيشة الذليلة الكسيرة .

حب البنت لأبيها

تتعلق البنت بأبيها منذ طفولتها ، تجد فيه حاميها وعائلها وراعيها ، فإذا ما زوجت ظلت تحبه وتذكره وتشتاقه ، ولا شك أنها كانت تؤثر أباها على زوجها « لأن روابط العاطفة فى الجماعات الأولى كانت بين البنت وأبيها وبين الأخ وأخته أقوى منها بين الزوج وزوجته » [3] .

ومن مظاهر حبها لأبيها :

---

(١) Introduction to social. Psychology. by Mukerjee and Elmer P.271

(٢) التاريخ للسامرى ٣١ (٣) قصة الحضارة ١/٥٨

١ — أنها تتخوف عليه أن يقتل فى حرب ، فتحاول أن تثنيه ، لأنه رجلها وليس لها أب غيره . يقول سلامة بن جندل :

تقول ابنتى إن انطلاقك واحداً إلى الرَّوع يومًا تاركى لا أباليا
دعينا من الإشفاق أو قَدِّمى لنا من الحدثان والمنية واقيا
ستتلف نفسى أو سأجمع هَجْمَةً ترَىْ ساقييها يألمان التراقيا [(١)]

ويزمع السفر فتحاول أن تثنيه ، وحشة فى بعده ، وخشية عليه من ضر ، حتى لقد استشفعت بنت الأعشى بشريف من العشيرة ليصرف أباها عن رحلته، فلما يئست دعت ربها أن يحفه برعايته ليئوب إليها سالما :

تقول بنتى وقد قرَّبتُ مرتَحَلا يارب جَنِّبْ أبى الأوصاب والوجَعا
واستشفعتْ من سَراة الحى ذا شَرَف فقد عصاها أبوها والذى شَفَعا
عليكِ مثلُ الذى صَلَّيتِ فاغتمضى نوما فإن لجنب المرء مُضْطَجعا
واستخبرى قافل الركبان وانتظرى أوْبَ المسافر إنْ رَيْثًا وإن سَرَعا
كونى كمثل التى إذْ غاب وافدها أهدتْ له من بعيد نظرةً جَزَعا
ولا تكونى كمن لا يرتجى أَوَبًا لذى اغتراب ولا يرجو له رجَعا [(٢)]

على أنه يصور فى موضع آخر عواطف ابنته ، من حبها له وشفقتها عليه ، وشعورها بآلام اليتم فى بعاده ، وإيثارها لقربه ، وأنها تقنع من كل شىء، وترضى به، مادام أبوها بجوارها ، وهى تتوجس أن يصيبه مكروه فى رحلته ، ولا طاقة لها

---

(١) ديوان سلامة بن جندل ١٢ مخطوط والوحشيات ٧٣ مخطوط . هجمة : جماعة من الإبل أقلها أربعون وأكثرها مائة . التراقى : جمع ترقوة وهى مقدم الحلق فى أعلى الصدر والمراد أن اللذين يسقيان هذه الإبل يتعبان من كثرتها ويتبين تعبهما فى حركة صدريهما .

(٢) ديوان الأعشى ١٠١ تحقيق محمد حسين و ٧٣ تحقيق رودلف جير والموشح ٥٢ وخزانة الأدب ٢ / ١٠٤ صليت : دعوت . مرتحل : جمل يوضع عليه الرحل . يشير إلى قصة اليمامة حين غاب عنها أخوها ورحل يلتمس عون حسان فظلت ترتقب عودته فى شوق وأمل جظرات جازعة ، وقد أكمل القصة بعد ذلك فى ستة أبيات

باحتمال فقده ، ولن تجد بعده عطوفا أو معيناً ، لأنها على ثقة من أن الناس سيجفونها ، والأقارب سيهجرونها . ولكنه شرع يواسيها ويخفف عنها بأمثال يضربها من أسفاره الماضية وأوبته سالما ، ومن مفاجآت القدر المقيم وإن كان ملكا ممنعا ، أو إنساناً متحصنا فى برج مشيد :

تقول ابنتى حين جدّ الرحيل أرانا سواء ومن قد يَتِمْ
أبانا فلا رِمْتَ من عندنا فإنا بخير إذا لم تَرِمْ
ويا أبتا لا تزل عندنا فإنا نخاف بأن تُخْتَرَمْ
أرانا إذا أضمرتك البلا دُ نُجْفَى وتُقْطَعُ منا الرَّحِم[1]

٢ — هذا الحب الذى يدفعها إلى الخوف عليه والرغبة فى قربه ، يدفعها أيضاً إلى أن تتعلق بما يطمئنها على حياته ، فتود أن يظل شاباً قوياً ، وتجزع إذا ما رأته قد هرم وضعف . يقول ذو الإصبع العدوانى وقد بكت بنته أمامة إذ رأته فى كبرته قد نهض فسقط وتوكأ على العصا :

جزعت أمامة أن مشيتُ على العصا وتذكرتْ إذ نحنُ مِ الفتْيانِ

وسلاَّها بأمثال من تغير الأحوال ، ثم قال :

لا تعجبنَّ أمامُ من حَدَثٍ عَرَا فالدهرُ غيَّرنا مع الأزمان[2]

وقد ظلت عاطفة البنوة هذه إلى بعد العصر الجاهلى ، وظلت البنت تبكى بعاد أبيها ، فقد خرج مالك بن الرَّيْب مع سعيد بن عثمان ، فتعلقت ابنته بثوبه وبكت ، وقالت له : أخشى أن يطول سفرك ، أو يحول الموت بيننا فلا نلتقى ، فبكى ، وقال :

ولقد قلت لابنتى وهى تبكى بدخيل الهموم قلبا كئيبا
وهى تذرى من الدموع على الخد ين من لوعة الفراق غُروبا

---

(١) ديوان الأعشى ٧٣ نشره رودلف جير والأغانى ٨/١٣٧ وخزانة الأدب ٢/١٠٤
(٢) الأغانى ٣/١٠٩

عبرات يكدن يجرحن ما جُزْ ... ن به أو يدعْنَ فيه نُدوبا
حـذر الحتف أن يصيب أباها ... ويلاقى فى غير أهـل شَعوبا
اسكتى قد حززت بالدمع قلبى ... طالما حزّ دمعكن القلوبا
فعسى الله أن يدافـع عنى ... رَيْبَ ما تحذرين حتى أءوبا (١)

٣ — وإن حبها لأبيها ليحملها على أن تضن بماله كما ضنت الأم والزوجة ، فمثلا عاتبت سلمى بنت الأسود بن يعفر أباها ، لأنه يضيع ماله فيما ينوب قومه من حِمالات ، وفيما يمنحه فقراءهم ، و يعين به مستمنحيهم ، فقال :

وقالت : لا أراك تليق شيئا ... أتُهْلِكُ ما جمعتَ وتستفيد ؟
فقلت : بحسبها يُسْرٌ وعارٌ ... ومُرْتَحَلٌ إذا رحل الوفود

وأخذ يدافع عن مذهبه ويضرب لها الأمثال (٢) .

٤ — و إذا ما فجعها الدهر فى أبيها حزنت حتى يمضها الحزن ، وبكت حتى يحرقها البكاء ، وفعلت ما يفعل النسوة الحزينات ، قال لبيد :

تمنّى ابنتاى أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر ؟
فإن حان يوما أن يموت أبوكما ... فلا تَخْمشا وجها ولا تَحْلقا الشعرَ (٣)

وقال فى رثاء أربد مخاطبا ابنته مى :

يامىّ قومى فى المآتم واندبى ... فتى كان ممن يبتنى المجد أروعا
وقولى : ألا لا يُبْعد الله أرْبَدًا ... وهَدَّى به صَدْعَ الفؤاد الموجَعا (٤)

وقال أبو ذؤيب الهذلى فى توقعه ما تفعل بناته بعد موته من ضرب صدورهن بالنعـال :

وقام بنـاتى بالنعـال حواسرا ... وألصقن وَقْعَ السِّبْتِ تحت القلائد (٥)

---

(١) الأغانى ١٩/١٦٢ (٢) الأغانى ١١/١٣٣
(٣) الوحشيات ١٣٣ مخطوط والموشح ١٧ (٤) ديوان لبيد ٦
(٥) البيان والتبيين ٣/١١١ . السبت : النعال المدبوغة بالقرظ

وصور عبد مناف بن رِبْع الهذلى تصويرا أليما ما تفعل أختاه على أبيهما من عويل وأرق ونشيج منبعث من الأعماق ، كأن فى جوف كلتيهما مزماراً لا يفتأ يصوِّت ، ومن صَفْق الصدر بالسِّبت صفقا يخدش الجلد :

ماذا يَعيرُ ابنتى ربعٍ عويلُهما لا ترقدان ولا بُؤْسَى لمن رقدا
كلتاهما أُبْطِنَتْ أحشاؤها قصَبًا من بطن حَلْيَةَ لا رَطْبا ولا نَقِدا
إذا تأوّب نَوْحٌ قامتا معــــه ضرباً أليما بسِبْتٍ يلعَجُ الجــلِدا[1]

ولقد كانت أحياناً تبـكى أباها فى المواسم ، فإنه لما قتل رجل من جهينة حصينَ بن عمرو الكلابى قامت صخرة ابنة عمرو تبكيه فى المواسم ، حتى ضرب بها المثل ، قال الأخنس :

كصخرةَ إذ تسائل فى مراح وفى جَرْم وعلمُهما ظنون
تسائل عن حُصَيْن كل ركب وعند جُهينــة الخــبر اليقين[2]

والآباء فى كل عصر على يقين من فجيعة بناتهم فيهم ، وبـكائهن إياهم ، يقول أبو فراس الحمدانى قبيل وفاته سنة ٣٥٧ ﻫ مخاطباً ابنته :

أَبُنَيَّتى لا تجـــــزعى كل الأنام إلى ذهــابْ
نوحى عـــــلىَّ بحسرة من خلف سترك والحجاب
قولى إذا كلّمتــــنى فعييتُ عن رد الجواب
زين الشباب أبو فرا س لم يُمَتَّعْ بالشبــاب[3]

٥ ــ وإذا قتل أبوها أشعلت الحفيظة فى صدور أوليائه ، ليثأروا له ، فيشفوا بعض ما تجد من مض الحزن ولوعة الأسى ، فقد حمست أمامة بنت كليب

---

(١) سمط اللآلى ١/٢٢١ وتهذيب الكامل ٢/١٩٦ يعير : يفيد . رطب : لين يخفى الصوت . نقد : متآكل . تأوب نوح : عاودهن النواح ليلا . الجلد : بكسر اللام هو الجلد بسكونها . (٢) لسان العرب ١٦/٢٤٣ مراح : حى من قضاعة .
(٣) وفيات الأعيان ١/١٢٧

عمها المهلهل ليثأر له ، قال المهلهل :

تسألنى أمامة عن أبيها ... وما تدرى أمامة عن ضميرى

فلا وأبى أمامة ما أبوها ... من النَّعَم المؤبَّل والجزور[1]

ولما قتل حذيفة قالت ابنته هند تحرض قومها على الطلب بدمه :

فيا لبنى ذبيان بكُّوا عميدكم ... بكل دقيق الحد أبيض باتر

وكل رُدَيْنى أصم كعوبُهُ ... ينوء بنصل كالعقيقة زاهر

وكل أسيل الخد طاوٍ كأنه ... ظليم ، وجوداء النسَّالةِ ضامر

فإن أنتم لم تُصْبحوا القوم غارة ... يُحَدِّث عنها واردٌ بعد صادر

وترموا عُقَيْلاً بالتى ليس بعدها ... بقاء فكونوا كالإماء العوائر[2]

٦ — ثم ترثيه ، فتصور فجيعتها فيه ، وتعدد مناقبه ، وتشيد بمفاخره ، كما فعلت الأم فى رثاء زوجها .

ومن أمثلة ذلك أن هند بنت عتبة ترثى أباها يوم بدر بأن هُلْكَ أبيها لا مثيل له ، وأن الفاجعة التى نزلت بها تنسى المفجوعات فجيعتهن، وتستدر دموعهن مواساة لها ، وأنها كانت تخشى هذا اليوم من قبل ، ثم نزل بها ماخشيت ، فطار عقلها وعزب رشدها :

لله عينا من رأى ... هُلْكاً كهلك رجاليه

يا رُبَّ باك لى غداً ... فى النائبات وباكيه

قد كنت أحذر ما أرى ... فاليوم حُقَّ حذاريه

قد كنت أحذر ما أرى ... فأنا الغداة مُواميه

---

(١) رياض الأدب فى مراثى شواعر العرب للأب لويس شيخو ٦ المؤبل : الكثير .

(٢) رياض الأدب ٤٧ جرداء النسالة : قليله الشعر العوائر : الجماعات المتفرقة من الجراد ، فيكون المراد الإماء المتداولات فى كل مكان . وأرجح أن فى الكلمة تحريفاً ، صوابه (الأعاور) والمفرد أعور وعوراء ومعناه الضعيف الجبان الذى لا خير فيه . والجمع عور وجمع الجمع أعاور .

يا رُبَّ قائلة غدا يا ويح أم معاويه[1]

وتقول أيضاً فى رثاء أبيها وعمها شيبة :

من حَسَّ لى الأخوين كالغصنين أو من رَاهُما

. . . .

ويلى على أبوى والقبر الذى واراهما[2]

وتصور صفية بنت مسافر عينها قد جرحها الدمع كأنها رمْدَى قرّحها الرمد ، وإنها لتبكى منذ انبلاج الفجر ، وحق لها أن تبكى طويلا ؛ لأن البيت قد خرب بقتل أبيها وقومها :

يا من لعينٍ قذاها عائرُ الرمد حدَّ النهارِ وقرنُ الشمس لم يَقدِ

. . . .

كانوا سُقوب سماء البيت فانقصفت فأصبح السَّمْكُ منها غيرَ ذى عمد[3]

ولما قتل النبى صلى الله عليه وسلم النضر بن الحارث رثته ابنته قتيلة ، وعاتبت النبى ، وودت لو أنه كان قد عفا عنه ، ثم نفثت نفثات ناجت بهن راكباً من مكة إلى المدينة ، مؤملة أن يبلغ قبر النضر بعد أيام خمسة ، راجية له السلامة فى رحلته ، ليسرع بتحية منها إلى القتيل العزيز النضر ، ومع التحية بلاغ تحب أن يصل إلى النضر أن عبراتها بعضها مسفوح ، وبعضها مكظوم يَخْنُق ، وتسائل نفسها: أيسمعنى النضر إن ناديته ؟ ثم تؤمن بالواقع الأليم فتقول : وكيف يسمعنى ميت مقبور ؟

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٤١٦ النائبات : نوائب الدهر . مواميه : مختلطة العقل .

(٢) الأغانى ٤/٢١٠ . حس . أحس

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٤١٧ قذاها : آذاها . عائر الرمد : ألمه أو قرحته . حد النهار أوله . لم يقد : لم يكمل ضوؤه . سقوب : عمد الخباء التى ترفعه .

يا راكباً إن الأُثَيْل مَظِنَّةٌ … من صبح خامسة وأنت مُوَفَّقُ

أبلغ بها مَيْتاً بأن تحيـــة … ما إن تزال بها النجائب تَخْفِقُ

منى إليك وعـــبرةً مسفوحةً … جادت بوا كفها وأخرى تَخْنُق

هل يَسْمَعَنَّ النضر إن ناديتُه … أم كيف يَسْمَعُ ميت لاينطق ؟(١)

وكثير غيرهؤلاء مات آباؤهن فصورن لواعجهن ، وشدن بفضائل آبائهن(٢) .

٧ — وإنه ليسرها أن يشبه ابنها أباها ، ولقد تتسامى بمجد أبيها فترى من العسير على ابنها أن يلحق به ، تقول منفوسة بنت زيد الفوارس وهى ترقص ابنها حكيم بن قيس بن عاصم :

أشـــبه أخى أو أشبهَنْ أباكا … أما أبى فلن تنـــال ذاكا

تَقْصُر أن تنـــاله يداكا

وهى بذلك ترد على زوجها فى قوله لابنه وهو يرقصه :

أشـبه أبا أمك أو أشـبه عَمَلْ … ولا تـكونَنَّ كهَلَّوفٍ وَكَلْ

يصبح فى مضجعه قد انجدل … وارقَ إلى الخيرات زَنْئاً فى الجبل(٣)

وتقول السيدة فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم وهى ترقص ابنها الحسين:

إن بنىّ شـبه النبىّ … ليس شبيها بعلىّ(٤)

---

(١) حماسة الخالديين ٩٧ مخطوط وفيه أن الشعر لليلى بنت النضر وفى المرجع نفسه ٣٧٢ أنه لقتيلة بنت النضر . وفى معجم البلدان مادة أثيل أن الشعر لبنت النضر . وفى لسان العرب ١١٢/١٣ أنه لقتيلة بنت النضر وكذلك فى حماسة البحترى ٤٣٤ وأسد الغابة ٥٣٣/٥ وفى سيرة ابن هشام ٤٢٠/٢ والأغانى ١٩/١ الدار أنه لقتيلة أخت النضر . الأثيل : موضع قرب المدينة دفن النضر به .

(٢) الأغانى ٣٠/١٦ و ٣٩/١٠ وأمثال العرب للضبى ٣٣ ومعجم البلدان ٧٧٩/٢ وسيرة ابن هشام ٨٤/٤ وحماسة البحترى ٢١٢ وبلاغات النساء ١٧٩ و ١٨٩ .

(٣) لسان العرب مادة وكل والأغانى للأطفال عند العرب لأحمد عيسى ٥٥ هلوف : ثقيل بطين لاغناء عنده . وكل : ضعيف زنئا : صعوداً .

(٤) الأغانى للأطفال عند العرب ٢٧

إيثارها قومها على قوم زوجها :

بلغ بالمرأة إعزازها لأبيها وأخيها وقومها واعتزازها بهم أنها لم تغتفر لزوجها أن يتجنى على أخيها وينتقصه .

من ذلك أن لبيد بن عنبسة الغسانى - والى ربيعة من قبل ملك اليمن - تزوج الزهراء أخت كليب ، وفى حديث بينهما أحست أنه يحقر من شأن أخيها كليب ، فقالت له : لا أعلم فى العرب ذا لبدة أشد منه . فهاج لبيد ولطمها ، وقال لها : أنت أمتى فاقبلى ما يأتيك منا نحن الملوك . فقالت له : أنا أكرم منك . وفارقته غضبى ، حتى انتهت إلى كليب وقالت له :

ما كنت أحسب والحوادثُ جمةٌ أنا عبيــدُ الحىّ من قحطان
حتى علتنى من لبيدٍ لطمــةٌ سُجرَتْ لها من حرها العينان
إن ترضَ تغلبُ وائلٍ بفعالهم تكنِ الأذلةَ عنــد كل رِهان

فاهتاج كليب وقصد إلى لبيد ، وجَلَّاه بسيفه ، فقامت الحرب بين اليمن و بين ربيعة ومضر و إياد وطيىء وقضاعة ، وتقدمهم كليب ، وظفر هؤلاء باليمن فى موقعة خَزازَى ، وتحرروا من سلطانهم(١) .

وهى لا ترضى أن يباغت زوجها قومها ، فيغزوهم و ينتصر عليهم ، لذلك تنذرهم بنفسها ، كما فعلت سلمى بنت عمرو ، فى حرب بين الأوس والخزرج جمع أُحَيْحَة بن الجُلاح الأوس لبنى النجار ليغزهم ، وكانت عنده سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية ، وله منها ولد اسمه عمرو ، وكان يومئذ فطيما أو دون الفطيم .

فلما قارب أُحَيْحَة أن يغير عمدت إلى ابنها فربطته بخيط أوجعه ، فبات يبكى وهى تحمله ، وبات أحيحة معها ساهراً يقول : ويحك ما لا بنى ؟ فتقول : والله ما أدرى ، حتى إذا ذهب الليل أطلقت الخيط من الصبى فنام ، فلما هدأ قالت : وارأساه .

---

(١) كتاب بكر وتغلب ١٥ وأخبار المراقسة للسندوبى ١٩

فبات أحيحة يعصب لها رأسها ، ويقول : ليس بك بأس . حتى إذا لم يبق من الليل إلا أقله قالت له : نم أنت فقد ذهب عنى ما كنت أجد . وإنما فعلت به ذلك ليثقل رأسه وليشتد نومه بعد طول السهر .

فلما نام قامت وتدلت من الحصن ، وانطلقت إلى قومها ، فأنذرتهم بما جمع لهم أحيحة ، فحذروا وأعدوا واجتمعوا . فلما أقبل أحيحة فى قومه وجد القوم على حذر ، فلم يكن بينهم كبير قتال ، ثم رجع فلم يجد سلمى ، فعرف أنها خدعته وأنذرت قومها ، فطلقها ، وتزوجها بعده هاشم بن عبد مناف ، فولدت له عبد المطلب . وسماها قومها المتدلية ، وقال أحيحة فى ذلك قصيدتين[1] .

وقد تنذرهم برسول لأنهم منها بعيد ، كما فعلت هند من بنى نهد لما رأت قوم زوجها بنى عامر قد جمعوا لغزو بنى نهد ، فقالت لغلام فقير يتيم من بنى عامر : لك خمس عشرة ناقة على أن تأتى قومى فتنذرهم ، فرضى ، وحملته على ناقة لزوجها ، وزودته طعاماً وشراباً ، فركب وأنذرهم ، فاجتمعوا واستعدوا ، ووافتهم بنو عامر ، فاقتتلوا قتالاً شديداً انهزم فيه العامريون ، وفى ذلك يقول عبد الله ابن العجلان من قصيدة :

ألم يأت هنداً كيفما صُنْعُ قومها   بنى عامر إذ جاء يسعى نذيرُها[2] ؟

وقد تنذر قومها برسالة رمزية ، كما أنذرت زهير بن جناب أخته ـ وكانت متزوجة فى بنى القين بن جسر ـ بأن قوم زوجها يعتزمون الغارة عليه ، وذلك بأن أرسلت إليه رسولاً معه صرة فيها رمل ، وصرة فيها شوك وقتاد ، فقال زهير إنها تخبركم بعدو كثير ذى شوكة ، وأشار عليهم بالارتحال ، فقال الجلاح ابن عوف : لا نرتحل لقول امرأة . فظعن زهير وأقام الجلاح ، فصبحه بنو القين ، فقتلوا عامة قومه ، واستاقوا أموالهم وماله ، ثم قاتلهم زهير وهزمهم[3] . وكذلك أنذرت امرأة من هذيل قومها[4] .

---

(١) الأغانى ١٣/١١٩ والكامل لابن الأثير ١/٢٤٢   (٢) الأغانى ١٩/١٠٤ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١/١٨٠ والأغانى ٢١/٦٧   (٤) الأغانى ١١/١٤ .

الفصل الرابع

الأختُ والقريبة

حظيت البنت عند أبيها ، وحظيت الزوجة عند زوجها ، وتبوأت الأم مكانة علية فى نفوس بنيها ، فمن الطبيعى أن تنال الأخت عزازة أخيها ، وأن تسعد القريبة بحب ذويها .

الأخت

أحب الأخ أخته وأعزها ، وأحبت الأخت أخاها واعتزت به .

١ — وأى دليل على الإرعاء والحب من أن يقاسم الأخ أخته ماله مرات، جاء فى حديث الخنساء للسيدة عائشة قولها : زوجنى أبى رجلا مبذراً ، فأذهب ماله ، فأتيت إلى صخر فقسم ماله شطرين ، فأعطانى خيرهما ، ثم ضيع زوجى ماله مرة أخرى ، فقسم أخى ماله شطرين ، فأعطانى خيرهما . فلما كانت المرة الثالثة قالت امرأته : أما ترضى أن تعطيها النصف حتى تعطيها الخيار ؟ فقال :

والله لا أمنحها شِرارها   وهى حَصَانٌ قد كفتنى عارها
وإن هلكتُ خَرَّقت خمارها   واتخذت من شعر صِدارها[1]

وأى شيء أدل على الإرعاء والحب من أن يتخير الرجل زوجته ثيباً حتى لا تضار أخواته كما تضارهن الشابة ؟ حدث جابر أن رسول الله سأله : هل نكحت يا جابر ؟ فقال نعم . فقال رسول الله : ماذا ؟ أبكراً أم ثيباً ؟ فقال : بل ثيباً . قال الرسول : فهلا جارية تلاعبك ؟ فقال جابر : يا رسول الله إن أبى قتل

(١) الإصابة ٨/٦٨ وتهذيب الكامل ٢/١٩٢ والمحاسن والأضداد ١٤٣

يوم أحد ، وترك لى تسع أخوات ،فكرهت أن أجمع إليهن جارية خرقاءمثلهن، ولكن امرأة تمشطهن وتقوم عليهن ، فقال الرسول : أصبت[١] .

٢ — وكان الأخ يستمع لمشورة أخته ، ويذعن لرأيها فى أمور شتى ، من هذا أن سَفَّانة ابنة حاتم الطائى ـ بعد أن أطلقها النبى من السبى وكساها وأعطاها ـ لحقت بأخيها عدى، وكان قد فر إلى الشام هارباً ، فرغبته فىالإسلام، وأن يلحق برسول الله سريعاً ، وجاء فى كلامها: « فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فلن تذل فى عز اليمن وأنت أنت » فقال لها : « والله إن هذا لَلرَّأْىُ ، وقدم على رسول الله وأسلم[٢] .

٣ — وكان الأخ يحمى أخته حتى من زوجها القوام عليها ، فلا يغضى عن مساءة زوجها إليها ، ولا يغفر له أن يستذلها . من ذلك أن بَكْرة بنت مَليص من بنى مُقَلَّد بن كليب كانت تحت تميم بن علاثة من بنى سَليط ، فضربها فشجها ، فلقى أخوها زوجها ، فلامه على ضربه وشجِّه إياها ، فوقع بينهماشجار ، فشج تميم أخا بكرة أيضاً ، فانتقم الأخ لنفسه ولأخته ، فشج الزوج فأَمَّه[٣] .

وقد سبق أن كليب وائل ثار حينما استغاثت به أخته من زوجها لبيد بن عنبسة إذ لطمها واستذلها وتنقص من قدر أخيها ، وكان من أثر ثورته حرب زبون بين اليمنيين وربيعة ومضر ومن حالفهما[٤] .

٤ — وكان يحمى من تجيره إعزازاً لها واعتداداً بحمايتها ، وقد ضرب المثل بُفكيْهَة ، فقيل : أوفى من فكيهة ، وهى امرأة من بنى قيس بن ثعلبة ، كان من وفائها أن السُّلَيْك بن السُّلَكة غزا بكر بن وائل ، فبصروا به ، فعدا حتى

---

(١) فتح البارى ٧/٢٧٥ وكنز العمال ٨/٢٨٨

(٢) سيرة ابن هشام ٤/٢٤٨ وأسد الغابة ٥/٤٧٥

(٣) النقائض ٢ أمه : أصاب أم رأسه .

(٤) أخبار المراقسة ١٩ وكتاب بكر وتغلب ١٥

ولج دار فكيهة فاستجار بها ، فأدركوه وحاولوا أن ينتزعوه منها ، ونزعوا خمارها ، فاستغاثت بإخوتها ، فجاءوا عشرة ، فمنعوهم وأجاروا السليك ، وفى ذلك يقول مادحاً لها :

لعمر أبيك والأنباء تَنْمِي   لنعم الجار أخت بنى عُوارا
من الخفرات لم تفضح إباها   ولم ترفع لإخوتها شنارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت   بنصل السيف وانتزعوا الخمارا(١)

٥ — وكان يغار عليها كما يغار على زوجته ، من ذلك أن القَتَّال ـ عبد الله ابن المضرحى ـ كان يتحدث إلى ابنة عمه ، فقدم أخوها زياد ورآها ، فنهى القتال ، وحلف لئن رآه ثانية ليقتلنه وبعد أيام رآه يحدثها ، فأخذ السيف ليضربه به ، فبصر به القتال فخرج هارباً ، فتبعه زياد ، فلما دنا منه ناشده القتال بالله وبالرحم ، فلم يلتفت إليه ، فعطف القتال على زياد فقتله وقال :

نهيتُ زياداً والمهامُه بيننا   وذكَّرته أرحام سَعْد وهَيْثم
فلما رأيت أنه غير منتهٍ   أملتُ له كفى بلَدْنٍ مقوَّم
ولما رأيت أننى قد قتلته   ندمت عليه أىّ ساعة مَنْدم(٢)

بل لقد غار الأخ على أخته من أن يتغزل فيها شاعر ، لأن فى غزله تشهيراً بها ، وجرحاً لشرف آلها . علم الإصبع بن مِحْصَن أن مالك بن الصمصامة يحب أخته جنوب ، فآلى يميناً لئن عرض لها أو زارها ليقتله ، ولئن عرَّض بها فى شعره أو ذكرها ليأسرنه ، ثم لا يطلقه حتى يجز ناصيته فى نادى قومه . فبلغ ذلك مالكا ، فقال فى قصيدة :

(١) المحاسن والأضداد ٥٤ والمحبر ٤٣٣ والأغانى ١٨/١٣٢
(٢) الأغانى ٢/١٠٩

فما الحَلْقُ بعـد الأسْرِ شَرٌّ بقيةً   من الصد والهجران وهى قريب
أحب هبوط الواديين وإننى   لمشتهـــر بالواديين غريب
أَحقاً عباد الله أن لست خارجاً   ولا والجـاً إلا علىَّ رقيب[١]

لهذا كان الغزل بالأخت يتخذ أحياناً وسيلة للكيد والإغاظة والتجريح ، كما تغزل قيس بن الخطيم بعَمْرة بنت رواحة فى تمهيده للفخر بانتصار الأوس على الخزرج فى يوم بُعاث :

أتعرف رسماً كاطِّراد المذاهب   لعَمْرةَ وَحْشاً غير موقف راكب
تراءت لنا كالشمس تحت غمامة   بدا حاجب منها وضنت بحاجب[٢]

فرد عليه عبد الله بن رواحة عدواناً بعدوان ، وتغزل فى ليلى بنت الخطيم أخت قيس :

أشاقتك ليلى فى الخليط المجانب   نَعَمْ فرشاش الدمع فى الصدر غالبى[٣]

وكذلك تغزل حسان بن ثابت بليلى بنت الخطيم فى نخره بانتصار الخزرج على الأوس فى يوم الربيع[٤]،فأجابه قيس بغزل تناول فيه عمرة زوجة حسان[٥].

٦ — ما من شـك فى أن إعزاز الرجل لأخته يستتبع إعزازه أيضاً لابن أخته ، ولقد فصلت القول فى الخـال ومكانته فى نفس ابن أخته ، ومنزلة ابن أخته من نفسه ، وحسبى أن أذكر هنا أن ابن الأخت كان كثيراً ما يعد من العشيرة ، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الأنصار يوما ، فقال لهم : هل فيكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا إلا ابن أخت لنا . فقال رسول الله : ابن أخت القوم منهم[٦] .

---

(١) الأغانى ١٩/٨٣
(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٠ وطبقات الشعراء ١٩٠
(٣) ديوان قيس بن الخطيم ٣٦ والكامل لابن الأثير ١/٢٨٨
(٤) ديوان حسان ٤١٦ والأغانى ٣/١٢
(٥) ديوان قيس بن الخطيم ٧ والأغانى ٣/١٢
(٦) فتح البارى ٦/٤٠٢ وصحيح البخارى ١٤/١٢٣

لذلك كانت قريش والحُمس يشترطون على من يزوجونه من الحلة أن يكون بنوه حمساً مثلهم[١] ويمدح أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ابن أخته زهير ابن عاتكة بنت عبد المطلب بقوله :

ونعم ابن أخت القوم غير مُكذَّب   زهيرٌ حساماً مفرداً من حمائل[٢]

وإذا كان بشامة بن الغدير لم يورّث ابن أخته زهير بن أبى سلمى كما ورّث غيره ، فإن زهيراً كان يعتقد أنه ذو حق فى أن ينال من مال خاله كما نال إخوته وعصبته ، فقد قال له : ماذا قسمت لى ياخالاه ؟ فقال له : شعرى . ثم أعطاه من ماله أيضاً[٣] .

٧ — وكذلك أحبت الأخت أخاها ، واعتزت به ، وكثيراً ما كانت تؤثره على زوجها ، لأن روابط العاطفة فى الجماعات الأولى كانت بين الأب وابنته والأخ وأخته أقوى منها بين الزوج وزوجته ، وفى كثير من الحالات كان الزوج يقيم مع أسرة أمه وقبيلتها ولا يرى زوجته إلا زائراً . بل إن الأخ فى المدنية القديمة كان أعز على المرأة من زوجها ، فزوجة أنتا فرنيز أنقذت أخاها لا زوجها من غضبة دارا ، كذلك أنتجونا ضحت بنفسها من أجل أخيها لا من أجل زوجها. والفكرة القائلة بأن زوجة الرجل أقرب إنسان إلى قلبه فكرة حديثة ، وغير محققة إلا فى بعض الأمم[٤] » .

ولم تطق الزهراء بنت وائل أن يتنقص زوجها لبيد بن عنبسة الغسانى من قدر أخيها كليب ، فقالت له فى عزة وغضب : لا أعلم فى العرب ذا لبدة أشد من كليب . فهاج لبيد ولطمها ، فقالت له : أنا أكرم منك ،وذهبت مغضبة

---

(١) أخبار مكة للأزرقى ١/١١٥   (٢) المواهب الفتحية ١/١٦٢
(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ٥٦٣ والأغانى ٩/١٥٠ ورسالة الغفران للمعرى ٥٤٧
(٤) قصة الحضارة ول ديورانت ١/٥٨

إلى أخيها [١] .

أليس من الطبيعى إذاً أن تندب الأخت أخاها إذا اخترمه المنون ؟ بلى لقد كانت تندبه بقلبها ولسانها ودموعها ، وكانت ترثيه متفجعة متوجعة .

وكانت الخنساء كغيرها من الجاهليات قد حلقت رأسها ، والتدمت بنعليها حزناً على أخويها ، تقول فى ذلك :

ولكنى رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الحليق [٢]

وكانت تلبس صداراً من شعر حزناً على أخويها اللذين قتلا فى الجاهلية ، فدخلت على عائشة فقالت لها : يا خنساء هذا نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : ماعلمت ، وقصت عليها إكرام صخر لها ، وقوله لامرأته :

ولو هلكتُ خَرَّقَتْ خمارها واتخذتْ من شعر صدارها

وقالت : فلما هلك صخر اتخذت هذا الصدار ، ونذرت ألا أنزعه حتى أموت [٣] .

وليس يعنينى كثيراً أن تمجد الأخت أخاها ، وتؤبنه بذكر محامده ، لأن غيرها من الراثين والراثيات يشركونها فى ذلك ، وإنما يعنينى ما ينبىء عن حرقتها ولهيب حزنها . وإنى لأحس حرارة الحزن فى كثير من مراثى الأخوات لإخوتهن ، ولا شك أن زعيمتهن فى هذا الضرب الخنساء ، وأنها المقدمة فى هذا الفن ، فقد تميزت بكثرة مراثيها لأخويها ولاسيما صخر ، وتفردت مراثيها بصدق العاطفة وحرارتها ، فكانت جديرة بالزعامة فى النساء الشاعرات ، وكانت زعامتها منفذاً لنحلها قصائد لم تقرضها .

---

(١) كتاب بكر وتغلب ١٥ وأخبار المراقسة ١٩

(٢) ديوان الخنساء ١٧٣ والكامل للمبرد ٢/٢٦٢ ولسان العرب ١١/٣٤٥ قال المبرد : كانت المرأة إذا أصيبت فى حميم جعلت فى يدها نعلين تصفق بهما وجهها وصدرها .

(٣) الإصابة ٨/٦٧ والشعر والشعراء ١٢٤ وتهذيب الكامل ٢/١٩٢ والمحاسن والأضداد ١٤٢

ويطول بى المقال إن أنا حاولت أن أستشهد من رثاء الخنساء ، وحسبى أن أستدل من إحدى مراثيها على توهج حزنها ، وتضرم لوعتها ، وتذكرها أخاها صخراً ليلها ونهارها ، وصبلحها ومساءها . وإن هذه الذكرى لتحتد فى الصباح والمساء ، لأنهما زمن الغارة ، وزمن الضيافة ، وإن حزنها ليشتد بها حتى لتكاد تبخع نفسها ، ولا يعزيها بعض العزاء إلا أنها ترى الموت حقاً على الناس ينزل بهم، فيبكى الأحياء ويمضهم ، وهى ترى حولها كثيراً من الباكين والباكيات. ثم خَيل لها حزنها الأليم أنه لامثيل له ، وخيل لها حبها لأخيها أنه فقيد لا فقيد مثله ، فقالت إن البواكى لا ينحن على عزيز عظيم كأخى ، ولكنى أتأسى بهن ، ثم أقسمت أنها ستظل وفيه له ذاكرة حتى يحين حينها ، ولن يتطرق سرور إلى قلبها ، بل ستعيش حياة كئيبة سوداء لا لذة فيها ولا أنس ، وكيف تستطيب الحياة بعد ما ضم التراب أخاها الحبيب ؟ وهى بذلك كله تكشف عن ألم ممض وحزن دفين ، ودمع غزير سخين ، وزفير متلهب :

يذكرنى طلوع الشمس صخراً ... وأذكره لكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولى ... على إخوانهم لقتلت نفسى

ولكن لا أزال أرى عَجُولا ... ونائحة تنوح ليوم نَحْس

هما كلتاهما تبكى أخاها ... عشية رُزْئِهِ أو غِبَّ أمس

وما يبكين مثل أخى ولكن ... أعزى النفس عنه بالتأسّى

فقد ودعتُ يوم فراق صخر ... أبى حَسّان لذاتى وأنسى

فيا لهفى عليه ولهف أمى ... أيصبح فى الضريح وفيه يمسى؟[1]

وتتجلى اللوعة أيضاً فى أن أم عمرو بنت مكدَّم ترثى أخاها ربيعة بن مكدم بأن دمعها مدرار لا يرقأ ، وحزنها شديد لا يهدأ ، ولو أن حب الأخت لأخيها

---

(١) ديوان الخنساء ١٥١ أبو حسان : كنية من كنى صخر

ووجدها عليه يرجمانه أو يحفظانه ، لحق لها أن تطلب رجمة أخيها أو خلوده ، ولو أن الفداء يقى إنساناً الموت لفدته بأهلها جميعاً ، و بمالها :

ما بال عينك منها الدمع مُهْراق ... سَحْلا فلا عازب منها ولا راقِ ؟
أبكى على هالك أودى وأورثنى ... بعد التفرق حزناً حَرّه باق
لو كان يُرْجِع ميتاً وَجْدُ مشفقة ... أبقى أخى سالماً وجدى و إشفاق
أو كان يُفْدَى لكان الأهل كلهم ... وما أثَمِّرُ من مال له واق
فسوف أبكيك ما ناحت مطوّقة ... وما سَرَتْ مع السارى على ساق
تبكى لذُكْرَتِهِ عينٌ مفجَّعَة ... ما إن يجف لها من ذكره ماق [1]

ومثل هذا الضرب كثير فى رثاء النساء [2] .

القريبة

١ — امتدت عزازة الأم والبنت والزوجة والأخت إلى الخالة والعمة والقريبة ، فكانت المرأة العربية عزيزة ، تستمتع بعزتها من مناح عدة ، وتشعر بأن رجالها يقدرونها ويحمونها ، ولقد تسعد فى آن واحد بزوج يحب ، وأب يحدب ، وأخ يعطف ، و ابن يَبَرّ ، وقريب يحنو . فمثلا حزن السليك بن السلكة السعدى — أمه جارية حبشية — لأنه لم يجد المال الذى يفتدى به خالاته من السبى :

أشاب الرأسَ أنى كل يوم ... أرى لى خالة بين الرجال
يشق على أن يلقين ضيما ... ويعجز عن تخلصهن مالى [3]

وكثيراً ما يفدى الرجل بأمه وخالته أو بخالته وحدها ، دلالة على عزازتها

(١) بلاغات النساء ١٧٧

(٢) قتيلة أخت النضر بن الحارث (بلاغات النساء ١١٩) وهند بنت حذيفة (بلاغات النساء ١٧٣) وصفية بنت عبد المطلب (سيرة ابن هشام ٣/١٥٦) والفارعة بنت شداد (الحماسة البصرية ٩٢) وليلى بنت كليب (أشعار النساء للمرزبانى ٣/٤٩) وعمرة بنت مرداس (الأغانى ١٣/٦٩) وعمرة الهذلية (حماسة البحترى ٤٣٠) والخرنق (ديوان الخرنق ٢) .

(٣) الكامل للمبرد ١/٢٠١

وحبه لها ، قال حاتم فى رده على زوجته وقد لامته على كرمه :

مهلا فداك اليوم أمى وخالتى فلا يأمرنّى بالدنية أسود[١]

وفدّى عمرو بن قميئة رفاقه الشجعان بخالته :

فقلت لهم سيروا فدًى خالتى لكمْ أما تجدون الريح ذات سَهام[٢]

وفدى حاجز بن عوف الأزدى رِجْليه — وقد نجاه جريه من أعدائه — بأمه وخالته :

فدى لكما رجلىّ أمى وخالتى بسعيكما بين الصفا والأثائب[٣]

ومن إعزاز القريبة أن يجير لها قريبها كما يجير لأمه وابنته وأخته وزوجته . من ذلك أن مسعود بن معتِّب الثقفى ــ حين دارت حرب بين كنانة وقيس ــ ضرب خباء على امرأته سُبيعة بنت عبد شمس وقال لها : من دخله من قريش فهو آمن . فجعلت توصل فى خبائها، ولكن قيسا انهزمت ، وخاب ظن زوجها ، وهرع القيسيون إلى خباء سبيعة يستجيرون بها ، فأجار لها حرب بن أميه ، وقال ياعمة،من تمسك بأطناب خبائك أو دار حوله فهو آمن . فنادت بذلك ، فاستدار القيسيون بخبائها ، وسمى الموضع مدار قيس[٤] .

وكذلك أجار النبى صلى الله عليه وسلم لعمته أم هانىء اثنين من أحمائها يوم فتح مكة[٥] .

وتقتضى عزازة الخالة أن يثور ابن خالتها لغضبها ، فإذا ما رجعنا إلى حرب البسوس ألفينا السبب المباشر الأخيرلهياجها أن كليبا قتل ناقةرجل من جَرْم اسمه سعد كان جارا للبسوس خالة جساس ، فغضبت البسوس وتألم جارها ، فوعدها

---

(١) حماسة البحترى ٢٣١ وديوان حاتم ٦ وشعراء النصرانية ١١٢

(٢) ديوان عمرو بن قيئة ٢٢ ومنتهى الطلب من أشعار العرب ١/٢٥ مخطوط . ذات سهام : ذات توهج .

(٣) الأغانى ١٢/٤٩

(٤) الأغانى ١٩/٧٩

(٥) سيرة ابن هشام ٤/٣١

جساس أن يعوضه عن ناقته ناقة ، فأبت ، فزادها إلى عشر ، فلما كان الليل رفعت صوتها لتسمع جساسا ، وهى تخاطب جارها الجرمى :

أيا سعد لا تَغْرُرْ بنفسك وارتحل   فإنك فى قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادى إليك فإننى   محاذرةٌ أن يَغْدِروا ببنيّاتى
لعمرى لو أصبحتُ فى دار مُنْقذٍ   لما ضيم سعد وهو جار لأبياتى
ولكننى أصبحت فى دار غُربةٍ   متى يَعْدُ فيها الذئب يَعْدُ على شاتى

فلما سمع جساس قولها سكنها ووعدها أن يعقر فى غدة جملا أعظم من سراب — ناقة جارها — ووفى بما وعد ، فقتل فى غده كليبا ، وقامت حرب البسوس[1] .

وتستتبع عزازة الخالة أن يعز الرجل ابنها ، فإنه لما غزا عمرو بن هند طيئا وأسر منها ، وكان فى الأسرى قيس بن جَحْدَر ، وهو ابن خالة حاتم الطائى ، وفد حاتم على عمرو ، وسأله أن يطلق الأسرى ، فوهبهم له إلا قيس بن جحدر ، فاستعطفه حاتم بقوله :

فككت عديا كلها من إسارها   فَأَفْضِلْ وشَفِّعْنى بقيس بن جَحْدر
أبوه أبى والأمهات امّهاتنا   فأنعِمْ فدتك اليوم نفسى ومعشرى

فأطلقه[2] .

٢ — وكانت المرأة تقدر هذه القرابة وترعاها ، وتعتز بها ، ففى يوم أحد حُمل شَمّاس بن عثمان المخزومى إلى المدينة وبه رمق ، فأدخل على عائشة ، فقالت أم سلمة زوجة النبى صلى الله عليه وسلم : ابن عمى يدخل على غيرى ؟ فقال رسول الله : احملوه إلى أم سلمة . فحمل إليها ، فمات عندها[3] .

(١) الكامل لابن الأثير ١/٢١٥ وأخبار المراقسة ٢٣
(٢) الأغانى ١٩/١٢٨
(٣) المغازى ٢٠٢ .

ومن رعايتها لهذه القرابة إيثارها الزواج بالأقارب ، وتفضيلها قومها على قوم زوجها كما سبق .

أما حزنها على ابن أختها أو ابن أخيها أو قريبها فإنه يتمثل فى كثير من المراثى ، كرثاء أمية بنت عبد شمس لابن أخيها أبى سفيان بن أمية ، ولقتلى قومها فى حروب الفجار :

أبَى ليلكِ لا يذهبْ ونيط الطرف بالكوكبْ
وهذا الصبح لا يأتى ولا يدنو ولا يقرب
بعقْقر عشيرة منا كرام الخِيم والمنصب
ألا يا عين فابكيهمْ بدمع منك مستْغرَب
فإن أبك فهم قومى وهم ركنى وهم منكب
وهم أصلى وهم فرعى وهم نسبى إذا أُنْسَبْ
وهم مجدى وهم شرفى وهم حصنى إذا أَرْهب
وهم رمحى وهم تُرْسى وهم سيفى إذا أغضب
. . . . [1]

ومرثيتها تكشف عن حزن ، وأرق ، وحسرة ، ونخار .

وكذلك رثت الخرنق قومها[2] وريطة بنت عاصم[3]، وهند بنت عتبة[4]، وصفية بنت مسافر[5] .

(١) الأغانى ١٩/ ٨٠ مستغرب : بالغ منتهاه.
(٢) ديوان الخرنق مخطوط.
(٣) شرح الحماسة للتبريزى ٣/ ٦٩ .
(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٤١٦
(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٤١٧

الفصل الخامس

حقوق المرأة المالية

كان العرب فى منزلة وسط بين الملكية وما يشبه الاشتراكية ، ذلك بأن « الخيمة وأثاثها ملك للفرد ، أما المرعى والأرض الصالحة للزرع فهى ملك شائع للقبيلة كلها[1] » .

وقد ذكر سترابون أن اشتراكية الأسرة فى الملكية كان النظام الشائع فى اليمن ، لكن الرجل الأكبر هو المهيمن على الثروة[2] .

وفى هذا النظام الوسط بين الملكية والاشتراكية كان للفرد أن يقتنى ويحوز ، وللقبيلة أن تقتطع منه ما تحتاج إليه فى تحمل الديات ودفع المغارم والإنفاق على الغارات وإكرام الوافدين .

ملكية المرأة :

اشتركت المرأة فى هذه الملكية ، ولكن فى طور متأخر أجحف الرجال بها ، وكثيراً ما كانت تعجز عن المطالبة بنصيبها ، وتعجز عن نيله بالقوة . على أنها كانت فى هذا الطور تمتلك بأن يتدخل قريب من أقاربها لينيلها حقها[3]

١ — ولست أشك فى أن المرأة الجاهلية كانت تملك ، فالقرآن الكريم يثبت ملكيتها ، والشعر يذكرها ، والأخبار كثيرة فيها . قال تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تُقْسِطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع[4] ﴾ .

---

(١) تاريخ العرب ١ / ٣٣ فيليب حتى

(٢) Muslem Law. P. 21

(٣) Muslem. Law P. 28

(٤) سورة النساء ٣

وذلك أنهم كانوا يتزوجون من تحل لهم من يتامى النســاء اللائى يتولون شئونهن ، لا رغبة فيهن ، بل فى ما لهن ، وكانوا يسيئون صحبتهن ، و يتربصون بهن الموت ليرثوهن ، وقد سأل عروة بن الزبير السيدة عائشة رضى الله عنها عن هذه الآية فقالت : يابن أختى ، هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشاركه فى ماله، و يريد أن يتزوجها من غير أن يقسط فى صداقها ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن[1] .

وروى عنها أيضاً فى تفسير قوله تعـالى : « و يستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم فى الـكتاب فى يتامى النساء اللاتى لاتؤتونهن ما كتب لهن ، وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان ، وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما »[2] أن المراد اليتيمة التى تكون عند الرجل ، لعلها أن تكون شريكته فى ماله وهو أولى بها ، فيرغب عنها أن ينكحها ، فيعضلها ليحتجز مالها ، ولا ينكحها غيره حتى لا يشركه أحد فى مالهـا[3] . والرواة جميعاً على أن لليتيمة مالا[4] .

٢ — أما الأخبار التى تثبت ملـكية النساء فمستفيضة . يقول حاتم الطائى لامرأته وقد لامته على البذل إن مالك كثير مصون ، فلماذا تلومينى على أن أسخو بمـالى :

تلوم على إعطـائى المـال ضِـلّة   إذا ضَنَّ بالمـال البخيل وصَرّدا
تقول : ألا أمسك عليك فإننى   أرى المال عند المُمْسِكين مُعَبَّدا

(١) فتح البارى ٩/٩١ وتفسير الطبرى ٥/١٩٣ وروح المعانى ٤/١٨٩
(٢) سورة النساء ١٢٧
(٣) فتح البارى ٩/١٦٠ وتفسير الطبرى ٥/١٩٢
(٤) تفسير الطبرى ٥/١٩١ — ١٩٥

ذريني وحالى إن مالكِ وافر وكل امرىء جار على ماتعوَّدا[1]

وقد كانت أم حاتم عُتْبة بنت عفيف كريمة ،لا يسألها أحد شيئاً إلاأعطته، وكانت ذات يسار ، ولا تمسك شيئاً ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ، ومنعوها مالها ، ثم دفعوا إليها صِرْمة من إبلها[2] ، فهى مثرية ذات مال خاص بها ، و إخوتها يرون سفها فى بذلها فيحجرون عليها ، ثم بعد حين يردون عليها قطيعاً من إبلها .

كذلك روى أن بنت مهلهل بن زيد أخت زيد الخيل كانت تملك مائة من الإبل مع فحلها[3] ، وأن هند بنت صعصعة جد الفرزدق قالت : من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعة يحل لى أن أضع خمارى معهم فلها صِرْمتى[4] . وكان لضُباعة بنت عامر بن قرط مال كثير[5] . وكانت السيدة خديجة صاحبة مال ومتاجر ، وكانت تستأجر رجالا من قريش ليتاجروا لهـا ، وقد تاجر لها النبى صلى الله عليه وسلم فى اليمن وفى الشام ، وتقاضى منها أُجره أربع بكرات أو قلوصين[6] . وفى حديث السيدة أسماء للرسول قولها : يارسول الله مالى مال إلاما أدخل علىَّ الزبير فأتصدق. قال : « تصدق ولا تُوعِى فَيُوعَى عليك[7] . ومعنى ذلك أن لغيرها من النساء مالا يتصدقن منه ، أو أنها مظنة أن يكون لها مال كغيرها تتصدق منه .

وسيتبين من حقها فى التصرف المالى ما يعزز هذه الملكية .

---

(١) ديوان حاتم ٨ وشعراء النصرانية ١٢٠
(٢) الأغانى ١٦/٩٣ وذيل الأمالى ٢٣
(٣) الأغانى ١٦/٤٩ ـ ٥٠
(٤) النقائض ٢٦٤
(٥) أشعار النساء للمرزبانى ٢٤
(٦) إنسان العيون ١/١٤٧ ـ ١٥٢
(٧) صحيح البخارى بشرح الكرمانى ١١/١٢٦ لاتوعى : أى لا تبخلى .

هذا الحق الذى خُوِّلَتْه المرأة العربية فى الجاهلية لم تنله إلا المرأة المصرية ، لأن النساء فى مصر القديمة كن يملكن (حوالى ٤٠٠٠ ق م) أكثر الأراضى ، وذلك لأن التركة كانت تورث فى الأعم الأغلب بطريق النسب إلى الأم[١] . وكذلك المرأة البابلية ، لأن النساء كن يمتلكن ، وكن حرات فى أن يتعاقدن ، وكن يرثن[٢] .

على أن أكثر النساء كن محرومات منه ، كالمرأة العبرية واليونانية .

ولم يكن القانون الإنجليزى الذى سن فى القرن الثامن عشر بأعظم حدبا على حق المرأة فى التملك ، فقد حرمها كل حقوقها المالية تقريباً ، فنزلت عن ثروتها عند الزواج ، ورأى المشرعون فى ذلك صوناً للمرأة ورعاية ، حتى قال بلاكستون Blackstone فى شرحه على قوانين إنجلترا سنة ١٧٦٥ م : إن القيود التى ترزح تحتها المرأة يرادبها فى الغالب حمايتها وخيرها، لأن القانون الإنجليزى يؤثرها بعطف شديد[٣] .

ولم تخوّل المرأة الإنجليزية حق التملك إلا منذ ١٨٨٢ م مع أنها كانت تزاول أعمالا ، ولكن أجرها للأب أو للزوج[٤] ، فهى محرومة حق الملكية ، وحق التصرف .

ومازالت المرأة الفرنسية المتزوجة محظوراً عليها تصرفها فيما تملك إلا بإقرار زوجها ، ما لم تشترط فى عقد الزواج أنها حرة فى تصرفها المالى بعد الزواج[٥] .

---

(١) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٨٨ Mrs Ray strachey

(٢) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٨٦ Mrs Ray strachey

(٣) تاريخ العالم عدد ٧ مجلد ١ ص ٣٩٩ Mrs Ray strachey

(٤) المرأة فى العصور ٩٤

(٥) القانون المدنى الفرنسى . بلانيول وروبير ص ٦٢٠ بند ١٨١٠ و ١٨١٩

حرية المرأة العربية فى التصرف المالى

ليس حق الملكية وحده دليلا على علو مكانة المرأة ، فإن المرأة الرومانية كانت تملك ، ولكنها محرومة حق التصرف المالى ، وزوجها هو الوصى على مالها ، وله أن يقيم وصياً يخلفه بعد موته . كذلك كانت المرأة العبرية فى طور متأخر تملك بالميراث ، ولكن زوجها هو السيد والوصى ، وحتى النذر ، الذى كانت تنذره لا قيمة له مالم يؤيده زوجها .

أما المرأة العربية فقد استمتعت بالحقين معاً : التملك ، والتصرف . و يظهر أن الحضريات عامة كن أكثر أملاكا وأعظم حرية فى تصريف شئونهن المالية .

ومن أمثلة هؤلاء السيدة خديجة بنت خويلد ، فقد كانت تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها ، وتضاربهم بشىء تجعله لهم[1] . وأسماء بنت مخرِّبة أم عبد الله بن أبى ربيعة كانت تتاجر فى العطور بالمدينة ، وكانت تجلبها من اليمن[2] . وكانت تبيع عطرها إلى أجل مسمى[3] . ومُلَيْكة والدة السائب بن الأقرع كانت تبيع العطر زمن النبى صلى الله عليه وسلم[4] . وكانت مَنْشم عطارة يغمسون أيديهم فى طيبها و يتحالفون عليه أن يستميتوا فى الحرب ، أو كانت تبيع الحنوط أيضاً ، وسموا حنوطها عطرا ، لأنهم أرادوا به طيب الموتى[5] . وقد حدثت قَيْلة أم بنى أنمار أنها جاءت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى المروة فى إحدى عُمَره فقالت : « يارسول الله إنى امرأة أبيع وأشترى ، فربما أردت أن أشترى السلعة فأعطى بها أقل مما أريد أن آخذها به ، ثم

(١) أسد الغابة ١/١٦ وتاريخ الطبرى ٢/١٩٦
(٢) الإصابة ٨/١٠ والأغانى ١/٦٤ (٣) الطبقات الكبير ٨/٢٢٠
(٤) الإصابة ٨/١٩١ (٥) مجمع الأمثال ١/٣٤٨

زدت ثم زدت حتى آخذها بالذى أريد أن آخذها به ، وربما أردت أن أبيع السلعة فاستمت بها أكثر مما أريد أن أبيعها به ، ثم نقصتُ ثم نقصتُ حتى أبيعها بالذى أريد أن أبيعها به . فقال لها الرسول : لا تفعلى هكذا يا قيلة ، ولكن إذا أردت أن تشترى شيئاً فأعطى به الذى تريدين أن تأخذيه به ، أُعطيتِ أو مُنعتِ ، وإذا أردت أن تبيعى شيئاً فاستامى الذى تريدين أن تبيعيه به أُعطيت أو مَنعت » [1] .

ومعلوم أن ممارسة التجارة باب واسع من أبواب التصرف المالى .

وقد خولتها حرية التصرف المالى أن تخالف أُباها وإخوتها ، فقد كانت غَنِيَّة بنت عفيف أم حاتم من أسخى الناس وأقراهم للضيف ، وكانت لا تبقى على شيء تملكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ، ومنعوها مالها ، فمكثت دهراً ، ثم أعطوها قطيعا من إبلها ، فسألتها امرأة محتاجة ، فأعطتها القطيع وقالت :

لعمرى لقِدْمًا عضنى الجوع عضة ... فآليتُ ألاأمنع الدهــــرَ جائعاً
فقولا لهــذا اللائمى اليوم أعطنى ... فإن أنت لم تفعل فَعَضَّ الأصابعا
فماذا عسَيتم أن تقولوا لأختكم ... سوى عذلكم أوعذل من كان مانعاً؟
وماذا ترون اليوم إلا طبيعة ... فكيف بتركى يابن أمَّ الطبائعا؟ [2]

وكانت سفانة بنت حاتم من أجود نساء العرب ، وكان أبوها يعطيها الصرمة من الإبل فتهبها الناس . فقال لها : يابنية إن الغَوِيّين إذا اجتمعا فى المال أتلفاه ، فإما أن أعطى وتمسكى ، وإما أن أمسك وتعطى . فقالت : والله لا أمسك أبداً . وقال : وأنا والله لا أمسك أبداً . قالت : فلا نتجاور ، فقاسمها ماله وتباينا [3] .

(١) الطبقات الكبير ٨/٢٢٨

(٢) الأغانى ١٦/٩٣ وذيل الأمالى ٢٣ (٣) ذيل الأمالى ٢٣ والأغانى ١٦/٩٤

وقد سبق فى الخلع والعضل مايدل على حريتها فى التصرف المالى .

المرأة العربية والميراث :

المؤرخون والمفسرون مطبقون جميعاً على أن المرأة كانت مسلوبة حق الميراث، لأن أهل الجاهلية لم يورثوا النساء ولا الصغار من الغلمان ، وقالوا : لا يرث إلا من طاعن بالرماح، وذاد عن الحوزة،وحاز الغنيمة[1] . وقالوا إن العرب ظلوا على ذلك إلى أن مات أوس بن ثابت ـ وقيل أوس بن مالك ، وقيل ثابت بن قيس ـ وترك ابنتين وابنا صغيراً ، وزوجته أم كحة ـ أو بنت كحة أو أم كحة أوأم كلثوم ـ فجاء ابنا عمه فأخذا ميراثه كله ، ولم يتركا لامرأته وأولادها شيئاً ، لأنهم كانوا لايورثون النساء ولاالصغير وإن كان ذكراً . فقالت امرأته لهما : تزوجا اليتيمتين ـ وكان بهما دمامة ـ فأبيا . فأتت رسول الله فأخبرته ، فدعاهما ، فقالا : يارسول الله ، ولدها لا يركب فرساً ، ولا يحمل كلاً ، ولا ينكى عدواً . فقال : انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لى فيهن . فانصرفوا ، فأنزل الله الآية الكريمة : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً »[2].

ثم نزلت بعد ذلك : « و يستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما »[3].

ثم نزلت : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين . . . . . . والله عليم حليم »[4].

---

(١) تفسير الطبرى ٤/١٨٥ و ٥/١٩١ والكشاف ١/١٩٠

(٢) سورة النساء ٧ (٣) سورة النساء ١٢٧ (٤) سورة النساء ١٢

لكن ذلك فى حاجة إلى مناقشة وتمحيص :

١ — فلو أن حرمان المرأة من الميراث عرف عام فى العرب ما شكت أم كحة للرسول أنها وأولادها قد حُرِمن الميراث ، وإنما تدل هذه الشكاة على أن أولياء الميت كانوا عادة يعطون الزوجة والبنات بعض ماترك ، وهم فى هذه الحادثة ضيقوا على الزوجة وأولادها ، واحتازوا التركة كلها ، فلم تجد بداً من أن تستنجد برسول الله ، فكان حكم القرآن فيصلا بين المرأة والرجل إلى اليوم .

٢ — ثم إننى أجد فى الطبرى نصاً آخر أستنتج منه أن الثروة كانت من نصيب الولد الأكبر وحده ، لأنه يقول : « فكانوا لا يعطون الميراث إلا من قاتل ، ويعطونه الأكبر فالأكبر[١] »

وبمعارضة هذا النص بسابقه أستنتج أن الذكور الكبار والمقاتلين كانوا يفضلون على الذكور الصغار ، وعلى الإناث فى تقسيم الغنائم والأسلاب ، لأن عبء القتال ، وتبعة الثأر ، وحماية الحوزة كانت كلها على الرجال وحدهم دون الأطفال والنساء ، فحق لهم أن يستأثروا بالأسلاب ، لأنهم هم الذين غنموها ، وهم الذين ألقوا بأنفسهم فى معامع القتال .

٣ — وإذا كان النظام العام ألا ترث المرأة ، فمن أين حصلت النساء على ما ملكن ؟ حتى لقد كان بعضهن ثريات مشهورات الثروة كما سبق ؟

ومن أين حصلن على المال الذى كان يزين لبعض الرجال أن يعضلوهن حتى يفتدين أنفسهن ، أو حتى يمتن فيرث الرجال ما خلفن ؟

قد يقال إنهن حزن هذا المال عن هبة أو وصية أو عطاء ، وأنا لا أجحد هذا ، ولكنى أرى أن التى تنال مالاً بهبة أو وصية أو عطاء أجدر بأن تناله

---

(١) تفسير الطبرى ٤/١٨٥

أيضاً بالمشاركة فى التركة على أى وجه من وجوه المشاركة .

والقرآن الكريم أوصى بالرعاية على اليتامى فى مالهم ، وحظر أكله بالباطل، وحبب إلى المسلمين نكاح اليتامى على أن يُعْطين صداقهن كاملا : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا »[1] وفى آية ثانية : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع »[2] وفى آية ثالثة : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم »[3] .

وقد أوصى النبى باليتامى أصحاب المال خيراً ، وحذر الأوصياء من العدوان على مالهم .

ومن المعقول أن يكون بعض هؤلاء قد ورثوا قبل مشرق الإسلام ، وأن يكون آخرون قد ورثوا فى مشرق الإسلام ، لأن القرآن الكريم ينص على أن اليتامى كان لهم مال قبل أن تنزل الآية ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم . . ﴾ وذلك أن بعض الأوصياء كانوا يأخذون الجيد من مال اليتيم ، ويجعلون لليتيم الردىء والخسيس مكانه ، فنهاهم الله عن هذا التبديل ، ونهاهم عن خلط مال اليتامى بمالهم حتى لا يأكلوه . وقد تشدد بعض الأوصياء فى تحرزهم ، حتى كرهوا أن يخالطوا اليتامى ، فنزل قوله تعالى :﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾[4] .

كذلك ينص القرآن الكريم على أن الإناث اليتامى كان لهن مال ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ والمراد كما قالت السيدة عائشة أن تكون اليتيمة منهن فى حجر وليها ، فيرغب فى مالها وجمالها ، ويريد أن ينكحها بأدنى من صداقها ، فنهوا أن

(١) سورة النساء ٢
(٢) سورة النساء ٣
(٣) سورة النساء ٦
(٤) تفسير الطبرى ٤/١٥٤

ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق ، أو أن تكون اليتيمة ذات مال فلعل وليها ينكحها لمالها وهى لا تعجبه ، ثم يسىء صحبتها ، فنهوا عن هذا[١] .

٤ — وقد عثرت على نصوص فريدة تكشف الحجاب عن هذه الحقيقة : أن المرأة كانت ترث ، وهى نصوص كالشعاع الذى ينبعث من خلال السحب الكثيفة يعلن أن الشمس هاهنا ضوؤها، لكنه لم يذهب كله ، ولم تغرب الشمس . هى كالأثر الوحيد الذى بقى سليما على عوادى الدهر وعوادى الناس فى أكداس من آثار مهشمة ، ونقوش ممسوخة ، وألواح محطمة .

(ا) يقول ابن حَبيب : « ورَّث ذو المجاسد وهو عامر بن جُشَم بن غَنْم بن حُبَيِّب بن كعب بن يشكر ماله لولده فى الجاهلية ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، فوافق حكم الإسلام »[٢] .

(ب) ويذكر ابن حزم الأندلسى أن عامر بن جُشَم أول من أعطى الذكر حظين والأنثى حظا[٣] .

ولم يكفل البقاء لهذا الأثر أن عامرا ورث بناته ، وإنما كفل له البقاء أنه فَرَى فَرْياً عجباً اتفق مع ما شرع الإسلام فيما بعد ، ولولا هذا لضاع ما عمله عامر كما ضاع ما عمل غيره .

(ج) ووجدت الواقدى يذكر فى قصة أم كحة أنها قالت للنبى عليه الصلاة والسلام : لقد مات بعلى فانتقل الميراث إلى أخيه ، وبقيت بناته بدون مال ، ولكن أنَّى للبنات أن يتزوجن إذا لم يكن لديهن مال ؟[٤] .

فهذه الزوجة تشكو إلى النبى أن عم بناتها قد استأثر بمال زوجها ، وتقرر حقيقة كانت شائعة ، هى أن البنات الثريات مرغوبات ، وتعجب من أن يقبل

---

(١) تفسير الطبرى ٤/ ١٥٥ وسنن أبى داود ١/ ٢٠٥
(٢) المحبر لابن حبيب ٢٣٦ (٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٢٩٠
(٤) المغازى ٢ ١٤٧

أحد على بناتها وهن لا مال لهن ، وتصرخ من استئثار الرجل بتركه أخيه .
ومعنى هذا أنها كانت تتوقع كما يتوقع غيرها من هذا العم أن يترك لبنات أخيه نصيباً من تركة أبيهن .

(د) ثم أجد نصا رابعاً فى الطبرى صريح الدلالة : « كان جابر بن عبد الله الأنصارى ثم السلمى له ابنة عم عمياء ، وكانت دميمة ، وكانت قد ورثت عن أبيها مالا ، فكان جابر يرغب عن نكاحها ، ولا ينكحها ، رهبة أن يذهب الزوج بمالها ، فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وكان ناس فى حجورهن جوار أيضاً مثل ذلك ، فجعل جابر يسأل النبى : أترث الجارية إذا كانت قبيحة عمياء ؟ فجعل النبى يقول : نعم »[١] .

ولا شك أن هذه كانت ورثت فى الجاهلية ، بدليل أن جابراً رغب عن أن يتزوجها ، وعضلها . وفى سؤال جابر أترث الجارية القبيحة العمياء ؟ دليل على أن مبعث الاستنكار أو العجب أنها مئوفة لا أنها أنثى .

(ه) كذلك وجدت أن ضُباعة بنت عامر بن قرط ورثت من زوجها هَوْذة بن على الحنفى مالا كثيراً ورجعت به إلى قومها[٢] .

٥ — لست أشك إذاً فى أن المرأة كانت ترث فى كثير من الأحيان ، وأن بعض الناس كانوا يحرمونها حقها فى التركة بغياً منهم وعدواناً .

ولكن لم تكن المرأة ذات حق معلوم مقرر كهذا الذى حدده القرآن الكريم ، وإنما كان العرب يسيرون مع المرأة على نظام يشبه التخارج فى الإسلام ، فيرضونها بمقدار من المال قل أو كثر .

وليس فى هذا الحرمان ما يغض من قدر المرأة ، لأن هؤلاء الذين حرموها كانوا يخارجونها على قدر من التركة ترضاه .

---

(١) تفسير الطبرى ١٩٣/٥

(٢) أشعار النساء للمرزبانى : ٢

ولو أن خَتَنَىْ أم كُجّة خارجاها هى وأولادها على شىء من تركة زوجها ما شكت إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

ولاغرابة فى هذا ، فإن بعض المسلمين فى مصر يفعلون مثل ذلك إلى الآن ، ولقد يخص الوالد بنيه الذكور بقسط من ثروته ، ويدع الباقى ليقتسمه البنون أوالبنات بعد وفاته . ولقد يكسر بعضهم ماله كله على الذكران ويدع الإناث ، ويخصهن بنصيب ضئيل . فهل معنى ذلك أن هذا نظام عام فى المسلمين ؟ أو أنه هو نظام الإسلام ؟ لا .

كذلك كان العرب يفعلون فى توريث البنات ، كما كانوا يفعلون فى الزواج ، أكثرهم لا ينكح امرأة الأب ، ولا يجمع بين الأختين ، وأقلهم كان يفعل ذلك « وما زالت بعض الأسر الكبيرة فى داخل سوريا ولبنان — وهم الإقطاعيون الذين يرغبون فى أن يبقوا على نفوذهم وتراثهم — لا يورثون النساء ، لأن تقسيم الثروة وإشراك الصهر الغريب فيها يضعفهم ، لذلك يلجأ بعضهم إلى حرمان بناتهم من الميراث ، ويعوضونهن نقداً ، ويحتفظون بالأرض للذكور » [(١)] .

ومالنا لا نعود القهقرى إلى عهد عمر رضى الله عنه ، لنجد غَيْلان بن سَلَمَة الثقفى قد أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال له النبى : اختر منهن أربعاً . فلما كان فى عهد عمر طلق نساءه ، وقسم ماله بين بنيه ، فبلغ ذلك عمر ، فقال له : إنى لأظن الشيطان فيما يسترق السمع سمع بموتك فقذفه فى نفسك ، ولعلك لا تمكث إلا قليلا . وأيم الله لتراجعن نساءك ، ولترجعن فى مالك ، أو لأورثهن منك ، ولآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبى رغال [(٢)] .

---

(١) عائشة أم المؤمنين لزاهية قدورة ٣٦

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ١٣٩ وكنز العمال ٨/٢٩٠ أبو رغال : رجل من ثمود أو هو دليل الحبشة فى سيرهم إلى مكة .

ذكور لا يرثون :

وإذا كانت المرأة قد حرمت الميراث أحياناً، عسفاً من إخوتها أو ولي المتوفى، فإن هذا الحرمان لا ينافي مكانتها العالية التي أسلفتها في مواضع شتى ، لأن بعض الذكور كانوا يحرمون أيضاً ، وقد سبق أن الصغار كانوا لا يرثون .

وقد مات أبو طرفة ـ وطرفة صغير ـ فأبى أعمامه أن يقسموا له ماله ، فقال:

ما تنظرون بمال وَرْدَة فيكم صغر البنون ورهط وردة غُيَّبُ

قد يبعث الأمرَ العظيمَ صغيرُه حتى تظل له الدماء تَصَبَّب [١]

وكان الحطيئة ينسب إلى أوس بن مالك العبسي تارة ، وإلى الأفقم بن رباح الشيباني تارة ، وقد أتى أخويه من أوس يطلب منهما بعض المال ، فرفضا ، فهجاهما ، ثم لحق بإخوته من بني الأفقم ومدحهم ، ومن مدحه قوله :

قومي إذا انتسبوا ففرعهم فرعي وأَثْبَتُ أصلهم أصلي

وسألهم ميراثه من الأفقم ، فأعطوه نخيلات لم تقنعه، فسألهم ميراثه كَمَلاً ، فلم يعطوه شيئاً ، فغضب عليهم ، وهجاهم ، وانسلّ من النسب إليهم ، وانتسب إلى أوس بن مالك [٢] .

ثم ان الزوج كان لا يرث زوجته أحياناً « لأن الحرة إذا ماتت آلت أملاكها إلى أولادها ، فإن لم يكن لها أولاد فإلى إخوتها وأقاربها من القبيلة . أما الرقيقة فإن زوجها كان يستولى على أملاكها ، فإن مات الزوج لم ترث منه الرقيقة شيئا، بل تسلم إلى بنيها منه أو إلى ورثته » [٣].

امتياز المرأة العربية بالميراث :

وإذا فقد تميزت المرأة العربية من نساء العالم القديم ، لأنهن كن محرومات

---

(١) خزانة الأدب ١٨٦/٢

(٢) خزانه الأدب ١٧٤/٢

(٣) Muslem Law P. 34

من الميراث فى قانون حمورابى والقوانين الأشورية . ولم يكن لهن إلا المهر يدفعه الأب لابنته ، فإذا مات قبل أن يمهرها منحها إخوتها جزءاً من ربع ما خلف أبوهم ، أما العين فلهم وحدهم[(١)] .

وكانت المرأة العبرية لا ترث قديماً ، بل لقد كانت تورث كما يورث متاع الرجل ، ثم ورثت البنت أباها فى عصر متأخر إذا لم يكن له أبناء ، فإذا خلف ذكراً حجبها ، فلا ترث شيئاً[(٢)] ، وإذا ماورثت فعليها أن تتزوج رجلا من أسرة أبيها من قبيلته ، ليرث كل من بنى إسرائيل نصيب آبائه ، ولا ينتقل ميراث قبيلة إلى أخرى[(٣)] ، وبذلك تنتقل أملاك المرأة إلى تصرف زوجها ، فكأنها لم ترث شيئا . أما الزوجة فلا حق لها فى ميراث زوجها ، بل ظلت تورث كما تورث تركته[(٤)] .

كذلك لم ترث المرأة اليونانية ، فإذا مات أبوها ورثه إخوتها ، وإن لم يكن لها إخوة تزوجت أكبر الوارثين الأقربين ، فهى ذات صلة بالتركة ، لكنها لا تنال منها شيئا ، وولدها من هذا الزوج ينسب إلى جده لأمه ، وإليه ينتقل ما خلف هذا الجد[(٥)] .

ولم ترث المرأة الحبشية مخافة أن ينتقل المِلْك بالزواج إلى الأجانب ، إلا إذا فقد الورثة من الذكور إلى الدرجة السادسة . وكان مثل هذا القانون عند الفرنجة[(٦)] .

الإسلام وتوريث النساء :

كفل الإسلام للمرأة حقا معلوماً ، ونصيبا مقرراً مقدراً مفروضاً فى التركة ، فاستكملت المرأة حقوقها المالية .

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧١ (٢) النظم الاجتماعية ١٧٠

(٣) The Holy Bible Numbers 36. 8—9 وسفر العدد إصحاح ٣٦ آية ٨ و ٩

(٤) النظم الاجتماعية والسياسية ١٧٠ (٥) المرأة فى التاريخ والشرائع ٧٤

(٦) مقدمة الحضارات الأولى . جستاف لوبون ٦٩

ولا شك أن نظام التوريث فى الإسلام قد استوفى العدل والإنصاف والرحمة جميعا : لأنه فرض للمرأة نصف الرجل ، والرجل هو المكلف الإنفاق على نفسه وعلى زوجته وعلى أولاده منها وإن كانت ذات مال ، وهو المكلف البذل فى وجوه أخرى لا تكلفها المرأة . فالإسلام سخى فى فرضه للأنثى نصف الذكر « ويظهر من مقابلة الإسلام بالقوانين الفرنسية والإنجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات - اللاتى يزعم بعض الناس أن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف - حقوقا فى الميراث لا مثيل لها فى قوانيننا »[1] .

لهذا فإن ليفى **Levy** يجافى الحق فى دعواه أن حق الملكية والميراث فى الإسلام نظرى لا عملى ، وأن البنات لا يرثن فى كثير من القبائل[2] . لأن حرمان المرأة ميراثها معصية لله لا يجرؤ عليها إلا شذاذ من الناس ، وهؤلاء الشذاذ كثيراً ما يقدرون للنساء نصيبا ، سواء أكان المقدر لهذا النصيب الأب قبل موته - إذ قسم أكثر أملاكه على الذكور ببيع صورى وترك بعضها ليقتسمه الذكور والإناث بعد وفاته ، أم وزع أملاكه على الذكور جميعا بنسب يراها - أم أن الذكور اتفقوا مع الإناث على أن يخرجن من التركة لقاء نصيب معين .

---

(١) حضارة العرب . جستاف لوبون ٤٧٤

(٢) An. Introduction to the sociology of Islam. by Levy. P.141

الباب الثانى

المرأة فى الحياة العامة

جلوت صور المرأة فى الحياة الأسرية فى الباب الأول ، والآن أشرع أجلو صورها فى الحياة العامة .

والبابان معا دراسة للمرأة فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، وهما متصلان اتصالا يقرب من التداخل أحيانا ، لكن دواعى الفصل بينهما أقوى من دواعى الإدماج والوصل ، ذلك بأن المرأة أما وزوجة و بنتا وأختا وقريبة وذات حق فى حيازة المال وامتلاكه ألصق بحياة الأسرة ، وأوثق صلة بنظامها ، من صلتها بحياة المجتمع و نظم القبائل ، فهى فى هذا الباب عضو فى أسرة ، وإن لم يزايلها اشتراكها فى المجتمع .

أما المرأة من حيث أخلاقها ومشاركتها فى الحروب وأعمالها وصناعاتها وسفورها وحجابها ، فإنها أقوى وشيجة بالحياة العامة ، وبنظم المجتمع كله ، فهى هنا عضو فى جماعة ، أو فرد فى قبيلة ، و إن لم تنفك عنها سمتها الأسرية .

و إذا فقد كانت دراسة المرأة فى الباب الأول لإبراز مكانتها وقيمتها فى الأسرة ، أما دراستها فى هذا الباب فهى لجلاء أعمالها ومكانتها فى القبيلة وفى المجتمع كله .

الفصل الأول

أخلاق المرأة

شجاعتها النفسية

سأتحدث فى فصل الحرب عن شجاعة المرأة العملية ، إذ قادت الجيش ، وأسهمت فى الحرب ، والآن أتحدث عن شجاعتها النفسية وجرأتها القلبية .

وللمرأة فى هذا المجال نصيب أى نصيب ، فهى لا تتطامن وإن كان الهلاك محدقا ، ولا تذل وإن رأت النكال محققاً . فقد أقسم عمرو بن هند بعد يوم أُوَارَة ليحرقن من بنى حنظلة مائة ، فأحرق ثمانية وتسعين . ثم أقبل وافد من البراجم فأتم به تسعة وتسعين ، ثم قدمت عليه امرأة من بنى حنظلة فقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا الحمراء بنت ضَمْرَة بن جابر . . . . . بن دارم . فقال : إنى لأظنك أعجمية . فقالت : ماأنا بأعجمية ولا ولدتنى العجم . قال: فمن زوجُك ؟ قالت : هَوْذَة بن جَرْول . قال : أين هو ؟ قالت : هذه كلمة أحمق ، لو كنت أعرف مكانه حال بينى وبينك . فقال : أما والله لولا مخافة أن تلدى مثلك لصرفتك عن النار . فقالت : أما والذى أسأله أن يضع وسادك ، ويخفض مهادك ، ويسلبك ملكك ، ما قتلتَ إلا نساء أعاليها ثُدِىّ ، وأسافلها حُلِىّ . قال : اقذفوها فى النار . فالتفتت ، فقالت : ألا فتًى يكون مكان عجوز ؟ فلما أبطئوا عليها قالت : صارت الفتيانُ حُمَمًا . فأحرقت [1] .

وكانت تستطيع أن تنجو إذا ألانت القول ، وخضعت للملك الجبار الحانق

---

(١) الأغانى ١٩/١٢٩ ومجمع الأمثال ١/٣٦٠

ولكنها كانت جريئة مغيظة ، فجبهته بما لم يكن يتوقع .

ولقد يطبق قومها على خطأ فلا تحفل بإطباقهم ، ولا تكترث بلومهم لها . من ذلك أن يزيد بن عبد المدان كان قد أسر عامر بن مالك ملاعب الأسنة وأخاه عبيدة بن مالك ، ثم أطلقهما ، فلما مات يزيد رثته أختهما زينب بنت مالك وذكرت نعمته مرتين[1] . فلامها قومها وعيروها أن بكته ، فردت عليهم بقولها :

ألا أيها الزارى علىّ بأننى نِزارِيّةٌ أبكى كريماً يمانيا
ومالى لا أبكى يزيدَ وردّنى أجُرُّ جديداً مدرعى وردائيا[2]

ومن شجاعتها أنه بعد فتح مكة بايع الرسول الرجال ثم النساء ، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة تخشى ما فعلت يوم أحد . فقال رسول الله : تبايعننى على ألا تشركن بالله شيئاً . فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا ما لم تأخذه على الرجال ، وسنؤتيكه . قال : ولا تسرقن . قالت : والله إن كنتُ لأصيب من مال أبى سفيان الهَنة والهَنة ، وما أدرى أكان ذلك حِلاً لى أم لا . فقال رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة ؟ فقالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف ، عفا الله عنك . قال : ولا تزنين . قالت : يارسول الله هل تزنى الحرة ؟ قال : ولا تقتلن أولادكن . قالت : قد ربيناهم صغاراً ، وقتلتهم يوم بدر كباراً ، فأنت وهم أعلم . فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب . . . . قال : ولا تعصيننى فى معروف . قالت : ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فى معروف[3] .

وشجاعة هند تتجلى فى قولها : ربيناهم صغاراً ، وقتلتهم يوم بدر كباراً ، وفى قولها : إنك تأخذ علينا ما لم تأخذه على الرجال .

---

(١) الأغانى ١٠/١٤٣ (٢) الأغانى ١٠/١٤٣
(٣) تاريخ الطبرى ٣/١٢١ والمغازى ٤١٦ والطبقات الكبير ٨/١٧٢ .

وقد تزعمت أسماء بنت يزيد بن السَّكَن الأنصارية بنات جنسها ، وكانت نقيبتهن إلى النبي ، تطالب بحقوق المرأة ، وتريد أن تساويها بالرجل فى الثواب ، وأعلمته أنها سفيرة النساء إليه ، ودللت على مطلبها بما أعجب رسول الله ، ووفقت فى سفارتها ، وعادت مزهوة بما نالت لبنات جنسها من خير .

ذلك أنها قالت لرسول الله : إنى رسولُ مَنْ ورائى من جماعة النساء ، يقلن بقولى ،وعلى مثل رأيى . إن الله بعثك إلى الرجال والنساء ، فآمنا بك واتبعناك ، ونحن معشر النساء مقصورات مخدَّرات قواعد بيوت . . وحاملات أولادكم ، وإن الرجال فضلوا بالجماعات وشهود الجنائز ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، وربينا أولادهم ، أفنشاركهم فى الأجر يارسول الله ؟ فالتفت إلى أصحابه وقال لهم : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه ؟ فقالوا : لا يارسول الله . قال انصرفى يا أسماء ، وأعلمى من وراءك من النساء أن حسن تبعُّل إحداكن لزوجها ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرتِ . فانصرفت وهى تهلل وتكبر استبشاراً بما قاله لها رسول الله[1] .

ولم تطغ هيبة عمر بن الخطاب ورهبته على شجاعة المرأة ، فتسكت عما ترى فى قوله من مخالفة القرآن ، والانتقاص من حقوق النساء ، فى حين سكت الرجال . ذلك أن عمر قال : أيها الناس ما هذه الصدقات التى قد مددتم إليها أيديكم ؟ لا يبلغنى أن أحداً جاوز بصداقه صداق النبى صلى الله عليه وسلم . فقامت امرأة بَرْزة فقالت : ما جعل الله لك ذلك يابن الخطاب ، وقد قال الله عز وجل : « وإن آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » فقال عمر : ألا تعجبون ؟ أمير أخطأ وامرأة أصابت[2] .

---

(١) الاستبصار فى أنساب الأنصار ورقة ١٤٩ مخطوط ونزهة الأبصار والأسماع فى أخبار ذوات القناع ٣٩ وصحيح مسلم .

(٢) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ١/٣٧٥ وبلاغات النساء ١٢٨ .

استمسا كها بعقيدتها

إذا دان الإنسان بعقيدة وأشربتها روحه فأخلص لها ، ثم ابتلى فيها فنافح عنها بنفسه ودمه وماله ، فهو عزيز النفس ، قوى الشخصية ، ذو رأى يخضع له ، وليس إمّعة تبيعاً . فهو يلاحى عن عقيدته حتى يتبين له بطلانها فينزعها من نفسه غير آسف عليها .

كان كثير من رجال الجاهلية على ذلك ، فماذا كان نصيب النساء ؟

١ ــ صبرن على الأذى ، وفدين عقيدتهن بأنفسهن إذ اعتصمن بالشرك ، وناضلن عنه .

ولست أشيد بهن إعجابا بعقيدتهن ،أو إيثارا لهن ،بل أريد أنهن صاحبات عقيدة ناضلن عنها ، لأنها فى رأيهن الحق ، فلما استبان لهن ضلالها ، وشرح الله صدورهن للإيمان سارعن إليه بقدر ما كن ينفرن منه ، وأخلصن له بقدر ما كن يبغضنه .

وهن فى هذا شبيهات بعمر ، كان من أشد المشركين بغضة للإسلام والنبى ، فلما هداه الله إلى الحق كان أحد رجلين رجا المسلمون أن يعز الله بهما الإسلام .

وهؤلاء المشركات كثير ، منهن العَصْماء بنت مَرْوان من بنى أمية ، كانت تحت يزيد بن يزيد بن حصْن الخطمى ، وكانت تؤذى النبى وتعيب الإسلام ، وتحرض على الرسول ، وتهجو المسلمين بشعرها ، كقولها :

فباسْتِ بنى مالك والنَّبيت وعَوْف وباست بنى الخزرج
أطعتم أتاوِىَّ من غيركم فلا من مُراد ولا مَذْحج
تُرَجُّونه بعد قتــل الرءوس كما يُرْتَجَى مَرَقُ المُنْضَــج[1]

فآلى عُمَيْر بن عدىّ الخطمى أن يقتلها إذا رد الله الرسول من بدر إلى المدينة ، ووفى بنذره فقتلها ، وأشاد حسان بن ثابت بعمير .

ومنهن أم جميل بنت حرب بن أمية ، كانت زوجة لأبى لَهب ، وقد

(١) المحبر ٢٨٣ والمغازى ٣ و ١٧٢ الأتاوى : الرجل الغريب .

أظهرت صنوف العداوة للنبى ، وأثارت عليه حقد زوجها ، فانضم إلى أخيها أبى سفيان فى مناهضته الدعوة . وكانت كسابقتها تهجو النبى بشعرها كقولها :

مُذَمَّمًا عصَيْنا وأمره أَبَيْنا

ودينه قَلَيْنا

وفيها وفى زوجها نزلت سورة المسد(١)

ولقد يسلم ابنها وزوجها ، وتأبى هى الإسلام ، فقد أسلم الطفيل بن عمرو الدوسى ، وعاد إلى قومه ، ودعا أبويه إلى الإسلام ، فأسلم أبوه ولم تسلم أمه(٢) .

ولقد تعير زوجها إسلامه ، وتؤنبه وتنتقصه جهرة ، تريد أن يثبت على الشرك ، وأن يبلى فى مكافحة الإسلام ، فإن زوجة العباس بن مرداس بنت الضحاك بن أبى سفيان لما عامت بإسلام زوجها قوضت خيمتها ، وارتحلت، وقالت تؤنبه وتهيجه بثنائها على المسلمين :

ألم ينه عباسَ بنَ مرداس أننى ... رأيت الورى مخصوصة بالفجائع
أتاهم من الأنصار كل سَمَيْذع ... من القوم يحمى قومه فى الوقائع
بكل شديد الوقْع ِ عَضْبٍ يقوده ... إلى الموت هام المُقْرَبات البَزَائع
لعمرى لئن تابعتَ دين محمد ... وفارقتَ إخوان الصفا والصنائع
لَبَدَّلْتَ تلك النفس ذلا بعزة ... غداة اختلاف المرْهَفات القواطع
وقوم ٍ هم الرأس المقدَّم فى الوغى ... وأهل الحجا فينا وأهل الدسائع
سيوفهم عِزُّ الذليل ، وخيلهم ... سهام الأعادى فى الأمور الفظائع(٣)

---

(١) تفسير الطبرى ٣٠/٢١٩ وسيرة ابن هشام ١/٣٧٨ مذمما : قال ابن إسحاق كانت قريش تسمى رسول الله مذمماً ثم يسبونه . وفى القاموس مادة ذم أن المذمم المذموم جدا

(٢) الأغانى ١/٥١

(٣) الأغانى ١٣/٦٤ السميذع : السيد الكريم الشريف الشجاع . المقربات : جمع مقربة وهى الفرس التى يكرمها صاحبها ويقربها . البزائع : جمع بزيعة وهى الخفيفة وفى الأصل برائع وهى جمع بريعة أى فائقة الجمال . الصنائع : جمع صنيعة وهى الإحسان والكرم . الدسائع : جمع دسيعة وهى العطية الجزيلة والمائدة الكريمة والقوة .

وفى يوم فتح مكة رأى أبو سفيان جيش المسلمين ، وأيقن أنه لاطاقة لقريش به ، فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن (وكان قد سمع من النبى حين أسلم أن من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن) فقامت إليه امرأته هند ، فأخذت بشاربه وقالت : اقتلوا الحَمِيت الدَّسِم الأَحْمَس ، قُبِّح من طليعة قوم . فقال : ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم[1] . وفى رواية أنها قالت : اقتلوا هذا الخبيث الدنس الذى لا خير فيه ، وفى أخرى أنها قالت : اقتلوا الشيخ الأحمق ، هلا قاتلتم ودافعتم عن أنفسكم وبلادكم[2] ، وفى رابعة أنها أخذت برأسه وقالت له : بئس طليعة القوم أنت ، والله ما خُدِشْتَ خدشاً ، يا أهل مكة عليكم الحميت الدسم فاقتلوه[3] ، وتذهب رواية خامسة إلى أنها أخذت بلحيته فلطمته وقالت : اقتلوا الشيخ الأحمق فإنه قد صبا[4] .

والروايات كلها توحى بمعنى واحد هو سخطها على زوجها ، وبرمها بإسلامه ، وتعييره الجبن والخور ، وتحريضها على قتله .

على أن نساء ثقيف قد حزنَّ أشد الحزن لما هدم الطاغيةَ المغيرةُ بنُ شعبة وأبو سفيان بن حرب بأمر من النبى ، وخرجن حسَّرا يبكين عليها ، ويقلن إنها كانت عظيمة تعبد وتدفع عنهن الشرور ، ويعبن قومهن بالضعف واللؤم ، لأنهم لم يحسنوا الدفاع عنها :

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٢٣ الحميت : وعاء السمن والزق الصغير والزق بلا شعر . الأحمس : إما أنها تريد أنه من الحمس وهم قريش وكنانه وجديلة ومن تابعهم لتحمسهم فى دينهم، وفى هذا تقطيع لإسلامه ، وإما أنها تتهكم به ، لأن الأحمس الشجاع . وأرجح أن الكلمة محرفة أصلها الأحمش بالشين وهو السمين لأن الحميش الشحم أو أن أصلها الأحمق بدليل الرواية الأخرى .

(٢) إنسان العيون ٣/٩٤ (٣) تهذيب الكامل ١/٦٣

(٤) المغازى ٤١٣

ألا ابكِيَنَّ دُفَّاعْ أسامِها الرُّضَّاعْ
لم يُحْسنوا المِصاعْ (١)

ولما قبض رسول الله ذهب بنعيه إلى حضرموت رجل من كليب يقال له جَهْبَل بن سيف ، وكان بها ست نسوة من كندة وحضرموت يتمنين موته ، ففرحن وخضبن أيديهن بالحناء ، وضربن بالدفوف ، وخرج إليهن بغايا حضرموت ففعلن كفعلهن ، وكانت البغايا نيفاً وعشرين امرأة ، فكتب امرؤ القيس بن عابس الكندى إلى أبى بكر :

شمت البغايا يوم أعلن جَهْبَلٌ بنعىِّ أحمدِ النبى المهتدى

. . . .

اشفِ الغليل بقطعهن فإنها كالجمر بين جوانحى لم تبرد

وكتب إليه شداد بن مالك :

أبلغ أبا بكر إذا ما جئته أن البغايا رُمْن كل مرام
أظهرن من موت النبى شماتة وخضبن أيديهن بالعُلاّم
فاقطع - هُدِيتَ - أكفهن - بصارم كالبرق أومض فى متون غمام

فكتب أبو بكر إلى عامله على كندة أن يقطع أيديهن ، ففعل (٢) .

٢ - أسلمتْ بعض النساء فى مطلع الدعوة ، وكان منهن إماء ، ولكنهن صبرن وصابرن ، واحتملن صنوف الإيذاء والتعذيب ، وجَهِد ساداتهن فى ردهن عن الإسلام فما استطاعوا . منهن أم عُبَيْس - أو عُنَيْس - ، وزِنِّيرة ، وقد أصيب بصرها حين أعتقها أبو بكر ، فزعمت قريش أنه ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى ، فقالت : كذبوا وبيت الله ، ما تضر اللات والعزى وماتنفعان ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٢/١٤٢ دفاع : شىء عظيم يدفع به مثله . الرضاع : اللئام . المصاع : الضرب بالسيف

(٢) المحبر ١٨٤ - ١٨٨ والقاموس مادة جهبل .

فرد الله بصرها . ومنهن النّهْدية وبنتها ، وقد مرّ بهما أبو بكر حين بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهى تقول : والله لاأعتقكما أبداً . فراجعها أبو بكر ، فقالت أنت أفسدتهما فأعتقْهما ، فأعْتَقَهما ومنهن جارية بنى مؤمل التى كان يعذبها عمر ابن الخطاب لتترك الإسلام ، ويضربها حتى إذا ملّ ضربها قال : إنى لم أتركك إلاملالة ، فتقول كذلك فعل الله بك ، فاشتراها أبو بكر فأعتقها . ومنهن أم عمار ابن ياسر ، كان بنو مخزوم يعذبونها برمضاء مكة إذا حميت الظهيرة فيمر بها — وبزوجها وابنها عمار — رسول الله فيقول : صبرا يا آل ياسر موعدكم الجنة . ولما ضاق بها بنو مخزوم قتلوها (١) .

وقد هاجرت بعض المسلمات مع أزواجهن إلى الحبشة ، وتركن الوطن والأهل حفاظا على عقيدتهن ، وفراراً بدينهن ، كرقية بنت الرسول ، وسَهْلة بنت سُهَيْل بن عمرو ، وأم سَلَمة بنت أمية ، وليلى بنت أبى حَثْمة ، وأسماء بنت عُمَيْس ، وفاطمة بنت صفوان بن أمية ، وأمينة بنت خلف ، وغيرهن (٢) وقد آمنت أم كلثوم بنت عقبة وحدها دون قومها وهاجرت وحدها (٣) .

على أن المرأة التى أسلمت لم تكتف باستمساكها بدينها وصبرها على الأذى ونزوحها عن الوطن ، بل لقد دافعت فيما بعد عن هذا الدين بيدها كما يدافع الرجال .

وبحسبنا من التنويه بحمايتها لعقيدتها وتمسكها بها أن فاطمة بنت الخطاب بكرت إلى الإسلام هى وزوجها سعيد بن زيد ، وكان أخوها عمر لم يسلم ، وكان ذا شكيمة وقسوة على المسلمين ، فخرج يوماً متوشحاً بسيفه يريد رسول الله ورهطاً من أصحابه قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، وهو يعتزم أن يقتل النبى، لأنه فى رأيه

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٤٠ ـ ٣٤٢

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣٤٤ ـ ٣٥٣ وإنسان العيون ١/٣١٩ .

(٣) الإصابة ٨/٢٧٥

صابیء ، قد فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فعلم في طريقه أن أخته فاطمة وختنه سعيدا قد أسلما ، فرجع إليهما ، وكان عندهما خَبّاب بن الْأَرَتّ يقرئهما صحيفة فيها سورة طه . فلما أحسوا به اختبأ خَبّاب في مخدع ، وخبأت فاطمة الصحيفة تحت فخذها ، فبطش عمر بسعيد ، فقامت إليه أخته لتكفه ، فضربها فشجّها ، فقالت له : قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدالك .

فلما رأى ما بأخته من الدم ندم ورقّ ، وطلب منها الصحيفة ، فقالت له : إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر . فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، فقرأها وأسلم [١] .

أية شجاعة هذه ؟ لقد كان الرجال يرتعدون من عمر ، لأنه شديد التنكيل بمن أسلم ، وكان من المتوقع أن تكون أخته أشد فرقًا منهم ، لأنها دانت بما يبغض ، وانحازت إلى ألدائه ، لكنها لم تهيب أخاها الجبار حين أسلمت ، ولم تفزع منه حين انكشف له إسلامها ، بل لقد جبهته بأنها أسلمت فليفعل بها ما يريد ، وجبهته بأنه مشرك لا يتسامى إلى أن يمس الصحيفة ، وكانت شجاعتها هذه نعمة وبركة ، لأن عمر أسلم حينئذ ، وآزر الإسلام بقوته وشخصيته وعبقريته .

عزة نفسها

لم يُؤْثَر عن المرأة العربية استخذاء أو تخاضع ، وإنما كانت كالرجل شمماً وإباء ، واعتزازاً بالكرامة ، واعتداداً بالنفس .

ولقد يهبط الدهر بها من سماء الملك إلى ثرى الشعب ، وتتلفت حواليها فتجد الدولة غير الدولة ، والصولة غير الصولة ، لكنها تظل كما كانت عزيزة أبية

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٦٤ ـ ٣٦٨

تجْبِيَهُ الوالى الجديد الظافر بما لا يتوقع . من ذلك أن خَرْقاء [١] بنت النعمان ، أو هند [٢] بنت النعمان ، أو الُحرَقة [٣] بنت النعمان لقيت سعد بن أبى وقاص أمير القادسية بعد هزيمة الفرس وقتل رستم ، فى حشد من قومها وجواريها ، فقال سعد : أيتكن خرقاء ؟ قالت : هأنذه . قال : أنت خرقاء ؟ قالت : نعم ، فما تكرارك فى سؤالك ؟ ثم قالت : إن الدنيا دار زوال ، ولا تدوم على حال ، كنا ملوك هذا المِصْر ، يُجْبَى لنا خراجه ، ويطيعنا أهله ، فلما أدبر الأمر وانقضى ، صاح بنا صائح الدهر ، فصدع عصانا ، وشتت شملنا ، وكذلك الدهر يا سعد ليس يأتى قوماً بمسرة إلا ويعقبهم حسرة :

فبينا نَسُوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا   إذا نحن فيهم سوقة ليس نُعْرَفُ
فأفّ لدنيا لا يدوم نعيمها   تقلّبُ تارات بنا وتَصَرَّفُ

فأكرمها سعد وأحسن جائزتها [٤] .

وفى رواية أخرى أن الذى لقيها خالد بن الوليد بعد فتح الحيرة ، فقال لها : أسلمى حتى أزوجك رجلا شريفاً مسلماً . فقالت : أما الدين فلا رغبة لى فيه غير دين آبائى (النصرانية) ، وأما التزويج فلو كانت فىَّ بقية لما رغبت فيه ، فكيف وأنا عجوز هرمة أترقب المنية بين اليوم وغد ؟ فقال : هذا فرض علينا أوصانا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قالت : مالى حاجة غير هذا ، فإنى ساكنة فى هذا الدير الذى بنيته ، الملاصق لهذه الأعظم البالية من أهلى ، حتى ألحق بهم . فأمر لها بمعونة وكسوة . فقالت : أنا فى غنًى عنه ، ما طلعت الشمس بين الخورنق والدير إلا على ما هو تحت حكمنا ، فما أمسى المساء

---

(١) مروج الذهب ١/٢٠٥ .
(٢) معجم البلدان ٤/١٨٣ والكامل ١/٢٧٧ وتهذيب الكامل ٢/١١٩ والأغانى ١٤/١٣٦ .
(٣) نزهة الأبصار والأسماع ٣٥ .
(٤) مروج الذهب ١/٢٠٥ ونزهة الأبصار ٣٥ وخزانة الأدب ٣/١٨٢ .

حتى صرنا خولاً لغيرنا . وأنشدت البيتين السابقين[١] .

وروى أن المغيرة بن شعبة خطبها وهو وال على الكوفة ، وكانت مترهبة فى ديرها ، وكانت قد عميت ، فقالت : لو كنت جئتنى لجمال أو لمال لأجبتك ، ولكنك أردت أن تتشرف بى فى محافل العرب ، فتقول : تزوجت بنت النعمان ابن المنذر ، وإلا فأى خير فى اجتماع أعور وعمياء[٢] ؟ .

وإذا كانت عزة النفس قد تجلت فى ابنة الملك فإنها قد تجلت فى كثيرات من غير بنات الملوك ، من ذلك أن تقلى المرأة زوجها الذى فجعها بضرة ، كما فعلت زوجة زهير بن أبى سلمى[٣] ، وأن تنفر من السبى كما سبق فى السباء ، وأن تثور لعدوان زوجها على كرامة قومها كما فعلت أخت كليب مع زوجها لبيد بن عنبسة[٤] .

ومن هؤلاء بنت السُلاَمِيِّ ، فإن أباها كان قد أخذ الشنفرى من بنى شَبَابة بعد أسره وكفله حتى صار كابنه ، فقال الشنفرى لبنت السلامى يوماً : يا أخية اغسلى رأسى ، فأنكرت عليه أن يكون أخاها ولطمته[٥] .

ومنهن سلمى الكنانية ، فقد سباها عروة بن الورد ، فأعتقها وتزوجها ، وعاشت معه بضع عشرة سنة ولدت له فيهن أولاداً ، ولكنها كانت ضيقة الصدر بهذه الحياة ، لأنها أَنِفتْ أن تقول النساء إنها سبية ، وأنفت أن يتزوجها عروة قسْرًا ، فاحتالت عليه ، حتى عادت إلى قومها ، واضطر إلى تطليقها ، وتحسر فى شعر[٦] .

---

(١) معجم البلدان ٤/١٨٣ .
(٢) الأغانى ١٤/١٣٦ والكامل ١/٢٧٧ وتهذيب الكامل ٢/١١٩
(٣) ديوان زهير بشرح ثعلب ٣٤٢ والأغانى ٩/١٥٠
(٤) كتاب بكر وتغلب ١٥ وأخبار المراقسة ١٩
(٥) الأغانى ٢١/٨٧
(٦) ديوان عروه ١١ والأغانى ٢/٧٦ والشعر والشعراء ٢٦٠

وكذلك فعلت امرأة تولت ، فلما فارقته حزن ونفث حزنه فى شعر[(١)] .

وقد ذكرت فى السبايا أن فاطمة بنت الخرشب رمت نفسها من فوق جمل قيس من زهير فراراً بها من أن يسبيها ، فيلحق بها وبأبنائها عار السباء[(٢)].

على أن عزة النفس تبدو فى صنيع بُهَيْسة بنت أوس الطائى ، فإنه لما تزوجها الحارث بن عوف ، أمر أبوها أمها أن تهيئها وتصلح من شأنها ، وأمر ببيت فضرب لها ،وأنزلها وزَوْجَها فيه ، فلما مد الحارث يده إليها قالت له : مه،أعند أبى وإخوتى ؟ هذا والله ما لا يكون . فارتحل بها ، ثم أراد أن يمسها فى الطريق فرفضت قائلة : أكما يُفْعَل بالأمة الجليبة أو السبية الأخيذة ؟ لا والله حتى تنحر الجُزُر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل لمثلى[(٣)] .

عفتها

١ — قامت الأخلاق العربية على دعائم ، منها الاعتزاز بالشرف ، والحرص على حسن الأحدوثة ، وسمعة الأسرة،وصيانة المرأة ، فكان لا بد للرجال والنساء من العفة ، ومن التعفف ؛ لأن العدوان على العرض قد يجر ويلا ، ويشعل حربا ، ولأن المجانة ليست من سمات السادة .

لذلك أكثر الرجال من الفخر بعفتهم وبصيانتهم حرمة جيرانهم[(٤)] ، وكثيراً ما مدحوا ورثوا بالعفة[(٥)] .

---

(١) الأغانى ١٩/١٥٩ (٢) الأغانى ١٦/٢١

(٣)الأغانى ٩/١٤٣

(٤) الأغانى ٣/٩٧ وديوان حاتم ٣ و ١٧ وديوان أوس بن حجر ٢٤ وديوان قيس ابن الخطيم ٥ و ١١ و ٢٩ وديوان عنترة ١٨٥ ومجالس ثعلب ١/٢٥٣ وشعراء النصرانية ١٢٢ و ٦٤٨ .

(٥) ديوان الخنساء ٦٨ و ٧٠ و ٨٢ وبلاغات النساء ١٦٨ . وديوان الخرنق ٩ مخطوط ومراثى شواعر العرب ١٤٧

والعرب غُيُر على النساء إلى حد المغالاة ، وهم يبيحون للرجل أن يذكر أى شىء إلا النساء ، وفى أمثالهم : كل شىء مَهَهٌ ما خلا النساء وذكرهن [١] .

لذلك لما نزل الحطيئة ببنى مُقلَّد بن يربوع وسألوه عما يرضى وعما لايرضى ، جاءفىقوله: «ولا تجعلوا فناء بيتى مجاساً لكم ، ولا تُسْمعوا بناتى غناءشبابكم» [٢] .

ولذلك افتخروا بحماية زوجاتهم من العبّار ، كقول أحدهم فى أمته أو فى امرأته:

حَمَيْتُ عن العُهّار أطهار أمه و بعض الرجال المدَّعَيْنَ غُثاء [٣]

وهدد الأصبغ بن محصن مالكَ بن الصمصامة بالقتل إن عرض لأختـه ، وبالأسر وجزِّ الناصية إن تغزل فيها ، فقال مالك :

فما الحلْقُ بعد الأسر شرٌّ بقيةً من الصد والهجران وهى قريب

. . . . [٤]

وهمَّ عبد الله بن المَضْرَحىّ أن يقتل ابن عمه لما رآه واقفاً يحدث أخته، وكان قد أنذره من قبل [٥] .

٢ — فى هذا المجتمع الذى يقدر العفة ، فيعف فيه النـاس أو يتعففون ، ولايجاهرون بالفحشاء إلا قلة من الشعراء جاهروا بفحشهم كما سبق،فى هذا المجتمع كانت عفة المرأة أعظم حلاها ، وأفخر خلالها ، وكانت المرأة العفيفة الممنعة هى المثل الأعلى فى نظر الرجال ، لأنهم كانوا يدينون بما قاله على بن أبى طالب من بعد : « خيارُ خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل . فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال

---

(١) أمثال الميدانى ٢/٧٠ وجمهرة الأمثال ٢/١٣٠ مهه : يسير محتمل
(٢) الأغانى ٢/١٧٩
(٣) شرح التبريزى للحماسة ١/١٤٣ غثاء : ساقطون لاقيمة لهم
(٤) الأغانى ١٩/٨٣ (٥) الأغانى ٢٠/١٥٩

بعلها ، وإذا كانت جبانة فَرِقت من كل شيء يعرض لها »[١] .

ومن قديم قرر أرسطو أن مزايا المرأة الجسمية هى الفراهة والجمال ، ومزاياها النفسية هى العفة والعمل فى غير ابتذال ، وأن الأمم التى لاتعنى بخلق المرأة تفقد نصف السعادة التى فقدها اللاسيديميون . Les. L'acédemoniens [٢] .

وقد صرح سُلَيْكُ بن السُلَكة بأن قلبه يعاف المرأة التى تجود بوصلها ، ويعلق بالممنعة التى لاتأتى ريبة :

يَعَافُ وصالَ ذات البذْل قلبى   وأتَّبِعُ الْمُمَنَّعــــة النَّوَارا[٣]

٣ — وللعفة مظاهر شتى ، فقد تكون فى أن تخالط المرأة الرجال وتحدثهم، على أن تتصون فلا يسمعون منها ولا تسمع منهم غير العف من القول ، يقول فى ذلك سويد بن أبى كاهل :

تُسْمِعُ الْحُدّاثَ قــولا حسنا   لو أرادوا غــيره لم يُسْتَمَع[٤]

ويقول كعب بن الرُّوَاع :

ويخالها المرحُ السفيهُ تحبــه   ونوالُها غيرَ الحديث بعيد[٥]

وقد تضرب عفتها وهيبتها حجاباً بينها وبين الناس ، فلا يجرؤ أحد أن يكلمها ، وإذا غاب زوجها حفظت غيبته،وأرضت أوبته ، قال علقمة بن عبدة :

مُنَعَّمَةٌ ما يستطاع كِلامهـــا   على بابها من أن تزار رقيب

إذا غاب عنها البعل لم تُفْشِ سره   وتُرْضِي إياب البعل حين يئوب[٦]

لذلك احترق الشعراء الغزلون بوهج الحرمان ، وطالما عبروا عن حرمانهم بشعر حزين ناطق بالأنين .

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤/٣٤٦ .
(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ١٠١ لإبراهيم سلامة .
(٣) الأغانى ٤/٣٦٤   (٤) المفضليات ١/١٩٠ .
(٥) المؤتلف والمختلف للآمدى ١٢٧   (٦) المفضليات ٢/١٩١ وديوان علقمة ٣ .

ولقد يفخر الزوج بعفة زوجته ، كقول معن بن أوس :

لعمرك ماعِرْسى بدارِ مَضيعَةٍ   وما بعلها إن غاب عنها بخائف[1]

ولقد تفتخر هى بعفتها ، فقد قالت الخنساء لبنيها : « والله الذى لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولاهجَّنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم »[2] .

وقد شاد أخوها صخر بعفتها حين تسخطت زوجته ، لأنه يقاسم أخته ماله ، و يعطيها خير النصفين :

والله لا أمنحها شرارها   وهى حَصَانٌ قد كفتنى عارها[3]

وهم يعجبون بالمرأة الطيبة السمحة التى لاتتناولها الألسن ، يقول الشنفرى :

فياجارتى وأنت غير مُليمةٍ   إذا ذُكِرَتْ ولا بذات تَقَلَّتِ

أميمةُ لا يُخْزِى نَثاها حليلَها   إذا ذُكِر النسوان عَفَّتْ وجلَّت

إذا هو أمْسَى آب قُرَّةَ عينه   مآب السعيد لم يَسَلْ أين ظلت

تَحُلُّ ـ بمنجاةٍ من اللوم ـ بَيْتَهَا   إذا ما بيوتٌ بالملامة حُلَّت[4]

والحوادث الدالة على عفتها كثيرة ، منها أن سهل بن مالك نزل ضيفا على أخت حارثة بن لَأْم ـ لأنه قصده فلم يجده ـ فأكرمته ، ورآها جميلة ، فوقع فى نفسه منها شىء ، فجلس بفناء الخباء يوماً وجعل ينشد :

يا أخت خير البدر والحضاره   كيف ترين فى فتى فَزاره ؟

أصبح يَهْوَى حُرَّةً مِعْطاره   إياكِ أعنى واسمعى يا جاره

---

(١) ديوان معن ٣٥ .

(٢) طهارة العرب ١٥ .

(٣) الإصابة ٨/٦٧ وتهذيب الكامل ٢/١٩٢ والمحاسن والأضداد ١٤٣ .

(٤) الأغانى ٢١/٩١ والمفضليات ١/٦ ١ تحل بيتها : تنزله .

فلما سمعت قوله عرفت أنه يعنيها ، فقالت : ما يقول هذا ذو عقل أريب ، ولا رأى مصيب ، ولا أنف نجيب ، فأقم ما أقمت مكرماً ، ثم ارتحل متى شئت مسلماً[1] .

بل لقد بلغت العفة بها أن تبغض من يسيء الظن بها وإن كان زوجها ، فقد شك الفاكه بن المغيرة فى زوجته هند بنت عتبة — وكانت بريئة — وقضى الكاهن ببراءتها ، فأرادها الفاكه على أن تعود إليه فرفضته ، وتزوجها أبو سفيان[2] .

وهى تأنف من الزنا وتجهر بذلك أمام الرسول ، بل تجد فى المباشرة المشروعة شيئاً ، فكيف بالمحرمة ؟ ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما تلا على النساء اللاتى بايعنه : « ولا تزنين » قالت هند : وهل تزنى الحرة ؟[3] . وفى رواية أنها قالت : ما أقبحه حلالا فكيف به حراما ؟[4] .

٤ — ولست أريد بهذا القول أن أزعم للمرأة العربية طهارة الملائكة ، ونقاوة القديسات ، لأن المرأة كالرجل بشر يعتريه الشر ، وتسيطر عليه الغريزة ، فلا بد أن تجافى بعض النساء العفة ، فيعلم خبر بعضهن ، ويخفى خبر الأخريات ، ولكن المكشوفات والمستورات جميعاً قلة ضئيلة فى المجتمع العربى القائم على الغيرة وحماية العرض والضن بالمرأة عن سوء الظن .

من هؤلاء فاقرة زوجة مُرَّة الأسدى ، فقد غاب عنها أعواما ، فهويت عبداً لها كان يرعى ماشيتها ، وترددت طويلا ، ثم لانت له . لكنها ندمت فيما يزعمون فقالت : « خيرٌ قليل وفضحتُ نفسى » . وأقبل زوجها فعلم ، فشهقت شهقة أماتتها . فقال مرة :

لحا الله ربُّ الناس فاقرَ مَيْتَةً ... وأهْوِنْ بها مفقودةً حين تُفْقَدُ

---

(١) مجمع الأمثال للميدانى ١/٣/٤ (٢) المستطرف ٢/٧٣ وشرح نهج البلاغة ١/١١٢
(٣) الإصابة ٨/٢٠٥ والطبقات الكبير ٨/٤ (٤) ضهارة العرب ١٢ .

لعمرك ما تقتادنى منك لوعة ولا أنا من وجدٍ عليك مُسَهَّدُ

ثم قتل العبد[١] .

ومنهن رَقاش الطائية ، كانت زعيمة فى قومها تغزو بهم ، وكانت كاهنة لها حزم ورأى ، زعموا أنها حملت من خادمها — وكان أسيراً جميلا من إياد — فدعاها قومها للغزو فأمهلتهم حتى تضع ، فلما وضعت قال شاعرهم :

نُبِّئتُ أن رقاش بعد شِماسها حَبِلَتْ وقد ولدتْ غلاماً أكحلا

فالله يُحْظيهاَ ويرفع بُضْعَهَا والله يُلقحها كِشافا مُقْبَلا

كانت رقاش تقود جيشاً جحفلا فصَبَتْ وأخْزِ بمن صباً أن يحملا[٢]

٤ — قصة الفطيون :

أما اسم هذا الرجل فمختلف فيه ، أهو الفِطْيَوْن[٣] أم الفَيْطُون[٤] ، أم القَيْطُون[٥] ، أم القَيْطُور[٦] .

والراجح أن أى كلمة من هذه ليست علماً عليه ، لأن الكلمة إن كان يهوديا تدل على من رأس اليهود وولى أمرهم ، كما أن النجاشى تدل على من ملك الحبشة[٧] .

وأما القصة فملخصها أنه كان ملكا على يهود المدينة ، وكان يفتضُّ العرائس قبل أزواجهن ، سواء أكن عبريات أم عربيات ، فلما تقوى الأوس والخزرج وتزعمهم مالك بن العجلان ، وتزوجت أخته فَضْلاء أنفت أن يفعل بها ما يفعل بغيرها ، واستثارت أخاها ، فاشتمل على سيفه وتنكر مع النساء ، ودخل على

---

(١) مجمع الأمثال الميدانى ١/٢٢ (٢) مجمع الأمثال ١/٢٦٣ .

(٣) الروض الأنف ٢/٢٤ ومعجم البلدان ٧/٤٢٨ والمحاسن والأضداد ٢١٦ .

(٤) معجم البلدان ٧/٢٩٤ ومعجم ما استعجم ٢/٣٧١ وخلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ٨٤ .

(٥) خلاصة الوفا ٨٣ والأخبار الطوال للدينورى ٤٣ والبدء والتاريخ المقدسى .

(٦) خلاصة الوفا ٧٩ .

(٧) الروض الأنف ٢/٢٤ .

الفطيون فقتله[١] .

وفى رواية أخرى أن القيطون ابن عم أسعد بن عمرو بن ربيعة بن مالك ابن صُبْح ، وكان ملكا على تهامة والحجاز من قِبل ابن عمه أسعد ، ثم نزل يثرب واعتدى وتجبر ، حتى أمر ألا تهدى امرأة إلى زوجها قبل أن يبدءوه بها ، إلى أن زوجت أخت مالك بن العجلان فقتله مالك ، وعلم أسعد بن عمرو بذلك ، فسار إليهم وانتقم منهم[٢] .

وقد رووا قصة أقدم من هذه وشبيهة بها ، نسبوها إلى عِمْليق ـ أو عُمْلوق ـ ملك طسم وجديس ، وقالوا إنه بلغ من طغيانه ألا تزف امرأة من جديس قبل أن يبدأ بها ، ثم قتله رجل من جديس ، بعد أن هاجته أخته المعتدى عليها ، واستنجدت جديس بملك اليمن أو ملك نجران ـــ ذو جيشان أو ذو حسان أو حسان ـ فانتقم من جديس[٣] .

وهذه القصة وتلك تغايران ما كان العرب يأخذون أنفسهم به من الأنفة والغيرة على النساء وشراء العرض بالمهج والأرواح . فليس بمعقول أن يصبروا على عهارة الملك وفجوره ببناتهم حينا من الدهر ، حتى يقيض الله لهم رجلا منهم يتنكر ليغتال الملك العاهر .

وإن كان الفطيون يهوديا فليس ميسوراً له أن يستبيح هذا العمل البشع المنافى لدينه ، دون أن يجد حَرَدًا ومقاومة عنيفة من شعبه ورجال دينه ، على أن اليهود

---

(١) خلاصة الوفا ٧٩ ـ ٨٠ و ٨٢ ـ ٨٤ ومعجم البلدان ٧/٤٢٨ والروض الأنف ٢/٢٤ والبدء والتاريخ المقدسى .

(٢) الأخبار الطوال للدينورى ٤٣ .

(٣) مروج الذهب ١/٢٤٣ والأخبار الطوال ١٧ والمعارف ٢١١ وأخبار النساء ١٦ والأغانى ١٠/٤٥ـ٤٧ ومعجم البلدان ٨/٥١٦ وخزانة الأدب ٢/٨٩ والمحاسن والأضداد ٢١٤ وتاريخ حضرموت السياسى ٣٦ ومنتخبات فى أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان الحميرى ١٧ .

بالمدينة لم يكن عليهم ملك فى أى عهد من عهودهم .

وبين القصتين تشابه أو تماثل تام ، فكل من الرجلين طاغية ، وكل منهما يفترع العرائس قبل أزواجهن ، والناس يسكتون على هذا الجبروت ردحا من الزمان ، ثم تستثير أخت أخاها فى القصتين ، فيقتل الملك الظالم ، و بعد مقتله يستنجد الأقربون إليه بملك آخر . وهذا التماثل التام يحمل على استبعاد القصتين كلتيهما ، بهذا التفصيل .

على أن أوروبا كانت تخضع لمثل هذا النظام فى عهد الإقطاع ، فكان للسيد فى أوائل هذا العهد حق الليلة الأولى ، وذلك أنه يجوز له أن يفض بكارة العروس قبل أن يباشرها زوجها ، وربما كان السيد يمثل فى ذلك حقوق القبيلة القديمة [(١)] .

وذكر المستشرق جورج سيل أن مثل هذا كان شائعاً فى بعض مقاطعات انجلترا وأسكتلندا فى القرنين العاشر والحادى عشر بعد الميلاد [(٢)] . وكان الليبيون يقدمون العذارى وهن على أهبة الزفاف إلى الملك ، فمن أعجبته افتضها [(٣)] .

حياؤها

حياء المرأة وثيق الصلة بعفتها وتصونها ، والحياء يتناول مالا تتناول العفة ، فهو أعم منها ، فقد تكون المرأة عفيفة ، لكنها تبدى بعض محاسنها للرجال ، وتبتسم لهم ، وتخضع فى القول ، ولكن المرأة الحيية لا تفعل ذلك

وقد اتهم شو بنهور المرأة بأنها أقل حياء من الرجل ، لأنها لا تعرف الحياء بمعزل من غريزة الاحتجاز الجنسى ، ولأن الرجال يستحون حيث لا تستحى النساء ؛ فيستترون فى الحمامات العامة ، ولكن المرأة لا تستتر على المرأة إلا لعيب

---

(١) قصة الحضارة . ول ديورانت ١ / ٦٨

(٢) عصر ما قبل الإسلام ٤٧ (٣) دائرة المعارف للبستانى ٩ / ٣٣٧

جسدي تواريه[1]. لكن ذلك موضوع نظر، لأن المرأة تستحي حيث لا احتجاز، ولأن بعض النساء لا يستحي من بعض، كما أن بعض الرجال لا يستحي بعضهم من بعض، ولكن النساء يستحين من الرجال. وحياء المرأة من مكملاتها الخلقية في نظر الرجل، لأنه دليل على تصونها وعفتها وتمنعها وأنوثتها، وقد أعجب به العرب، لأن أخلاقهم قائمة على الغيرة والعفة والإشادة بالمرأة المستكملة لصفات الأنوثة. قال أوس بن حجر إن ضحكهن تبسّم :

نواعمُ ما يضحكن إلا تبسما إلى اللهو قد مالت بهن السوالف[2]

وقال حاتم :

يضيء لها البيتَ الظليلَ خَصَاصُهُ إذا هي يوماً حاولتْ أن تَبَسَّما[3]

وأعجب الشنفرى بها وهي تمشي مقنعة لا تتلفت، وعيناها إلى الأرض كأنها تبحث عن شيء ضائع، وإذا كلمت رجلا أوجزت :

لقد أعجبتني لا سقوطا قناعُها إذا ما مشت ولا بذات تَلَفُّتِ

كأن لها في الأرض نِسْيًا تقصه على أَمِّها وإن تكلمك تَبْلَتِ[4]

وقال عنترة إنها غضيضة الطرف[5]، ومدحها الأعشى بأنها لا تتجسس على أخبار جاراتها، ولا تختتل أسرارهن[6].

ولقد شهد أعداء القوم بعفة نسائهم، فقد سبى زهير بن جَنَاب نساء من غطفان، ثم رد إليهم السبايا، وقال من قصيدة :

فلم تصبر لنا غطفان لما تلاقينا وأُحْرِزَتِ النساء

فلولا الفضلُ منا ما رجعتم إلى عذراء شيمتُها الحياء[7]

---

(١) هذه الشجرة ١٢١ العقاد (٢) ديوان أوس بن حجر ١٤

(٣) الأغاني ١٥ / ١٥٩

(٤) الأغاني ٢١ / ٩١ والمفضليات ١ / ١٠٧ ومحاضرات الأدباء ٢ / ١٣٦ النسي : الشيء المفقود. تقصه : تبحث عنه. أمها : قصدها الذي تريده. تبلت : تقطع كلامها لا تطيله

(٥) ديوان عنترة ١٤٣ (٦) شعراء النصرانية ٣٦٧

(٧) الكامل لابن الأثير ١ / ١٧٩

كرمها

اشتهر العربى بكرمه و بشجاعته ، وكان الكرم والشجاعة معاً الفضيلتين الكبريين فى الحياة البدوية ، وكانت المرأة كريمة وإن لم تبلغ الرجل فى كرمه . فمثلا كانت غنيّة بنت عفيف أم حاتم الطائى من أسخى النساء،وأقراهن للضيف، وكانت لا تمسك شيئا تملكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ومنعوها مالها ، فمكثت دهراً لاتنال يدها شيئاً مما تملكه ، حتى إذا ظن إخوتها أنها قد وجدت ألم الحاجة وارعوت ، أعطوها صِرْمة من إبلها ، فجاءتها امرأة من هوازن كانت تأتيها كل سنة تسألها ، فقالت لها : دونك هذه الصِّرمة فخذيها ، فقد والله مسنى من ألم الجوع ما آليت معه ألا أمنع الدهر سائلا شيئاً ، ثم أنشأت تقول :

لعمرى لقد عَضَّنى الجوع عضة ... فآليت ألا أمنع الدهرَ جائعا

فقولا لهذا اللائمى اليوم أعفنى ... فإن أنت لم تفعل فعضَّ الأصابعا

فماذا عسيتم أن تقولوا لأختكم ... سوى عذلكم أوعذل من كان صانعا

وماذا ترون اليوم إلا طبيعة ... فكيف بتركى يابن أم الطبائعا[1]؟

وكانت سفّانة بنت ابنها حاتم كجدتها وكأبيها فى الجود ، وكان أبوها يعطيها الصرمة من الإبل فتهبها الناس ، فقال لها أبوها ، يابنية إن الغوِيّين إذا اجتمعا فى المال أتلفاه ، فإما أن أعطى وتمسكى ، و إما أن أمسك وتعطى ، فقالت : والله لا أمسك أبداً . فقال : وأنا والله ما أمسك أبداً . قالت : فلا نتجاور . فقاسمها ماله وتباينا[2] .

وكانت ثُبَيْتة من شاعرات العرب وكرمائهن ، وكان زوجها كريماً لم

---

(١) ذيل الأمالى ٢٣ (٢) ذيل الأمالى ٢٣

يوجد أكرم منه فى زمانه ، وقد أتاه أخو امرأته يوما فأعطاه بعيراً من إبله ، وقال لامرأته : هاتى حبلا ، فقالت : ما بقى عندى حبل ، فقال : علىّ الجمال وعليك الحبال ، فرمت إليه خمارها وقالت : اجعله حبلا لبعضها وأنشدت :

حلفت يمينا يابن قُحْفَانَ بالذى تَكَفَّل بالأرزاق فى السهل والجبل
تزَالُ حِبالٌ مُحْصَدَاتٌ أُعِدُّها لها ما مشى منها على خفه جمل
فأعط ولا تبخلْ لمن جاء طالباً فعندى لها خُطْمٌ وقد زالت العلل[1]

وقد نزل ببعضهن ضيفان فأكرمنهم ، مثل أخت حارثة بن لأم[2] ، وشذرة أم الزبرقان بن بدر ، فقد أكرمت الحطيئة وأولاده ، وقيل إن التى أكرمته هنيدة بنت صعصعة زوجة الزبرقان[3] .

لكن الأنباء عن كرمها قليلة ، لأنها أقصر باعا من الرجال فى هذا المجال ، ذلك بأن مالها أقل ، وهى فى أكثر الأحيان لا مال لها إلا مال الزوج أو الأب ، ثم إنها ليست مختلطة بالرجال اختلاطاً يبعثها على الكرم ويمهد أمامها الطريق إلى الشهرة به .

بخلها

١ ــ أسلفت القال فى أن المرأة كانت ضنينة بمال زوجها ، حريصة على مال ابنها وأخيها ، وأنها طالما لامتهم فى الكرم ، وطالما لامتهم فى الخمر والميسر وإيثار الخيل بالعناية ، لذلك يقول زهير فى مدح حِصْن بن حُذَيْفة بن بدر :

بكَرْتُ عليه غَدْوة فوجدته قعوداً لديه بالصَّريم عواذله
يُفَدِّينه طوْرا وطورا يلمنه وأعيا فما يدرين أين مخاتله

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٦٧ خطم : جمع خطام ما يوضع فى أنف الجمل
(٢) مجمع الأمثال ١/٤٣ (٣) الأغانى ٢/١٨٠

فأعرضْنَ منه عن كريم مُرَزَّأ   جَمُوع على الأمر الذى هو فاعله[1]

وقد عاتبت سلمى بنت الأسود بن يَعْفُر أباها على إضاعته ماله فيما ينوب قومه من ديات ، وما يمنحه فقراءهم و يعين به مستمنحيهم ، فقال لها :

وقالت لا أراك تُليقُ شيئاً   أتُهْلِك ما جمعتَ وتستفيد ؟[2]

٢ ـــ وقد تحدث الشعراء عن لوم الزوجات والأمهات والبنات والأخوات فى البذل ، وأكثروا من هذا الحديث كما سبق فى فصول الأم والزوجة والبنت والأخت . ولا شك أنهم صادقون فيما حدثوا ، و إلا فكيف يفترى إنسان على أمه و بنته وزوجته وأخته فيصمها بالبخل ، وهو يعلم أن فى هذا منقصة له ؟

وليس من الصواب أن يدَّعى الرجل أنها لامته على الكرم ، وأنه خالفها ، ليتخذ من ذلك ذريعة إلى تعظيم كرمه والفخار بنفسه ، لأن هذا التخيل نفسه منقصة له . اذاً كان الشعراء صادقين فى تصويرهم للوم النساء على الجود ، وربما كان هذا منهن حرصاً على مال الرجال ، وربما كان بخلا .

ومهما يكن من شىء فإن النساء كن أقل من الرجال كرما ، وكن أحرص على المال منهم ، ولعل أسباب ذلك أنهن أحفل بالثروة وتنميتها ، وأنهن لايخالطن الناس كما يخالط الرجال ، فلا يحفلن بأحاديث الكرم كما يحفلون ، ثم لأنهن أحسن تدبيراً للمال من الرجال ، وهن ربات البيوت يباشرن حاجاتها ، ويعددن طعامها ، ويفكرن فى غدها ، ثم إنهن أميل إلى الجانب العملى ، فلا يحفلن بثناء ينقص المال ويسبب الخصاصة ، بينما قد يغفل الرجل عن غده وهو فى نشوة الثناء وأريحية العطاء ، وأخيراً هن يؤثرن أنفسهن إلا على بنيهن ، والرجال كثيراً ما يؤثرون غيرهم على أنفسهم .

---

(١) شرح ديوان زهير لثعلب ١٤٠ وشعراء النصرانية ٥٧٩
(٢) الأغانى ١١/١٣٣

فليس بعجيب أن يكنَّ أحرص من الرجال على المال ، وأن يدبرن للأبناء طعامهم ، و يقتصدن فيما يقدمن لهم إلى حد الإقلال أحياناً ، يقول الشنفرى :

وأمِّ عيـال قد شهدتُ تقوتُهُمْ إذا أطعمتهم أو تحتْ وأقلَّت

تخاف علينا العَيْلَ إن هى أكثرتْ ونحنْ جيـاعٌ أىَّ آل تألَّت

وما إنْ بهـا ضنٌّ بما فى وعائها ولـكنهامن خيفة الجوع أبقت[1]

بين أخلاقها فى الإسلام وفى الجاهلية :

١ — ذاعت شجاعة كثيرات من المسلمات ، كأم الخير بنت الحَرِيْش البارقية ، فقد حرضت جند عليٍّ يوم مقتل عَمَّار بن ياسر على معاوية ، ولما آلت الخلافة إليه بعث إليها، وذكَّرها خطبتها الحماسية الثائرة ، وقال لها : والله لو قتلتك ما حَرِجْت فى ذلك . فقالت : والله ما يسوءنى يابن هند أن يجرى الله ذلك على يدىْ من يسعدنى الله بشقائه[2] .

ومثلها سَوْدة بنت عمارة ، حرضت المسلمين يوم صِفِّين على قتال معاوية بأبيات منها :

شمِّـرْ كفعل أبيك يابن عمارة واقصد لهنـــد وابنها بهوان

ثم وفدت على معاوية فى خلافته فذكرها ما قالت ، فقالت : إى والله ما مثلى من رغب عن الحق ، أو اعتذر بالـكذب . . . . . .[3] .

وكذلك فعلت الزرقاء بنت عدىّ الهمدانية فى يوم صفين ، وقال لها معاوية لمـا أوفدت عليه : قد أشار علىَّ بعض من عرفك بقتلك ، فقالت له : لؤم من

---

(١) المفضليات ١ / ١٠٨ أو تحت : أعطت قليلا العيل والعيلة : الفقر . أى آل تألت : أى سياسة ساست .

(٢) بلاغات النساء ٤١ والعقد الفريد ١ / ٢١٧

(٣) العقد الفريد ١/٢١١ وبلاغات النساء ٣٥ .

المشير ، ولو أطعته لشاركته[1] .

ومثلهن آمنة بنت الشريد ، ولها مع معاوية حوار طويل يدل على الجرأة والاعتزاز[2] .

٢ — ومن الأمثلة العالية في الاستمساك بالعقيدة والدفاع عن الرأى وفى الشجاعة العظمى أسماء بنت أبى بكر ، فقد دخل عليها ابنها عبد الله بن الزبير بعد ماخذله الناس، فشكا إليها ، واستشارها فقالت : « إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تقل إنى كنت على حق ، فلما وَهَنَ أصحابى ضعفت نيتى ، فليس هذا فعل الأحرار ، والله لضربة بالسيف فى عز أحب إلى من ضربة سوط فى ذل » . قال : إنماأخاف أن يمثلوا بى . قالت : يا بنى إن الشاة لا تَألَمُ السلخَ بعد الذبح[3] .

٣ — وذاع كرم كثيرات من المسلمات ، وإذا كان كرم الجاهلية يراد به أحياناً حسن الأحدوثة ، والتباهى ، وتجنب اللوم ، فإن كرم المسلمات كان ابتغاء وجه الله ، وكان عطفاً على المحتاجين . فقد حدَّث البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى النساء بعد صلاة العيد ، فكلمهن فى الصدقة ، فأخذن ينزعن الفَتَخَ والخواتيم والخُرْصَ والسِّخاب والقِرَطة والعقود والأطواق والخلاخيل و يلقينها فى ثوب بلال ، وكان قد بسط ثوبه ليضعن فيه صدقاتهن[4] .

وكذلك فعلت النساء لما نزلت الآية الكريمة : ﴿إن المُصَّدِّقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم﴾ .

---

(١) العقد الفريد ١ / ٢١٣ وبلاغات النساء ٣٧

(٢) أعلام النساء ١ / ٤ ـ ٦ .

(٣) بلاغات النساء ١٣٠ ـ ١٣١ وتاريخ الطبرى ٧ / ٢٠٣

(٤) فتح البارى ١٠ / ٢٧٨ الفتخ : جمع فتخة الخاتم الكبير فى اليد أو الرجل أو الحلقة من فضة كالخاتم لا فص له . الخرص : حلقة الذهب والفضة أو الحلقة الصغيرة من الحلى. السخاب : قلادة من مسك وقرنفل ومحلب بلا جواهر .

وقد ذكر ابن سعد أن السيدة عائشة كانت صائمة ، وقد بعث إليها ابن الزبير نحو مائة ألف ، فتصدقت بها . فلما دنا الإفطار طلبت من أم ذَرَّة أن تأتيها بإفطار ، فقالت أم ذرة : أما استطعتِ فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟ فقالت : لا تعنفيني ، لو كنت أذكرتني لفعلت[١] . ويذكر أنها تصدقت بسبعين ألفاً وإنها لترقع جانب درعها[٢] .

وقد اشتهرت بالكرم كثيرات مثل زينب بنت جحش ، وسُكَينة بنت الحسين ، وعاتكة بنت يزيد بن معاوية[٣] .

٤ — أما عفتهن فى الإسلام فليست فى حاجة إلى بيان ، لأن الإسلام حاط المرأة والأسرة بسياج حصين من العفة والحياء .

٥ — والذى أستخلصه من أخلاقها فى الجاهلية وفى الإسلام أن الإسلام قَوّى فى المرأة بعض الفضائل ، فرغبها فى الكرم على أنه صدقة وقربى إلى الله وواجب اجتماعى على الأغنياء للفقراء ، وزادها حرصا على العفة بحضه عليها ، وتشديده العقاب للزانى والزانية ، ونمى حياءها ، وأبقى على أخلاقها الأخرى من الشجاعة والاستمساك بالعقيدة ، وعزة النفس . ثم حلاها بنوع آخر من الفضائل كالصبر والقناعة والصفح ، وحرم فجور الإماء وكسب البغايا . فلم يكن فى أمهات فضائل المرأة المسلمة خلق جديد لا عهد لها به ، وحسبها فخراً أن الأخلاق العالية التى دعا إليها الإسلام كانت من حلاها . وليس طبيعيا أن تكون المرأة فى الجاهلية محرومة الأخلاق الكريمة، ثم نراها تتصف بها فى مطلع الإسلام ومستهله ، لأن الجديد من الأخلاق محتاج إلى أن يعمر طويلا حتى يصير خلقا عاما « ويجب لكى يكون للبيئات والتوالد أبلغ الأثر فى تكوين العرق — وهو نوع من الناس ذوى أخلاق مشتركة تنتقل إليهم بالوراثة المنتظمة —

---

(١) الطبقات ٨ / ٤٦ والإصابة ٨ / ١٤١ (٢) الطبقات ٨ / ٤٥
(٣) الإصابة ٨ / ٩٢ وبلاغات النساء ١٢٩ والطبقات الكبرى لابن سعد .

أن يتوالى التطور بفعل الوراثة المتتابعة المستمرة قرونا كثيرة، سائراً نحو غرض واحد[١] » .

فلم يكن مستطاعاً أن ينسلخ العرب نساء ورجالا من أخلاقهم الجاهلية انسلاخاً تاماً على أثر اعتناقهم للإسلام ، لأن ذلك الانسلاخ يقتضى زماناً طويلا لتتحول الأخلاق فى تؤدة « وعلى ما فى السجايا الخلقية من الثبات نراها تقدر كالصفات الجثمانية أن تتحول ببطء بتأثير مختلف العوامل ، ولاسيما بالبيئة المادية والمؤثرات الأدبية والتوالد »[٢]. وإن خروج الأفكار من عقول الجماعة صعب كدخولها[٣] . وقد جاء الإسلام فوجد فى العرب فضائل ورذائل ، أما الفضائل فشجعها ونماها ، وأما الرذائل فأبطلها وحرمها ومحاها .

فليس بصحيح « أن الجود والوفاء بالعهود والشجاعة والفَطَن وما جرى فى هذا السنن من فضائل الرجال لو مدح النساء به لكان نقصاعليهن وذما لهن[٤] »، لأن الجود والوفاء والشجاعة والاستمساك بالعقيدة والعفة فضائل يمدح بها الرجال، وقد مدحت بها النساء فى الجاهلية والإسلام .

---

(١) حضارة العرب لوبون ٧٨ . (٢) حضارة العرب : لوبون ٨١.

(٣) روح الاجتماع : جستاف لوبون ٧٦ و ٧٧ و ٩٩

(٤) زهر الآداب للحصرى ٢ / ٥٥

الفصل الثانى

المرأة سافرًا ومحجبة

شغلت قضية السفور والحجاب العالم الإسلامى والعربى ردحًا من القرن العشرين ، واحتكم أنصار السفور إلى التاريخ وإلى الدين ، واستند أنصار الحجاب إلى التاريخ وإلى الدين ، ثم قضى التطور بالغَلب لدعاة السفور ، فسفرت نساء فى مصر وفى غير مصر ، لكن الحجاب ما زال صفيقاً فى بعض البلاد العربية ، رقيقاً فى بعضها الآخر .

كذلك كان شأن السفور والحجاب فى العصر الجاهلى ، فنحن نجافى الحق إذا زعمنا أن النساء العربيات كن كلهن سوافر ، ونحن نجانب الصدق إذا حكمنا بأنهن كلهن محجبات ، لأن العربيات مارسن السفور ، ومارسن الحجاب .

السفور

١ — كان كثير من النساء سوافر مكشوفات الوجوه ، إذْ لم يكن بين رجال العرب وبعض النساء حجاب ، « ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفَلْتة ولا لحظة الخُلسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء فى الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبى صلى الله عليه وسلم خاصة . ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً فى الجاهلية ولا حراماً »[1].

(١) رسالة القيان من ثلاث رسائل للجاحظ ٥٦

وقد ذكر الأصمعى أن المرأة كانت تلق خمارها لحسنها ، وهى على عفة[١] .
وكانت نساء الأنصار لايختمرن ، حتى نزل قوله تعالى: ﴿ ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها . وليضربن بخمرهن على جيوبهن[٢] ﴾ .

وفى تفسير قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفوراً رحيما[٣] ﴾ . ما يثبت أن بعضهن كن سافرات ، لأن الغرض من الآية أن يأمر النبى النسوة الحرائر ألا يتشبهن بالإماء فى ملابسهن إذا هن خرجن من بيوتهن لحاجتهن ، فلا يكشفن شعورهن ووجوهن ، بل يجب عليهن أن يدنين من جلابيبهن ؛ لئلا يعرض لهن فاسق بأذى من قول ، إذا علم أنهن حرات[٤] .

٢ — وكان بعضهن قد أسرفن فى سفورهن وتبرجهن ، فنهاهن الله عن ذلك بقوله لنساء النبى : ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى[٥] ﴾ . ولم يتفق المفسرون على زمن الجاهلية الأولى ، فهى القديمة التى كانت فى زمن إبراهيم عليه السلام، أو هى التى بين آدم ونوح ، أو بين إدريس ونوح ، أو هى زمن داود وسليمان . والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد . وقيل الجاهلية الأولى جاهلية الكفر ، وقيل إن المراد بالجاهلية الأولى ما قبل الإسلام ، وليست لها أخرى ، وإنما أريد بالأولى الجاهلية القديمة[٦] . وقيل إن الجاهلية الأولى كانت قبل الإسلام ، وفى الإسلام نفسه أخلاق منها ، فقد قال النبى لأبى الدرداء ـ وقد قال لرجل ينازعه يا بن فلانة لأم كان يعير بها فى الجاهلية ـ يا أبا الدرداء إن فيك جاهلية . قال : أجاهلية كفر أم إسلام ؟

---

(١) شرح المفضليات لابن الأنبارى ١ / ١٢٠
(٢) سورة النور ٣١ (٣) سورة الأحزاب ٥٩ (٤) تفسير الطبرى ٢٢/٣٣ والنيسابورى ٢٢/٣٢ والرازى ٥/٢٤٩ والطبقات الكبير ٨/١٢٧
(٥) سورة الأحزاب ٣٣ (٦) تفسير النيسابورى ٢٢/١٠

قال : بل جاهلية كفر . وقال النبي : ثلاث من أهل الجاهلية لايدعهن الناس: الطعن بالأنساب ، والاستمطار بالكواكب ، والنياحة[١] .

والذى أرجحه أن المراد بالجاهلية الأولى ما قبل الإسلام ، لأن القرآن ينهاهم عن عمل شهدوه أو سمعوا به ، وليست كلمة (الأولى) مقابلة لكلمة (الأخرى) التى يتوقعها السامع ، بل هى وصف للجاهلية دال على أنها مضت وولى عهدها . وهذا التعبير شبيه بقول الشاعر : «على لاحبٍ لَايُهْتَدَى بمناره» فليس المراد أن فى الطريق مناراً لايهدى ، وإنما المراد أنه طريق لا منار فيه يهتدى به السائر، وكقول الشنفرى فى لاميته (ولست بمحيار الظلام[٢]) .

فظاهر لفظه أنه لاتبلغ منه الحيرة ما تبلغه ممن اشتدت حيرته فى الظلام ، ولكن هذا ليس مراده ، وإنما مراده أنه لاتقع له حيرة أصلا .

ومهما يكن من أمر الجاهلية الأولى فقد بالغوا فى تشويهها مبالغة بعيدة من الصواب ، فزعموا أن المرأة كانت فى هذه الجاهلية تلبس درعا من اللؤلؤ ، فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال[٣] .

والصحيح أن المراد بالتبرج فى الآية الكريمة التبختر والتكسر فى المشية ، والخضوع بالقول ، وإظهار الزينة والمحاسن للرجال[٤] ، فقد روى عن قتادة أنهن كانت لهن مشية وتكسر، وروى عن ابن نُجَيْح أنهن كن يتبخترن و يظهرن و يبرزن محاسنهن[٥] » .

وقد فهمت بعض المسلمات أن الأمر هنا خاص بنساء النبى ، فظللن على سفورهن ، مثل سكينة بنت الحسين[٦] وروى عن عطاء أنه كان يكره أن

---

(١) تفسير الطبرى ٢٢/٤
(٢) أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى ٢٣ (٣) النيسابورى ٢٢/١٠
(٤) لسان العرب مادة برج (٥) الطبرى ٢٢/٤ (٦) الأغانى ١٤/١٥٩ و ٥١/١٠

تطوف المرأة بالبيت وهى منتقبة ، حتى أخبرته صفية بنت شَيْبَة أنها رأت عائشة تطوف منتقبة ، فرجع عن رأيه(١) ورويت عن عائشة أخبار عدة تثبت أن بعض النساء كن يسفرن ، من ذلك قولها إن نساء الأنصار لما نزلت سورة النور عمدن إلى حُجُور فشققنهن فاتخذن خمرا(٢). وقولها يرحم الله النساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن أكثف مروطهن فاختمرن بها(٣) . وقد دخلت عليها حفصة بنت عبد الرحمن وعليها خمار رقيق يشف عن جيبها ، فشقته عائشة وأبدلتها به خماراً كثيفاً(٤) .

وروى عن أم سلمة أنه لما نزلت : « يدنين عليهن من جلابيبهن » خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من الأكسية(٥) .

٣ — وكانت هنالك حالات لا مندوحة فيها عن السفور حتى من المحجَّبات، فكن يسفرن فى المناحة ، لأن الفجيعة والحزن والنواح تنحرف بالمرأة عما اعتادت من تستر وتقنع ، يدل على ذلك قول مهلهل فى رثاء كليب إنهم كانوا يغارون على نسائهم أن يبرزن من خدورهن، فلما قتل كليب خرجن حواسر عواطل من حليهن :

كنا نغار على العَواتق أن تُرَى ... بالأمس خارجةً عن الأوطان

فخرجن حين ثوى كليبٌ حسَّرا ... مُسْتَيْقنات بَعْدَه بهوان

فترى الكواعبَ كالظباء عواطلا ... إذْ حان مصرعُهُ من الأكفان

يَخْمشن من أدَم الوجوه حواسرا ... من بعده ويَعدْنَ بالأزمان(٦)

وقوله :

وإذا تشاء رأيتَ وجهاً واضحا ... وذراع باكية عليها بُرْنُسُ

---

(١) أخبار مكة للأزرق ٢/١٠ (٢) سنن أبي داود ٢/١١٨ حجور : جمع حجر وهو ما بين اليدين من الثوب (٣) المرجع السابق ٢/١١٩ وتفسير الطبرى ١٨/٩٤
(٤) الطبقات الكبير ٨/٤٤ (٥) سنن أبى داود ٢/١١٨
(٦) الكامل لابن الأثير ١/١٨٩ وشعراء النصرانية ١٦٢ عواتق : جمع عاتقة وهى الجارية أول ما أدركت أو التى لم تتزوج

تبكى عليك ولستُ لأمّ حـرة ... تأسى عليك بعبرة وتَنَفّس(١)

وقول الربيع بن زياد العبسى :

من كان محزونا بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجـه نهار
يجـد النساء حواسرا يندبنـه ... يلطمن أوجههن بالأسحار
قد كن يَخْبَأْنَ الوجوه تسترًا ... فاليـوم حين برزن للنظّار
يضربن حُرّ وجوههن على فتًى ... عفّ الشمائل طيب الأخبار(٢)

وكن يسفرن إذا أيقنّ هزيمة قومهن وخشين السبى ، فيتشبهن بالإماء حتى يُزْهَد فيهن ، ويتأهبن للفرار سافرات ، يقول قيس بن الخطيم :

صَبَحنا كُمُ شَهْبَاء يَبْرُقُ بَيْضُها ... تُبينُ خلاخيلَ النساء الهوارب(٣)

وقوله الأفوه الأودى :

يوم تُبْدِى البيض عن لَمْـع الْبُرَى ... ولأهل الدهر فيها صَعْصَعَه(٤)

وقول طرفة :

سائلوا عنـا الذى يعرفنـا ... بقُـوانا يوم تَحْلاق اللِّمم
يوم تبدى البيضُ عن أَسْؤُقِها ... وتَلُف الخيلُ أعراجَ النَّعَم(٥)

ويقول عوف بن عطية التميمى :

ولنعم فتيـانُ الصبـاح لقيتُم ... وإذا النساء حواسِرٌ كالعُنْقُر
من كل واضعة الخمـار وأختها ... تسعَى ومِنْطَقُها مكانَ المِئْزر(٦)

---

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ٢/١٩٧ وأخبار المراقسة ٥٦
(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٣/٢٦ والكامل لابن الأثير ١/٢٠٧
(٣) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط وجمهرة أشعار العرب ٢٥٢
(٤) ديوان الأفوه الأودى ١٧ مخطوط
(٥) ديوان طرفة ١٠٤ وشعراء النصرانية ٣١٤ والأغانى ٥/٤٤ الأعراج : جمع عرج وهو القطيع من الإبل.
(٦) المفضليات ٢/١٢٧ العنقر : أصول القصب والبقل والبردى مادام أبيض . منطقها مكان المئزر ، سقط إزارها من فزعها فظهر منطقها.

ويقول مهلهل :

على أنْ ليس يُوفِي من كليب ... إذا برزَت مخبَّأة الخُـــدور (١)

ويقول سَبْرة بن عمرو الفقعسى فى هجاء بنى نهشل إن نسوتهم تشبهن بالإماء مخافة السباء فبرزن مكشوفات :

ونسوتكم فى الرَّوع بادٍ وجوهها ... يُخَلْنَ إماء والإماء حرائر (٢)

ويقول الأعرج المَعْنِيّ فى رده على امرأته التى عذلته لعنايته بحصانه :

تلوم على أن أعطىَ الورد لَقْحَةً ... وما تستوى والوردَ ساعة تَفْزع

إذا هى قامت حاسراً مُشْمَعِلَّةً ... نَخيبَ الفؤاد رأسَها ما تُقَنَّع (٣)

وقد يسفرن إدلالا بجمالهن أو مكانتهن ، أو خضوعاً لعرف قبيلتهن ، يقول المسيَّب بن عاس :

أرحَلْتَ من سَلْمَى بغير متـــاع ... قبل العُطاس ورُعْتَهـا بوادع ؟

إذ تستبيك بأصْـلَتِيٍّ ناعم ... قامت لتفتنه بغير قنـــاع (٤)

ويقول الشنفرى :

عُفَاهِيَةٌ لا تَقْصُر الستر دونهـا ... ولا تُرْتَجَى للبيت إن لم تُبَيِّت (٥)

وقد تقدم فى الفصول السابقة أن المرأة كانت تغشى مجامع الرجال، وتخطب، وتنشد الشعر ، وتحرض على القتال ، وتقاتل ، وتخدم الجرحى ، وهذا يستدعى أن يكون وجهها مكشوفاً للناظرين .

---

(١) الأغانى ٥/٥٣

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ١/١٢٧ وللمرزوقى ١/٢٣٨ (٣) معجم الشعراء ٢٠١

(٤) المفضليات ١/٥٨ وديوان المسيب الملحق بديوان الأعشى ٣٥٤ وسمط اللآلى ١/١٧٨ متاع : متعة . العطاس : الصبح . أصلتى : خد ناعم حسن

(٥) الأغانى ٢١/٩١ عفاهية : ممتلئة .

الحجاب

لم تكن النساء كلهن سافرات، وإنما سفر بعضهن، وتحجب بعضهن فغطين وجوههن، وليس فى هذا تناقض أو شذوذ، لأن المجتمعات كثيراً ما تتباين عاداتها، وتتغير نظمها فى البيئة الواحدة والعصر الواحد. ففى مصر اليوم سافرات ومحتجبات، فى المدينة الواحدة، والقرية الواحدة، وسفور المرأة فى القاهرة والإسكندرية غير سفور المرأة القروية، وحجاب هذه غير حجاب أولئك.

أما دعوى فير Weir أن الحجاب لم يكن معروفا فى الجاهلية[1] فغير صحيحة تدحضها الأخبار، وتبطلها الأشعار.

١ — فالأخبار صحيحة فى ممارسة النساء للحجاب، منها أنه كان السبب فى اليوم الثانى من أيام الفجار الأول أن شباباً من قريش وبنى كنانة رأوا امرأة جميلة وسيمة من بنى عامر بسوق عكاظ، وسألوها أن تسفر فأبت، فامتهنها أحدهم، فاستغاثت بقومها فقامت حرب[2].

ومنها أن السبب فى اعتلاق عبد الله بن علقمة بصاحبته حُبَيْش أنه نزل ضيفا عند آلها، فأجلسوه فى متحدَّث لهم، فخرجت حبيش وعلى وجهها سِبٌّ أخضر، فضرب به الهواء، فانكشف وجهها ويداها، فهام بها عبد الله[3].

وكانت هند بنت صعصعة جد الفرزدق تفاخر بقولها: من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعة يحل لى أن أضع خمارى معهم فلها صِرْمتى: أبى صعصعة، وأخى غالب، وخالى الأقرع، وزوجى الزبرقان بن بدر. وهى ذات الخمار، لأنها دخلت على هؤلاء الأربعة فألقت خمارها، فقالوا لها: ماهذا، ولم تكونى متبرجة؟ فقالت: داخلتنى خيلاء حين رأيتكم، فأى امرأة من العرب وضعت

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٢٦٦/٦ T. h. Weir

(٢) الأغانى ٧٤/١٩ (٣) تزيين الأسواق ٨١ داود الأنطاكى.

خمارها عند مثلكم فلها صرمتى[1] .

وفى أمثالهم ما يؤيد معرفتهم الحجاب ، كقولهم (إن العَوَان لا تُعَلَّم الخِمْرة)[2] ، أى لا تحتاج إلى تعلم الاختمار ، يضرب مثلا للرجل المجرب .

٢ — والشعر الجاهلى حافل بذكر الحجاب كما حفل بذكر السفور ، فمثلا يقول النمر بن تولب فى امرأته التى هجرته :

وصدّت كأن الشمس تحت قناعها بدا حاجب منها وضَنَّتْ بحاجب[3]

ويقول الربيع بن زياد العبسى بعد مقتل مالك بن زهير :

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهـــار
قد كن يخبأن الوجوه تسترا فاليوم حين بدَوْن للنظـــار
يَخْمشن حُرّات الوجوه على امرىء سهل الخليقة طيب الأخبار[4]

ويتغزل الحطيئة فى قوام محبوبته ووجهها ، ويكنى عن وجهها بأنه موضع النقاب :

طافت أمامة بالركبان آونَةً يا حُسْنَهُ من قوامٍ مّاومُنْتَقبا[5]

ويعجب الشنفرى بحبيبته وهى منتقبة لا تكشف وجهها :

فقد أعجبتنى لا سقوطٌ قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفُّت[6]

وتحرض أم عمرو بنت وقدان قومها على الثأر بأنهم إن لم يثأروا فعليهم أن يدعوا السلاح ويتكحلوا وينتقبوا كالنساء :

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكم فذروا السلاح ووحِّشوا بالأَبْرق
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا نُقُبَ النساء فبئس رَهْطُ المُرْهَق[7]

---

(١) النقائض ٢٦٤ (٢) مجمع الأمثال ١/١٧ وجمهرة الأمثال ٢/٦١ ولسان العرب مادة خمر . العوان : الثيب أو بنت الثلاثين .

(٣) الأغانى ١٩/١٥٩ (٤) النقائض ٨٦ (٥) خزانة الأدب ٣/٣٩٥

(٦) الأغانى ٢١/٩٠ (٧) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٥٥ وحشوا بالأبرق : كونوا مع الوحوش بالأرض الرملية الحجرية . المرهق : الذليل المضيق عليه

ولقد يتمثل الحجاب فى أن تتخدر المرأة ، فلا يراها إلا الأقربون ، ولا تبرز إلا فى الفواجع . يدل على ذلك قول زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى   أقوم آل حصن أم نساء
فإن تكن النساء مخبّآتٍ   فَحُقّ لكل مُحْصَنَةٍ هِداء[1]

وفى قول مهلهل يرثى كليبا :

على أن ليس عدلا من كليب   إذا برزت مخبّأة الخدور[2]

وفى قول عدى بن زيد :

يُسارقْنَ م الأستار طَرْفا مُفَتَّرا   ويُبْرِزْنَ من فَتْق الخدور الأصابعا[3]

٣ — وإذا كان المراد بالحجاب لبس الخمار ونحوه، فإنه لم يكن مقصوراً على العرب، بل كان شائعاً منذ أقدم العصور فى بابل وأشور وفارس والروم والهند[4]،

فقد كانت النساء الرومانيات مغاليات فى الحجاب فى العهد الأول للجمهورية، حتى إن القابلة كانت لا تخرج من دارها إلا مخفورة ، ووجهها ملثم ، وعليها رداء طويل يلامس كعبيها ، وفوقه عباءة لاتبدى شيئاً من قوامها . ثم تغيرت الحال فى عهد الإمبراطورية ، حتى هالت بعض المصلحين ، وهبّ (كاتون) ينذر بالخطر المحدق الذى سيلتهم كل شىء[5] .

كذلك عرف الفرس القدماء الحجاب ، وعدوا كشف المرأة أو الرجل عن شىء من جسده غير الوجه مظهراً منافياً للاحتشام والأدب . وكانت النساء يغطين أجسامهن من قمة الرأس إلى إخمص القدم[6] . وبعد حكم دارا الأول كان احتجاب نساء الطبقة الراقية عن المجتمعات نظاماً ضرورياً مراعى ، فصرن

---

(١) شرح ديوان زهير لثعلب ٧٤ (٢) الأمالى ٢/١٣٢ وكتاب بكر وتغلب ٧١
(٣) الأغانى ٢/١٥٠ (٤) الإسلام والحضارة العربية محمد كرد على ١/٨٨
(٥) المرأة المسلمة ١٢٣ فريد وجدى (٦) قصة الحضارة الفارسية ١٩ ول ديورانت

لايجسرن على الخروج إلا فى هوادج تغطيها الستائر ، وحظر عليهن أن يخالطن الرجال فى مجتمع خاص أو عام . بل لقد منعت المتزوجات من رؤية أدنى الرجال إليهن قرابة حتى الآباء والإخوة . ونشأ عن ذلك أننا لم نجد للنساء ذكراً أو صوراً فى النقوش أو التماثيل التى خلفتها إيران القديمة . أما الخليلات والحظيات فكن على ضد ذلك ، يتمتعن بحرية عظيمة ، لأن المفروض فيهن أنهن يرفهن عن مواليهن وضيوفهم[١] .

وشاع الحجاب عند الهنود أيضاً ، حتى فى عصر المهابراته .

وعرفه الأثينيون القدماء[٢] ، وقد ورد فى الإلياذة قول هكتور : « لست أرضى الغار إذا اشتجرت النصول بين الطرواديين والطرواديات الطويلات النقاب » ومن هذا ، ومن ذكر قناع إيقاب ، وبرقع هيلانة ، وبراقع النساء والربات ، نعرف أن اليونانيات استعملن النقاب[٣] .

على أنه مازال شائعاً إلى العصور الوسطى وما بعدها ، وما زالت له آثار ، ولم تغير منه النصرانية شيئاً[٤] ، لذلك كان ذائعاً فى الدولة البيزنطية[٥] ، وإن لم يكن عاما[٦] .

٤ ــ ثم جاء الإسلام ففصل فى مشكلة السفور والحجاب ، قال تعالى : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منهـا ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبنـاء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات

---

(١) المرجع السابق ٦٠ (٢) مركز المرأة فى الإسلام ٢٤ السيد أمير على الهندى
(٣) الإلياذة ٤٧٥ (٤) التمدن الاسلامى ٥/٧٧ جرجى زيدان
(٥) مركز المرأة فى الإسلام ٣٤ (٦) الإمبراطورية البيزنطية ٣٤ نورمان بينز

النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن »[١] .

وقال تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك و بناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن »[٢] .

واختلف فى الإدناء الذى أمرن به ، فقال بعضهم: هو أن يغطين رءوسهن ووجوههن، فلا يبدين إلا عيناً واحدة . وقال بعضهم: بل يشددن خُمُراً على جباههن. وروى عن ابن عباس أن إدناء الجلباب هو أن تتقنع وتشد جبينها ، وعن قتادة أن يقنعن على الجوانب[٣] وذهب آخرون إلى أن المراد ستر الرءوس والأعناق والنحور[٤] .

وبذلك حرم على المرأة المسلمة أن تكشف عن مواضع زينتها أمام أجنبى ليس من المحارم ، إلا ما اقتضت الضرورة أن يظهر ، كالوجه والكف ، لأن فى إخفائهما تضييقاً وحرجا[٥] .

ونهى الإسلام عن التبرج كما سبق .

وهو بذلك يدرأ الفتنة ، ويقى النفوس نزواتها ، لذلك أحل للعجائز اللائى لا أرب فيهن ما لم يحله للشابات والجميلات ، يقول تعالى : « والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة »[٦] .

وقد صور الشعراء بعضهن مختمرات، فعمر بن أبى ربيعة يقول فى إحدى صواحبه:

واشتكت شدة الإزار من البُهْـر وألقتْ عنها لدىَّ الخمارا[٧]

---

(١) سورة النور ٣١ (٢) سورة الأحزاب ٥٩ (٣) تفسير الطبرى ٢٢/٣٣ والنيسابورى ٢٢/٣٢ والرازى ٥/٢٤٩ والطبقات الكبير ٨/١٢٧

(٤) تفسير الجلالين ٢٩٥

(٥) تفسير الطبرى ١٨/٩٤ والنيسابورى ١٨/٧٦ والبيضاوى ٤٧٦ والجلالين ٢٩٥

(٦) سورة النور ٦٠ (٧) الأغانى ٣/٩٧

وقد جلس هو والغريض فى نسوة مقنعات بأخمرتهن[١] . والحارث بن خالد يقول فى امرأة مختمرة وهى تحج :

يقعدن فى التطواف آونةً ويطفن أحيانًا على فُتُر
فَفَرغن من سبع وقد جَهِدَتْ أحشاؤهن موائلَ الخُمُر[٢]

على أن قلة من المسلمات كانت تسفر ، وزعيمتهن فى ذلك عائشة بنت طلحة كانت لا تستر وجهها من أحد[٣] ، وسكينة بنت الحسين ، كانت برزة أديبة تجالس الجلة من الرجال والأدباء[٤] . وقد أشرفت هند بنت النعمان بن بشير على وفد عند زوجها وهى سافر ، وكذلك كانت تسفر امرأة عبد الملك بن مروان[٥] . وكان عَمْرة صاحبة أبى دَهْبَل – وهب بن زمعة الشاعر الإسلامى – امرأة جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار[٦] .

وفى حديث لنُصَيْب أنه جالس هو وكُثَيِّر والأحوص نساء بارزات لا عهد لهم بهن ، وسمعوا الغناء ، وتغدوا بالعَقيق جميعاً[٧] .

وكانت خَرْقاء العامرية حبيبة ذى الرُّمَّة تقعد للحجيج وتحادثهم ومعها فاطمة ابنتها[٨] .

ولقد كان الباعث لهن على السفور فى الإسلام كما كان فى الجاهلية : الزهو بالجمال ، والاعتداد بالتصون ، والاعتزاز بالعفة ، فقد عاتب مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة فى سفورها فقالت : إن الله تبارك وتعالى وَسَمَنى بميسم جمال ، فأحببت أن يراه الناس ، ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما فىَّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد[٩] .

---

(١) الأغانى ٦/٨٣ (٢) الأغانى ٣/٩٧ (٣) الأغانى ١٠/٥١
(٤) الأغانى ١٤/١٦٥ (٥) العقد الفريد ٣/٢٨٩ (٦) الأغانى ٦/١٥٠
(٧) الأغانى ١/١٣٧ (٨) الأغانى ١٦/١١٩ (٩) الأغانى ١٠/٥١
وزهر الآداب ١/٢٣١

وقد سجل الشعراء هذا السفور ، كقول عمر بن أبي ربيعة :

ولما تفاوضنا الحديث وأسفرت   وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا[1]

وقول الشماخ :

« أطارت من الحسن الرداء المحبَّرا »

لأنها مدلة بجمالها فلا تختمر ، ولا تستر شيئاً من الناظرين[2] .

وإذاً فالحجاب الذى دعا إليه الإسلام سهل ميسور مقبول ، وهو شبيه بما كان فى الجاهلية ، وبما نرى اليوم فى البوادى والقرى .

ولكن بعض المسلمين تشددوا فيه ، ثم تأكد وثبت منذ أصدر المتوكل والقادر بالله العباسى أمرهما بمنع النساء من الصلاة فى المساجد ومخالطة الرجال فى المحافل والمجتمعات .[3] .

وكلما ضعفت مكانة المرأة وساء ظن الرجال بها ، وساء ظنها بهم ، علت حولها الأسوار ، وخيفت عليها الأنظار ، وعاشت فى منزل أشبه بالحصن ، كالوردة فى أصيص مغلق .

خُمُرُها وملابسها

— ١ —

كانت أغطية رءوسهن منوعة ، ولها أسماء شتى منها :

١ — الخمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها . وهو شقة على الرأس تلف على جزء من الوجه ، فهو يشبه ما يسمى فى عصرنا (الطرحة) ، ومن أسمائه

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٣/١٢٧

(٢) الكامل المبرد ١/٤٩١

(٣) الإسلام والحضارة العربية ١/٨٩

النَّصِيف[١] ، والقناع[٢] ، والبُرْقع[٣] ، والسِّب[٤] .

٢ — وإذا كان الغطاء وحده فهو المِقْنَع ، والمِقْنَعة ، وهى أصغر من القناع[٥] .

٣ — والنِّقاب القناع على مارِنِ الأنف ، وهو على وجوه . قال الفراء : إذا أدنت المرأة نقابها إلى عينها فتلك الوَصْوَصة ، فإن أنزلته دون ذلك إلى المَحْجِر فهو النقاب ، فإن كان على طرف الأنف فهو اللِّثام .

وقال ابن سيرين: النقاب مُحْدَث ، أراد أن النساء ما كن ينتقبن أى يختمرن. قال أبو عبيد : ليس هذا وجه الحديث ، ولكن النقاب عند العرب هو الذى يبدو منه مَحْجِر العين ، ومعناه أن إبداءهن المحاجر محدث ، إنما كان النقاب لاحقاً بالعين ، وكانت تبدو إحدى العينين والأخرى مستورة ، وكان اسمه عندهم الوصوصة والبرقع[٦] .

٤ — والوَصْواص النقاب على مارِن الأنف لا تظهر منه إلا العينان ، وهو البرقع الصغير[٧] ويسمى البُخْنُق[٨] .

٥ — البُرْقُع والبُرْقُوع ، وهو للدواب ، ولنساء الأعراب، فيه خرقان للعين، والبرقع المُوَصْوَص هو الصغير العينين[٩] .

٦ — القِناع ، ما تتقنع به المرأة من ثوب ، تغطى رأسها ومحاسنها به ، وهو أكبر من المِقْنع والمِقْنعة . وذهب الأزهرى إلى أنه لا فرق عند الثقات من أهل اللغة بين القناع والمقنعة ، ويظهر أنه كان فى صدر الإسلام من لبس الإماء ،

---

(١) لسان العرب والقاموس المحيط مادة خمر (٢) القاموس مادة قنع
(٣) القاموس المحيط مادة برقم (٤) القاموس مادة سب (٥) لسان العرب القاموس مادة قنع . (٦) لسان العرب والقاموس مادة نقب والقاموس مادة لثم ولفم
(٧) لسان العرب مادة وصوص (٨) القاموس مادة بخق (٩) لسان العرب مادة برقع

فقد رأى عمر جارية عليها قناع فضربها بالدِّرَّة وقال أتَشَبَّهين بالحرائر[١] .

٧ — البُخْنُق : برقع يغشي العنق والصدر ، والبرنس الصغير ، وعن ابن سيده أنه البرقع الصغير . وهو أيضاً خرقة تلبسها المرأة فتغطي رأسها ما قَبَل منه وما دَبَرَ غير وسط الرأس . وقال الجوهري : هو خرقة تقنع بها الجارية ، وتشد طرفيها تحت حنكها لتقي الخمار من الدهن ، وتحفظ الدهن من الغبار[٢] .

٨ — وفى الشعر ذكر لهذه الخُمُر .

فمن ذكر الخمار قول صخر فى أخته الخنساء :

ولو هلكتُ خَرَّقَتْ خِمارها   واتَّخذتْ من شَعر صِدارها[٣]

وقول المرار بن منقذ :

وهوَى القلبِ الذى أعجبــه   صورةٌ أحسنِ من لاثَ الخُمُر[٤]

ومن ذكر القناع قول عنترة :

إن تُغْدِ فى دونى القناع فإننى   طَبٌّ بأخذ الفارس المستَلْئم[٥]

وقول عروة بن الورد :

فراشى فراش الضيف والبيت بيته   ولم يُلْهِـنِي عنه غزال مقنَّع[٦]

ومن ذكر البرقع قوله النابغة الجعدى يصف خِشْفا :

وخدًّا كبُرْقُوع الفتاة مُلَمَّعَا   رَوْقَيْن لمّا يَعْدُ أن يتقشَّرا

وقول توبة :

وكنتُ إذا ما جئتُ ليلى تبرقعت   فقد رابنى منها الغداةَ سفورها[٧]

---

(١) لسان العرب مادة قنع   (٢) لسان العرب مادة بخنق والقاموس مادة بخق

(٣) تهذيب الكامل ٢/١٩٢ والشعر والشعراء ١٢٤ والإصابة ٨/٦٧

(٤) المفضليات ١/٨٧   (٥) لسان العرب مادة قنع وشرح المعلقات السبع لابن الانبارى مخطوط ٥٨ تغدف : ترخى على وجهك   (٦) شعراء النصرانية ٩١٣

(٧) لسان العرب مادة برقع

ومن ذكر الوصواص قول المثقب العبدى :

ظهرن بكلة وسدلن رقْما　　وثقّبن الوصاوص للعيون

ويروى ، أرين محاسنا وكنن أخرى .

وأنشد ابن برى لشاعر :

يا ليتها قد لبست وَصْواصا [١] :

ومن ذكر النصيف قول النابغة فى المتجردة :

سقط النَّصيف ولم ترد إسقاطة　　فتناولته واتّقتنا باليــــد [٢]

وقول ثعلبة بن صُعَيْر فى وصف النعامة ، إنها حضنت بيضها بجناحيها ، وهى فى خبائها ، فلم يبد إلا وجهها ، كالمرأة من الحُمْس تتقنع ، ولكن يبدو بعض رأسها ووجهها :

فبنت عليه مع الظلام خباءهـا　　كالأحْمَسيَّةِ فى النَّصيف الحاسر [٣]

وقول ليلى بنت طريف فى رثاء أخيها الوليد :

بكت تغلبُ الغَلْباء يوم وفاته　　وأبْرزَ منها كلُّ ذات نصيف [٤]

ومن ذكر السبّ قول معن بن أوس :

إذا ما لبسن الحَلْىَ والوشْىَ أشرقت　　وجوه ولَبّاتٌ يُسَلِّبننا الحِلْما

ولُثْنَ السُّبُوبَ خِمْرَةً قرشيـة　　زُبَيْرِية يَعْلَمْنَ فى لَوْثها عَلْما [٥]

ومن ذكر اللثام قول قيس بن الحدادية :

نَشَرَتْ على فيها اللثام وأعرضَتْ　　وأمعنَ بالكحل السحيق المدامع [٦]

---

(١) لسان العرب مادة وصص　　(٢) ديوان النابغة ٢٩

(٣) المفضليات ١/١٢٨　　(٤) حماسة البحترى ٤٣٦

(٥) البيان والتبيين ٢/٣٥٤ . لثن : أدرن وطوين . الخمرة : هيئة الاختمار لونها : إدارتها وطيها . يعلمن : يسمن من علمه بابه نصر وضرب .

(٦) الأغانى ١٣/٧

ومن ذكر البخنق قول عنترة :

نحر الرجال سلاسل وقيود ... وكذا النساء بخانق وعقود[(١)]

— ٢ —

أما ملابسها فكثيرة أيضا ومنوعة ، منها :

١ — الرَّيْطة ، وهى الملاءة من نسج واحد وقطعة واحدة ، وهى كل ثوب لين رقيق[(٢)] .

قال سُلْمِيّ بن ربيعة يذكر لذاته :

والبيض يَرْفُلْنَ كالدُّمَى ... فى الرَّيْط والمُذْهَب المصون[(٣)]

وقال الأعشى :

والساحبات ذيول الريط آونة ... والرافلات على أعجازها العِجَل

وقال الرَّمِق — عبيد بن سالم الخزرجى — فى مدح أبى جبيلة :

أمثال غزلان الصرا ... ثم يأتزرن ويرتدينا

الرَّيْطَ والديباج والـزَّ ... رَدَ المضاعف والبُرِينا

وذكر حسان فى قوله :

يَحْمِلن حُوّاً حُور المدامع فى الرَّ ... يْط وبيضَ الوجوه كالبَرَد[(٦)]

٢ — المِرْط كساء من صوف أو خز[(٧)] .

ويظهر أن ذيله كان طويلا ينسحب على الأرض . يقول امرؤ القيس :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا ... على أثَرَيْنا ذيل مِرْط مرحَّل[(٨)]

---

(١) ديوان عنترة ٦٤ (٢) القاموس مادة ريط (٣) شرح الحماسة للتبريزى ٣/٨٣
(٤) شعراء النصرانية ٣٦٨ . العجل : جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهى دولاب السقى يصف أعجاز هن بالضخامة . (٥) الأغانى ١٩/٦٩ الصرائم : قطع الرمل . الزرد : الدرع المزرودة . البرين : جمع برة وهى الخلخال . (٦) ديوان حسان ٣٣ حو : جمع حواء أى ذات شفة حمراء ضاربة إلى السواد (٧) القاموس مادة مرط.
(٨) ديوان امرىء القيس ١٢٩ مرحل : فيه صور الرحال

ويقول :

دخلت على بيضاء جُمٍّ عظامُها ... تُعَفِّى بذيل المرط إذ جئت مَوْدِقى (١)

وقد ذكر المرط والريطة المنتخل بن عُوَيْمِر الهذلى فى قوله :

فَحُورٌ قد لهوتُ بهن حيناً ... نواعمُ فى المروط وفى الرِّياط (٢)

٣ ـ الصدار ، وهو ما تلبسه المرأة على صدرها ، قال عروة بن الورد فى فخره بسباياهم من طيئ :

ترى كل بيضاء العوارض طَفْلَةَ ... تُفَرِّى ـ إذا شال السِّماكُ ـ صدارها (٣)

وكانت الحزينة تتخذه من شعر ، كما فعلت الخنساء تحقيقاً لقول أخيها صخر :

ولو هلكت خَرَّقَتْ خمارها ... واتخذت من شعر صدارها (٤)

٤ ـ السابرىّ ، ثوب رقيق جيد ، قال امرؤ القيس :

تَصدُّ عن المأثور بينى وبينها ... وتدنى علىَّ السابرىَّ المضَلَّعا (٥)

٥ ـ الجُبَّة ، وهى ثوب واسع (٦) ، ويظهر أنها كانت من ملابس الإماء ، بدليل قول أوس بن حجر فى الأطلال :

تمشى بها رُبْدُ النعام كما ... تمشى إماء سُرْبِلَتْ جُبَبا (٧)

وهم ميزوا الإماء بالجُبَب ، لأن الأزياء كانت تختلف ، فللحرائر زى ، ولذوات الرايات زى ، وللاماء زى ، ولكل مملوك زى (٨) .

٦ ـ الحِبَرَة ، وهى ضرب من برود اليمن ، وهى أيضاً البرد الموشّى (٩)

---

(١) ديوان امرىء القيس ١١٩ ولسان العرب ١٢/٢٥١

(٢) جمهرة أشعار العرب ٢٢٩

(٣) شعرا النصرانية ٩١١ تفرى : تشق . شال السماك : ارتفع هذا النجم .

(٤) الشعر والشعراء ١٢٤ وتهذيب الكامل ٢/١٩٢ والإصابة ٨/٦٧ والمحاسن والأضداد ١٤٣

(٥) ديوان امرىء القيس ١١٣ المضلع : المخطط المسير أو الذى وشيه على شكل الأضلاع

(٦) القاموس مادة جب

(٧) ديوان أوس ٢

(٨) البيان والتبيين ٣/٩٧ تحقيق هارون

(٩) القاموس مادة حبر

٧ ـ وهناك أنواع كثيرة ، منها : اللِّفاع والمِلْحَفة ، وهو ما تتلفع به المرأة[١] ، وهو (الشال) فى عصرنا . والنِّطاق والمِنْطقة ، وهى شقة تلبسها المرأة ، وتشد وسطها فترسل الأعلى على الأسفل إلى الأرض ، والأسفل ينجر على الأرض ، ليس لها حُجْزة ولا ساقان ولا نيْفق[٢] ، وهى تشبه بعض الشبه ما يسمى الآن (الجونلا) .

والبَتُّ ، وهو الطيلسان من خز ونحوه[٣] .

والحُلة ، وهى إزار ورداء ، ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة[٤] .

والبُرْد ، هو الثوب الموشّى ، والكساء الذى يلتحف به[٥] .

والمِعْرَض ، الثوب تعرض فيه الجارية وتُجْلَى[٦] .

والبُرْنُس ، كل ثوب رأسه ملتزق به ، دُرَّاعة كان أوجبة أو مِمْطرا ، وهو أيضاً قلنسوة طويلة ، وكان النساء يلبسنها فى صدر الإسلام[٧] .

قال مهلهل :

وإذا تشاء رأيت وجهاً واضحاً ... وذراع باكية عليها بُرْنُس[٨]

٨ ـ وكانت تسمى الملابس بأسماء دالة على نقوشها . فالمُرَحَّل بُرْدٌ فيه تصاوير الرجال ، والمرَجَّل إزار فيه صور الرحال .

والوصائل ثياب يمنية مخططة[٩] ، قال لبيد :

---

(١) القاموس مادة لفع (٢) القاموس مادة نطق . نيفق : مقسم
(٣) القاموس مادة بت (٤) القاموس مادة حل (٥) القاموس مادة برد
(٦) لسان العرب مادة عرض (٧) لسان العرب مادة برنس
(٨) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ١٩٧/٢ وأخبار المراقسة ٥٦ .
(٩) القاموس مادة وصل

غرائر أبكار عليها مهابةٌ وعُونٌ كرام يرتدين الوصائلا[١]

والمُجَسَّد والمُجْسَد ثوب مصبوغ بالجَسَد أو الجِساد وهو الزعفران[٢] ،

قال طرفة فى وصف القينة :

ندامای بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين بُرد ومُجْسَد[٣]

والمُذْهَب ماجعل نسجه بخيوط من ذهب ، قال سُلْمِىّ بن ربيعة :

والبيض يرفلن كالــدمى فى الريط والمُذْهب المَصْون[٤]

والخال ، ضرب محكم من برود اليمن الموشاة ، وهو أيضاً الثوب الناعم[٥] .

والمراجل ، ضرب محكم من برود اليمن ، والمُمَرْجَل ضرب من ثياب الوشى فيه صور المراجل ، ويقال لهـا المراحل أيضا ، وفى الحديث (حتى يبنى الناس بيوتا يُوَشُّونها وشى المراحل[٦]) والمصَلَّب فيه نقش كالصليب ، وفى حديث عائشة أن النبى صلى الله عليه وسـلم كان إذا رأى التصليب فى ثوب قَضَّه ، أى قطع موضع التصليب منه . وقد نهى عن الصلاة فى الثوب المصَلَّب ،وفى حديث عائشة : فناولتها عِطافا فرأت فيه تصليبا ، فقالت : نحِّيه عنى . وكانت أم سلمة تـكره الثياب المصَلَّبة .[٧] والمُبَرَّج ما فيه صـور البروج ، وفى التهذيب قد صور فيه تصاوير كبروج السور .

قال العجاج :

« وقد لبسنا ثوبه المبرَّجا » .

وقال فى وصف ناقة :

« كأن برجا فوقها مبرَّجا » . شبه سنامها ببرج السور .

والثوب المبرج أيضاً المعَيَّن، أى فى وشيه ترابيع صغار تشبه بعيون الوحش[٨]

---

(١) ديوان لبيد ٢٢ عون : ج عوان وهى المتزوجة (٢) القاموس مادة جسد

(٣) ديوان طرفة ٢٦ (٤) شرح الحماسة للتبريزى ٣/٨٣

(٥) لسان العرب ١٣/٢٤٢ (٦) لسان العرب ١٣/٢٨٣ و٢٩١ والقاموس مادة رجل

(٧) لسان العرب مادة صلب (٨) لسان العرب مادة برج وعين

والمُسَهَّم البرد المخطط بوشى على شكل السهام ، قال أوس :

فإنا رأينا العِرْض أحوج ساعة إلى الصون من رَيْط يمانٍ مُسَهَّم

وفى حديث جابر أنه كان يصلى فى برد مسهَّم[1] .

والمضرس ، ثوب موشى ، به أثر ، قال أبو قِلابة :

رَدَعَ الخَلُوقُ بجلدها فكأنه رَيْط عتاق فى الصِّوان مُضَرَّس[2]

والمَعَضَّد،ثوب موشى فى جوانبه ، أو موشى على العضد من لابسه، قال زهير يصف بقرة :

فجالَتْ على وحشيِّها وكأنها مُسَرْبلةٌ من رازقٍ مُعَضَّد[3]

والمضَلَّع ، ثوب مخطط على شكل الأضلاع ، أو هو الموشى ، أو المسيّر ، وقيل برد مضلع إذا كانت خطوطه عريضة كالأضلاع، وفى الحديث أنه أهدى له صلى الله عليه وسلم ثوب سِيرَاء مضلع بقز[4] .

والمُكعَّب ، المطوىّ الشديد الأدراج فى تربيع ، أو ما فيه وشى مربع[5] أو هو المنقوش على هيئة الكعاب[6] .

والمُهَلَّل ، ما فيه نقوش وصور كالأهلة[7] .

والخال ، ضرب من برود اليمن الموشية قال الشماخ:

وبُرْدان من خالٍ وسبعون درهما على ذاك مقرونٌ من الجلد ماعز[8]

و المُعَرْجَن ما فيه صور العراجين والنخل ، قال رؤبة : « فى خد مياس الدُّمى مُعَرْجَن[9] » .

والمُطَيَّر ، ضرب من البرود ، قيل هو المشقق المكسّر ، قال العجير السلولى .

إذا ما مشت نادى بما فى ثيابها ذكىُّ الشذى والمندلىُّ المطَيَّر[10]

---

(١) لسان العرب مادة سهم (٢) لسان العرب مادة ضرس حمله مرة على اللفظ فقال مضرس ، ومرة على المعنى فقال عتاق (٣) لسان العرب مادة عضد . وديوان زهير ٩٢ والكنز الثمين ٨٠ رازقى : ثوب كتان أبيض . (٤) لسان العرب مادة ضلع
(٥) لسان العرب مادة كعب (٦) الإفصاح ١٦٠ (٧) الإفصاح ١٦٠
(٨) لسان العرب مادة خيل (٩) لسان العرب مادة عرجن (١٠) لسان العرب مادة طير

أو هو المزين بصور الطيور[١] .

٩ — وأما ألوانها فأكثرها شيوعا اللون الأحمر، وقد كان العرب مغرمين بالحمرة فى الحدوج، يمثل ذلك قول علقمة إن الجمال قد احتملت :

عَقْلاً وَرَقْماً تظل الطيرُ تَتْبَعُه كأنه من دم الأجواف مَدْمُوم[٢]

وقول المسيب بن علس إن الظعائن تحمل :

عَقْلاً ورَقْماً ثم أردفـه كِلَلٌ على أطرافها الخَمْل[٣]

وكذلك صور الحدوج امرؤ القيس[٤] ، وطفيل الغنوى[٥] والحطيئة[٦] .

كذلك كانوا يؤثرون الحمرة فى لون الملابس ، قال أوس بن حجر إن ملابسهن منوعة الألوان وواسعة :

يلبسن رَيْطاً وديباجا وأكسية شتّى بها اللونُ إلا أنها قُورُ[٧]

وكان اللون الأحمر شعار الملوك والأشراف، ولعل هذا مما حببه إلى الناس، على رغبتهم فيه ، قال النابغة الذبيانى فى مدح الغساسنة :

تحييهم بيضُ الولائد بينهم وأكسيةالإضْريج فوقالمشاجب[٨]

وظل إيثارهن اللون الأحمر إلى ما بعد العصر الجاهلى ، فالسيدة عائشة كانت تحب من ألوان الملابس الأحمر والمعصفر ، فكانت تلبس درعاً معصفراً أحياناً ، ومذهباً أحياناً ، ومضرجاً وهو الذى كان يسمى المورَّد ، وكانت عليها ثياب حمر كأنها شرر وهى محرمة[٩] . وقد وصف المتنبى الحسان الظاعنات بأنهن حمر الحلى والنوق والثياب :

(١) الإفصاح ١٦١ (٢) شعراء النصرانية ٤٩٩ العقل : ثوب أحمر يجلل الهودج أو ضرب من الوشى . الرقم : ضرب مستدير أو مخطط من الوشى أو الخز أو البرود . مدموم : مطلى بالدم (٣) ديوان المسيب بن علس الملحق بديوان الأعشى ٣٥٧ الخمل : هدب القطيفة ونحوها (٤) ديوان امرىء القيس ٣٢ (٥) ديوان طفيل ٣٣

(٦) ديوان الحطيئة ٣٧ (٧) ديوان أوس بن حجر ٩ قور : جمع قوراء أى واسعة.

(٨) ديوان النابغة ٨ الإضريج : الخز الأحمر .

(٩) الطبقات ٤٧/٨ والأنساب ٦٦٥/١

مِنِ الجآذرُ فى زىِّ الأعاريب   حُمْرَ الحِلَى والمطايا والجلابيب؟[١]

حُلِيُّها

غرام النساء بالحلى

كلفت المرأة بالحلى فى كل بيئة وفى كل عصر ، تضيف إلى جمالها تجملا ، وتزهى به وتفاخر وتكاثر ، وتختاب ألباب الرجال ، وقلما تبدو عاطلا من حلاها ، وإن غنيت بجمالها ومكانتها ، لهذا لم يذكر إلا قلة من الشعراء أن المرأة عاطل ، كقول الشماخ :

دار الفتاة التى كنا نقول لها   يا ظبيةً عطلاً حُسَّانةَ الجِيد[٢]

وإذا كانت الزينه شية للأنثى من بنى الإنسان ، فإنها من شيات الذكر فى الحيوان ، لأن الطبيعة تزين الذكران من الطيور والحيوان بما يغرى الأنثى ويجتذبها ، أما فى عالم البشر فإن الأنثى تتزين لتجتلب الذكر « وإذا كانت أزياء النبلاء السابقين الحريرية الملونة تبهرنا اليوم على المسرح ، فإن هؤلاء النبلاء كانوا يرون حولهم نساء كثيرات لابسات ثيابا يتفق لهن بها من الفتنة مالا نبصر نظيره فى عصرنا » [٣]

لهذا شاع الحَلْى فى العصور القديمة عند الأمم ، وكان عظيم الشأن عند الأمم التى اتصل بها العرب ، فالإسرائيليات كن يتأنقن بالخلاخيل والأهداب والأهلة والنُّطف والأساور والرُّعَل والعصاب والمصاعيد والخواتم والأحراز والخُرْصان والتيجان وغيرها من الملابس والمرايا[٤]

---

(١) ديوان المتنبى شرح البرقوقى ١/ ١١٤   الجآذر : ج جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . الأعاريب : جمع أعراب وهم سكان الخيام والوبر. المطايا: النوق وأجودها الحمر .   (٢) معجم البلدان ٨/ ٥٢٥   (٣) الحياة والحب . إميل لوفادفيج ٢٢   (٤) سفر أشعيا ٣/ ١٨ — ٢٣ النطف : الأقراط . الرعل : ج رعلة وهى الإكليل من ريحان وآس . الخرصان : ج خرص وهو حلقة الذهب والفضة أو حلقة القرط أو الحلقة الصغيرة من حلى .

والمرأة الفارسية كانت مولعة بأصناف الحلى ، من تيجان وأقراط وخلاخيل وغيرها ، حتى لقد كانت تلبس حذاء مذهباً[١] .

والمرأة الرومانية أسرفت فى زينتها إسرافاً حمل (كاتو) على أن يسن قانوناً يحد من ملكيتها لتقتصد فى نفقات زينتها، واحتدت المناقشة فى التريبيون بين كاتو وأحد الأعضاء الجانحين إلى أن تطلق للمرأة الحرية فى زينتها ، وجاء فى رد العضو المعارض : إن النساء لا يستطعن العمل فى الوظائف العامة ، ولا أن يكن كاهنات أو جنديات يحرزن النصر ، وليس لهن من العمل العام ما يشغل فراغهن ، فماذا يستطعن أن يعملن إن لم يخصصن أوقاتهن للزينة والملابس[٢] ؟

وكانت المرأة المصرية تتزين بالعصائب والخواتم والأساور والخلاخيل والعقود والأحراز الثمينة والأحزمة المحلاة بالأحجار واللآلىء والأقراط ، وكان خضاب الأظفار شائعاً ، والكحل بالإثمد كذلك . وغلا المصريون والمصريات فى استعمال الشَّعر المستعار ، فجعلوه كثيفاً ثقيلا مقصوصاً مضمخاً بالطيب ، معقوداً بأشرطة من لآلىء[٣] .

صنوف الحلى :

تنوع حلى المرأة العربية ، وتعددت أصنافه ، فكان لكل عضو من أعضاء الزينة حلى يلائمه .

١ — ففى اليد السِّوار والإسْوار ، وهو القُلْب أيضاً ، وموضعه المعصم . قال العرندس الكلابى :

بل أيها الراكب المُفنى شبيبته يبكى على ذات خلخال وإسوار

وقال المرار بن سعيد الفقعسى :

---

(١) قصة الحضارة الفارسية ٦٧ و ل ديورانت .
(٢) المرأة فى مختلف العصور ٢٧ ـ ٢٩ .
(٣) الحضارة المصرية القديمة لوبون ٧٥ .

كما لاح تبرٌ فى يدٍ لمعَتْ به كعابٌ بدا إسوارها وخضيبها [(١)]

وقال النابغة الذبيانى :

وأبدت سِواراً عن وشوم كأنها بقية ألواح عليهن مُذْهَب [(٢)]

وفيها الدُّمْلَج ــ بضم اللام وفتحها ــ وهو المِعْضَد والمِعْضَدة [(٣)] ، قال عنترة :

وتحتى منها ساعد فيه دملج مضىء وفوق آخر فيه دُمْلج [(٤)]

وأنشد ابن الأعرابى :

والبيض فى أعضادها الدماليج وَمُعْطِيَاتٌ بُدَّلٌ فى تَعْوِيج [(٥)]

وإذا كان السوار من فضة فهو القُلْب [(٦)] .

وقد يكون على الساعد حلى من مرجان ، قال لبيد :

وعالين مضْعوفاً وفرداً سُموطه جُمانٌ ، ومرجان يشد المفاصلا [(٧)]

وفى الأصابع الخواتم ، ويقال للخاتم خَيْتام أيضاً ، أنشد ابن برى :

يا هند ذات الجورب المُنْشَقِّ أخذتِ خَيْتامى بغير حق [(٨)]

٢ ــ وفى ساق الرجل الخلخال ، وهو أيضاً الخَلخَل والخُلْخُل ، قال الشاعر :

براقة الجيد صموت الخلخل [(٩)]

وقال الأعشى :

وساقان مارَ اللحم مَوْراً عليهما إلى منتهى خلخالها المتصلصل [(١٠)]

وقال طفيل الغنوى :

وفى الظاعنين القلبُ قد ذهبتْ به أسيلةُ مجرى الدمع ريا المُخَدَّم [(١١)]

---

(١) لسان العرب مادة سور (٢) ديوان النابغة ٢٨ .
(٣) لسان العرب مادة عضد (٤) ديوان عنترة ٣٥ .
(٥) لسان العرب مادة دملج (٦) لسان العرب مادة قلد .
(٧) ديوان لبيد ٢٢ مضعوفا : ثيابا مضعفة (٨) لسان العرب مادة ختم .
(٩) لسان العرب مادة خلل (١٠) ديوان الأعشى ٢٢٥ . مار : تحرك واضطرب .
(١١) ديوان طفيل ٣٣ المخدم : موضع الخدمة وهو الخلخال .

وفى تفسير قوله تعالى : (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) أن المرأة ربما اجتازت وفى رجلها الخلخال ، وربما كان فيه الجلاجل ، فإذا ضربت برجلها علم أنها ذات خلخال وزينة ، فنهى عنه لما فيه من تحريك الشهوة ، كما أمرن ألا يبدين ذلك ، لأن إسماع صوته بمنزلة إبدائه[1] .

٣ — أما الأذن فلها أقراط من ذهب أو من لؤلؤ أو غيرهما .

ومن أنواع حليها القُرْط وهو الشَّنْف ، أو الشِّنف ، فى أعلى الأذن، والقرط فى أسفلها ، قال الراجز يخاطب امرأته :

قرَّطك الله على العينين عقاربا سوداً وأرْقَمَيْن[2]

وقال أبو كبير الهذلى :

وبياض وجهك لم تحُلْ أسراره مثل الوذيلة أو كشَنْف الأَنْضَر[3]

والحِبّ : القرط من حبة واحدة ، وهو الخُرْص أيضاً ؛ أو الخرص الحلقة من ذهب أو فضة قال الشاعر :

عليهن لُعْسٌ من ظباء تبالةٍ مذبذبة الخُرْصان بادٍ نحورها[4]

وقد تكون للقرط ذلاذل حسان تهتز بحركة العنق ، قال المرقش الأكبر :

يُهَذِّلْن فى الآذان من كل مُذْهَب له رَبَذٌ يعيا به كل واصف[5]

وكنوا عن طول العنق بطول مهوى القرط ، قال عبيد :

بان الخليط الألى شاقوك إذ شَحَطوا وفى الحدوج مهاً أعناقها عِيَط

ناطوا الرِّعاث لمهوًى لو يَزِلُّ به لانْدَقَّ دون تلاقى اللَّبَّة القُرُط[6]

---

(١) لسان العرب ١٣/٢٨٤ .

(٢) لسان العرب مادة قرط (٣) اللسان مادة شنف . الأنضر : الذهب أو الفضة .

(٤) لسان العرب مادة خرص (٥) المفضليات ٢/٣١ ربذ : عذبة .

(٦) ديوان عبيد القصيدة ٢٢ العيط : على وزن سبب ، وهو أعيط وهى عيطاء والجمع عيط بكسر العين وسكون الياء (اللسان والقاموس) وحركت الياء هنا ضرورة . ناطوا : علقوا . الرعاث : ج رعثة وهى القرط .

وقال النابغة :

إذا ارتعشتْ خاف الجبان رِعاثَها ... ومن يتعلق حيث عُلِّق يَفرَق[١]

وقد يكون دقيق الصنع يشبه فِقَر الجرادة أو فِقَر أمير النحل ، وتشده المرأة بأذنها بخيط حتى لا يسقط ، قال سيار الأبانى :

كأن خَوْقَ قرطها المعقوب ... على دَبَاةٍ أو على يَعْسُوب[٢]

٤ — وللعنق القلادة، وهى العقد، وقد تكون من ذهب . قال المثقب العبدى :

أرين محاسناً وكنَنَّ أخرى ... من الأجياد والبَشَرَ المصُون

ومن ذَهَبٍ يلوح على تَرِيبٍ ... كلون العاج ليس بذى غُضون[٣]

وقد تكون من ياقوت وشذر وجزع من اليمن ولؤلؤ ، قال المرقش الأصغر :

تَحَلَّيْنَ ياقوتاً وشَـذْراً وصِيغَةً ... وجَزْعاً ظفارياً ودرّاً تَوائِما[٤]

وقد يكون من لؤلؤ وزبرجد ، قال النمر بن تولب :

أناةٌ عليها لؤلؤ وزبرجد ... ونظمٌ كأجواز الجراد مُفصَّل[٥]

وقال طرفة :

وفى الحىِّ أحوى يَنْفُضُ المَرْدَ شادنٌ ... مُظَاهِرُ سِمْطَىْ لؤلؤ وزبرجد[٦]

وقد يصاغ الياقوت دقيقا على شكل فقرات الجرادة ، قال امرؤ القيس :

---

(١) ديوان النابغة ٣٩ .

(٢) الأمالى ١/١٨٤ . الموق : حلقة القرط . معقوب : مشدود بالعقب لئلا يزيغ .

(٣) المفضليات ٢/٨٩ .

(٤) المفضليات ٢/٤٥ تحلين : لبسن الحلى . الشذر : اللؤلؤ أو قطع صغار من ذهب . صيغة : ما يصنع من الذهب وليست فى المعاجم . الجزع : بفتح الجيم وكسرها : الخرز اليمانى وهو نفيس . ظفار : بلد باليمن . توائم : اثنين اثنين .

(٥) جمهرة أشعار العرب ١٩٦ .

(٦) ديوان طرفة ٧ أحوى : شبه المرأة بالظبى الأحوى الذى فيه سواد وبياض . المرد : ثمر الأراك المدرك أراد أنه فى خصب . شادن : تحرك وقوى وكاد يستغنى عن أمه . مظاهر : لابس ثوبا فوق آخر . شبه المرأة بالظبى فى طول العنق وطى الكشح وجمال العينين .

غرائر فى كنٍّ وصون ونعمة   يُحَلَّيْنَ ياقوتا وشَذْراً مُفقَّرا[١]

وقد ذكر العقد المنظوم من لؤلؤ وزبرجد كثير من الشعراء، مثل قيس بن الخطيم[٢] وعلقمة[٣]، والمثقب العبدى[٤]، وعنترة[٥].

٥ — وللوسط الوِشاح، وهو كِرْسان من لؤلؤ وجوهر منظومان، مخالف بينهما، معطوف أحدهما على الآخر، تشده المرأة بين عاتقيها، وكشحيها[٦].

وقال أبو على: لا يكون وشاحا حتى ينظم بلؤلؤ أوودع[٧]

قال عروة بن حزام:

كأن وشاحيها إذا ما ارتدتْهما   وقامت عِنا مُهْرَةٍ سلسان[٨]

وقال عنترة:

والشمس بين مُضَرَّج ومُبَلَّج   والغصنُ بين مُوَشَّح ومُقَلَّد[٩]

وأنشد أبو على:

وتكسو الوشاح الرِّخْوَ خَصْراً كأنه   إهانٌ ذَوَى عن صفرة فهو أخْلق[١٠]

٦ — وقد ساعد على كثرة الحلى أن اللؤلؤ فى خليج فارس، والمرجان فى البحار المحيطة بالعرب، وأن التجار يفدون إلى الجزيرة يقايضون اللؤلؤ والمرجان بالذهب والفضة والزمرد والياقوت وغيرها. ثم إن العرب يضربون فى البلاد المجاورة لهم فيبتاعون منها حليا لنسائهم.

---

(١) ديوان امرىء القيس ٦٨ غرائر: غوافل غير مجربات. مفقر: مصوغ على شكل فقار الجرادة

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ٩٠ وديوان قيس بن الخطيم ٢١.

(٣) ديوان علقمة ٩   (٤) شعراء النصرانية ٤٠٦   (٥) ديوان عنترة ٧٠.

(٦) لسان العرب مادة وشح   (٧) المخصص ٤/٩٨.

(٨) النوادر ١٦١ وتزيين الأسواق ٧٨.

(٩) ديوان عنترة ٦٩ الشمس: وجهها الجميل. مضرج: محمر. مبلج: نقى. الغصن: قدها. مقلد: عليه قلادة.

(١٠) المخصص ٤/٩٨ إهان: عذق الكباسة.

وكانوا يعجبون بالنساء الحوالى ، ويعجبون بوسوسه الحلى ، قال الأعشى :

تسمع للحَلْى وسواسا إذا انصرَفَتْ ۝ كما استعان بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ[(١)]

وتصور النابغة أن الحلى يستمد لألاءه من بريق ترائبها :

ترائبا يستضىء الحلى منها ۝ كجَمْر النار يُذْرِى بالظلام[(٢)]

وبعد فقد وصف القرآن الكريم الجنة والحور العين فى سور شتى[(٣)] ، وذكر حليهن ،وما من شك فى أن العرب كانوا يعرفون أصناف الْحَلى التى ذكرها القرآن الكريم .

٧ — هذه الأزياء التى كانت المرأة تختال فيها ، والحلىُّ التى كانت تزينها وتحليها ، دليل على عزازة المرأة فى نفسها ، وعزازتها على ذويها ، ودليل على أن قلب الجزيرة كان وثيق الصلة بأطرافها و بالممالك المجاورة ، يجتلب منها أنواع الكساء وأصناف الحلى .

ولئن كان ارتداء الكسا الفاخرة والتزين بالحلى الغالية النادرة من حظ النساء الثريات المترفات ، إن هذا يشعر بعلو مكانتهن وعظم تقديرهن .

وليس فيه انتقاص من أقدار الفقيرات ، لأن الحكم هنا للوُجد والمعسرة ، والعجز والمقدرة ، لا للعزازة والمهانة .

ولقد كان يود الملق أن يثرى ليلبس نساءه مثل ماتلبس المثريات ، و يمتعهن بالْحَلْى الذى يشتهيه لهن ، وكن يشركنه فى هذا الوداد ، كما تطمح المرأة المعاصرة فى أرقى دوله متحضرة إلى أن تنعم بما تنعم به زميلتها الغنية من وسائل الرفه والترف ، وليس فى حرمانها نقيصة لها أو نزول بقدرها .

---

(١) ديوان الأعشى ٤٢ عشرق : نبات له ورق يطير إذا يبس . زجل : يصوت فيه الريح .(٢) ديوان النابغة ٧٣ (٣) منها سورة الرحمن وسورة الدهر وسورة الواقعة .

الفصل الثالث

صناعات المرأة

مارست المرأة فى البيئة البدوية من الصناعات والأعمال العامةمايلائم البيئة، وما تحتاج إليه الأسرة .

١ — قربت أولادها ،واشتركت فى الحرب ، وضمدت جراح المقاتلين، كما يتبين فى دراسة الحرب .

ودبرت شئون الأسرة ، كما يقول الشنفرى :

وأم عيال قد شهدتُ تَقُوتُهُمْ إذا أطعمتهم أَوْ تَحَتْ وأَقَلَّت

تخاف علينا الجوع إن هى أكثرت ونحن جياع ، أىَّ آلٍ تألَّت[1]

وهى تداوى الجرحى والمرضى بعيدة عن ميدان الحرب أيضاً ، فقد كانت لكعيبة بنت سعد الأسلمية خيمة بالمسجد تداوى فيها المرضى والجرحى ، وهى التى عالجت سعد بن معاذ من جرحه يوم الخندق[2] .

وكانت لرُفَيْدة الأنصارية خيمة فى المسجد تداوى فيها الجرحى ، وتحتسب بنفسها على خدمة جرحى المسلمين[3] .

واشتهرت بعضهن بالطب فى الجاهلية ، كزينب طبيبة بنى عوَّاد ، كانت تعالج الأبدان ، وتطب العيون ، وتداوى الجراح[4] .

لذلك يقول قيس بن الخطيم :

طعنتُ ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نَفَذٌ ـ لولا الشُّعاعُ ـ أضاءها

.. ..

---

(١) المفضليات ١/١٠٨ والأغانى ٢١/٩١ أو تحت : أعطت قليلا . تألت : أقسمت . آل : قسم . (٢) الطبقات الكبير ٨/٢١٣ والإصابة ٨/٧٦ . (٣) الإصابة ٨/١٠ وتهذيب التهذيب ١٢/٤١٨ وفيه أن رفيدة هذه هى التى سماها ابن سعد كعيبة .

(٤) الطبقات الكبير والإصابة .

يهون عليَّ أن تَرُدَّ جِرَاحُهـــا عيونَ الأواسى إذ حَمِدْتُ بَلاءها[1]

ويقول دراج لزوجته وقد طعن :

شُدِّى علىَّ العَصْبَ أم كَهمَسْ ولا تَهْلِكِى أذْرُعٌ وأرْؤُسْ
مقطَّعاتٌ ورقابٌ خُنَّسْ[2]

وكان محمد بن الجهم يقول : لاتتهاونوا بكثير مما ترون من علاج القوابل والعجائز ، فإن كثيرا من ذلك وقع إليهن من قدماء الأطباء[3] .

٢ — وكانت تغزل وتنسج ، ولم يكن أحب إليها فى فراغها من الغزل والنسج ، وقد مارستهما اليهوديات أيضا ، لأن النبى صالح أهل مِقْنا على أشياء ، منها أن يعطوه كل عام ربع ما اغتزلت نساؤهم[4] .

وقد مارسن مع الغزل نسج الأقمشة[5] . فالسيدة عائشة كانت تغزل[6] . وحث النبى على تعليم النساء الغزل وحببه إليهن بقوله : « نعم لهو المؤمنة فى بيتها المغزل » ، وذكر زياد بن السكن أنه دخل على أم سَلَمة وبيدها مغزل تغزل به ، فقال لها : كلما أتيتك وجدت فى يدك مغزلا . فقالت : إنه يطرد الشيطان ، ويذهب بحديث النفس ، وإنه بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أعظمكن أجراً أطولكن طاقة[7] .

وقد ذكر الشعراء هذه الحرفة ، قال جَنْدَل بن المثَنَّى الحارثى يصف سرابا :

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم ٥ مخطوط وشرح الحماسة للمرزوقى ١/١٨٥ الشعاع : الدم المنتشر . الأواسى : المداويات للجراح . ويذكر المرزوقى أنه ذكر النساء لأن الرجال كانوا يأنفون من الصناعات ويعلمونها الإماء والعبيد والحرائر اللائى لسن فى غاية بعيدة من الشرف .

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١١١ العصب : أطناب المفاصل وهو أيضاً الشد والطى وضرب من البرود ولعل المراد هنا السابرى . أم كهمس : زوجته . لا تهلك : لا تخفك . خنس : منخفضة منقبضة من الطعن .

(٣) الحيوان للجاحظ ٣/٣٢٢ (٤) فتوح البلدان ٦٧ .

(٥) فتوح البلدان ٦٠ (٦) الإصابة ٣/١٠٩ .

(٧) الأجر الجزل فى الغزل للسيوطى مخطوط والطبقات الكبير .

كأنه بالصَّحْصَحَان الأنْجَلِ قُطْنٌ سُخامٌ بأيادى غُزَّل[١]

وحَمَّس عبد الرحمن بن دارة قومه على الثأر ، فقال لهم إن لم تثأروا فكونوا نساء ، وامسكوا المغازل بدل الرماح :

لئن أنتم لم تثأروا بأخيكم فكونوا نساء لِلْخَلوق والكُحْل
و بيعوا الردينيات بالحَلْيِ واقعدوا عن الحرب وابتاعوا المغازل بالنَّبل[٢]

٣ — وكان بعضهن يحترف بالتجميل والتزيين ، مثل آمنة بنت عفان أخت عثمان بن عفان[٣] ، ومثل أم رِعْلة القُشَيْرية التي وفدت على رسول الله وقالت له : إنى امرأة مُقَيِّنة أُقَيِّن النساء وأزينهن لأزواجهن ، فهل هو حُوب فأثبط عنه ؟ فقال : يا أم رِعْلة ، قينيهن وزينيهن إذا كسدن[٤] . ولما اشترى النبى صفية من دِحْية الكلبى دفعها إلى أم سليم حتى تهيئها ، فمشطتها وعطرتها ونَمَّصَتْها ، واشتركت معها صواحب لها ، منهن أم سِنان الأسامية[٥] .

٤ — وبعضهن احترفن بالإرضاع ، ولاسيما أهل البادية ، إذ كان الحضر يسترضعون البدويات ، و يعطونهن أولادهم ليربينها .

و يظهر أن الذين كانوا يسترضعون لأولادهم هم الأغنياء القادرون على استئجار المراضع ، وأن المراضع كن من المحتاجات .

ومن هؤلاء المرضعات سَلْمَى بنت ظالم العامرية أرضعت ابن النعمان[٦] ، والسيدة حليمة السعدية أرضعت النبى صلى الله عليه وسلم[٧] ، وفى حديثها أنها خرجت ومعها زوجها فى نسوة من بنى سعد بن بكر تلتمس الرضعاء[٨] .

---

(١) لسان العرب ١٤/٤ وأساس البلاغة مادة سخم . الصحصحان : الأرض المستوية . الأنجل : الواسع . سخام : لين المس كالخز . والبيت فى الأساس منسوب إلى أبى النجم .
(٢) حماسة البحترى ١١ الخلوق : نوع من الطيب (٣) الإصابة ٨/٣ .
(٤) الإصابة ٨/٢٣١ (٥) الطبقات الكبير ٨/٨٦ (٦) الأغانى ١٠/٩ .
(٧) إنسان العيون ١/٩٦ والمعارف ٤٣ (٨) تاريخ الطبرى ٢/١٢٦ .

وقد أرضعت سفيان بن الحارث أيضا [١] ، ومنهن ثُوَيْبة مرضع حمزة ابن عبد المطلب [٢] ، وأم بُرْدة بنت المنذر بن زيد مرضع إبراهيم بن النبي منذ ولادته [٣] .

وكانت السيدة خديجة تسترضع لأولادها قبل أن تلد [٤] .

وإذا فقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم استئجار الظُّئورة ، كما كان العرب يفعلون [٥] .

على أن بعضهم كان يعيب الإرضاع ، ففي أمثالهم : تجوع الحرة ولا تأ كل بثدييها . وقد فسره أبو هلال بأنها تجوع ولا ترضع لقوم على جُعْل ، فيلحقها عيب ، ويقول : كان أهل بيت زُرارة حُضَّان الملوك ، فافتخر بذلك حاجب ابن زرارة بقوله :

حضَنَّا ابن ماء المزن وابن مُحَرِّق ... إلى أن بدت منهم لِحًا وشوارب

فعابه الناس وقالوا : ما رأينا من يفتخر بالمعايب غيره ، لأن الظئر خادم ، والخدمة تضع ولا ترفع . وقيل في تفسير المثل إن الحرة لاتهتك نفسها ، ولا تبدى ما لا ينبغى أن يبدى [٦] .

ولقد يعزز الترفع عن الإرضاع أن حسان بن ثابت رد على وفد تميم بمسمع من النبي وجاء في رده :

بني دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالا عند ذكر المكارم

هُبِلْتُمْ ، علينا تفخرون وأنتم ... لنا خَوَلٌ من بين ظئر وخادم

فقال رسول الله : لقد كنت غنيا يا أخا بني دارم - يريد الأقرع بن حابس - أن يذكر منك ما كنت ترى أن الناس قد نسوا [٧] .

---

(١) المعارف ٤١ (٢) إنسان العيون ١/٩٦ .
(٣) الاستيعاب ٢/٧٨٨ والإصابة ٨/٢١٥ (٤) الإصابة ٨/٦١ .
(٥) المبسوط للسرخسي ١٥/١١٨ .
(٦) جمهرة الأمثال ١/١٨٢ (٧) أسد الغابة ١/١٢٠ .

٦ — وكان منهن قابلات ، كسلمى امرأة أبي رافع ، كانت قابلة السيدة مارية القبطية ، فلما ولدت إبراهيم بَشّر به أبو رافع النبي فوهب له عبداً [١] ، وكانت قابلة للسيدة خديجة أيضا [٢] . وكانت سوادة أو سَوْدة بنت مِسْرَح قابلة للسيدة فاطمة حين وضعت الحسين بن علي [٣] .

ومنهن خافضات ، وكن محقِّرات ، ففي يوم أحد مر سباع بن عبد العزى الغُبْشاني على حمزة بن عبد المطلب فقال له : هلم إلى يابن مقطّعة البظور — وكانت أمه ختانة بمكة — فلما التقيا ضربه حمزة فقتله [٤] . وقد نصح النبي لأم عطية — وكانت تختن النساء — بقوله أَشِمّيه ولا تَنْهَكيه ، فإنه أسْرى للوجه ، وأحْظى عند الزوج [٥] .

٧ — ومنهن من كن ينسجن الحصُر ، وينمقنها ويزخرفنها ، فقد أخرج ابن سعد عن أم صفية خولة قالت: كنا نكون في عهد رسول الله وأبي بكر وصدر من خلافة عمر في المسجد نسوة قد تخاللْن ، وربما غزلت بعضنا فيه الخوص ، فأخرجنا منه عمر [٦] .

وكان بعض الحصر منمقاً جميلا ، يقول النابغة الذبياني في الأطلال التي تجعدت رمالها من الريح إنها كالحصير الذي نمقته الصانعات :

كأن مَجَرّ الرامسات ذُيُولَها   عليه حَصيرٌ نَمَّقَتْهُ الصوانع [٧]

٨ — واشتهرت رُدَيْنة بتقويم الرماح ، حتى نسبوا الرماح إليها ، فقالوا ردينية ورُدْن . وهي امرأة سَمْهَر ، وكانا يقومان الرماح بخط هَجَر [٨] .

٩ — وبعضهن يرعين الإبل والغنم . وسيرد في أعمال الإماء أنهن مارسن

---

(١) الاستيعاب ٢٢/١ (٢) الإصابة ٦١/٨ .
(٣) الإصابة ١١٧/٨ (٤) تاريخ الطبري ١٨/٣ .
(٥) الحيوان ٢٨/٧ والبيان والتبيين ٢١/٢ . أشمي : اقطعي قليلا . لا تنهكي : لا تبالغي في القطع (٦) الطبقات الكبير .
(٧) ديوان النابغة ٤٩ (٨) لسان العرب ٣٧/١٧ والقاموس مادة سمهر .

الرعى كالعبيد . ويظهر أن الرعى كان من أعمال العبيد والإماء ، فلم يمارسه من الحرائر إلا الفقيرات ، ولذلك يقول ذو الإصبع العدوانى فى خطابه لابن عمه ـ وكانت أمه أمة ـ :

عنى إليك فما أمى براعية ترعى المخاض ولا رأيى بمغبون[١]

وحدثت سلامة الضبية أو سلامة بنت الحُرّ قالت : مر بى رسول الله فى بدء الإسلام ، وأنا أرعى غنما لأهلى ، فقال لى : ياسلامة بم تشهدين ؟ قلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم أشهد أن محمدا رسول الله ، فتبسم ضاحكا[٢] .

وظل الرعى عملا لبعضهن إلى الإسلام ، فقد كان المجنون وليلى يرعيان غنما لأهلهما وهما صبيان عند جبل التَّوْباد ، وفيه يقول بعد كبره :

وأجهشْتُ للتَّوْباد حين رأيته وكبّر للرحمن حين رآنى[٣]

ويدل على رعيهما معا قوله :

تعلقت ليلى وهى ذات ذؤابة ولم يَبْدُ للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البَهْم ياليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البَهْمْ[٤]

وكانت الراعيات خبيرات بالمرعى ، فقد تخاصمت امرأتان إلى ابنة الخسّ فى مراعى أبويهما ، فقالت الأولى : إبل أبى ترعى الإسْليح . فقالت ابنة الخس: رَغْوة وصَريح ، وسنام إطْريح . قالت الأخرى : مرعى إبل أبى الخُلَّة . قالت ابنة الخس : سريعة الدِّرة والجِرَّة[٥] .

---

(١) الأمالى ١/٢٥٦ والمفضليات ١/١٥٨ المخاض : الحوامل من النوق أو الحوامل فى عشرة أشهر والمراد النوق مطلقاً .

(٢) الاصابة ٨/١١٠ (٣) الأغانى ٢/٥٢ .

(٤) الأغانى ٢/١١ .

(٥) البيان والتبيين ٢/١٣٢ السندوبى و ٢/١٦٢ الإسليح : بقلة من أحرار البقول تنبت فى الشتاء تسلح الإبل إذا استكثرت منها . الإطريح : الذى طال ومال أحد شقية الخلة : بضم الخاء شجرة شاكة وما فيه حلاوة من النبت . الدرة : كثرة اللبن . الجرة بكسر الجيم وتفتح ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، واللقمة يتعلل بها إلى وقت علفه .

٩ — وكانت الثريات يمارسن أعمال الرجال أحيانًا ، مثل طلاء النوق الجُرْب ، فقد كانت الخنساء تطلى نوق أبيها ، فرآها دريد بن الصمة فى مباذلها ، فأعجب بها وأحبها ، وقال فيها :

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ به — كاليوم طالَى أَيْنُقٍ جُرْبِ
متبذلاً تبدو محاسنه — يَضَعُ الهِناء مواضع النُّقْبِ
متحسِّراً نَضْحُ الهِناء به — نضحُ العَبير برَيْطة العَصْبِ[1]

وشبيه بهذا أن يدبغن الجلود ، ويزلن عنها اللحم ، وفى أمثالهم : « حَلَأَت جارية عن كوعها » أصله فى التى تضع الجلد على كوعها ، ثم تسحاه بالسكين ، فإن أخطأت قطعت كوعها[2] .

وحدثت أسماء بنت عُمَيْس أن رسول الله أتاها يوماً وقد هنأت ـ دبغت ـ أربعين جلداً . . . .[3]

١٠ — وكن يجتنين الكَمْأة ، ولم يكن هذا عمل الحقيرات وحدهن ، بل شاركت فيه الثريات ، فمثلا حليمة بنت فُضالة بن كَلَدة كانت مع صواحبها يجنين الكمأة وغيرها من نبات الأرض فى الربيع ، حين أبصرن أوس بن حجر طريحاً لا يستطيع الحراك ، إذ سقط من فوق ناقته . والدليل على ثراء أبيها قول أوس :

ولم تلهها تلك التكاليف أنها — كما شئت من أُكْرُومة وتَخَوُّدِ

---

(١) الأغانى ١٣/١٣٠ والوحشيات ١٧١ مخطوط والشعر والشعراء طبعة شاكر ٣٠٢ الهناء : القطران . النقب : الجرب . نضح الطيب : أثره فى الثوب . ريطة العصب : ملاءة مزخرفة .

(٢) جمهرة الأمثال ١/٢٣٧ ومجمع الأمثال ١/١٧٦ الكوع : طرف الزند الذى يلى الإبهام . الحلء : قطع اللحم عن الأديم والمعنى أنها قشرت اللحم من كوعها ، وهو يضرب لمن يتعاطى مالا يحسنه .

(٣) الطبقات الكبير ٨/٢٠٦

وقوله فى رثاء أبيها .

أبادُلَيْحَةَ من توصى بأرملة أم من لأشعث ذى طِمْرين مُحال؟
أبا دليحـة من يكفى العشيرة إذ أمسوا من الأمر فى لَبْسٍ وبلبال[(١)]

١١ — والروايات كثيرة فى معابة حلبهـا اللبن . من ذلك أن خالد بن جعفر أغار على رهط الحارث بن ظالم من بنى يربوع فقتل الرجال ، والحارث يومئذ غلام ، فبقيت النساء ، وكانت نساء بنى ذبيان لا يحلبن النعم ، فلما بقين بغير رجال طفقن يدعون الحارث ، فيشد عصاب النـاقة ثم يحلبنها ، ويبكين رجالهن ، ويبكى الحارث معهن ، فنشأ على بغض خالد[(٢)] .

ويذكر الميدانى أن النساء فى البادية كن لا يحلبن ، لأنه عار عندهن ، وإنما يحلب الرجال[(٣)] .

لذلك يقول النابغة الذبيانى فى الهجاء :

قد رأينـا مكان أمك إذ تمنــــع من دِرَّة اللَّقيح الفَصيلا[(٤)]

١٢ — وكان بعضهن يَرْقِين كخالدة بنت أَنَس الأنصارية ، فقد عرضت رقاها على النبى فأمر بها[(٥)] . ومثل الشفاء العَدَوية فإنها لما عرضت رقاها على النبى قال لها : ارقى بها وعلميها حفصة[(٦)] .

وكان منهن الفكهة المزَّاحة التى تؤنس النساء وتسليهن ، ففى سنن أبى داود : كانت امرأة مكية بطَّالة تضحك النساء ، وكانت بالمدينة امرأة مثلها ، فقدمت المكية المدينة فتعارفتا ، فدخلتا على عائشة فتعجبت من اتفاقهما ، وقالت

---

(١) الأغانى ١٠/٧و١٨ أشعث : مغبرالرأس من شدة بؤسه . ذوطمرين : لابس أسمالا .
(٢) الأغانى ١٠/١٦ (٣) مجمع الأمثال ٢/٣٣٥
(٤) ديوان النابغة ٦٤ (٥) أسد الغابة ٥/٤٣٣
(٦) الإصابة ٨/١٢١ وفتوح البلدان ٤٧٧ والطبقات ٨/٥٩ والاستيعاب ٢/٧٦١ .

للمكية : عرفت هذه ؟ قالت : لا . ولكننا التقينا فتعارفنا . فضحكت عائشة وقالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف(١).

١٣ — الكهانة والعرافة

وإذ كانت الكهانة عظيمة الخطر فى الحياة الجاهلية ، وإذ كانت نساء كثيرات قد اشتهرن بها ، فمن حقها أن أفردها بعناية خاصة . والكهانة بكسر الكاف حرفة الكاهن ، وبفتحها مصدر الفعل كَهَن ، وهى الإخبار بالغيب الذى سيقع(٢).

وللسابقين آراء فى وسائط الكاهن إلى معرفة الغيب(٣)، ليس من موضوعى أن أعرض لها . وهم ينظمون فى سمطها العرافين والزاجرين للطير والطارقين للحصا وغيرهم(٤). وإن كان ابن خلدون يفرق بين الكاهن والعراف بأن الكاهن أصفى روحا وأقوى مخيلة ، فهو يعتمد على روحه ، أما العراف فإنه أضعف منه ويعتمد على ظنه وترجيحه(٥). وبعضهم يقصر الكهانة على المستقبل والعرافة على الماضى . ولكن الأكثر على أنهما من واد واحد .

والكهانة قديمة النشأة جداً لأن الإنسان كان محاطاً بقوى خفية لا يستطيع أن يفهم كنهها ، وكان عاجزاً عن مقاومتها ، فحاول أن يستميلها بالتضرع تارة وبالفن أخرى ، فنشأ الدين والسحر ، وكانا وليدى هذا الجهد المزدوج ، وكان طبيعياً أن يلتقيا فى نقط عدة ؛ لأنهما يستعملان فى غرض واحد ، وإليهما يلجأ

---

(١) سنن أبى داود (٢) القاموس مادة كهن

(٣) مقدمة ابن خلدون ٣٦١ وشرح صحيح مسلم للنووى وشرح سنن أبى داود للخطابى وبلوغ الأرب ٣/٢٦٩.

(٤) مقدمة ابن خلدون ٣٦٩ والقاموس المحيط مادة عرف .

(٥) المقدمة ٣٧٣ .

الإنسان فى حال بؤسه أو خوفه ، تضرعاً أو خيفة ، رغبة أو رهبة . ومن العبث أن نبحث فيما إذا كان السحر وليد الدين أو الدين وليد السحر ، فالاعتقادان قد ظهرا فى وقت واحد ، أملاهما مظاهر العالم والطبيعة[١] .

وقد عرف العرب الكهانة ، وكثر فيهم الكهان والكواهن. فمن الكهان عُزَّى سَلمة ، وشِقّ بن أنمار ، وحازِى جُهَيْنة ، وسَطيح بن مازن الغسانى[٢] ، وخُنافِر بن التوأم الحميرى[٣] ، وسَواد بن قارب الدوسى[٤] . ومن العرافين رَبَاح ابن عِجْلَة عراف اليمامة ، والأبلق الأسدى عراف نجد[٥] ، وهما اللذان ذكرهما عروة بن حزام فى قوله :

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفيانى

فقالا: شفاك الله ، والله مالنا ... بماضمنت منك الضلوع يدان[٦]

أما النساء الكواهن فكثير :

١ — منهن عُفَيْراء الكاهنة الحميرية ، ومن قصتها أن مَرْثَد بن عبد كلال انتصر فى غزاة وغنم ، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه . ثم رأى رؤيا أذعرته فى منامه ، ولم يستطع أن يتذكرها فى صحوه فحزن ، وجعل يسأل الكهان فلا يعلمون ما بنفسه ، فاشتد حزنه وطال أرقه ، وكانت أمه قد تكهنت ، فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك ، إن الكواهن أهدى إلى ماتسأل عنه ؛ لأن أتباعهن من الجانّ ألطف وأظرف من أتباع الكهان . فأمر بحشد الكواهن إليه ، وسألهن فلم يجد عندهن علما . ثم اهتدى مصادفة إلى عفيراء ،

---

(١) مصر القديمة ٧/٦٣٠ سليم حسن ومقدمة الحضارات الأولى ٤٨ ــ ٥٦ جستاف لوبون .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٨٩و٣٥٨ .
(٣) بلوغ الأرب ٣/٢٩١
(٤) المرجع السابق ٣/٢٩٩
(٥) مقدمة ابن خلدون ٣٧٤
(٦) الأغانى ٢٠/١٥٥ والنوادر للقالى ١٦١ ومقدمة ابن خلدون ٣٧٣ .

فعرفت حلمه الذى كان قد نسيه ، وقصته عليه ، وأوّلته له ، فسرّ منها ، وأهدى إليها مائة ناقة كوْماء(١) .

٢ — ومنهن زَبْراء ، وهى أمة من مولدات العرب كانت تُخَوِيلة من بنى رئام ، وقد أنذرت بنى رئام وهم فى عرس لهم بأن بنى داهن يبيتون الشرلهم ، فكذبها بعضهم ، وبقوا فى عرسهم ، وصدقها آخرون فانصرفوا ، فطرقتهم بنو داهن وناعب فقتلوا من فى العرس(٢) .

٣ — ومنهن طَرِيفة الكاهنة (بضم الطاء وفتح الراء أو بفتح الطاء وكسر الراء ، أو ظريفة بالظاء المفتوحة) . وهم ينسبون إليها التكهن بسيل العرم : لأنها رأت فى كهانتها أن سد مأرب سيخرب ، وأنه سيأتى سيل فيدمر الجنتين ، وأنذرت بذلك عمرو بن عامر الذى يقال له مزيقياء بن ماء السماء ، فباع أمواله وارتحل هو وقومه حتى انتهوا إلى مكة ، وكانت طريفة معهم ، ثم أصابتهم الحمى ، فأشارت عليهم أن يتفرقوا فى جهات أخر ، فأطاعوها(٣) .

٤ — ومنهن عرافة الحجاز ، وهى التى احتكم إليها عبد المطلب بن هاشم حين هم بذبح ابنه عبد الله ، ومنعه بنوه وأخواله بنو مخزوم وعظماء قريش ، وذهبوا إليها يسألونها ، فقالت : كم الدية فيكم ؟ قالوا ، عشر من الإبل . قالت : فارجعوا ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشرا من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه . فعادوا وضربوا بالقداح ، فكانت تخرج على عبد الله ، حتى بلغت مائة ، فخرجت على الإبل فذبحوها وتركوها للآكلين

---

(١) بلوغ الأرب ٣/٢٩٦ . (٢) الأمالى ١/١٢٦ .

(٣) مروج الذهب ١/٢٣٩ وأخبار مكة للأزرقى ٥٢ـ ٥٥ والأغانى ١٣/١٠٥ ومجمع الأمثال للميدانى ١/٢٥٣ وجمهرة الأمثال لأبى هلال ١/٢٨٦ والأعلاق النفيسة لابن رسته ٧/١١٤ .

ونجا عبد الله[١].

٥ — ومنهن كاهنة بنى سعد اسمها هُذَيْم ، وكانت بالشام ، وهى التى كان يريد الاحتكام إليها عبد المطلب وقريش حين تنازعوا فى حفر زمزم[٢].

٦ — ومنهن الغَيْطَلَة ـ كاهنة من بنى مرة بن عبد مناة بن كنانة ، وهى أم الغياطل ـ التى قيل إنها تنبأت ببعثة النبى عليه الصلاة والسلام[٣]، وفى مسند أحمد ابن حنبل أن كاهنة تنبأت لقريش بمبعث الرسول قبل البعثة بعشرين عاما[٤].

٧ — ويطول القول إذا فصلنا أخبار هؤلاء وأخبار غيرهن ، وحسبنا أن نشير إلى بعضهن كفاطمة بنت مرّ الخثعمية[٥]، والزرقاء بنت زهير[٦]، وكاهنة بنى حَدَس[٧]. وبعضهن كن حسيبات كأم مرثد السابقة ، وسلمى الهمدانية[٨]، وغيرها[٩].

سجع الكواهن :

كان الكهان والكواهن يعمدون إلى لغة مسجوعة ، لا فرق فيها بين سجع الرجال وسجع النساء ، مثل قول زبراء لبنى رئام تنذرهم بهجوم أعدائهم : واللَّوح الخافق ، والليل الغاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادى ليأدو خَتْلا ، ويَحْرق أنياباً عُصْلا ، وإن صخر الطود لينذر ثُكْلا ، لا تجدون عنه مَعْلًى[١٠].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/١٦٦ وأخبار مكة للأزرق ٢٨٨ وتاريخ الخميس ١/٢٠٧ وتاريخ الطبرى ٢/٢٧٤ وفى تاريخ الخميس أن اسمها سجاح أو قطبة .

(٢) سيرة ابن هشام /١٥٥١ (٣) سيرة ابن هشام ١/٢٢٥

(٤) المسند ١/٣٣٢ وتاريخ ابن عساكر ٣٦٧ .

(٥) مجمع الأمثال ٢/٤٦ (٦) الأغانى ١١/١٥٥

(٧) سيرة ابن هشام ٣/٤٣٨

(٨) الأمالى ٢/١٢١ . (٩) جمهرة خطب العرب ١/٢٣٩ ـ ٣٠٢.

(١٠) الأمالى ١/١٢٦ اللوح : الهواء . يأدو : يختل . عصلا : معوجة . معلى : منجاة .

ومثل قول طريفة لقومها وقد أصابتهم الحمى فى مكة : « من كان منكم ذا همٍّ بعيد، وجمل شديد ، ومزاد جديد فليلحق بقصر عُمَان المشيد . ومن كان منكم ذا جلد وصبر ، على أزمات الدهر ، فعليه بالأراك من بطن مُرّ . ومن كان منكم يريد الراسيات فى الوَحْل ، المطعمات فى المَحْل ، فليلحق بيثرب ذات النخل . ومن كان منكم يريد الخمر والخمير ، والمُلْك والتأمير ، ولبس الديباج والحرير ، فليلحق ببُصْرى وعَوِير . ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق ، والخيل العِتاق ، وكنوز الأرزاق ، والدم المهراق ، فليلحق بأرض العراق[١] .

ومثل قول الزقاء بنت زهير وقد سألها قومها حين نزلوا بهجر : ما تقولين يازرقاء ؟ قالت : « سَعَفٌ وإهان ، وتمر وألبان . خيرٌ من الهوان . . . »[٢] .

وكان هذا السجع ضروريا للكهان والكواهن ، لأن له رنيناً موسيقياً ، ووقعا جميلا ، فيؤثر فى النفس ، وتجتذب موسيقاه قلوب السامعين ، فيموه عليهم الكاهن أو الكاهنة ، ويمتلك عواطفهم ، ويخدر وعيهم ، ويحدثهم بما يزعم أنه عليم به ، فيسمع الناس عنه مصدقين لما يقول ، غير متبصرين فى نقد ما يسمعون وتقصى معانيه . لذلك كثيراً ما لجأ الساجعون من الكهان إلى نوع من الغموض ، لتحتمل الكلمة أو الجملة عدة معان ، وليذهب السامعون فى فهمها كل مذهب . « والترنيم هو الأساس الذى قام عليه السحر ، ومن المهم كما يقول المصريون القدماء أن يكون الصوت مضبوطاً ، لأن الصوت هو الذى يثير القوى الخفية . فالسحر نوع من الموسيقى المتحجرة كما يقول كمباريو ، وما يصدق على الموسيقى يصدق على الشعر أيضاً[٣] .

---

(١) أخبار مكة للأزرقى ٥٢ ومروج الذهب ١/٢٣٩ والأعلاق النفيسة ٧/١١٤ ومجمع الأمثال ١/٥٢٣ .

(٢) الأغانى ١١/١٥٥ ومعجم ما استعجم للبكرى ١/٢٢ .

(٣) مبادىء علم الاجتماع الدينى ٤٧ تأليف باستيد ترجمة محمود قاسم .

لذلك نهى النبي عن سجع الكهان خاصة[١] .

دلالة الكهانة على علو مكانة المرأة :

ومما يسترعى النظر أن الأحداث الكبار ، والهجرات المشهورة ، وتفرق القبائل فى أماكن شتى ، كانت مصحوبة بذكر الكاهنات وسجعهن ، وقد سبق سجع طريفة لما تنبأت بسيل العَرِم ، ولما أشارت على قومها بالتفرق من مكة فأطاعوها ، ونزلوا بأماكن شتى[٢] . كذلك لما تفرقت قضاعة فى البلاد ونزل بعضهم بهجر أشارت عليهم بالرحلة إلى الحيرة فأطاعوا[٣] .

وكذلك سبق أن عبد المطلب لما نازعته قريش فى زمزم همّ بالاحتكام إلى كاهنة بالشام ، وأنه احتكم إلى أخرى بالحجاز لما عزم على قتل ابنه عبد الله ، وأن كاهنة تنبأت بالبعثة المحمدية .

ولست أريد بذكر هذا أن يكون تصديقاً للكواهن ، وإنما أريد أن العرب كانوا يُجلون الكهان - من رجال ونساء - ويحتكمون إليهم فى المشكلات ، ويصدرون عن رأيهم . وقد نسبوا إلى الكواهن أحداثا أعظم مما نسبوا إلى الكهان ، وسواء أكان لها نصيب من الصحة أم لم يكن ، فإنها دليل على أن المرأة كانت فى نظرهم جديرة بأن تُسْتَفْتى ، وأن تنبىء بالغيب ، وأن يطاع نصحها ، وتتبع مشورتها ، كما سنرى عند الأشوريين .

شك المرأة العربية فى الكهانة :

شك رجال فى صدق الكهان والكواهن ، مثل المرقَّم[٤] ، وربيعة

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٣٤ - ٢٣٦ .

(٢) أخبار مكة ٥٢ - ٥٥ ومعجم البلدان ٧/٣٥٥ ومروج الذهب ١/٢٣٩ ومجمع الأمثال ١/٢٥٣ .

(٣) الأغانى ١١/١٥٥ (٤) حماسة البحترى ٢٥٥ والأغانى ٩/١٥٧ .

ابن مقروم[١] ، وعلقمة بن عبدة[٢] ، والنابغة الذبيانى[٣] ، ولبيد[٤] .

وشكت نساء فى صحة الكهانة كما شك الرجال. من هؤلاء هند بنت عتبة ، فإن زوجها الفاكه بن المغيرة ظن بها سوءا فألحقها بآلها ، ولم تكن تعرف لنفسها جرما ، واستوثق أبوها من براءتها ، فخرج بها فى وفد من النساء والفاكه معه إلى بعض الكهنة ، فلما شارفوا بلده تغيرت هند وامتقع لونها ، فقال لها أبوها : إنى أرى ما بك ، وما ذاك إلا لمكروه عندك ، فهلا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرنا . قالت : يا أبت إن الذى رأيت منى ليس لمكروه عندى ، ولكنى أعلم أنكم تأتون بشراً يخطىء ويصيب ، ولا آمن أن يسمنى ميسما يكون علىّ عارا عند نساء مكة . قال لها : فإنى سأمتحنه قبل أن نسأله . وامتحنه فعرف صدقه ، ثم قصوا عليه أمر هند فقضى ببراءتها[٥] .

الكهانة فى الأمم :

لا يكاد يخلو شعب من الكهانة ، فقد كان الأشوريون ـ وهم أقدم الأمم السامية ـ يعتقدون أن المرأة وحدها هى التى تستطيع أن تفهم السحر وتمارسه ، وأن تعرف الغيب وتتكهن به[٦] .

وكان فى مصر كاهنات ، زعم هيرودوت أنه كان محرما على المرأة أن تشغل وظيفة كاهنة سواء أكان ذلك لمعبود أم لمعبودة . وهذا قول لا نصيب له من الصحة ، لأن النساء كن يستخدمن فى المعابد ، وكثيراً ما وجدنا ذكراً

(١) حماسة البحترى ٢٥٧ . (٢) المفضليات ٢/٢٠١

(٣) ربيع الأبرار ١٢٣ مخطوط والعمدة ٢/٢٠٢ والبيان والتبيين ٣/١٨٤ والحيوان ٣/١٣٨ .

(٤) ديوان لبيد (٥) شرح نهج البلاغة ١/١١٢ .

(٦) مقال المذكر والمؤنث : . عمر الدسوقى . الرسالة العدد (٢٨٥) ١٩ ديسمبر ١٩٣٨ عن :

some. A. spects of Gender in the semitic. Languages Winsing.

لـكاهنات ، وخاصة فى عبادة الإلهات كالإلهة حاتحور والمعبودة نيت[(١)] .

وليس هذا بعجيب فى الشرق عند قدماء المصريين وغيرهم ، لأن السحر كان عظيم الأثر فى حياتهم[(٢)] .

وكان فى اليونان والرمان كهان وكاهنات ، وإن كان النساء أقل عدداً[(٣)] .

ثم كانت فى أوروبا فى العصور الوسطى ساحرات قاسيات يزعمن أنهن على صلة بالله ، ويرى الناس أنهن على صلة بالشيطان ، وقد حوكمن أمام محاكم التفتيش وقطعن ، وأحرقن ورجمن ، وأحرقت منهن آلاف فى دول شتى[(٤)] .

١٤ — معرفتها القراءة والكتابة :

نعرف أن عرب الجاهلية كانوا يتعلمون بالتجربة والملاحظة والمخالطة ، وكان بعضهم يتميز بلون من المعرفة يشتهر به . فالبداوة كانت غالبة على العرب ، وهى طور اجتماعى طبيعى تجتازه الأمم فى سيرها إلى الحضارة ، ومن شأنها ألا تتيح للبداة دراسة منظمة ، ولا تفكيراً متفلسفاً ، ولا تعمقاً فى الربط بين الأحداث وأسبابها والمعلولات وعللها ، وإذا جاءت حكمة على لسان أحدهم فهى نتاج طبعه ، وخَطْرةٌ من فكره .

وبديهى أننى لا أعنى بالثقافة أو المعرفة أن العرب كانت لهم علوم ذات أصول وقواعد ، لأن طور البداوة يناقض ذلك ، وإنما أعنى المعرفة التى تستمد من الفطرة والبيئة والأحداث ، كالذى قاله ابن خلدون فى طب الجاهلية : « وللبادية من أهل العراق طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثاً عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ، ولا على موافقة المزاج . وكان عند العرب

---

(١) ديانة قدماء المصريين ٧٣ إستيندروف الألمانى ترجمة سليم حسن .

(٢) المرجع السابق ٨٣ — (٣) الإلياذة ٤٦٤ .

(٤) المرأة فى مختلف العصور ٤٣ .

من هذا الطب كثير ، وكان منهم أطباء معروفون[١] » .

وأقصد فى هذا الفصل إلى تبيان نصيب المرأة من الثقافة فى العصر الجاهلى ، لأَرُوزَ قيمتها ومكانتها من هذه الناحية أيضاً ، ولأتعرف قدرها بالقياس إلى أقدار الرجال .

١ ــ لكنى أرى أن أقدم للموضوع بجلاء هذه الفكرة : أ كان العرب يعرفون الكتابة والقراءة ؟ أم أنهم كانوا كما أشيع عنهم جهلة لا يكتبون ولا يقرءون ؟ ثم أبين نصيب المرأة من هذا الجهل أو من هذا العلم .

أما العرب البداة فإنهم ما كانوا يعرفون القراءة والكتابة ، لأن الحياة البدوية تباعد ما بينهم و بين هذه المعرفة ، وهذا شأن البداة فى كل الأمم .

وأما أهل الحضر فقد كان بعضهم على علم بالكتابة والقراءة قبل بزوغ الإسلام ، والأدلة على ذلك كثيرة .

فقد وُجِدَتْ كتابات عربية فى جنوبىّ الجزيرة من عهد دولة مَعين ، وسبأ وحِمْيَر ، وجمع المنقبون مئات الألواح والصور منها . وقد كتب العرب على قبة غُمْدان ، وعلى عمود مَأْرِب ، وعلى ركن المُشَقَّر ، وعلى الأَبْلَق الفرد[٢] .

ووردت أخبار شتى عن معرفة أهل الحيرة للكتابة ، منها أنهم كانوا يعلمون أبناءهم الكتابة فى الصغر ، كما تعلم حماد بن زيد بن أيوب الكتابة فى داره بعد مقتل أبيه ؛ فخرج من أكتب الناس ، وصار كاتب النعمان الأكبر ، ثم ولد له ولد سماه زيداً باسم أبيه . وكان لحماد صديق من الدهاقين العظماء يقال له فروخ ماهان ، وكان محسناً إلى حماد ، فلما حضرت الوفاة حماداً

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١١٠٩ .

(٢) الحيوان للجاحظ ١/٦٨ غمدان : قصر بين صنعاء وطيوه . مأرب : بين صنعاء وحضرموت باليمن . المشقر : حصن بالبحرين . الأبلق الفرد : حصن السموءل بتيماء .

أوصى بابنه زيد إلى الدهقان ، وكان من المرازبة ، فأخذه عنده مع ولده ، وكان زيد قد حذق الكتابة العربية قبل أن يصير إلى الدهقان ، فلما أخذه علمه الفارسية فلقنها ، وتولى كتابة العربية لكسرى[1] .

تعلم عدى بن زيد فى كُتَّاب عربى ثم كتَّاب فارسى ، وصار من أكتب الناس بالعربية والفارسية وكتب بالعربية فى ديوان كسرى[2] ، ثم كتب لكسرى ابنه زيد من بعده[3] . وقد تعلم المرقِّش الأكبر هو وأخوه حَرْمَلة الكتابة من نصرانى بالحيرة ، وكان يكتب شعره[4] .

وقد دونوا تاريخهم فى الجاهلية ، فإن هشام بن محمد الكلبى قال : كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من ولى منهم لآل كسرى ، وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة[5] .

ودونوا الشعر أيضاً ، فقد ذكر أبو جعفر النحاس ، أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزانتى ، وقال ابن رشيق مثل ذلك[6] . وأرجح أن هذا الملك هو النعمان بن المنذر ، لأن ابن سلام يقول : وقد كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو ماصار منه[7] . وابن جنى يقول: أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب فى الطُّنُوج ـ الكراريس ـ ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبى عُبَيْد قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره فأخرج تلك الأشعار[8] .

---

(١) الأغانى ٢/١٠٠

(٢) الأغانى ٢/١٠١ (٣) الأغانى ٢/١٠٩

(٤) الأغانى ٥/١٨١ والشعر والشعراء ٥٥ وشرح المفضليات لابن الأنبارى ٤٦٠ والمعارف ٣١٩ .

(٥) تاريخ الطبرى ٢/٣٧ (٦) العمدة ١/٦١ .

(٧) طبقات الشعراء لابن سلام ٢٣ (٨) الخصائص لابن جنى ٣٩٣

وقد فصلت القول فى تدوينهم بعض الشعر فى العصر الجاهلى بكتابى (الحياة العربية من الشعر الجاهلى[١]) .

وقد عرف الحجازيون الكتابة ، لأنه لما ظهر الإسلام كان فى قريش سبعة عشر رجلا يكتبون ، ذكر أسماءهم البلاذُرى[٢] .

وقد كان جماعة من اليهود يكتبون الخط العربى ويعلمونه صبيان المدينة فى يثرب ، فتعلم منهم الأوس والخزرج ، فكثر كاتبوهم من قلة ، وبلغوا أحد عشر ، منهم حُضَيْر الكاتب ، وسُوَيْد بن الصامت ، وعبد الله بن أبىّ[٣] .

وفى موقعة بدر فادى بعض المشركين أنفسهم بتعليم عشرة من المسلمين الكتابة[٤] ، وهذا دليل على معرفتهم بها .

وقد ذكر ابن سلام أن الناس اجتمعوا يوماً بمكة وعلى باب دار الندوة مكتوب :

أَلْهَى قُصَيّاً عن المجد الأساطير ورشوةٌ مثل ما تُرْشَى السَّفاسير
وأَكْلُها اللحم بَحْتاً لا خليط له وقولُها رحلَتْ عِيرٌ أتتْ عِير

فأنكروا ذلك وقالوا ما قالها إلا ابن الزِّبَعْرَى[٥] .

وروى أن ورقة بن نوفل كان فى الجاهلية يكتب كتابة عبرية[٦] .

ثم إننا نعلم أن قريشاً تآمرت على النبى ومن أسلم معه ، وتعاقدت فى صحيفة

---

(١) الطبعة الرابعة

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/٦٠ وفتوح البلدان للبلاذرى ٤٧١ وعيون الأخبار ١/٤٣ والمعارف ٢٧٣ والمزهر ٢/٣٥١ .

(٣) فتوح البلدان ٤٧٣ ـ ٤٧٩ .

(٤) الكامل للمبرد ١/٢١٣ والسيرة الحلبية ٢/٢٥٤ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ١/٢٤٧ وإمتاع الأسماع ١/١٠١ .

(٥) طبقات الشعراء ١٩٧ الأساطير : الخرافات . السفاسير : ج سفسير وهو السمسار . أكلها اللحم بحتاً : كناية عن الفقر لأنهم يأكلون اللحم بغير خبز .

(٦) الأغانى ١٣/٢٠ .

مكتوبة على أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، وعلقوا الصحيفة فى الكعبة ، وقد دعا رسول الله على كاتبها فشل بعض أصابعه[١] .

وقد كتب النبي إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وإلى ابنَىْ الْجُلَنْدَى ملك عمان : جيفر وعياذ أو عباد ، وإلى العباهلة من حمير ، وإلى هوذة بن على ، وإلى الملوك والعظماء[٢] ، وكان له نحو أربعين كاتبا لكل منهم عمل أو أكثر ، وهم كلهم أو جلهم عرفوا الكتابة قبل الإسلام .

ثم إن فى اللغة كلمات كثيرة تدور حول الكتابة وما يكتب فيه وبه[٣] ، والشعر الجاهلى حافل بالدلالة على الورق الذى يكتب فيه .

فمثلا يقول الحارث بن حِلِّزة إن آثار الديار تشبه صحائف الفرس :

لمن الديارَ عَفَوْنَ بالحِبْسِ آياتُهـــا كمَهَارِق الفُرْسِ[٤]

وهو نفسه يذكر أن حلف ذى المجاز كان مكتوبا :

واذكروا حلف ذى المجاز وما قُدِّ م فيـه العهودُ والكُفَلَاء

حَذَرَ الخَوْنِ والتعدى وهل تَنْقُضُ ما فى المَهَارِق الأهواء[٥]

لأنهم كانوا فى الجاهلية يدعون من يكتب لهم الحلف والهدنة ، تعظيما للأمر ، وتبعيداً من النسيان . والمهارق التى وردت فى قول الحارث بن حلزة ليس يراد بها الصحف والكتب ، لأنه لا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو عهود وميثاق وأمان[٦] .

ويقول البُعَيْث بن حُرَيْث الحنفى :

لمن طلل كروضات السخال تأبد كالمهاريق البوالى[٧]

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٧٢ (٢) الحيوان ١/٩٨ .

(٣) بلوغ الأرب ٣/٣٦٧ ـ ٣٧٩ .

(٤) المفضليات ١/١٣٠ المهارق : جمع مهرق : الصحيفة معرب .

(٥) البيان والتبيين ٣/٦ وشرح القصائد العشر للتبريزى ٣٦٩

(٦) الحيوان ١/٦٩ (٧) معجم البلدان ٤/٣١٧

على أننا نجد فى شعر أبى ذؤيب الهذلى وصفا لكاتب يمنى يكتب دينا له على رجل مشهور بالوفاء :

عرفتُ الديار كرقْم الدوا ة يَزْبُرُه الكاتب الحِمْيَرِىُّ
برقْم ووشْيٍ كما زُخْرِفَتْ بميشمها المزدَهاة الْهَدِىُّ
أدان ، وأنبأه الأولو ن أن المدان الملىُّ الوفىّ
فَنَمْنَمَ فى صُحُف كالرِّيا ط فيهن إرْثُ كتابٍ مَحِىُّ[1]

ونجد فى شعر عِلْباء بن أرقم ذكراً للدَّين المكتوب :

أخذت لدَيْنٍ مطمئنّ صحيفةً وخالفتُ فيها كل من جار أو ظلم[2]

وكذلك فى شعر الممزق العبدى :

فلا أنا مولاهم ولا فى صحيفة كفلتُ عليهم والكفالة تَعْتَقِى[3]

وقد أكثروا من تشبيه آثار الديار ، وتموجات رمالها ، والخطوط المنتظمة التى تصنعها الرياح فيها ، بالكتابة وبالصحف المكتوبة ، وأكثروا من هذا التصوير كثرة تدعونا إلى أن نصحح نظراتنا إلى العصر الجاهلى .

فلم تكن الكتابة مجهولة للعرب هذه الجهالة التى تحكى عنهم ، لأن هذا الفيض من التشبيه ينبىء عن معرفة بالورق و بالكتابة عند بعض الشعراء المشبهين على الأقل ، ومن خصائص التشبيه فى العصر الجاهلى أنه لا يجنح إلى العلائق الظاهرة والمشابهات السطحية قدر ما يجنح إلى الربط الوثيق بين الأثر النفسى للمشبَّه وللمشبَّه به ، فالتشبيه هنا ليس منبعثاً عن تخيل أو محاكاة ، وإنما هو تصوير لعلاقة يجدها الشاعر بين منظر الأثر العافى و بين الكتابة .

ومن ذلك تصوير معاوية بن جعفر عم لبيد لآثار الدار بأنها كتابة

---

(١) ديوان الهذليين ١/٦٤ . يزبره : يذبره : يكتبه . الميشم : الإبرة التى تشم بها المرأة كفها . المزدهاة : المعجبة . الهدى : العروس . أدان : باع إلى أجل فصار له دين على المشترى . الأولون : كبار السن . الملى : الموسر . الرياط : جمع ريطة وهى الملاءة لم تلفق . إرث : أصل .

(٢) الأصمعيات ١٨٠ .

(٣) الأصمعيات ١٩٠ تعتق : تحتبس أى أن الكفالة تحبس صاحبها على الوفاء بما كفل

ظاهرة واضحة ، خطها كاتب ماهر منمق يتخوف أن يلحقه عيب :

فإن لها منازلَ خاويات ... على نَمَلَى وقفتُ بها الركابا

من الأجزاع أسفلَ من نُمَيْلٍ ... كما رجّعتَ بالقلم الكتابا

كتابَ محَبّرٍ هاجٍ بصير ... يُنَمِّقُه وحاذرَ أن يعابا[١]

وقول الأخنس بن شهاب التغلبي إن الآثار تشبه كتابة العنوان ، لأن العنوان مجود الخط واضحه :

لابنة حِطّانَ بن عوف منازل ... كما رقّش العنوانَ فى الرّق كاتب[٢]

وقول امرىء القيس إن الآثار مثل الكتاب المخطوط فى سعف النخل الوارد من اليمن معداً للكتابة :

لمن طلل أبصرته فشجانى ... كخط الزبور فى العَسيب اليمانى[٣]

وقول طرفة إنها كسطور الكتابة الجميلة المزينة التى نمقها كاتب فى وضح النهار ، وذلك أجود لها :

أشجاك الربع أم قِدَمُه ... أم رَمادٌ دارسٌ حُمَمُه

كسطور الرق رقّشه ... بالضحا مرقّش يَشِمُه[٤]

ومثل هذا ورد فى شعر حاتم[٥] والمرقش الأكبر[٦] وثعلبة بن عمرو العبدى[٧]

وقد جاء ذكر الورق الشامى فى وصف طرفة لناقته ، وتشبيه بياض خدها بالقرطاس[٨] .

---

(١) المفضليات ٢/١٥٧ نَمَلى : ماء بقرب المدينة . الأجزاع : منعطفات الوادى . نميل تصغير نملى على حذف الزيادة كما قال البكرى . رجعت الكتابة : عدت عليها بالقلم . محبر : محسن . هاج : قارىء .

(٢) المفضليات ٢/٤ والأخنس هذا جاهلى لا صحابى كما توهم الفيروزا بادى إذ التبس عليه بالأخنس بن شريق .

(٣) ديوان امرىء القيس ١٨٦ .

(٤) ديوان طرفة ٦٨ والأمالى ٢/٢٤٦ الرق : الصحيفة البيضاء . يشمه : يزخرفه .

(٥) شعراء النصرانية ١١٨

(٦) البيان والتبيين ١/٢٨٨ والأمالى ٢/٢٤٦

(٧) المفضليات ٢/٨١

(٨) ديوان طرفة ١٩ .

وجاء ذكر المجلة فى مدح النابغة للغساسنة ، والمجلة الصحيفة ، فقد قال أبو حاتم إن بيت النابغة يروى مجلتهم ومحلتهم ، فمن روى مجلتهم فقد أراد الصحيفة ، ومن روى محلتهم فقد أراد بلاد الشام . قال النابغة :

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غيرَ العواقب[١]

ثم إن القرآن الكريم كثيراً ما ذكر الكتابة والصحف والقلم والقراءة ، وليس بمعقول أن يخاطب بهذا قوماً يجهلون الكتابة والقراءة . من ذلك قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق[٢] و : « كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون »[٣] و « فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة »[٤] و « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه »[٥] و : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً »[٦] و : «إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى »[٧] و : «رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة . وماتفرق الذين أوتوا الكتاب إلا بعد ما جاءتهم البينة »[٨] و : « لقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »[٩] و : « لو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هـذا إلا سحر مبين »[١٠] و : « هذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه »[١١] و : « وماقدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونهـا وتخفون كثيراً »[١٢] .

---

(١) الأمالى ١/٢٤٥ (٢) سورة العلق آية ١ .
(٣) سورة الانفطار آية ١٠ (٤) سورة عبس آية ١٤ .
(٥) سورة الحاقة الآية ١٩ (٦) سورة الإسراء ١٤ .
(٧) سورة الأعلى ١٨ (٨) سورة البينة ٢ (٩) سورة الأنبياء ١٠٥
(١٠) سورة الأنعام ٧ (١١) سورة الأنعام ١٥٥ .
(١٢) سورة الأنعام ٩١

وإذاً فليس بصحيح ما شاع عن جهل العرب بالخط، سواء فى ذلك ما يكرره بعض المؤرخين المسلمين وما يقرره بعض المستشرقين مثل نيكلسون [١] .

ب — وإذ فما معنى أميين فى القرآن الكريم ؟

كيف تتفق معرفة العرب القراءة والكتابة مع قوله تعالى: « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »[٢] ؟

الذى يظهر من سياق الآية الكريمة ومن تفسيرها أنه لا تعارض ، ذلك بأن العرب أمة أمية ، على معنى أنهم ليس لهم كتاب سماوى يقرءونه ويدينون به ، فبعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة وهدى ، يهديهم بالقرآن الكريم ، ويعلمهم ما فيه من أمر الله ونهيه وشرائع دينه ، وإلى هذا التأويل ذهب قتادة وابن زيد[٣] . ويعزز هذا التأويل ختام الآية « وإن كانو من قبل لفى ضلال مبين » أى أن هؤلاء الأميين كانوا قبل النبى وقبل القرآن الكريم فى ضلال من عقائدهم .

على أن النيسابورى يورد رأيا آخر فى تفسير الأميين ، فيقول إن الكلمة منسوبة إلى أمة العرب أو أم القرى[٤] ، ويشاركه فى ذلك ابن عبد ربه[٥] ، وهو رأى ضعيف .

وأما قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل . . . . . فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى . . .[٦] » . فإن الأمى هو النبى صلى الله عليه وسلم[٧] ، إما لأنه لم يقرأ الكتب التى كانوا

---

(١) Nicholson. P. 31

(٢) سورة الجمعة ٢

(٣) تفسير الطبرى ٢٨/٦١ — ٦٢ .

(٤) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٢٨/٦٤ .

(٥) العقد الفريد ٢/١٦٢ المطبعة الشرفية .

(٦) سورة الأعراف ١٥٧ و ١٥٨

(٧) تفسير الطبرى ٩/٥٦ .

يقرءونها و يدينون بها ، و إما لأنه لم يطالع كتابا ولم يصاحب معلما[١] .

وفى قوله تعالى «ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى و إنهم إلا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم و ويل لهم مما يكسبون»[٢] . فإن المراد أناس من اليهود ، وهم أميون أى لا يقرءون ولا يكتبون ، كقوله صلى الله عليه وسلم « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » أو أنهم لا يحسنون أن يكتبوا فيطالعوا التوراة .

وروى عن ابن عباس أن الأميين قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتاباً أنزله ، فكتبوا كتاباً بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهّال : هذا من الله . وقال قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ، ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله[٣] .

و إذا فليست كلمة أميين فى القرآن الكريم دالة على العرب وحدهم ، فقد أطلقت على اليهود أيضاً ، ولم يتفق المفسرون على أن معناها الجهلة بالقراءة والكتابة ، فقد ذهب بعضهم إلى أنهم الذين ليس لهم كتاب سماوى يدينون به ، أو إلى أنهم الذين لا يحسنون أن يكتبوا و يقرءوا .

لكنى أرجح التأويل الأول، وهو أن الأميين من ليس لهم كتاب سماوى.

وعلى فرض أن الأميين هم الذين لا يقرءون ولا يكتبون ، فإن القرآن الكريم أطلق هذا الوصف مراعياً الحال العامة فى العرب ، لأن أكثرهم لا يقرءون ولا يكتبون ، وشتان بين أن يكون الشعب كله جاهلا بالكتابة ، و بين أن تكون الكثرة جاهلة .

وهذا الحكم لا يتعارض مع ما أسلفت من معرفة العرب بالكتابة ،

---

(١) النيسابورى ٩/٥٩ والعقد الفريد ٢/١٦٢ (٢) سورة البقرة ٧٨ و ٧٩ .
(٣) تفسير الطبرى ١/٢٦٩ والنيسابورى ١/٣١٨ .

لأننا فى مصر فى القرن العشرين ما زلنا نحارب الأمية المتفشية ، على أن فى مصر بضعة ملايين يقرءون ويكتبون ، ومازلنا نقول إن مصر قطر زراعى ، ناظرين إلى غلبة الزراعة على بنيها ، وإن كان فيها كثير من الصناع والتجار والموظفين والعلماء .

حـ — كان بعض النساء يعرفن الكتابة والقراءة وبعضهن يعلمنها ، منهن فاطمة بنت مُرّ الخثعمية ، كانت قد قرأت الكتب فى الجاهلية(١) :

وقد تعلم حماد بن زيد بن أيوب الكتابة من أمه بعد قتل أبيه ، ثم كان من أكتب الناس ، وكتب للنعمان الأكبر(٢) .

ومنهن الشّفاء بنت عبد الله بن عبد شمس القرشية العدوية ، كانت تكتب وترْقِى . وقد قدمت على النبي قبل الهجرة فقال لها : ما عليك أن تعلمى حفصة رُقْية النملة كما علمتها الكتابة(٣) . فكانت حفصة وأم كلثوم من زوجات النبي تكتبان ، وكانت عائشة وأم سلمة تقرآن المصحف ولا تكتبان(٤) .

ولا شك فى أن هؤلاء النسوة القارئات الكاتبات قليل ، لأن طبيعة البيئة وطبيعة العصر كانت تقتضى ذلك ، فلم تكن هنالك مدارس يتردد عليها الناس ليتعلموا ، ولم تكن ثمة حاجة تستدعى أن تتعلم النساء القراءة والكتابة ، لأن الحكم الغالب على الناس شيوع الأمية .

ومن عجب أن ينسب إلى عمر قوله فى النساء : « جنبوهن الكتابة » وإلى على بن أبى طالب أنه قال لرجل يعلم امرأة الخط : «لاتزد الشر شراً»(٥) ، فإننا لا نجنح إلى تصديق شيء من هذا . وكيف يحث النبي الشفاء العدوية على أن تعلم زوجته الكتابة ثم يقول عمر وعلىّ هذا ؟

---

(١) الروض الأنف ١/١٠٤ ومجمع الأمثال للميدانى ٢/٤٦ . (٢) الأغانى ٢/١٠١
(٣) الإصابة ٨/١٢١ والاستيعاب ٢/٧٦١ وفتوح البلدان ٤٨٧ .
(٤) فتوح البلدان ٤٧٣ . (٥) صبح الأعشى ١/٦٤

وإنما يقال هذا فى عصور الضعف الخلقى والسياسى ، حيث يشيع سوء الظن بالمرأة ، ويتوهم الرجال أن تعليمها يفسدها أو يضاعف شرها ، وحيث يزدرون المرأة، ولا يرونها جديرة بأن تتثقف . ذكر أن بعضهم رأى امرأة تتعلم الكتابة فقال : أَفْعَى تُسْقَى سماً[١] .

وسئل فقيه بدمشق فى العصر العباسى الثانى : هل يجوز أن تتعلم النساء الكتابة ؟ فأجاب بأنه لا يجوز . وفى عهد من عهود الضعف افترى بعضهم أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : لا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور[٢]

وما دفع هؤلاء إلى افتراء الأحاديث المكذوبة والحكايات المنحولة إلى عظماء الإسلام إلا شعورهم بضعف حجتهم ، واستنادهم إلى قول ذى هيبة ومحبة وسلطان، يحسبون أنهم يزعزعون الحق بما يروون و بما يزعمون .

ولم يكن عجباً من رجل ساخط على الحياة وعلى الناس والنساء خاصة أن ينادى بحرمانهن الكتابة والقراءة ، قال أبو العلاء :

علموهن الغزل والنسج والرَّدْ ... نَ وخلوا كتابة وقراءه
وصلاة الفتاة بالحمد والإخلاص تجزى عن يونس و براءه[٣]

وأن يتردد صدى هذه الدعوة فى العصر الحديث على لسان الرافعى[٤] :

يا قوم لم تُخْلَقْ بنات الورى ... للدرس والطِّرْس وقال وقيل
لنا علوم ولها غيرها ... فعلموهن كيف نشرُ الغسيل
والثوب والإبرة فى كفها ... طِرْسٌ عليه كل خط جميل

---

(١) صبح الأعشى ١/ ٦٤ (٢) التراتيب الإدارية ١/ ٥٠ عن كتاب النبراس .
(٣) اللزوميات ١/ ٦٢ الردن : تنسيق المتاع (٤) ديوان الرافعى ٢/ ٤٨ .

١٥ — معرفتها النجوم :

١ — عرف العرب بالملاحظة والمشاهدة وطول المرانة كثيراً من الأجرام السماوية، والأحوال الجوية، وحركات الكواكب، ومنازل القمر، والأنواء.

فهم يذكرون فى شعرهم أسماء نجوم شتى كالفرقدين والدَّبَران والثُّرياوالعَيُّوق والسِّماكين والشِّعْرَى . وقد سجل شعرهم هذا كله .

وهم سموا الأنجم الأربعة التى خلف النَّسر الواقع أو الطائر صَايياً[١] .

وقد جمع كتاب أبى الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفى المتوفى سنة ٣٧٦هـ نحو خمسين ومائتين من الكواكب التى يعرفها البدو[٢] .

وهم عرفوا منازل القمر بأن اتخذوا فى السماء ثمانى وعشرين كوكبة (مجموعة) لا تبعد عن فلك القمر كثيراً، تدل كل منها على موضع القمر فى إحدى ليالى الشهر. كذلك جاء فى القرآن الكريم: «والقمر قدرناه منازل»[٣] و: «هو الذى جعل الشمس ضياء القمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب[٤] » وقد وضعوا لكل منزلة اسماً ذكرها ابن منظور[٥] .

وعرفوا الأنواء — والنَّوْء سقوط منزلة من منازل القمر مع الفجر فى الغرب وطلوع منزلة مقابلة لها فى الشرق من ساعتها — ونسبوا إليها عدة ظواهر طبيعية من الأمطار والرياح والحر والبرد، وعزوا كل غيث إلى تأثير المنزلة الساقطة فى الغرب أو الطالعة فى الشرق، حتى شاع استعمال النوء بمعنى الغيث[٦] .

والدليل على شيوع قولهم بالأنواء ونسبتهم المطر إلى النجوم لا إلى الله قول

---

(١) لسان العرب مادة نوأ .

(٢) الفهرست ٢٨٤ وصور الكواكب للصوفى . مخطوط بدار الكتب وبه صور .

(٣) سورة يس ٣٩ (٤) سورة يونس ٥ (٥) لسان العرب مادة نوأ .

(٦) لسان العرب مادة نوأ وأساس الفلك والجغرافية ٨٥ محمد فخر الدين وعبد الفتاح المزيادى .

النبي صلى الله عليه وسلم : ثلاث من أمر الجاهلية : الطعن فى الأنساب، والنياحة، والأنواء[١] ، وقول أبى العلاء المعرى إنه لا ينسب الأمطار إلى الأنواء كما كان العرب يقولون : مطرنا بنوء المِرْزَم وغيرهما من النجوم :

ولست بالناسب غيثا همى إلى السّماكَيْن ولا المِرْزَم[٢]

وطبيعى أن تكون معرفتهم بالأنواء عظيمة ، لأن حياتهم وأرزاقهم ذات صلة وثيقة بالمطر و بالمرعى ، فهم يتطلعون إلى السماء يتشوفون مطرها ، و يَشِمُون برقها ، لذلك كانت لهم فراسة وخبرة بالسحاب الممطر والجهام ، وبالبرق المنجز والخلب ، والرياح وخواصها .

وقد ألف بعض السابقين من علماء اللغة كتباً جمعوا فيها ما كان للجاهليين من معرفة بالسماء .

منها كتاب الأنواء لأحمد بن داود بن وَنَنْد[٣] ، وكتاب الأنواء لأحمد ابن عبيد الله الثقفى[٤] ، وكتاب الأنواء لأحمد المَرْثدى[٥] ، وكتاب الأنواء لمحمد بن زياد المعروف بابن الأعرابى[٦] ، وكتاب أسماء السحاب والرياح والأمطار لإبراهيم بن سفيان الزيادى[٧] ، وكتاب الأنواء لمُؤَرج بن عمر النحوى[٨] ، وكتاب الأنواء وكتاب المطر لابن دُرَيْد[٩] ، وكتاب الأنواء لأبى إسحاق ابن الزجاج النحوى[١٠] ، وكتاب الأنواء وكتاب الشمس والقمر للنَّضْر بن شُمَيْل

---

(١) لسان العرب مادة نوأ

(٢) شرح التنوير على سقط الزند ٢/٢١٣ .

(٣) معجم الأدباء ٣/٣٢

(٤) معجم الأدباء ٣/٢٤٠ .

(٥) معجم الأدباء ١٤/١٨٧

(٦) معجم الأدباء ١٤/١٩٦ .

(٧) معجم الأدباء ١/١٦١ .

(٨) بغية الوعاة للسيوطى ٤٠٠ طبعة السعادة بمصر وكشف الظنون ٢/٢٦٦ .

(٩) الفهرست ٦١و٨٨ وبغية الوعاة ٣٠ ـ ٣٢ ونزهة الألباء لابن الأنبارى ٣٢٣ وكشف الظنون ٢/٢٦٦ .

(١٠) الفهرست ٨٨ .

النحوى[١] ، وكتاب أبى حنيفة الدِّينَورى[٢] الذى بين فيه ما كان يعرفه العرب من السماء والأنواء والرياح ، وتقسيم العام إلى أزمان الخ وهو يدل على معرفة تامة بالأخبار الواردة عن العرب وأشعارها وأسجاعها فى ذلك .

وكتب الأنواء كثيرة ، منها كتاب للأصمعى ، وكتاب لأبى محلّم ، وكتاب لقُطْرُب ، وكتاب لابن الأعرابى ، وكتاب للمبّرد ، وكتاب لابن قتيبة وكتاب للدهنى ، وكتاب للمريدى ، وكتاب لوكيع وغيرهم[٣] .

وللنضر بن شُمَيْل كتاب الصفات ، وهو كبير يحتوى على عدة كتب ، ذكر فى الكتاب الرابع منه ما يتعلق بالشمس والقمر والليل والنهار ، وذكر فى الخامس ما يتصل بالرياح والسحاب والأمطار[٤] .

(ب) وقد أسهمت المرأة فى هذه المعارف .

روى ابن دُرَيْد أن شيخاً من الأعراب كان فى خبائه وابنةٌ له بالفناء ، فسمع رعداً ، فقال : ما ترين يابنية ؟ فقالت : أراها حَوّاء قَرْحاء ، كأنها أَقْرابُ أتان قَمْراء . ثم سمع راعدة أخرى ، فقال : كيف ترينها ؟ قالت : أراها جَمّة التَّرْجاف ، متساقطة الأكناف ، تتألق بالبرق الوِلاَف . قال : هامى المِغرفة أنتئى نُؤْيا[٥] .

وروى عن الأصمعى أن أعرابياً ضريراً كانت تقوده ابنته ، وهى ترعى غُنَيْمات ، فرأت سحاباً ، فقالت : يا أبت جاءتك السماء . فقال : كيف ترينها ؟

---

(١) الفهرست ٥٢ وبغية الوعاة ٤٠٥ ونزهة الألباء ١١١ وكشف الظنون ٢/٢٦٦

(٢) الفهرست ٧٨ و ٨٨ وكشف الظنون ٢/٢٦٦ .

(٣) الفهرست ٨٨ (٤) الفهرست ٥٢ وبغية الوعاة ٤٠٥ .

(٥) المطر والسحاب لابن دريد ١٤ مخطوط . حواء . سوداء محمرة . قرحاء : يتألق برقها من روضة قرحاء إذا كان فيها نوار أبيض . أقراب : خصور . قمراء : فى لونها بياض إلى كدرة . الترجاف : الاضطراب . متساقطة الأكناف : مهدلة الجوانب مسترخية لكثرة مائها . البرق الولاف : الذى يبرق برقا متتابعاً وهو لا يكاد يخلف . المغرفة : المسحاة . أنتئى نؤيا : أحفر حفيرة حول الخباء تمنع السيل عنه .

قالت : كأنها فرس دهماء تجرّ جِلالها . قال : ارعى غنيماتك . فرعت مليّاً ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء . قال : كيف ترينها ؟ قالت : كأنها عينُ جمل طريف . قال : ارعى غنيماتك . فرعت مليا ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء . قال : كيف ترينها ؟ قالت : سَطَحَتْ وابيضَّت . قال : أدخلى غنيماتك . فجاءت السماء بشيء شطأ له الزرع وأينع ، وخضر ونضر[١] .

وروى عن الأصمعى أن معقِّر بن حماد البارقى خرج ذات يوم وقد كف بصره وابنته تقوده ، فسمع رعداً ، فقال لها : ما ترين ؟ قالت : أراها حمّاء عَقّاقة ، كأنها حِوَلاء ناقة ، لها سيرٌ وانٍ ، وصدرٌ دانٍ . فقال : مرِّى فلا بأس عليك . ثم سمع رعداً آخر فقال : ما ترين ؟ فقالت : أراها كأنها لحم نَثتٌ ، منه مَسيكٌ ومنه مُنْهَرِت . فقال : وائِلى ، الجئى بى إلى جانب قَفْلَة، فإنها لا تنبت إلا بمنجاة من السيل[٢] .

وذكر أن أعرابيا شام برقا فقال لابنته : انظرى أين ترينه ؟ فقالت : أناخ بذى بقر بَرْكه، كأن على عضديه كِتَافا. ثم قال لها بعد قليل : عودى فشيمى . فقالت : نَحَتْه الصَّبا ، وَمَرَتْه الجنوب ، وانْتَجَفَتْه الشَّمال انتجافا[٣] .

وإذا ارتبنا فى هـذه الأخبار وذهبنا إلى أنها من وضع ابن دريد أو غيره لإحياء كلمات لغوية ، أو نظمها فى سمط موضوعى ، فإننا لا نرتاب فى أن واضعيها

(١) المطر والسحاب ٤ : مخطوط . الجلال : مايوضع فوق الفرس ليصونها . جمل طرف : مطرف أى يستطرف الكلأ فلا يرعى فى مكان واحد . شطأ له الزرع : أخرج ثمره . أينع : نضج .

(٢) المطر والسحاب : الحماء : السوداء المحمرة . العقاقة : التى يتسرب برقها و السحاب وينشق عقائق أو هى السحابة المنبعجة بالماء . الحولاء : جلدة رقيقة مملوءة ماء كأنها مرآة تخرج مع سليل الناقة فشبه السحاب بها فى كثرة الماء . لحم نثت . مسترخ منتن . وائلى : بادرى . قفلة : شجرة يابسة .

(٣) المطر والسحاب ٤٠ : ذو بقر : موضع . البرك : البركة : ما ولى الأرض من صدر البعير . عضديه : ما بين مرفقيه إلى كتفيه . كتافا : حبلا مشدوداً به . نحته : صرفته نحوهم . مرته الجنوب : استخرجت ماءه . انتجفته : استخرجت أقصى ما فيه من ماء .

كانوا على علم بتعارف المرأة الجاهلية وجدارتها بأن ينسب إليها مثل هذا .

والأخبار مستفيضة بعلم السيدة عائشة بالنجوم ، فقد وفدت عائشة بنت طلحة على هشام ، وسمرت عنده مع مشايخ بنى أمية ، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ، وماطلع نجم ولاغار إلا سمّته ، فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ فقالت : أخذتها عن خالتى عائشة[1] .

١٦ — خبرتها بالمرعى :

ليس أحد أخبر بالمراعى من العرب ، لأن جُلّ حياتهم رعى ، وجل ثروتهم إبل وشاء .

وقد كان بعض النساء يمارسن الرعى ، ويكتسبن من تجربتهن خبرة ودراية ، وبعضهن يستمعن من الرجال ومن النساء ما يبصرهن بصنوف المراعى وأثرها فى السائمة ولبنها .

روى أبو زيد أن امرأتين تخاصمتا إلى ابنة الخُسّ فى مراعى أبويهما ، فقالت الأولى : إبل أبى ترعى الإسْليح . فقالت ابنة الخس : رغوة وصَريح ، وسَنامٌ إطريح . وقالت الأخرى : مرعى إبل أبى الخَلة . قالت ابنة الخس : سريعة الدِّرّة والجِرّة[2] .

---

(١) الأغانى ١٠/١٧ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٦١ ولسان العرب مادة سلح وطلح . الإسليح : بقلة من أحرار البقول تنبت فى الشتاء تسلح الإبل إذا استكثرت منها . إطريح : طويل مائل .

الفصل الرابع

المرأة في الحرب

تمهيد :

١ — أسست الحياة القبلية على العـداء والحروب المتوالية ، وعلى المحالفة والنصرة ، مؤازرة فى غارة أو درءاً من غارة ، لأن العرب عاشوا فى بيئة مؤرثة للحروب ، فهم يتنازعون على المرعى يسيمون فيه أنعامهم ، وعلى المنهل يطفئون به ظمأهم ، فى بلاد شحيحة بالـكلأ ، ضنينة بالماء ، لاملـكية فى أرضها لأحد. وهم يتنازعون على الشرف والرياسة ، ويتغاورون رغبة فى السلب والغنيمة ، لأن أرزاقهم فى رماحهم ، ومعاشهم فى أيدى غـيرهم . وإن القطامى ـ الشاعر المخضرم ـ ليصور ذلك فى حديثه عن الخيل والخيالة :

وكن إذا أغرن على جناب ... وأعـوزهن نهبٌ حيث كانا

أغرن من الضِّباب على حُلول ... وضَبَّـة إنه من حان حانا

وأحيـانًا على بكر أخينا ... إذا ما لم نجـد إلا أخانا[1]

ولقد تهيج الحرب نصرة لقريب وإن كان ظالمـاً ، لأن شعارهم نصر الأخ ظالمـاً أو مظلوماً ، ومن يسلم أخاه يعيّر . بل إن الشاعر كان يعير قبيلته كلها إن تخلت عن نصرته . قال قُرَيْط بن أُنيف ـ وكان بعض بنى شيبان أغاروا على إبله فاستنجد قومه فلم ينجدوه ، فالجأ إلى بنى مازن من تميم فأنجدوه ـ :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى ... بنو الشَّقيقة من ذُهْلِ بن شيبانا

إذاً لقـام بنصرى معشر خُشُنٌ ... عنـد الحفيظة إن ذو لُوثة لانا

(١) شرح الحماسة للتبريزى ١/١٨١ الضباب : ضبة وضبيب وحسل وحسيل . الحلول: الحى الحال فى مكان واحد .

لايسألون أخاهم حـين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا
لـكن قومى و إن كانوا ذوى عدد ... ليسوا من الشر فى شىء و إن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
فليت لى بهم قوماً إذا ركبـوا ... شدوا الإغارة فرساناً وركبانا[1]

وكثيراً ما كانت تنشب الحروب لضغن قديم وقرته الصدور ، أو لهزيمة وثأر ، والعربى لا ينسى هزيمة ذاق مرارتها ، ولا إساءة كابد حرقتها . قال زفر بن الحارث مصوراً هذا الشعور فى العصر الأموى :

لعمرى قد أبقت وقيعة راهـط ... لمروان صدعا بيننا متنائياً
وقد ينبت المرعى على دِمَن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا[2]

ثم هم يتسلحون بالشجاعة ، فهى عدتهم ظاهرة و باطنة ، وهى مفخرتهم يلبسونها وتلبسهم ، لأنهم لا يحتمون بشرطة ، ولا يتقون بأسوار ، وقد ألفوا أن يدافعوا عن أنفسهم ، « و يتجافون عن الهجوع ، و يتوجسون للنبآت والهيعات ، وينفردون فى القفر والبيداء ، مدلين بباسهم ، واثقين بنفوسهم ، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية »[3] .

و إذا تقصينا حياة العربى منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ولدت معه ، وأنه شب كبر وهى تتمشى فى دمه .

وكيف لا وقد ربى فى بيئة تتمدح بالبطولة والإقدام، وحسن البلاء فى حماية الذمار ، والأخذ بالثأر ، وبالعدوان فى كثير من الأحيان ؟ .

وطالمـا فزع طفلا على قعقعة السلاح ، وصياح المتقاتلين ، وسمع الأقاصيص

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ١/٥ والمرزوقى ١ / ٢٣ وفى رواية أخرى بنو اللقيطة ، وهى نضيرة بنت عصيم ولا صلة لها ببنى شيبان ، أما الشقيقة فهى بنت عباد بن يزيد بن عوف ابن ذهل بن شيبان . ذو لوثة : ضعيف .

(٢) حماسة البحترى ١٧

(٣) مقدمة ابن خلدون ٢/١٨ ٤ النبآت : الأصوات الخفية . الهيعات : الأصوات المفزعة .

عن شجعان من القبيلة حموها ، وردوا المغيرين عليها ، أو هجموا على أخرى وأجلوها .

ثم شب فرأى الرماح تشتبك ، والسيوف تشتجر ، والقسى تتقـــارع ، والأبطال فى الميدان تتصارع .

ثم كبر فشارك فى المواقع ، وأفنى العمر فى المعارك ، فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقاً عاماً فى العرب ، « وكانت تشبه شجاعة الإغريق القدماء ، تعتمد على الحماسة ، وتختفى سريعاً أمام الفتور والتأخر »(١) .

كانت الحروب من خصائص العرب ، ولا سيما البدو ، وقد وصفهم بذلك منذ القدم سمنه Simnch مؤرخ مصر فى عهد الأسرة التاسعة عشرة إذ قال : إنهم رعاة يحبون الحرب ، ويغير بعضهم على بعض(٢) .

فلا عجب أن ورث منهم أبناؤهم الشجاعة والفروسية ، لأنه من المقرر أن مهارة الأفراد فى الفروسية وركوب الخيل . . . . . . ترجع فى الغالب إلى استعداد فطرى ورثه الأبنـاء عن آبائهم وأجدادهم الذين تمرسوا زمناً طويلا بالحروب(٣) .

٢ — وإذا تقصينا أيام العرب وجدناها كثيرة جداً ، حتى لقد أفرد لهـا بعض المؤرخين كتباً أو فصولا طوالا ، وألفيناها تزخر ببطولة الرجال ونخارهم وحسن بلائهم . وقلمـا وجدنا فيهـــا تفصيلا لجهود المرأة ، أو نخاراً من المرأة بنصيبها فى حروب قومها .

فهل كانت المرأة منزوية متخلفة عن الحروب ؟ لا فقد أسهمت فيها بنصيب

---

(١) Nicholson. P 81

(٢) تاريخ الإسلام السياسى . حسن إبراهيم ١/٦٥ .

(٣) الهنود الحمر . على عبد الواحد ٧٨ .

عظيم ، وجهد مأثور لم يفرد له مؤلف فصلا من كتاب .

وسأ كشف عن هذا الجهد الذى بذلته المرأة فى الحـــرب ، ماتقطاً من المراجع ما تفرق هنا وهناك ، وسيكون هذا رداً على أنها « لم تكن فى مقدمة المحاربين ، ولم تكلف أن تقوم بمــا يقوم به الرجال ، لأنه كان من النادر أن تتيح لهــا ظروفها ذلك ، وإنما كانت تقتصر على إثارة العواطف ، كما فعلت فى يوم ذى قار ، وعلى مد المحاربين بالطعام والشراب ، وتضميد الجراح »(١) .

ولا شك أن دراستنا لنصيب المرأة فى الحروب كفيلة بأن ترسم صورة صحيحة لمــكانتها وأخلاقها وأعمالها فى العصر الجاهلى .

المرأة المحاربة

كان الرجال ومايزالون فى كل أمة ينهضون بأعباء الحروب ، ولقاء الصناديد ، حاملين أرواحهم على أكفهم وشبا أسلهم وسيوفهم .

وكان المعروف عن العرب أن القتل والقتال للرجال ، وعلى الغانيات جر الذيول . فإن شاركن فى الحرب فإنما يقمن بما تطيقه الأنثى من تحميس وتضميد وإطعام وسقى . ولــكن هذا لا يؤخذ على إطلاقه ، فإن بعض النساء حاربن كما يحارب الرجال ، بل أدرن قطب الحرب أحياناً ، وكن القــائدات لجيش من الرجال .

وقد جانب الجاحظ بعض الصواب فى قوله : « والمرأة إذا ضعفت عن كل شىء نزعت إلى الصراخ والولولة ، التماساً للرحمة ، واستجلاباً للغياث من حماتها وكفاتها أو من أهل الحسبة فى أمرها »(٢) ، وسنرى أن هذه لم تــكن نزعتها على الإطلاق .

(١) Women in the Aiyam al Arab. P. 1.

(٢) الحيوان ٦ / ٢٧٩ .

ولا شك أن المرأة العربية — بمشاركتها مشاركة فعالة فى الحرب — قد تفوقت على المرأة اليونانية كما يصورها هوميروس فى قوله :

سار هكطور حثيثاً وأتى　　باب إسْكيّةَ والزّانُ ظليل

فتلاقته نســـــاء وبنات　　منه علماً تتقصى سائلات

عن بنيهن وإخوان ثقات

لأن عمل النساء هنا مقصور على الاستطلاع والاستخبار . وليس فى الإلياذة ذكر لولوج النساء معامع الحرب وإن كن قد شاكن فى كثير من الأعمال ، كغسل الموتى وإعداد المعدات وإقامة الصلوات ، وربما عنّفن على خمول كما فعلت هيلانة مع زوجها فاريس[١] .

وقد أشار إلى مشاركة المرأة العربية فى الحرب قيس بن الخطيم فى قوله :

أطاعت بنو عوف أميراً نهاهم　　عن السلم حتى كان أولَ راجب

أَوَيْتُ لعوف أن تقول نساؤهم　　ويرمين دَفْعاً ليتنا لم نحارب[٢]

ولما كانت الحرب بين بكر وتغلب قال الحارث بن عباد للحارث بن همام رئيس بكر : هل أنت مطيعى فيما آمرك ؟ قال : ما أنا بتارك رأيك . قال : قاتلوا القوم بالنساء فضلا عن الرجال . قال الحارث : وكيف ؟ قال : تعمدون إلى كل امرأة لهاجَلَد ونفس فتعطونها إداوة وهراوة ، فإذا صففت أصحابك فصفهن خلفهم ، فإن ذلك مما يزيد الرجال جلداً وشدة ونشاطاً ، ثم تعلموا بعلامة تعرفها نساؤكم ، فإذا مرت المرأة على صريع منكم عرفته ، فسقته من الماء ونعشته ، وإذا مرت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلته وأتت عليه . فقبل الحارث بن همام ماأمره

---

(١) الإلياذة . ترجمة البستانى ٥٧ :

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط . راجب : ميت . يرمين دفعاً : يرميننا من فوق الآطام دفاعا عن أنفسهن .

به ، وكان النصر لهم[1] .

المرأة قائدة للجيش :

وأى دليل على مشاركة المرأة فى الحرب وممارستها ما يمارس الرجال من لظاها وفواجعها أقوى من أن تقود الجيش ؟

إن قيادة الجيش لا تناط إلا بالشهم الجلد المحنك المطاع ، وإن القائد ليصرّف جنده ، ويدبر الخطط للنصر ، فإذا كانت المرأة العربية قد سمت إلى هذه الرتبة العالية ، فإن ذلك إقرار من الرجال بعظمتها ، وسمو مكانتها ، ودليل على خضوعهم لها وطاعتها .

ومن هؤلاء القائدات :

١ ـــ رَقَاش ، كانت فى طيء ، وكانت تغزو بقومها ، ويتيمنون برأيها ، وكانت كاهنة لها حزم وعزم .

وقد أغارت طيء بزعامتها وقيادتها على إياد بن نزار يوم رحى جابر ، فظفرت بهم ، وغنمت وسبت ، ثم بعد ذلك حملت فتراخت عن الغزو ، فقال شاعرهم :

نُبِّئْتُ رقاشِ بعد شِماسها حبلت وقد ولدت غلاما أكحلا
فالله يُخْطِيها ويرفعُ بُضْعها والله يُلقحها كشافًا مُقْبَلا
كانت رقاش تقود جيشاً جَحْفلا فصبَتْ وأحْرِ بمن صبا أن يَحْبلا[2]

ويظهر لى من حنق الشاعر عليها أنه كان يظنها قد انسلختَ من أنوثتها أو انسلخت منها أنوثتها ، فلما حملت ووضعت استبان له أن القائدة الحازمة الأريبة ما زالت أنثى تتزوج وتحمل وتلد ، فخيبت ظنه . ولعله سخط أيضاً لأنه خشى ألا يكون فى رجال القبيلة من يخلفها فى القيادة وبث الحماسة ويُمْن الزعامة ، فيعجزون

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢ / ٣٤ وكتاب بكر وتغلب ٨٣

(٢) جمهرة الأمثال لأبى هلال ١ / ٣١٣ ومجمع الأمثال ١ / ٢٦٣

عن الغارة واكتساب الغنائم .

٢ ـــ وهذه قائدة أخرى وزعيمة ، كانت تناوئ النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قومها يأتمرون بأمرها ، ولعلها لو أسلمت لكان لها فى التاريخ شأن أى شأن ، تلك هى أم قِرْفة .

وقد ضرب العرب المثل بعزتها ، فقالوا : أمنع من أم قرفة . وهى امرأة فزارية ، كانت زوجة لمالك بن حذيفة بن بدر ، وكان يعلق فى بيتها خمسون سيفا لخمسين رجلا كلهم لها محرم[1] . كانت فاطمة بنت ربيعة بن زيد الفزارى هذه زعيمة مطاعة ، وكانت تجاهر بعدائها للإسلام ؛ حتى لقد بعثت إلى النبى أربعين رجلا من بطنها ليغزوه فى المدينة ، فبعث النبى إليها فى السنة السادسة للهجرة زيد ابن حارثة فى خيل ، فلقيها بوادى القرى ، فهزمته ، فحلف ألا يغسل ولا يدهن حتى يغزوهم ، فسأل رسول الله أن يبعثه إليهم، فبعثه فى خيل عظيمة ، فانتصر فى هذه المرة، وسبى أم قرفة ، وكانت عجوزاً كبيرة ، وسبى ابنتها ، ثم أمر زيدٌ قيسَ بن المسحَّر أن يقتل أم قرفة، فربط حبلين برجليها ، ثم ربطهما بين بعيرين وزجرهما فذهبا بها ، فشقاها شقاً[2] .

ويذكر ابن هشام أنه قتلها قتلا عنيفا ، ولا يفصل هذا القتل[3] ولكن وصف القتل بالعنف كاف فى الدلالة على نوعه .

٣ ـــ قتلت أم قرفة وسبيت ابنتها سلمى ، وقدم زيد بن حارثة بها على رسول الله ، وكانت من نصيب قيس بن المسحر أو سلمة بن عمرو الأكوع ، فسألها رسول الله هذا أو ذاك فوهبها له ، فأهداها إلى خاله حزن بن أبى وهب[4]

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٨٤ وتاريخ الخميس ٢/١٣ ومجمع الأمثال ٢/٢٤٩

(٢) تاريخ الطبرى ٣/٨٣ وتاريخ اليعقوبى ٢/٧٤ وابن الأثير ٢/٧٩ وتاريخ الخميس ٢/١٣ والتنبيه والإشراف ٢١٩ و ٢٢٠ ولم يذكر طريقة القتل .

(٣) سيرة ابن هشام ٤/٢٩٠

(٤) سيرة ابن هشام ٤/٢٩٠ وتاريخ اليعقوبى ٢/٧٥ وتاريخ الطبرى ٣/٨٤

وقيل كانت لعائشة فأعتقتها[١]. وفى رواية أخرى أن رسول الله بعث بها إلى مكة ففادى بها أسرى من المسلمين[٢].

وأياما كان الأمر فقد رجعت سلمى إلى قومها ، وارتدت معهم عن الإسلام ، ثم انضمت إلى طليحة هى وعُيَيْنة بن حصن. ولست أشك فى أنها لم تنس مصرع أمها العنيف ، ولم تنس مقتل أخيها حَكَمَة يوم أغار عيينة بن حصن على سرح المدينة ، ولم تنس مرارة السبى ومذلته ، فأرادت أن تشتفى بالثأر .

وقد شرعت تحقق ذلك ، وتحلق حول لوائها جموع من غطفان وفزارة وأسد وهوازن وسليم وطيىء ، فقادتهم كما قادت أمها الجموع من قبل ، وأمرتهم أن يهجموا على خالد بن الوليد ، وكان مشغولا بحرب المرتدين ، فسار إليها .

كانت سلمى تشرف على المعركة وهى راكبة جملا كانت أمها تركبه فى المعارك من قبل، وليس أدل على عظم خطرها من أن يدبر خالد أمره للقضاء عليها أولا ، فيَعِد من يعقر جملها مائة من الإبل ، فعقر المسلمون جملها ، وقتلوها ، وقتلوا مائة من الملتفين بجملها ، ودارت الدائرة عليها[٣] .

٤ ــ وبعد قليل ظهرت امرأة أخرى تتزعم قومها ، وتقدمهم فى الحرب ، بل لقد تنبأت أيضاً ، ودان لها كثير وآمنوا بها . أما اسمها فسجاح ، وأما كنيتها فأم صادر .

وهى بنت أوس بن حق بن أسامة من تميم ، أو بنت الحارث بن سويد ابن عقفان[٤] ، أو بنت سويد بن أسامة التميمى[٥] .

وأما تاريخها فمن المرجح أنه قد شوه كثيراً ، لأنها ارتدت عن الإسلام ، وتزعمت بعض القبائل المرتدة ، ولكن هذا التشويه لا يغير الجوهر ، وهو أن

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٢٣٤
(٢) الكامل لابن الأثير ٢/٧٩
(٣) تاريخ الطبرى ٣/٢٣٤
(٤) الأغانى ١٤/٦٤ وفتوح البلدان ١٠٦
(٥) أوائل الأوائل لأبى هلال ٢٢٢ مخطوط .

سجاح كانت زعيمة فى قومهـا ، ومتنبئة ، وقائدة مطاعة . نشأت سجاح بين أخوالها بنى تغلب ، وتنصرت مثلهم[١] ، فلما كانت السنة الحادية عشرة للهجرة تنبأ بعض العرب ، وارتد بعضهم ، ووضعوا التيجان على رءوسهم ، وامتنع قوم من دفع الزكاة ، فتنبأت سجاح فى بنى تغلب ، وخرجت بجمع منهم — الهديل ابن عمران — إلى بلاد بنى تميم ، فلقيها بنو حنظلة وصدقوها ، وأجمع بنو تميم على نصرتها ، وفيهم بعض سادتهم ، كالأحنف بن قيس وحارثة بن بدر والزبرقان ابن بدر وعطارد بن حاجب وغيرهم من سادة تميم .

وكان فيما أغرتهم به أن الله لم يجعل هذا الأمر فى ربيعة ، وإنما جعله فى مضر ، وأن تميما تعدل قريشاً فى السيادة والشرف؛ لأنهما معاً من مضر ، وادعت أنه أنزل عليها (يأيها المؤمنون المتقون لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولـكن قريشاً قوم يبغون)[٢] . فعلى المضريين أن يقصدوا جموع ربيعة ويفضوها ، ثم يكروا على قريش ويغلبوها .

وراجت دعوتها ، وانضم إليها عدد كبير من إياد وتميم ، ومن القبائل العربية النصرانية بالجزيرة[٣] ، ثم سيرت جمعاً إلى بنى ضبة من الرّباب ، وسارت بجمع آخر من التغلبيين والنمر بن قاسط إلى تيم وعدى وثور ، ثم اتجهت إلى اليمامة[٤] .

وراسلت مالك بن نويرة ، ودعته إلى الموادعة فأجابها ، ونهاها عن غزوها بنى تميم ، فأجابته ، وقالت : نعم فشأنك ممن رأيت ، وأنا امرأة من بنى يربوع ، وإن كان ملك فهو لـكم[٥] .

---

(١) فتوح البلدان ٩٩ ودائرة المعارف الإسلامية ٥/٣٢٩

(٢) الأغانى ١٨/١٦٦ (٣) دائرة المعارف الإسلامية ٣/١٦٧

(٤) أوائل الأوائل ٢٢٢ مخطوط وتاريخ اليعقوبى ٢/١٤٤ والأغانى ١٨/٦٥

(٥) الأغانى ١٤ / ٦٤

ولما أيقنت من قوتها وسيطرتها على هذه القبائل بعد أن هُزمت مرتين[١] أرادت أن تقضى على منافسها مُسَيْلِمة ، فتوجهت إليه لتحاربه ، وعزمت على أن تشخص بعد الانتصار عليه إلى أبى بكر وقريش .

ولما بلغ خبرها مسيلمة ضاق ذرعاً ، وتحصن فى حصن اليمامة ، فلما أحاطت به استشار قومه فيما يفعل ، فأشاروا عليه أن يسالمها ويدع لها الأمر وإلا هلكوا جميعاً[٢] ، ولكن لقاءها لمسيلمة كان مغرب مجدها المأمول، فقد تزوجته ، وجعلت دينه ودينها واحداً ، وآمنت به .

ويروون فى ذلك روايات تحمل فى طياتها عناصر الشك فيها[٣] .

فلما غزا خالد بن الوليد اليمامة وقتل مسيلمة وأسر قيس بن عاصم مؤذن سجاح ، فرت إلى بنى تغلب بالعراق[٤] يائسة من تحقيق أحلامها بعد أن ظفر خالد بالمرتدين ، وبعد أن قتل أكبر حلفائها مالك بن نويرة .

وقيل إنها أسلمت وهاجرت إلى البصرة ، وحسن إسلامها ، وصلى عليها سمرة بن جندب الفزارى والى البصرة من قبل معاوية قبل ولاية عبيد الله ابن زياد[٥] .

وفى سجاح يقول مؤذنها قيس بن عاصم :

أضحت نبيتنا أنثى نطيفُ بها   وأصبحت أنبياء الله ذُكْرانا[٦]

ولا شك أن سجاح لم تدع النبوة فى أخوالها وقومها ، وأنهم لم يلتفوا بها هم وغيرهم من المرتدين إلا وهى جديرة فى نظرهم بهذه الزعامة الدينية والسياسية .

---

(١) أوائل الأوائل ٢٢٢ مخطوط . هزمت بنوضبة جموع بنى حنظلة الذين أوفدتهم إليهم سجاح ، وقاتلها بنو تيم وعدى وثور حين سارت إليهم قتالا شديدا .

(٢) الأغانى ١٨/١٦٦

(٣) الأغانى ١٨ / ١٦٥ ـ ١٦٦

(٤) الكامل لابن الأثير ٢/٢٧١ والأغانى ١٨/١٦٦

(٥) فتوح البلدان ٩٤ و ١٠٦ والأغانى ١٨/١٦٧

(٦) الأغانى ١٢/ ١٥

المرأة محاربة :

١ — اشتركت المرأة فى الحروب اشتراكا عملياً ، فكانت تضرب الأعداء بالهراوى ، وتساعد قومها على النصر[١] . وقد رمت النساء الخزرجيات الأوس بالحجارة من فوق الآطام فى حرب حاطب ، وفيهن يقول قيس بن الخطيم :

أويت لعوف إذ تقول نساؤهم ويرمين دفعاً ليتنا لم نحارب[٢]

بل لقد كانت تقدم حيث يحجم الرجال ، وتشجع حين يجبن ، ففى يوم أحد سقط لواء قريش ، فلم يتقدم لرفعه أحد ، وشمرت هند بنت عتبة وصواحبها ليهربن ، فتقدمت عمرة بنت علقمة الحارثية ورفعته ، فتراجع المشركون واجتمعوا حولها ، وائتنفوا القتال . وفيها يقول حسان بن ثابت :

فلولا لواء الحارثيـــة أصبحوا يباعون فى الأسواق بيع الجلائب[٣]

وقد شهدت هذه الموقعة نَسيبة بنت كعب المازنية أم عمارة هى وزوجها وابناها ، فقاتلت يومئذ قتالا شديداً ، وأبلت بلاء حسناً ، حتى قيل إنها جرحت اثنى عشر جرحاً بين طعنة رمح وضربة سيف ، ولما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله وجعلت تقاتل عنه ، وتذب بسيفها ، وترمى دونه بقوسها ، حتى كثرت جراحها ، وأصابها عمرو بن قمئة بجرح غائر فى عاتقها ، وأصابته هى إصابات ، ولم يقه منها إلا درعان كانتا عليه . ورأى النبى بلاءها ، فأعجب بها ، وقال : ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟ وفى حديثها عن هذا اليوم : وأقبل الرجل الذى ضرب ابنى فقال رسول الله : هذا ضارب ابنك . فاعترضت له ، فضربت ساقه فبرك ، فرأيت الرسول تبسم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : استقدت يا أم

---

(١) كتاب بكر وتغلب ٨٣

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ والمغازى ٢٠٩ أويت لهم : رققت وأشفقت .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٥ وزاد المعاد ٢ / ١٣١ وتاريخ الطبرى ٣ / ١٧ والمغازى ٢٠١ والكامل لابن الأثير ٢/٦٣ وديوان حسان ١٣ الجلائب : العبيد .

عمارة . ثم أقبلنا على الرجل نعلوه بالسلاح حتى أتينا عليه ، فقال النبي : الحمد لله الذى ظفرك ، وأقر عينك من عدوك ، وأراك ثأرك بعينك .

وهى نفسها قد أصيبت يمناها فى موقعة اليمامة وجرحت جرحات[1] .

ولما انهزم المسلمون فى يوم أحد وولى بعضهم ولقيتهم أم أيمن نا كصين حثت فى وجوههم التراب ، وقالت لبعضهم : هناك المغزل اغزل به ، وهات سيفك . وقصدت إلى أُحُد مع بعض النساء[2] .

وقد جرؤت صفية بنت عبد المطلب على ما رهبه حسان بن ثابت ، ذلك أن نساء المسلمين كن فى الحصون يوم الخندق ، وكانت صفية فى فارع ــ حصن حسان ــ وتحدثت صفية فقالت : وكان معنا حسان ، فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وكان بنو قريظة قد غدروا بالرسول ، وحاربوا مع المشركين ، فقلت يا حسان : إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَنْ وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله . فقال : يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . فلما قال لى ذلك ، ولم أر عنده شيئاً احتجزت ، وأخذت عموداً ونزلت من الحصن إلى اليهودى فضربته حتى قتلته ، فلما فرغت منه رجعت إلى حسان فقلت : انزل إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل . قال : ما لى بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب[3] .

ويروى الواقدى أن صفية رأت يهوداً جاءوا ليهجموا على الحصن ، فأشارت على حسان أن يحاربهم فامتنع ، فلما رأت يهودياً يصعد إلى الحصن قالت لحسان :

---

(١) المغازى ٢٦٣ و ٢٦٦ وزاد المعاد ٢/١٣١ والإصابة ٨/١٩٩ وسيرة ابن هشام ٣/٣٠ و ٢/٧٥ وفتوح البلدان ٩٩

(٢) المغازى ٢٧٢

(٣) تاريخ الطبرى ٣ / ٥٠ والاستبصار فى أنساب الأنصار ورقة ١٩ مخطوط وسيرة ابن هشام ٣/٢٤٦ والأغانى ٤/١٦٣

شد على يدى السيف ، فضربت عنق اليهودى ، ثم رمت برأسه إليهم فانكشفوا[١] :

لهذا لما أنشد حسان رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لقد غدوت أمام القوم منتطقا بصارم مثل لون الملح قَطَّاعِ

يَحْفِزُ عنى نجادَ السيف سابغةٌ فضفاضةٌ مثل لون النِّهْى بالقاع

ضحك رسول الله ، فظن حسان أنه ضحك من وصف نفسه بالشجاعة مع جبنه[٢] .

ومن فخار المرأة أن يتحاحل كثير من الرجال فلا تتحاحل مثلهم ، بل تثبت ، وتشير على القائد أن يضربهم كما يضرب أعداءه سواء بسواء ، ذلك أنه فى غزوة هوازن كان المشركون قد تهيئوا وأعدوا ، وسبقوا المسلمين إلى الوادى ، فكمنوا لهم فى شعابه وأحنائه ومضايقه ، فشددوا على المسلمين ، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ذات اليمين ، ثم قال : أين أيها الناس ؟ هلموا إلىّ أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله . ولكن نداءه لم يُجْد شيئاً ، وبقى رسول الله فى نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، واغتبط المنافقون أيما اغتباط ، حتى قال أبو سفيان : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وصرخ كلدة بن حنبل : ألا بطل السحر اليوم. ثم صرخ فيهم العباس فاستجاب له مائة من الفارين .

فى هذا الهول الشديد والمأزق الضيق المبيد التفت رسول الله ، فرأى أم سُليم بنت مِلْحان ـ وكانت مع زوجها أبى طلحة ـ وهى حازمة وسطها ببرد لها ، ومعها جمل زوجها ، وقد خشيت أن يغلبها الجمل ، فأدنت رأسه منها ، وأدخلت يدها فى خزامته مع الخطام ، فقال لها الرسول : أم سليم ؟ قالت : نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك ،

---

(١) المغازى ٢٨٢

(٢) الأغانى ٤/١٦٦ يحفز : يدفع . النهى : الغدير .

فإنهم لذلك أهل . وكان معها خنجر ، فقال لها أبو طلحة : ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟ قالت : خنجر أخذته إن دنا منى أحد من المشركين بعجته به . فقال: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم؟ [1]

وقد حاربت نسوة كثيرات بالسيوف والرماح ، منهن الربيع بنت معوذ ابن عقبة الأنصارية [2] ، وصفية بنت عبد المطلب [3] ، وخولة بنت الأزور [4] . وهؤلاء اللائى حاربن فى مشرق الإسلام كأخواتهن اللاتى حاربن فى الجاهلية ، دليل على بطولة المرأة العربية وقدرتها على أن تصطلى نار الحرب ، وتمارس أحياناً ما يمارس الرجال .

وما من شك فى أن هؤلاء المسلمات اللائى ناضلن عن عقيدتهن وحاربن كما يحارب الرجال ، قد جرين على خلق أصيل فى نفوسهن منذ الجاهلية ، جاء الإسلام فزاده وقواه ؛ لما بث فى النفوس من حماسة دينية ، و بما أعد للمجاهدين من مثوبة ورضوان . فليس من الحق أن ندعى أن الإسلام قد صاغ من الجبانة شجاعة فى بضع سنوات ، لأن هذا مخالف لسنة الحياة ، ولأن المرأة التى لم تسلم كانت تحارب وتقود الجيش فى مستهل الإسلام وفى حرب الردة ، وكانت تمارس ذلك قبل الإسلام ، فمن أين جاءتها شجاعتها إن كان الإسلام هو الذى شجع المرأة المسلمة وأغراها بالقتال ؟

٢ — و بعد فقد حققت بعض النساء العربيات باشتراكهن فى الحرب ما كان يتخيله أفلاطون فى جمهوريته وما كان يريده ، فقد فرض الجندية على المرأة ، وأشركها مع الرجل فى حماية الوطن والقتال دونه ، وذلك فى رأيه خير من أن تعيش كلا على الرجال المقاتلين يحمونها من السبى [5] ، لذلك سوى بين

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٧١ — ٧٥ وتاريخ الطبرى ٣/١٢٩

(٢) الإصابة ٨/٨٠ (٣) المغازى ٢٨٢ (٤) الدر المنثور ١٨٥

(٥) جمهورية أفلاطون ١٣٩ و ١٢٤

الفتيات والفتيان فى طرائق التربية وفى الواجبات الوطنية ، وقال فى جمهوريته : « ليس للرجال فى إدارة أعمال الحكومة واجبات خاصة ، وليس للنساء واجبات خاصة ، وإنما واجبات الرجال هى واجبات النساء ، فإن الطبيعة قد سوت بينهما فى المواهب ، وما المرأة فى الحقيقة إلا رجل ضعيف » وقال أيضاً : «أترانا نفرق بين إناث الكلاب وذكورها فنخرج الذكور وحدها للصيد ، ونكلفها وحدها حراسة الأغنام ، وندع الإناث فى المنازل، بحجة أن الحمل والإرضاع يحولان بينها وبين مشاركة الذكور فى الصيد والحراسة ؟ حقاً إننا لا نفعل ذلك ، فيجب أن تتعلم النساء الأعمال العسكرية والرياضة البدنية ، ويعاملن معاملة الرجال ، لأن التباين العقلى بين المرأة والرجل موجود مثله بين الرجل والرجل والمرأة والمرأة ، فهو تباين فى الجنس الواحد أيضاً[١] .

لا أريد من ذلك أن أدعو إلى أن تستوى المرأة بالرجل فى جميع الحقوق والواجبات والأعمال ، وإنما أريد أن أبين أن بعض النساء العربيات قد حققن بعض ما كان يريده أفلاطون، ويتخيله النظام الأسمى للمجتمع المثالى الذى ينشده ، فى حين أن خياله هذا لم يتحقق فى بلاد اليونان نفسها .

المرأة والثأر :

هذه الحروب المتوالية لا بد أن تنجلى عن قتلى وجرحى وأسرى وأسلاب ، ولا بد أن يعقب هذا فى نفس المهزوم والموتور حفيظة وموجدة لا يطفئها إلا أن يثأر،وكان العرب كلفين بالثأر جد الكلف ،حتى لقد كانوا يحرمون على أنفسهم النساء والخمر والطيب إلى أن يثأروا ، وحتى لقد كان القريب يثأر من قريبه ، وكان قبول الدية عاراً لا يرضاه إلا الأذلاء[٢] .

---

(١) جمهورية أفلاطون ١٢٥ ـ ١٣١و١٣٩ و ٢٠٩ وتاريخ التربية لمصطفى أمين ٨٩
(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلى للمؤلف ٢٧٦ الطبعة الرابعة .

وقد كان للنساء شأن عظيم فى الثأر .

١ — فكن يقرعن المنهزمين تقريعاً يزيد الهزيمة ألماً ، ويبتعث الحمية للثأر ، قالت امرأة من غامد لما هزم ربيعة بن مُكَدَّم جمعا من قومها :

ألا هل أتاها على نأيها ... بما فَضَحتْ قومَها غامد
تمنيتم مائتى فارس ... فردكم فارس واحد
فليت لنا بارتباط الخيو ... ل ضأناً لها طالب قاعد(١)

٢ — وكنّ لا يفتأن يحرضن على الثأر بالقول الملهب المثير ، وطالما نفرن من قبول الدية أيما تنفير . قالت كبشة أخت عمرو بن معدى كرب الزبيدية تحرض قومها على أن يثأروا لأخيها عبد الله — وقد همّ أخوها عمرو أن يقبل الدية ، أو هى توهمت أنه سيقبلها — أبياتاً على لسان القتيل كأنها وصية لهم ، لتزيدهم جداً فى الثأر له ، ولتهتاج حميتهم ، نهتهم فيها عن قبول الدية وعن طاعة عمرو ، ثم هاجت نخوتهم بأنهم إن لم يثأروا نعام مجدوع الآذان ، حقراء لا يستحقون أن يردوا الماء إلا بعد النساء الحيّض :

وأرسل عبد الله إذ حان يومه ... إلى قومه : لا تعقلوا لهم دمى
ولا تأخذوا منهم إفالاً وأبكُراً ... وأترك فى بيت بصَعْدة مظلم
ودع عنك عمراً إن عمرا مسالم ... وهل بطن عمرو غير شبر لمَطعم
فإن أنتم لم تثأروا واتَّدَيْتُمْ ... فمَشُّوا بآذان النعام المصلَّمِ
ولا تردوا إلا فضول نسائكم ... إذا ارتملَتْ أعقابهن من الدم(٢)

وحمست بنت حكيم العبيدية قومها على أن يثأروا من ربيع قاتل أبيها ،

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٠٨ وبلاغات النساء ١٥١

(٢) حماسة أبى تمام شرح التبريزى ١ / ٢١٧ وحماسة البحترى ٣٠ والأمالى ٢/٢٢٦
لا تعقلوا دمى : لا تأخذوا بدله دية . الإفال : صغار الإبل . الأبكر : فتيان الإبل . صعدة : مكان باليمن . اتدلتم : قبلتم الدية . مشوا : امشوا . المصلم : المقطوع الآذان . ارتمات : تلطخت

فقالت لهم : عجلوا بقتله ، وإلا فأنتم نساء ، ور بيع ربكم فاسجدوا له ، وما أنتم إذاً إلا حقراء ضعاف كقصار المعز وقباحها :

أيرجو ر بيع أن يئوب وقد ثوى حكيمٌ ، وأمسى شِلْوه بمطبَّق ؟
فإن كنتم قوماً كراماً فعجِّلوا له جرأة من بأسكم ذات مَصْدق
فإن لم تنالوا نَيْلكم بسيوفكم فكونوا نساء فى المُلاَءِ المخَلَّق
وقولوا :ر بيعٌ ربُّكم فاسجدوا له فما أنتم إلا كمِعْزَى الحبلَّقِ[1]

واستثارت هند الجلاحية قومها بأنهم عبيد إن لم يثأروا :

فإن لم يثأروا من قد أصابوا فكانوا أعبدا لبنى كلاب[2]

وكثيراً ما حرضت الخنساء على الثأر لأخيها صخر ، كقولها :

ولن أسالم قوماً كنت حربهم حتى تعود بياضاً جُؤْنةُ القار
لا نومَ حتى تَعود الخيل عابسة يَنْبِذْنَ طَرْحاً بمهرات وأمهار
أو تحفزوا حفزة والموت مكتنعٌ عند البيوت حُصَيْناً وابن سيَّار
فتغسلوا عنكم عاراً يجلِّلكم غسلَ العوارك حيضا بعد أطهار[3]

ولقد تعمد إلى كلام مثير يشعر المتوانى عن الثأر بعجزه ليدفع التهمة عن نفسه بالجد فى الثأر ، كما قالت ر يحانة بنت معد يكرب لابنها در يد بن الصمة بعد أن مر حولٌ على مقتل أخيه عبد الله :

يا بنى إن كنت عجزت عن الثأر بأخيك فاستعن بخالك وعشيرته من ز بيد — تعنى عمرو بن معد يكرب الز بيدى — ، فأنف ابنها من ذلك ، وحلف ألا يكتحل ولا يدهن ولا يمس طيبا ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً

---

(١) حماسة البحترى ٣٥ مطبق : قبر. المخلق : المطيب . الحبلق: قصار المعزى ودمامها .
(٢) الأغانى ١٢٢/٢٠
(٣) ديوان الخنساء ١١٢ جؤنة : سواد . تحفزوا : تطعنوا مكتنع : دان . حصين ابن ضمضم ومنصور بن سيار من بنى مرة . العوارك : الحوائض .

حتى يدرك ثأره، فغزا غطفان وقتل من بنى عبس وفزارة وبنى مرة و بنى ثعلبة، وكان ذلك يوم الغدير ، وجاء إلى أمه بذؤاب بن أسماء فقتله بفنائها ، وقال : هل بلغت ما فى نفسك ؟ قالت : نعم متِّعت بك .

وقد فخر بفعاله فى عدة قصائد[1] .

٣— ولقد يهجن النخوة للثأر بالمظهر المثير ، كما فعلت خُوَيْلة عجوز بنى رئام ، فقد حدّثوا أنه كان لها أربعون رجلا من إخوتها وأخواتها ، وكانت عقيما ، فهى ترى هؤلاء جميعاً بنيها ، ثم إن بنى ناعب و بنى داهن تظاهروا على بنى رئام — وهم جميعاً من قضاعة متجاورون بين الشِّحْر وحضرموت — فقتلوا منهم ثلاثين رجلا ، فهلعت خويلة هلعاً شديداً ، و بالغ الرواة فزعموا أنها عمدت إلى خناصرهم فقطعتها ، ونظمت منها قلادة ، وألقتها فى عنقها ، وخرجت حتى لحقت بمَرْضاوى بن سعوة المهرى وهو ابن أختها ، فأناخت بفنائه ، وأنشدته قصيدة منها :

ياخير معتمد وأمنــع ملجأ	وأعز منتقم وأدرك طـالب
جاءتك وافـدة الثـكالى تَغْتَلى	بسوادها فوق الفضـاء الناصب
فابرُدْ غليل خويلة الثـكلى التى	رُميتْ بأثقل من صخور الصاقب
وتلاف قبل الفوت ثأرى إنه	عَلقٌ بثوبَىْ داهن أو ناعب

فاهتاج ابن أختها ، وخرج فى منسر من قومه ، فطرق ناعباً وداهنـا وأوجع فيهم[2] .

٤ — ولقد يبلغ بها الحنق حدا يقرب من الوحشية ، بل هو ضرب من الوحشية ، ففى غزوة أحد لما التقى الجمعان ، حرضت هند بنت عتبة وصواحبها الرجال على الاستبسال[3] .

---

(١) الأغانى ٩/٦ و ١٤/٢٦

(٢) الأمالى ١/١٢٧ الصاقب : جبل معروف

(٣) سيرة ابن هشام ٣/١٣

وكانت هند تحرض وحشيًا على أن يقتل حمزة ، وكلما مرت به قالت له : إيه أبا دسمة ، اشف واشتف[1] . وكان وحشى هذا عبداً لجبير بن مطعم ابن عدى ، فقال له جبير : قد علمت أن حمزة قتل طعيمة بن عدى يوم بدر ، فحزنت نساؤنا أشد الحزن ، فإن قتلته فأنت حر[2] .

ولم يكف هندا ما ذاقت من حلاوة النصر والثأر ، فشرعت هى ومن معها يمثلن بالقتلى من المسلمين ، فيجدعن الآذان والأنوف ، حتى اتخذت هند منها خدما وقلائد ، ثم لم يشف ذلك ما بنفسها من موجدة ، فبقرت بطن حمزة ، واقتطعت فلذة من كبده ولاكتها ، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، ثم علت صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها :

نحن جزيناكم بيوم بَدْرِ والحرب بعد الحرب ذات سُعْرِ
ما كان عن عتبة لى من صبر ولا أخى وعمه وبِكْرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى شفيتَ وحشى غليل صدرى[3]

ولم أجد من المؤرخين من يدفع هذه التهمة عن هند أو يخالف الآخرين فى جوهرها ، فليس يجدى دفاع ميور **Muir** عنها،ولا تكذيب لامانس **Lammans** للمؤرخين ، لأنهما لا يعتمدان على دليل . يقول موير : إن مؤرخى السيرة قد بالغوا فى تصويرها محنقة متبربرة[4] . ويذهب لامانس إلى أبعد من ذلك ، فيدعى أن كتاب السيرة زعموا أن شريفات قرشيات شاركن فى غزوة أحد ، وفسحوا المجال لادعاء كاذب أن هندا مثلت بجسد حمزة ، وهو ادعاء اخترعه

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٦

(٢) شرح نهج البلاغة ٣ /٣٨٦

(٣) سيرة ابن هشام ٣/٤٢ والمغازى ٢٦٩ وتاريخ الطبرى ٣ /٢٣ والطبقات الكبير ٣/٤ سعر : سعير وأصله بضم العين . عتبة : أبوها . أخى : الوليد بن عتبة . بكرى : حنظلة ابن أبى سفيان . عمى : شيبة بن ربيعة . وهؤلاء الأربعة قتلوا يوم بدر .

(٤) Muir, The Caliphate, its rise, Decline and Fall, 3-129

أنصار العباسيين[١]. وهى تشبه فى قصتها هذه أم هكتور، على أن أم هكتو تمنت أن تأكل كبد أخيل، ووقفت عند حد التمنى :

من لى بذا السَّفَّاك أَقْضَمُ كِبْدَه قضما فلا أبقى عليه ولا أذر[٢]

٥ — وإذا كان الرجال قد حرموا على أنفسهم النساء والخمر والطيب حتى يثأروا فإن النساء أشبههم فى ذلك، فقد حرمت هند بنت عتبة على نفسها أن تبكى قتلاها الأربعة فى يوم بدر حتى تثأر من النبى وأصحابه، وحرمت على نفسها الطيب حتى تغزو النبى والمسلمين، ولم تقرب فراش أبى سفيان من يوم أن حلقت رأسها حزنا على قتلاها حتى كانت وقعة أحد[٣].

وهن أشبهن الرجال أيضاً فى أن الثأر يشفى بعض حزنهن، ويكفكف من فجيعتهن، لذلك يطربن له، وينتشين به، ويكافئن الثائر. ففى يوم أحد منحت هند بنت عتبة وحشياً ثيابها وخَدَمتين من جزع ظفار كانتا فى ساقيها، ومسكتين وخواتم من ورق كن فى أصابع رجليها[٤]. ووعدته أن تعطيه عشرة دنانير إذا عاد إلى مكة[٥]. كذلك أشادت الخنساء بقيس بن عامر بن الأمرار الجشمى؛ لأنه قتل هاشم بن حرملة قاتل أخيها معاوية بن صخر، وفدته بنفسها وبأعزائها جميعاً، وببنى سليم كلهم ظاعنهم ومقيمهم؛ لأنه أقر عينها فنامت بعد أرق طويل:

فدًى للفارس الجُشَمىِّ نفسى أُفَدِّيه بمن لى من حميم

أُفَدِّيه بكل بنى سُلَيْم بظاعنهم وبالأنس المقيم

كما من هاشم أقررتَ عينى وكانت لا تنامُ ولا تنيم

خصصت بها أخا الأمرار قيساً فتى فى بيت مكرمة كريم[٦]

---

(١) H.Lamans L'arabie occidentale avant L'hegire P. 124

(٢) الإلياذة ١١١٥ (٣) المغازى ٣٢٤

(٤) شرح نهج البلاغة ٣/٣٨٦ (٥) المغازى ٢٧٩

(٦) ديوان الخنساء ٢٣١ ولسان العرب ١٦ / ٧٨ والأغانى ١٣ / ١٤٠ وبلاغات النساء ١٦٧ الحميم : القريب والإخوة وبنو العم والعشيرة. الأنس : الحى المقيمون.

وتحدثت صفية بنت الخرع عن فرحتها لما قتل عبد يغوث بالنعمان ابن جساس فقالت :

لقد أخذنا شفاء النفس لو شُفِيَتْ   وما قتلنا به إلا امرأ دونه[1]

وقد بقيت بغضة المرأة لواترها ، وتلهفها على الثأر منه إلى ما بعد العصر الجاهلي[2] .

المرأة جاسوسة فى الحرب :

تصطنع الدول فى حروبها الحديثة جواسيس من الرجال ومن النساء ، ولقد يكون النساء أقدر من الرجال على تلقط الأنباء ، وتعرف الدخائل : لأنهن يتذرعن بجمالهن وبمكرهن ودهائهن ، و بالرغبة فى حديثهن ، فيبلغن ما لا يبلغ الرجال .

وقد عرف العرب الجاسوسية ، وتذرعوا بالنساء لمعرفة ما خفى عليهم من أنباء العدو . من ذلك أن رجلا من غَنِي قتل شاس بن زهير العبسى ، وأنكر بنو غنى أن يكونوا هم القتلة ، فأرسل زهير امرأة إليهم على أنها تاجرة ، وأمرها أن تكتم نسبها ، وأن تتعرف خبر ابنه شاس ، فاتصلت بنساء غنى ، وعرفت من إحداهن أن زوجها هو قاتل شاس ، ثم عادت إليه فأخبرته ، فأغار عليهم[3] .

وقد اصطفى حاطب بن أبى بَلْتَعَة سارة المزنية ، وقيل إنها كانت مولاة لبنى عبد المطلب ، وأرسل معها كتابا إلى قريش بمكة ، يحذرهم المسلمين ، وجعل لها جعلا على ذلك ، فوضعت الكتاب فى رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها ، وخرجت به ، فبعث رسول الله وراءها على بن أبى طالب وأبا مرثد والزبير ، فأدركوها

---

(١) الأغانى ١٥/٧٣

(٢) بلاغات النساء ١٢٨ و ١٣٠

(٣) الكامل لابن الأثير ١/٢٠٠

تسير على بعير لها ، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فأنكرت ، فأناخوا جمالها ، والتمسوا الكتاب معها فلم يجدوه ، فهددوها أن يجردوها إن لم تخرجه، فلما رأت إصرارهم أخرجته من قرون رأسها أو من حُجْزَتها ، فانطلقوا به إلى رسول الله [1] .

الظعائن فى الحرب :

١ — كان المحاربون كثيراً ما يصطحبون معهم نساءهم فى الحروب ، ففى يوم ذى قار استصحب العرب ظعائنهم ، وأمر حنظلة بن ثعلبة أن تقف الظعائن خلف الناس ، ثم قال : يامعشر بكر بن وائل قاتلوا عن ظعنكم. ثم قام إلى وضين راحلة امرأته فقطعه ، وتتبع الظعن يقطع وُضُنهن ، فسمى مقطع الوُضُن [2] ، وحاكاه العرب ، فقطعوا وضن نسائهم حتى يقسروا أنفسهم على الثبات ، دفاعاً عن الحرائر اللاتى لا يستطعن الفرار على رواحل قد تقطعت أحزمة رحالها .

وكان لَقيط بن زُرارة يغزو ومعه ابنته دُخْتَنوس [3] .

وفى يوم التحالق كانت مع عوف بن مالك بن ضبيعة بن قيس أمه على ناقة لها ، فلما توسط الثنية ضرب عرقوبى الناقة ، ثم انتضى سيفه وقال : والله لايجرى رجل من بكر بن وائل إلا ضربته بالسيف [4] .

وفى يوم فَيْف الرِّيح بين عامر بن صعصعة وبين الحارث بن كعب وحلفائها أقبلت مذحج ومعها النساء والذرارى حتى يشجعنهم على القتال والثبات [5] .

٢ — وقد حدثت السيدة عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يخرج فى سفر أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه [6]

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/ ١٠٥ وفتح البارى ٧/ ٢٣٧ وتاريخ الطبرى ٣/ ١١٣

(٢) أوائل الأوائل ٢٣٥ مخطوط وتاريخ الطبرى ٣ / ١٥٤ والأغانى ٢٠ / ١٣٦ والنقائض ٦٤١ الوضن : جمع وضين وهو حزام الرحل .

(٣) الكامل لابن الأثير ١ /٢١٢٠

(٤) شرح التبريزى للحماسة ٢/ ٣٤

(٥) الكامل لابن الأثير ١/ ٢٣١

(٦) فتح البارى ٦/ ٥٨ والزبيدى ٢/ ٢٦٣ وسيرة ابن هشام ٣ / ٢٤٢

وفى غزوة أحد بعث النبي الحباب بن المنذر ليحزر له قريشاً ، ولما عاد سأله :هل رأيت ظعناً ؟قال :رأيت النساء معهن الدفاف والطبول ، فقال رسول الله : أردن أن يحرضن القوم ويذكرنهم قتلى بدر[١] . وقد تحقق ما توقعه ، فإن قريشاً خرجت وخرج معها أحلافها ، واصطحب كثير من القرشيين نساءهم ، فكانت هند وضرتها أميمة بنت سعد مع زوجهما أبى سفيان ، وأم حكيم بنت الحارث ابن هشام مع عكرمة بن أبى جهل ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة مع الحارث ابن هشام ، وبرزة بنت مسعود الثقفية وضرتها البغوم بنت المعذل مع زوجهما صفوان بن أمية ، وريطة بنت منبه مع عمرو بن العاص ، وسلافة بنت سعد مع طلحة بن أبى طلحة ، وكانت خناس بنت مالك مع ابنها أبى عزيز بن عمير الخ وكانت عمرة بنت علقمة وحدها[٢] .

وما زالت المرأة العربية ترافق المحاربين إلى خلافة عثمان[٣] .

أثر الظعائن :

١ — كن يهجن حماسة الرجال ، ويحفزنهم إلى المخاطرة والاستبسال ، فيقاتل الرجل حتى الموت ، حماية لنسائه اللائى كن يصاحبن القبيلة فى الحروب العظيمة ، ويقمن خلف صفوف القتال »[٤] .

وكن يحمسن بضروب شتى ، فهن أحياناً يلهبن العواطف بأناشيدهن المشجعة ، كأنهن قواد يسكبون فى قلوب الجنود حميا البطولة . وأحيانا يضربون على الدفوف كأنهن فرقة موسيقى حربية ، وتارة يثرن إقدام الرجال بنظراتهن إلى بلائهم ، وشهودهن إقدامهم . والرجال ــ منذ كانوا وكانت النساء ــ يبذلون

---

(١) المغازى ٢٠٧

(٢) سيرة ابن هشام ٣/٦ والمغازى ٢٠١ والكامل لابن الأثير ٢/٦٣ وتاريخ الطبرى ٣/١٠ والأغانى ١١/١٢٠ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٥٩

(٣) فتح البارى ٦/٥٧ . (٤) Nicholson P. 82

فى محضرهن من أفانين البطولة والشهامة حيث تراد البطولة والشهامة ، ومن ضروب البراعة والكياسة واللباقة حيث تطلب البراعة والكياسة ما لا يبذلون فى مغيب النساء .

كان تشجيع النساء للمقاتلين عرفاً عاماً بين العرب ، حضريهم وبدويهم ، ملوكهم وغير ملوكهم ، فإن الحارث بن أبى شمر الملك الغسانى[١] فى حربه مع المنذر بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة فى يوم حليمة وجد أن الحرب قد قامت بينهما أياماً وهى سجال ، فأمر ابنته أن تُطَيِّب جنوده ، ثم نادى : يافتيان غسان ، من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتى . فاستشاط لبيب بن عمرو الغسانى شجاعة ، وشد على المنذر فقتله ، ثم قاتل فقتل[٢] .

والمؤرخون مختلفون فى اسم بنت الملك ، أهى هند[٣] أم حليمة[٤] ، ويرجح نولدكه أن حليمة اسم مكان لا اسم امرأة ، مستدلا بما ذكره ياقوت والبكرى[٥] ، وبأن النابغة يذكر يوم حليمة فى الأيام التى كان يفاخر بها الغساسنة السابقون للحارث ، ويستنتج أن يوم حليمة هو يوم الحِيار[٦] ، وهو الذى ذكره الحارث ابن حلزة فى معلقته .

وهو الرب والشهيد على يو م الحِيارَيْن والبلاء بلاء[٧]

وكان ذلك حوالى ٥٤٤ م[٨] .

---

(١) يرى نولدكه . أنه الحارث بن جبلة (أمراء غسان ٢٢ نولدكه) وهو نفسه الحارث الأعرج (ابن الأثير ١/٢٢٣) .

(٢) الكامل لابن الأثير ١/٢٢٣

(٣) ابن الأثير ١/٢٢٣ وأمراء غسان لنولدكه ١٩

(٤) ابن الأثير ١/٢٢٥ ومجمع الأمثال ٢/٢٠٢ والمعارف ٢٨٠ وأمثال العرب للضبى ٧٩

(٥) معجم ما استعجم للبكرى ٢٨٢ ومعجم البلدان لياقوت ٢/١٣ و ٣٢٥

(٦) أمراء غسان لنولدكة ١٩ — ٢٠

(٧) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٦٨ الحياران : بلد ، وقال ابن الأنبارى بلدان ، وقال صاحب القاموس موضع وكذلك قال صاحب اللسان وذكر هذا البيت .

(٨) أمراء غسان ١٩

والعرب قد ضربوا المثل بيوم حليمة فقالوا : ما يوم حليمة بِسِرّ[١]، والنابغة قد ذكره فى مدح الغساسنة إذ قال فى سيوفهم :

تُخُيِّرْن من أزمان يوم حليمة ... إلى اليوم قد جُرِّبن كل التجارب

وذكر بعض الشعراء فى فخرهم بانتصار الغساسنة فى هذا اليوم أن هند طيبت الجنود ، ونص على أن حليمة اسم واد :

يوم وادى حليمة وازدلفنا ... بالعناجيج والرماح الظماء

وأتت هند بالخَلُوق إلى من ... كان ذا نجدة وفضل غناء[٢]

ولما كانت حرب بين إياد وكسرى أنوشروان حمست هند بنت طارق ابن بياضة قومها بقولها :

نحن بنات طارق ... نمشى على النمارق

والمسك فى المفارق ... مشى القطا النَّواتق

إن تقبلوا نعانق ... ونفرش النَّمارق

أو تُدْبروا نفارق ... فراق غير وامق[٣]

ثم حمست بهذا القول ابنة الفند الزِّمَّانى قومها فى يوم تحلاق اللمم[٤] ، ثم شجعت به عربية قومها فى يوم ذى قار[٥] ، وفى يوم أحد حمست به قريشاً هند بنت عتبة وصواحبها[٦] ، وحَمَّسن بقولهن أيضاً :

---

(١) الميدانى ٢/٢٠٢ وأمثال العرب للضبى ٧٩ وتهذيب الكامل ٢/١٦١

(٢) الكامل لابن الأثير ١/٢٢٣ العناجيج : جياد الخيل والإبل .

(٣) معجم ما استعجم ١/٧٠ النواتق : الكثيرات الولادة .

(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٢/٣٥ والأغانى ٢٠/١٤٤

(٥) النقائض ٦٤١ ولسان العرب ١٢ / ٨٧ والمعانى الكبير لابن قتيبة ١ / ٥٣٠ والمغازى ٢٠٦ وأشعار النساء للمرزبانى ٥٧ مخطوط وتاريخ الطبرى ٢ / ١٥٣ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٦٦، وفى النقائض ٣٦٨ أن يوم ذى قار هو يوم قراقر وحنو ذى قار وهو أيضاً يوم الجبايات ويوم ذات العجرم ويوم الغذوان والبطحاء وكل هذه الأسماء ذكرها الشعراء .

(٦) تاريخ الطبرى ٣ / ١٥ والفاخر للكوفى ١٩ والمعارف لابن قتيبة ٢٢٣ والأغانى ١١ / ١٢٠

ضرباً بنى عبد الدار ضرباً حماة الأدبار
ضرباً بكل بتّار[1]

وإذا صح أن هند بنت طارق أول قائلة للرجز الأول ، وأن هؤلاء قد تغنين به فى الحروب ، فانه إذاً تدرج هذا التدرج التاريخى ، لأن النساء أتحين به فرذدنه فى حرب بعد حرب .

على أنه فى يوم تحلاق اللمم أثارت بنت أخرى للفند الزمانى قومها بقولها :

وغى وغى وغى حَرَّ الجِرارُ والتظَّى
ومُلِّئَتْ منه الرُّبا يا حبذا المحلِّقون بالضحا[2]

ولقد كان الإنشاد يصحب أحياناً بتبكيت الفارين ، ففى يوم حضرة الوادى بين دوس و بنى الحارث جعلت البنات الأربع لخالد بن ذى سبلة يحضضن على الثبات والإقدام ، فإذا رجع إليهن رجل فار أعطينه مكحلة ومجمرة وقلن : معنا فانزل ، أى أنك من النساء . وجعلت هند ترتجز بقولها :

مَنْ رجلٌ ينازل الكتيبه فذلكم تَزنو له الخبيبه[3]

وهذا التحميس كثير فى الجاهلية[4] ، و بقى إلى صدر الإسلام ، فقد حرضت الخنساء بنيها الأربعة على الاستبسال فى حرب القادسية ، وكان لتحريض النساء أثر عظيم فى حرب على ومعاوية .

٢ — و إن الشعر لحافل بتصوير الحماسة التى كانت تتمشى فى نفوس الرجال من الظعائن ، وحافل بالفخر بحمايتهن من السبى ، ولطالما أشهد الشجعان النساء على بلائهم المجيد الذى أبلوا . يقول سلامة بن جندل :

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/١٣ والمغازى ٢٢٤ والأغانى ١٤/١٦ .
(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٢/٣٧
(٣) الأغانى ١٢/٥٣ وفى الأصل تزنى به .
(٤) أيام العرب ١٧٩ وشعراء النصرانية ٢٤١

ألا هل أتى أنباؤها أهل مَأربٍ ... كما قد أتت أهل الدَّبا والخَوَرْنَقِ
بأنـا منعنا بالفَروق نسـاءنا ... ونحن قتلنا من أتانا بمُلْزَقِ (١)

ويقول عمرو بن كلثوم فى ذلك أبياته المشهورة :

على آثارنـا بِيضٌ حسـان ... نحـاذر أن تقسَّم أو تهونـا
ظعائن من بنى جُشَمَ بن بـكر ... خلطن بميسم حسباً ودينا
أخذن على بعولتهن عهـداً ... إذا لاقوا فوارس مُعْلِمِينـا
ليستلبنَّ أبدانـا وبَيْضاً ... وأسرى فى الحروب مقرَّنينـا
إذا ما رحن يمشين الهوينا ... كما اضطربت متون الشاربينـا
يقتن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنـا إذا لم تمنعونـا
إذا لم نحمهن فلا بقينـا ... لشىء بعدهن ولا حيينـا
وما منع الظواعنَ مثلُ ضرب ... ترى منه السواعد كالْبُرِينا (٢)

ويفخر قيس بن الخطيم بأنهم حموا نساءهم من السبى ، وبأنهم انتصروا فى يوم بُعاث ، ويعير خصومهم الهزيمة والأسر :

وإنا منعنا فى بُعَاث نســاءنا ... وما منعتْ مِلْمُخْزيات نساءها (٣)

وهم يتجهون بفخرهم بشجاعتهم وانتصارهم إلى المرأة ، كقول حاجب ابن دينار المازنى :

سـلى يَشْكُرا عنا وأبناء وائل ... لهازمَهـا طرًّا وجمع الأراقم
ألم تعلمى أنا إذا الحرب شمَّرت ... سهامٌ على أعدائنا فى الحلاقم ؟

---

(١) ديوان سلامة بن جندل ١٦ مخطوط . ملزق : أرض معينة . الدبا : سوق للعرب . الخورنق : قصر بالحيرة والمراد أهلها .

(٢) شرح المعلقات السبع لابن الأنبارى ٧٦ مخطوط والتبريزى ٢٤٧ الأبدان : الدروع . البرين : جمع برة وهى حلقة فى أنف البعير . وفى التبريزى (القلين) جمع قلة وهى خشبة يلعب بها الصبيان ويضربونها بالمقلاء .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ٦ مخطوط .

عتاةٌ قُراةٌ فى الشتاء مَساعِرٌ   حُماةٌ كُماةٌ كالليوث الضراغم[١]

ومثل هذا كثير[٢] .

٣ — وكانت المرأة تصحب المحاربين لتضمد جراحهم ، كما يعمل الآن نساء الصليب الأحمر ورجاله و، لتسقيهم الماء .

وكثيرات هن اللائى نفرن مع المسلمين فى غزواتهم الأولى ، وكان الرسول يغزو بالنساء ، فيداوين المرضى ، ويعطيهن من الغنائم ، ولكن لم يفرد لهن سهماً[٣] . وقد جاءت إليه امرأة فى نساء من بنى غفار وقلن إنهن يردن أن يخرجن معه فى خيبر فيداوين الجرحى ويُعِنّ المسلمين بما يستطعن . فقال لهن : على بركة الله[٤] . منهن أم عمارة بنت كعب ، وأم حكيم بنت الحارث[٥] ، والربيع بنت معوذ[٦] وليلى الغفارية[٧] .

وكانت فى أُحُد أربع عشرة امرأة يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ، ويسقين الجرحى ويداوينهم ، كفاطمة بنت الرسول ، وأم سُلَيْم بنت مِلْحان ، والسيدة عائشة ، وحُمَيْنة بنت جحش ، وأم أيمن[٨]

ولما انهزم المسلمون كانت عائشة وأم سليم قد شمرتا حتى بدت خلاخيلهما ، وهما تحملان القرب ، وتفرغان الماء فى أفواه القوم ، فإذا فرغت القربة عادتا فملأتاها[٩] . ومنهن أيضاً السُّمَيْرا بنت قيس[١٠] وكُعَيْبة بنت سعد[١١]

---

(١) العقد الفريد ٣/٧٨

(٢) أمية بن الأسكر (البيان والتبيين ١/١٩٢) ودريد بن الصمة (البيان والتبيين ٢/١٠١) والدهان بن جندل (الأغانى ٢٠/١٣٨) وعمرو بن حوط (النقائض ٦٩) والأعشى (الأغانى ٢١/١٤٠) .

(٣) المدونة الكبرى للامام مالك ١/٣٧٠ وسيرة ابن هشام ٣/٣٩٥

(٤) سيرة ابن هشام ٣/٣٩٥

(٥) ألف باء ٢/٢١٠

(٦) الإصابة ٨/٨٠ وفتح البارى ٦/٦٠ .

(٧) الاستيعاب ٢/٧٨٠

(٨) المغازى ٢٤٦ .

(٩) فتح البارى ٦/٥٨ و ٧/٢٧٩

(١٠) المغازى ٢٨٥ .

(١١) الاستيعاب ٢/٧٧٩ وطبقات ابن سعد ٨/٢١٣

وأم سَايط[١] ، وقد اختصها عمر بمِرْط جيد ، وآثرها به على زوجته ، وقال : أحق به ، فإنها كانت تحمل لنا القرب يوم أحد[٢] .

٤ — وفى شعر النساء كثير من الفخر بالنصر ، وتعيير للأعداء المنهزمين ، وإشادة بشجاعة الصناديد من العشيرة . تقول عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم فى فخرها بيوم عكاظ أيام الفجار :

سائل بنا فى قومنا وليكف من شرٍّ سماعُه
قيساً وما جمعوا لنا فى مجمع باقٍ شناعه
فيه السَّنَوَّر والقنا والكبش ملتمعٌ قِناعه
بعكاظ يُعْشى الناظرين إذا هم لمحوا شعاعه
فيه قتلنا مالكاً قَسْراً وأسلمه رعاعه
ومجدَّلا غادرنه بالقاع تَنْهَسُهُ ضباعه[٣]

وتغلّب نخار غُفَيْرة الكلبية على عطف الأنثى على الأنثى ، فتحدثت فى زهو بأن قومها قتلوا فتيان قيس ، فتأيمت نساؤهم ، وقد كن يوشكن أن يتخضبن للزواج ، ووصفتهن بأنهن مغبرات الألوان من الحزن والفجيعة والمذلة :

تركنا الطُّلْسَ من فتيات قيس أيامَى بعد تيسير الخضاب
فلم أر لِلْمَقادة كالعوالى ولا للثأر كالقوم الغضاب
أراق البَجْدَلِيُّ دماء قيس وألصق خد قيس بالتراب[٤]

ووصفت امرأة من الأزد قومها بقولها :

---

(١) كنز العمال ٧/٩٧ .

(٢) الاستيعاب ٢/٨٠٤ وفتح البارى ٧/٢٨٢ وكنز العمال ٧/٩٧ .

(٣) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٣٠ وبلاغات النساء ١٩١ . السنور : الدرع أو السلاح . القناع : المراد به البيضة . الرعاع : سفلة الناس . غادرنه : الضمير للخيل . تنهسه : تنزع لحمه .

(٤) الوحشيات لأبى تمام ٢ مخطوط الطلس : المغبرات من الحزن والذل .

قوم إذا حضروا الهياج فلا ضربٌ ينهنهم ولا زَجْر
خُزْرُ العيونِ إلى لوائهم يتزيدون كأنهم نُمْر [١]

وكذلك فخرت امرأة من عبد القيس [٢] ، وفخرت أم الحَباب [٣] .
وهنا نلحظ أن النساء كالرجال فى المدح بالشجاعة والرثاء بها، لأنها فضيلة عظيمة فى الحياة البدوية ؛ لذلك آثرها العرب ، وفضلها اليونان القدماء ، فكانوا يرون أن الجندى أكبر خادم للوطن ، فيضفون عليه من الإجلال أكثر مما يضفون على الفنان « وحين أرادوا أن يكتبوا شيئا على قبر اسخيلوس لم يذكروا مهارته الفنية ، بل كتبوا : إنه أبدى شجاعة فائقة فى معركة مرثون » [٤] .

٥ — وما من شك فى أن اشتراك المرأة فى الحرب ، سواء أقادت الجيش ، أم حاربت أم رافقت المحاربين لتحضهم وتسقيهم وتداوى جراحهم ، دليل على شجاعتها وتشوقها إلى انتصار قومها ، واعتزازها بسيادتهم وحريتهم وقوتهم ، ودليل على سمو مكانتها فى القبيلة ، لأنها جديرة بأن تشارك الرجال فى الذود عن الحمى ، وفى كسب النصر، ولو أنها لم تكن جديرة بالمشاركة فى هذا العمل الخطير ما سمح الرجال لها بأن تشاركهم فيه .

ثم إن فى إعجابها بالشجعان ، و إشادتها بالبطولة والأبطال ، وحرص المقاتلين على نيل إعجابها وثنائها ، دليلا على عظيم أثرها وعلو قدرها .

تنحيتها عن الحرب أحيانا :

١ — ليس من الطبيعى أن يستن العرب جميعاً نظاماً واحدا ، يأخذون به أنفسهم دائماً ، لأن العرف لا بد أن يتغاير بتغاير الناس ، وكثيراً ما يتخلى عنه الآخذون به فى ظرف من الظروف ، لذلك كان بعض العرب ينحون المرأة عن الحرب .

---

(١) قواعد الشعر لثعلب ١٧ يتزيدون : يسيرون سيراً فوق العنق .
(٢) حماسة البحترى ٥٤ (٣) ربيع الأبرار للزمخشرى ٩٣ مخطوط .
(٤) مقدمة الشعر عند أرسطو ٢ .

ولعل مردّ هذا إلى أن بعضهم كان يدين بأنها لا تصبر طويلا على أهوال الحرب كما يصبر الرجل ، ولأنه كان يحرص عليها و يضن بها أن تصطلى بسعير القتال ونتائجه . ولقد يتجلى إيثارها للعمل المنزلى فى قول امرىء القيس بن عابس الكندى .

أيا تملكُ لا تَمْلِ صابيني وذرى عذلى
ذريني وسلاحى ثم شُدى الكف بالغزل[1]

وفى قول حُرَيْث بن سلمة :

تقول ابنة العَمْرى لما رأيتها تنكَّرْتَ حتى كدتُ منك أُهالُ
فإن تعجبى منى عُمَيْرُ فقد أتت ليالٍ وأيام علىَّ طوال .

. . . .

ولكنها فى كِلة كلَّ شَتْوةٍ وفى الصيف كنٌّ بارد وجمال
تصان وتعلى المسكَ حتى كأنها إذا وَضَعَتْ عنها النصيفَ غزال[2]

والدليل على أن بعضهم كان لا يصطحب الظعائن أن حاجب بن زرارة استعد للقاء بنى عامر فى يوم رَحْرَحان ، وأرسل إلى الرعاء يأمرهم بإحضار الإبل ففعلوا ، وأمرهم فحملوا الأهل والمتاع وساروا نحو بلاد بغيض ، ولبث هو مع القوم ، ينتظر العامريين[3] .

وفى حرب داحس والغبراء قال قيس العبسى : الرأى أننا لا نلقى ذبيان وحلفاءها ، فإنا ناقدو تراتهم ، فهم يطالبوننا بالذحول، والذى ينبغى أن نفعله أن نرسل الظعائن والأموال إلى بنى عامر ، ويبقى أولو القوة والجلد منا على ظهور الخيل[4]

ثم أن دُرَيد بن الصِّمة سفه رأى مالك بن عوف حين سارت ثقيف للقيان الرسول فى غزوة حنين ، لما علم أن مالكا ساق مع المحاربين أموالهم ونساءهم

---

(١) أخبار المراقسة ٩٥ لا تمل : لا تضجرى
(٢) البيان والتبيين ٣/١٩٠ .
(٣) الكامل لابن الأثير ١/٢٠٣
(٤) أيام العرب ٢٦٥ .

وأبناءهم ، وسأله دريد فى ذلك فقال : أردت أن أجعل خاف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم . فهزىء برأيه ، وقال : راعى ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك . فلم يستمع مالك إليه[(١)]

كذلك اختلفت قريش وأحلافها ، وهم يزمعون السير إلى أحد ، فرأى صفوان بن أمية أن تخرج النساء مع المحاربين ليحمسنهم ويذكرنهم قتلى بدر ، ووافقه عكرمة وعمرو بن العاص،ورأى نوفل بن معاوية أن هذا ليس برأى،لأنه لا يأمن الهزيمة فتنفضح النساء ، ووافقهصفوان بن أمية . فجاء نوفل إلى أبى سفيان يعرض عليه رأيه ، فصاحتهند:إنك والله سامت يوم بدر فرجعت إلىنسائك نعم نخرج فنشهد القتال ، فإنه لما ردّت القيان إلى الجحفة يوم بدر قُتِلَتْ الأحبة يومئذ . فقال أبو سفيان : لا أخالف قريشاً فيما أجمعت عليه، فخرجوا بنسائهم[(٢)] .

و يتضحمنهذا أنالنظام الأعمالأغلب كانأنتخرج الظعائنمعالمحاربين،وكان هذا النظام متبعاًحتىعند ترجيحالهزيمة أو التخوف منها فىحرب بعيدةعنالديار.

٢ — وسواء أكان إبعاد المرأةعن الحرب خوفاً عليها من عواقب الهزيمة ، أم ظنا من بعض الرجال بمعجزتها عن البلاء ، فإن الإسلام لم يشجعها على أن تحارب فقد قالت السيدة عائشة للنبى : يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ؟ قال : لكن أفضل الجهاد حج مبرور[(٣)] ، وله فى هذا أحاديث شتى[(٤)] .

وفى غزوة خيبر خرجت أم زياد الأشجعية سادسة ست نسوة ، فقال لهن النبى : بإذن من خرجتن ؟ وظهر فى وجهه الغضب . فقلن : خرجنا ومعنا دواء

(١) تاريخ الطبرى ٣/١٢٦ وسيرة ابن هشام ٤/٦٥ .
(٢) المغازى ٢٠٠ وشرح نهج البلاغة ٣/٣٥٩ .
(٣) فتح البارى ٦/٣ والطبقات ٦/٧٩ .
(٤) فتح البارى ٦/٥٧ والطبقات ٦/١٦٥ و٨/٥٠

نداوى به الجرحى ، ونتناول السهام ، ونسقى السّويق [١] .

ولما استأذنته أم كَبْشَة القضاعية أن ترافق جيشه ، قال : لا . قالت : إنى لست أريد أن أقاتل ، إنى أريد أن أداوى الجرحى والمرضى وأسقى الماء . قال : لولا أن تكون سنة ويقال فلانة خرجت لأذنت لك، ولكن اجاسى،لا يتحدث الناس أن محمداً يغزو بامرأة [٢] . ولم يأذن لأم ورقة بنت عبد الله أيضاً ، وقال لها : قرى فى بيتك فإن الله يرزقك الشهادة [٣] .

ويظهر أن النبى صلى الله عليه وسلم أباح للنساء أن يصحبن الجيوش فى بعض غزواته ليسقين الماء ويداوين الجرحى، فلما قوى الإسلام وكثر عدد المسلمين آثر أن تقر النساء فى بيوتهن ، اكتفاء بالرجال فى الحفاظ ، وصيانة للمرأة عن أهوال المعارك ، وإيثارا لأن تفرغ لشئون الأسرة ، وإبعادا لها عن الاسترجال .

المرأة والسلام

إذا ما ذكرت المرأة بدرت إلى الذهن صفات الأنثى من رقة ولين وعطف وشفقة وحنان ، فهل كانت المرأة الجاهلية حجراً صلداً لاحنو فيه ولا إشفاق ؟ هل كانت المرأة العربية دائما تسعر الحروب، وتوقد الضغائن،وتورث العداوات ؟ هل غفلت عما تجره الحروب عليها من ثكل ويتم وترميل وأحزان ؟ وعما قد يصيبها من سبى ومذلة وهوان ؟ .

لا ،وإنما عاشت فى بيئة تتوالد حروبها ، وتتفاقم منازعاتها ، فلم تستطع إلا أن تندفع فى تيار الرجال .

وهل كان يجديها أو يجدى الرجال أن تتخلف عنهم حيث تستطيع أن تقدم العون ، وتذكى الحماسة ، وتسهم فى القتال؟وهل كان الرجال يصيخون إلى أصواتها

---

(١) الإصابة ٨/٢٣٥ .
(٢) الإصابة ٨/٢٧٠
(٣) الإصابة ٨/٢٨٩ .

الحنون الرقيق يدعوهم إلى السلام ، ويجيب إليهم الوئام ، وهم يثقون أن أعداءهم ينتهزون منهم الغرة ليكروا عليهم كرة بعد كرة ؟

نتعسف إذا ماالمنا المرأة على مشاركتها فى الحروب ، ونتجنى عليها إذا ما انتقصناها ، لأنها لم تحمل غصن الزيتون فى عالم يتلهب كالأتون .

وها هى ذى المرأة المعاصرة تدعو إلى السلام فى عصر الحضارة الزاهية ، فلا يستمع لها الحاكمون ، وقد بحت أصوات الدعاة إلى السلام من العلماء ورجال الدين ، وليس لدعواتهم من الأثر إلا ما للصوت يردد صداه ، ثم تبتلعه البيداء أو يخنقه الفضاء .

ومع ذلك فلم يخل تاريخ المرأة العربية من جهد بذلته لنشر لواء السلام ، فإنه لما تزوج الحارث بن عوف بُهَيْسة بنت أوس الطائى رفضت أن يقربها، وقالت له :؟ لقد ذكرت لى من الشرف مالا أراه فيك . قال:وكيف؟ قالت:أتفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضهم بعضاً — وكان ذلك فى حرب عبس وذبيان — قال : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك . فخرج وسعى بين القوم بالصلح ، وحمل الديات هو وهرم بن سنان ، وقد مدحهما بذلك زهير بن أبى سلمى(١) .

كذلك أسلفت فى دراسة (البنت) أن الجمانة بنت قيس بن زهير العبسى أصلحت بين أبيها وجدها لأمها .

وأسلفت فى الفصول السابقة أن المرأة كانت تجير ، والإجارة ضرب من كف القتال ودرء الفتنة .

---

(١) الأغانى ٩/١٤٣ .

الفصل الخامس

السبايا والإماء

السبايا

طبيعى أن تنكشف الحرب عن قتلى وجرحى وسبايا وأسرى ، وما زال هذا ديدن الحرب إلى العصر الحاضر .

وربما كان العرب أحرص على الأسر والسبى من حرصهم على الغنائم الأخرى ، لأن فى الأسر والسبى إذلالا للعدو وقهراً ، ولأنهم ينتفعون بالأسارى والسبايا ، فهم يبادلون بهم أساراهم تارة ، و يأخذون فداءهم تارة ، ويستخدمون الأسرى فى العمل عبيداً ، و يتزوجون السبايا بغير صداق ، و يستولدونهن . وهم إلى ذلك كله كلفون بأن يفخروا بأنهم أثخنوا فى عدوهم ، وظفروا به ، وليس بعد الأسر والسبى دليل على مقدرتهم وصولتهم .

ولقد يحرضهم على السبى أنه انتقام ، وجزاء بالمثل ، يؤيد ذلك قول المرقّش الكلبى :

لو كنتَ حراً كريماً ذا محافظة ... ما نمتَ إلا ونار الحرب تشتعل

حتى تساق نساء سَوْقَ نسوتكم ... بما أصابكم أو يُبْلَغَ الأجل[1]

ولما افتخر عامر بن الطفيل بأنه سبى امرأة من عبس ثم من بنى سكين — وقد استردها قومها بعد أيام — رد عليه عروة العبسى يعيره سبيه ليلى بنت شعواء الهلالية وحسناء

(١) حماسة البحترى ٣٣

إن تأخذوا أسماء موقف ساعة فَمَأْخَذُ ليلى وهى عــذراء أعجب
لبسنا زماناً حُسْنَها وشـــبابها ورُدَّتْ إلى شعْواء والرأسُ أشيب
كمأخذنا حسناء كرها ودمعها غداة اللوى معصوبةٌ بتصبب[1]

السبي نظام عام :

وقد حدث السبي كثيراً ، حتى لتخولنى هذه الكثرة أن أذهب إلى أنه نظام عام متواضع عليه . ولا أستثنى من ذلك إلا أهل مكة ، لأنهم كانوا آمنين ، فلم تُسْبَ قرشية قط ، فتوطأ قهراً أو تجال عليها السهام . قال حرب بن أمية يرغب الحضرمى فى نزول مكة — ويكنى أبا مطر — :

أبا مطر هلم إلى صـــلاح فيكفيك الندامى من قريش
وتنزل بلدة عَزَّتْ قديمــا وتأمن أن يزورك رب جيش[2]

وتكفى هذه الأمثلة لشيوع السبي : فقد أغار قيس بن زهير العبسى على بنى يربوع ، فأصاب ابنتى قِرْواش بن عوف ومائة من إبله[3] . وأغار بَسْطام بن قيس على بنى مالك بن حنظلة ، فأخذ نسوة فيهن أم أسماء بن خارجة ، وهاج أبو جُنْدب بن مرة خُلَماء بكر وخزاعة على بنى لَحْيان ، فقتل منهم وسبى من نسائهم وذراريهم سبايا[4] . وأغار الُهذيْل بن هُبَيْرة التغلبى على بنى يربوع ، فقتل فيهم قتلا ذريعاً ، وأصاب نعماً كثيراً ، وسبى سبياً كثيراً[5] . وفى يوم جَدُود أغار الحارث بن شريك الشيبانى فى بكر بن وائل على بنى ربيع بن الحارث فأصابوا سبياً ونعماً[6] . وفى يوم النِّسار سبيت نساء كثيرات من شريفات بنى عامر[7] . وفى يوم الزُوَيْرين بين بكر بن وائل وتميم اجترفت بكر أموال تميم

---

(١) الأغانى ٢/١٨٧ .
(٢) معجم البلدان ٨/١٣٧ صلاح : اسم لمكة (٣) النقائض ٨٤ .
(٤) النقائض ٧٥ (٥) الأغانى ٢١/٤٧ .
(٦) النقائض ٧٠٣ (٧) النقائض ٣٢٦ والكامل لابن الأثير ١/٢٢٢ .

ونساءهم ، ووصل الحوفزان بن شريك إلى من بقي من النساء اللائى خلفهن الرجال ، وساروا عنهن للقتال ، فأخذ جميع ما خلفوه من نساء وأموال[1] .

وكان السبي هدفا مرموقاً ، يدل على ذلك أن عامر بن الطفيل قال لبني عامر يوم فَيْف الريح — بين عامر بن صعصعة والحارث بن كعب : — أغيروا بنا عليهم فإني أرجو أن نأخذ غنائمهم ، ونسبي نساءهم[2] .

ب - الفخر بالسبي والتعيير به :

أما فخرهم بالسبي فكثير جداً ، لأنه الآية على القدرة والظفر بالخصم ، ولأنه مضاعفة لزهو الغالب ونشوته بالغلب ، ثم إنه إرهاب للآخرين الذين قد تسول لهم قوتهم أن يحاربوا هؤلاء الأقوياء الغلابين ، وكثيراً ما يتصل بالفخر تعيير . يقول طفيل الغنوي في رده على زيد الخيل وقد أدرك بنو عامر ثأرهم من طيء :

وقتلنا سَرَاتهم جهاراً وجئنا بالسبايا والنِّهاب
سبايا طيء أبْرِزْنَ قَسْراً وأُبْدِلن القصور من الشِّعاب
سبايا طيء من كل حي بِمَنْ في الفرع منها والنِّصاب[3]

ويقول الحارث بن حلزة :

ثم مِلْنا على تميم فأحْرَمْنـا وفينا بنات مُرٍّ إماء[4]

ويفخر قيس بن الخطيم بصونهم نساءهم في يوم بعاث ، وبسبيهم نساء الخزرج:

---

(١) النقائض ٢٤٢ والكامل لابن الأثير ١/٢٢٥ بين بني تميم بن مر بن أد وبني عامر ابن صعصعة وبين الرباب (تيم وعدي وثور أطحل وعكل بني عبد مناة بن أد وضبة بن أد) وحلفائهم طيء وغطفان .

(٢) النقائض ٤٦٩ والكامل لابن الأثير ١/٢٣١ .

(٣) الأغاني ١٦/٣١ .

(٤) شرح القصائد العشر للتبريزي ٢٤٧ لما بلغنا الحساء ملنا على تميم فلما صرنا في بلادهم دخلنا في الأشهر الحرم فكففنا عن غنائمهم وقد سبينا بناتهم قبل دخول الأشهر الحرم .

وإنا منعنا في بعاث نساءنا   وما مَنَعَتْ مِلْمُخْزِيات نساءها[١]

وعيَّرَ زهير بن جناب التغلبيين بقوله :

تبا لتغلب أنْ تساق نساؤهم   سوق الإماء إلى المواسم عُطَّلا[٢]

وبقوله :

وسبينا من تغلب كل بيضا   ء رقودِ الضحا بَرُود الرضاب[٣]

وباهى الأفوه الأودى بأنهم سبوا حساناً لم يستطع رجالهن أن يحموهن ، وأنهم مشوا بهن يناغين العبيد ، وعليهن ملابسهن الطويلات الذيول تتدلى على أطراف النوق ، دلالة على ترفهن :

فأبنا بِحُورٍ كالظباء وجامل   ولم يمنع البيضَ الحسانَ بعولُها

تناغى العضاريطَ المشاةَ خرائدٌ   تُمَسِّحُ أطرافَ القلاصِ ذيولها[٤]

وكذلك باهى عنترة بسبيهم من بنى ضبة وتميم :

فخَلَّوْا لنا عُوذَ النساء وجَبَّبُوا   عباييد منهم مستقيمٌ وجامح[٥]

وهم يفخرون بأن السبايا حسان منعمات ، يقول زهير بن جناب فى تعييره بنى تغلب :

وسبينا من تغلب كل بيضا   ء رقود الضحى بَرُود الرضاب[٦]

وبأنهن حسيبات شريفات ، لأن هذا أدل على السطوة ، وعلى نفاسة الغنيمة ، وأشد إيلاماً للعدو ، كقول الأسود بن يعفر فى ابنه الجراح ، وكانت أمه أخيذة ، سباها الأسود من بنى نهد فى غارته عليهم :

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم ٤   (٢) الأغانى ٢١/٦٤ وأخبار المراقسة ١٥ .

(٣) الأغانى ٢١/٦٥ وأخبار المراقسة ١٦ .

(٤) ديوان الأفوه الأودى ١٧ مخطوط . جامل : قطيع من الجمال برعاته . العضاريط : العبيد والأجراء والخدم .

(٥) عنترة ٤٤ عبايد ويروى عباديد وهما بمعنى يقال ذهبوا عبابيدوعباديد أى متفرقين. جببوا: فروا. مستقيم وجامح : بعضهم على الطريق وبعضهم عدل عنه وضل.

(٦) الأغانى ٢١/٦٥ وأخبار المراقسة ٢٦ .

فآباء جـــرَاح ذؤابة دارم   وأخوال جراح سَراة بنى نهد[١]

وبالسباء والسبايا افتخر طرفة[٢] ، وعامر بن الطفيل[٣] ، وزيد الخيل[٤] ، وعروة بن الورد[٥] والأعشى[٦] .

المدح بالسبي :

١ — مدحوا القادرين على السباء كما نخروا بالسباء ؛ لأنهم بهذا المدح يضاعفون من سطوة الممدوح ومن لذته بالنصر ، فالأعشى يقول فى مدح قيس ابن معديكرب إنه أذل أحياء كثيرة ، وسبي نساءهم ، وفيهن الغانية المترفة الممتلئة الجسد ، حتى إنها لضخامتها تأتزر بثوبين قد لفق أحدهما على الآخر ، وهى جميلة جداً تعلق التمائم وقاية من الحسد ، ولا تقوم من فراشها لتشرب الغبوق إلا ضحا ، وقد فجعها قيس فى أهلها ، وسباها واستمتع بها :

فيا رُبَّ ناعمــة منهــم   تَشُدُّ اللِّفَاقَ عليهــا إزارا

تَنُوط التَّميمَ وتأبى الغبــو   قَ من سِنَة النوم إلا نهارا

ملـكتَ فعانقتَهـا ليـلة   تَنُصّ العقُودَ وتدعو يَسارا[٧]

ولم تشذ المرأة عن الرجل، فقد مدحته بالسبي كما يمدح الرجل ، قالت جنوب الهذلية فى رثاء أخيها عمرو :

والمخرجُ العاتقَ الحسناء مُذْعنَةً   فى السبي ينفحُ من أردانها الطيب[٨]

وقالت الخنساء فى رثاء صخر :

---

(١) الأغانى ١٣٣/١١   (٢) ديوان طرفة ١٢٨ وشعراء النصرانية ٣١٣ .

(٣) ديوان عامر القصيدة ٢   (٤) الأغانى ٥٥/١٦   (٥) ديوان عروة ١٩ .

(٦) ديوان الأعشى الكبير ١٣ تحقيق محمد حسين .

(٧) ديوان الأعشى الكبير ٤٩ اللفاق : ثوبان يلفق أحدهما بالآخر . الإزار : الملحفة وكل ما ستر . تنوط : تعلق . تنص : ترفع وتظهر . يسار : شعار لهم بالخير .

(٨) رياض الأدب ٧٨ .

وسَبْى كآرام الصّريم حويتَه خلالَ رجالٍ مستكينٍ عواطلُه[١]

٢ — فمن الطبيعى ـ والسبى مفخرة للسابى ومعرة للمَسْبِىّ ـ أن يستميت الرجال فى الحرب حتى لا يهزموا فتسبى نساؤهم .

يقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض كرام تحاذر أن تقسَّم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهدا إذا لاقوا فوارسَ معلْمينا
ليَسْتَلِبُنَّ أبدانا وبَيْضا وأسرى فى الحديد مقرّنينا
إذا ما رحن يمشين الهوينا كما اضطربت متونُ الشاربينا
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا لشىء بعدهن ولا حيينا
وما منع الظعائنَ مثلُ ضرب ترى منه السواعد كالقُلينا[٢]

وقال الأفوه الأودى :

نقاتل أقواماً فنَسْبِى نساءهم ولم ير ذو ذعر لنسوتنا حَجْلا[٣]

ولذلك كان من مفاخر الرجل أن يقى النساء السبى ، يقول الشَّمَرْدَل بن شَرِيك فى رثاء أخيه وائل :

إذا استعبرت عوذُ النساء وشَمَّرَت مآزرَ يومٍ لا تُوارى خلاخله
وثقن به عند الحفيظة فارعوَى إلى صوته جاراته وحلائله[٤]

---

(١) ديوان الخنساء ٢٠٠ آرام الصريم : ظباء بيض فى كثيب من الرمل. خلال رجال: جعلتهن فى رجالك . مستكين عواطله : قد ذللن وفقدن حليهن .

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٤٧ القلون : جمع قلة وهى الخشبة التى يلعب بها الصبيان يضربونها بالمقلاء .

(٣) ديوان الأفوه الأودى ٢١ مخطوط .

(٤) الأمالى لليزيدى ٣٤ والأغانى ١١٣/١٢ ومراث وأشعار لليزيدى ٨١٦ مخطوط عوذ النساء : جمع عائذ وهى الأنثى الحديثة النتاج .

ومدح خُرَيْب بن الحرب التيمى بنى لُجَيْم ، لأنهم حموا العربيات من السبى يوم ذى قار :

وإن لُجيما أهل عز وثروة وأهل أيادٍ لا يُنال قديمُها
هم منعوا فى يوم قار نساءنا كما منع الشَّوْلَ الهجانَ قرومُها[1]

وكان لقيط بن يَعْمُر قد حذر إياداً بعد هزيمتها للفرس فى دير الجماجم قبل وقعة ذى قار بقوله :

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غُيُراً على نسائكم كسرى وما جَمَعا[2]

استخلاص السبايا :

تتفانى القبيلة فى حماية نسائها حين يدوى نفير الحرب ، ويعظم تفانيها إذا سبيت نسوة منها . عندئذ تنفر القبيلة كلها سراعاً إلى الميدان لاستخلاص السبايا ، ويقدم كل فرد حياته ثمناً لشرف القبيلة وتخليص نسائها من أيدى أعدائها ، يقول طرفة بن العبد :

ونحن إذا ما الخيل زايل بينها من الطعن نَشّاجٌ مُخلٌّ ومُزْعِفُ
وجالت عذارى الحى شتى كأنها تَوَالِى صِوارٍ والأسنةُ تَرْعَف
ففئْنَا غَداةَ الغبِّ كلَّ نَقيذةٍ ومنا الكمىُّ الصابر المتعرِّف[3]

---

(١) الأغانى ٢٠/١٤٠ الشول : جمع شائلة وهى من الإبل ما أتى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها . الهجان : الإبل البيض والكرام الجياد . القروم : جمع قرم وهو الفحل من الإبل .

(٢) الأغانى ٢٠/٢٤ .

(٣) ديوان طرفة ١٢٧ زايل : فرق . نشاج : طعن يخرج الدم بصوت . مخل : ينزف الدم ويهزل الطعين . مزعف : قاتل . توالى صوار : أواخر قطيع من البقر . شبه العذارى حين جلن فزعات بقطعان بقر يتبع بعضها بعضاً . فئنا : رددنا . غداة الغب : غداة اليوم التالى ليوم الحرب . النقيذة ما يستنقذ من الأعداء . المتعرف : الذى يبحث عن الرئيس ويتعرفه ليحمل عليه .

وكذلك فخر زيد الخيل بأنه استعاد السبايا اللاتى كانت فزارة وغطفان قد أخذتها منه ومن نبهان :

لقد علمت نَبْهان أنى حميتها ... وأنى منعت السبى أن يتبددا[1]

وافتخر طفيل الغنوى بأنه تخلص السبايا ، ولام بنى جعفر على ضعفهم :

فنحن منعنا يوم حَرْسٍ نساءكم ... غداة دعانا عامرٌ غيرَ مُؤْتَلِ

رددنا السبايا من نُفَيْلٍ وجَعْفر ... وهن حبالى من مُخفٍّ ومُثْقل[2]

ويحسب الرجل شرفا أن يحمى المرأة من السبي أو يتخلصها من سابيها ، وقد ضرب المثل بربيعة بن مكدَّم ، لأنه حمى الظعائن ، ويزعم الرواة أنه حماهن وهو ميت ، فقد هجم بنو سليم يطلبون دماءهم من الحارث بن مكدّم وربيعة ابن مكدم الكنانى ، فلقوا ظعائن من كنانة ، فأرادوا أن يسبوها ، فمانعهم ربيعة فى فرسان معه ، فشد عليه نبيشة بن حبيب السلمى فرماه فى عضده ، فلحق بالظعن يستدمى ، حتى انتهى إلى أمه ، فقال : اجعلى على يدى عصابة ، وهو يرتجز بقوله :

شدى علىّ العصبَ أم سَيّار ... فقد رزيتُ فارسا كالدينار

يطعن بالرمح أمام الأدبار

وشدت عليه أمه عصابة ، فكرّ على القوم وهو ينزف حتى أثخنهم وكشفهم ، وقال للظعائن : أسرعن ركابكن حتى ينتهين إلى أدنى البيوت من الحى ، وسوف أقف دونكن لهم على العقبة، فأعتمد على رمحى فلا يقدمون عليكن . ففعلن ذلك ، واعتمد على رمحه واقفاً على متن فرسه،حتى بلغت النساء مأمنهن ، وما يقدم عليه أحد خشية منه ، ثم رموا فرسه لما رأوه مائل العنق ، فقمصت ، فمال عنها ميتاً ، فأسرعوا وراء النسوة فلم يلحقوهن . قال أبو عمرو

---

(١) الأغانى ١٦/٥٣ .

(٢) ديوان طفيل الغنوى ٣٧ مخف : لم ثقل بطنها . مثقل: عظم بطنها .

ابن العلاء إنه لا يعلم قتيلا حمى الظعائن غير ربيعة[(١)] . وقد مدحه كثير من الشعراء ، وضرب العرب به المثل ، يقول دريد بن الصمة :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله حامى الظعينة فارساً لم يُقْتَل[(٢)]

ولقد كان استخلاص السبايا مجدا يفخر به الذرارى وإن بعدوا ، فنى يوم الحِدَاب سَبَتْ قيس عيلان نساء من سليط ، فأدركتهم بنو الخطَفى و بنو ثعلبة، فاستنقدوا السبايا ، وإلى ذلك يشير جرير بقوله :

لقد جُرِّدْت يومَ الِحداب نساؤهم فساءت مَجاليها وقلت مهورها[(٣)]

ومن الطبيعى أن تكون المرأة أعظم لهفة على إنقاذ السبايا ، وأن تبتهج بتخليصهن وتشيد بمخلصهن ، لأنها تعلم ما تقاسى السبية من آلام السبي والغربة والحنين إلى الأهل ، لهذا شادت عمرة بنت دريد بن الصمة فى رثاء أبيها بفكه السبايا :

ورب كريمة أعتقتَ منهم وأخرى قد فككت من الوِثاق[(٤)]

وكان دريد قد قال لربيعة السلمى لما ضربه بسيفه : إذا أتيت إلى أمك فقل لها إنك قد قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم قد منعت فيه نساءك . فلما رجع إلى أمه أخبرها ، فقالت له : لقد أعتق قتيلك ثلاثا من أمهاتك[(٥)] .

ومدحت الخنساء أخاها صخراً بأنه فكاك السبايا :

ردَّاد عادية فكَّاك عانية كضيغم باسل للقَرْن هَصَّار[(٦)]

وقالت :

و بيضٍ منعت غداة الصبا ح تُكَشِّفُ للرَّوع أذيالها[(٧)]

---

(١) الأغانى ١٤/١٢٦ ومجمع الأمثال ١/٢٠٣

(٢) الأمالى ٢/٢٧٠ .

(٣) النقائض ١٣

(٤) الأغانى ٩/١٥

(٥) معجم البلدان ٥/١٣٨ .

(٦) ديوان الخنساء ١٣٦

(٧) الديوان ٢٠٩ .

إعتاق السبايا :

١ — أطلق العرب الأسرى أحيانا بغير عوض ، إكراما لشاعر يشفع ، كما أطلق الحارث بن أبي شمر أسرى بنى تميم وفيهن شاس بن عبدة ، لما شفع فيهم علقمة ومدحه بقصيدته ، بل إنه أطلق الأسرى وكساهم وحباهم وزودهم زادا كثيراً(١) . وأحيانا كانوا يطلقون الأسير بعد جز ناصيته ، كما فعل الحارث بن عُبَاد بمهلهل(٢) .

كذلك كانوا يعتقون النساء ، كرامة لشفيع ، أو زرعا لجميل ، أو عفوا بعد مقدرة . فقد أكرم يزيد بن عبد المدان دريد بن الصمة ، وردّ عليه سبايا رجل من ثُمالة كان جارا لأخيه عبد الله ثم جارا له ، فقال دريد فى مدحه :

مدحت يزيد بن عبد المدان ... فأكرِمْ به من فتى مُمْتَدَح
إذا المدح زان فتى معشر ... فإن يزيد يَزِينُ المِدَح
وردّ النساء بأطهارها ... ولو كان غير يزيد فَضَح
وقلت له بعد عِتْقِ النساء ... وفك الرجال ورد اللِّقَح
....(٣)

ولما انتصر زهير بن جناب على غطفان قتل منهم وأسر ، ثم رد لهم النساء والأولاد وأخذ الأموال(٤) ، وقال :

فلم تصبر لنا غطفان لما ... تلاقينا وأُحْرِزَت النساء(٥)

وأعتق حكيم بن حزام مائة رقبة فى الجاهلية ومثلها فى الإسلام(٦) .

وإذا كان السبي مفخرة للسابى فقد كان إطلاق السبايا مفخرة أيضاً

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/٢٢٤ والمعارف ٢٧٠ (٢) ابن الأثير ١/٢٢٠
(٣) الأغانى ٩/١٨ (٤) ابن الأثير ١/٢٢٦ (٥) ابن الأثير ١/١٧٩
(٦) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من أحاديث الرسول ١/٤٩ .

ومأثرة يمدح بها ، فإنه لما أغار الحصين بن الحمام على بنى عقيل وبنى كعب أثخن فيهم، واستاق نعما كثيراً ونساء ، وكان فيهن أسماء بنت عمرو سيد بنى كعب ، ثم أطاقها الحصين ومنَّ عليها ، وقال فى ذلك :

تركنا من نساء بنى عُقَيْل أيامى تبتغى عقد النكاح
فأبنا بالنِّهاب وبالسبايا وبالبيض الخرائد واللِّقاح
وأعتقنا ابنة العَمْرِىِّ عمرو وقد خضنا عليها بالقداح[١]

وفى يوم أُوراة الأول ذبح المنذر بن ماء السماء أسرى بنى بكر بن وائل ، وأحرق بعض السبايا ، فكلمه رجل من قيس بن ثعلبة فى شأن الباقيات من السبايا فأطاقهن ، فقال الأعشى يفتخر بشجاعة هذا القيسى :

ومنا الذى أعطاه بالجمع ربُّه على فاقة وللملوك هِباتُها
سبايا بنى شَيْبان يوم أُوارةٍ على النار إذ تُجْلَى به فتياتها[٢]

وقد مدحت عمرة بنت دريد بن الصمة أباها بفكه سبايا بنى سليم :

ورب كريمة أعتقت منهم وأخرى قد فككت من الوثاق[٣]

وكانت القبائل الفقيرة الضيقة المراعى القليلة الأنعام لا تجد ما تفتدى به سباياها وأسراها ، فتعتمد على كرم السابى ، وتنتظر إطلاقهن بغير فداء[٤] ، أو تتحين الفرص لتسترد سباياها بالقوة ، وتثأر من خصومها .

٢ — وفى الإسلام كان ذلك ، فإنه لما سبى رسول الله سبيا كثيراً من هوازن أتى وفدهم إليه مسلمين ، ورجوا منه أن يمن عليهم ، وقال أحدهم يارسول الله : إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك ـ يشير إلى حاضنته

---

(١) الأغانى ١٢/١٢٢ وشعراء النصرانية ٧٤٥ اللقاح : الإبل الحديثة النتاج
(٢) ديوان الأعشى (٣) معجم البلدان ٥/١٣٨ .
(٤) Women in the Aiyam Al arab. P. 69

من بنى سعد وهم من هوازن ـ ولو أننا أرضعنا للحارث بن أبى شمر أو للنعمان ابن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه ، وأنت خير المكفولين . فقال رسول الله : أأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا ، فهو أحب إلينا . فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وأشار عليهم أن يتشفعوا به إلى المسلمين ، ويتشفعوا بالمسلمين إليه . ففعلوا ، وتنازل المهاجرون والأنصار إلا الأقرع بن حابس وبنى تميم وعيينة بن حصن وبنى فزارة وعباس بن مرداس . فقال رسول الله : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبى أصيبه[1] .

٣ — وبهذا التسريح الذى لا عوض فيه امتاز العرب والمسلمون من الأمم الأخرى ، لأن العبرانيين كانوا يطلقون أرقاءهم بعد أن يتموا فى الرق ست سنوات . وكان الأثينيون يطلقون أسراهم إذا ما أدوا ثمن الإطلاق . ولم يعطف عليهم الإسبرطيون بمثل هذا التسريح العوضى ، ولم ينيلوهم حقاً من حقوق البشر ، بل كانوا إذا زاد عدد الأرقاء من الأسر والشراء قتلوهم غير مستبقين إلا من يحتاجون إليه[2] .

إطلاق السبايا بعوض :

جرى الأقوياء من العرب على أنه من العار أن يستردوا السبايا بمال ، لأن هذا دليل الضعف ، فلا هم قادرون على استخلاصهن واستنقاذهن عنوة ، ولا هم قادرون على استرجاعهن بغير مال ، سواء أكان ذلك بالانتقام من أعدائهم

(١) سيرة ابن هشام ١٣٤/٤ وصحيح البخارى بشرح الكرمانى ٩٠/١١ والكامل لابن الأثير ١٠٢/٢ .

(٢) دائرة المعارف للبستانى ٦٩٦/١ .

وجزائهم سَبْياً بسبي ، أم بإطلاق السابى للسبايا تكريماً لقومهن أو لمن يشفع فيهن . لذلك عير سويد بن أبى كاهل بنى شيبان بأنهم اشتروا نساءهم من بهراء التى أغارت عليهم .

ظللن ينازعن العضاريط أُزْرها وشيبانُ وسط القُطْقُطانة حُضَّر(١)

١ — على أنهم كانوا يمارسون فداء الأسرى والسبايا ، وكانت لهم نار تسمى نار الفداء ، يوقدونها إذا طلب منهم الفداء ، كراهة أن يعرضوا النساء نهاراً لئلا يفتضحن(٢) .

من ذلك أن أنَس بن مدركة الخَثْعَمى أغار على ناس من ثُمالة كانوا جيراناً لدريد بن الصمة ، وغنم وسبى ، وذهب بسبيه وغنائمه إلى نجران ، فذهب دريد إلى يزيد بن عبد المدان بنجران ، ليرد عليه ما سلب أنس ، وجاء فى قصيدته ليزيد طلبه رد السبايا بالمن أو بالفداء :

بنى الديان ردوا مال جارى وأسرى فى كبولهم الثقال
وردوا السبى إن شئتم بمَنٍّ وإن شئتم مفاداةً بمال(٣)

٢ — ولم أعثر فيما قرأت على مقدار ما كان يدفع فداء للمرأة إلا فى مرة واحدة ، هى أن أبجر بن جابر العجلى فادى أخته حسينة من عمرو بن الحارث بمائة من الإبل وخمسة أفراس(٤) .

أما فداء الرجل فإنه ذكر مرات ، فأحيانا كان خمسمائة من الإبل ، وقد كانت فداء لحاجب بن زرارة لما أسره العامريون والعبسيون يوم شِعب جبلة . وكان أحيانا مائتين دفعت فداء لعمرو بن عمرو(٥) . وفى يوم الثُلاَّن أسر العامريون وَبْرَة بن رومانوس الكلبى أخا النعمان بن المنذر لأمه ، فافتدى بألف

---

(١) الأغانى ١١/١٦٦ العضاريط : الأجراء والخدم . القطقطانة : موضع .
(٢) مطالع البدور ٢/١٨ (٣) الأغانى ٩/١٧ .
(٤) أشعار النساء للمرزبانى ٥٧ ــ ٥٩ (٥) الكامل لابن الأثير ١/٢٤٤

بعير وفرس[١] . وفى يوم طَخْفة بين بنى يربوع وجيش النعمان بن المنذر انهزم جيشه ، وأسر بنو يربوع القائدين قابوس بن النعمان وحسان بن المنذر ، ثم أطاقوهما ، فأعطى النعمان بنى يربوع ألفى بعير، وأبقى لهم الرفادة[٢] .

وقد فدى بسطام بن قيس نفسه بأربعمائة بعير وثلاثين فرساً و بهودج أمه[٣] ، وفى رواية أخرى أن عتيبة بن الحارث قال لبسطام ـ وقد عاب بسطام هودج أمه ـ أما واللات والعزى لا أطلقك حتى تأتينى أمك بكل شىء ورّثك قيس بن مسعود ، و بجملها وحِدْجِها ، فأتته أم بسطام على جملها وحدجها و بثلاثمائة بعير[٤] .

وقدم سيار بن عمرو الفزارى للأسود بن المنذر دية ابنه الذى قتله الحارث ابن ظالم ألف بعير ، وهى دية الملوك ، ورهنه بها قوسه ، وفى ذلك يقول قراد بن حنش الصاردى :

ونحن رهنـا القوس ثمت فُودِيَتْ ... بألفٍ على ظهر الْفَزارى أقرعا
بعشر مئينٍ للملوك سعى بهـا ... ليوفى سيار بن عمرو فأسرعا[٥]

هذا التفصيل الذى نجده فى فداء الأسير لا نجد مثله فى فداء السبية ، وكل ما نعلم أن سابيها كان يتقاضى قدراً من المال ليطلقها .

فقد أغار قيس بن زهير بن جذيمة العبسى على بنى يربوع ، فلم يصب غير ابنتى قرواش بن عوف ومائة من الإبل لقرواش، ثم اتفق قيس أن يرد ماأخذ ،

---

(١) ابن الأثير ١/٢٣٤ ... (٢) ابن الأثير ١/٢٧٣ .
(٣) النقائض ٣١٦ ... (٤) النقائض ٧٦ و ٣١٦ .
(٥) بلوغ الأرب ٣/٢٢ قال ابن عبد ربه فى العقد إن سيار بن عمرو بن جابر الفزارى احتمل للأسود بن المنذر دية ابنه الذى قتله الحارث بن ظالم ألف بعير وهى دية الملوك، ورهنه بها قوسه فوفى،وكان هذا قبل قوس حاجب بن زرارة . وقال أبو عبيدة فى مقاتل الفرسان إن أحا سيار لأمه الحارث بن أبى سفيان الصاردى تكفلها للأسود بن المنذر فقام منها بثمانمائة ثم مات،فرهن سيار قوسه على المائتين فلما مدح قراد بن حنش بنى فزارة جعل الدية كلها لسيار.

و يُعْطى فرساً . فلما رأى أصحـابه ذلك قالوا : لا نصالحك أبداً ، أصبنا مائة من الإبل وامرأتين ، فعمدت إلى غنيمتنا فجعلتهـا فى فرس لك تذهب به دوننـا . فاشترى منهم غنيمتهم بمائة من الإبل(١) .

والذى يوحى به النص أن نصيب أصحاب قيس كان مائة من الإبل عوضاً عن نصيبهم من الغنيمة كلها ، وهى مائة من الإبل وامرأتان ، وليس يفهم منه قيمة فداء المرأتين وحدهما

٣ — وسنعرف أن الإسلام أقر إطلاق السبايا بعوض .

وبهذا الإطلاق المالى تميز العرب فى الجاهلية ، وتميز المسلمون على الرومان ، ذلك بأن الرومان كانوا يطلقون العبيد بالمـكاتبة وبالتدبير ، ولـكن العتقى لا يتحررون الحرية الـكاملة ، بل يبقون خاضعين لسيادة مولاهم ، فإذا افتقر السيد أو أملق أبوه أو أمه كان على المعتق أن يعود إلى الرق ، أو أن يقوم بأود الملق ، و إذا أهان العبد سيده بعد عتقه جاز له أن يسترده(٢) .

بغض المرأة للسبي :

اعتزت المرأة بحريتها كما اعتز الرجل ، وأبغضت السبى كما أبغض الأسر ، لأن فى سبيها إذلالا لها ، وتغريباً وحرماناً من الوطن ومن الأهل ، وقسراً على معيشة لا ترضاها مهما تـكن معززة مكرمة .

وقد تجلت كراهيتها للسبى فى عدة مظاهر :

١ ـــ كانت إذا هزم قومها تبرز مكشوفة سافراً ، ليحسبها الغالبون أمة فيخلوها، لأنها تعلم أنهم يقصدون الحرائر و يريدونهن . قال سَبْرة بن عمرو الفَقْعَسى :

ونسوتـكم فى الروع بادٍ وجوهها   يُخَلْنَ إماءً والإماء حرائر(٣)

---

(١) النقائض ٨٤ .
(٢) دائرة المعارف للبستانى ٦٩٦/١١ .
(٣) شرح الحماسة للمرزوقى ٢٣٨/١ .

وقال طرفة بن العبد مفتخراً على تغلب يوم تحلاق اللمم :

سائلوا عنا الذى يعرفنا بخزازى يوم تحلاق اللمم

يوم تبدى البيض عن أسْوُقها وتلف الخيل أعراج النعم[1]

وقال قيس بن الخطيم فى هجاء الخزرج :

صبحناكمُ بيضاء يبرق بيضها تُبين خلاخيلَ النساءالهوارب[2]

وقال الشمردل بن شريك فى رثاء أخيه وائل :

إذا استعبرت عُوذُ النساء وشمرت مآزر يومٍ لا توارَى خلاخله

وثقن به عند الحفيظة فارعوى إلى صوته جاراته وحلائله[3]

٢ ـــ وإذا وقعت الواقعة ، وفجعت المرأة بالسبى سخطت على قومها الذين تركوها تؤسر ، وعيرتهم ضعفهم وجبنهم . من ذلك أنه لما سبيت سلمى بنت المحلّق فى يوم النِّسار قالت تعير جوّاباً ــ مالك بن كعب من بنى أبى بكر ابن كلاب ـ والطفيل ؛ لأنهما فرا :

لحا الإله أبا ليـلى بفرَّتِهِ يوم النسار وقُنْبَ العَيْر جَوَّابا

كيف الفخار وقد كانت بمُعْتَرَكٍ يوم النسار بنو ذبيان أربابا

لم تمنعوا القوم إذ شلوا سوامكم ولا النساء وكان القوم أحزابا[4]

وقد أبت حسينة بنت جابر العجلى أن تعود إلى زوجها ابن عمها ، لأنه فرّ عنها وتركها تسبى[5] .

---

(١) الديوان وكتاب بكر وتغلب ٨٩ أعراج النعم : قطعان الإبل .

(٢) جمهرة أشعار العرب ٢٥٢ وديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط .

(٣) الأمالى لليزيدى ٣٤ مخطوط والأغانى ١٢/١١٣ ومرات وأشعار اليزيدى ٨١٦ مخطوط .

(٤) النقائض ٢٤٢ والكامل لابن الأثير ١/٢٥٩ أبو ليلى : الطفيل والد عامر . جواب : لقب مالك بن كعب لأنه كان يجوب الآبار يحفرها ويتخذها لنفسه . القنب : جراب قضيب الدابة . العير : الحمار الوحشى .

(٥) أشعار النساء المرزبانى ٥٧

بل لقد كانت المرأة تزدرى الأسير وإن كان قومها هم الذين أسروه ، لأنها مفتونة بالبطولة والشجاعة والأنفة كما سبق فى صفات الزوج الأثير . فمثلا لما أسر فتًى من بنى عمير بن عبد شمس عبدَ يغوث بن صَلاءة سيد بنى الحارث ، يوم الكلاب الثانى ، وانطلق به إلى أهله ، وكان الآسر أهوج ، قالت له أمه لما رأت عبد يغوث عظيما وسيما : من أنت ؟ قال : أنا سيد القوم. فضحكت وقالت: قبحك الله من سيد قوم أسرك هذا الأهوج . وإلى هذا يشير عبد يغوث بقوله :

وتضحك منى شـيخة عبشمية كأن لم ترَىْ قبلى أسيراً يمانيا[1]

وكذلك سخرت بَطَهْمان بن عمرو الدارمى امرأة من آسريه ، فقال :

ألا هزئت منى بنجران إذ رأت عثارىَ فى الكَبْلَين أمّ أبان
كأن لم تَرَىْ قبلى أسيراً مكبلا ولا رجلا يُرْمَى به الرَّجَوان[2]

وما زالت المرأة العربية تحقر الأسير إلى ما بعد العصر الجاهلى ، فإن حمدة أو حُمَيدة بنت النعمان بن بشير الأنصارى لامت زوجها رَوح بن زِنباع وعيرته، لأنه أسر يوم المرج ، وقيل لأنه أسر قبل ذلك فى حرب غسّان ، وافتدى . تقول فى ذلك :

وهل هند إلا مهرة عربيـة سليلة أفرس تجللها بغل
فان نُتِجَتْ مهراً كريماً فبالحرَى وإن يك إقرافٌ فما أنجب الفحل[3]

على أنه تزوجها وهو سيد يمانية الشام وقائدها وخطيبها ، وهى يمانية مثله ، ولو أنها نزارية وهو قحطانى مثلا لقيل إن سخطها عليه مبعثه ما بين اليمانيـة

---

(١) المفضليات ١/١٥٦ والأغانى ١٥/٧١ .

(٢) معجم البلدان ٤/٧١ الكبلين : القيدين . يرمى به الرجوان : استهزاء كأنه رمى به رجوا بئر أى ناحيتاها وجانباها (القاموس مادة رجا) .

(٣) الأغانى ٨/١٣٤ والتنبيه والإشراف للمسعودى ٣١ وسمط اللآلى ١/١٧٩ وفى رأى ابن سيده أن الصواب نغل لا بغل لأن البغل لا يلد . والنغل الخسيس من الإنسان والحيوان .

والنزارية من صراع . كذلك رفض عَقيل بن عُلَّفة أن يزوج عثمان بن حيان المرى ـ وهو من أبناء عمومته ـ لأنه كان قد مسه أو مس أباه أسر[1] .

٣ — وقد صور الشعراء مايعتاج فى أحشاء السبايا من حزن ولوعة ، وماينزل بهن من هم وحسرة . فعروة بن الورد يقول إن سباياهم من طيىء يشققن صدورهن إذا جن الليل وطلع النجم :

رحانـا من الأجبال أجبال طيىءٍ نسوق النساء عُوذَها وعِشارها
ترى كل بيضاء العوارض طفْلةٍ تُفَرِّى إذا شال السِّماكُ صِدارها
وقد عَلِمَتْ أن لا انقلاب لأهلهـا إذا تركت من آخر الليل دارها[2]

ومجمّع بن هلال يفخر بأنه أسر امرأة من مجاشع ، و يقول إن قلبها قد امتلأ حزنا وجزعا ، و إن حزنها مقيم لا يبرح ، وهى تدعو عليه بالتعاسة كما أتعسها :

وعاثرةٍ يوم الهُيَيْما رأيتهـــا وقد ضمها من داخل الخِلْب مَجْزَعُ
لها غَلَلٌ فى الصدر ليس ببارح شَجًى نَشَبٌ والعين بالماء تدمع
تقول وقد أفردتهـا من حليلهـا تَعَسْتَ كما أتعستنى يامجمّع[3]

والنابغة يصور السبايا حيارى سواهِمَ ، يخططن على الأرض بالعيدان كما يفعل المكروب المهموم الساهم ، أو هن يخططن على الرمل ليتعرفن متى ينطلقن من الإسار ، وهن كاسفات لا يتزيّنّ ولا يبرزن مواضع جمالهن :

ويَخْطُطن بالعيدان فى كل منزل ويخبأن رمّان الثدىِّ النواهد[4]

والنابغة الجعدى يصور حزنهن يتجلى فى بكائهن وفى الـكآبة الناطقة على

---

(١) سمط اللآلى ١/١٨٠ .

(٢) ديوان عروة ١٩ وشعراء النصرانية ٩١١ عوذ : حديثات الولادة . عشار : حوامل . تفرى : تشق . السماك : الأعزو والرامح نجمان نيران .

(٣) شرح الحماسة للمرزوقى ٣/٧١٦ الهيما : اسم موضع كانت فيه وقعة لبنى تيم الله ابن ثعلبة على بنى مجاشع . الخلب : حجاب القلب . الغلل : حرارة الجوف . شجى نشب : حزن دائم ملازم .

(٤) الحيوان للجاحظ ١/٦٣ .

وجوههن ، وحسرتهن على فراق أطفالهن الرضع :

فلم أر يوما كان أكثر باكيا ووجها ترى فيه الكآبة مُجْتَلَى
ومُفْتَصَلاً عن ثدى أم تحبه عزيز عليها أن يفارق مُفْتَلَى[1]

٤ ـ وليس أدل على بغض المرأة للسباء من أن تعيش مع سابيها حينا من الدهر ، وتلد له ، ولكنها لا تزال متبرمة بأن يذكر الناس أنها سبية ، ولا تزال أنوفا من أن تسمى أمَة. فإذا مابرقت لها بارقة أمل فى التحرر والفكاك من السبى انطلقت لا تلوى على شىء . ولقد تحسن الحيلة فى أن تسترد حريتها وقيمتها ، ثم تعاود عشرة زوجها وأولادها ، ولقد تبخع نفسها حتى لاتقع أسيرة .

فقد أغار عروة بن الورد على مُزَيْنة فأصاب منهم امرأة بكراً من بنى كنانة يقال لها سلمى وتكنى أم وهب ، فأعتقها ، واتخذها لنفسه ، فمكثت عنده بضع عشرة سنة ، وولدت له أولادا ، وهو لا يشك فى أنها أرغب الناس فيه ، وكانت تقول له : لو حججت بى فأمر على أهلى وأراهم ؟ فحج بها ، ثم أتى يثرب ، وكان يخالط بنى النضير و يعاملهم ، وكان قومها يخالطونهم ، فأتوهم وهو عندهم ، فقالت لهم سلمى إنه عائد بى قبل أن ينتهى الشهر الحرام ، فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب سبيا ، وافتدونى منه،فإنه لايرى أنى أفارقه ، ولا أختار عليه أحداً . فأتوه فسقوه الشراب ، فلما ثمل قالوا له فادِنا بصاحبتنا ، فإنها وسيطة النسب فينا ، وإن علينا سبة أن تكون سبيا ، فإذا سارت إلينا وأردت معاودتها فاخطبها ، فإننا نزوجك . فقال لهم: ذاك لكم، ولكن خيروها ، فإن اختارتنى انطلقت معى إلى ولدها ، وإن اختارتكم انطلقتم بها . فوافقوه ، فلما كان الغد جاءوه ، فامتنع من فدائها ، ثم رضى ، فخيروها ، فاختارت أهلها ، وأقبلت عليه فمدحته ، ثم قالت : ما مرّ على يوم مذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلى من الحياة بين قومك ؛ لأنى لم أكن أشاء أن

---

(١) الشعر والشعراء ١/٢٥١ تحقيق شاكر . مفتصل ومفتلى : مفطوم .

أسمع امرأة من قومك تقول « قالت أمة عروة كذا وكذا » ، والله لا أنظر فى وجه غطفانية أبداً ، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم . فحزن عروة وندم ، وقال، فى ذلك شعراً يدل على فجيعته وألمه[1] .

كذلك سبى الحارث بن تولب امرأة من بنى أسد يقال لها جمرة بنت نوفل، فوهبها لأخيه النمر ، ففركته ، فحبسها حتى استقرت وولدت له أولاداً . ثم قالت له فى يوم : أزرنى أهلى ، فإنى اشتقت إليهم . فقال لها : أخاف إن صرت إلى أهلك ألا تعودى . فواثقته على أن ترجع إليه ، فخرج بها حتى أوصلها بلادها . فلما أطال على الحى تركته واقفاً ، وانصرفت إلى منزل بعلها الأول ، فلما مكثت طويلا ولم ترجع عرف ما صنعت ، وأنها اختدعته ، فانصرف وقال :

جزى الله عنا جَمْرَةَ ابنة نَوْفل   جزاء مُغـــلٍّ بالأمانة كاذب
لهان عليها أمس موقفُ راكب   إلى جانب السَّرحات أخيبَ خائب
وقد سألت عنى الوشاة ليكذبوا   علىَّ وقد أبليتها فى النوائب
وصدت كأن الشمس تحت قناعها   بدا حاجب منها وضنت بحاجب

وقال فيها أشعاراً كثيرة[2] .

وكذلك سبيت امرأة من طسم اسمها عَنْز ، فحملها سابوها فى هودج ، وألطفوها بالفعل والقول ، فلم يلهها الإلطاف عن مذلة السباء ، فقالت :

شرُّ يوميها وأغواه لهـــا   ركبت عَنْزٌ بحِـــدْجٍ جمـــلا

أى شر يوميها يوم تُكْرَمُ وهى سبية[3] .

أما قتلها نفسها فيتمثل فى فاطمة بنت الخُرْشُب الأنمارية ، ذلك أنها عرض لها قيس بن زهير فاقتاد جملها ، يريد أن يرتهنها بدرعه التى أخذها ابنها الربيع ، حتى يردها . فقالت له : ما رأيت كاليوم فعل رجل ، أين ضل حلمك ؟ أترجو

---

(١) ديوان عروة ١١ والأغانى ٢/٧٦ والشعر والشعراء ٢٦٠ .
(٢) الأغانى ١٩/١٥٩
(٣) جمهرة الأمثال لأبى هلال ٢/ ٨ ومجمع الأمثال ١/٣٢٨ ولسان العرب ٧/٢٥٠

أن تصطلح أنت وبنو زياد أبداً ، وقد أخذت أمهم فقال الناس فى ذلك ما شاءوا أن يقولوا ؟ وحسبك من شر سماعه . فعرف قيس مقالها فخلى سبيلها[1] . وفى رواية أنه لم يخل سبيلها ، بل قال لها : إنى ذاهب بك لترعى إبلى . فلما أيقنت أنه ذاهب بها رمت بنفسها عن البعير ، خوفا من أن يلحقها ويلحق بنيها عار السبى ، فسقطت على رأسها فماتت[2] .

مصائر السبايا :

تضع الحرب أوزارها ، وتنجلى عن سبايا ، فيقسّمْن بالسهام بين المحاربين كما تُقَسَّم الغنائم . يقول الأعشى :

فما برحوا حتى استُحِثَّتْ نساؤهم وأَجْرَوْا عليها بالسهام فذَلَّت[3]

ويقول الحصين بن الحمام :

وأَعْتَقْنا ابنة العَمْرِىّ عمرو وقد خُضْنا عليها بالقداح[4]

فإذا لم يطلق السابى سبيته بفداء أو منّ ، وإذا لم يتخلصها قومها منه عنوة ، فكيف كان يعاملها ؟ وعلى أى وضع كانت تقيم عنده ؟

استيلاد السبايا :

١ — كان أول ما يلجأ إليه السابى أن يستولد السبية ، لأنها لا تكلفه مهراً ، ولأنها تلد له أولاداً نجباء ، كما اعتقد العرب فى أولاد الغرائب .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، فقد تزوج زُرارة بن عُدُس أمته رُشَيَّة ، وكان قد أصابها من الرُّفَيْدات — حى من العرب — فولدت له عَمْراً وذُؤَيْبا وبَرْغُوثا[5] ، وكانت له زوجات من سباياه من بنى عِجْل ومن بنى عبد القيس ومن الأزد ، وقد أنجبن له[6] .

---

(١) النقائض ٩٠ وجمهرة الأمثال ١/٢٢٨

(٢) الأغانى ١٦/٢١ .

(٣) ديوان الأعشى الكبير ٢٦١

(٤) شعراء النصرانية ٧٤٥

(٥) مجمع الأمثال ١/١١٦

(٦) أمثال العرب المفضل الضبى ٧

وتزوج ضَمْرة بن جابر سبية من عبد القيس وسبية من الأزد[١]، وسبى الصِّمَّةُ بن عبد الله ريحانة بنت معد يكرب الزبيدى ثم تزوجها .

واشتهر كثير من أبناء السبايا ، وسادوا ، وفرعوا أبناء الحرائر المهيرات ، مثل دريد بن الصمة أطول الفرسان الشعراء غزوا ، وأبعدهم أثراً ، وأكثرهم ظفراً ، وأيمنهم نقيبة ، وأشعرهم ، وكان سيد بنى جُشَمَ وقائدهم ، وهو وإخوته عبد الله وعبد يغوث وقيس وخالد أمهم جميعاً ريحانة بنت معد يكرب الزبيدى أخت عمرو بن معد يكرب ، كان الصمة سباها ثم تزوجها فأولدها بنيه[٢]. ومثل الأشهب بن ثور بن حارثة ، كانت أمه لخالد بن مالك فاشتراها منه ثور بن حارثة فى الجاهلية ، فولدت له أربعة نفر كانوا من أشد العرب لسانا ويداً، وأمنعهم جانباً فى الجاهلية والإسلام ، حتى كانوا يأخذون هُدْبًا من قطيفة أمهم ، ويلقونه على الماء فلا يَرُدُّه أحد[٣].

٢ — وكانوا يفخرون بزواجهن ، إدلالاً بقوتهم ، وإذلالا لعدوهم ، قال عمرو بن يربوع الغنوى فى هجاء عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

ألم نحم نجدا بمسنونة ... عتاق تُبارى بفُرْسانها
فسائل جُذاماً ولَخْماً بنا ... ويَحْصُبَ من بعد خَوْلانها
ومَذْحِجَ يُنْبُوك عن حربنا ... وما كنت تجهل من شأنها
نكحنا نساءهم عَنْوَةً ... ببيضِ الصِّفَاح ومُرّانها[٤]

وقال عمرو بن الذارع الحنفى فى يوم النَّشَاش — وكان لبنى حنيفة على بنى نمير — :

إذا نحن شئنا زوجَتْنا رماحنا ... كما أمكنتنا من بنات المهاجر[٥]

وافتخر النابغة الجعدى بأنهم أكثر القبائل سبيا ونكاحا للسبايا :

---

(١) الميدانى ١/١١٧ (٢) الأغانى ٩/٢ .
(٣) الأغانى ٨/١٥٣ (٤) المؤتلف والمختلف ١٥٦ تبارى : تعارض وتزاحم .
مرانها : جمع مرانة وهو الرمح الصلب واللدن
(٥) معجم الشعراء ٢٢٥

فما وَجَدَتْ من فِرْقة عربيةٍ كفيلاً دنا منا أعزَّ وأنصرا
وأكثر منا ناكحا لغريبــــة أصيبتْ سِباءً أو أرادت تَخَيُّرا[١]

وافتخر المطَوَّح بن عثمان التغلبي على بني نمير بأنهم نكحوا نساءهم قسراً واغتصابا ، وبأن بني تغلب أعزة لم تغتصب منهم نسوة :

هُمُ أنكحُوا بالغصب من فتياتكم جهاراً ومن شَرِّ المجاهرة الغَصْب
وما كان منا عنـــــد قوم سَبِيَّةٌ وما كان من أموالنا عندهم نهب[٢]

وتباهى الأعشى بيوم ذى قار ، وأن الرماح مكنت العرب المنتصرين من زواج نساء المهزومين من الفرس وحلفائهم من العرب :

ألا يا رُبَّ ما حَسْرَى ستُنْكحها الرماح حَمَا[٣]

٣— ولم ينفرد العرب بنكاح السبايا ، لأن هذا العرف كان شائعاً عند كثير من الأمم القديمة والمعاصرة للعرب .

كان شائعاً عند الأشوريين والإسرائيليين واليهود واليونان والرومان[٤] ، وكان المولى الإسرائيلى كثيراً ما يتخذ إحدى إمائه حليلة ، جاء فى التوراة : إذا ابتعت عبداً عبرانيا فليخدمك ست سنين ، وفى السابعة يخرج حرا بالمجان . . وإن زوجه مولاه بامرأة فولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها لمولاه ، ويخرج وحده[٥] .

وكان على الإسرائيلى إن أراد الزواج بإحدى سباياه أن يدعها شهراً تندب أهلها ثم يتزوجها . فإن لم ترقه بعد الدخول بها سرحها ، ولا يجوز له بيعها ، وحينئذ تصير حرة . ولعل هذا التشريع الذى حسن حال السبايا جاء متأخراً ، وما من شك فى أنه يحمل طابع الصحراء ، ونكاد نتنسم فيه روح الفروسية .

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٣٠٥ (٢) حماسة الخالديين ٥٥ مخطوط
(٣) ديوان الأعشى الكبير ٣٠٣ .
(٤) الرق فى الإسلام لأحمد شفيق ١٢ والنظم السياسية والاجتماعية ٣٣ و ٧٠ .
(٥) سفر الخروج ٢١ : ٢

والحرية العربية ، وربما نقلته بعض القبائل الإسرائيلية معها قبل نزوحها من الجزيرة العربية [١] : ولكن مع ذلك ظل مركز السبية أحط من الزوجة الحرة من الوجهة الاجتماعية والقانونية[٢] .

وكان الزواج بالسبية شائعاً عند الأشوريين ، وعقدت له قوانينهم فصلا خاصاً ، وإذا تزوج السيد سبيته ارتفعت إلى مقام الزوجة[٣] .

وفى القوانين البابلية نوعان من الإماء يطلق على أحدها أمتم **Amatum** ، والميم الأخيرة للتنوين ، ويطلق على الثانى شجيتم **sugitim** ، والميم للتنوين أيضاً ، وهما تضارعان فى العربية كلمة أمة وشجية ، والفرق بينهما فى البابلية أن الأمة هى الجارية التى كانت تختارها الزوجة العاقر لبعلها لتلد ، كما فعلت سارّة مع إبراهيم إذ اختارت له أمة مصرية ولدت له إسماعيل ، جريا على عادة البابليين . وكانت الأمة أحط من الزوجة مقاماً وعليها أن تطيع زوجة سيدها ، فإن عصتها حل بها عقاب شديد ، أما الشجية فهى الأسيرة[٤] .

وكذلك جرى الفرس القدماء على السبى والاستمتاع بالسبايا[٥] ، وكن متعة للأغنياء ، حتى كان من دأب الطبقة العالية ألا ينفروا إلى الحرب إلا والسبايا مصاحبات لهم . وقد ذكروا أن قصر الملك فى الإمبراطورية الأخيرة كان يضم من الخظايا عدداً يتراوح بين ٣٢٩ و ٣٦٠ ، لأنه صار من العادات المرعية ألا يضاجع الملك امرأة غير مرة واحدة ، إلا إذا كانت رائعة الحسن فائقة الجمال[٦] .

وكذلك كان الحال فى مصر ، فللرجل أن يباشر أمته ، وله أن يرفعها إلى مقام الزوجة[٧] .

---

(١) النظم السياسية والاجتماعية ٣٨
(٢) المرجع السابق ٣٨ (٣) النظم السياسية والاجتماعية ٣٧
(٤) المرجع السابق ٣٦
(٥) قصة الحضارة الفارسية ٥٦ ول ديورانت .
(٦) قصة الحضارة الفارسية ٦٠ (٧) الرق فى الإسلام ٩ .

وقد اعتبرته شريعة مانى نوعا من الزجاج . وشاع عند الإغريق فى بعض عصورهم ، واحتفظ به الإسبرطيون رمزاً لعقد الزواج[١] . وأقره أرسطو ، ولم يكن المرأة التى تباع أو تؤسر أن تمتنع من أن يباشرها سيدها[٢] .

وكان الرومان فى أول أمرهم يكرهون التسرى ، حتى تسرى اثنان من كبرائهم وأمرائهم ، فأقبلوا عليه إقبالا ، على أن السُّرية كانت عندهم أحط منزلة من الزوجة[٣] .

وكان الساميون عامة ينظرون إلى السُّرِّية على أنها أقل شأناً من الزوجة ، ويعتبرونها من العبيد[٤] .

وما زال السلاف فى الروسيا والصرب يمارسون زواج الاغتصاب إلى القرن الماضى ، ولا تزال آثار هذه العادة قائمة فى تمثيل العروس لدور المغتصب لعروسه فى بعض حفلات الزواج[٥] .

٤ — فليس بصحيح إذاً أن السبية عند العرب كانت من الناحية الجنسية خاضعة لآسرها ورهن مشورته ، وأن هذه معاملة استمرت إلى الإسلام ، وهى تنطوى على خزى وعار ومذلة وهدم لكرامة المرأة وشرف قبيلتها[٦] .

ليس هذا بصحيح ، لأن السبي نظام ضرورى يتبع الحرب . وماذا يفعل الرجال بالسبايا خيراً من أن يتزوجوهن أو يستولدوهن ، فيصرن حليلات وأمهات أولاد وأعضاء فى الأسرة ؟ أليس ذلك أفضل من بيعهن أو استعبادهن ؟ بلى .

ثم إن الأمم القديمة كلها كانت تمارس زواج السبايا ومباشرتهن كما سبق .

على أن العرب كانوا يكرمون زوجاتهم السبيات ، ويفاخرون بحسن

---

(١) Westermarck P. 386

(٢) الرق فى الإسلام ١٩ .

(٣) Gibbon. 11, 2o5

(٤) سفر التكوين إصحاح ١٢ : ١٦ وإصحاح ٢٠ : ١٤ وسفر الملوك الثانى إصحاح ٥ : ٢٦

(٥) قصة الحضارة ١/٧٤ ول ديورانت .

(٦) Women in hte Aiyam El Arab. P. 70

معاملتهن والحدب عليهن ؛ لأن زواج السبية لم يكن مقصوداً به إذلالها هى ، بل كان مرغوباً فيه ؛ لأنه ضرب من الفروسية ، ولأنه لا مهر فيه ، ولأن العرب كانوا يعتقدون أن أبناء الغرائب أنجب كما سبق ، لذلك يقول سعد بن مالك جد طرفة :

فالهَمُّ بيضات الخدو ر هناك لا النعَمُ المُراح[1]

ويقول حاتم الطائى :

ومـا أَنْكَحونا طائعين بناتهم	ولـكنَّا خطبناها بأسيافنا قَسْرا
فما زادها فينـا السِّباء مذلةً	ولا كُلِّفت خَبْزا ولا طبخت قدرا
ولكنا خلطناها بخير نسـائنا	فجاءت بهم بيضا وجوهُهم زهرا
وكائنْ ترى فينا من ابن سبية	إذا لقى الأبطال يطعنهم شَزْرا
ويأخذ رايات الطِّعانِ بكفِّه	فيوردها بيضاً ويصدرها حُمْرا
كريم إذا اعتز اللئيم تخاله	إذا ماسرى ليل الدُّجا قمرا بدراً[2]

كانت السبية تعامل معاملة حسنة « معتمدة على جمالها أو مواهبها أو نسلها ، ولكن هذا لا ينفى أن بعضهن كن يعاملن معاملة فيها قسوة[3] »

بيع السبايا وهبتهن وإرثهن :

١ ــ هل من الطبيعى أن يُكَلَّفُ كل رجل أن يتزوج بسباياه ؟ لقد يكنَّ كثيرات يضيق بزواجهن ، ولقد يكون له فى زوجاته السابقات مغْنًى ومقنع ، وربما لا يرقنه أو لا يروقه بعضهن ، فيلجأ إلى وسيلة غير الزواج للانتفاع بهن .

لذلك كان بعض العرب يبيعون السبايا ، حتى لقد كانت فى مكة سوق منظمة لبيعهن بيع العبيد[4] . وقد اشترى ثور بن أبى حارثة من خالد بن مالك أمته

---

(١) الحماسة ١/١٩٨
(٢) العقد الفريد ٣/٢١٠
(٣) Muslem Law P. 24 .
(٤) النظم السياسية والاجتماعية ٣٣

رُمَيْلة واستولدها أربعة من بنيه [١] ، وباع رجل فى الجاهلية امرأة وأنجبت من سيدها ، فلما مات عنها أريد بيعها وفاء لدينه، فشكت حالها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمر الوارث أن يعتقها وعوضه عنها بعبد [٢] .

وكثيراً ما كانت السبايا يوهبن كما يوهب المال ، فقد أغار الحارث بن تَوْلب — وكان سيداً معظما — على بنى أسد ، فسبى امرأة منهم يقال لها جمرة بنت نَوْفل ، فوهبها لأخيه النمر [٣] . وكان النعمان يهب السبايا ، وبهذا مدحه النابغة فى قوله :

الواهب المـائَة المِعْكاءَ زَيَّنَهَا سَعْدَانُ تُوضِـحَ فى أدبارها اللِّبَد
والرا كضات ذيولَ الرَّيْطِ فَانقها بَرْدُ الهواجر كالغزلان بالجَرَد [٤]

٢ — والعرب لم يشذوا فى هذا أيضاً ، لأن العبرانيين كانوا يبيعون النساء وإن لم يكن رقيقات ، فقد قال بوعز للشيوخ ولجميع الشعب : أنتم شهودى اليوم أنى قد اشتريتها لتكون لى زوجة [٥] .

وكان الرومانيون يبيعون الأسرى والسبايا للنخاسين كما يبيعون الغنائم ، وإذا حملوهم إلى رومة باعوهم بالمزاد ، وكانوا يبيعون عقب كل حرب ألوفا من السبايا والأسارى [٦] .

القوة عليهن أحياناً :

١ — لا شك أن الناس مختلفون فى كثير من الأخلاق والعادات، ولا شك أن ظروف السباء مختلفة أيضا ، فقد يسبى الموتور فيتشفى ممن سباهن وممن

---

(١) الأغانى ٨/١٥٣
(٢) كنز العمال ٤ الحديث رقم ٥١٢٦ وابن حنبل ٦/٣٦٠ وأبو داود ٤/٢٦
(٣) الأغانى ١٩/١٥٨ .
(٤) ديوان النابغة ٢١ . المعكاء : الغلاظ الشداد . سعدان توضح : نبت جيد التغذية للابل بهذا المكان . اللبد : المتلبدة الوبر . فانقها : نعم عيشها . الجرد : الموضع الذى لا ينبت أو موضع ببلاد تميم (٥) راعوث ٤ : ٩ و The Holy Bible .
(٦) تاريخ الحضارة ١٤٨ شارل سنيو بوس

أسرهم ، وقد يسبي القوى الغاصب فيحسن معاملة أسراه وسباياه .

على أن القسوة فى معاملة السبايا كانت عملا معيبا عند العرب يعيَّر به القساة ، فقد عاب خُفاف بن نُدْبة العباس بن مرداس بأنه يستهين بسبايا العرب، ويقتل الأسرى . فلما علم العباس قال لخفاف فى ملأ من بنى سُلَيم : وإنك لتعلم أنى أطلق الأسير ، وأصون السبية . . . وأما استهانتى بسبايا العرب فإنى أحذو القوم فى نسائهم بفعالهم فى نسائنا[١] . وفى أحوال نادرة سولت الظروف للآسر أن يقتل أسراه ، فقد قتل بنو تميم عبد يغوث بن صلاءة[٢] وذبح المنذر ابن ماء السماء أسرى بنى بكر على جبل أوراة ، وأحرق سبايا منهم[٣] ، وإلى ذلك يشير الأعشى بقوله :

سبايا بنى شيبـان يوم أُوراةٍ   على النـار إذ تُجْلى له فتياتها[٤]

وافتخر تميم بن الحباب السُّلَمى بأنهم بقروا النساء الحبالى :

بقرنا الحبالى من زهيرو مالك   ليبأس قومٌ من رجاء التَّجَبُّر[٥]

وردد عامر بن الطفيل الفخر ببقر الحبالى .

بقرنا الحبالى من شَنُوءة بعدما   خبطن بفَيْف الريح نَهْداً وخثعما

ونحن صَبَحْنَا حَىَّ نجران غارةً   تُبيلُ حبالاها مخافَتَنَا دما[٦]

وكرر هذا[٧] .

ومن هذا الخلق الذى يعدى على النساء قول جَهْم بن سَبَل الـكلابى .

حلفتُ لأُنْتِجَنَّ نساء سلمى   نتاجا كان أكثرَهُ الخِدَاجُ[٨]

٢ — على أن هذه القسوة كانت شاذة عند العرب كما سبق ، ولم ينفردوا

---

(١) الأغانى ١٦/١٣٥
(٢) المفضليات ١/١٥٣   (٣) الـكامل لابن الأثير
(٤) ديوان الأعشى ٦٣   (٥) معجم البلدان ٧/٣١٧
(٦) الديوان القصيدة ١٢   (٧) الديوان القصيدة ٢٧
(٨) معجم البلدان ٤/٢٠ . الخداج : إلقاء الجنين ناقصا .

بهم ، كدريد بن الصمة وإخوته ، والأشهب بن ثور ، وأبناء زرارة بن عدس ، كما أسلفت ذلك . أما أبناء الإماء فكانوا لا يلحقون بآبائهم إلا إذا ادعوهم ، كعنترة بن شداد .

وليس فى فخر أبناء السبايا هذا الشعور بالنقص الذى نجده فى فخر أبناء الإماء ، وفى محاولتهم التعويض عنه بالإشادة ببطولتهم تارة ، وبالمباهاة بآبائهم تارة .

ثم إن أبناء الإماء كانوا يتحاشون أن يذكروا أمهاتهم فى فخارهم أو فى غير فخارهم ، على حين نجد دريد بن الصمة يذكر فى رثائه لأخيه عبد الله — وهو أحد أشقائه — أنه ابن أمه ، وشريكه فى رضاع ثديها الثَّر العذب :

دعانى أخى والخيل بينى وبينه فلما دعانى لم يجدنى بقُعْدَد
أخى أرضعْتنى أمــه بلبانها بثديَىْ صفاء بيننا لم يُجَدَّد[1]

ولو أنه كان يجد فى نفسه ما وجد عنترة بن شداد من هوان أمه وضعة منزلتها ما سلك هذا المسلك فى توكيد حبه لأخيه ، وتفجعه عليه .

وقد سبق أن الخنساء ودريد بن الصمة تهاجيا لما رفضته زوجا ، وأنها رفضته لكبرة سنه ، ولو أن سبى أمه عار لجاء فى رفضها ذكر له كما سنرى فى رفض الشريفات لأبناء الإماء ، بل إن أباها هش له ورحب به ، وأنبأها أن سيد بنى جشم جاء يخطبها .

وسنرى أن الإماء مارسن من الأعمال مالم تمارس السبايا . وإذاً فقد استبان لى أنه لا مندوحة من التفريق بين السبايا والإماء فى صفة كل منهن ، وفى مكانتها فى نظر العرب ، وفى منزلة بنيها فى الحياة الاجتماعية .

---

(١) الأغانى ٩/٤ ولسان العرب مادة قعد وشعراء النصرانية ٧٥٧ قعدد : جبان لئيم قاعد عن الحرب والمكارم . لم يجدد : لم ينضب لبنه عن عيب أو لم ييبس .

معاملة الاماء

— ١ —

١ — استيلادهن :

كان سادتهن يستولدونهن أحياناً .

ومن الطبيعى ألا يسمو ابن الأمة إلى مكانة ابن الحرة إلا إذا تميز بصفات تجبر ما فى استرقاق أمه من خدش لمكانته ، وقد كان الأكاسرة وأكثر عرب الجاهلية لا يسودون أولاد الإماء ، ويسمونهم الهُجَناء ، ويسمون أولاد المهيرات الصُّرَحاء[1] . يقول مهلهل فى امرىء القيس بن حُمَام — وكان هجينا :

لما توعَّر فى الكُراع هَجينُهم هَلْهَلْتُ أثأر جابراً أو صِنْبلا[2]

وقد سبق فى الزواج أن العربية كانت تأنف أن يتزوجها عبد أو ابن أمة ، فقد عاش الشنفرى أسيراً فى بنى سُلامان حينا ، لا تحسبه إلا أحدهم ، حتى لقد اتخذه السلامى ولداً ، فقال الشنفرى يوماً لبنت سيده : اغسلى رأسى يا أخية . فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته[3] . لذلك كان أبناء الإماء يعيرون بأمهاتهم ، يدل على ذلك أن عروة بن الورد العبسى سبى سَلْمى الغفارية ، فولدت له أولاداً ، وكان شديد الحب لها ، وكان أولاده يعيرون بأمهم ، ويسمون بنى الأَخِيذة . فقالت له : ألا ترى ولدك يعيرون ؟ قال : فماذا ترين ؟ قالت : أرى أن تردنى إلى قومى حتى يكونوا هم الذين يزوجونك . ففعل ما أشارت به ، وتزوجها من قومها[4] .

ومن التعيير بالأم الرقيقة قول أوس بن حجر :

---

(١) جمهرة الأمثال ١٥ .

(٢) معجم الشعراء للمرزبانى ١١ ولسان العرب مادة هلل . توعر : أخذ فى مكان وعر وأنشده الجوهرى لما توغل .

(٣) الأغانى ٢١/٨٧ (٤) الأغانى ٣/٣٨ .

أبنى لُبَيْنَى إن أمكم أمَةٌ وإن أباكم عبد[١]

وقول عُمَيْرة بن جُعَل فى هجاء خَصْمَيْه :

وجَدّا كما عبدا عُمَيْر بن عامر وأمّا كما من قَيْنَةٍ أمتان[٢]

وقول حسان بن ثابت :

أبوك أبوك وأنت ابنه فبئس البُنَىُّ وبئس الأب

وأمك سوداء نوبية كأن أناملها الحُنْظَب

يبيت أبوك بها مُغْدِفاً كما ساور الهِرّةَ الثعلب[٣]

ويعير الأسود بن يعفر بنى نُجَيْح بقوله :

أبنى نُجَيْح إن أمكم أمة وإن أباكم وَقْبُ

أكلت خبيث الزّاد فاتّخمَتْ منه وشمّ خمارها الكلب[٤]

وكثير من الشعراء افتخروا بأن أمهاتهم حرائر ، وكثير من السادة مدحوا بحرية أمهاتهم كما سبق فى (الأم) ، كقول الخنساء فى رثاء صخر :

يا بن القروم ذوى الحجا وابن الخضارمة المرافد

وابن المهائر للمها ئر زانها الشِّيمُ المواجد[٥]

٢ ـ وقد اشتهر بعضهم بالفروسية ، كخُفاف بن عمير بن الشريد أمه نُدْبة وهى أمة سوداء وإليها نسب[٦] ، والسُّلَيك بن السُّلكة أمه السلكة أمة سوداء نسب إليها[٧] ، وعنترة بن شداد أمه زَبيبة أمة سوداء[٨] ، والحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى أمه حبشية اسمها سَبْحاء ، وكذلك عثمان بن

---

(١) ديوان أوس بن حجره (٢) المفضليات ٢/٦٠ .

(٣) الحنظب : ذكر الجراد أو ذكر الخنفساء . مغدف : سافد .

(٤) لسان العرب ٢/٣٠٠ وقب : عبد . (٥) ديوان الخنساء ٦٢ .

(٦) الشعر والشعراء ١٢٢ والأغانى ١٦/١٣٤ (٧) الشعر والشعراء ١٣٤ .

(٨) الأغانى ٧/١٤٢ والشعر والشعراء ٧٥ وشرح المعلقات السبع لابن الأنبارى ٥٠ مخطوط .

عَنْبسة ، ومالك بن ضَبّ الـكلبى ، وشقيق بن سلمة ، وحنظلة بن صفوان الـكلبى[(١)] . وقد ذكر المبرد طائفة من النجباء أبناء الإماء[(٢)] .

٣ ـ لذلك لم يطق بنو الإماء صبراً على هـذا التعيير ، فطالما ردوا عليه بفخرهم بأنهم شجعان فرسان مغاوير ، و بأنهم كرماء ماجدون ، لـكننا لا نجد فى شعرهم اعتزازاً بنسب الأم أو سخطاً على السبى والاسترقاق ، أو نزوعا إلى المساواة ، ودعوة إلى الأخوة الإنسـانية . وأنى لهم أن يدعوا إلى ذلك وهم لا يدينون به ، والعصر كله يدين بالسباء ، و بالتفاوت فى القدر بين الحر والعبد ، و بين الحر والحر ؟

لذلك يعترف خُفاف بن نُدبة بأن نسبه من جهة أمه أسود ، لـكن مآثره سودته فى قومه ، يقول عن نفسه وعن العباس بن مرداس وهو ابن أمة مثله :

كلانا يسـوده قومه على ذلك النسب المظلم[(٣)]

وله شعر كثير فى دفاعه عن نفسه[(٤)] . وفصّل فى بعضه مفاخره ، فيقول إنه جلد صبور لبق ، ينتسب إلى أجداد ذوى عزة ، وذوى مفاخر ، لـكنه لم يعين هؤلاء الأجداد أهم آباء أمه أم آباء أبيه :

إن تعرضى وتضنى بالنَّوال لنا فواصِلنَّ إذا واصلت أمثالى

إنى صبور على ما ناب معترفٌ أصرِّف الأمر من حال إلى حال

أنْمَى إلى مجد أجداد لهم عَدَدٌ مذلّين لوطء الحق أزْوَال[(٥)]

وكثيراً ما دافع عنترة عن سواده ، وخايل ببطولته ، وإذا كان قد حرم

---

(١) المحبر ٣٠٥ . (٢) الـكامل للمبرد ١/٣١١ .

(٣) الشعر والشعراء ١٢٢ .

(٤) منتهى الطلب ١/١٥ ـ ٢٢ مخطوط . (٥) منتهى الطلب ١/٢١ .

السراوة من جهة أمه فإنه قد أحرز نصف المجد من أبيه ، وكسب نصفه الآخر بسيفه ، فهو إذا خير من شريف الأب والأم :

إنى امرؤ من خير عبس منصبا شَطْرى ، وأحمى سائرى بالْمُنْصُل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت أُلْفيتُ خيراً من مُعمّ مُخوِل
إن كنت فى عدد العبيد فهمتى فوق الثريا والسماك الأعزل
وبذابلى ومُهَنَّدى نلت العــلا لا بالقرابة والعديد الأول[(١)]

ويدافع عن سواده بأنه تمييز له، وعلَم على شجاعته يوم الحرب:

لئن يعيبوا سوادى فهو لى نسب يوم النزال إذا ما فاتنى النسب[(٢)]

وكذلك دافع السليك بن السُّلَكة عن رق أمه بقوله :

ألا عتبت علىَّ فصــارمتنى وأعجبهــا ذوو اللِّمم الطِّوال
فإنى يا بنــة الأقوام أُرْبِى على فعل الوضىء من الرجال
أشابَ الرأسَ أنى كل يوم أرى لى خالة وسط الرِّجال
يشق علىّ أن يلقين ضيما ويعجز عن تَخَلُّصِهن مالى[(٣)]

ولم يُغْض أبناء الإماء عن مهانة تلحق بأمهاتهم، وإنما دافعوا عنهن وأحسنوا، فقد استطالت امرأة من بنى مرة على سُهَيَّة أم أرطأة ، وسبّتها ، فخرج إليها أرطأة ، فسبها وضربها ، فلامه قومه ، وقالوا : مالك تدخل نفسك فى خصومات النساء ؟ فقال :

يعيرنى قومى المجاهِلَ — والخنا عليهم — وقالوا أنت غير صميم
هل الجهل فيكم أن أعاقب بعدما تُجُوِّز سَبِّى واستُحلَّ حريمى

---

(١) ديوان عنترة ١١٩ وربيع الأبرار ٨ مخطوط والمعانى الكبير لابن قتيبة ١/٥٠٧ ويريد بالمعم المخول قيس بن زهير وكان له عشرة أعمام وعشرة أخوال .

(٢) الديوان ١٠ . (٣) تهذيب الكامل ٢/٩٧ .

إذا أنا لم أمنع عجوزى منكم فكانت كأخرى فى النساء عقيم[(١)]

ثم جاء نُصَيْبٌ فدافع عن سواد لونه فى الإسلام بقوله :

ليس السواد بناقصى ما دام لى هذا اللسان إلى فؤاد ثابت

من كان ترفعه منابتُ أصله فبيوت أشعارى جعلت منابتى

كم بين أسود ناطق ببيانه ماضى الجنان وبين أبيض صامت[(٢)]

على أننا إذا كنا لا نجد فى العصر الجاهلى شاعراً نافح عن نسبه ، أو حاول السمو به إلى سمت العرب ، فليس معنى هذا أنهم ارتضوا حياتهم ، واطمأنوا إلى أقدارهم ؛ لأنه لاشك فى أنهم كانوا يجنون آلامهم فى أنفسهم ، ويكبتون سخطهم أن يظهر ..

٤ — وكان العرب لا يلحقون أبناءهم من الإماء بنسبهم ، فلا يرثون إلا إذا ادعوهم ، وأشهدوا على أنهم ألصقوا بهم نسبهم . فإذا لم يلحق الرجل ابنه بنسبه استعبده[(٣)] . وقد ألحق شداد ابنه عنترة به لما أبلى فى رد المغيرين على بنى عبس إذ قال له أبوه : كُرَّ يا عنترة . فقال : العبد لا يحسن الكر ، إنما يحسن الحلاب والصرَّ . فقال : كرّ وأنت حر . فكر وهو يقول :

أنا الهجينُ عنتره كل امرىء يَحْمى حِرَه

أسوده وأحمره والواردات مُشْفره

وقاتل يومئذ قتالا مجيداً ، فادعاه أبوه ، وألحق به نسبه[(٤)] .

وربما كان من أسباب احتقار بعضهم لأبناء الإماء أن بعض الإماء كن يزنين فى الجاهلية ، وكان سادتهن يأتونهن أيضا ، فإذا أتت المرأة بولد فربما

---

(١) الأغانى ١١/١٤٠ . (٢) الأغانى ١/١٣٦ .

(٣) الشعر والشعراء ٧٥ والأغانى ٧/١٤١ .

(٤) الأغانى ٧/١٤٢ والشعر والشعراء ٧٥ وشرح المعلقات للزوزنى ٥٠ مخطوط .

يدعيه الزانى ، فإن مات السيد ولم يكن قد ادعاه ولا أنكره ، فادعاه ورثته لحق به ، لكنه لا يشارك مستلحقه فى ميراثه ، إلا أن يستلحقه قبل القسمة ، وإن كان السيد أنكره لم يلحق به .

من ذلك أن زمعة بن قيس كانت له أمة ، وكان يلم بها ، فظهر بها حمل وكان سيدها يظن أنه من عتبة بن أبى وقاص ، فعهد عتبة قبل موته إلى أخيه سعد أن يستلحق ذلك الحمل . فلما كان عام الفتح تنازع فى الولد سعد وعبد ابن زمعة ، الأول يقول أنه ابن أخى ، والثانى يقول إنه أخى وابن جارية أبى ، واحتكما إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقضى بأن الولد للفراش[١] . ثم إن الأمة أدنى شأناً من السبية كما سبق ، وابنها مثلها فى ضعة الشأن .

٥ — ليس العرب بدعاً فى نظرتهم هذه إلى أبناء الإماء . ففى شريعة حمورابى أن أولاد الرجل من جاريته لا يعدون أولاداً شرعيين ، إلا إذا نسبهم إليه، فإذا نسبهم إليه كان لهم حق الإرث، وإلا فلا ميراث، ولكنهم يعتقون[٢] .

والرومان كانوا يعدون أولاد السبايا عبيداً كأمهاتهم[٣] .

وقد حدث هيرودوت عن اللاسيين أنهم كانوا يلقبون أولاد الإماء بأسماء أمهاتهم لا آبائهم ، فلو سئل أحدهم عن اسمه ذكر اسمه واسم أمه ثم جدته لأمه . وأعجب من ذلك أن المرأة الحرة إذا تزوجت عبداً عد أولادها أحراراً ، أما إذا كان الزوج حراً وامرأته أمة فأولادها رقيق ، وإن كان أبوه أعظم رجل فى المملكة[٤] .

ولم ينتسب ابن الجارية إلى أبيه عند اليهود وإن تهود ، لقول الكتاب :

---

(١) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى ٢/١٧٣ .

(٢) العرب قبل الإسلام جرجى زيدان ٤٧ .

(٣) تاريخ الحضارة ١٤٨ شفرل سنيوبوس . (٤) الأمومة عند العرب ٤٥ .

« عصوا الله وجاءوا بنسل غريب[(١)] » . لذلك كان من الطبيعى ألا يرث[(٢)]

وجرى الأشوريون على حرمان أبناء السبايا من الميراث ، إلا إذا لم يكن للأب أولاد من زوجة حرة[(٣)] .

وكذلك البابليون ، فإنهم لم يورثوا ابن الأمة إلا إذا اعترف به أبوه أمام شهود[(٤)] .

وقد أقر أرسطو استمتاع الرجل بجاريته على أن يكون ابنها حراً[(٥)] .

وكان من أهم مصادر الرق عند الإسرائيلين تناسل الأرقاء ، فكانت القاعدة عندهم . أن الولد يتبع أمه حرية ورقا ، فابن الرقيقة يولد رقيقاً ولوكان أبوه حراً ، بل لوكان أبوه هو السيد نفسه وكذلك كان اليونان يفعلون .

فإذا ادعاه أبوه لحق به ، فصار ولداً شرعياً . لكن اليونان اعتبروا حريته ناقصة ، لأنه من الجائز أن يعود إلى الرق بعد موت أبيه[(٦)] . ولم تسمُ أمة بأبناء الإماء كما سمَتْ مصر ؛ لأن المصريين كانوا يسوونهم بأبناء الزوجات الشرعيات حتى فى التربية والميراث[(٧)] .

وإذا فقد كان أبناء الإماء عبيداً فى نظر العرب والرومان واللاسيين واليهود ، وكانوا محرومين من الميراث فى عرف العرب وشريعة حمورابى واليهود والأشوريين والبابليين ، وكانوا لا يلحقون بنسب الآباء فى الأمم إلا إذا ادعوهم .

ولم يغاير العربَ فى نظام النسب إلا أرسطو والمصريون القدماء .

---

(١) شعار الخضر ٨٩ .
(٢) شعار الخضر ١٧٣ .
(٣) النظم السياسية والاجتماعية ٣٧ .
(٤) المرجع السابق ٣٦ .
(٥) الرق فى الإسلام ١٩ .
(٦) قصة الملكية فى العالم ٥٣ ، ٧٧ .
(٧) الحضارة المصرية ٧١ لوبون .

— ٢ —

وكانت الإمة تستعبد كما يستعبد الأسير ، والأسير كان فى عداد العبيد ، فقد أسر زيد الخيل جماعة من بنى عامر وحلفائهم ، منهم الحطيئة الشاعر ، ثم منّ عليه وأطلقه وقال :

أقول لعبدِى جَرْول إذ أسرتُه ... أثِبْنى ولا يغرُرْكَ أنك شاعر

فمدحه الحطيئة بقصيدتين(١) .

وكن إذاً يقمن بأعمال تناسب عبوديتهن .

١ — فيخدمن سادتهن ، ولهذه الخدمة مظاهر شتى ، فقد تكون خدمة للملوك تشبه عمل الوصيفات . يدل على ذلك قول النابغة الذبيانى فى مدح عمرو ابن الحارث الغسانى :

تحييهم بيضُ الولائد بينهم ... وأكسية الإضْريج فوق المشاجب(٢)

وقد يطبخن الطعام ، ويظهر أنهن كن يستقللن بالطبخ فى بيوت الأشراف ، لأن نساءهن مترفات أو مترفعات أو مكفيات العمل ، قال طرفة :

تبيت إماء الحى تَطْهى قُدُورنَا ... ويأوى إلينا الأشعث المتَحرِّف(٣)

وقال إن الإماء اشتوين لنا ولد الناقة على الرماد الحار وعلى الجمر ، وسعين علينا بقطع من السنام السمين :

فظل الإماء يمتللن حُوارها ... ويُسْعَى علينا بالسَّديف المسَرْهَد(٤)

---

(١) الأغانى ١٦/٥٤ .

(٢) ديوان النابغة ٨ الولائد : الإماء . الإضريج : خز أحمر أو أصفر .

(٣) ديوان طرفة ٤٤ و ١٢٧ وشعراء النصرانية ٣١٣ المتحرف : الذى أذهبت السنون ماله .

(٤) ديوان طرفه ٣٥ وشرح المعلقات السبع لابن الأنبارى ٣٧ مخطوط . عتللن : يشوين فى الملة وهى الرماد الحار والجمر . الحوار : ولد الناقة . السديف : قطع السنام . المسرهد : السمين .

و إذا مافرغ السادة من الطعام أكلت الإماء ما بقى ، يدل على ذلك قول النابغة :

فظل الإماء يبتدرن قَدِيحَها كما ابتدرت سعدٌ مياه قُراقِرِ[١]

ويقول عمرو بن قميئة :

ورأيت الإماء كالجِعْثِن البا لى عكوفاً على قرارةِ قِدْرِ
ورأيت الدخان كالْوَدَع الأصْحَمِ يَنْبَاعُ من وراء السِّتْر[٢]

ومدح الأسود بن يعفر قوماً بأنهم كرماء لا تميل إماؤهم أوانى الطبخ ، أى لا يفرغن من الطاهو للضيفان :

بها ليل لا تُصْغِى الإماء قدورهم إذا النجم وافاهم عشاء بشمأل[٣]

وكن يحتطبن أيضاً ، يقول الأخنس بن شهاب فى وصفه الأطلال إن النعام يمشى بها آمناً متثاقلا كمشى الإماء الحواطب أعياهن ثقل الحمل :

فلابنة حطان بن قيس منازل كما نَمَّق العنوانَ فى الرَّق كاتب
تُمَشِّى بها حُولُ النعام كأنها إماء تُزَجِّى بالعشى حواطب[٤]

و يقول طرفة فى هذا المعنى :

حابِسى رسمٌ وقفتُ به لو أطيع النفسَ لم أرِمُهْ
لا أرى إلا النعام به كالإماء أشرفت حُزَمُهْ[٥]

---

(١) أساس البلاغة مادة قدح . قديح . بقية المرق فى القدر .

(٢) ديوان عمرو بن قميئة ٦٦ الجعثن : أصول الصليان وهو نبت . الودع : الطين . ينباع : يخرج فى شدة .

(٣) لسان العرب ١٩/١٩٦ لا تصغى : لا تميل أو لا تنقص القدور (القاموس والأساس) وفى اللسان لا تصفو أى لا تأخذ صفوه .

(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٣/١٢٣ والموشح ٤٤ وشعراء النصرانية ١٨٤ حول : لم تحمل . (٥) ديوان طرفة ٧٠ .

وقد وصف قيس بن الخطيم الإماء بأنهن حواطب ، مما يدل على شيوع هذا العمل فى طبقة خاصة أو على أنه عمل مرهق :

أصابَتْ سراةً مِلْأَغَرِّ سيوفُنا ... وغودر أولاد الإماء الحواطب[1]

وكان الاحتطاب من عمل العبيد أيضاً . يؤيد ذلك قول امرىء القيس إنهم خرجوا للصيد وشرع عبيدهم يجمعون الحطب ليشتووا القنص :

خرجنا نَرِيغُ الوحشَ بين ثُعَالةٍ ... وبين رُحَيّات إلى فَجِّ أَخْرُب

إذا ما ركبنا قال ولدان أهلنا ... تعالوا إلى أن يأتنا الصيد نَحْطِب[2]

وكن يرعين الغنم والإبل كما يرعى العبيد ، قال ذو الإصبع العدوانى فى رده على ابن عمه وتعريضه به ـ وكان ابن أمة :

عنِّى إليك فما أمى براعية ... ترعى الْمَخَاض وما رأيى بمَغبون[3]

وقال الأعشى :

والبيضُ قد عنَسَتْ وطال جَراؤها ... ونشأنَ فى قِنٍّ وفى أذْواد[4]

٢ — يحترفن بالبغاء :

(ا) كان بعض الإماء جميلات كما وصفهن طرفة[5] ، وعبدة بن الطبيب[6] وسلامة بن جندل[7] ، وامرؤ القيس[8] . وكن لا يتحرزن ولا يتصونّ ، فكان الرجال يستمتعون بهن . يدل على ذلك قول الأعشى :

والبيضُ قد عنست وطال جراؤها ... ونشأن فى قِنّ وفى أذواد

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم ١٨ مخطوط .

(٢) معجم البلدان ١٤٨/١ . (٣) المفضليات ١٥٨/١ والأمالى ٢٥٥/١ المخاض : الحوامل من النوق أو التى بلغت سنتين . (٤) ديوان الأعشى ٩٩ : عنست : لم يتزوجن . طال جراؤها : طال زمن شبابها . قن : رق . أذواد : جماعات من الإبل .

(٥) ديوان طرفة ٣٥ . (٦) المفضليات ١٤٣/١ . (٧) المفضليات ١١٨/١ .

(٨) ديوان امرىء القيس ١٤٢ .

ولقد أخالسهنَّ ما يمنعنى عُصُراً يَملْنَ علىَّ بالأجْياد[١]

وقد أحب واحدة منهن ، وأكثر من التشبيب بها ، أحب هُرَيْرة ، وكانت هى وأختها خُلَيْدة قينتين لبشر بن عمرو مِرْثد ، قدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان[٢] .

(ب) لهذا احترف بعضهن بالبغاء ، وكان البغاء مقصوراً عليهن ، والدليل على ذلك أن البغىَّ فى اللغة الأمة أو الحرة الفاجرة[٣] ، ومن إطلاقها على الأمة قول الشاعر :

نخر البغى بحـــدج ربَّـ ـتها إذا ما الناس شَلّوا[٤]

ويذكر أبو على القالى أن البغاء الفجور فى الإماء خاصة، وأن البغىّ الأمة[٥] .
وقد عبر الأعشى عن الإماء بالبغايا فى مدحه الأسود بن المنذر أو المنذر ابنه :

يَهَبُ الجِلّة الجراجر كالبُسْـ ـتان تحنو لدَرْدَق أطفال
والبغايا يَرْكُضْنَ أكسبة الإضْـ ـريج والشَّرْعبىّ ذا الأذيال[٦]

ثم إن القرآن الكريم عبر عنهن بالفتيات ، وهذه الكلمة لم تطلق فى القرآن إلا على الإماء « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانهم من فتياتكم المؤمنات[٧] » ، « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم، ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ،

---

(١) ديوان الأعشى ٩٩ الجراء : الشباب والفتاء . قن : رق . أذواد : جماعات من الإبل .
(٢) الأغانى ٨/٧٧ .
(٣) القاموس المحيط ولسان العرب مادة بغى .
(٤) جمهرة الأمثال ١٠٧ .
(٥) الأمالى ٢/١٧٥ .
(٦) ديوان الأعشى ١٠ ولسان العرب ١٨/٨٣ الجلة : الإبل المسنة . الجراجر : جمع جرجور وهو البعير الضخم . دردق : صغار الإبل . الشرعبى : نوع من البرود .
(٧) سورة النساء الآية ٢٥ .

ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم[١] » . فلو أن البغاء كان بين الحرائر أيضاً ما خص القرآن الإماء بالذكر ، على أن أنفة العرب وغيرتهم على الحرائر ، وعفة الحرائر أيضاً وتخوفهن سوء القالة ، كل ذلك كان مغنياً عن نهى العرب عن إكراه النساء الحرات على البغاء[٢] .

(ج) وإذاً فقد كان بعض الرجال يقتنى الإماء ويكرههن على البغاء ، ليجابن له مالا ، أو ليلدن أولاداً يبيعهم ، أو ليكرم ضيفه ، فمثلا كان عبد الله ابن جدعان نخّاساً ، له ست جوار يزنين ويبيع أولادهن[٣] ، وكان عبد الله ابن أبىّ بن سلول يجبر جاريتيه أو جواريه الست على البغاء ؛ لأنه كان يبيع أولادهن ، ويتقاضى منهن ضرائب ، وكان إذا نزل به ضيف أرسل إليه جارية ليباشرها تكريماً له ، فشكت إحداهن أو اثنتان منهن إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية . وعن ابن عباس وعن علىّ أن بعض الرجال كانوا يكرهون إماءهم على الزنا ، ويأخذون أجورهن فنهوا عن ذلك فى الإسلام[٤] ويظهر أن شذاذاً من الأعراب كآل عزة بالعراق ظلوا يجبرون جواريهم على الزنا مجلبة للأولاد كفعل الجاهلية[٥] .

ولم يكن هذا العمل القبيح موقوفاً على ابن جدعان وابن أبىّ ، وإنما مارسه غيرهما كما سيجىء .

(د) وكن يميزون بيوتهن بأن ينصبن عليها رايات لتدل إليهن من يريدهن[٦] .

---

(١) سورة النور الآية ٣٣ .

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٣٦١ ــ ٣٦٨ .

(٣) الأعلاق النفيسة لابن رسته ٧/٢١٥ .

(٤) تفسير الطبرى ١٨/١٠٣ وتفسير القرطبى ١٢/١٥٤ والإصابة ٨/٢١و١٨٩ وفتح البارى ٤/٣٧٨ وتفسير الألوسى ١٨/١٥٧ والعقد الفريد ٣/٢ وتفسير الجلالين ٢٩٥ وتفسير الرازى ٦/٣٩١ . (٥) تفسير الألوسى ١٨/١٥٧ . (٦) إنسان العيون ١/٤٦ .

وقد ذكرتهن السيدة عائشة فى أنكحة الجاهلية[١] . وقيل إنهن كن تسعا أو أكثر معروفات ، سمى منهن هشام بن الكلبى أكثر من عشر فى كتابه : المثالب[٢] . وهن جميعاً من سواقط الإماء مثل سُرَيْفة جارية زمعة بن الأسود ، وأم عُلَيْط جارية صفوان بن أمية ، وحَنّة القبطية جارية العاص بن وائل[٣] .

وقد اشتهر من هؤلاء سُمَيَّة أم زياد وإخوته ، وهى جارية فارسية أهديت إلى سيدها الحارث بن كلدة الطبيب[٤] ، وكان لها أبناء اشتهروا . فابنها أبو بكرة نُفَيْع انضم إلى الرسول فى حصار الطائف سنة ٨ هـ عندما وعد من ينضم إليه أن يكون حراً ، سواء أكان حراً أم عبداً ، وصار من مواليه[٥] . وابنها نافع بقى مع الحارث بن كلدة فأعلن حريته وبنوته كما أعلن بنوة أزْدة بنت سمية[٦] .

وهؤلاء جميعاً إخوة زياد لأمه ، وبحسب زياد من نباهة الشأن أن ادعى أخوته معاوية ، وأن جعله أكبر ولاته .

(هـ) وإذا ما تغضنت وجوه هؤلاء البغايا الحسان ، ويبست أعوادهن ، وانصرف الرجال عنهن غالبتهن طبيعتهن ، فسفرن بين الرجال والنساء ، يتكسبن بذلك ، ويتعزين بشيوع الفاحشة ، ويثأرن من المجتمع الذى يحتقرهن .

يدل على ذلك قول السيدة عائشة : ليست الواصلة بالتى تعنون ، وما بأس إذا كانت المرأة زعراء أن تصل شعرها ، ولكن الواصلة أن تكون بغياً فى

---

(١) فتح البارى ٩/١٥٩ . (٢) بلوغ الأرب للألوسى ٢/٥ .
(٣) بلوغ الأرب للألوسى ٢/٥ . (٤) أسد الغابة ٥/١٥١ . والروض الأنف ٢/١٣ والمعارف ٩٧ ومعجم البلدان ٢/١٥٢ والأغانى ١٧/٦٥ ودائرة المعارف الإسلامية ١/٣١٥ . (٥) المغازى ٣٢١ والروض الأنف ٢/٣٠٤ .
(٦) فتوح البلدان ٣٤٣ و ٣٥٠ والمعارف ٩٧ .

شبيبتها ، فإذا أسنَّتْ وصلته بالقيادة[١] . وفى شعر امرىء القيس[٢] والأعشى[٣] وعنترة[٤] ما يدل على ذلك .

(و) وهؤلاء البغايا كن محقّرات ، لأنهن جمعن حقارة الإماء إلى حقارة البغاء ، والدليل على تحقير الإماء وبخاصة فى نظر النساء أن عاصية بنت ثابت ابن أبى الأفاح زوجة عمر رضى الله عنه لما أسلمت أتت عمر فقالت : قد كرهت اسمى فسّمنى . فقال : أنت جميلة . فغضبت وقالت : ما وجدت اسما تسمينى به إلا اسم أمة ؟ وأتت النبى صلى الله عليه وسلم واستسمته فسماها جميلة أيضاً . فغضبت ، وذكرت ما قالت لعمر ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما علمت أن الله عند لسان عمر وقلبه[٥] .

ويدل على ذلك أيضاً هجاء عمرو بن معد يكرب لخصومه بقوله :

وكنتم أعبدا أولاد غَيْلٍ بنى آمٍ مَرَنّ السِّفـاد[٦]

وقد أكثر يزيد بن مفرغ من هجاء عباد بن زياد ، والتنديد بمعاوية ، لأنه ادعى أخوة زياد ، كقوله لعباد :

إذا أودى معاوية بن حرب فبشرْ شعْبَ قابك بانصداع

فاشهدُ أن أمك لم تبـاشر أبا سفيان واضعة القنـاع

ولكن كان أمر فيه لبسٌ على وجلٍ شـديد وارتياع[٧]

وقوله لمعاوية :

ألا أبلغ معـاوية بن حرب مُغَلْغَلَةً من الرجل اليمانى

---

(١) عيون الأخبار ٤/١٠٢ .
(٢) ديوان امرىء القيس ١١٣ .
(٣) ديوان الأعشى ١٢٢ و ١١٤ .
(٥) ديوان عنترة ١٥٢ . .
(٥) الإصابة ٨/٤٠ .
(٦) لسان العرب ١٨/٤٧ الغيل : اللبن ترضعه المرأة وهى حامل . آم : إماء .
(٧) الأغانى ١٧/٥٧و٦٦ والشعر والشعراء ١٣٣ .

أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زان ؟
فاشهدُ أن رُحْمَك من زياد ... كَرُحْمِ الفيل من ولد الأوتان
وأشهد أنهــا ولدت زياداً ... وصخرٌ من سُمَيــة غير دان[١] ،

وله فى هذا المجال جولات[٢] .

وكانت البغايا يشعرن بمهانتهن كما يشعر الإماء بعامة ، ومصداق هذا أن بيوتهن كانت بمنأى عن المساكن ومضارب الخيام ، وأن روادهن كانوا ينسلّون إليهن فى الظلام ، لذا سمّين المُظْلِمات تقول العوراء بنت سُبيع فى رثاء أخيها إنه كان عفاً لا يرود بيت مظلمة :

أبــكى لعبــــد الله إذ ... حُشَّتْ قبيلَ الصبح ناره
طيانَ طاوى الــكشح لا ... يُرْخَى لمظلمــةٍ إزاره[٣]

وقد قيد العرب البغاء بقيود ، منها أنه كان يحظر على العربية أن تمتهن بالبغاء لأنه كان يقصر على الرقيقات الأجنبيات ، ومنها أن كثيراً من الالتزامات العائلية كانت تجب بسببه[٤] كما ذكرت السيدة عائشة فى حديثها عن نـكاح الجاهلية أن البغى إذا حملت ووضعت جمعوا لها القافة ، فألحقوا ولدها بمن يرونه شبيها له من الذين ترددوا عليها ، فيدعى ابنه ولا يمتنع من إلحاقه[٥] .

(ز) ولست أرتاب فى أن تأجير الأمة للزنا امتهان لها ، ومهانة لسيدها ، ولا يمسح هذه الوصمة عن العرب أن بعض الأمم شاركتهم فيها ، فالرومان كانوا يسبون النساء ليستمتعوا بهن ويؤجروهن ، وارتفعت أثمان الجوارى الحسان لأنهن يجلبن لمالكهن ثروة من الفجور[٦] .

---

(١) المرجع السابق .   (٢) الأغانى ١٧/٥٧ ــ ٧٠ وخزانة الأدب ٢/٥١٦ ووفيات الأعيان ٣/٣٢٣ والعقد الفريد ٣/٢٣١ ويذكر صاحب العقد أن عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت هو القائل : ألا أبلغ معاوية بن حرب . الأبيات .
(٣) مراثى شواعر العرب ١٤٧ حشت : أوقدت .   (٤) الأسرة والمجتمع ٧٥ .
(٥) إنسان العيون ١/٤٧ .   (٦) الرق فى الإسلام ٣٤ .

وقد أقر المشرعون هذا الضرب من الاستغلال ، حتى إن صولون نظم البغاء وأنشأ منازل خاصة للبغايا ، واشترى عددا كبيرا من الإماء ، ووزعهن على هذه المنازل لتنتفع الدولة بأجورهن . وكان بجوار هذا البغاء التجارى بناء آخر دينى فى معابد لإلهة فينوس (الزهرة) يخصص للمعبد ، وانتشر هذا البغاء فى بلاد اليونان ، وعدوه من صالح الأعمال ، ونذروا به للإلهة فينوس ، ومدحوه[١] .

وكانت الفتيات والزوجات يبحن للرجال أن يباشروهن فى هيكل الإلهة عشتروت ببعلبك،ويعتبرن هذا عملا مقدساً ، لأنه زلفى إلى إلهة الخصب والنتاج ، وقد ظلت هذه العهارة المقدسة إلى عهد قسطنطين[٢] .

كذلك كان لزاما على كل امرأة فى بابل وأشور أن تمارس العهارة المقدسة مرة فى حياتها ، فكان هيكل مليتا ربة الجمال يغص بهؤلاء النسوة[٣] ، وقد شهد هيرودوت هذه الحفلات فى أشور تقديساً للإلهة استار[٤] ، كذلك كان الفينيقيون والإسرائيليون يمارسون العهارة المقدسة ، واتخذوا البغاء تكريماً لعشتروت[٥] .

بل إن فساد الخلق تسرب إلى زوجات بعض القياصرة ، وجاهرن به ، وحسبنا أن نذكر اسم ليفيا أو ستيايا زوجة كاليكولا (٣٧ ـ ٤١ م) ومسّالين زوجة خليفته كلود (٤ ـ ٥٤ م) . وكانت تيودورا زوجة جستنيان الأول سيئة السيرة ، وقالوا إنها فسقت علانية مع ابنها ومع أختها ، ومع سيدات الحاشية وتمادت إلى أن كانت تخرج مع أختها فى الليل فتفترشان بساطاً فى الشارع وتفسقان عليه[٦] .

---

(١) قصة الملكية فى العالم ٧٩ .   (٢) النظم السياسية والاجتماعية ٢٢ .

(٣) P. A. Rosler. La Question femineste. 137

(٤) Rosler. P. 140

(٥) اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى جستاف لوبون ٥١ .

(٦) Histoire Des Papes. Tome 2. 67

فإذا كان بعض العرب قد أجر الإماء للفجور فإن غيرهم قد فعل ذلك أو ما يشبهه . ولكن هذا لا يبرىء العرب من اللوم ، سواء أكان الباعث لهم الرغبة فى المال ، أم فى الأولاد الذين يباعون أحياناً ، أم إلطاف الضيف كما سبق ، أم كان الباعث أن هذا ضرب مشوه من العهارة المقدسة ، التى كانت معروفة عند الأشوريين والبابليين والفينيقيين والرومان واليهود ، والعرب على صلة بهؤلاء جميعاً .

والواقع أن عدد الإماء اللائى كن يبغين كان قليلا جداً كما سبق ، ولم يكن يمارسه من نساء العرب أحد .

— ٣ —

وكن يُبَعْنَ ويُورَثْنَ ، فقد اشترت أم حَبيبة بنت أبى سفيان أمة اسمها بركة جاءت بها من الحبشة معها[١] . وورث النبى عن أمه مولاته أم أيمن — اسمها بركة[٢] — ويظهر أنها هى التى ذكر ابن سعد أنه ورثها من أبيه ، وأنها كانت جارية عسراء اللسان ، واسمها أم أيمن ، وهى حاضنة الرسول ومربيته ، وقد أعتقها حين تزوج السيدة خديجة ، وكان يدعوها أمه ، وكان إذا نظر إليها يقول : هذه بقية أهل بيتى[٣] .

وسيأتى حديث الشعر عن هبة الإماء القيان ، وعن أثر القيان فى الغناء .

السباء بين الجاهلية والإسلام

بزغ الإسلام والسباء ضرورة من ضرورات الحرب فى كل الأمم ، فلا مندوحة عن الحرب ولا مناص من السبى والأسر ، وقد تغلغل نظام الرق فى الحياة

---

(١) الإصابة ٨/٢٧ .　　(٢) المعارف ٤٧ .

(٣) الطبقات الكبير ٧/٦٢ .

الاجتماعية والاقتصادية ، وصار دعامة فى صرح الحياة . فلو أن الإسلام أبطل الرق دفعة واحدة لهدم هذا الصرح، وأوقع الناس فى اضطراب وثورات وشرور، ولأضر بالسادة المالكين وبالأرقاء أنفسهم .

ثم إن الأرقاء لم يكونوا قد بلغوا من الوعى الحد الذى يجعلهم يسخطون مكانتهم ، ويدفعهم أو يدفع بعضهم إلى التمرد والثورة على هذا النظام العام .

ولم يكن الأحرار الذين يقتنون العبيد قد ارتقى بهم تفكيرهم وسمت بهم أخلاقهم وعواطفهم إلى اجتواء هذا النظام ، وإيثار حرية البشر على استعبادهم وتسخيرهم .

لذلك لم تحرم اليهودية أو المسيحية الرق ، ولم تسن من القوانين ما يضيق نطاقه ، وكل ما فعلت أن أوصت الأحرار بإحسان معاملة الأرقاء ، وأوصت الأرقاء بالإخلاص لسادتهم[١] .

وأيده توماس الأكوينى كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو فى القرن الثالث عشر ، فاستند إلى أقوال رسل المسيحية وإلى أقوال أرسطو فى كتابه عن السياسة ، لأن أرسطو اعتبر الأرقاء فى حكم الآلات التى تراد لعمل من الأعمال ، ولم ير فى نظام الرق شيئاً يعاب[٢] .

لكن الإسلام نظم الرق كما نظم شئون المجتمع ، وإذا ما وازنا بين حال السبايا فى الإسلام وحالهن فى الجاهلية وجدنا الإسلام قد أقر بعض ما تعارف عليه العرب ، وعدل بعضه ، وأبطل الباقى .

ما أقره الإسلام

١ — أقر الإسلام السبى فى الحرب المشروعة . فقد سبى النبى صلى الله عليه وسلم نساء من هوازن ثم ردهن . وسبى من بنى المصطلق[٣] . وأسر المسلمون

---

(١) رسالة بولس إلى أهل أفسس ٦ : ٥ — ٩ . (٢) بلال داعى السماء ٧٤ .
(٣) صحيح البخارى بشرح الكرمانى ١١/٩٠ وفتح البارى ٥/١٢٢ والسنن الكبرى للبيهقى ٩/١٢٤ والتنبيه والإشراف ٢١٥ .

من طيء سبايا ، فيهن بنت حاتم ، فاستعطفت النبي بمكارم أبيها فخلى سبيلها[١]
وحكم سعد بن معاذ فى بنى قريظة أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ونساؤهم .
فقال رسول الله : أصبت فيهم حكم الله[٢] . ثم لما بعث معاوية بُسْرَ بن أرطأة
لينكل بشيعة على سار حتى همدان فتغفلهم ، وأغار عليهم فقتلهم وسبى نساءهم[٣]

٢ — وأقر الإسلام إعتاق السبايا، كما أطلق النبي سبايا هوازن . وأقر إطلاقهن
بعوض ، فقد كاتب النبي عليه الصلاة والسلام جويرية بنت الحارث بن أبى
ضرار من بنى المصطلق ، وقيل إنها كانت فى سهم ثابت بن قيس ، وكاتبت
نفسها فأنجز رسول الله كتابتها وتزوجها ، فأرسل الناس ما فى أيديهم من سبايا
بنى المصطلق ، إكراماً لهم ، لأنهم صاروا أصهار رسول الله[٤] .

٣ — وأقر الإسلام بيع السبايا ، لكنه راعى ألا يفرق بين الأقوياء
القرابة ، فقد بعث رسول الله حارثة بن زيد نحو مدين ، فأصاب سبياً من أهل
ميناء ، فبيعوا ففرق بينهم ، فخرج رسول الله وهم يبكون فقال : ما لهم ؟ فقيل :
يا رسول الله فرق بينهم . فقال : لا تبيعوهم إلا جميعاً . قال ابن هشام : أراد
الأمهات والأولاد[٥] . وفى الحديث الشريف : من رضى رقيقه فليمسكه ، ومن
لم يرض فليبعه ، فلا تعذبوا خلق الله[٦] .

ولما باع على بن أبى طالب جارية وولدها وفرق بينهما نهاه رسول الله
عن ذلك ورد البيع ، وقال بعهما أو أمسكهما جميعا[٧] ، وكذلك أمره لما باع
غلامين أخوين وفرق بينهما[٨] . وفى عهد عمر رضى الله عنه أتى الصحابة
إلى المدينة بسبي فارس ، وكان فيهن ثلاث بنات ليزدجرد ــ ملك الفرس ــ فباع

---

(١) الأغانى ١٦/٩٣ .
(٢) التنبيه والإشراف ٢١٧ والخراج لقرشى ١٤ . (٣) النقائض ٦١٧ .
(٤) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى ٢/٢٤٨ . (٥) سيرة ابن هشام ٤/٣١٢ .
(٦) البيان والتبيين ٢/٣٦ . (٧) السنن الكبرى للبيهق ٩/١٢٦ .
(٨) المرجع السابق ٩/١٢٧ .

المسلمون السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضاً ، فقال له على بن أبى طالب : بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن . فقال عمر لعلى : كيف الطريق إلى معاملتهن ؟ قال يقومن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن . فقومن فأخذهن على بن طالب ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لمحمد بن أبى بكر ، والثالثة لوالده الحسين[١] ، وهى شاهبانو shahbanu[٢] .

٤ — كما أقر أن يوهبن وأن يورثن وأن يخدمن سادتهن .

ما عدله الإسلام

١ — كان العرب يبيحون للسيد أن يستولد سبيته ، و يبيحون له أن يستولد أمته ، لكنها تظل أمة بعد أن تلد له فأقر الإسلام حق السيد فى استيلادها ، أما حريتها أو عبوديتها بعد أن تلد لسيدها فقد تعارضت فيها الآراء حقبة من الزمن حتى استقرت المذاهب الأربعة ، فتقررت حرية السبية أو الأمة بعد موت سيدها بولادتها منه ، وملخص الآراء :

(١) لا يجوز لولى السيد أن يبيع أمته بعد وفاته إذا كانت أم ولد . حدثت سلامة بنت معقل فقالت : قدم بى عمى فى الجاهلية فباعنى من الحباب بن عمرو ، فولدت له عبد الرحمن ، ثم هلك ، فقالت امرأته : والله تباعين فى دَيْنه . فأتيت رسول الله فشكوت له ، فاستدعى اليُسْر بن عمرو أخا الحباب فقال : أعتقوها ، فإذا سمعتم برقيق قدم علىّ فأتونى به أعوضكم منها ففعلوا[٣] .

ثم اختلفوا فيما بينهم بعد وفاة رسول الله ، فقال قوم : أم الولد مملوكة ، ولولا ذلك لم يعوضهم رسول الله منها .

وقال بعضهم : هى حرة قد أعتقها رسول الله . ففىّ كان الاختلاف[٤] .

---

(١) ربيع الأبرار للزمخشرى . (٢) الدعوة إلى الإسلام أرنولد ١٨١ .
(٣) أسد الغابة ٥/٤٧٧ وسنن أبى داود ٢/١٠٦ .
(٤) مسند الإمام أحمد ٦/٣٦٠ .

ورويت فى عتق أم الولد أحاديث شتى منها : « أم الولد حرة وإن كان سقطا » و : « أيما أمة ولدت من سيدها فإنها حرة إذا مات ، إلا أن يعتقها قبل موته » و : « من وطىء أمة فولدت له فهى معتقة عن دُبُر منه[1] .

(ب) ثم جاء عمر رضى الله عنه فقرر أن أم الولد تتحرر إذا مات عنها سيدها ، وقال الأمة يعتقها ولدها وإن كان سقطا ، وطبّق ذلك فأعتق أمهات الأولاد ، وقال : أعتقهن رسول الله . وأمر بتقويم أمهات الأولاد بقيمة عدل فى أموال أبنائهن ثم يعتقن ، ومكث على ذلك صدراً من خلافته إلى أن توفى رجل من قريش كان له ولد من أمته ، فسأل عمر الغلام يوماً : ما فعلت يابن أخى فى أمك ؟ قال : قد خيرنى إخوتى فى أن يسترقوا أمى أو يخرجونى من ميراثى من أبى ، فكان ميراثى من أبى أهون على من أن تسترق أمى . ثم قام عمر فخطب فى الناس فقال : إنى قد كنت أمرت فى أمهات الأولاد بأمر قد علمتموه ، ثم قد حدث لى رأى غير ذلك ، فأيما امرىء كانت عنده أم ولد يملكها بيمينه ما عاش ، فإذا مات فهى حرة لا سبيل عليها[2] .

(ج) ويظهر أن الحكم لم يكن قد استقر ، فإنَّ على بن أبى طالب انحرف عن رأى عمر[3] . ثم رجع إليه[4] . وقيل إن ابن عباس أيضاً عارض رأى عمر ، وقيل إن علياً وابن عباس كانا يوافقانه[5] . وأصر بعض المسلمين على أن النبى أقر بيع أم الولد[6] ، وروى ابن حنبل عن جابر : « كنا نبيع سرارينا أمهات أولادنا

---

(١) كنز العمال ٥/٢٤٨ الحديث ٥٠٣٩ ـ ٥٠٤١ ومسند الإمام أحمد ١/٣٠٣ و ٣١٧ .

(٢) كنز العمال ٥/٢٥٢ الحديث رقم ٥١١٨ .

(٣) كنز العمال ٥/٢٥٣ رقم ٥١٣٠ و ٥١٣١ .

(٤) السنن الكبرى للبيهقى ١٠/٣٤٢

(٥) كنز العمال ٥/٢٥٣ رقم ٥١٣٢ و ٥/٢٤٨ رقم ٥٠٣٩ و ٥/٢٤٨ رقم ٥٠٤١ والطبقات لابن سعد ٨/١٥٥ ومسند أحمد ابن حنبل ١/٣٠٣ و ٣١٧

(٦) كنز العمال ٥/٢٥٣ رقم ٥١٢٥ وابن ماجه باب العتق

والنبي صلى الله عليه وسلم فينا حي لا يرى بذلك بأساً [١] » . وذهب آخرون إلى أن النبي لم يقر بيعها مستدلين بأن صحابة النبي وافقوا رأي عمر [٢] . وقد أورد البخاري حديثين في أم الولد أيحكم بعتقها أم لا [٣] .

ثم جاء العيني فلخص الآراء المختلفة فيها [٤] .

(د) ثم لما تكونت المذاهب أخذت بالرأي القائل إن أم الولد لا يصح بيعها ، وعلى ذلك أبو حنيفة ومالك وابن حنبل والشافعي وغيرهم . لكن داود والظاهرية والإمامية الاثنى عشرية والمعتزلة ذهبوا إلى جواز بيعها .

فمثلا يرى الإمام مالك أنه لا يجوز بيعها إذا حملت من سيدها ، ولا يجوز له أن يقبل منها مالاً تفتدي به نفسها [٥] :

وهذا الجدل الطويل والخلاف في الرأي في صدر الإسلام و بعده دليل على أن الإسلام لم يحسم الحكم في أم الولد إلى أن تكونت المذاهب الأربعة .

وإذا فالشبه قوي بين النظام الذي سار عليه العرب في الجاهلية في معاملة الأمة أم الولد وبين الآراء الإسلامية التي تبيح بيعها في الإسلام ، وإن كان رأي الجمهور أكسبها في الإسلام حقاً لم يكن لها في الجاهلية .

---

(١) مسند الإمام أحمد ابن حنبل ٣/٣٢١

(٢) سنن أبي داود باب العتق ٨ والعيني على البخاري عتق باب ٨

(٣) فتح الباري ٥/١١٨

(٤) هذه الآراء هي : «ا» الثابت عن عمر عدم جواز بيعها ، وروى مثله عن عثمان وهو قول أكثر التابعين ومالك والثوري والأوزاعي والليث وأبي حنيفة والشافعي في أكثر كتبه ، ونقل عن المزني أنه قال : قطع الشافعي في أربعة عشر موضعاً من كتبه بالاتباع . قال العيني وهو الصحيح من مذهبه وعليه جمهور أصحابه «ب» يجوز للسيد أن يعتق أم الولد مقابل مال يأخذه فتكون كالمكاتبة . «ج» يجوز بيعها من غير قيد أو شرط وهو رأي أبي بكر وعلي وابن عباس وغيرهم . «د» يجوز لسيدها وحده أن يبيعها في حياته فإن لم يبعها ومات عنها تصير حرة . «هـ» يجوز بيعها سدادا لدين سيدها المتوفى «و» يجوز بيعها ولكن إذا كان ولدها موجوداً عند موت أبيه سيدها تعتق وتحسب من نصيب الولد في التركة وترث معه «ز» يجوز بيعها على شرط أن تعتق ولا يجوز بغير هذا الشرط «ح» إن عفت وأبقت لم يجز بيعها وإن فجرت أو كفرت جاز بيعها (شرح العيني على البخاري ٦/٢١٧ ـ ٢٢٠) .

(٥) شرح الموطا ٣/٨٧ .

٢ — وحبب الإسلام إلى الناس أن يتسروا ؛ لأن نكاح السرّية تكريم لها ، وإذا ما ولدت ارتفعت منزلتها فصارت أم ولد . قال تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا ، وآتوا النساء صدقاتهن نحلة[١] » .

أي انكحوا من السرارى أى عدد بالغاً ما بلغ ، كما يؤخذ من السياق ومقابلة الواحدة ، وسوى فى السهولة واليسر بين الحرة الواحدة والسرارى من غير حصر ؛ لقلة تبعتهن ، وخفة مئونتهن ، وعدم وجوب القسم فيهن[٢] .

وحبب النبى إلى المسلمين أن يتزوجوا بهن بعد عتقهن ، وذكر السيوطى أحاديث ترغب فى التسرى ، منها :

« اتخذوا السرارى فإنهن مباركات الأرحام ، وإنهن أنجب أولاداً[٣] »

وجرى كثير من المسلمين على ذلك ، فعمر بن الخطاب يقول : « ليس قوم أكيس من أولاد السرارى ، لأنهم يحملون عز العرب ودهاء العجم .

وأنشد راجز من بنى سعد :

أنا ابن سعد وتوسطت العجم   فأنا فيما شئت من خال وعم[٤] .

وسئل المغيرة بن شعبة عن صفات النساء فقال : بنات العم أحسن مواساة ، والعربية أنجب ، وما ضرب رءوس الأقران مثل ابن السوداء[٥] . أو بنات العم أصبر والغرائب أنجب ، وما ضرب رءوس الأبطال كابن الأعجمية[٦] .

ولما اتسعت الفتوح وكثرت السبايا راجت سوق السرارى وعظم الإقبال عليهن ، حتى لقد روى عن عبد الملك بن مروان قوله : عجبت لمن استمتع بالسرارى

---

(١) سورة النساء ٤   (٢) روح المعانى ٤/ ١٩٥
(٣) الدرارى فى أبناء السرارى ١٤٧ للسيوطى مخطوط .
(٤) تهذيب الكامل المبرد ٢/ ١٠١   (٥) نزهة الأبصار والأسماع ١٤٧
(٦) العقد الفريد .

كيف يتزوج الحرائر ؟ . وكان يقال : من أراد قلة المئونة، وخفة النفقة، وحسن الخدمة، وارتفاع الحشمة، فعليه بالإماء دون الحرائر[١] .

وكان الخلفاء والأمراء والسراة فى العصر العباسى يجنحون إلى السرارى، لذلك لا نجد فى خلفاء بنى العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة : السفاح، والمنصور والمخلوع، وأما الباقون فكلهم أبناء السرارى والجوارى[٢] .

على أن هذا الجنوح إلى السرارى كان يضاده جنوح آخر إلى إيثار الحرائر ولا سيما فى الحجاز . فقد كثرت السبايا فى صدر الإسلام ولكن لم يتزوج خليفة من الراشدين جارية[٣] . وكان أهل المدينة يكرهون استيلاد الإماء حتى نشأ فيهم على بن الحسين، والقاسم بن محمد بن أبى بكر، وسالم بن عبد الله بن عمر، وفاقوا أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً، وهم جميعاً أولاد سرارى، فرغب الناس فى التسرى[٤] وكانت شهرة هؤلاء الثلاثة شرفاً لأبناء السرارى عامة، فقد حكى قرشى أن سعيد ابن المسيب سأله عن أخواله فقال : أمى فتاة . فنقص فى عينه . ثم دخل عليه هؤلاء الثلاثة، فسأله القرشى عن أم كل منهم . فقال : فتاة، فقال له القرشى : رأيتنى نقصت فى عينك لأنى ابن فتاة، أفمالى بهؤلاء أسوة ؟ فجل فى عينه[٥] .

ويروون أن عبد الملك بن مروان تَنَقَّص من قدر ابنه مسلمة ــ وكان ابن أمة ــ متمثلا بشعر يحقر من شأن أبناء الإماء . فرد عليه مسلمة متمثلا بشعر يرفع من أقدارهم، فسر عبد الملك وقبل رأسه، وأمر له بمائة ألف[٦] .

وكان بعض العرب يتشدد فى عروبة من يصهر إليه وإن كان ابن خليفة، كعقيل بن عُلَّفَة المرى، فإنه لما خطب إليه عبد الملك ابنته لبعض ولده قال له :

---

(١) اللطائف والظرائف للثعالبى ٦٤ . (٢) اللطائف والظرائف ٦٤ .

(٣) الكامل لابن الأثير ٣/٢٦ و ٢٩ .

(٤) وفيات الأعيان ١/٣٢٠ واللطائف والظرائف ٦٤ .

(٥) ربيع الأبرار للزمخشرى ٨ مخطوط .

(٦) حماسة الخالديين ٣٥ مخطوط وربيع الأبرار ٣٠ .

جنبنى هجناء ولدك[١] . لهذا عمد بعضهم إلى العزل ليحولوا دون ولادة الإماء ، وقام جدال فى العزل أحرام أم مباح[٢] .

والذى يظهر لى أن نكاح الإماء كان فى الإسلام كما كان فى الجاهلية وسطاً بين الرغبة فيه والرغبة عنه ، وأن الإماء وأبناءهن — من غير سادتهن فى الإسلام — كن فى الغالب أدنى إلى التحقير منهن إلى التوقير . وقد سبق أن العرب كانوا لايسودون أبناء الإماء ويسمونهم الهجناء ، ويسمون أولاد الحرائر الصرحاء ، وسار على سنتهم بنو أمية ، فلم يستخلفوا ابن أمة : لأنه فى أيهم لا تصلح به العرب[٣] .

٣ — كان الإسلام أعظم عطفاً على الأسرى والسبايا ، لأنه ابتدع وسائل لتحرير الرقيق . من هذه الوسائل تحرير الأرقاء الذين خرجوا من دار الكفر إلى دار الإسلام ، وتحرير العبد إذا عذبه سيده ، والتدبير . ومنها أنه جعل العتق كفارة لكثير من الذنوب ، كالقتل الخطأ والظهار وإفساد الصوم عمداً والحنث فى اليمين .

وكثيراً ما رغب النبى إلى المسلمين أن يعتقوا ويتزوجوا عتائقهن[٤] .

وأباح الإسلام للأرقاء أن يكاتبوا سادتهم[٥] ، وحبب إلى المسلمين أن يساعدوهم فى جمع هذا المال ليتحرروا ، وجعلهم مصرفا من مصارف الزكاة . قال تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم

---

(١) العقد الفريد ٢/٢٥٦ (٢) السنن الكبرى للبيهقى ٧/٢٢٨ — ٢٣١ ومفتاح كنوز السنة مادة العبيد ٣٣١ ومادة العتق ٣٣٣ .

(٣) جمهرة الأمثال ١٥ والعقد الفريد ٣/٢٢٩ .

(٤) فتح البارى ٥/١٠٤ وكنز العمال ٥/٢٤٥ — ٢٥٠ وفتح البارى ٥/١٢٥ وسنن أبى داود ١/٢٠٤ والعينى على البخارى ٩/٣٦٩ ومسند أحمد بن حنبل ٢/٤٢٠ و ٤٢٢ و ٤٢٩ و ٤٣٠ و ٤٤٧ و ٢٢٥ و ٣/٩٤٠ .

(٥) المكاتبة هى أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه منجما عليه فإذا أداه فهو حر . ولها حالتان . الأولى أن يطلبها العبد ويأباها السيد وفيها قولان : أن الموافقة واجب على السيد أو أنها غير واجبة (تفسير القرطبى ١٢/٢٤٥) .

خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم[١] » . وقال : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل[٢] ، وجعل إعطاءهم من أنواع البر فى قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . وآتى المال على حبه ذوى القربى . . وفى الرقاب »[٣] . لذلك تنافس المسلمون فى عتق الأرقاء ، حتى لقد أنفق أبو بكر كثيراً من ماله فى شرائهم وإعتاقهم ، وحتى قيل إن النبى أعتق ٦٣ نسمة وإن السيدة عائشة أعتقت ١٠٠[٤] ، وإن العباس أعتق ٧٠ وإن عثمان أعتق وهو محاصر ٢٠[٥] .

وإذا كان العرب قد افتخروا فى الجاهلية بإحسانهم معاملة الأرقاء فإن الإسلام كان أعظم حفاوة بهم وحدباً عليهم . حتى لقد أوصى الله بحسن معاملتهم فى عداد من أوصى بهم من الأعزاء . قال تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب ، وابن السبيل وما ملكت أيمانكم . إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا[٦] » ، وأمر النبى بأن ينادوا بكلمات لا تؤذى « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ، ولا يقولن المملوك ربى وربتى ، وليقل المالك فتاى وفتاتى ، وليقل المملوك سيدتى وسيدى . فإنكم المملوكون والرب الله عزوجل[٧] .

وليس أدل على سماحة الإسلام وتقديره لحرية العتق من أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يجبر معتوقة السيدة عائشة على مالا ترضى ، ذلك أن بريرة كانت

---

(١) سورة النور ٣٣ وكنز العمال ٥/٢٤٨ (٢) سورة التوبة ٦٠ .
(٣) سورة البقرة ١٧٧ . (٤) الأنساب للسمعانى ١/٦٦٣ .
(٥) التراتيب الإدارية ١/٢٩ (٦) سورة النساء ٣٦ .
(٧) سنن أبى داود ٢/٢٠١ وفتح البارى ٥/١٣٠ وربيع الأبرار ٢ مع بعض تغيير فى التعبير .

مولاة لعائشة فأعتقتها . فقال لها الرسول : ماسكت بُضْعك فاختارى ، وكان زوجها مغيث يمشى خلفها و يبكى ، وهى تأباه . فقال النبى لأصحابه : ألا تعجبون من شدة حبه لها وبغضها له ؟ ثم قال لها: اتقى الله فإنه زوجك وأبو ولدك . فقالت أتأمرنى ؟ فقال : لا ، إنما أنا شافع . فقالت : إذاً لا حاجة بى إليه . فاختارت نفسها [١] .

وكان النبى يكرم جاريته أم أيمن كثيراً [٢] ، وكان يوصى بالرقيق كثيراً ، كقوله : من رضى رقيقة فليمسكه ، ومن لم يرض فليبعه ، فلاتعذبوا خلق الله [٣] وقال فى حجة الوداع : أرقاءكم أرقاءكم أرقاءكم ، أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، فإن جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم [٤] .

والوصايا بحسن معاملة الأرقاء كثيرة [٥] .

ما أبطله الإسلام

١ ـ قصر الاسلام الأسر على أن يكون فى الحرب بين المسلمين والمشركين أو بين المسلمين والكفار [٦] ، و بهذا ألغى الأسر والسبى بالنخاسة والاختطاف ، فضيق مجال الأسر .

٢ ـ إذا ما انتصر المسلمون على الكفار وأسروا منهم ، فهم مخيرون فى أن

---

(١) التجريد الصريح ٣/ ٢٥٥ والمبسوط ٥/ ٩٨ وأسد الغابة ٥/ ٤٠٩ .

(٢) الطبقات الكبير ٧/ ١٦٢ . (٣) البيان والتبين ٢/ ٣٦ .

(٤) مسند الإمام أحمد ٤/ ٣٦ و ٥/ ١٦٨ و ١٧٣ .

(٥) مسند الإمام أحمد ١/ ١٢و٣/ ٩٠و١١١و٢٤٨و٣٤٢ وفتح البارى ٥/ ١٢٥ .

(٦) روى عن ابن عباس أن الكفار هم المشركون عبدة الأوثان . وقيل كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابى إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة . ذكره الماوردى واختاره ابن العربى ، وقال : هو الصحيح لعموم الآية فيه . والآية هى « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء » تفسير القرطبى ١٦/ ٢٢٥ .

يمنوا على الأسرى بالإطلاق والتحرير بغير عوض أو فدية ، وفى أن يطلقوهم بعوض أو فدية ؛ وفى أن يقتلوا من يرون فى حياته خطراً عليهم، أو يرون فى قتله قصاصا عادلا ، وفى أن يسترقوهم .

وقد اختلف فى قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها[1] » ، فذهب بعض السلف إلى أن الآية فى أهل الأوثان وهى منسوخة، وبعضهم إلى أنها فى الكفار جميعاً وهى منسوخة ، والناسخ لها قوله تعالى : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم[2] » وقوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة[3] » وقوله تعالى : « فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم[4] » ، وإذاً فليس يجوز الفداء ولا المن عليهم ، وقيل : تجوز المفاداة بالمرأة لأنها لا تقتل ، وهو المشهور من مذهب أبى حنيفة . ورأى بعض السلف أن الآية « فإما منا بعد وإما فداء » . ناسخة للآية « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » . فليس للإمام أن يقتل الأسير ، وإنما له أن يمن أو يفادى أو يسترق .

وذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أن الآية محكمة ، والإمام مخير فى كل حال لأن النسخ إنما يكون لشىء قاطع ، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى القول بالنسخ ، وصفة الناسخ والمنسوخ أنه ما لم يجز اجتماع حكميهما فى حال واحدة ، أو قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ للآخر ، وقد أذن القرآن بقتلهم فى آية أخرى .

وإلى هذا ذهب كثير من السلف كابن عباس وابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعى والثورى وأبى عبيد وغيرهم ، وهو المختار ،لأن النبى والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك ، فقد قتل النبى عقبة بن أبى معيط والنضر ابن الحارث يوم بدر ، وقتل بنى قريظة لما نزلوا على حكم سعد ، وفادى بجماعة

---

(١) سورة محمد ٤ . (٢) سورة التوبة ٥ .
(٣) سورة التوبة ٣٦ . (٤) سورة الأنفال ٥٧ .

أسارى المشركين يوم بدر ، ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفى وهو أسير فى يده ؛ وأخذ من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أناساً من المسلمين ، وهبط عليه قوم من مكة فأخذهم ومن عليهم ، ومَنَّ على سبى هوازن ، وهذا كله ثابت صحيح[1].

وإذاً فالنظام الغالب فى الإسلام هو المن والفداء ، لكن النظام الذى كان غالباً فى الجاهلية هو الاسترقاق .

٣ ــ وحرم الإسلام قتل النساء فى الحروب[2] ، وقد حدث ذلك على قلة فى الجاهلية إذ أحرق المنذر بن ماء السماء سبايا من بكر بن وائل[3] ، وأحرق عمرو ابن هند امرأة من بنى حنظلة هاجت حنقة بردودها عليه[4] . وذكر بعض الشعراء أنهم بقروا بطون الحبالى[5] ، على أن هذا كان عملا نادراً يدفع إليه الغضب والتشفى ، وكان العرب يعيرون فاعله[6] .

٤ ــ وحرم الإسلام بغاء الإماء سواء أكان عاما أم خاصاً ، وقد سبق أن بعضهم كان يكره إماءه على البغاء ، فنزل قوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا »[7] .

ولم يقتصر الإسلام على تحريم البغاء العلنى العام ، بل حرم المخادنة أيضاً : «ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض ، فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسافحات ولا متخذات

---

(١) تفسير الطبرى ٢٦/٢٦ ــ ٢٧ وتفسير النيسابورى ٢٦/٢٦ وتفسير القرطبى ٢٦/٢٢٥ ــ ٢٢٨ .

(٢) صحيح البخارى بشرح الكرمانى ١٣/٢٥ .

(٣) الكامل لابن الأثير .

(٤) الأغانى ١٩/١٢٩ ومجمع الأمثال ١/٣٦٠ .

(٥) ديوان عامر بن الطفيل القصيدة ١٢ و ٢٧ ومعجم البلدان ٧/٣١٧ .

(٦) الأغانى ١٦/١٣٥ .

(٧) سورة النور ٣٣ .

أخدان[١] » ، وقد روى عن ابن عباس أن المسافحات هن المعالنات بالزنا ، وأن متخذات الأخدان هن ذوات الخليل الواحد . وأن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما ظهر من الزنا ، ويستحلون ما خفي . ويقولون إن ما ظهر لؤم ، وإن ما خفي لا بأس به ، فأنزل الله تعالى : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ، وعن قتادة أن المسافحة البغيّ التي تؤجر نفسها من عرض لها ، وذات الخدن ذات الخليل الواحد[٢] ، فنهى الله تعالى عن البغاء بنوعيه ، ونهى عن نكاح البغيّ أيضاً ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب البغي[٣] .

٥ـ وأبطل الإسلام عبودية ابن الأمة من سيدها ، وقرر أنه حر ، ويرث أباه[٤] وقد أسلفت أن العرب في الجاهلية كانوا يستعبدون أولاد الإماء ، ولا يتحرر الولد ولا يرث إلا إذا ادعاه أبوه وأشهد الناس على إلحاقه به . أما إذا تزوج رجل أمة لغيره فإن أبناءها يتبعونها في الرق[٥] .

٦ ـ ثم إن الإسلام لم يبح ملامسة السبية قبل التثبت من استبراء رحمها . فقد قسم النبي سبايا أوطاس وبني المصطلق ، وأمر ألا توطأ حامل حتى تضع ، ولا حائل حتى تحيض[٦] ، وقال : لا توطأ حائل حتى تضع ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة[٧] . وقال لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها[٨] .

٧ ـ ونحن نعلم أن الإسلام دين المساواة في أسمى صورها ، وأنه قائم على أنه لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وطالما حض النبي على حسن معاملة الأرقاء ، وكثيراً ما رغب الإسلام في عتقهم . لذلك قل أن نجد في شعر المسلمين في صدر الإسلام من عيّر بالسبي ، أو هجا برقّ الأم كما كان يحدث في العصر الجاهلي .

---

(١) سورة النساء ٢٥ . (٢) تفسير الطبري ٥/١٣ والنيسابوري ٥/٢٣ .
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٣٣٢و٢٨٧ والعيني على البخاري ٩/٦٣٤ والأمالي ٢/٢٧٥ .
(٤) الكشاف ١/٢٠٠ والعقد الفريد ٣/٢٠٩ (٥) الكشاف ١/٢٠٠ .
(٦) السنن الكبرى للبيهقي ٩/١٢٤ (٧) سنن أبي داود ١/٢١٣ .
(٨) سنن أبي داود ١/٢١٣ .

الفصل السادس

المكانة الاجتماعية والسياسية للمرأة

تبوأت المرأة فى الحياة الأسرية مكاناً عالياً لم تتبوأه أختها المعاصرة لها ، ولقد يكون من البداهة أن تدل هذه المكانة على قيمة المرأة فى القبيلة وفى المجتمع كله ؛ لأن القبيلة هى الأسرة الكبيرة ، والمجتمع إن هو إلا قبائل يجمعها الجنس والبيئة والاشتراك فى كثير من نظم الحياة .

لكن ذلك ليس بمحتوم فقد تعز المرأة فى أسرتها ، ولكنها لا تستمتع بمثل هذه العزازة فى قبيلتها أو فى المجتمع ؛ لأن العزازة فى الأسرة عزازة فى نطاق ضيق ذى حدود ، كثيراً ما تحتبس فيها ولا تتخطاها إلى الميدان الأعظم اتساعاً وهو ميدان القبيلة والمجتمع ، ذلك بأن الرجال يستأثرون بالنفوذ فى هذا الميدان ، ويختزرونه عن النساء ، وإن كن فى أسرهن عاليات القدر ساميات المكانة .

وسألجأ هنا إلى الشعر أستبئه وأستنطقه كما لجأت إليه فيما مضى ، وسأضيف إليه من التاريخ ما أحتاجه لتوضيح الألوان الناصلة والملامح الحائلة ، والأحداث المبهمة أو المغفلة ، لأستطيع أن أرسم صورة بارزة المعالم للمرأة ، تكشف عن مكانتها فى الحياة العامة،فأتبين مابين هذه الصورة وصورة المرأة فى الحياة الأسرية من تشابه وتماثل أو تنافر وتناقض .

ولقد يبدو أن فى بعض ما روى عن جهود المرأة فى الحياة العامة وفى الحروب مغالاة ، ولست أدفع هذا كله ، ولست أقره كله ، ولكنى أرى أن ما عُزى إلى المرأة ــ على مبالغته أحياناً ــ كفيل بأن يقدم لنا صورة صحيحة من حياة المرأة فى الجزيرة العربية ، لأنه صدى للواقع الذى كان ، وتعبير عما يمكن أن يكون .

شعور المرأة بمساواتها للرجل

كانت المرأة تشعر بأنها مساوية للرجل فى مكانته ، أو يجب أن ينظر إليها المجتمع نظرته إلى الرجل . فقد أنشدت فتاة عضلها أبوها ومنعها الأكفاء :

أيُزْجَرُ لاهينا ونُلْحَى على الصِّبا ... وما نحن والفتيان إلا شقائق[١]

وفى أمثال العرب : « إن النساء شقائق الأقوام » والشقائق جمع شقيقة وهى كل ما يشق نصفين ، فالنساء إذا مثل الرجال ، لهن مثل ماعليهن من الحقوق[٢]

ولقد بلغ بهن شعورهن بمساواتهن للرجال فى كثير من الحقوق أن عجب بعضهن من أن يذكر القرآن الكريم الرجال ويغفل النساء فيما يأمر وينهى ، أو فيما يعد ويوعد ، أوهن وددن أن يشرفهن الله تعالى بالذكر كما يشرف الرجال ، واحتججن على الرجال فقلن : أسلمنا كما أسلمتم ، وفعلنا كما فعلتم ، فتذكرون فى القرآن ولا نذكر[٣] ؟ وروى أن أم سلمة قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله يذكر الرجال ولا نذكر . وروى أن نساءه قلن له : لماذا يذكر المؤمنون ولا يذكر المؤمنات[٤] ؟ وروى أن سلامة حاضنة إبراهيم بن النبى قالت للنبى : إنك تبشر الرجال بكل خير ولا تبشر النساء . قال : أوصويحباتك دسَسْنك لهذا ؟ قالت : أجل هن أمرننى[٥] .

أليس هذا شعوراً من النساء بعلو مكانتهن ، وحرصهن على حقوقهن ، وجدهن فى أن يتساوين بالرجال فى بعض الحقوق ؟

وقد حقق القرآن أملهن إذ أنزل الله تعالى قوله : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين

---

(١) الأمالى ٢/١٠٥ (٢) مجمع الأمثال ١/٢٦ والقاموس المحيط مادة شق .

(٣) الطبقات الكبير لابن سعد ٨/١٤٥ .

(٤) الطبقات الكبير ٨/١٤٤ وتفسير الطبرى ٢٢/٨ .

(٥) أسد الغابة ٥/٤٧٦ وكنز العمال ٨/٣١٥ .

والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما[١] » .

توليها الملك

لم تكن المرأة تشعر بهذه المساواة غروراً أو افتتاناً أو مجاوزة لقدرها الذى تعارف عليه العرب . ذلك بأن العرب ملكوا عليهم نساء ، وكانوا يستطيعون ألا يولوهن لو أنهم رأوا فى توليتهن غضاضة ، أو مجافاة للعرف الذى درجوا عليه .

١ ـ فقد حكمت سبأ ملكة اسمها بَلْقَمة[٢] أو بِلْقيس ، يقول أسعد تُبَّع فى فخره :

ولدتنى من الملوك ملوك كل قَيْل متوج صنديد
ونساء متوجات كبلقيس وشمسٍ ومن لَمِيسٍ جدوى[٣]

أو أن اسمها بلقمة بلغة حمير ومعناه الزهرة ، ثم سمتها العرب بلقيس[٤] .

والمؤرخون مختلفون فى اسم أبيها ، فهى ابنة اليشرح أو إيلى شرح أو ذى شرح بن ذى جدن القحطانى[٥] . أو هى ابنة أنيشرح بن الحارث ، أو بنت الهدهاد واسمه أنيشرح بن تبع . وقيل غير ذلك[٦] أو هى بنت آل شرح ابن ذى جدن الحارث بن قيس بن سبأ الأصغر[٧] ، أوهى بنت الهَدْهاد ابن شرحبيل بن عمرو بن مالك الرائش ، وكان يلقب بذى شرح[٨] .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٥ .
(٢) تاريخ الطبرى ١/٢٥٤ وابن الأثير ١/٨٩ والعقد الفريد ٢/٥٨ .
(٣) منتخبات فى أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميرى ٨ .
(٤) شرح القصيدة الحميرية لنشوان بن سعيد الحميرى ٢٧٥ مخطوط من مجاميع بدار الكتب .
(٥) تاريخ الطبرى ١/٢٥٤
(٦) تاريخ ابن الأثير ١/٨٩ .
(٧) العقد الفريد ٢/٥٨ المطبعة الشرفية .
(٨) الأخبار الطوال للدينورى ٢٢ .

وفى هذا خلط واضطراب ، لأن اليشرح من ملوك الطبقة الأولى من حمير (ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ ق . م إلى ٢٧٥ م) وكان حكمه من ٣٥ ـ ١٥ ق . م ، وبلقيس أو بلقمة التى ينسبونها هى التى لقيت سليمان قبل ذلك بقرون ، وهم يخلطون بين صاحبة سليمان وبلقيس التى تسمى الفارعة ، وهى من ملوك الطبقة الثانية من حمير (ملوك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٢٧٥ ـ ٥٢٥ م) وكان حكمها من ٣٣٠ ـ ٣٤٥ م[١] .

وما زلنا نجهل الاسم الحقيقى لملكة سبأ أهو بلقمة أم بلقيس أم غيرها ، وما زلنا نجهل اسم أبيها ، ولعل النقوش تفصح عن ذلك فى يوم قريب . وهذه الملكة عربية ينتهى نسبها إلى قحطان[٢] ، والقول بأنها حبشية زعم لم يلبث أن ولد وتوارى ، إذ ذهبت أخيراً إلى سبأ ومأرب بعثة ألمانية علمية برياسة كارل يونجمان ، ونقبت هنالك طويلا ، ثم اهتدت إلى أن ملكة سبأ ليست حبشية[٣] . وكان حكمها فى القرن التاسع قبل الميلاد[٤]

وقد ملكت فى حياة أبيها بتفويض منه ، وقيل ملكت بعده ، وقيل إن أباها لم يكن ملكا ، وإنما كان وزيراً لملك خبيث سيىء السيرة مولع بالعدوان على الأعراض ، فقتلته فملكها الناس عليهم[٥] .

والمبالغات فى عظمة ملكها تتجاوز مطار الخيال الطليق ، وقد استنكرها من قبل بعض المؤرخين كابن الأثير فى قوله : « وما أظن راوى هذا الكذب الفاحش عرف الحساب حتى يعلم مقدار جهله ، وقد تواطئوا على الكذب والتلاعب بعقول الجهال »[٦] .

---

(١) العرب قبل الإسلام جرجى زيدان ١٢٢ و ١٢٣ .
(٢) تاريخ الطبرى ١/٢٠٤ وتاريخ ابن الأثير ١/٨٩ .
(٣) الهلال . الجزء الخامس سنة ١٩٢٩ . (٤) العرب قبل الإسلام ١١٨ .
(٥) الكامل لابن الأثير ١/٩٠ الطوال للدينورى ٢٤ .
(٦) ابن الأثير ١/١٩٢ .

واليقين أنها وفدت على سليمان ، لأن القرآن الكريم قص هذه الوفادة في سورة النمل في قول الهدهد لسليمان : « إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » ثم أرسل إليها سليمان كتابا فلما أخذته جمعت مستشاريها « قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم إنه من سليمان ، وإنه : بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين . قالت يا أيها الملأ ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين » . ثم ذكر القرآن الكريم إيمانها بسليمان . وقصت التوراة أيضاً هذه الوفادة[1] .

ومن القرآن الكريم نعلم أنها وقومها كانوا يعبدون الشمس ، وأنها كانت ملكة ديمقراطية تستشير ذوي الرأي ولا تستبد ، ونعلم أن ملكها كان قوياً أو أن أعوانها كانوا يتوهمون هذه القوة ، لأنهم أرادوها على أن تحارب سليمان ، ولا تخضع له ، لكنها كانت بعيدة النظر حصيفة الرأي ، فجنبت قومها حرباً تنشب بينها وبين الفاتح ، وبعثت إليه بهدية لتختبره أهو باحث عن المال أم داع إلى دين ؟

ومنذ عهد قريب كشف الدكتور أحمد فخري عن معبد الشمس والقمر سنة ١٩٤٧ وطبع رحلته في ثلاثة أجزاء . ثم كشفت بعثة أمريكية برياسة مستر ويندل فيليبس عن كثير من آثار اليمن ، منها معبد الملكة بلقيس ملكة سبأ ، على مقربة من سد مأرب[2] .

٢ ـ وهناك ملكة ثانية ، حكمت سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٣٣٠ إلى ٣٤٥ م وهي التي تسمى الفارعة ، ولسنا نعرف عنها شيئاً إلا أنها

---

(١) سفر الملوك الأول فصل ١٠ آية ١١ و٢٢ .

(٢) جريدة المصري ١٧/١٢/١٩٥٢ .

زوجــة عمرو وأخت الهدهاد[١] .

٣ ـ وملــكة ثالثة ذكرها أسعد تُبَّع فى نخره إذ يقول :

ونساء متوجات كبلقيس وشمس ومن لميسٍ جُدوى[٢]

ولميس بنت أسعد تُبَّع ، قال فيها علقمة بن ذى جدن :

ولميسُ كانت فى ذؤابة ناعِطٍ يَجْبى إليها الخَرْجَ ساكنُ بَرْبَرَ[٣]

وأما شمس فهى أخت بلقيس[٤] .

٤ ـ وهذه ملــكة عربية أخرى ، حكمت تدمر فى القرن الثالث بعد الميلاد (٢٦ ـ ٢٧٢) هى الزباء . ولقد ترجع شهرتها إلى سببين :

السبب الأول أنها اتسمت بالشجاعة والسطوة والدهاء ، على جمالها وهيبتها، فـكانت سيرتها أشبه بسير الأبطال من الرجال . كانت فارسة تؤثر الخيول المطهمة على المحفات فى أسفارها ؛ وكانت ديمقراطية كسابقتها بلقيس ، تحادث أعوانها ومستشاريها ، وكثيراً ما بهرتهم بقوة برهانها ، ونصاعة رأيها ، وذلاقة لسانها ، وكثيراً ماضم مجلسها رجالا من أمم شتى ، كوفود ملك الفرس والأرمن، وقد يشرب جلاسها حتى يثملوا ، ولـكنها لا تشرب .

وكانت إذا جلست فى قومها لبست أنخر ما يلبس ، ونشرت على كتفيها القيصرية الأرجوانية ، ووضعت التاج المؤتلق على رأسها ، وإذا استعرضت جنودها فى الميدان استوت على صهوة جوادها مرتدية لباس الحرب ، وعلى رأسها الخوذة الرومانية مرصعة بالدر والجوهر ، وقد عرّت إحدى ذراعيها كما كان يفعل اليونان القدماء ، ثم أخذت تنفخ فى الجنود شجاعة من روحها ومظهرها ، فإذا

---

(١) العرب قبل الإسلام ١٢٣ .
(٢) منتخبات فى أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميرى ٨ .
(٣) المرجع السابق ٩٦ ناعط . نور وهم حى من همدان (المرجع نفسه ١٧) .
(٤) المرجع السابق ٩٦ .

رآها الناس كذلك حسبوها إلهة[١].

والسبب الثانى ما كان بينها و بين روما من الحرب ، وتداول النصر ، ذلك بأن أُذينة زوج الزباء كان ملكا على تدمر ، وقد أنقذ الإمبراطورية الشرقية من فتك خصومها الفرس ، وهزم سابور (٢٦٠ م) هزيمة ماحقة بعد أن اغتر سابور وازدهى بانتصاره على الإمبراطورية الرومانية وأَسْرِه إمبراطورها فاليريان، ثم آزر أذينة جالينوس بن فاليريان فى استرداد الملك من خصومه ، فكافأه جالينوس بأن أقره على مابيده من بلاد ، ومنحه لقب أغسطس ، وعينه إمبراطوراً على الشرق وأشركه معه فى لبس رداء الملك الأرجوانى . وضربت النقود باسمه، ورسم يجر خلفه صفاً من أسرى الفرس ، ووافق مجلس الشيوخ بروما على هذا كله .

فلما اغتيل أذينة خلفه ابن ضعيف لم يلبث أن مات ، فخلفته زوجة أذينة وهى الزباء .

وهنا بدأت روما تأتنف تحرشها بمملكة تدمر ، إذ أعلن مجلس الشيوخ أن الحقوق التى كان قد نزل عنها لأذينة هى حقوق شخصية لا تورث لغيره ، فالزباء وأولادها لا يرثون شيئاً من ملكه . ولكن الزباء لم تعبأ بمجلس الشيوخ ولا بالإمبراطور جالينوس ، فأعلنت نفسها ملكة على المشرق كله وآسيا الصغرى، فعبر البحر إليها القائد الرومانى هرقل على رأس جيش عرمرم ، وحاربها فى أرضها ، واستطاعت البطلة أن تشتت شمله وتفل قواه ، فعاد إلى روما موصوما بخزى الهزيمة[٢] .

وبهذا النصر بسطت سلطانها على الشام و بلاد آسيا التابعة للإمبراطورية

(١) العرب قبل الإسلام . جرجى زيدان ٨٧ وموجز تاريخ الحضارة العربية ٤٣٤ .

(٢) تاريخ الشعر العربى حتى القرن الثالث الهجرى ١٥ نجيب البهبيتى عن .

Voyage dans L,asie mineur, tome 11. P. 115—121,ParPoujoulat .

الرومانية ووصلت إلى مصر[١] .

لكن روما لم تنس هذه الهزيمة ، فعاودت الحرب ، وكان النصر حليفها . وهالل الرومان بنصرهم تهايلا ، لأنه نصر كان ميئوسا منه . وليس أدل على ذلك من زعمهم أن ملكا نزل من السماء وآزر الإمبراطور وجيشه ، حتى إن الإمبراطور أورليان لما دخل معبد الشمس فى حمص ليشكر للإله العربى بعل ما أصاب من ظفر ، وصلى بالمعبد ، وقعت عيناه فى زعمهم على الكائن السماوى الذى رآه قبل ذلك فى المعركة[٢] .

وتذكر الروايات العربية كلها أن الزباء قد لقيت حتفها فى شرق مملكتها على يد قصير . ويدعى الرومان أن شمسها قد أفلت فى روما، لأنهم أسروها ونقلوها إلى هناك . ولكن هذا الادعاء باطل ، لأنهم مختلفون فى شخصية الأسيرة ، فهى عند فوسبيسكوس **Vospiscus** امرأة كانت ترافق زينب (الزباء) فى حمل السلاح ، وعند تربيليوس **Tirbelius** وبوليوس **Pollion** وغيرهما أن الزباء اسم قائد من قواد ملكة تدمر[٣] لأن أحد قوادها كان اسمه زبدا من أبناء تدمر ، وهو الذى هزمه أورليانس سنة ٢٧٢ م[٤] . ثم إننا على ثقة من نشوتهم بالنصر ، وتَنَفُّجهم بما نالوا ، ليستروا هزيمتهم التى أنزلتها بهم الزباء من قبل ، وهذا وحده كاف للتشكك فى صحة ما زعموا .

وإذاً فإن التى حملت سبية إلى روما لم تكن الزباء ، وإنما بقيت الزباء فى

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٥/١٣ .

(٢) Poujoulat. Tome 11 P 123.

(٣) Poujoulot. tome. 11. P. 120 . وتاريخ الشعر العربى حتى القرن الثالث الهجرى .

(٤) تاريخ العرب ١/١٠٠ فيليب حتى .

العراق إلى أن لقيت مصرعها كما يقول جميع المؤرخين من العرب[١] .

وقد ذكر بعض الشعراء قصتها مثل عدى بن زيد والمخبل وغيرهما ، وشعرهم يتفق مع التاريخ فى أنها لقيت حتفها على يد عمرو بن عدى[٢] .

٥ ـ وقد ملكت نساء غير هاتين فى اليمن وكندة و بلاد الأنباط ، حتى لنجد فى ملوك الأنباط خمس ملكات عربيات فى المدة من ١٦٩ق . م إلى٠٦ م كما نجد فى كندة خمس ملكات أيضاً ، منهن العمردة بنت الأعشى ، وكانت أعظم تأثيراً من إخوتها فى الناس ، وأعمق نفوذاً ، لبلاغتها وذكائها وجمالها وبراعتها فى تدبير شئون الحكم[٣] ، ونجد ماوية الغسانية تحكم فى فلسطين الحالية تقريباً ، فقد ذكر شارب sharpe أن ملك العرب النازلين فى سينا وما جاورها لما مات فى أواسط القرن الرابع بعد الميلاد خلفته امرأته ماوية ، فتحللت من قيود المعاهدة التى بينهم وبين الرومان ، وحملت برجالها على فلسطين وسورية ، واستولت على مدينة بطرا (الحجر) ويممت مصر حتى برزخ السويس ، فاضطر الإمبراطور فالانس إلى تجديد المعاهدة بشروط ترضاها ماوية[٤] . وقد ملكت أخريات غير هؤلاء وأولئك[٥] ، ولو أن كل واحدة منهن منحت بواعث على شهرتها كما منحت بلقمة والزباء لكان لنا من تاريخهن سجل حافل ، وأرجح أنه لولا القرآن الكريم وصلة بلقمة بسليمان ، ولولا حرب الزباء لروما ، لَغُمِرَتْ كلتاهما كما غمرت غيرهما من الملكات .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/٣٦ وابن الأثير ١/١٢١ وأبى الفدا ١/٧٠ واليعقوبى ١/٢٣٨ وابن خلدون ٢/٢٦١ ومعجم ما استعجم ١/٢٤ ومجمع الأمثال ١/٢١٧ وجمهرة الأمثال ١/١٦٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢/٣٦ .

(٣) تاريخ حضرموت السياسى ٧٤ .

(٤) History of Egypt. vol. 2· P. 293

(٥) Moslem Law. P.17.

شهيرات

على أن بعضهن قد اشتهرن بالفطنة والدهاء واللَّسَن واللَّقَن والجواب العجيب والكلام الفصيح والمثل السائر، كما اشتهر بعض الرجال .

منهن هند بنت الخسّ – وهى الزرقاء – ، وجُمَعَة بنت حابس[١] ، ورابعة القيسية ومُعاذة العدوية[٢] ، ولها حديث فى وصف الخيل والنساء والرجال مع القَلَمَّس[٣] .

ومنهن صُحْر بنت لقمان ، وحَذام بنت الريان ، وخُصَيْلة بنت عامر ابن الظرب ، وفاطمة بنت الخُرْشُب[٤] . ومن الشهيرات اللائى ضرب بهن المثل مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث الكندية (أو هى بنت أرقم بن ثعلبة من غسان) وهى أم الحارث الأعرج ملك غسان ، التى يقول فيها حسان بن ثابت :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المُفْضل

وقد ضرب المثل بقُرْطَيها ، فقيل : « خذه ولو بقرطى مارية » أى خذه بالشيء العزيز الذى لا يُقْدَر عليه ، ولا يوصل إليه ، وذلك للترغيب فى الشيء وإيجاب الحرص عليه[٥] . وقد ذهب الزمخشرى ومن نقل عنه إلى أن المثل ضرب بقرطيها ، لأنها أول عربية تقرطت ، فسار ذكر قرطيها فى العرب[٦] ، ولكن ذلك ليس بصحيح ، لأن العربيات كن يتقرطن قبل مارية ، وإنما الصحيح أن قرطيها كانا نفيسين جداً وإن بولغ فى نفاستهما ، حتى لقد قُوِّما بأربعين ألف

---

(١) البيان والتبيين ٣١٢/١ . قال ابن الأعرابى يقال بنت الخس و بنت الخص وبنت الخسف وهى الزرقاء وقال يونس لا يقال إلا بنت الأخس .

(٢) البيان والتبيين ٣٦٤/١ .

(٣) بلاغات النساء ٥٨ – ٦٢ .

(٤) جمهرة الأمثال ٢٤٢/٢ ومجمع الأمثال ٢٧٦/٢ والأغانى ١٩/١٦ – ٢٧ .

(٥) الفاخر للكوفى ٨٧ وخزانة الأدب للبغدادى ٢٣٨/٢ ومنتخبات من أخبار اليمن ٩٨ .

(٦) مستقصى الأمثال للزمخشرى ١٠٠ مخطوط وخزانة الأدب ٢٣٨/٢ .

دينار ، وقيل كان فيهما درتان كبيض النعام أو الحمام لم ير الناس مثلهما [١] .

يقول الشاعر للنعمان وقد اتهمه :

يا أيهـــا الملك الذى   ملك الأنام علانيـــه
المالُ آخِذُهُ ســـوا   ى وكنتُ عنه ناحيــه
إنى أؤديــه إليـــك   ولو بقُرْطَىْ ماريه [٢]

مجيرات

كان من حق الرجل أن يجير فلا يعتدى أحد على من أجاره ، و إن اعتدى عليه أحد ذب جاره عنه ، وحارب المعتدى و إن كان قريبه أو حليفه .

وكان الجوار نوعا من الحلف أو الحماية ، ودلالة على قوة المجير ومهابته فى قومه .

١ ـ ولقد علت المرأة إلى هذه المكانة فأجارت ، وقُبِل جوارها ، وحمت وصين حماها فى الجاهلية .

فقد أجارت فُكَيْهة بنت قَتادة — خالة طرفة بن العبد — السُّليك ابن السُّلَكَة ، وحمته من بكر بن وائل ، ومدحها السليك فى قوله :

لعمر أبيك والأنباء تَنْمى   لنعم أخت بنى عوارا
عَنَيْتُ بها فُكَيْهَةَ حين قامت   لنصل السيف وانتزعوا الخمارا
من الخفرات لم تفضح أخاها   ولم ترفع لوالدها شنارا [٣]

وحمت رَيْطة بنت جِذْل الطِّعَان دريد بن الصمة ، اعترافا بفضله ، لأنه كان قد أعطى رمحه ربيعة بن مُكَدَّم يوم حمى الظعينة ، وألقت عليه ثوبها وقالت : يا آل فراس أنا جارة له منكم ، هذا صاحبنا يوم الوادى . فحبسه القوم وقالوا : لا ينبغى أن نكفر نعمته . وقال بعضهم والله لا يخرج من أيدينا إلا

---

(١) خزانة الأدب ٢/١٣٨ ومجمع الأمثال ١/٢١٢ وربيع الأبرار للزمخشرى ورقة ٢٠٦ مخطوط .

(٢) جمهرة الأمثال ٢/٢٤٢ .   (٣) المحبر ٤٣٣ .

برضا المخارق الذى أسره ، فانبعثت ريطة فى الليل تقول:

سنجزى دريدا عن ربيعةَ نعمةً وكل فتى يُجْزَى بما كان قَدَّما

سنجزيه نُعْمَى لم تكن بصغيرة بأعطائه الرمحَ السديدَ المُقَوَّما

فلو كان حياً لم يضق بثوابه ذراعاً ، غنياً كان أو كان معدما

ففكوا دريداً من إسار مخارق ولا تجعلوا البؤسى إلى الشر سُلَّما

فلما أصبح القوم تعاونوا بينهم فأطلقوه ، وكسته ريطة وجهزته ، ولحق بقومه ، فلم يزل كافاً عن غزو بنى فراس حتى هلك[١] .

وقد سبق أن العدوان على جار البسوس أشعل حرباً طويلة الأجل بين ابنىْ وائل[٢] . ولم تكن هذه الحماية حُكْرة للشريفات ، والمتكئات على نسب أو عصبية قبلية ، بل كانت من حق كل امرأة يلجأ إليها ملهوف ، فهذه أم غَيْلان الدوسية التى كانت تمشط النساء قد أجارت ناساً من قريش خرجوا إلى أرض دَوْس — وكان هشام بن المغيرة قد قتل أبا أزيهر — فأمضى قومها إجارتها[٣] على مابهم من حنق وظمأ إلى الثأر .

وفى رواية أن اسمها أم جميل ، وأنها حمت ضرار بن الخطاب الفهرى ، فلما ولى عمر بن الخطاب ظنت أنه أخوه ، فأتته بالمدينة ، وانتسبت له م فعرف قصتها وقال لها : لست بأخيه إلا فى الإسلام ، وقد عرفنا مِنَّتك عليه ، وأعطاها على أنها ابنة سبيل[٤] .

٢ ــ وقد أسلفتُ فى فصل الأم والزوجة والبنت والأخت والقريبة أحوالا عدة أجرن فيها وقبل جوارهن ، كما يجير الرجال ويحمى جوارهم .

---

(١) الأغانى ١٤/١٣٠ والأمالى ٢/٢٧١ .

(٢) مستقصى أمثال العرب للزمخشرى ٤٠ مخطوط والفاخر للكوفى ٧٧ والتنبيه والإشراف للمسعودى ١٧٤ . (٣) الإصابة ٨/٢٦٥ .

(٤) المحبر ٤٣٣ وفى المحاسن والأضداد ٥٦ أنها حمت هشام بن الوليد بن المغيرة ، وهذا لا يستقيم مع ظنها أنه أخو عمر .

٣ ـ ثم جاء الإسلام فأبقى للمرأة هذا الحق ، فقد أسلمت يوم الفتح أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة بن أبي جهل ـ ابن عمها ـ واستأمنت النبي صلى الله عليه وسلم لزوجها ، وخرجت فى أثره وقد فر إلى اليمن ، فردته فأسلم ، وثبتا على زواجهما [١] .

وأجارت أم هانىء بنت أبي طالب رجلا كان أخوها عليّ يريد أن يقتله يوم الفتح ، وأخبرت النبي بذلك ، فقال لها : قد أجرنا من أجرت [٢] .

وأجار النبي والمسلمون لزينب بنت الرسول زوجها ، وأطلقوه من إساره [٣] .

اشتراكها فى حلف

سمت بالمرأة مكانتها إلى أن تشترك أحياناً فى حلف الرجال ، تتعاقد معهم على ما يتعاقدون عليه . وقد حدث ذلك من عهد قديم ، فإنه لما مات قُصَيّ ترأس ابنه عبد مناف ، وعظم أمره ، فجاءته خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة يسألونه الحلف ليعزوا به ، فعقد بينه وبينهم حلف الأحابيش ، واشتركت فيه عاتكة بنت مرة بن هلال زوجة عبد مناف ، وهى التى جرى على يديها حلف الأحابيش [٤] .

ثم اشتركت أم حكيم البيضاء أو أختها عاتكة بنت عبد المطلب فى حلف المطيّبين ، إذ أخرجت طيباً فى جفنة ، فتطيب به بنو عبد مناف وأسد وزهرة وبنو تيم وبنو الحارث بن فهر ، فسموا المطيبين . وكان ذلك لما تحالف بنو عبد

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٢/٧٩٠ .

(٢) فتح البارى ٦/١٩٦ .

(٣) المغازى ١٢٦ وتاريخ الطبرى ٢/٢٩١ .

(٤) تاريخ اليعقوبى ١/٣٧٨ والأحابيش هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة والهون بن خزيمة بن مدركة وبنو المصطلق من خزاعة . تحالفوا جميعا بواد يقال له الأحابيش، وقيل يسمى حبيشا بأسفل مكة ، فسموا الأحابيش (سيرة ابن هشام ٣/١٩٥) .

الدار ضد عبد المطلب ، وآزر بنو سَهْم بنى عبد الدار[١] .

وإذا كان اشتراكها فى هذين الحلفين منبعثاً عن عصبية لقومها ونصرة لآلها، فإنها قد اشتركت فى حلف إنسانى عظيم ، الغرض منه نصر المظلوم وحماية المستضعف ، ذلك بأن قبائل من قريش تعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها إلا قاموا معه ، ونصروه على ظالمه ، وسموا ذلك الحلف حلف الفضول ، وقد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدْعان حلفاً ما أحِبُّ أن لى به حُمْر النَّعَم ، ولو أُدْعَى به فى الإسلام لأجبت » ذلك هو حلف الفُضُول[٢] .

ونخار الاشتراك فى هذا الحلف متنازع بين عاتكة بنت عبد المطلب وأختها أم حكيم البيضاء[٣] ، كما تنوزع فى الحلف السابق .

إهانتها تشعل حربا

وإذا كانت القبيلة تتداعى كلها لنصرة من يعتدى عليه من أفرادها فتنشب حرب بين قبيلتين، فكثيراً مانشبت حروب للعدوان على امرأة .

من ذلك أن اليوم الثانى من أيام الفجار الأول كان سببه أن شباباً من قريش وبنى كنانة رأوا امرأة من بنى عامر جميلة وسيمة جالسة بسوق عكاظ وعليها فضْلُ برقعها ، وقد اكتنفها شباب من العرب وهى تحدثهم ، فأطاف بها شباب كنانة وقريش ، وسألوها أن تسفر فأبت . فجلس أحدهم خلفها ، وشد طرف ردائها بشوكة إلى فوق حُجْزتها ، فلما قامت انكشف درعها عن دُبُرها فضحكوا وقالوا : منعتنا النظر إلى وجهك ، وجُدْتِ لنا بالنظر إلى دُبُرك . فنادت: يا آل عامر ، فثاروا وحملوا السلاح ، وحملته كنانة، واقتتلوا قتالا شديدا ،

(١) تاريخ اليعقوبى ١/٢٨٨ وسيرة ابن هشام ١/١٤٣ .
(٢) سيرة ابن هشام ١/١٤٤ . (٣) تاريخ اليعقوبى ٢/١٦ .

ووقعت بينهم دماء ، فتوسط حرب بن أمية ، واحتمل دماء القوم ، وأرضى بنى عامر من مَثُلَةِ صاحبتهم[1] .

وقد سبق أن الحرب قامت بين اليمانين و بين ربيعة ومضر ، لأن لبيد ابن عَنْبسة لطم زوجته التغلبية لطمة شديدة ، وحقر من شأن قومها[2] .

مكانتها العامة

بعد هذا التطواف مع المرأة العربية أماً وزوجة وبنتاً وأختاً وقريبة ، و بعد أن درست حقوقها المالية ، ومنزلتها العامة ، و بينت عملها فى الحرب واشتراكها فى النضال ، وبعد أن تحدثت عن أخلاق المرأة وتوليها الملك ، وتقدير العرب لها وإعزازهم إياها ، بعد هذا كله يحق لى أن أحكم فى اطمئنان بأن المرأة العربية تبوأت مكانة سامية فى الحياة العربية ، فى الأسرة وفى القبيلة .

ثم رأينا الاسلام يعز المرأة إعزازاً ، و ينيلها نصيباً ثابتاً فى الميراث لم يكن محدداً لها فى الجاهلية .

ولا شك أن المرأة التى تبوأت هذه المنزلة كانت خليقة بها ، وكانت جديرة بأن تنشىء أشبالا شجعانا أقوياء الأخلاق ، وجديرة بأن تلهم الشعراء الغزل ، وتبعث فى المحاربين البطولة والبسالة والإقدام ، وتوقد فى نفوس ذويها الغيرة عليها والحماية لها من الضيم .

ولست أشيد بهذه المكانة متأثراً بتعصب أو محاباة ، فقد أشاد بها من لا يربطهم بالعرب عرق ، يقول العلامة نيكلسون : كانت مكانة المرأة العربية عالية ، ونفوذها عظيما فى العصر الجاهلى ، فقد كانت النساء حرات فى اختيار أزواجهن ، وحرات فى العودة إلى ذويهن إن أساء الأزواج معاملتهن ، وكن أحياناً يزوجن أنفسهن ، ولهن حق الطلاق . ولم تكن الزوجات محتقرات كأنهن

---

(١) الأغانى ١٩/٧٤ .

(٢) كتاب بكر وتغلب ١٥ ـ ٢٥ .

إماء أو سُرِّيّات ، وإنما كن أنداداً للرجال ورفيقات ، وكن يلهمن الشعراء لينشدوا ، والمحاربين ليقاتلوا[١] .

فليس بصحيح إذاً أن المرأة كانت فى البيئة العربية حقيرة الشأن ، متاعاً للرجال فحسب ، وأن ماصوره بها الشعراء خيال[٢] .

أثر هذه المكانة في المرأة الأوربية

بعد انتشار المسيحية كانت المرأة الأوربية مزدراة ، حتى لقد كانت النساء يعيرن أنهن إناث ، وكن معدودات باباً للجحيم ، وبلغت كراهيتهن والزراية بهن إلى أن زعم بعض الناس أن أجسامهن من صنع الشيطان – وإن وُسِم هذا القول بالكفر – وكان التفكير فى النساء خطراً ، وكانت المرأة نحساً ، حتى إن الشيطان طالما زار النساك فى شكل أنثى . ونجم عن هذه العقيدة فى النساء أن كثرت الرهبنة والزهادة وبناء الأديار[٣] .

ولم يكن ليجوز للنساء أن يشتركن فى عمل خارج دورهن . وكان الزواج منبعثاً عن المصلحة والرغبة فى النفع المادى وتوسيع الإقطاعية . وكان يتم أحياناً فى سن الخامسة ، خلافاً لما قررته الكنيسة أن يكون الحد الأدنى اثنتى عشرة سنة ، وكان الطلاق شائعاً على نقيض ما تدعو إليه الكنيسة ، والمرأة على العموم مملوكة للرجل[٤] .

ولقد قرر برنتيير Brunetier أن المرأة الأوروبية تدلت إلى حضيض لم يتدل إليه غيرها فى قوله : لم يحدث أن امرأة فى أى زمان ومكان كانت تحنى رأسها ، وتخضع بضغط القوة والبطش والجبرت والسلطان أكثر مما كانت تفعل المرأة

---

(١) A. Litirary History of the Arabs. PP. 81—89.

(٢) المرأة فى العصور ٦٢ — ٦٤ أحمد خاكى .

(٣) تاريخ العالم مجلد ١ جزء ٧ ص ٣٩٧ Mes Ray strachey

(٤) المرأة فى العصور ١٢ .

من نساء الطبقة المتوسطة فى العصور الوسطى[1] .

٢ ـ لكن الغربيين ـ بعد الحروب الصليبية ـ تأثروا بتقاليد الفرسان ، فقدروا المرأة، ونشأت بينهم فكرة جديدة : أن مايفعله الرجال من أعمال عظيمة قد أوحت به النساء . فالفرسان خرجوا إلى المعارك مدفوعين بحب النساء وحده، وجلست النساء إلى جوار أطر التطريز يتاهفن على عودة أحبابهن . وكانت نظرة من عينين جميلتين أعظم جزاء على أى نَصَب وعناء . ومن هنا حفلت قصص العصور الوسطى وأشعارها بتقدير النساء ، فتبدل مركزهن حتى صرن يتقدمن على الرجال فى المحافل ، ويقبل الرجال أيديهن بعد أن كانوا يضربونهن[2] :

٣ ـ فمن أين جاء هذا التقدير للمرأة الأوربية ؟

تذهب مسز راى استراتشى إلى أن تقدير المرأة الأوربية جاءها من حياتها فى الأديار ، ومن عبادة الناس للعذراء مريم ، لأن التكريم الذى نالته السيدة مريم كان له أثر عظيم فى رفع شأن الأمومة[3] .

ا ـ لكن فى هذا التعليل مجافاة للحق ، لأن المرأة الغربية ظلت قروناً عدة وهى مغبونة القيمة، مغبونة القدر، هابطة المكانة ، فلو أن المسيحية كانت الباعث على رفع شأنها ، أو لوأن تقديس العذراء مريم هو الذى بدل ضعتها عزة، لتحقق ذلك بعد المسيحية بقرن أو بضعة قرون .

ولكن هذا التقدير باعتراف مسز رى سراتشى نفسها نجم بعد الحروب الصابيبة ، فلماذا تأخر إلى هذا العهد لوأنه كان وليد المسيحية أو تقديس السيدة مريم ؟

ب ـ الحق أنه كان ثمرة للفروسية الغربية ، والفروسية الغربية صدى

---

(١) تراث الإسلام ١/١٦١ Gibb (٢) تاريخ العالم مجلد ١ ص ٣٩٨ .
Mes Ray strachy (٣) المرجع السابق .

للفروسية العربية . يقول نيكلسون : « ولعل من الممكن تتبع فروسية العصور الوسطى ، وإرجاعها إلى بلاد العرب الجاهلية ، لأن الشهامة ومغامرة الفرسان ، وإنقاذ العذارى من السبي ، والمساعدة التي كانت تقدم في كل مكان للنساء المحتاجات، كل هذه صفات عربية ، وقد أطلق عليها في أوروبا كلمة شرف أو نبل أو بطولة chivalry والصلة وثيقة بين هذه الأعمال المجيدة وبين الفارس ذلك الرجل النبيل البطل الشريف Chivalrous[1] .

والمسيحيون قد خالطوا العرب والمسلمين زمناً طويلا في الشام وخالطوهم أزماناً طوالا في إسبانيا وصقلية . وكان العرب في إسبانيا وصقلية كالعرب في الشام يتسمون بالفروسية المثالية ، فيرحمون الضعفاء ، ويقدرون المرأة ، ويرفقون بالمغلوبين « وهي الخلال التي اقتبستها منهم الأمم النصرانية بأوروبا ، فأثرت في نفوس الناس تأثيراً لا تؤثره الديانة . وللفروسية العربية تقاليدها كما للفروسية الأوربية التي ظهرت بعدها »[٢] .

وفي تاريخ العرب بإسبانيا مايثبت أنه حفل بخصال الفروسية وتقدير النساء، وأن المرأة العربية كانت عالية القدر في الغرب كما كانت في الشرق ، بل إن ترند Trend يرى أن النساء تمتعن في ظل الأمويين بالأندلس بنصيب من الحرية وحظ من التقدير أعظم مما تمتعن به في ظل العباسيين ببغداد[٣] .

ولم يكن تقدير العرب للنساء حكرة على العربيات، بل كان تقديراً للأنوثة مطلقاً ، ولقد يكون هذا التقدير في موقف ضنك تحتم فيه المصلحة أن يتغاضى الرجل عن بعض ما يدين به من مثل عالية ، ولكن الرجل العربي غلب مثله العالية على مصلحته ومصلحة قومه ذلك بأن والى قرطبة حاصر سنة ١١٣٩ م

---

(١) Nicholsn P.P, 81—88 (٢) حضارة العرب ٣٤٤ جستاف لوبون

(٣) ترث الإسلام ١٢/١ J. B.Trend

مدينة طايلة ، وكانت بيد النصارى ، فأرسلت إليه الملكة بيرانجير ـ وكانت بالمدينة ـ من بلغه أنه ليس من المروءة والكرم أن يحاصر فارس بطل امرأة . فارتد القائد العربى من فوره محيياً الملكة[1] .

ج ـ ويطول بنا المقال لو حاولنا أن نفصله فى فروسية العرب فى الجاهلية وفيما بعدها ، وبحسبنا لمحة دالة ، ونظرة عاجلة .

فالصناديد يفخرون بعد الغزل ببلائهم فى الحرب ، ويوجهون الخطاب إلى المرأة يريدون أن يستميلوها وينالوا إعجابها . يقول عنترة :

سلى يا عبل قومك عن فَعالى ومن حضر الوقيعة و الطِّرادا

وردتُ الحرب والأبطال حولى تهز أكفُّها السُّمْرَ الصِّعادا

وخضت بمهجتى بحر المنايا ونار الحرب تتّقد اتقادا[2]

ويكرر هذا فى شعره[3] . ويتخذ عامر بن الطفيل شجاعته وسيلة إلى جدارته بوصال حبيبته :

فلو علمتْ سُلَيْمَى علم مثلى غداة الروع واصلَتِ الكراما[4]

وإذا ما عاد من حربه تشوق إلى إعجاب زوجته به وسؤالها الأبطال عن إقدامه علم ، حتى ليطلقها إن لم تسأل لتعرف شجاعة زوجها :

طُلِّقتِ إن لم تسألى أى فارس حليلُك إذ لاقى صُدَاء وخَثْعَما

أَكُرُّ عليهم دَعْلجاً ولَبانه إذا ما اشتكى وقع الرماح تَحَمْحَما[5]

وله كثير مثل هذا[6] .

ولقد يكون مشهد الحبيبة وهى جازعة مخافة السبى باعثاً أى باعث على بطولة

---

(١) حضارة العرب ٤٤٣ جسا: ف لوبون.

(٢) ديوان عنترة ٥٧ (٣) ديوان عنترة ٥٣ و ٥٦ و ١٥٠ .

(٤) ديوان عامر القصيدة ٢ (٥) ديوان عامر الملحق ١٩

(٦) الديوان ملحق ٢٢ والقصيدة ٣ .

تجلب النصر ، فقد رأى عمرو بن معد يكرب حبيبته لميس تجرى كاشفة عن محاسنها هلعاً وذعراً ، ونساء قومه يجرين ، فهجم على رئيس الأعداء فقتله ، وكسب النصر ، وصور ذلك فى قوله :

لما رأيت نســــاءنا   يفحَصْنَ بالمَعْزَاء شَــدَّا
وبدَتْ لَمِيسُ كأنها   بــدر السماء إذا تبدّى
وبدت محاسنها التى   تُخْفِى وكان الأمر جدا
نازلتُ كبشهم ولم   أرمن نزال الكبش بُدّا (١)

وقد يستبسل المحاربون ، لأن وراءهم ظعائن يحمسنهم ، وينفرنهم من الهزيمة ، وهم أضناء بهن أن يسبين ، يقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض حسان   نحاذر أن تقسّم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهدا   إذا لاقوا فوارسَ مُعْلِمينا
ليَسْتَلِبنّ أبداناً وبَيْضاً   وأسرى فى الحروب مقرّنينا
يقتن جيادنا ويقلن لستم   بعولتنا إذا لم تمنعونــا
إذ لم نحمهن فــلا بقينا   لشىء بعدهن ولا حيينا
وما منع الظواعنَ مثلُ ضرب   ترَى منه السواعدَ كالبُرِينا (٢)

وكثيراً ما أشهدها الرجل على كرمه وشجاعته ، كقول عروة بن الورد :

وقد علمت سليمى أن رأيى   ورأى البخل مختلف شَتيت
وأنى لا يرينى البخــلَ رأىٌ   سواء إن عطشت وإن رَوِيت

---

(١) ديوان الحماسة لأبى تمام شرح التبريزى ١/٩٢ المعزاء : الأرض الصلبة . يفحصن : يؤثرن من شدة الجرى . لميس : اسم حبيبته .

(٢) شرح المعلقات السبع لابن الأنبارى مخطوط ٧٦ والتبريزى ٢٤٧ الأبدان : الدروع . البرين : جمع برة وهى حلقة فى أنف البعير . ورواية التبريزى (كالقلين) جمع قلة وهى الخشبة التى يلعب بها الصبيان يضربونها بالمقلاء

وأنى حين تشتجر العـــوالى   حوالى اللب ذو رأى زَميت[١]

ولهذه الفروسية مظاهر أخر ، كنجدة المستغيث ونصرة المستنصف ، والحدب على الأرامل واليتامى .

وحسبنا للدلالة على نصرة المستغيث قول سَلامة بن جَنْدل :

كنا إذا ما أتانا صـارخ فزعٌ   كان الصراخ له قرع الظّنابيب[٢]

وقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك إنه كان نصير الضعيف المغلوب :

ويوماً إذا كظَّك الخصم إن يكن   نصيرك منهم لاتكن أنت أضْيَعَا[٣]

ومن العطف على المرأة المحتاجة إلى رعاية قولُ أوس بن حجر فى رثاء فَضالة ابن كَلَدة :

أبا دُلَيْجةَ من يُوصَى بأرملة   أم من لأشعث ذى هِدْمَيْنِ طِمْلال[٤]

وقول متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

وللشَّرْب فابكى مالكا ولِبُهْمَة   شديد نواحيه على من تشجَّعا

وأرمـلة تمشى بأشعث مُحْثَلٍ   كفرخ الحُبَارَى رأسه قد تَضَوَّعا[٥]

وقول بنت وثيمة فى رثاء أبيها وثيمة بن عثمان إنه ملجأ الأرامل واليتامى :

ألقيتـــه مأوى الأر   مل والمدفَّـعة اليتيمه[٦]

والأمثلة شتى على حماية العرب للمستجير ، وفكهم الأسير ، ونصرهم للمهضوم .

وقد بسطت المقال فى موضع آخر[٧] فى افتتاحهم القصائد بذكرها ، وفى

---

(١) ديوان عروة . زميت : وقور .

(٢) سمط اللآلى ١/٧٤٠ الظنابيب : جمع ظنبوب وهو مسمار فى جبة السنان .

(٣) المفضليات ٢/٦٥ الخصم : الخصوم : كظك : قهرك وغلبك .

(٤) ديوان أوس بن حجر ٢٣ والبيان والتبيين ١/١٥٩ أشعث : مغبر . هدم : بال . طملال : فقير . (٥) المفضليات ٢/٦٦ محثل : سيىء الحال والغذاء . الحبارى : ضرب من الطير . تضوع : تفرق شعره .

(٦) البيان والتبيين ١/١٦١ (٧) الغزل فى العصر الجاهلى ٢٥٧ ـ ٢٧٣ .

أفانين غزلهم بها ، وتنافسهم لنيل إعجابها .

وهذه كلها هى الأسس التى قامت عليها الفروسية فى الإسلام وفى أوربا فى العصور الوسطى ،

د ـ وليست هذه الفروسية الغربية ذات المثل السامية وما تقتضى من احترام المرأة إلا أثراً للعرب وللإسلام لا للنصرانية . فالإسلام هو الذى رفع المرأة الأوربية من الدرك الأسفل الذى كانت فيه ، لا النصرانية . فإذا نظرت إلى أمراء النصارى الإقطاعيين فى القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئاً من التقدير للنساء ، ووجدت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظاً فى معاملة النساء ، قبل أن يتعلم النصارى من العرب معاملتهن بالحسنى[١] .

ونجد أن الشعر فى أوربا اقترن بالفروسية كما كان عند العرب ، بل أصبح شرطاً من شروطها ، وصار لزاما على الفرسان أن يقرضوه كباراً وصغاراً ، ومن لم يستطع أن يقرض الشعر بنفسه ليتغنى بحبه ويفصح عن لواعج قلبه أنشد شعر سواه[٢] . وعد الفارس من واجبه حماية المرأة والأرملة واليتيم والضعيف من الرجال الذين يطلبون المعونة والغوث[٣] .

وكثير من العلماء الغربيين يصلون الفروسية الأوربية بالفروسية العربية والإسلامية ، يقول فلوريان: « المسلمون أرق الناس حباً ، وأكثرهم خشوعا ، وأشدهم عاطفة ، وإذا أحب أحدهم امرأة ـ وإن حجبها حتى تصيرأسيرة بيته ـ أصبحت حا كما مطلق السيادة ، وملكت قلبه . من أجل النساء سعى العرب وراء المجد ، ولكى يسطعوا فى عيونهن سعوا فى سبيل الثراء ، حتى يقدموا لهن أغلى مايملكون

---

(١) حضارة العرب ٤٨٨ جستاف لوبون والفتوة عند العرب عمر الدسوقى ٢٧٢ عن:
Florian; daus son précis Historiqu. sur le Mauers Floian, dans. son précis Historigue rus le Mauers,

(٢) الفتوة عند العرب ٢٨٧ عن **Fauaiel, oP cit t. I p 529**

(٣) الفتوة عند العرب ٢٨٧ عن **Mémoirs sur l'ancienne chevalerie**

من مال وحياة[١] . » ويقول بارثلمى سانت هيلير : « أما الفرسان فقد تعلموا المشاعر الرقيقة وأجمل الفضائل الإنسانية من العرب . ومن المشكوك فيه أن المسيحية وحدها على عظمتها كانت تستطيع أن تلهمهم هذه الأخلاق[٢] .

ويذهب Gibb إلى أن الشعر البروفانسي حافل بعشق غنى بالصور الجميلة ، وإلى أن هذا الضرب من الحب أو التقديس للمرأة لم يكن نتيجة لتقاليد العصور الوسطى ، ولم يكن صدى للأدب اليونانى أو اللاتينى ، وإنما قام على تقاليد أدبية راسخة صادرة من شعر العرب فى إسبانيا ، لأن الأدب العربى كان فى كل عصوره يستمد من ينبوع حب الرجل للمرأة[٣] .

وآخر شهادة أعزز بها أن الفروسية الغربية وليدة العربية قول الأديب الإسبانى الوطنى الغيور بلاسكوا أبانيز الذى توفى منذ بضع سنوات : إن أوروبة لم تكن تعرف الفروسية ، ولا تدين بآدابها المرعية ، ولا نخوتها الحماسية قبل أن يفد العرب إلى الأندلس ، وينتشر فرسانهم وأبطالهم فى أقطار الجنوب . وهذه الفروسية التى ظهرت بين عرب الأندلس قد تبناها فيما بعد رجال الشمال ، كأنها ميزة مقصورة على الأمم المسيحية[٤] .

٤ ـ وبعد ، فلقد جانبت مسز رى سراتشى الصواب حين زعمت أن الإسلام كان ذا تأثير مضاعف فى التدلى بالمرأة ، وتثبيطها عن النهوض ، لأنه قرر أن النساء لانفوس لهن ، وأنهن أدوات للاستمتاع فحسب[٥] .

وليست هذه الدعوى فى حاجة إلى تفنيد بعد ما تقدم من نصرة الإسلام

---

(١) الفتوة عند العرب ٢٠٥ .
(٢) الفتوة عند العرب ٢٧٧ عن Barthelemey saint—Hilair, et le coarn
(٣) تراث الإسلام ١/١٦٠ — ١٦٨ .
(٤) أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ٦٨ و ١١٤ العقاد .
(٥) تاريخ العالم مجلد ١ عدد ٧ ص ٣٩٤ Mrs Ray strachey

للمرأة ، ومن شهادة الغربيين المنصفين بذلك .

وكأنما نسيت الكاتبة أن علية من رجال روما اجتمعوا فى القرن السابع عشر، وتناقشوا طويلا فى أن للمرأة روحاً أم لا روح لها[1] ، وأن امرأة بيعت بشلنين فى أسواق لندن سنة ١٧٩٠ م لأن نفقات معيشتها زادت على الكنيسة التى تؤويها ، وأن القانون الإنجليزى ظل إلى سنة ١٨٥٩ لا يعدها من المواطنين[2] .

ونسيت أنها هى نفسها التى قالت : لقد كتب بلاكستون Blachstone فى شروحه المشهورة على قوانين انجلترا فى سنة ١٧٦٥ م يقول : « أن القيود التى ترزح تحتها المرأة يراد بها فى الغالب حمايتها وخيرها » والحق أن القانون قد حرمها كل حق مدنى تقريباً ، وحال بينها و بين التعليم وكل شىء آخر ما عدا أحط موارد الكسب ، ونزلت عن ثروتها كلها عند الزواج ، ونستطيع أن نقرر أن مركز النساء منذ أواخر القرون الوسطى إلى آخر القرن التاسع عشر لم ينتج خيراً[3] .

ونسيت أيضاً أنها هى القائلة : إن النساء كن يعيرن أنهن إناث ، وكن معدودات بابا للجحيم ، حتى قيل : إن أجسامهن من عمل الشيطان ، وإن الشيطان طالما زار النساك فى شكل أنثى ، لذلك كثرت الرهبنة والزهد و بناء الأديار ، وكان هذا كله بعد النصرانية وانتشارها[4] .

و إذا كانت الأحوال قد دالت ، فتقهقرت المرأة العربية ، ونسى العرب أو تناسوا خلال الفروسية ، بينما أغذت المرأة الغربية سيرها ، ثم جعلت المرأة

---

(١) دائرة المعارف . مادة المرأة . فريد وجدى .

(٢) المرأة ومركزها الاجتماعى ٣ : محمد البندارى .

(٣) تاريخ العالم مجلد ١ عدد ٧ ص ٣٩٩ Mrs Ray strachey

(٤) المرجع السابق .

العربية تتطلع إلى أختها الغربية وتحاكيها ، فإنها بذلك تسترد ديْناً لها ، وتتأسى بعد أن كانت أسوة .

موازنة المرأة العربية بغيرها

أستطيع ـ بعد أن جَلَوْتُ الصورة الصحيحة للمرأة العربية ، وبينت منزلتها في الحياة السياسية والاجتماعية في الأسرة وفي القبيلة ، وبعد أن وازنتها بالنسوة المعاصرات لها ـ أن أعرض مكانتها العامة بالنسبة لغيرها من النساء .

١ ــ بين المرأة العربية والعبرية :

قلت إن اليهود اصطبغوا بصبغة عربية في جزيرة العرب فكانوا عرباً في عاداتهم ونظمهم ولغتهم .

لذلك نجد تشابهاً بين بعض أحوال المرأة العربية والمرأة اليهودية ، فكل منهما تسبى ، وتباع ، وتورث أو يورث نكاحها ، ولا ترث ، وإن كانت العبرية قد ورثت في عصر متأخر في حالات خاصة ، وورثت العربية أحياناً نصيباً غير مقدر .

وتتشابهان أيضاً في أن كلا منهما نسب إليها بنوها أحياناً ، وفي حرمة بعض النساء على بعض الرجال ، وفي إباحة زواج المتعة .

لكن المرأة العربية تمتاز بأنها خُوِّلت حق الطلاق كالرجل ، وخولت أن تطالب بالتطليق، وأن تختلع . وقلما باعها أبوها بيع الرقيق كما كانت تباع العبرية ، ولم يتزوج عربي أخته كما فعل العبرانيون .

ثم إن العرب لم ينظروا إلى المرأة على أنها شر وو باء كما نظر العبرانيون ، بل إنهم أحبوها ومجدوها وتقربوا إليها وصانوها .

وتتميز المرأة العربية أيضاً بمشاركتها في الحياة العامة مشاركة عظيمة القيمة ، في تولى الملك ، وفي قيادة الجيوش ، وفي أنها تجير ، وتشترك في حلف .

٢ — بين المرأة العربية والمسيحية :

لا شك أن المرأة العربية كانت أعظم قدرا من المسيحية ، فإن العرب لم يهبطوا بالنساء إلى تجريدهن من الروح والبشرية ، ولم يصموهن بأنهن رجس .

وإذا كانت المسيحيات قد أبلين بلاء حسناً فى نشر المسيحية فقد أبلت العربيات بلاء حسناً فى الدفاع عن الوثنية أولا ، وفى الدفاع عن الإسلام ثانياً .

على أن المرأة المسيحية سعدت بما حُرِمته العربية ، فى أنها لا تضار بالضرائر ولا بالطلاق ولا بالتسرى ، وإن كان كل من هذه الثلاث سلاحاً ذا حدين ، فقد ينتفع به الرجل ، وقد تستفيد به المرأة ، وربما لا يكون منه بدّ فى بيئة بدوية محاربة تخشى العار ، وتحرص على عفة النساء وكثرة النسل .

٣ — بين المرأة العربية والفارسية :

تمتعت المرأة العربية بالمُلك كما تمتعت الفارسية ، وكان تعدد الزوجات والتسرى شائعاً هنا وهناك .

وكان الحجاب عند الفرس أشد منه عند العرب ، ثم كانت العربية مصونة ومحاطة بسياج منيع من غيرة الرجل عليها ، فلم يعرف العرب نظام الشيوع فى النساء كما عرفه الفرس فى عهد من عهودهم .

ثم إن العرب كانوا لا يحلون البنات ولا الأمهات ولا الأخوات ، كما كان يفعل الفرس .

ولا أشك فى أن العرب الذين تمجّسوا لم يرتضوا زواج الأمهات والبنات والأخوات ، بل نفروا منه ، وأنغضوا رءوسهم له ، ولكن هذا لا ينفى أن قلة منهم شذت عن العرف العربى فى نظام الزواج . يدل على ذلك هجاء أوس ابن حجر لبعض العرب بقوله :

والفارسية فيهم غير مُنْكَرَة   فكلهم لأبيه ضَيْزَنٌ سَلَف[١]

وقول المتلمس فى هجاء عمرو بن هند :

ملكٌ بلاعب أمــه وقَطِينَهَا   رِجْوُ المفاصل . . . كالمبرد[٢]

وذكر بعض المؤرخين أن حاجب بن زُرارة تزوج بنته دُخْتنوس ، ثم ندم[٣] . وقيل إن لقيط بن زرارة هو الذى تزوج بنته دختنوس ، وسماها بهذا الاسم الفارسى ، فلما قتل فى يوم شِعْب جبَلة وهى فى عصمته قال :

يا ليت شعرى عنك دختنوس   إذا أتاها الخــبر المَرْمُوسُ

أتحلق الرأس أم تَمِيسُ   لا بل تَمِيسُ إنها عروس[٤]

على أن بعض المؤرخين يتفق مع ابن قتيبة فى أنها بنت لقيط ، ولكنها كانت زوجة لابن عمها عمرو بن عمرو بن عدس[٥] ، ثم تزوجها بعده معبد بن زرارة[٦] أو عمير بن معبد بن زرارة[٧] ، ولم يُشْر واحد من هؤلاء إلى زواجها بأبيها .

وتتشابه الفارسية والعربية فى بغضة الآباء للبنات ، وتفضيلهم الذكورعليهن.

٤ — بين المرأة العربية والرومانية واليونانية

إذا ما قايسنا المرأة العربية بهاتين وجدناها أعلى مكانة ، لأن العرب لم ينظروا إليها نظرة المهانة ، ووجدناها تشارك فى الحياة الأسرية والحياة العامة بقدر عظيم ، ولها حق الملك والتصرف فيما تملك .

---

(١) ديوان أوس ٣ والمعانى الكبير لابن قتيبة ١/٥٢١ .

(٢) ديوان المتلمس ٦ مخطوط .   (٣) المعارف ٢٠٥ والأعلاق النفيسة ٢١٧/٧ والمعرب للجواليقى ١٤٢ شرح شاكر وكتاب الزينة لأبى حاتم الزارى ٦٠ مخطوط

(٤) الكامل لابن الأثير ٢١٣/١   (٥) الأغانى ٣٨/١٠ وتاج العروس ١٤٧/٤

(٦) مجمع الأمثال للميدانى ١٣/٢   (٧) الشعر والشعراء ٢٧١ وتاج العروس ١٤٧/٤ .

ثم إن العرب لم يعتبروها وعاء للنسل فحسب ، ولم ينظروا إليها على أنها مخلوق منحط ، ولم يقتلوا الأم إن ولدت ولداً ضعيفاً .

وتتميز المرأة العربية أيضاً بأنها كانت صاحبة حق فى أن تطلق زوجها ، وأن تختلع منه لتفارقه ، وأن تطالب الطلاق بدون خلع ، وبأنها لم تكن مشاعة بين الرجال هذا الشيوع الذى جرى عليه الإغريق والرومان فى بعض نظمهم ، ولم يستحل العرب نكاح الأخت لأب كما استحله الإغريق .

والعربية على العموم أسمى فى الأسرة وفى المجتمع منزلة ، ولها قسط عظيم من المساهمة فى الشئون العامة .

على أن ثمة بعض التشابه ، فبعض العرب كانوا يئدون البنات ، والإغريق كانوا يقتلون الضعاف من الذكور والإناث ، وقليل من العرب كانوا يبيحون لنسائهم الاستبضاع كما أباحه الإغريق والرومان ، وكثير من العربيات كن يسفرن ، كما كانت تسفر المرأة فى إسبرطة وأثينا ، وإن كان سبب السفور عند العربية مغايراً لسببه عند الإغريقية . والعرب والإغريق كانوا يعددون الزوجات ، ويحرمون المرأة أن ترث ، وينسبون أحياناً إلى الأم .

٥ — بين المرأة العربية والمصرية

تتشابه العربية والمصرية فى سمو المكانة ، فكل منهما استوت على عرش الملك ، وكلتاهما جليلة الشأن فى الحياة الأسرية وفى الحياة العامة ، وإذا كانت المرأة المصرية قد حظيت عند بعلها فإن العربية أيضاً كانت ذات نفوذ عظيم ، حتى لقد نسب إليها زوجها أحياناً .

على أن كلتيهما تملكت المال ، وتصرفت فيه مستقلة عن الرجل ، وإذا كان الحكم اليونانى لمصر قد سلب المرأة المصرية هذا الحق فإن العربية لم تُسْلَبْه . وكان تعدد الزوجات والتسرى هنا وهناك .

ولـكن المصرية امتازت من العربية بأنها ورثت وحدها أحياناً ، وورثت بالرجل أحياناً أخرى .

والعربية امتازت بأن نكاح الأم والأخت كان محرماً عند العرب .

دلالة هذه المكانة على رقى العرب

كان العرب فى العصر الجاهلى يعرجون إلى الرق ، فقد أقر الإسلام كثيراً من نظمهم فى الزواج والطلاق ، وفى معاملة السبايا ، وفى الحجـاب والأخلاق ، وحق النساء فى الامتلاك والتصرف فيما يمتلـكن . وليس أدل على رقيهم من أنهم أو فضوا سراعا إلى زعامة العالم بعـد الإسلام . ولم يكن من الطبيعى أن يخلقهم الإسلام خلقاً جديداً فى بضعة أعوام ، وأن يسن آدابا وأخلاقاً وعادات ومعاملات تناقض طباعهم الأصيلة ، وتغاير نفوسهم ، ثم يدينون بهـا وتشربها قلوبهم حتى ليجدون فى نشرها ، ويطيرون بها طيراناً فى الآفاق ، ليس من الطبيعى أن يحدث ذلك إن لم يكونوا مستعدين لتلقى هذا الجديد وتقبله وتنفيذ تعاليمه بقلوب واعية ، وعزائم ماضية ، ونفوس طماحة ، لأن حضارة الأمة لا تولد فجأة ، ولا تنجم على حين غرة ، وإنما تولد بعد زمن طويل وماض بعيـــد كفيل بالتبدل والتطور والانتقال ، كالشجرة تبدأ بذرة فى تربة ملائمة وبيئة موائمة ، ثم تتدرج فى نموها حيناً بعد حين .

على أنا نعلم أن العرب تسابقوا إلى اقتباس حضارة الأمم فى الإســلام ، وهم بهذا الاقتباس السريع أثبتوا أنهم ذوو قرائح مستعدة للرقى والانتفاع بما هو خير ، وهذه الصفات لا تـكون ثمرة لوراثة سابقة ، وثقافة قديمة ، فهم على النقيض من البرابرة الذين قوضـوا دعائم الإمبراطورية الرومانية ، وظلوا قروناً كثيرة لا يستطيعون أن يقيموا حضارة على أنقاض الحضـارة اللاتينية ، ويخرجوا من

ظلمات القرون الوسطى [١] .

ومن عجب أن يشيد بعض الأجانب المؤرخين الأقدمين ومن المحدثين بحضارة العرب ، ونغفل عن هـذه الإشادة ، ونروح نرميهم بالهمجية والوحشية، متأثرين بحملات شعوبية قديمة ، وتعصب استعماري ظالم .

لقد وصف هيرودوت بلاد اليمن وصفاً دالا على حضارتها ، وتابعه سترابون .

ولقد كان عرب الحيرة والشام على صلة بالفرس والروم وبحضارتهم .

على أن العرب ظهروا على مسرح التاريخ قبل الرومان بقرون كثيرة ، وحضارة اليمن أقدم من حضارة الرومان .

ولسنا نغالى فى قولنا إن العرب فى شبه الجزيرة ولا سيما فى الجنوب أسهموا فى تشييد الحضـارة الإنسانية ، بل إنه لا يمكن إنكار ذلك ، فقد كانت شبه الجزيرة قبل الإسلام بألفى عام ذات مكانة عظيمة فى العـالم القديم ، ثم زادها الإسلام عزة ، حتى حمل العرب مشـاعل النور إلى أوروبا والجهل يتفشى فى ربوعها [٢] .

وإذا فما بُدٌّ من تصحيح النظرة إلى عرب الجاهلية ، فقد استبان لى من هذا الـكتاب ومن كتاب (الحياة العربية من الشعر الجاهلى) ومن كتاب (الغزل فى العصر الجاهلى) أن العرب ظلموا بالحكم عليهم بالهمجية .

وإذ كان قد اتضح لى أنهم على قسط عظيم من الحضارة فيما يتصـل بالمرأة فى الأسرة والقبيلة والحياة العامة ، فإننى أتوقع أن تـكشف دراسات أخرى عن ألوان من الرقى طمست معالمها مع الزمن .

---

(١) حضارة العرب ١١١ جستاف لوبون .   (٢) حضارة العرب ١٢١ و
The Bach Ground of Islam, P. 17, phillby

الباب الثالث

المرأة فى الحياة الفنية

أتحدث فى هذه الفصول عن المرأة فى الحياة الفنية ، مغنية ، وراوية للشعر ، وناقدة ، وشاعرة . وفى هذه الدائرة ناحية عظيمة القيمة كان المنتظر أن أفرد لها فصلا حافلا ، أقصد المرأة الحبيبة أو المرأة الملهمة للغزل ، لكنى لم أفعل ؛ لأنى خصصت المرأة الملهمة للغزل بكتاب (الغزل فى العصر الجاهلى)

الفصل الأول

المرأة المغنية

الغناء في الجاهلية :

أولع العرب بالغناء أيما ولوع ، فكان العربى يتغنى وهو يقطع المسافات الطوال على ظهر راحلة تمشى به متئدة أو مُرْقِلَة ، وهو يهتز على ظهرها هزات تبطىء وتسرع ، وتطول وتَقْصُر . وكان يتغنى وهو يهجم فى الحرب فيجرى أو يثب ، ويتغنى وهو يَمْتَح الماء من البئر فيعلو جسمه أو ينخفض ، ويتغنى وهو يرقص ، ويغنى وهو يزاول عملا تصحبه العاطفة وتعوزه التسلية ، تنزل به النازلة فَيُرَوِّحُ عن نفسه بالغناء ، وتبسم له الحياة فيصور حبوره فى غناء .

فالغناء حُداء الركب ، وشدو الفرد ، وأهزوجة المنتصر ، وأغرودة العاشق ، وسلوى المكروب والمَحْروب .

علاقة الشعر بالغناء :

وقد ارتبط الشعر بالغناء فى النشأة الأولى ارتباطاً وثيقاً ، لأنهما معاً يصدران عن العاطفة ، ويعبران عنها ، فبواعث الغناء هى بواعث الشعر ، ثم إن الموسيقى أساس فيهما معاً ، ففى الغناء موسيقى النغمات والألحان ، وفى الشعر موسيقى الألفاظ والأوزان .

لذلك لا نعرف شعباً غنى بالنثر ، لأن الناس إن تغنوا به أول الأمر لا يلبثون أن يحسوا أن الغناء بالكلام الموزون أولى وأحلى ، وأكثر طواعية للتنغيم والترنيم .

وظواهر هذا الارتباط كثيرة فى الأدب العربى القديم وفى غيره من الآداب .

١ — فقد كان شعراء العصر الجاهلى يغنون شعرهم وينشدونه وهم يلقونه ، وهم يعبرون عن الإنشاد أحياناً بالغناء ، لأن الإنشاد ضرب منه ، كما روى أن المهلهل شرب خمراً وتغنى قصيدته التى مطلعها :

طَفْلَةٌ ما ابنة المَحَلَّل بيضا ء لعوب لذيذة فى العناق(١)

والسُّلَيْك بن السلكة غنى بقوله :

يا صاحبىّ ألا لا حىَّ بالوادى سوى عبيد وآمٍ بين أذْواد
أتنظران قريباً رَيْثَ غفلتهم أم تعدوان فإن الربح للغادى(٢)

والأعشى كان يغنى فى شعره ، وكانت العرب تسميه صنّاجة العرب(٣) .

ومُزَرِّد بن ضرار أو أخوه جَزْء يقول فى تهديد أعدائه بهجاء ممض إنه سيرميهم بأهاجى مرة يتغنى بها السارى ، ويحدو بها الحادى :

زعيم لمن قاذفْتُهُ بأوابد يغنى بها السارى وتُحْدَى الرواحل(٤)

---

(١) الأغانى ٥/٥١ (٢) الأغانى ١٨/١٣٤ (٣) الأغانى ٩/١٠٩

(٤) المفضليات ١/٩٨ أوابد : غرائب القول يريد الأهاجى المرة

وامرؤ القيس كان يغنى بشعره ، يدل على ذلك قول أبى النجم لقنيته أن تغنيه ببعض ما كان يغنى به امرؤ القيس أو عمرو :

تغنى فإن اليوم يوم من الصبا   ببعض الذى غَنّى امرؤ القيس أو عمرو[1]

وحسان بن ثابت يقرن الشعر بالغناء :

تغنّ بالشعر إما كنت قائله   إن الغناء لهـذا الشعر مِضْمار[2]

وقد عبروا عن الشعر بالغناء ، من ذلك أن عمر بن الخطاب قال للنابغة الجعدى : أسمعنى بعض ماعفا الله لك عنه من غنائك فأسمعه كلمة له ، فقال له : وانك لقائلها ؟ قال : نعم . قال عمر : لطالما غنيت بها خلف جمال الخطاب[3] .

وكانت النساء يتغنين بالشعر وهن يرقصن أطفالهن ، كقول منفوسة بنت زيد الخيل فى ترقيص ولدها .

أشْبِـهْ أخى أو أشبِهَنْ أباكا   أما أبى فلن تنال ذاكا

تقْصُرُ عن منَاله يداكا[4]

وكن يبكين موتاهن بغناء حزين هو النواح ، كما ناحت الخنساء على أخويها ، وهند بنت عتبة على أبيها وعمها وأخيها[5] ، وكن يغنين فى المعارك ليشجعن الرجال على القتال كما سبق فى الحرب .

وظل لفظ الإنشاد إلى ما بعد العصر الجـاهلى دالا على إلقاء الشعر ، وإن لم يصاحبه غناء ، كما فى شعر ذى الرمة[6] والمتنبى[7] .

وطالما غنى الرجال بشعر حماسى وهم يحاربون ، كما فعل عُمير بن الحُمام إذ سمع

---

(١) الشعر والشعراء ٤٢ .   (٢) الموشح ٢٩ والعمدة ٢/٢٤١ وفى أساس البلاغة (إما كنت ذا بصر) ومعنى المضمار هنا مجال الإصلاح لأن المضمار هو الموضع الذى تضمر فيه الخيل   (٣) العقد الفريد ٤/٩٠ .

(٤) لسان العرب مادة وكل والأغانى للأطفال عند العرب ٥٥ . (٥) الأغانى ١٣/١٢٩

(٦) العمدة ٢/٢٤١ .   (٧) ديوان المتنبى ١/١٩٣ شرح البرقوقى .

النبي صلى الله عليه وسلم يحرض المسلمين على قتال المشركين فى بدر ، فقاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعـــاد

والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد[1]

وحدثت السيدة عائشة أن سعد بن معاذ مرّ عليها — وهى فى حصن بنى حارثة يوم الخندق ومعها أم سعد — وهو يسرع إلى الحرب و يقول :

لَبِّثْ قليلا يشهد الهيجا جَمَل لا بأس بالموت إذا حان الأجل[2]

وفى غزوة خيبر خرج مَرْحب اليهودى من حصن لليهود ، وقد جمع سلاحه وارتجز بقوله :

قد علمت خيبر أنى مَرْحبُ شاكى السلاح بطل مجرّبُ

أطعن أحيانا وحينا أضرب إذا الليوث أقبلت تحرّبُ

. . . .

وكان يقول من يبارز ؟ فأجابه كعب بن مالك بقوله :

قد علمت خيبر أنى كعب وأننى متى تُشَبُّ الحرب

ماض على الهول جرىء صلب معى حسام كالعقيق عضب

. . . .[3]

وكانوا يتغنون بالشعر فرادى وجماعات ، فقد روى عن أنس بن مالك وعن عائشة أنه لما قدم رسول الله المدينة تغنت النساء والصبيان بقولهن :

طلع البـــدر علينـا من ثنيـــات الوداع

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/٢٨١ (٢) تاريخ الطبرى ٣/٤٩ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣/٣٨٣ والمغازى ٣٩٠ .

وجب الشكر علينا ... مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع[1]

وفى حفر الخندق رأى النبى ما بالصحابة من تعب وجوع ، فقال متمثلا بقول ابن رواحة :

لاهمّ لا عيش إلا عيش الآخره ... فارحم الأنصار والمهاجره

وكان الصحابة يجيبونه بقولهم :

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبدا

ورى أنه صلى الله عليه وسلم تمثل بشعر آخر أيضاً[2] ، وأن الصحابة ارتجزوا برجل من الأنصار اسمه جُعَيْل وسماه الرسول عمراً فقالوا :

سماه من بعد جُعَيْلٍ عَمْراً ... وكان للبائس يوما ظَهْراً

فإذا مروا بكلمة عمرو قال الرسول «عمراً» وإذا نطقوا كلمة ظهر قال الرسول «ظهراً»[3] .

٢ — ولم يكن الشعر العربى وحده هو الوثيق الصلة بالغناء ، فقد كان الشعر اليونانى كذلك ، فأطلق اليونان على الشاعر كلمة Aede أى المغنى وكان هوميروس يتغنى بالإلياذة على آلة موسيقية ، ولم يكن الغناء بالشعر عند اليونان محصوراً فى نوع معين منه ، فقد تغنوا فى مناجاة الآلهة ، وفى مدح الملوك ، وفى إلقاء القصص ، وفى الشعر التمثيلى الذى كان حواراً وأناشيد غنائية « على أن الشعر الغنائى استمد هذه التسمية من نسبته إلى كلمة Lyre ، وهى آلة موسيقية قديمة ، فسمى Lyric poetry أى الشعر الغنائى[4] .

---

(١) السيرة الحلبية ٢/٥٨ .
(٢) السيرة الحلبية ٢/٣٣٢ . (٣) سيرة ابن هشام ٣/٢٣٢ .
(٤) أصول النقد الأدبى ٣١٨ أحمد الشايب

وكان أرسطو يرى أن الشعر الغنائى مرتبط أشد الارتباط بالموسيقى (١) .

ومنذ عهد قديم أطلق الإنجليز كلمة بارد Bard على الشاعر المغنى الذى كان يتغنى أمام المحاربين و يعزف على آلة موسيقية (٢) .

ثم ظهرت طائفة التروبادور Troubadour فى القرن الحادى عشر إلى الثالث عشر فى شرقى إسبانيا وشمالى إيطاليا وجنوبى فرنسا ، وكانوا يتنقلون من قصر إلى قصر ينشدون شعرهم ، ويوقعون على آلات موسيقية معهم (٣) .

وفى القرن الثانى عشر والثالث عشر ظهرت جماعة المنسنجر Minnesingers فى ألمانيا ، ينشدون الشعر ويتغنون به على أداة موسيقية (٤) .

أنواع الغناء عند العرب

تغنى العرب بشعرهم كما سبق ، فرادى وجماعات ، رجالا ونساء ، وهذا هو الترنيم .

ثم تنوع الغناء إلى ثلاثة ألحان : نَصْب وسناد وهزج . أما النصب فغناء الركبان والقيان ، وأما السناد فالثقيل الترجيع الكثير النغمات ، وأما الهزج فالخفيف كله الذى يلهى وينشط على السير ، وهو الذى يثير القلوب ويهيج الحليم (٥) . وإنما كان أصل الغناء ومعدنه فى أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً ، وهى المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة ، وهذه القرى مجامع أسواق العرب (٦) .

---

(١) قواعد النقد الأدبى ٧٠ لاسبل كرومى .

(٢) The great Ensyclopeadia of Universal Knowledge

(٣) المرجع السابق و Twentietk century dictionary. and dictionnaire Larrouse

(٤) Twentieth century dictionary

(٥) كتاب الملاهى لقاضى ٤٤ مخطوط والعقد الفريد ١٨٦/٣ .

(٦) العقد الفريد ١٨٦/٣ .

غناء الإماء

النساء أليق بالغناء

كانت النساء أليق باحتراف الغناء من الرجال ، لأنهن فى الغالب أندى صوتاً، وأحلى ترجيعاً، وأرق نغما ، ولأن لجمالهن وأنوثتهن أثراً فى الطرب لهن. وقد ذهب الجاحظ إلى أن « الغناء المطرب فى الشعر الغزل من حقوق النساء ، و إنما ينبغى أن تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتى فيهن نطقت تلك الأشعار ، وبهن شبب الرجال ، ومن أجلهن تكلفوا القول فى التشبيب »[١] ، ثم قال : « وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبله ، و بين فم تشتهى أن تصرف وجهك عنه ؟ على أن الرجال دخلاء على النساء فى الغناء ، كما رأينا رجالا ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح . وبعد فأيّما أحسن وأملح وأشهى : أن يغنيك فحل ملتف اللحية ، كث العارضين ، أو شيخ منخلع الأسنان ، مغضن الوجه ؟ أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها يا سمينة ، أو كأنها خرطت من ياقوتة أو من فضه مجلوّة[٢] . »

و إذا كان الجاحظ قد وازن بين الجارية الحسناء والرجل القبيح ليخلص إلى أننا نؤثر سماع الجارية ونفر من سماع الرجل، فإن الجواب واحد إذا وازنا بين مغنية جميلة ومغن جميل .

وقد حدّث ثُمَامة بن أشرس فقال : كنت عند المأمون يوما ، فاستأذن المغنى عُمَيْر ليدخل،فكرهت ذلك ، فقال المأمون : ما بك يا ثمامة ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إذا غنى عمير ذكرت مواطن الإبل وكثبان الرمل، و إذا غنتنا فلانة انبسط أملى، وقوى جذلى ، وانشرح صدرى ، وذكرت الجنان والولدان . كم بين أن تغنيك غادة كأنها غصن بان ترنو بمقلة وسنان، كأنما خلقت من ياقوتة، أو قرطت من فضة

---

(١) رسالة العشق والنساء للجاحظ ١٦٥ (٢) رسالة العشق والنساء للجاحظ ١٦٤

وبين أن يغنيك رجل كث اللحية، غليظ الأصابع، خشن الكف ؟ فتبسم المأمون وقال : الفرق بينهما واضح . يا غلام لا تأذن له . وأمر بأن تحضر أطيب قيناته[١] .

القيان محترفات بالغناء :

هل كان فى العصر الجاهلى مغنيات محترفات ؟ نعم ، كانت هنالك مغنيات يحترفن بالغناء ، ويشتهرن به هن القيان .

والقينة : الأمة المغنية ، من التَّقَيُّن وهو التزين ، ومنه قيل للمرأة مقينة إذا كانت تزين النساء ، شبهت بالأمة ، لأنها تصلح البيت وتزينه ، وقيل القينة الأمة مغنية أوغير مغنية ، والقينة الجارية تخدم ، والأمة غنت أو لم تغن . والمغنية تسمى قينة إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر[٢] .

وقد عرف العرب القيان منذ زمن بعيد ، فقديماً كانت لمعاوية بن بكر العمليقى ــ سيد العمالقة الذين نزلوا بمكة فى سالف الدهر ــ جرادتان كانتا قينتين ، وبهما ضرب المثل فى سالف الدهر، فقيل صار فلان حديث الجرادتين ، إذا اشتهر أمره[٣] . وقيل إنهما أول من غنى الغناء العربى[٤] .

ولما حُبس المطر عن عاد ــ وكانوا ينزلون بين الشِّحْر وحضرموت ــ بعثوا وفدهم إلى مكة يستسقون لهم ، فنزلوا على معاوية بن بكر ، لأنه كان صهراً لهم ، فشغلوا بشرب الخمر وسماع الجرادتين عن الاستسقاء ، ثم تذكروا قومهم فاستسقوا لهم[٥] .

ثم كانت لعبد الله بن جُدْعان أمتان تتغنيان فى الجاهلية سماها بجرادتى عاد ،

---

(١) زهر الآداب ٣/٢٧ . (٢) لسان العرب ١٧/٢٣١ .
(٣) مجمع الأمثال ٢/١٨٦ و ١/١١٨ . (٤) جمهرة الأمثال ٢/١٩٠ .
(٥) كتاب الملاهى للضبى ٥٣٣ مخطوط ومجمع الأمثال ١/١١٨ .

وقد غنتا له قول أمية بن أبى الصلت فى مدحه :

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرىء بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

وذكر لهما إسحاق الموصلى فى المائة المختارة لحنا وهو :

أقفر من أهـــله مَصيفُ فبطن نخـــــــلة فالعريف

(١)
. . . .

وكانت لبشر بن عمرو بن مِرْثَد قينتان أختان هما هُرَيْرة وخُلَيْدة ، كانتا تغنيانه النَّصَب ، وقد قدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان[٢]. وهريرة هى التى شبب بها الأعشى فى قوله :

ودِّعْ هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل ؟[٣]

وفى قوله يذكر غناءها :

وتَبيتُ داجنـــةٌ تجاوب مثلها خَوداً منعمةً وتضْرب مُعْتبا[٤]

والقيان المشهورات كثيرات ، منهن بنت عَفْزَر[٥] وحمامة[٦] وأرنب[٧] وزينب[٨]. ثم كثرن فى العصر الأموى والعباسى ، وبر عن أيما براعة[٩]، حتى لقد خرج يودع جميلة وهى تزمع الحج كثير من المغنين والمغنيات الحذاق ، منهم هيت وطويس والدلال وبرد الفؤاد ونومة الضحا وقند ورحمة وهبة الله ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبورة وبديح المليح ونافع الخير وعزة الميلاء وحبابة وسلامة وخليدة وعقيلة والشماسية وفرعة وبلبلة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء[١٠]

---

(١) أوائل الأوائل لأبى هلال ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان للجاحظ ٦٢ .
(٢) الأغانى ٨/٧٧ . (٣) ديوان الأعشى الكبير .
(٤) المفضليات ٢/٧٦ الداجنة : شرحها ابن الأنبارى بأنها القينة المغنية وليس هذا فى المعاجم . معتب : مطيع مجاوب والمراد به العود . (٥) الأغانى ١٠/١٧ .
(٦) الإصابة ٨/٤ (٧) الإصابة ٨/٤ .
(٨) الإصابة ٨/٩٩ .
(٩) الأغانى ٧/١٧٩ و ١٦/١٢ و ٧/١١٨ ـ ١٢٩ (١٠) الأغانى ٧/١٢٨

حتى قالوا إن زهاء خمسين قينة لحقن بها ، ولحق بها أيضا زهاء ثلاثين مغنياً [١].

جنسية القيان :

١ ــ انصرف العرب عن الاحتراف بالغناء ، على شغفهم به وطربهم له . ولعل السبب فى انصراف الرجال عن احترافه أنهم كانوا يكسبون أرزاقهم من الحرب ، ومن التجارة والرعى ، وأنهم كانوا يتجافون عن أنواع الصناعات ، وأن مكانة المغنى ــ وإن أطرب ونال العطاء الجزل ــ لم تكن توائم المكانة التى يريدها العربى لنفسه ، ثم إنهم وجدوا الغناء أليق بالنساء من الرجال .

وكذلك انصرفت الحرائر عن الغناء ، لأنهن إما مكفولات الرزق برجالهن ، وإما كاسبات رزقهن بأعمال غير الغناء . وما من شك فى أن الغناء يقتضى من المرأة المغنية أن تتزين للسامعين ، وأن تبرز بعض مفاتنها لهم ، وأن تكون مناط أنظارهم ومجمع أشتهائهم ــ كما تحدث الشعراء ــ وما يرضى رجل عربى أن تكون ملتقى الأنظار والشهوات امرأة تربطها به صلة ، ولا تجرؤ عربية أن تشذ عن بنات جنسها فتحتل هذا الموضع المخصص للإماء .

٢ ــ لهذا كانت الكثرة الغالبة من القيان فى العصر الجاهلى غير عربيات ، وما زالت هذه الكثرة من الموالى والجوارى فى العصر الإسلامى والعباسى .

يدل على ذلك أن حسان بن ثابت وصف ليلة من لياليه فى الجاهلية عند جبلة بن الأيهم وجاء فى وصفه أنه سمع عشر قيان : « خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها » [٢] ، لكنه لم يذكر جنسية هؤلاء اللاتى يغنين غناء أهل الحيرة أهن فارسيات أم عربيات ؟

ومما يؤيد ذلك أن عامر بن الطفيل هجا خصمه بقوله :

---

(١) الأغانى ٧/١٢٨ (٢) الأغانى ١٦/١٤

والفخر برهط بنى الحَماس ومالك وبنى الضِّباب ورَعْبَل وقيان[١]

وأن الأعشى كان يزور أساقفة نجران ويمدحهم ، ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ، ويقيم عندهم ما شاء يسقونه الخمر ، ويسمعونه الغناء الرومى ، وفى ذلك يقول لناقته :

وكعبة نجران حتمٌ عليـك حتى تُناخى بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً هُم خـير أربابها
وشـاهدُنا الجُلُّ والياسَمـين والمُسْمعَاتُ بقصَّابها
وبَرْبَطنا دائما معمـل فأى الثلاثة أزْرَى بها ؟[٢]

وقد ذهب إلى ذلك المستشرق ليال فقال : إن القيان كن فارسيات أو يونانيات من سورية ، وإنهن كن يغنين بالعربية ، وربما غنين بلهجة أجنبية[٣] . وهو فى هذا يتفق مع فون كريمر ، وإن ذهب فون كريمر إلى أنهن كن يغنين بلسانهن اليونانى أو الفارسى[٤] .

وإنه لأدنى إلى الصواب أن نضيف إلى اليونانيات والفارسيات الحبشيات أيضاً كما ذهب الدكتور بيرون Perron إذ قال فى كتابه عن النساء العربيات إن معظم المشهورين والمشهورات بالغناء كانوا عبيداً ، ولاشك أن أكثرهم من الحبش ، لأن أكثر العبيد قبل الإسلام كانوا حبشاً أو زنوجاً ، وليس ببعيد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتى عاد فتاتين حبشيتين[٥] . وسنتبين من الفقرات المقبلة أن أكثر القيان كن غير عربيات .

---

(١) الأغانى ١٦/١٤ (٢) الأغانى ٩/١٥٧
(٣) الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية ٥٤
(٤) Farmer. A. History of Arabian Music. P. 17
(٥) بلال داعى السماء ١٠٠ العقاد .

غناؤهن بالشعر :

وقد تغنت القيان بالشعر العربى ، كما تغنين بلغاتهن ، ولا عجب فى أن يسمع العربى غناء بلغة غير لغته و يطرب له ، لأنه يطرب للصوت واللحن ، ويعجب بجمال المغنية . فقد روى فيما بعد أن أبا تمام قد سمع غناء بخراسان بالفارسية ، فلم يدر ماهو ، غير أنه أشجاه فقال :

حمدتك ليلة شَرُفَتْ وطابت ... أقام سهادُها ومضى كَراها
سمعتُ بها غناء كان أولى ... بأن يقتاد نفسى من عناها
ومُسْمعةٍ يحار السمع فيها ... ولم لا تُصْمِمْهُ لا يُصْمَم صداها
مَرَتْ أوتارَها فشجت وشاقت ... فلو يَسْطيعُ حاسدها فداها
ولم أفهم معانيها ولكن ... وَرَتْ كبدى فلم أجهل شجاها
فكنت كأننى أعمى مُعَنّى ... يحب الغانيات ولا يراها(١)

أما الدليل على غناء بعضهن بالشعر العربى فقول عبدة بن الطبيب :

ثم اصْطَبَحْتُ كُمَيْتاً قَرْقَفاً أُنُفاً ... من طيِّب الراح واللَّذاتُ تعليل
صِرْفاً مِزاجاً وأحياناً يُعَلِّلُنا ... شعر كمُذْهَبة السَّمان محمول
تُذْرى حواشيَهُ جَيْداء آنسةٌ ... فى صوتها لسَماع الشَّرْب ترتيل
تغدو علينا تُلهِّينا ونُصْفِدُها ... تُلْقَى الْبُرُود عليها والسَّرابيل(٢)

فهو يقرر أن القينة كانت تغنيهم بالشعر العربى الجيد .

ثم إنه كان بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغنى النابغة بقصيدة من

---

(١) تهذيب الكامل ٢/٣٤ وزهر الآداب ٣/١٣٧ .

(٢) المفضليات ١/١٤٣ كميتاً : خمراً فى لونها سواد وحمرة . قرقف : تصيب شاربها برعدة . أنف : لم يشرب منها أحد قبله . صرفا مزاجاً : خالصة وكأنها ممزوجة بالماء لطيبها . يعللنا : يلهينا . السمان : وشى مقارب أو الأصباغ التى تزوق بها السقوف . محمول : مروى ذائع لحسنه . تذرى : ترفع أو تسقط حواشى أغانيها تطريبا وترجيعا . حواشيه : أطرافه . آنسة : منبسطة . نصفدها : نعطيها .

شعره فيها إقواء فتيقظ له وأصلحه[١] .

وكانت سارة مولاة لبنى عبد المطلب بن عبدمناف ، وكانت مغنية بمكة ، وقد قدمت إلى رسول الله بالمدينة وأسلمت ، وشكت حاجتها ، وطلبت منه الميرة ، فقال لها : أما كان فى غنائك ما يغنيك ؟ فقالت إن قريشاً منذ قتلى بدر تركوا الغناء . فوصلها صلى الله عليه وسلم[٢] ، وكانت هريرة وخليدة قينتين لبشرو بن عمرو ابن مرثد ، وكانتا تغنيانه النصب[٣] ، وهو غناء عربى صرف .

وقد تغنين بالشعر العربى فى أغراض شتى ، فقد غنت جرادتا عبد الله ابن جدعان قول أمية بن أبى الصلت فى مدحه ، وأمية يسمع :

عطاؤك زين لامرىء إن حبوته   ببذل وما كل العطاء يَزِين

. . . .[٤]

وتغنين بالهجاء أيضاً ، فإن خالد بن جعفر قال لقينة بالحيرة اجتمع عندها هو والحارث بن ظالم — وهما خصمان — أن تغنيه :

دار لهنـــد والرّباب وفَرْتَنا   ولميس قبل حوادث الأيام

وهن خالات الحارث ، فغضب الحارث[٥] .

وكان لابن خَطَل قينتان يعلمهما الغناء بهجاء النبى ، فأمر النبى بقتلهما يوم الفتح . فأما قرَيْبة فقتلت مصلوبة ، وأما فَرْتَنا ففرت حتى استؤمن لها الرسول فأمنها فآمنت[٦] .

وكن يغنين وراء المحاربين ليلهبن حماستهم ، فإن قريشاً كانت قد خرجت فى غزوة بدر ومعها ثلاث قيان ، فأرسل أبو سفيان فردهن من الجحفة ،

---

(١) الأغانى ٩/١٥٧
(٢) إنسان العيون ٣/٨٧ .
(٣) الأغانى ٨/٧٧
(٤) الأغانى ٨/٣ .
(٥) الأغانى ١٠/١٧
(٦) تاريخ الطبرى ٣/١١٩ وتاريخ الخميس ٢/٩٠٤ والإصابة ٨/١٦٦

ثم خرجت قريش فى أحد ومعها قيانها[١] .

وكان الرجل يستمع إلى الغناء ليشجع ويثأر ، ذلك بأن الحارث بن ظالم اعتزم أن يقتل خالد بن جعفر ، فخرج إلى بنت عفزر فشرب عندها ، وقال لها : تغنى :

تَعَلَّمْ أبيت اللعن أنى فاتـك　　من اليوم أو من بعده بابن جعفر

. . . .

ثم مضى إليه فقتله[٢] .

وكن يغنين فى المآدب ، فقد تحدث خارجة بن زيد فقال : دعينا إلى مأدبة فى آل نبيط ، فحضرتها وحضرها حسان بن ثابت ، فجلسنا على مائدة واحدة ، فلما فرغنا من الطعام أتوا بجاريتين إحداهما رائقة والأخرى عزة ، فجلستا وأخذتا مزهريهما وضربتا ضرباً عجيباً ، وغنتا بقول حسان :

انظر خليلى بباب جِلَّق هـل　　تُبْصِرُ دون البَلْقاء من أحد[٣]

وكن يغنين فى الأعراس ، فقد كانت أرنب مغنية بالمدينة ، ولما تزوج بعض الأنصار قريبة لعائشة قال لها النبي : أهديت عروسك ؟ قالت نعم . قال : فأرسلت معها بغناء ، فإن الأنصار يحبونه ؟ قالت: لا . قال: فأدركيها بأرنب[٤] .

وكن يغنين للتسلية والتطريب غزلا وغير غزل ، فقد خرج مسلم والبخارى عن عائشة أنها قالت : دخل على أبو بكر وجاريتان من جوارى الأنصار تغنيان بما قالت الأنصار فى يوم بعاث ، فقال أبو بـكر : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ؟ وكان ذلك فى يوم عيد ، فقال رسول الله : يا أبا بـكر لـكل قوم عيد وهذا عيدنا . وخرج أبوداود والإمام أحمد بن حنبل عن الربيع بنت معوذ

---

(١) المغازى ٣٦ والسيرة الحلبية ٢/١٥٥ وتاريخ الطبرى ٢/٢٧٦

(٢) الأغانى ١٠/٧　(٣) الأغانى ١٦/١٤　(٤) الإصابة ٨/٤ والعقد الفريد ٣/٢٣١ والتجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ٣/٢٣٣ .

ابن عفراء أن النبي دخل عليها صبيحة زفافها ، فجعلت جويريات يضربن بدف لهن ويندبن من قتل من آبائها يوم بدر ، إلى أن قالت إحداهن: « وفينا نبي يعلم ما في الغد » فقال : دعى هذا وقولى الذى كنت تقولين ، أو قال لهما : أما هذا فلا تقولاه[1]

ومن هذا أن فتية من قريش اجتمعوا عند قينة من قيان المدينة ، ومعهم عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، فإذا بحسان يستأذن ، فكرهوا دخوله ، وشق ذلك عليهم ، فقال لهم عبد الرحمن: أيسركم الآن مجلس ؟ قالوا نعم قال : مروها إذا نظرت إليه أن ترفع عقيرتها وتغنى :

أولاد جَفْنَةَ عنـــد قبر أبيهم قبر ابن مارِيَةَ الكريم المُفْضِل

. . . .

فغعلت ، فبكى حسان حتى ظنوا أن نفسه سقطت[2] .

وقد كان لحسان جارية اسمها سيرين تغنيه بشعره ، وقد جلس يوما فى ظل حصنه وحوله أصحابه وهى تغنيه بمزهرها :

هـــل علىّ ويحكم إن لهوت من حَـــرَج

فمر النبي فسمع وضحك وقال : لا حرج إن شاء الله[3] .

كذلك كان امرؤ القيس يأمر قيانه أن يغنينه بشعر مُرَّة بن الرُّوَاع[4] :

إن الخليط أجدَّ البين فادّلجوا وهم كذلك فى آثارهم لُجج[5]

وغنت القيان أيضا بالأسواق ، وكان بدر موسماً من مواسم الجاهلية يجتمع به العرب،ولهم به سوق ينحر بها الأشراف الجزر ، ويطعمون الطعام ويشربون

(١) سنن أبى داود ٢/١٩٧ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/٣٦٠
(٢) الأغانى ١٦/١٦ (٣) الأغانى ١٠/١٦١
(٤) الرواع اسم أمه كما فى ترجمة أخيه فى معجم الشعراء للمرزبانى وأبوه سلم بن عمرو وهو شاعر قديم من بنى أسد (٥) المؤتلف والمختلف ١٢٧ لجج : جمع لجة وهى الجماعة الكثيرة.

الخمر ، وتعزف القيان لهم[1] .

أثر غنائهن في النفوس :

كن يشجعن على الاستبسال وعلى المخاطرة والثأر كما سبق ، وكن يلهين السامعين ويطربنهم ، يقول عبدة بن الطبيب إنهم كانوا يطربون فيخلعون عليها الخلع :

تغدو علينا تُلَهِّينا ونُصْفِدُها ... تلقَى البرودُ عليها والسرابيل[2]

ويقول امرؤ القيس إن القينة كانت تفرج عنه همومه :

وإن أُمْسِ مكروباً فيارب قينة ... منعمة أعملتُها بكران[3]

ويشتد الطرب بعبد يغوث فيشق رداءه :

وأنحر للشَّرْب الكرام مطيتى ... وأصدع بين القينتين ردائيا[4]

فكان يعمل ما عمله من بعده عمر بن أبى ربيعة ، إذ كان يسمع جميلة فيشق رداءه إلى أسفله[5] . وسمع يوما عزة الميلاء تغنى بشعره ، فشق ثيابه ، وصاح صيحة عظيمة صعق معها ، فلما أفاق قال له القوم : لغيرك الجهل يا أبا الخطاب ، قال : إنى سمعت والله مالم أملك معه نفسى ولا عقلى[6] . ثم جاء بعدهما أحد الظرفاء فى العصر العباسى ، وكانت له قينتان إحداهما مجيدة مطربة والأخرى مسيئة ، فكان إذا غنت المجيدة خرق قميصه ، وإذا غنت المسيئة قعد يخيطه[7] .

وقد سمع حسان غناء رائقة وعزة وعزفهما العجيب على مزهريهما ، فدمعت عيناه ، فإذا سكتتا ذهب بكاؤه ، وإذا غنتا عاوده .

وكان الشراب كثيراً ما يصاحب الغناء ، لأن بين الخمر والغناء « مناسبة

---

(١) المغازى ٣٧ وتاريخ الطبرى ٢/٢٧٦ (٢) المفضليات ١/١٤٣ .
(٣) الديوان ١٨٧ كران : عود (٤) المفضليات ١/١٥٦
(٥) الأغانى ٧/١٢٧ و ١٢٩ – ١٣٤ (٦) الأغانى ١٦/١٣
(٧) محاضرات الأدباء ١/٤٦٦ (٨) الأغانى ١٦/١٤ .

فى أكثر الأحوال . . . ولهذا صار من يسمع غناء المحسن يشرب من النبيذ أزيد مما يحتمله حاله إذا لم يصغ إليه ، ويستمرىء الكثير مع سماعه ، وإن كان يثقل عليه قليله إذا خلا من استماعه »[1] ، لذلك كان أعراب وادى القرى إذا ظفروا بشراب أتوا حوائط من النخل عند استواء الظهيرة حين تطير الوراشن والفواخت إلى تلك الظلال ، فيشربون ويأنسون بتغريدها ، ويقيمون أصواتها مقام المزامير والأوتار[2] .

هكذا كان يفعل الأعشى ، إذ يشرب الخمر ويسمع الغناء الرومى عند أساقفة نجران[3] . وامرؤ القيس كان يتنقل فى أحياء العرب ومعه رفاقه ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه كل يوم ، وخرج إلى الصيد ، ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم ، وغنته قيانه[4] .

ولقد تحدث الشعراء عن مصاحبة الخمر للغناء ، يقول لبيد إن القينة تعزف على العود بأناملها الطيعة وسامعوها يحتسون الخمر :

أُغْلى السِّباء بكل أدْكَنَ عاتقٍ ... أو جَوْنَةٍ قُدِحَتْ وفُضَّ خِتامُها
بصَبوحِ صافيةٍ وجَذْبِ كَرِينةٍ ... بمُوَتَّرٍ تَأْتَى له إبهامُها[5]

ويقول فى رثاء النعمان :

لبيكِ على النعمان شَرْبٌ وقَينة ... مُخْتَبِطات كالسَّعالى أرامل[6]

ويقول الأعشى :

---

(١) مطالع البدور ١/٢٣١ (٢) مطالع البدور ٢/٢٦١
(٣) الأغانى ١٠/١٣٥ (٤) الأغانى ٨/٦٥ .
(٥) شرح القصائد العشر للتبريزى ١٦٣ ولسان العرب ١٨/٥٤ السباء : شراء الخمر للشرب لا للبيع . أدكن : زق أغبر . عاتق : صفة للخمر أو للزق والعاتق الخالصة أو المعتقة أو التى لم تفتح . جونة : خابية مطلية بالقار . كرينة : مغنية . موتر : له أوتار . تأتى له أى تطاوعه . وروى تأتا له بضم اللام أى تصلحه
(٦) ديوان لبيد ٢٩ مختبطات : نائلات نعمة . السعالى : الغيلان

ورادعةٍ بالطيب صفراء عندنا — لجسِّ الندامى فى يد الدرع مَفْتَقُ
إذا قلت غنى الشَّرْبَ قامت بمزهر — يكاد إذا دارت له الكف ينطق[(١)]

وما زالت الخمر تلازم الغناء فى كثير من الأحوال بعد العصر الجاهلى ، فمثلا يقول الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

فاصطبحنا بخمر عانَةَ صِرْفا — ولهونا بقينـــة عزّافه[(٢)]

ويقول :

دَعَوْا لى سليمى والطِّلاء وقينة — وكأسا ألا حَسْبِى بذلك مالا[(٣)]

ويقول مالك بن أسماء (ونسب إلى الوليد بن يزيد وربما زاد فى شعر مالك) :

حبــذا ليلتى بتلّ يُوَنَّا — حيث نُسْقَى شرابنا ونغَنَّى
من شراب كأنه دم جوف — يترك الشيخ والفتى مُرْجَحِنَّا
حيث دارت بنا الزجاجة درنا — يحسب الجاهلون أنا جُنِنَّا
ومررنا بنسوة عطرات — وسماع وقَرْقف فنزلنا[(٤)]

وقد أولع الغزلون بالصوت فيه غنة ، وأولع الشاربون بصوت المغنية الأبحّ ، وقد يفخرون بأن البحة من أثر الخمر ، قال عبيد :

وبيت يفوح المسك من حَجَراته — تَسَدَّيْتُهُ من بين سرٍّ ومخطوب
ومسمعةٍ قد أصْحَل الشُّرْبُ صوتها — تأوَّى إلى أوتار أجوفَ مُحْنوب[(٥)]

ويقول ثعلبة بن صُعَيْر :

أسُمَىَّ ما يدريك أن رب فتية — بيض الوجوه ذوى ندًى ومآثر

---

(١) ديوان الأعشى ١٤٧ وطبقات الشعراء ٣٦ تحقيق شاكر رادعة بالطيب : مطلية بالزعفران . مفتق : شق وفتحه .

(٢) الأغانى ٦/١٠٥ (٣) الأغانى ٦/١٣٤ (٤) ديوان الوليد ٥٦ وسمط اللآلى ١/١٥ والأشربة ٧٨ مخطوط . قرقف . قرقف : خمر تصيب شاربها برعدة

(٥) الديوان القصيدة ٩ محنوب : مقوس وأراد العود . تأوى : تعطف وترق وربما كانت محرفة عن تأتى بمعنى ترفق

. . . .

فقصرت يومهم برنة شارفٍ وسماع مُدْجنَة وجَدْوى جازر[(١)]

ويقول بُرج بن مُسْهر الطائى :

وفينا مُسْمعات عنــد شَرْبٍ وغزلانٌ يُعَدُّ لهــا الحميم[(٢)]

ولقد تشرب كما يشربون فتطرب أيما طرب ، يقول الأعشى :

وصَدوح إذا يهيجها الشُّرْب ترقَّت فى مزهر مندوف[(٣)]

هذا إذا قرأنا (الشرب) بضم الشين . فإذا قرأناها بفتح الشين كان المعنى أن الشاربين يهيجونها باستحسانهم على أنى لم أجد فى العصر الجاهلى نساء يشربن الخمر .

وإلى ذلك يعرض عبد المسيح بن عَسَلة أو أخوه حَرْملة[(٤)] ، ولَبيد[(٥)] ، وعَبَدة بن الطبيب[(٦)] .

جمال القيان وعشقهن :

كثيراً ما ازدهى الشعراء بجمال قيانهم ، فوصفوا محاسن أجسادهن ، ورخامة أصواتهن ، ولباقة حركاتهن .

يقول سلامة بن جندل إن مغنيتهم رخصة بضة حوراء العين مفلجة الأسنان عفيفة :

وعندنا قينة بيضاء ناعمــة مثل المهاة من الحور الخراعيب

تُجْرى السواك على غُرٍّ مفلَّجة لم يَغْذُها دَنَسٌ تحت الجلابيب[(٧)]

(١) المفضليات ١/١٢٨ رنة شارف : صوت الناقة المسنة عند نحرها . سماع مدجنة : سماع مغنية فى يوم دجن . جدوى جازر : ما يقدم لهم من أطايب اللحم

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٣/١٣٧ الحميم : الماء الحار تستحم به

(٣) ديوان الأعشى الكبير ٣١٥ . ترقت : تصعدت فى غنائها . مندوف : مضروب على أوتاره (٤) المفضليات ٢/٧٩ والمؤتلف والمختلف ١٥٧

(٥) ديوان لبيد ٣١ (٦) المفضليات ١/١٤٣

(١) المفضليات ١/١١٨ المهاة : البقرة الوحشية . الخراعيب : جمع خرعوب وهى الشابة الحسنة القوام الرخصة اللينة . غر : أسنان بيض . لم يغرها : لم يلصق بها

ويقول طرفة إن قينتهم تسمعهم الغناء وهى لابسة ثوباً مزعفراً واسع الصدر ، وإنها حاذقة تلبى رغبات السامعين والنشاوى ، وهى بضة الجسد ، تغنى فى غير تكلف أو إجهاد ، لأنها مطبوعة ماهرة ، ويزيدها جمالا تفتّر عينيها وتكسّر نظراتها ، وإن صوتها لحلو مطرب فيه حنين وشجا :

نداماى بيضٌ كالنجوم وقينــةٌ ... تروح علينا بين بُرْدٍ ومُجْسَدِ
رحيبٌ قِطابُ الجَيْب منها رفيقة ... بجسِّ الندامى بضـــة المتجرد
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا ... على رِسْلها مطروفةً لم تَشَدَّد
إذا رجَّعَتْ فى صوتها خلتَ صوتها ... تجاوب أظآر على رُبَع ردى[(1)]

على أنهن كن يجدن الزينة ، وليس من المصادفات أن تكون كلمة التقيّن دالة على التزين[(2)]. يقول عمرو بن الإطنابة :

إن فينا القيان يعزفن بالدف ... لفتيـــاننا وعيشاً رخيّا
يتبارين فى النعيم ويَصْبُبْـــن خلال القرون مسكا ذكيا
إنمـــا همهن أن يتحليـــن سُموطا وسُنْبُلا فارسيا
من سُموط المرجان فُصِّل بالدر ... فأحسنْ بحَلْيِهنّ حُليا[(3)]

فليس بعجيب أن يعشقوهن ، وعشقهن عنيف لأنه نابع من عدة حواس « ولأنهن يجمعن للإنسان من اللذات مالا يجتمع فى شىء على وجه الأرض . واللذات كلها إنما تكون بالحواس . والمأكول والمشروب حظ حاسة الذوق ، ولا يشركها فيه غيرها ، فلوأكل الإنسان المسك الذى هو حظ الأنف وجده

---

(١) ديوان طرفة ٢٨ مجسد : ثوب مصبوغ بالجساد وهو الزعفران أو هو الثوب الذى يلى الجسد . جس الندامى: مايطلبونه من غنائها . رفيقة : حاذقة . مطروفة : ساكنة الطرف. على رسلها : فى تؤدة . أظآر : مراضع . ربع :فصيل ينتج فى الربيع وهو أول النتاج . ردى: هالك . (٢) لسان العرب ٢٣١/١٧ والقاموس المحيط مادة قين
(٣) الأغانى ١٦٤/٩ سموط : قلائد . سنبل : نبات طيب الرائحة .

بشعاً واستقذره . . . . فإذا جاء باب القيان اشترك فيه ثلاث من الحواس ، وصار القلب لها رابعاً ، فللعين النظر إلى القينة الحسناء ، وللسمع منها حظ الذى لامئونة عليه،ولا تطرب آلته إلا إليه ، وللمس فيها الشهوة ، والحواس كلها رواد للقلب وشهود عنده ...»[1]

وقد أسلفت حب بعض الشعراء لهن كالأعشى وامرىء القيس .

فإذا ما اجتزنا العصر الجاهلى إلى الأموى والعباسى وجدنا اشتهاراً بعشق المغنيات ، إذ شاع اقتناؤهن واقتناء الإماء بعامة ، والاستمتاع بهن فى عصر فاضت فيه الأموال بأيدى العرب ، وجنحوا إلى الترف واللذة والمجانة ، فتضاءلت الأخلاق العربية البدوية ، حتى لقد ظهر جماعة من المخنثين يصلون مابين الرجال والنساء ، وجماعة من النساء يسفرن بالرسائل ويمهدن للقاء ، ويغرين النساء ويصلحن العتب بانتحال الأعذار ، كهؤلاء اللائى سفرن بين عمر بن أبى ربيعة وعشيقاته ، وهو يصف إحداهن بقوله :

فأتتها طَبَّـــةٌ عالمـــةٌ   تخلط الجـد مراراً باللعب
تُغْلظ القول إذا لانت لهـــا   وتُراخِى عند سَوْرات الغضب
لم تزل تصرفها عن رأيهـــا   وتأتّاهـــا برفق وأدب
أنّ كفِّى لك رهنٌ بالرضا   فاقبلى يا هند قالت : قد وجب

ولما أنشد ابن أبى عتيق هذه القصيدة قال له : الناس يطلبون خليفة فى صفة قوادتك هذه يدبر أمورهم فما يجدونه[2] . ويقول أيضاً :

فبعثت كاتمة الحـــديث   رفيقـــة بجوابهــــا
وحشـــية إنســـية   خَرَّاجـــة من بابهـا
فَرَقَتْ فســـهّلت المعا   رضَ من سبيل نقابها[3]

---

(١) رسالة القيان للجاحظ ٦٩   (٢) الأغانى ١/ ٥٧
(٣) الأغانى ١/ ٦٠

وبلغ من حب يزيد بن معاوية لحبابة أنه كان لا يعصى لها رجاء ، وكان يخرج عن الوقار إذا سمعها[٢] . ولم يكن وحده المفتون بها ، فإن كثيراً كانوا يشركونه فى ذلك ، حتى إنه لما اشتراها وهو أمير وأراد الخروج بها قال الحارث ابن خالد :

قد شاقَّ جسمى وقد أودى به سَقَمٌ … من أجل حيٍّ خلوا عن بلدة الحرم

يحسن قلبى إليها حين أذكرها … وما تذكرتُ شوقا آب من أَمَمِ

وقال فيها الشعراء فأكثروا ، وغنى أشعارهم المغنون بمكة والمدينة[١] .

أثر القيان فى الشعر :

١ — تغنى الشعراء بشعرهم ، وتغنت القيان بشعر الشعراء ، ولم نعرف أن العرب تغنوا بالنثر .

وأرجح أن الغناء بالشعر كان عظيم الأثر فى أوزانه وتطورها ، وإذاً فقد كان للقيان نصيب فى هذا التطور أسهمن به مع الرجال .

وقد ذهب أبو حيان التوحيدى فيما رواه عن مسكويه إلى ما يعزز هذا ، فى قوله :

« ربما سمعنا للشعراء الجاهليين المتقدمين أوزاناً لا تقبلها طباعنا ، ولا تحسن فى ذوقنا ، وهى عندهم مقبولة موزونة ، كقول المرقش :

لابنة عجلان بالطَّفِّ رسومْ … لم يتعفَّين والعهـدُ قديمْ

وكذلك قد يستعملون من الزحاف فى الأوزان ما يكون عند المطبوعين منا مكسوراً ، وهى صحيحة . والسبب فى جميع ذلك أن القوم كانوا يجبرون بنغمات يستعملونها فى مواضع من الشعر يستوى بها الوزن ، ولأننا لانعرف تلك النغمات،

---

(١) الأغانى ١٣/١٤٨ ـ ١٥٧ (٢) الأغانى ١٣/١٥٠

فإذا أنشدنا الشعر على السلامة لم يحسن فى طباعنا .... »[١] .

وقد سبق أن العرب كانوا يغنون بشعرهم ويمدون أصواتهم بإنشاده . بل إنهم كانوا يزنون شعرهم بالغناء ، قال حسان بن ثابت :

تغن فى كل شعر أنت قائله إن الغناء لهـذا الشعر مضمار[٢]

٢ — وكانت القيان أكثر غنـاء بالشعر من الشعراء أنفسهم ، والشعراء يسمعونهن ويطربون لهن ، فهم يجودون شعرهم ويتخيرون وزنه سهل التلحين والترجيع ، وهم إذا ما سمعوه يغنى تنبهوا إلى ما قد يكون فيه من عيب فى الوزن أو القافية . من ذلك أن النابغة أقوى فى قصيدته التى مطلعها :

أمن آل مية رائح أو مغتد عجلان ذا زاد وغـير مزود

فقدم المدينة فعيب عليه ذلك ، فلم يأبه له ، فقالوا للجارية : غنيه هـذه القصيدة ، فإذا صرت إلى قوله :

زعم الأحبة أن رحلتنا غـداً وبذاك خبرنا الغراب الأسودُ

فرتلى . فلما سمعها انتبه ، وأصلح إقواءه ، ولم يعد إليه ، وقال : قدمت يثرب وفى شعرى شىء ، وخرجت وأنا أشعر الناس[٣] .

٣ — فلم يـكن عجيباً أن تقوى الوشيجة بين الشعراء والقيان فى العصر الجاهلى ، فلعبد الله بن جـدعان قينتان[٤] ، ولبشر بن عمرو بن مرثد قينتان[٥] ولسلامة بن جندل قينة[٦] ، ولطرفة قينة[٧] ، وكذلك لعمرو بن الإطنابة[٨] ،

---

(١) الهوامل والشوامل ٢٨٢ لأبى حيان التوحيدى ومسكويه .

(٢) الموشح ٤٠ وفى أساس البلاغة : تغن بالشعر إما كنت ذا بصر . ومعنى المضمار هنا مجال الإصلاح ، لأن المضمار الموضع الذى تضمر فيه الخيل

(٣) الموشح ٣٩ وطبقات الشعراء ٥٦ والشطر الثانى بعد الإصلاح : وبذاك تنعاب الغراب الأسود (٤) أوائل الأوائل ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان ٦٢ والأغانى ٨/٣

(٥) الأغانى ٨/٧٧ (٦) المفضليات ١/١١٨

(٧) ديوان طرفة ٢٨ (٨) الأغانى ٩/١٦٤

ولَعَبْدة بن الطبيب[١] ، ولعبد يغوث[٢] ، ولامرىء القيس قيان يغنينه فى تنقله ورحلاته للصيد واللهو[٣] ، ولأحَيْحة بن الجُلاَح قينة تغنيه بشعره[٤] .

ثم قويت اللحمة بين الشعراء والمغنين والمغنيات فى العصر الأموى والعباسى ، فالغريض وابن سُرَيج يرافقان عمر بن أبى ربيعة ويغنيانه بشعره ، ويذيعان غناءهما وشعره فى الناس، حتى لقد قالوا : إذا أعجزك أن تطرب القرشى فغنه غناء ابن سريج فى شعر عمر بن أبى ربيعة فإنك ترقصه[٥] . وكان الإعجاب متبادلا بينه وبين جميلة ، يعجب بغنائها وتعجب بشعره فتغنيه ، حتى لقد يشق قميصه إلى أسفله[٦] ، وكذلك غنى ابن سريج بشعر عمر على مسمع منه ومن جميلة[٧] ، وتغنى بشعر الأحوص[٨] .

ويكفى للدلالة على إعزاز الشعراء للمغنيات أن جميلة لما خرجت إلى الحج ودعها إلى مكة كثير من المغنين والمغنيات ، وودعها من الشعراء ابن أبى عتيق والأحوص وكثير عزة ونُصَيْب وجماعة من الأشراف ، وتلقاها بمكة عمر بن أبى ربيعة والعرجى والحارث بن خالد المخزومى . فلما حجت قال عمر : أقسمت على من كان فى قلبه حب لاستماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة فإنى خارج ، فخرجوا فكان فى موكبها من رافقوها من المدينة إلى مكة ، ومن خرجوا معهم من مكة إلى المدينة[٩] .

هبة القيان :

كان الملوك والموسرون لا يستأثرون بالإماء ، بل يشركون معهم غيرهم فى سماعهن ، وكانوا يهبونهن أحياناً .

---

(١) المفضليات ١/١٤٣
(٢) المفضليات ١/١٥٦
(٣) الأغانى ٨/٦٥ والديوان ١٨٧
(٤) الأغانى ١٣/١١٥
(٥) الأغانى ١/١٠٩
(٦) الأغانى ٧/١٢٧ ـ ١٢٨ و ١٢٩ ـ ١٣٤
(٧) الأغانى ٧/١٢٩
(٨) الأغانى ١/١١٤
(٩) الأغانى ٧/١٢٧

قال الأعشى فى مدح مسروق بن وائل :

الواهبِ القيناتِ كالغـــزْ لان فى عُقَد الحمـــائل
يرْكُضْنَ كلَّ عشـــية عَصْبَ المريّش والْمَراجل[١]

وقال :

هو الواهب المسمعات الشُّرو بَ بينَ الحرير وبين الـكَتَن[٢]

وقال فى مدح الأسود بن المنذر اللخمى أخى النعمان بن المنـذر أو فى مدح المنذر بن الأسود :

يَهَبُ الجِلَّةَ الجراجرَ كالبُسْـــتان تَحْنو لدَرْدَقٍ أطفـال
والبغايا يرْكُضْنَ أكسيةَ الإضْـــريج والشَّرْعَبِيَّ ذا الأذيال[٣]

وكانت لعبد الله بن جـدعان قينتان ، وكان سيداً جواداً ، فرأى أمية بن أبى الصلت ينظر إليهما وهو عنده ، فوهبه إحداهما ، فلمـا انصرف لامه الناس على أخذها وعبد الله عليل ، فعاد ليردها ، ومدحه ، فوهب له الثانية أيضاً[٤] .

وكن يسبين أيضاً ، فقد أغار ضرار بن عمرو على كلب بن وبرة فغنم وسبى، وكانت فى السبى قينة لعمرو بن ثعلبة اسمها الرائقة ، وبنت لها اسمها سلمى[٥] . وقد سبق أن السابى كان يتحرى الحرائر ، وأنهن كن يتظاهرن بأنهن إماء حتى لا يسبين ، ولـكن القيان سبين ؛ لأنهن غنيمة نفيسة .

---

(١) ديوان الأعشى ٢٢١ يركضن : يحركن . المريش : البرد الموشى المراجل : جمع مرجل وهو إزار من خز فيه علم أو فيه صور الرجال .

(٢) اللسان ١٧/٣٣٥ المسمعات : القيان . الشروب : الشاربون . الـكتن : الـكتان

(٣) ديوان الأعشى ١٠ ولسان العرب ١٨/٨٣ دردق : صغار . الجلة الجراجر : الإبل المسنة الضخام . البغايا . الإماء . الإضريج : خز أصفر أو أحمر . الشرعبى : نوع من البرود

(٤) الأغانى ٨/٢ والمحبر ١٣٨ وأوائل الأوائل ٢٢٠ مخطوط .

(٥) مجمع الأمثال ١/١٢١

أثر الغناء الأجنبي في العربي :

١ ـ أسلفت أن العرب قد اتصلوا بالفرس وبالروم ، و بينت مناحي التأثر بهم . وهم قد اختلطوا بالأحباش أيضاً وتأثروا بهم(١) .

---

(١) اختلاطهم بالحبش يرجع إلى ما قبل الميلاد . ذلك بأنه في العهد الأول للدولة الحميرية الأولى (١١٥ق م — ٣٠٠م) نزحت جموع من العرب إلى بلاد كوش وأسسوا المملكة الحبشية . ثم قامت دوله أكسوم الحبشية في القرن الأول الميلادي (تاريخ العرب ٦٥ فيليب حتى) وفي القرن الأول قبل الميلاد تدخل الحبش في شئون الملك العربي باليمن ، ثم اتخذوا لهم مستعمرة في الجنوب الغربي من بلاد اليمن واستقرت بها جاليات حبشية (بين الحبشة والعرب ، عبدالمجيد عابدين ٢٣ ـ ٣٦) وفي نهاية القرن الثالث بعد الميلاد عاودوا الاحتكاك . وحكموها إلى القرن الرابع The Bach ground of Islam P· 123 Glasser ثم عادوا ففتحوها في القرن الخامس (٤٨٠ م) وولوا على اليمن أميراً نصرانياً لـكنه لم يعش طويلا ، فلما مات انتهز اليهود الفرصة وولوا على حمير ملـكاً يهوديا هو ذو نوس (بين الحبشه والعرب ٤٥ ـ ٤٧) وحوالى ٥٢٣ م كانت حملة أرياط أو أبرهة ، وكان الاستعمار الحبشي الأخير ، وأقام أبرهة باليمن ، وأصلح أمورها ، وحاول أن يمد نفوذه إلى الحجاز فكانت غزوة الفيل (تاريخ الطبرى ٢/١٠٧ وسيرة ابن هشام ١/٣٦ ومعجم البلدان ٢/٢٤٣)

والمؤرخون مختلفون في زمن هذه الغزوة اختلافا يجعل بدءها من ٥٠٠ إلى ٥٧٠ م بناء على اختلافهم في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنسان العيون ١/٦٥) وكثير من الباحثين يرجحون أنها كانت حوالى ٥٤٠ م وأن استيلاء الفرس على اليمن وطردهم الأحباش كان في ٥٧٠ م ويجعلون الفترة بين ٥٤٠ و ٥٧٠ لحكم أبرهة وحكم يكسوم ومسروق ابني أبرهة (بين الحبشه والعرب ٦٥) ومهما يكن من شيء فقد كان حكم الحبشة لليمن منذ دخلوها هذه المرة إلى أن قتل الفرس مسروق بن أبرهة وأجلوا الأحباش عنها اثنتين وسبعين سنة كما يذكر الطبرى (تاريخ الطبرى ٢/١١٥) ومعنى هذا أن الغزوة بدأت في مستهل القرن الخامس . ولـكننا إذا سلمنا بأنها بدأت سنة ٥٢٣ م وأن أبرهة مات ٥٤٤ وحكم بعد يكسوم ١٩ سنة ثم مسروق ١٢ سنة (بين الحبشة والعرب ٦٧) كان عمر هذا الاستعمار ثنتين وخمسين سنة لا اثنتين وسبعين ، على أن العرب كانوا على صلة بالأحباش عن طريق آخر ليس بأقل تأثيراً من الحكم والاستعمار ، أقصد التجارة،فكان اليمنيون والقرشيون يختلفون إلى هناك متاجرين كما اختلفوا إلى الشام وفارس والعراق (تاريخ الطبرى ٢/١٨٠ ويجمع الأمثال ٢/٦٦) فكانت أرض الحبشة لقريش متجراً ووجها (الأغانى ٨/٥٠) ويستنبط أو ليرى أنه كان في مكة بيوت تجارية رومانية ، وأحباش يرعون مصالح قومهم التجارية (فجر الإسلام ١٥) ومن مظاهر هذا الاتصال الودى أن كانت أول هجرة المسلمين الأولين إلى الحبشة (سيرة ابن هشام ١/٣٤٤ ـ ٣٦١) ثم إن أكثر العبيد والإماء كانوا أحباشا ، وكثيرا ماتزوج العرب بحبشيات أوسود (عيون الأخبار ٤/٤٠ ورسالة فخر السودان من مجموع رسائل الجاحظ ٧٥والأغانى١٤١ و ١٦/١٣٥ و ١٨/١٣٣ و ٢/٢٠ والمحبر ٣٠٦ ـ ٣٠٩ والشعر والشعراء ١٢٢ و ١٣٤ والإصابة ٧/٢٧ و ٢١٢)

وهذا الاتصال بالأحباش والفرس والرومان كانت له آثار فى الغناء .

وقد علمنا أن أكثر القيان كن غير عربيات ، سواء تغنين بالشعر العربى أم بلغاتهن ، وليس ببعيد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتى عاد فتاتين حبشيتين كما ظن الدكتور بيرون Berrou [١] . ونحن نعلم أن أكثر المغنين فى الإسلام كانوا غير عرب مثل سعيد بن مِسْجَح المغنى ، فقد كان مولى أسود[٢] وابن محرز كان مولى فارسياً [٣] ، وسائب خاثر كان مولى من الفرس أيضاً [٤] .

ونجد فى اللغة كلمة الدَّرْقِلة أو الدِّرْكِلة تدل على ضرب من الرقص الحبشى[٥] وكان الأحباش كلفين بالرقص واللعب بالحراب فى المحافل والأعياد فى الجاهلية والإسلام ، والعلاقة وثيقة بين الرقص والغناء والموسيقى .

وإذا ما رجعنا إلى الآلات الموسيقية التى ذكرها الشعراء فى الجاهلية ـ كما سيجىء ـ وجدنا أكثرها أجنبية عن العرب .

فكلمة قنِّين حبشية ، وقد جاءت فى الحديث: إن الله حرم الخمر والكوبة (الطبل) والقنين[٦] . والطُّنبور كلمة فارسيه أصلها من كلمة (دنبهِ بَرَّ) ومعناها إلية الحَمَل[٧] .

والبَرْبط هو العود أعجمى ليس من ملاهى العرب ، وفى التهذيب أنه من ملاهى الفرس ، شبه بصدر البط ، والصدر بالفارسية بَرْ ، فقيل بربط[٨] .

والوَنّ الصنج الذى يضرب بالأصابع ، وهو الوَنَج ، كلاهما دخيل مشتق من كلام العجم[٩] .

---

(١) بلال داعى السماء ١٥٠

(٢) الأغانى ٣/٨١

(٣) الأغانى ١/١٤٥

(٤) الأغانى ٧/١٧٩

(٥) لسان العرب والقاموس مادة درقل

(٦) لسان العرب مادة قنن

(٧) لسان العرب والقاموس مادة طنبور وفرهنك نفيسى و steingass

(٨) لسان العرب والقاموس المحيط مادة بربط

(٩) لسان العرب مادة ون

والصنج هو الآلة المصنوعة من صُفْر أعجمى معرب[١] .

والوَنج هو المعزف وهو المزهر والعود ، وقيل نوع من الصنج ، فارسى معرب أصله وَنَهْ ونطقه العرب الوَنّ[٢] .

والبَمّ الوتر الغليظ من أوتار المزهر ، أعجمى[٣] ، ومُسْتُق صينى آلة يضرب عليها معرب ، ذكر الضبى أن الكلمة فارسية أصلها مُشْتَه صينى أى يؤخذ باليدين[٤] ، وفى القاموس مُسْتُقَة بضم التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج ونحوه ، معرب[٥] .

أما كلمة دُف وكِران وعود ومِزْهَر فعربية الأصل[٦] ، وقد نقلها الفرس عن العرب[٧] .

٢ ـ وإذاً فقد كان العرب على صلة بالغناء الفارسى والرومى والحبشى منذ الجاهلية ، وليس أدل على ذلك من ذكر الشعراء هذه الآلات الأجنبية قبل أن يبزغ الإسلام ، ومن أن الغناء الرومى والفارسى كان معروفا لهم فى الشام كما ذكر حسان[٨] ، وفى نجران كما ذكر الأعشى[٩] . وكان الحارث بن كلدة قد تعلم ضرب العود بفارس واليمن ثم قدم مكة وعلم أهلها[١٠] ، ثم سافر ابنه النضر كما سافر أبوه ، وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر ، وتعلم من أبيه الطب وغيره[١١] .

أليس من حقنا أن نصحح ما ذكره أبوالفرج ، أو نذهب فى فهمه مذهباً

---

(١) لسان العرب والقاموس مادة صنج وصرح

(٢) لسان العرب والقاموس مادة ونج

(٣) لسان العرب مادة بم

(٤) الملاهى للضبى ٢١ مخطوط

(٥) القاموس المحيط مادة ستوق .

(٦) لسان العرب والقاموس مواد الكلمات

(٧) المعجم فى اللغة الفارسية ـ هنداوى ومعجم stiengass

(٨) الأغانى ١٦/١٤

(٩) المعانى الكبير لابن قتيبة ١/٤٦٨ والأغانى ٩/١٥٧

(١٠) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١/١٠٩ وأخبار الحكماء ١١١

(١١) عيون الأنباء ١/١١٣

آخر ؟ فهو يذكر أن سعيد بن مِسْجَح المكى الأسود المغنى أول من نقل غناء الفرس إلى العرب ، وأنه رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطية والأسطوخوسية ، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلم الضرب ، ثم قدم الحجاز ، وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقبحه من النبرات والنغمات الموجودة فى غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس بعده[١] .

وذكر فى رواية أخرى أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام ، فسمع غناءهم بالفارسية فقلبه فى شعر عربى ، وهو الذى علم ابن سُرَيْج والغَريض[٢] . ويقول إنه كان مولى أسود[٣] ، وكذلك كان ابن سريج[٤] . وفى رواية ثالثة أنه سمع بنائين من الفرس يغنون وهم يبنون دوراً لمعاوية ، فأخذ ألحانهم ونقلها إلى الشعر العربى ، ثم صاغ على نحوها[٥] .

وهذه الروايات وإن اختلفت فى ظروف نقل ابن مسجح للغناء تتفق مع الروايات الأخر التى ذكرها أبو الفرج أن ابن مسجح أول من نقل الغناء الفارسى إلى العربى .

ثم إن أبا الفرج ذكر فى موضع آخر أن ابن مُحْرِز — مسلم أو عبد الله — كان أبوه من سدنة الكعبة ، أصله من الفرس — كان يسكن المدينة مرة ومكة مرة ، فإذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلم العزف من عزة المَيْلاء ، ثم يرجع إلى مكة فيقيم بها ثلاثة أشهر ، ثم يشخص إلى فارس فيتعلم ألحان الفرس وغناءهم ، ثم يصير إلى الشام فيتعلم ألحان الروم وغناءهم . وقد أسقط من ذلك مالا يستحسن من نغم الفرس والروم ، وأخذ محاسنه ومزج بعضها ببعض ، وألف منها الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب ، فأتى بما لم يسمع مثله ، وكان يقال له صَنَّاج العرب .

---

(١) الأغانى ٣/٨١ (٢) الأغانى ٣/٨١ و ٨٢
(٣) الأغانى ٣/٨٢ (٤) الأغانى ٣/٨٢ (٥) الأغانى ٣ ٨٤

وهو الذى ابتكر غناء الرمل، ولم يعرفه العرب ولا الفرس قبله ، لأن ابن سلمك أول من غنى رملا بالفارسية أيام الرشيد محاكياً لابن محرز وهو تلميذه[١] .

وذكر مرة ثالثة أن سائب خاثر ـ الفارسى الأصل ـ أول من عمل العود بالمدينة وغنى به ، وأن عبد الله بن عامر سيده كان قد اشترى إماء نائحات وأتى بهن المدينة ، فكان لهن يوم فى الجمعة يلعبن فيه ، و يسمع الناس منهن ، ثم قدم رجل فارسى اسمه نَشيط فغنى ، فأعجب به عبدالله ، فقال له سائب خاثر : أنا أصنع لك مثل هذا الغناء الفارسى بالعربية ، ثم غدا عليه وقد صنع : « لمن الديار رسومها قفر .... » .

وهو أول صوت غنى به فى الإسلام من الغناء العربى المتقن الصنعة . ثم اشترى عبد الله نشيطاً ، فأخذ عن سائب الغناء العربى ، كما أخذ عنه ابن سُرَيْج وجميلة ومَعْبَد وعزة المَيْلاء وغيرهم . وسائب هو أستاذ معبد ، وكثير من أصواته منحولة إلى معبد[٢] .

وذكر فى رواية رابعة أن طُوَيْس مولى بنى مخزوم أول من غنى الغناء المتقن من المخنثين ، وأنه أول من صنع الهزج والرمل فى الإسلام[٣] وكان فى عهد عثمان ابن عفان ، وقد علم ابن سريج والدّلال ونَوْمة الضحا . ويتفق ابن عبد ربه وابن شاكر مع أبى الفرج فى أنه أول من غنى الغناء الرقيق فى الإسلام[٤] .

ثم قفا بعض المؤرخين للحضارة الإسلامية أبا الفرج ، فذهب خدابخش إلى أن الموسيقى الفارسية دخلت بلاد العرب فى الإسلام مع أسرى الفرس الذين وفدوا إلى مكة أفواجا ، وعلموا العرب الغناء على نغمات الدف والناى والطنبور

---

(١) الأغانى ١/١٤٥
(٢) الأغانى ٧/١٧٩
(٣) الأغانى ٤/٣٨
(٤) العقد الفريد ٣/١٨٦ وفوات الوفيات ١/١٩٧

والعود[١] .

والذى ألاحظه على روايات أبى الفرج أنها لاتلتقى عند شخص معين يصح أن ننسب إليه السبق فى إدخال الغناء الفارسى أو العربى ، فهو مرة ابن مسجح ، ومرة بن محرز ، وثالثة سائب خاثر ، ورابعة نشيط ، وخامسة طويس .

ولست أذهب إلى إنكار أثر الغناء الفارسى والرومى فى العربى ، بل إنى أؤكد أنه رفده ومده ، وإنما أذهب إلى أن هؤلاء كان لهم فضل فى تطوره وتجديده ورفده بالغناء الأجنبى ، ولم يكن أى واحد منهم هو السابق ، لأن العرب كما أسلفت ـ عرفوا هذا الغناء من قبل ، وأطربتهم به قيانهم ، وتحدثوا عن آلات الموسيقى فارسية ورومية وحبشية قبل أن يوجد واحد من هؤلاء المغنين .

ولست أشك فى أن الغناء شق طريقه نحو الرقى والكمال بعد اتصال المسلمين بالفرس والروم وغيرهم ، وصارفنا رفيعاً يختص به ذوو اللَّهوات الحلوة ، والأذواق العالية ، والحس المرهف من نساء ورجال .

وقد بدأ ذلك منذ صدر الإسلام ، إذ انتشر الغناء وذاع واتُّخذ طربا ومسلاة فيما لم يكن من قبل . يدل على هذا أن زيد بن ثابت الأنصارى ختن بنته فأولم ، فاجتمع إليه المهاجرون والأنصار وعامة أهل المدينة ، وحضر حسان ابن ثابت وقد كف بصره يومئذ وثقل سمعه ، فلما أكلوا ضربت عزة الميلاء على مزهرها وغنت بقول حسان .

فلا زال قبر بين بُصْرَى وجِلَّق   عليه من الْوَسْمِىِّ جَوْدٌ ووابل

فطرب حسان وبكى . وقيل لخارجة بن زيد : أكان يكون هذا الغناء عندكم ؟ قال : فى الأعراس ، ولم يكن يشهد بما يشهد به اليوم من السعة[٢] .

---

(١) مقدمة خدابخش لكتاب الحضارة الإسلامية لفون كريمر ٢٥

(٢) الأغانى ١٦/١٣ جود : مطر غزير

ويدل على هذا أيضا أن ابن رشيق ذكر أنواع الغناء العربى من نصب وسناد وهزج ، ثم نقل عن إسحاق الموصلى أن هذا كان غناء العرب حتى جاءهم الإسلام وفتحت العراق وجُلِبَ الرقيقُ من فارس والروم ، فغنوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية،وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير[١].

على أن بعض البدو ظلوا يجهلون آلات الموسيقى الدخيلة إلى العصر العباسى، فإن ناهض بن ثُومة بن نَصيح الشاعر الفارس كان بدوياً جافيا كأنه من الوحش ، وقد انتجع الشام فى العصر العباسى فقصد صديقاً له من ولد خالد بن يزيد بن معاوية بحلب ، فرأى عرساً ، فتحدث بما رأى حديثاً طريفا ، يبمنا منه دهشته مما رأى من آلات الموسيقى ، وتصويره الطريف لأصواتها ، كقوله : «جاء شاب بخشبة عيناها فى صدرها ، فيها خيوط أربعة ، فاستخرج من خلالها عوداً ، فوضعه خلف أذنه ، ثم عرك آذانها وحركها فى يده ، فنطقت ورب الكعبة ، وإذا هى أحسن قينة رأيتها قط ، وغنى عليها فأطربنى حتى استخفنى من مجلسى ، فوثبت فجلست بين يديه وقلت : بأبى أنت وأمى ماهذه الدابة ؟ فلست أعرفها للأعراب ، وما أراها خلقت إلا قريبا . فقال : هذا البرْبَط . فقلت فما هذا الخيط الأسفل ؟ قال : الزير قلت : فالذى يليه . قال : المُثَنَّى . قلت : فالثالث ؟ قال : المُثَلَّث .قلت: فالأعلى ؟ قال : البَم . فقلت آمنت بالله أولا ، وبك ثانيا ، والبربط ثالثا ، والبَمّ رابعا[٢] » .

الآلات الموسيقية .

لم تكن القيان يغنين معتمدات على الصوت وحده ، فقد ذكر الشعراء أسماء الآلات الموسيقية التى كن يعزفن عليها .

ومن هذه الآلات الدُّف وهو (الطار) قال عمرو بن الإطنابة :

---

(١) العمدة ٢/٢٤١ (٢) الأغانى ١٢/٣٣ ـ ٣٥

إن فينا القيان يعزفن بالدف　　لفتيانا وعيشاً رخيا[1]

ومنها العود ، وهو أيضاً الكِران والمِزْهر ، والبَرْبط ، والموَتّر ، والمِكْبَل . وكتب اللغة تنص على أنها مترادفات . ولقد يصح ذلك ، ويصح أنها آلات متقاربة الشكل تشبه العود . قال الصَّقْعَب بن حَبّان التغلبى :

وقرّبَ الخُرَّدُ من قيانه　　عوداً له الفضل على عيدانه

أخف عند الحمل واحتضانه　　من ريشة توضع فى ميزانه

أخرس تلقاه على بيانه　　كرامةَ المجالسِ فى هوانه

. . . .[2].

وسماه سَلْمىّ بن ربيعة المزهر فى قوله يعدد لذاته :

والكُثْرَ والخَفْضَ آمنـا　　وشِرَع المزهر الحنون[3]

وسماه امرؤ القيس الكران والمزهر :

فإن أمس مكروبا فيارب قينة　　منعمة أعملتها بكران

لها مزهر يعلو الخميسَ بصوته　　أجش إذا ما حركته يدان[4]

وسماه الأعشى المزهر :

وصدوح إذا يهيجها الشرب　　ترقت فى مزهر مندوف[5]

وسماه البربط فى قوله :

وبربطنا دائماً معمل　　فأى الثلاثة أزرى بها ؟[6].

وسماه لبيد الموتر :

---

(١) الملاهى للضبى ٤١ مخطوط　　(٢) الملاهى ٥٣٣

(٣) شرح الحماسة للتبريزى ٣/٨٣ الكُثر : المال الكثير . الشرع : أوتار العود

(٤) ديوان امرىء القيس ١٨٧　　(٥) ديوان الأعشى الكبير ٢١٥ ترقت : تصعدت فى غنائها . مزهر مندوف : عود يضرب على أوتاره

(٦) المعانى الكبير لابن قتيبة ١/٤٦٨

بصبوح صافية وجذب كرينة ... بموتر تأتاله إبهامها[1]

وسماه كعب بن زهير المُكَبَّل :

ورنة هتَّاف العشى مكبَّل ... ينازعه الأوتارَ من ليس راميا

تنازعه مثلُ المهاة رفيقة ... بجسّ الندامى تترك اللَّبَّ رانيا[2]

وسموا أوتار العود محابض واحدها مِحْبَض ، وهى الشرع أيضاً مفردها شِرْعة ، قال تميم بن أبىّ بن مقبل :

صدحَتْ لها جيداء تركض ساقُها ... عند التِّجار مجامعَ الخلخال

فُضُلا ينازعها المحابضُ رجْعَها ... بأحَذَّ لا صَحْل ولا مصْحال[3]

وذكروا الصنج أيضاً ، قال الأعشى إن الصنج يترنم استجابة للمزهر ، وكأنما يبكى بكاء الحزين مخافة أن يلام :

ومزهرنا دائما معمل ... فأى الثلاثة أزرى بها

ترى الصنج يبكى له شجوَه ... مخافة أن سوف يدعَى بها[4]

وقال إن العود يجيب الصنج ويجاوبه :

ومستجيبٍ تخال الصَّنْجَ يَسْمَعُهُ ... إذا تُرَجِّعُ فيه القينة الْفُضُل[5]

وفى لسان العرب أن الكرينة المغنية الضاربة على الكران وهو العود أو الصنج ، والكنَّارة نحوٌ منه[6] ، قال لبيد :

---

(١) الملاهى للضبى ٥٣٣ مخطوط وشرح القصائد العشر ١٦٣ والمعانى الكبير ٤٦٩/١ وشرح المعلقات السبع لابن الأنبارى ١١٤ مخطوط . تأتاله : تصلحه وتسوسه . وفى لسان العرب تأتى له أى تطاوعه (٢) المعانى الكبير لابن قتيبة ٤٧٠ لب : لبيب

(٣) الملاهى للضبى ٥٣٣ تركض ساقها مجامع الخلخال : ترفع ساقها ذيلها . التجار الخمارون . فضل : فى ثوب بذلة . أحذ : ضامر يعنى العود . الصحل والمصحال . الأبح

(٤) ديوان الأعشى ١٧٣ والمعانى الكبير ٤٦٨/١ ولسان العرب مادة صنج. الصنج. دوائر صغار من النحاس تعلق بالأصابع وتنقر الراقصة عليها .

(٥) ديوان الأعشى ٤٦ مستجيب : عود (٦) لسان العرب ٢٣٨/١٧

صَعْلٌ كسافلة القناة وَظِيفُهُ وكأن جُؤْجُؤَهُ صفيح كِرانِ[١]

وقد وصف الأعشى فى مدحه إياس بن قبيصة الطائى أو قيس بن معد يكرب مجلسَ شراب وندامى وغناء بقوله :

ومُسْتُقُ صينيٍّ وَوَنٌّ وبَرْبَطٌ يجاوبه صَنْجٌ إذا ما تَرَنَّما[٢]

وهذه الآلات قد بقيت إلى العصر الأموى ، وعزفت القيان عليها ، مثل سيرين وسلمى وجميلة وعزة الميلاء ورائقة[٣] .

---

(١) اللسان مادة كرن (٢) الملاهى للضبي ٢١ مخطوط . المستك : آلة يضرب عليها معرب . الون : آلة طرب معرب . البربط : العود أو المزهر معرب . وذكر أن كلمة مستق صينى أى يوخذ باليدين وفى القاموس مستق بضم التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج ونحوه ، معرب .

(٣) الأغانى ٢/١٦

الفصل الثاني

المرأة راوية للشعر وناقدة

١ ــ كان الشعر يذيع ويتخطى الآفاق والنجاد والفيافي بالرواية ، وكان يرويه جيل بعد جيل ، ويحفظه الرجال كما يحفظون الأنساب والوقائع .

فهل روت المرأة الشعر؟ نعم ، فقد قدمت على النبي الفارعة بنت أبي الصلت أخت أمية بعد فتح الطائف ، فقال لها : هل تحفظين من شعر أخيك شيئا ؟ فأخبرته خبره ، وأنشدته شعره الذي أوله :

باتت همومي تسري طوارقُها ... أكفّ عيني والدمعُ سابقُها

وأنشدته قوله :

كل عيش وإن تطاول يوما ... صائرٌ مرة إلى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بَدَا لي ... في تلال الحياة أرعى الوعولا

فقال لها رسول الله : كان مثل أخيك كمثل الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . وفي رواية أنها أنشدته شعراً دينياً لأمية فقال : آمن شعره وكفر قلبه[1] .

وكان الأعشى قد علَّم ابنته وثقفها ، حتى وثق بذوقها ونقدها ، فكان يعرض عليها شعره ، ويقول لها : عدي لي المخزيات ــ القصائد اللاتي يخزين غيره فلا يستطيع أن يأتي بمثلهن ــ فتسمعه من شعره[2] .

وكذلك كان حسان بن ثابت على ثقة من ذوق ابنته ، وطواعية التعبير لها على البديهة ، فقد أرق ليلة وعنده ابنته ليلى ، فمن له الشعر ، فقال :

---

(١) الإصابة ٨/١٥٦ (٢) الأغاني ١٥/١٠٦

متاريك أذناب الأمور إذا اعترتْ   أخذنا الفروع واجتَثَثْنَا أصولها

ثم أَجْبَل فلم يَجِدْ شيئا . فقالت له ابنته : يا أبتاه كأنك أجبلت ! قال : أجل . فقالت : هل لك أن أجيز عنك ؟ قال : نعم . قالت : أعد . فأعاد البيت ، فقالت :

مقاويلُ بالمعروف خُرْسٌ عن الخنا   كرامٌ يُعَاطون العشيرةَ سُولَها

فحمى حسان فقال :

وقافيةٍ مثل السِّنان رزينة   تناولت من جو السماء نُزولَها

فقالت :

يراها الذى لا ينطق الشعر غيره   ويعجز عن أمثالها أن يقولها[1]

وكانت عائشة مثلا فى رواية الشعر ، فقد تولى تربيتها جماعة من بنى مخزوم ، فنشأت فصيحة اللسان ، قوية البيان ، حافظة لكثير من الشعر .

حدّث هشام بن عروة عن أبيه : ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة[2] . وحدث أبو الزناد أنه ما رأى أحداً أروى لشعر من عروة ، وأن عروة قيل له : ما أرواك ! فقال : ما روايتى فى رواية عائشة ؟ ما كان ينزل بها شىء إلا أنشدت فيه شعرا[3] .

وكانت إلى هذه الرواية لبقة حصيفة فى الاستدلال بالشعر والتمثل به ، حدثت فقالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ، وكنت جالسة أغزل ، فنظرت إليه ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، فبُهِتّ ، فنظر إلىّ فقال : مالك بهتّ ؟ فقلت : يا رسول الله ، نظرت إليك فجعل جبينك يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، ولو رآك أبو كبير الهذلى لعلم أنك أحق بشعره

---

(١) الموشح ٦٢ فى الأصل عنده بدلا من غيره

(٢) الطبقات ٧/٣٩ والإصابة ٨/١٤٠ وأسد الغابة ٥/٥٠٤ والاستيعاب ٢/٧٦٥ وتهذيب التهذيب ١٢/٤٣٥ (٣) الإصابة ٨/١٤٠ والطبقات ٨/٥٠ والاستيعاب ٢/٧٦٥

قال : وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلى ؟ قلت : يقول :

ومُبَرَّأً من كل غُبَّر حَيْضَةٍ ... وفساد مرضعة وداء مُغْيِلِ

وإذا نظرت إلى أسِرَّة وجهه ... برقَتْ كبرق العارض المتهلل

قالت : فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده ، وقبّل ما بين عينى ، وقال : جزاك الله خيراً يا عائشة ، ما سررت منى كسرورى منك[1] .

وقالوا إنها كانت تروى القصيدة ستين بيتا ، والقصيدة مائة بيت[2] ، وكانت معجبة بشعر حُجَيَّة بن المُضَرَّب ، وتحض على روايته ، لأنه يعين على البر[3] . وذهب عطارد والزهرى إلى أنها كانت أعلم الناس من نساء ورجال[4] . وليس من الطبيعى أن تنفرد السيدة عائشة بالحافظة الراوية للشعر بين النساء العربيات ، وإنما الطبيعى أن يشركها كثير من النساء ، فلابد أن كانت نساء أخر يحفظن الشعر ويروينه ، لكنهن لم ينلن ما نالت السيدة عائشة من مجد ونباهة صيت ، ولم تسجل حياتهن كما سجلت حياتها ، فهى زوج النبى ، و بنت صديقه وخليفته ، ولو لم يقدر لها أن تكون كذلك ، وأن تشترك فى نصرة حزب سياسى قوى ، وأن تكون راوية للحديث الشريف ، لو لم يقدر لها ذلك كله لضاع كثير من أخبارها كما ضاعت أخبار مئات من أمثالها .

٢ ــ أما نقدها للشعر فإنه كان كنقد الرجال ، قائماً على استحسان أو استهجان ، فى جمل قصار تدل على الاستجادة أو الاستهجان .

فكان الأعشى إذا قال القصيدة عرضها على ابنته ، وقد كان ثقفها وعلمها ما بلغت به استحقاق التحكيم والاختيار لجيد الكلام ، وكان يقول لها : عدى لى المخزيات ــ القصائد البارعة التى تعجز غيره ــ فتعد منها :

---

(١) الإحياء للغزالى ٣/١٠٩ ودلائل النبوة للبيهقى

(٢) الطبقات ٨/٥٠ (٣) لسان العرب ١٩/٦٦

(٤) تهذيب التهذيب ١٢/٤٣٥

أغر أروع يُسْتَسْقَى الغمامُ به ... لو قارع الناسَ عن أحسابهم قَرَعا

وتذكر ما أشبهها من شعره[١] .

وذكروا أن امرأ القيس نازع علقمة بن عبدة الشعر ، فقال له علقمة : قد حاكمت بيني و بينك امرأتك أم جندب . قال : قد رضيتُ . فقالت لهما : قولا شعرا على روى واحد وقافية واحدة ، تصفان فيه فرسيكما .

فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها :

خليليّ مرّابى على أم جُنْدُب ... لنقضى لُبانات الفؤاد المعذَّب

. . . .

وقال علقمة قصيدته التي مطلعها :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ... ولم يك حقاً كل هذا التجنب

. . . .

فغلّبت علقمة . فقال زوجها : بأى شيء غلّبته ؟ قالت : لأنك قلت :

فللسوط أُلْهوبٌ وللساق دِرَّةٌ ... وللزّجر منه وقعُ أخرج مِنْعَبِ

فجهدت فرسك بسوطك ، ومريته بساقك وزجرك ، وأتعبته بجهدك .

وعلقمة قال :

فولّى على آثارهن بحاصب ... وغَيْبَةِ شُؤْبوب من الشد مُلْهِبِ

فأدركهن ثانيـاً من عنانه ... يمرُّ كمـرِّ الرائح المتحلِّب

فلم يضرب فرسه بسوطه ، ولم يَمْرِه بساق ، ولم يتعبه بزجر .

فغضب من قولها وطلقها ، وخلفها عليه علقمة[٢] .

---

(١) الأغانى ١٥/١٠٦

(٢) الأغانى ٧/١٢١ و ٢١/١١٢ والموشح ٢٨ ألهوب : شدة عدو . درة : المراد سرعة جرى . أخرج : ظليم . منعب : عداء يمد عنقه. وروى مهذب سريع العدو . حاصب: ريح تحمل التراب . غيبة شؤبوب : المراد دفعة قوية من السرعة . ملهب : مسرع . الرائح المتحلب : المطر الغزير

وفى رواية عمر بن شبة وأبى عمرو الشيبانى[١] وابن عائشة[٢] أن امرأ القيس تزوج امرأة من طيىء فأبغضته ، ثم نزل به صديقه علقمة فتنازعا فى أيهما أشعر، فاقترح امرؤ القيس أن يصف كل منهما ناقته أو فرسه ، وأن يكون الحكم بينهما امرأة امرىء القيس . وتتفق رواية المفضل عن أبى الغول الأكبر مع هذه الرواية ، لكنها تنسب إلى علقمة أنه القائل : قل شعراً وانعت الصيد وهذه – يعنى أم جندب – الحكم بينى وبينك[٣] .

وقالوا إن علقمة سمى الفحل لأنه خلف امرأ القيس على زوجته[٤] .

لكن هذه القصة المشهورة فى حاجة إلى تمحيص .

ذلك أن الحكم من الناحية الفنية جائر ، لأن المعارضة لم تكن قائمة على المفاضلة بين الفرسين نفسيهما ، وإنما كانت قائمة على البراعة فى الوصف ، وما من شك فى أن كلا من الشاعرين قد وصف حصانه فأجاد ، بغض النظر عن عتق الحصان وكرمه ، وشدته وإسراعه . فمثلا صور امرؤ القيس حصانه يجرى وراء الصيد ، ولكنه لم يغفل عن تصوير مشاعره ولهفته ليدرك هذا الصيد ، بأنه صبّ على حصانه سوطه وهمزه بساقه ، وزجره ، ليجود بما فوق الطاقة ، وهو بهذا التصوير لم يخرج على طبيعة الإنسان فى أى زمان ، فالمسافر العجلان اليوم يركب الطائرة التى تقطع الأميال فى الدقيقة الواحدة ، ويشعر بسرعتها التى ما كانت فى خلد البشر ، ولكنه إذا كان ملهوفاً يشعر أنه فى حاجة إلى سرعة أعظم .

وكيف نغفل عن قول امرىء القيس بعد البيت الذى عابته أم جندب :

فأدركَ لم يَجْهَدْ ولم يَثْنِ شَأْوَهُ ... يمرُّ كخُذْرُوف الوليد المُثَقَّب[٥]

---

(١) الموشح ٢٩ (٢) الأغانى ٧/١٢١

(٣) الموشح ٣٠ (٤) الأغانى ٢١/١١٢

(٥) شأوه : طلقة . الخذروف : لعبة للصبيان تشبه النحلة الخشبية الآن

أى أنه قد أدرك طريدته دون حاجة إلى طَلَق آخر ، وإنه ليعدو عـدواً يكاد يخفى تفاصيل أجزائه ، مثل الدّوّارة التى يرميها الصبى على الأرض فتدور مسرعة حتى لا ترى أجزاؤها . وهذا تصوير بالغ حد الروعة من حيث الصورة ومن حيث الوقع فى النفس ، ذلك بأن الصبى حينما يقـذف خذروفه فى قوة ومهارة فيـدور دوراناً قويا يعجب به ويباهى بمهارته ، وكذلك امرؤ القيس أجرى حصانه معجباً به وبنفسه ، وهو فى وصفه هذا جار على طريقة العرب من حيث إيثار الصدق والتوسط بالخيال المقبول المشوق المستمد من الواقع .

ثم إن البيتين معـاً يجملان حصان امرىء القيس كحصان علقمة عَدْواً وجُوداً بأقصى ما يجود به الأصيل الـكريم .

ومن الإنصاف أن نقرر أن قول امرىء القيس :

إذا ما جرى شأوين وابتل عِطْفُهُ   تقولُ هزيزُ الريح مرت بأثْأب

ليس أقل روعة من قول علقمة :

فأدركهن ثانياً من عنـانه   يمـر كمر الرائح المتحلِّب

لأن امرأ القيس صور حصانه بعد ما جرى شوطين ، وابتل جنبه بالعرق ، سريعاً خفيفاً يموج من جريانه الهواء ، كأنه ريح مرت بالأثأب فخف حفيفاً قويا .

وإذا ما قرأنا القصيـدتين كلتيهما وراعينا أن امرأ القيس هو البادىء استرعى نظرنا أن علقمة يجرى على إثره ، ويستعين كثيراً بأبياته . من ذلك أن البيتين الأولين من وصف علقمـة لحصانه هما البيتان الأولان من وصف امرىء القيس :

وقد أغتـدى والطير فى وكناتها   وماء الندى يجرى على كل مِذْنَب

بمنجرد قيد الأوابد لاحـه   طِراد الهوادى كلَّ شأوٍ مُغَرِّب[٢]

---

(١) مذنب : مسيل ماء . لاحه : غير لونه . الهوادى : الوحوش السريعة . الشأو : الغاية والأمد مغرب : مسرع جدا

وليس المقام مقام توسع فى الموازنة ، وقد وازن بين القصيدتين موازنة مفصلة الأستاذ السباعى بيومى ، من حيث وصف الشاعرين لفرسيهما ، ومن حيث وصفهما للعدْو والصيد ، ومن حيث النزول بعد الصيد والرواح منه ، وانتهى إلى أن امرأ القيس أجود من علقمة ، وأن علقمة يحاكيه وينقل منه ، وأن من الإجحاف أن يؤخذ بقول أم جندب[1] .

على أن فى القصة ما يفهم منه أن حكم أم جندب ضالع ؛ لأنها كانت تفرك امرأ القيس[2] ، ولأنه لما سمع حكمها قال: ليس كما قلت ولكنك هويته[3] .

أما الناحية الثانية فهى أنى أشك فى هذا التحكيم ؛ لأنى لا أعقل أن تجرؤ امرأة عربية على أن تؤثر علانية رجلا على زوجها ، وهى واثقة بأن الرجال غُيُر ، وهى أيضاً ذات حياء وحصافة . ولا يشفع فى هذا أنها فارك تهتاج زوجها ليطلقها ، لأنها لم تكن تدرى ماذا يجره حكمها ، فقد يجر الطلاق الذى تريده لكنه مخالط بسوء ظن ومذمة ، وقد يجر عضلا وتعليقا ، وربما نجم عنه أن يزهق روحها زوجُها الهائج الغضبان .

وكيف يغفل امرؤ القيس عن بغضتها إياه ، ويفتتح قصيدته بالغزل فيها ؟

ثم إنى أستبعد أن يقول الشاعران على البديهة هاتين القصيدتين الطويلتين البارعتين .

ولا أصدق أن تجرى على لسان أم جندب كلمة روى وقافية ، لأن الروى والقافية اصطلاح لم يعرف إلا فيما بعد .

وإنه ليعزز رأيى فى اختراع القصة أن علقمة لم يسمّ فحلا لتزوجه أم جندب بعد امرىء القيس ، وإنما سمى فحلا - كما ذكر الجاحظ - للتفريق بينه وبين

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى . السباعى بيومى ٢٥٦ - ٢٦٢

(٢) الأغانى ١٢١/٧ (٣) الأغانى ١١٢/٢١

علقمة بن سهل بن عمارة من رهط علقمة الفحل ، لمّا وقع عليه اسم الخصي[1] .

ويزيد هـذا تعزيزاً أن مئات من الشعراء وغيرهم من مشهوري الجاهلية قد خلفوا غيرهم على نسائهم ، ولم يسم أحدهم فحلا ، فلماذا خص علقمة بهذا اللقب ؟

ولـكن القصة لهـا دلالتها على أن المرأة العربية كانت تتذوق الشعر ، وتنقده ، وتتبين مواضع الجودة والرداءة فيه .

وهي شبيهة بقولهم إن حسان لمـا غضب من تفضيل الخنساء عليه قال للنابغة : أنا والله أشعر منك ومنها ، فقال له النابغـة ، حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنـا الجفنات الغر يلمعن في الضحا ... وأسيافنا يقطرن من نجـدة دما

ولدنا بني العنقاء وابنيْ مُحَرِّق ... فأكرمْ بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال : إنك لشاعر لولا أنك قلت الجفنات فقللت العدد ، ولو قلت الجفان لـكان أكثر . وقلت يلمعن في الضحا ، ولو قلت يبرقن بالدجى لـكان أبلغ في المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً . وقلت يقطرن من نجدة دما فدللت على قلة القتلى ، ولو قلت يجرين لـكان أكثر لانصباب الدم . وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك . فقام حسان منـكسراً منقطعاً[2] .

وعُزي نقـد بيت حسان إلى الخنساء على مسمع من النابغة ، ذلك بأنها قالت لحسـان : ضعفت افتخارك وأنزرته في ثمانية مواضع . قال : وكيف ؟ قالت : قلت الجفنات ، والجفنات ما دون العشر فقللت العدد ، ولو قلت الجفان لـكان أكثر . وقلت الغر والغرة البياض في الجبهة ، ولو قلت البيض لـكان

---

(١) الحيوان ١/١٢٠ . كان علقمة بن سهل قد أسر باليمن فهرب ، فأسر ثانية فخصي ، وقد أدرك الإسلام .

(٢) الأغاني ٨/٢٠٨

أكثر اتساعاً . وقلت يلمعن واللمع شيء يأتي بعد الشيء ، ولو قلت يشرقن لكان أكثر ، لأن الإشراق أدوم من اللمعان . وقلت بالضحا ولو قلت بالليل لكان أبلغ ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً . وقلت أسيافنا والأسياف دون العشرة ، ولو قلت سيوفنا لكان أكثر دما . وقلت يقطرن فدللت على قلة القتلى ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم . وقلت دماً والدماء أكثر من الدم . ونخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك . فقام حسان منكسراً منقطعاً[١] .

والوضع ظاهر فى هذا الحكم ؛ لأنه يتكىء على التفرقة بين جمع المؤنث السالم وجمع التكسير من حيث القلة والكثرة ، وهذا المعنى من اصطلاح النحاة فى عصر التدوين ، ويعتمد على المبالغة فى الاستعارة وعلى التهويل فى التصوير ، وهذه نزعة لم تعرف إلا حينما درست علوم البلاغة ، وزاحم العقلُ والمنطقُ الذوقَ والفطرة . والنقد كله منبعث عن إيثار للغلو والمغالاة فى المعانى فى عصر كان الشعراء أميل فيه إلى الصدق والخيال المقبول . لذلك فإن قدامة بن جعفر على الحق فى دفاعه عن حسان[٢] .

٣ — فلما جاء الإسلام نافست النساء الرجال فى العلم والأدب ، لأن النبى عليه الصلاة والسلام حث الرجل والمرأة على التعلم ، وحث الرجل على تعليم ولده وابنته ، إذ ذكر فى الثلاثة الذين يؤتون أجرهم مرتين : « ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها[٣] »

ا ـ فكان من المسلمات راويات للحديث ، يأخذ عنهن الرجال ، كالسيدة عائشة[٤] ، وقد تلقى على بن أبى طالب الحديث على مولاة لرسول الله كانت تقوم على خدمته هى ميمونة بنت سعد[٥] . وعد محمد بن سعد أكثر من سبعمائة

---

(١) شرح مقامات الحريرى للشريشى ٢/٢٥٣ والمعارف ١٠٥ وشرح شواهد المغنى ٩١
(٢) نقد الشعر ٣٦
(٣) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى ١/١٠٤
(٤) الإصابة ٨/٤٠
(٥) الإصابة ٨/١٧٣ .

راوية للحديث عن رسول الله أو عن الثقات من أصحابه ، وأخذ الرواة عنهن[١] .
وكذلك فعل ابن حجر[٢] فى كتابه (الإصابة) على أنه ذكر ٣٢٢ صحابية روين عن الرجال وروى عنهن الرجال فى كتابه (تهذيب التهذيب)[٣] .

وألف الحافظ الذهبى كتابه (ميزان الاعتدال فى نقد الرجال) قال فيه : وما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها[٤] .

وقرأ أبو بكر الخطيب الحافظ أحمد بن على بن ثابت (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ) صحيح البخارى بمكة على كريمة المروزية[٥] .

وتتلمذ الحافظ أبوالقاسم بن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ) لشيوخ عدة منهم بضع وثمانون امرأة[٦] .

وسمع محمد بن المؤرخ أبى شامة المقدسى صحيح البخارى وغيره على أم الفضل كريمة بنت عبد الوهاب المتوفاة ٦٤١ هـ[٧] .

وكان لشهدة الكاتبة المتوفاة ٥٧٤ هـ السماع العالى الذى ألحقت فيه الأصاغر بالأكابر ، وقد سمع عليها خلق كثير[٨] .

ب - وكان منهن ناقدات للشعر يتحرى الشعراء مرضاتهن . فكانت عَمْرة الجُمَحية صاحبة وَهْب بن زَمْعة الجُمحىّ امرأة جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار . وكان أبودَهْبَل لا يفارق مجلسها مع كل من يجتمع إليها ، وكان يحبها وتحبه ، فلما قيل لها إن أمرها ذاع احتجبت عن جلاسها ، وعن أبى دهبل ، فقال :

تطاول هذا الليـــل ما يتبلّج وأعيَتْ غواشى عَبْرتى ما تَفرَّجُ

---

(١) الطبقات الكبير لابن سعد (٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر
(٣) تهذيب التهذيب ١٢/٣٩٧ - ٤٩٢ (٤) ميزان الاعتدال ٢/٦٨٢ .
(٥) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢ (٦) طبقات الشافعية الكبرى ٤/٢٧٣
(٧) تراجم رجال القرنين السادس والسابع ١٧٣ أبو شامة
(٨) وفيات الأعيان ١/١٨٣ .

وبتُّ كئيبا ما أنام كأنما خلال ضلوعى جمرة تتوهج
فطوراً أمنّى النفس من عَمْرَةَ المُنَى وطوراً إذا ما لجَّ بى الحزن أنْشجُ
لقد قطع الواشون ما كان بيننا ونحن إلى أن يُوصلَ الحبلُ أحوج(١)

جـ - وكانت فى الإسلام تجيز الشعر كما أجازته سابقتها فى الجاهلية ، ومن ذلك أن عَقيل بن عُلَّفة كان فى سفر ومعه ابناء عُلَّفة وجُثَامة وابنته الجَرْباء فقال عقيل :

قضت وَطَرًا من دَيْر سعد وطالما على عُرُضٍ ناطحنه بالجماجم
إذا هبطت أرضاً يموت غُرابُها بها عطشاً أعطينهم بالخزائم

ثم قال : أنفذْ يا علفة ، فقال علفة :

فأصبحن بالمَوْماة يحملن فتيـة نَشَاوى من الإدلاج مِيلَ العمائم
إذا عَـلَمٌ غادرنَهُ بتَنُوفَةٍ تَذَارَعْنَ بالأيدى لآخرَ طاسم

ثم قال : أنفذى يا جرباء ، فقالت :

كأن الكرى سقَّاهُمُ صَرْخَدِيَّةً عُقاراً تمشَّى فى المَطَا والقوائم

فغضب عقيل وهاج وقال : والله ما وصفتها هذه الصفة إلا وقد شربتها ، ثم أحال عليها يضربها فصده عنها أخوها(٢) .

وكانت عائشة بنت طلحة أديبة ناقدة ينشدها الشعراء ، وقد أنشدها أبوعمرو قصيدة قيس بن الحدادية التى مطلعها :

أجدّك إن نُعْمٌ نأتْ أنت جازع قد اقتربت لو أن ذلك نافع

فاستحسنتها ، وكان بحضرتها جماعة من الشعراء فقالت لهم : من قدر منكم أن يزيد فيها بيتاً واحداً يشبهها ويدخل فى معناها فله حلتى هذه . فلم يقدر أحدمنهم

---

(١) الأغانى ٦/١٥٠
(٢) الأشربة لابن قتيبة ٥٩ مخطوط والأغانى ١١/٨٢ علم : جبل . تنوفة : صحراء لا ماء بها ولا أنيس . تذارعن : أسرعن . طاسم : منطمس . صرخدية : خمر .

على ذلك[١] . وقد أسمعها الغريض قصيدة للحارث بن خالد فاستحسنتها وأمرت له بخمسة آلاف درهم وأثواب ، ثم استزادته ، وأمرت له بخمسة آلاف أخرى ، وطلبت منه أن يغنيها فى شعر غيره ،فغناها لعمر بن أبى ربيعة .فضحكت وأعطته خمسة آلاف أخرى[٢] .

وكانت سُكَينة بنت الحسين ذات صيت طائر فى حب الشعر وتذوقه ونقده حتى ليصح أن نقول بلغة العصر الحاضر إنها كانت صاحبة ندوة أدبية يهفو إليها الشعراء ، فيُسْمِعُونها و يستمعون رأيها ونقدها ، ولها فى ذلك أخبار شتى ، منها أنها أُنشدت قول الحارث بن خالد :

ففرغن من سبع وقد جَهِدَتْ أحشاؤهن موائلَ الْخُمُر

فقالت أحسنٌ عندكم ما قال ؟ قالوا : نعم ، فقالت : وما حسنه ؟ فوالله لو طافت الإبل سبعاً لجهدت أحشاؤها[٣] :

ولما أنشدها الْغَرِيض قصيدة عمر بن أبى ربيعة :

أَلِمْم بزينب إنَّ البيَن قد أَفِدا قلَّ الثَّوَاء لئن كان الرحيل غدا

طلبت أن يغنيها لها ، فلما غناها قالت:أحسنت والله وأحسن ابن أبى ربيعة، وأمرت له بكل بيت ألف درهم ، وقالت : لو زادنا عمر لزدناك[٤] .

وقد زارها بالمدينة الفرزدق فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا ، قالت كذبت ، أشعر منك جرير الذى يقول :

بنفسى من تَجَنُّبُه عزيزٌ علىّ ومن زيارته لمام

ومن أُمْسى وأصبح لا أراه ويطرقنى إذا هجع النيام

فقال لها : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . ثم عاد إليها من الغد فسألته فأجاب كاليوم السابق ، فقالت: جرير أشعر منك، وذكرت بعض شعره ،

---

(١) الأغانى ١٣/٧ (٢) الأغانى ٣/٣٢٠ .
(٣) الأغانى ٣/٣٢٧ (٤) الأغانى ٢/٣٧٦ .

وكذلك فعلت فى اليوم الثالث[١] ونقدت أيضاً قصيدة لعمر[٢] .

وكذلك نقدت كلثم بنت سعد المخزومية شعراً[٣] . وكانت خرقاء العامرية محبوبة ذى الرمة تحفظ شعره وتنقده ، ومن قولها : كان رقيق البشرة ، عذب المنطق ، حسن الوصف ، مقارب الرصف[٤] . وروت قطام صاحبة ابن ملجم لكثيِّر بعض شعره ، ونقدته ، وفضلت عليه امرأ القيس[٥] .

د — أما الموالى فكانت لهن ثقافة خاصة تكفل غلاء ثمنهن ، وتدفع الأثرياء إلى التنافس فى اقتنائهن ، وحسبى أن أذكر أنه كان منهن مغنيات أستاذات ، تلقى عنهن زعماء المغنين ، فمثلا جميلة كانت أستاذة ابن سريج[٦] ، وأستاذة معبد ومالك[٧] وعاتكة بنت شهدة كانت أستاذة إسحاق الموصلى[٨] .

هـ — وإذاً فقد برعت المرأة فى صدر الإسلام وفيما بعده ، واشتهرت بمعارف شتى حتى سامت الرجال أحيانا ، وليس من المعقول أن تكون خاملة جاهلة وتبرع هذه البراعة فجاءة ، وإنما الطبيعى أن الإسلام قد استهل على العرب والنساء يسهمن فى المعرفة ، ويسرن كالرجال بخطا نحو الكمال ، فكان الإسلام مشجعا على حث الخطا ، وكان نوراً إلى الهدف الذى يأتمه النساء والرجال جميعا .

---

(١) الأغانى ٧/٥٠ (٢) الأغانى ٢/٣٧٧ .
(٣) الأغانى ١/٢٠٥ (٤) الأغانى ١٦/١٢٠ (٥) الأغانى ١٤/٥٧ .
(٦) الأغانى ٧/١٢٦ (٧) الأغانى ٧/١٢٦
(٨) التاريخ الكبير لابن عساكر ٢/٤١٦ .

الفصل الثالث

المرأة الشاعرة

العرب أمة شاعرة كما سبق ، وقد قاومت آلاف من قصائدها عوادى الدهر ، حتى جاء عصر التدوين فدونت وأطلّت علينا .

وبديهى أن هذا الشعر الذى غالب الزمن وتخطاه لم يكن أول شعر قد اكتمل خصائص الشعر الأسلوبية والمعنوية والموسيقية ، فهو من غير جدال مسبوق بمحاولات شتى فى أزمان متطاولة .

وكان العرب يعتزون بشعرهم ويتخذونه الوسيلة لتخليد مآثرهم ، والإشادة بفضائلهم ، فهو عندهم كالآثار المشيدة التى خلفتها بعض الأمم ، « ولم يكن من اللغو أن نقول إن العرب قرضوا وحدهم من الشعر - فى الجاهلية والإسلام - أكثر مما قرضته أمم العالم مجتمعة[1] » .

وقد حقق رواة الشعر فيما يروون ، وتحروا الصواب جهدهم ، ونبهوا على كثير من الدخيل المنحول ، حتى لقد حدث الزبير عن ابن سلام عن يحيى بن سعد القطان أنه قال : رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لأن رواة الحديث يروون مصنوعا كثيرا ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون هذا مصنوع[2] .

قلة المروى من شعر النساء

أمام هذا الفيض الزاخر من شعر الرجال لا نجد إلا قلة من شعر النساء ،

(١) حضارة العرب . لوبون ٥٤١ (٢) ذيل الأمالى ١٠٥

وبخاصة فى الكتب الأولى التى جمعت الشعر ، كالطبقات لابن سلام ، والمفضليات للضبى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، والمؤتلف والمختلف للآمدى ، والحماسة لأبى تمام .

فمثلا فى المفضليات للضبى مرثية واحدة لامرأة من بنى ضُبَيْعة فى خمسة أبيات ، وليست هذه المرأة معروفة الاسم أو العصر .

وذكر ابن سلام من أصحاب المراثى متمم بن نويرة والخنساء وأعشى باهلة وكعب بن سعد الغنوى ، ثم قال : والمقدّم عندنا متمم بن نويرة[1] ، ثم ذكر الخنساء فى إيجاز جدا بقوله « بكت الخنساء أخويها صخرا ومعاوية ، فأما صخر فقتلته بنو أسد ، وأما معاوية فقتلته بنو مرة من غطفان . فقالت فى صخر كلمتها التى تقول فيها :

« وإن صخرا لتأتمُّ الهداة به » وكلمتها الأخرى :

أمن حدث الأيام عينك تَهْمُلُ   وتبكى على صخر وفى الدهر مَذْهَل

وقالت فى معاوية قصيدتها :

ألا ما لعينيك أم ما لها   لقد أخْضَلَ الدمعُ سِرْبالها[2]

فكأنها فى رأيه لم تقل غير هذا .

ولم يذكر الآمدى فى المؤتلف والمختلف إلا بضع شاعرات .

ولم يذكر المرزبانى فى معجم الشعراء امرأة .

وذكر القرشى فى الجمهرة تسعاً وأربعين قصيدة لتسعة وأربعين شاعراً ، منها سبع قصائد فى الرثاء ، ولم يذكر شاعرة .

لماذا قلت رواية شعرهن أولا ؟

ولعل الأسباب فى قلة ما روى من شعرهن أول الأمر راجعة إلى هذه الأمور :

---

(١) طبقات الشعراء ١٦٩   (٢) المرجع السابق ١٧٤

١ — كان الرواة فى عصر الجمع والتحصيل حراصاً على الغريب ، فكانوا يأخذون عن الأعراب ، لأنهم يقدرون فى الشعر قيمته اللغوية ، وسنرى أن شعر النساء قليل الغريب ، فلم يحفل الرواة بروايته و إذاعته .

٢ — وشعر النساء كما سنرى موحَّد الغرض فى القصيدة الواحدة ، وربما حسب الرواة هذا عجزاً ، لأن العرب جروا على تعدد موضوعات القصيدة ، وتنوع أغراضها ، وألف الرواة هذا التعدد .

وليس أدل على إعجابهم بنظام القصيدة الجاهلية الجارى على تعدد الموضوعات من أنه سيطر على القصائد العربية إلى العصر الحاضر .

٣ — وكان الشاعر لسان قبيلته ، يذيع محامدها ، و يهجو خصومها ، ولم تكن المرأة لتقوم من القبيلة هذا المقام ، لذلك قل فى شعر النساء ذكر الحروب والأيام ، فلم يجد المؤرخون والإخباريون فيه طابتهم .

٤ — وربما كان مردّ بعض ذلك إلى لون من التعصب ، فقد ضرب المثل ببعض الشعراء فى إجادة فنون خاصة ، ولم يضرب بالخنساء مثلا فى إجادتها الرثاء .

من ذلك قول ابن الأعرابى : لم يصف أحد قط الخيل إلّا احتاج إلى أبى دؤاد ، ولا وصف الخُمر إلا احتاج إلى أوس بن حجر ، ولا وصف أحد نعامة إلا احتاج إلى علقمة بن عبدة ، ولا اعتذر أحد فى شعره إلا احتاج إلى النابغة الذبيانى[١] .

وقد سبق إيثار ابن سلام لمتمم بن نويرة فى الرثاء ، ومثل هذا كثير فى كتب الأدب .

٥ — ولقد يكون من بواعث هذا الإغفال أو التغافل أن الشعر الجاهلى قد فُقد كثير منه ، كما يقرر عمر بن الخطاب وأبو عمرو بن العلاء[٢] ، وكما يقرر ابن سلام[٣] ، فضاع من شعر النساء كثير و بقى قليل .

---

(١) الأغانى ١٥/٩٣ (٢) طبقات الشعراء ٢٣ والخصائص ٩٣١

(٣) طبقات الشعراء ٢٣ و ١١٥ و١١٦ و ٢٠٥

٦ — ثم إن أوسع أبواب الشعر العربي في الجاهلية ما يتصل بالحروب والمفاخرات والحماسة عامة، حتى إن القبائل التي كانت تنعم بالسلام الطويل لم ينبغ فيها إلا قليل من الشعراء «فمثلا بالطائف شعراء وليسوا بالكثير، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويغار عليهم. والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا، وذاك الذي قلل شعر عمان، وأهل الطائف في طرف، ومع ذلك كان فيهم أبو الصلت وابنه أمية وغَيْلان بن سَلَمة وكنانة بن عبد ياليل، وأبو مِحْجَن بن حبيب الثقفي»[1].

وقد كانت الحرب والحماسة أخلق بالرجال من النساء، وإن كن قد شاركن في هذه وفي تلك.

٧ — ولقد يكون من بواعث هذا الإغفال أن العرب يؤثرون الفحولة والجزالة في الشعر، وهم قد وجدوا في شعر الرجال قوة ورصانة فاحتفوا به، ووجدوا في شعر النساء ليناً وضعفاً فلم يحفلوا به.

ولا ننسى أن الكتب الأولى للمختارات، وهي القصائد المطولة المسماة بالمعلقات ـ التي اختارها حماد الرواية المتوفى سنة ١٥٥ هـ ـ وجمهرة أشعار العرب للقرشي المتوفى سنة ١٧٠ هـ[2] والمفضليات للضبي المتوفى سنة ١٧٨ هـ[3]، والأصمعيات للأصمعي المتوفى سنة ٢١٦ هـ، كلها ليست خالية من شعر النساء فحسب بل من شعر المولدين أيضا. فكأن هؤلاء وجدوا في شعر المرأة رقة وسهولة فألحقوا شعرها بشعر المولدين.

---

(١) طبقات الشعراء ٢١٧.

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ٣/٣٦٤ ومقدمة الإلياذة للبستاني ١٧٢.

(٣) ذكر الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام وميزان الاعتدال، والحافظ الجزري في طبقات القراء أنه توفي ١٦٨هـ، وذكر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة أنه توفي ١٧١هـ وخطأهم أحمد شاكر وعبد السلام هارون ورجحا أنه توفي حوالي ١٧٨ (مقدمة شرح المفضليات ١/٢٣).

مراجع حافلة بشعرهن قديما بعد

ثم حفلت المراجع بشعر النساء فى الجاهلية والإسلام ، كالأغانى . بل لقد ألف المرزبانى كتابا فى ثلاثة أجزاء جمع فيه كثيرا من شعرهن سماه (أشعار النساء) لكن الموجود منه الجزء الثالث وحده[١] ، وقد ذكر ياقوت أن أشعار النساء للمرزبانى فى ستمائة صفحة[٢] . وللخرنق أخت طرفة ديوان مخطوط[٣] ثم طبع .

ولجنوب الهذلية ديوان ذكره صاحب كشف الظنون[٤] .

وللخنساء ديوان مخطوط ومطبوع[٥] ،

وجمع الأب لويس شيخو اليسوعى كثيراً من مراثى شواعر الجاهلية فى كتاب رياض الأدب فى مراثى شواعر العرب[٦] ، فى نحو مائة وستين صفحة ، اعتمد فيه على كثير من المراجع المطبوعة والمخطوطة كالأغانى ، والكامل لابن الأثير ، وكتاب القصيدة النورانية فى مناقب العدنانية مخطوط فى المكتبة الشرقية ، وكتاب الرقائق فى مجموعة الشعر الجاهلى الرائق ، والعمدة ، ومعجم البلدان ، والحماسة والمثل السائر ، وشرح ابن بدرون على قصيدة ابن زيدون ، وأمثال العرب للضبى والعقد الفريد ودرة الغواص الخ .

ثم ألف السيوطى كتاب (نزهة الجلساء فى أشعار النساء)[٧] ، وذكر فى مقدمته أنه جزء لطيف فى الشاعرات المحدثات دون المتقدمات من الجاهليات والمخضرمات ، فإن أولئك لا يُحْصَيْن كثرة ، حتى إن الطِّرِمّاح جمع كتابا فى

---

(١) أشعار النساء للمرزبانى مخطوط ٨ أدب ش　　(٢) معجم الأدباء ١٨/٢٦٩

(٣) ديوان خرنق مخطوط ٣٤ أدب ش ٥٦٨　　(٤) كشف الظنون ٣/٢٧١ ليبسيك

(٥) مخطوط بدار الكتب ٤٠ أدب ش والمطبوع أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء الأب لويس شيخو ١٨٩٦ م .

(٦) طبع فى بيروت ١٨٩٧ م　　(٧) مخطوط بمكتبة تيمور ٨١٣ شعر

أخبار النساء الشواعر من العربيات ، فجاء فى عدة مجلدات ، رأيت منها المجلد السادس ، وليس هو الأخير[١]

على أن كتب الأدب واللغة والتاريخ حافلة بقطوف من شعرهن كالأغانى ، وخزانة الأدب ، والعقد الفريد ، وعيون الأخبار ، وشرح مقامات الحريرى للشريشى ، ومعجم البلدان لياقوت ، ومعجم استعجم للبكرى ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، وتاريخ الطبرى ، وتاريخ ابن الأثير ، والمنظوم والمنثور لابن طيفور ، و بلاغات النساء لابن طيفور ، وأخبارالنساء لابن قيم الجوزية ، ومروج الذهب للمسعودى ، وتزيين الأسواق لداود الأنطاكى ، ووصف جزيرة العرب للهمدانى ، وجمهرة الأمثال لأبى هلال ، وحماسة البحترى ، وسيرة ابن هشام ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وخزانة الأدب للحموى ، وزهر الآداب للحصرى ، والكامل للمبرد ، والمؤتلف والمختلف للآمدى الخ .

شعر منحول للنساء :

١ — ليس بصحيح كل شعر عُزى إلى النساء ، فإن بعضه دخيل عليهن ، نحله بعض الناس إياهن ، ولقد يكون بعضه لشاعرة ويُنْحل أخرى ، وبعضه لشاعر وينحل شاعرة ، وبعضه من عمل الراوى أو المؤلف .

ومثل هذا حدث فى شعر الرجال ، فمثلا حدث أبو عبيدة أن قراد بن حنش المرى من شعراء غطفان ، كان قليل الشعر جيده ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبى سلمى ادعى هذه الأبيات :

إن الرزية لا رزية مثلها ما تبتغى غطفان حين أَضَلَّت[٢]

وحدث الأصمعى أن طفيلا الغنوى فى بعض شعره أشعر من امرئ القيس .

---

(١) نزهة الجلساء فى أشعار النساء مخطوط ص ٢

(٢) الموشح للمرزبانى ٧ :

وحدث الرياشي أن كثيراً من شعر امرىء القيس لصعاليك كانوا معه مثل عمرو ابن قميئة [(١)] . وكثيراً ما ذكر ابن سلام أن فى بعض مايروى نحلا وانتحالا[(٢)]. وفى الأغانى كثير من هذا كالأبيات التى قالها عمر بن أبى ربيعة أووالد أبى نهشل فى مدح هشام بن المغيرة ، ونسبت إلى عبد الله بن الزبعرى [(٣)] .

وقد نبه القدماء على كثير من هذا المنحول ، كقول عامر بن جُوَين فى غزله بهند بنت امرئ القيس بن حُجْر :

همت بنفسى كل الهموم   فأولى لنفسى أولى لهـــا

سأحمــل نفسى على آلة   فإما عليهــا وإما لهـــا

هكذا روى ابن أبى سعد عن دارم بن عقال . ومن الناس من يروى هذا للخنساء فى قصيدتها :

ألا ما لعينى ألا ما لها   لقد اخضــل الدمع سربالها[(٤)]

والبيتان فى ديوان الخنساء [(٥)] :

وقد ذكر ابن إسحاق أربع قصائد لهند بنت عتبة فى رثاء قتلى بدر ، وعلق عليها ابن هشام بأن أهل العلم بالشعر ينكرونها[(٦)] .

٢ — والخطب هنا سهل ؛ لأن دوافع النحل والانتحال فى شعر النساء أقل منها فى شعر الرجال . ومن السهل أن نرد بعض ما ألصق بهن من شعر دخيل ، معتمدين على سمات فيه لا تتفق وخصائصهن وأنوثتهن .

من ذلك ما نسبه البحترى إلى امرأة فى رثاء :

أقول لنفسى فى خفاء ألومها   لك الويل ما هذا التجلد والصبر ؟

---

(١) المرجع السابق ٣٤ و ٣٧ .

(٢) طبقات الشعراء ٣٢ و ٤٠ و ٤١ .

(٣) الأغانى ١/٦٣ .   (٤) الأغانى ٨/٦٩ .

(٥) نزهة الجلساء ٢٠٥ .

(٦) سيرة ابن هشام ٢/٤١٤ — ٤١٧ .

ألا تفهمين الخبرَ أن لست لاقياً أخى إذ أتى من دون أكفانه القبر[1]

. . . .

فكلمة « لاقياً » تدل على أن القائل رجل لا امرأة .

على أن أبا الفرج روى بعض أبيات هذه القصيدة لعلى بن عبد الله أخى جُعْفىّ[2] ، ورواها كلها أبوعلى القالى لسلمة بن يزيد فى رثاء أخيه لأمه قيس ابن سلمة[3] ، وكذلك رواها أبوتمام لسلمة الجُعْفىّ فى رثاء أخيه[4] .

ومن ذلك ما ذكره اليزيدى للخنساء[5] .

أنا باكٍ عليـــك للمعروف ولكرّ الكماة بين الصفوف

. . . .

ولو أنه للخنساء لقالت باكية ، على أن القصيدة ليست فى ديوانها .

كذلك ما ذكره الحصرى من قصيدة لامرأة ترثى طفلها ، وعدد أبياتها ثلاثة وثلاثون بيتاً ، فإن فيها أبياتا تدل على أن قائلها رجل لا امرأة ، مثل :

فـدعا لأنصره وكنت له من قبل ذلك حاضر النصر
لو قيـــل تفديه بذلت له مالى وما جَمَّعت من وَفْر
أو كنتُ مقتدراً على عمرى آثرته بالشطر من عمرى
قد كنت ذا فقر له فغـــدا ورمى علىَّ وقد رأى فقرى[6]

فكلمة حاضر ، وتفديه ، ومقتدر ، وذا ، دالة على ذكر لا أنثى . والدعوة إلى النصر إنما توجه إلى الأخ لا إلى الأخت .

ولقد يقدح فى نسبة الشعر إلى شواعر من العصر الجاهلى تهافت عبارته ، وضعف صياغته ، ونبوه عن الأسلوب العام لذلك العصر . من هذا الضرب كثير

---

(١) حماسة البحترى ٤٣١ (٢) الأغانى ١٠٦/٢١ (٣) الأمالى ٧٣/٢
(٤) شرح التبريزى للحماسة ٥٩/٣ (٥) مراث وأشعار مخطوط بمعهد المخطوطات ٩٤
(٦) زهر الآداب ٨/٢ على هامش العقد الفريد .

مما بالجزء الثانى من جمهرة أشعار العرب للقرشى[١] .

وأرجح أن هذا الجزء معزو إلى القرشى ، وليس من تأليفه . على أن به بعض القصائد المشهورة التى أجمع الأدباء على صحتها ، لـكنها مزيدة كثيراً ، مثل قصيدة جليلة أخت كليب[٢] .

ومن هذا الضرب ما روى أن أمامة بنت كليب ـ ولم يـكن لها من العمر إلا اثنتا عشرة سنة ـ دخلت على عمها المهلهل حين قتل أباها جساس وابن عمرو ابن الحارث ، فأخبرته بقتله ، وقيل إنها وجدته سكران ، فقالت له[٣] :

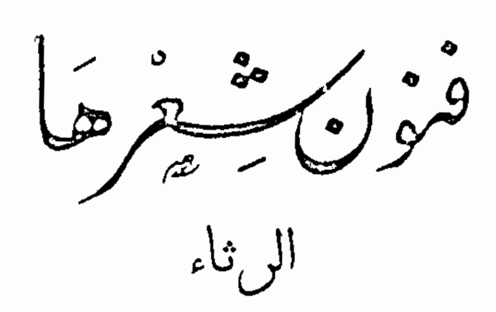
أتلهو بالمـــلاهى والخمور ولا تدرى بعاقبـــة الأمور
ولا تدرى بأن كليب أضحى قتيلا عند جساس الغدور
فوا عجباً لجســاس وعمرو لقد رميا أخاك بعنقفير[٤]
على ناب البسوس سراب أعنى يُبَجّ دمه سدى كدم البعير[٥]

فأسلوب هذه الأبيات ركيك سخيف ، وأغلاطها النحوية كثيرة ، وكلمة عنقفير ليست من أسلوب المرأة ولا من أسلوب فتاة فى الثامنة عشرة ، ثم إنه ليس بصحيح أن مهلهلا كان يجهل قتل أخيه حتى أخبرته ابنته .

على أنه مما يخالف طبائع الأشياء أن تعلم فتاة بمقتل أبيها ، ثم تدخل على عمها فتلقى عليه شعراً ، لأن الحادث مذهل ، لا تسعف فيه البديهة بشعر ، بل الطبيعى أن تولول وتصيح .

---

(١) مخطوط بمكتبة تيمور (٢) الجمهرة . الجزء الثانى ١٧٧
(٣) رياض الأدب ٦ (٤) عنقفير : داهية عظيمة
(٥) سراب : علم على ناقة البسوس .



الرثاء

أسلفت القول فى حب الأم لابنها ، والمرأة لزوجها ، والبنت لأبيها ، والأخت لأخيها ، والقريبة لقريبها ، وذكرت نماذج من رثائهن لهؤلاء .

والرثاء هو المجال الفسيح الذى تطلقت فيه عواطف المرأة ، لأنه نوع من النواح والبكاء ، وإن المرأة لتلجأ إلى دموعها أول ما تلجأ إذا حزبها الدهر أو كَرَبَها القضاء ، وإنها لتلتذ الحزن وتستديمه ، وتوالى البكاء وتستطيله ، وفاء وحسرة ، أو ضعفاً ورقة ، ثم تنفس عن نفسها إن كانت شاعرة بمقطوعات تسكب فيها لوعتها وحرقتها .

فهل كان لرثاء النساء خصائص تميزه من رثاء الرجال ؟

١ — الذى أحسسته فى مراثيهن أنهن يشدن بفضل المرثى من شجاعة وبطولة وكرم ونجدة وعفة الخ كما أشاد الرجال فى مراثيهم .

فمثلا ترثى الخنساء صخراً بالشجاعة فى قولها :

فمن للحرب إذ صارت كَلُوحا ... وشَمَّر مُشْعلوها للنهوض
وخيل قد دَلَفْتَ لها بأخرى ... كأن زهاءها سَنَدُ الحضيض
إذا ما القوم أحْرَبَهُمْ تَبُولٌ ... كذاك التَّبْلُ يُطلب كالقُروض
بكل مُهَنَّد عَضْب حُسام ... رقيق الحدِّ مصقول رَحِيض[1]

(١) ديوان الخنساء ١٥٨ سند الحضيض : أسفل الجبل حيث يكون أرسى وأصلب . أحربهم : هيجهم . الرحيض : المغسول وتريد به السيف الصقيل كان الماء يقطر منه لشدة صفائه زهاءها : منظرها .

وترثيه بالكرم ، و إغاثة الجار ، وإصلاح ذات البين ، والحلم فى قولها :

فمن لِقِرى الأضياف بعدك إن همُ فنـــاءك حلّو ثم نادوا فأسمَعُوا
كعهدك إذ أنت حىٌّ وإذْ لهم لديك مَنالاتٌ ورِىٌّ ومَشْبَع
ومن لهمّ ٍ حل بالجـــار فادحٍ وأمرٍ وَهَى من صاحب ليس يُرْقع
ومن لجليس مفحش لجليســه عليـــه بجهل جاهداً يتسرَّع
ولو كنتَ حيا كان إطفاء جهـله بحلمك فى رفق وحلمُك أسرع[(١)]

وهى فى رثائها لا تخرج عن وصف أحزانها ، وتعداد مناقب أخويها ، كما يعدد الرجال مناقب الرجال .

ولقد تعاظمت هى وهند بنت عتبة مصيبتيهما، وادعت كل منهما أنها أعظم بلوى ، فالخنساء تعاظم بأبيها عمرو بن الشَّريد وأخويها صخر ومعاوية ، وهند تعاظمها بأبيها عُتْبة وعمها شَيْبة وأخيها الوليد ، ولـكنهما فى هذه المفاخرة لم يخرجا على هذا السياج ، وإنما نوهتا بالمحامد المألوفة .

قالت الخنساء :

أبــكى أبى عمراً بعين غزيرة قليل إذا نام الخلىّ هجودُهـا
وصِنْوِى لا أنسى معاوية الذى له من سَراة الحرَّتين وفودها
وصخرا ومن ذا مثل صخر إذا غدا بساهمة الآطال قُبًّا يقودهـــا
فذلك يا هنـــد الرزية فاعلمى ونيرانُ حرب حين شب وقودها [(٢)]

فأجابتها هند بقولها :

---

(١) الديوان ١٥٩ الحى : جماعة القوم ، أى لو نشب الشر بين القوم لشملهم حلمه وتدارك جهلهم . وهذا على رواية ولو كان حيا . أما الرواية التى اخترتها (ولو كنت حيا) فمناها لو كنت ياصخر موجوداً لتداركت هذا الشر قبل استفحاله .

(٢) الأغانى ٤/٢١١ ومجمع الأمثال ٢/٢٠٥ الحرتين : حرة بنى سليم وحرة بنى هلال بالحجاز أى هو مقصد الأشراف من القبائل يأتونه فيما يلم بهم . ساهمة : دقيقة . الآطال الخواصر جمع إطل . قب : جمع أقب الفرس الدقيقة الخصر الضامرة البطن

أبكى عميدَ الأبطَحيْن كليهما   وحاميهما من كل باغ يريدها
أبي عتبةَ الخيراتِ ويحك فاعلمى   وشَيْبَةُ والحامى الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب   وفى العزّ منها حين يُنْمَى عديدها (١)

وقالت لها الخنساء أيضاً :

من حسَّ لى الأَخَوَيْـــنِ كالغصنين أو من راهما
أخوين كالصقرين لم   ير نـــاظر شَرْواهما
قَرْمَيْن لا يتظالمـــا   ن ولا يُرام حمـــاهما
أبكى على أخـــو   يَّ والقبر الذى واراهما
لا مثل كهلى فى الكهو   ل ولا فتى كفتـــاهما
رمحين خَطِّيَّـــين فى   كبد السماء سَـــناهما
ما خلَّفـــا إذ ودّعا   فى سُـــؤدَدٍ شَرْواهما
ســـادا بغير تكلف   عَفْواً بفَيْضٍ نـــداهما (٢)

والخنساء تنزع النزوع نفسه فى رثاء زوجها مرداس بن أبى عامر السُّلَمى ، فتشيد بعزيمته وشجاعته وقوته وتخليصه السبايا :

وفضَّل مرداساً على الناس فضلُهُ   وأنْ كل هَمٍّ هَمَّه فهو فاعـــله
وأن رُبَّ واد يكره القومُ هَبْطَه   هبطتَ ، وماء مَنْهَلٍ أنت ناهله
وسَبْى كآرام الصَّريم حويتَـــه   خلالَ رجال مستكين عواطله
متى ما تعادلْ ما جدا تعتدلْ به   كما عدل الميزانَ بالكف ثاقله (٣)

---

(١) الأغانى ٤/٢١٢ ومجمع الأمثال للميدانى ٢/٢٠٥ الأبطحين : مكة وسهل تهامة . عديدها : جموعها .

(٢) الديوان٢٥٦ والأغانى ٤/٢١٣ حس: أدرك . شرواهما: مثلهما. قرمان : سيدان. كهلى : تريد أخاها معاوية وكان بكر لإخوته . فتى . تريد صخرا وضمير فتاهما يعود إلى فرعى بنى سليم

(٣) ديون الخنساء ١٩٩ آرام : ظباء . الصريم : الرمل . ثاقله : وازنه .

وهذه النزعة نفسها محققة فى مرثية دُخْتَنوس[1] لأبيها لقيط بن زرارة :

بَكَرَ النعىُّ بخير خِنْدِفَ كهلها وشبابها
وبخيرها نسباً إذا رجعتْ إلى أنسابها
وقريعها ونجيبها فى الْمُطْبِقات ونابها
ورئيسها عند الملو ك وزَيْن يوم خطابها
فيمُولها ويحُوطها ويذبُّ عن أحسابها
ويطا مواطنَ للعدو كان لا يُمْشَى بها
فِعلَ المدلِّ من الأسو د لحَيْنها وتَبابها[2].

وفى رثاء خِرْنق لزوجها وأبنائها الثلاثة :

لا يبعَدَنْ قومى الذين هُمُ سمُّ العُداة وآفة الْجزْرِ
النازلون بكل معترك والطيبون معاقد الأزْر
والخالطون نَحيتَهُمْ بنُضارهم وذوى الغنى منهم بذى الفقر
إن يشربوا يَهَبُوا وإن يذروا يتواعظوا عن منطق الهُجْر
قوم إذا ركبوا سمعت لهم لَغطاً من التَّأْويه والزَّجْر
هذا ثنائى ما بقيتُ عليهم فإذا هلكت يجنُّنى قبرى[3]

وكذلك فى رثاء الفارعة بنت معاوية[4] ، وسارَّة القُرَظية لقومها[5] .

---

(١) قال فى تاج العروس ١٤٧/٤ أصله دخترنوش بضم التاء والنون أى بنت الهنى. سماها أبوها باسم بنت كسرى وقلبت السين شينا لما عربت . وقال أيضاً دخدنوس وتختنوس بفتح الدالين فى الأولى والتاءين فى الثانية (٢) الأغانى ٣٩/١٠ والكامل لابن الأثير ٢٤٤/١ والمنظوم والمنثور لابن أبى طاهر ٢١ بكر: أتى باكراً . قريعها :سيدها . المطبقات : الشدائد وسنوات الجدب . كان لا يمشى بها : يتعقب العدو فى أماكن لم يطأها من قبل أو لم توطأ . المدل : الجرىء الواثق بقوته ، أى أنه خاطر وفعل فعل الأسد الذى يعود عليه إقدامه بالحتف.
(٣) ديوان خرنق ٣ والأمالى ١٥٨/٢ وأشعار النساء المرزبانى . الهجر : الفحش ـ اللغط : الجلبة . التأييه : الصوت والصياح . النحيت : المنحوت الفقير .
(٤) أشعار النساء المرزبانى ٢٢ مخطوط (٥) معجم البلدان ٢٤٣/٢

وخريق لآلها[١] ، ودختنوس لزوجها عمير بن معبد بن زرارة[٢] .

وهذا الاتجاه نفسه غالب فى شاعرات العصر الإسلامى والعباسى ، فمثلا عاتكة بنت عمرو بن نُفَيْل رثت زوجها الزبير بن العوام ، وأشادت ببطولته وشجاعته فى قولها :

غدر ابن جُرْموز بفارس بُهْمَةٍ ... يوم اللقاء وكان غير مُعَرِّدِ

يا عمرو لو نبهته لوجدته ... لا طائشاً رَعِشَ الجَنَانِ ولا اليد

كم غمرة قد خاضها لم يثنه ... عنها طِرادك يابن فَقْعِ القَرْدَدِ

ثكلتك أمك إن ظفرتَ بمثله ... فيما مضى ممن يروح ويَغْتدى[٣]

وكذلك فعلت ليلى الأخيلية فى رثاء توبة بن الحُمَيِّر[٤] ، وزينب بنت الطَّثَرِيَّة فى رثاء أخيها يزيد[٥] ، وليلى بنت طريف فى رثاء أخيها الوليد بن طريف الشارى[٦] :

وهؤلاء وأولئك — ما عدا الخنساء فى بعض مراثيها — لم يُجِدْن تشقيق المقال فى وصف ما تعتلج به قلوبهن من اللوعة والأسى .

ثم إن المرأة فى رثائها لابنها مثلا لم تتحدث عما كانت تؤمله فيه ، أو عما كانت تتشوف إليه من أن يشب ويكبر فتُحْبَر به وببنيه ، ولم تتحدث زوجة عن دماثة زوجها ، وحسن عشرته لها ، وعطفه عليها ، ووفائه لها .

---

(١) ديوان خرنق مخطوط والحماسة البصرية ٩٥ مخطوط

(٢) الشعر والشعراء ٢٧٢ (٣) حسن الصحابة فى شرح أشعار الصحابة ١/٢٩٤ والحماسة البصرية ٨٤ مخطوط . ابن جرموز : عمرو بن جرموز التميمى قتل الزبير غيلة بوادى السباع فى عودته من وقعة الجمل . فارس بهمة : فارس جيش والمراد الزبير . إن ظفرت : ماظفرت . فقع القردد : الفقع البيضاء الرخوة من الكمأة ، والقردد : ما ارتفع من الأرض . والمراد وصف أبيه بالذلة لأن هذا الفقع يوطأ بالأرجل ولا يمتنع على من يجتنيه

(٤) حماسة البحترى ٤٢٣ و ٤٢٤ و ٤٢٦ وزهر الآداب ٤/٧٢

(٥) حماسة البحترى ٤٣٣ وبلاغات النساء ١٩٣

(٦) حماسة البحترى ٤٣٥ والأغانى ١١/١١ و ١١/٩

أفكان مردّ هذا إلى معجزة بيانية ؟

لا ، لأن القدرة التى أسعفتهن بالإشادة بالمحامد كفيلة أن تسعفهن بتصوير ذلك .

وأرجح أن محاكاتهن للرجال فى رثائهم وفى إشادتهم بفضائل المرثى ، وأن ضيق أفق خيالهن ، وعجزهن عن تصوير حزنهن ، والتعبير عن مشاعرهن بحيث يشركن الآخرين والأخريات معهن فيما يشعرن به ، هى السبب فيما نرى من شبه رثائهن برثاء الرجال ، وفيما نرى فى مراثيهن من احتباس على ذكر المحامد العامة ، حتى إننا قلما نستطيع أن نميز رثاء امرأة من رثاء رجل ، وقلما نجد فى مراثيهن ملامح ناطقة وسمات كاشفة تنبع من الأنوثة ، وتعبر عن عواطف الإناث .

وفى الحق إنهن أشجى من الرجال قلوبا عند الفجيعة ، وأشد منهم حزنا ، وأعظم لوعة ؛ لأنهن أضعف احتمالا ، وقلوبهن أسرع انخلاعا ، وإذا كان ذلك صحيحاً فلماذا لم تجىء مراثيهن أشد حرارة وأقوى تأثيراً ؟

سبب ذلك أن الانفعالات والعواطف كالطرب والغضب والحزن والفرح لا يتفجر منها الشعر ساعة احتدامها « لأن الانفعال القوى يعقد اللسان ، ويشل التفكير ، ويشغل عما عداه . فالشاعر لا يقول الشعر إلا بعد أن يصحو من شرابه ، وبعد أن يهدأ من غضبه ، إذ تصفو قريحته ، ويستطيع الخلق ، وقد استقرت انفعالاته رواسب عقلية محتفظة بحرارة الشعور الكامنة ، وإذاً فهو لا يقول إلا عن روية »[1]

والنساء يفثأن حزنهن بالدموع الغزار الحرار ، وبالآهات والأنات والعويل وبالصمت الحزين والاستغراق الأليم والذكرى الموجعة ، فإذا ما عمدن إلى

(١) النقد المنهجى عند العرب . مندور ٢٥

القريض مُتَنَحْن من عاطفة قد تنفست ، وأوَيْن إلى لغة كان البكاء والنشيج، والدمع السخين أطوع منها وأصدق تعبيراً .

٢ — وفى كثير من مراثى الشواعر تصوير لما أصابهن من ذلة وضعف بعد فقد من فقدن ، كقول فاطمة بنت الأحجم الخزاعية فى رثاء أبيها :

قد كنتَ لى جبلا ألوذ به ... فتركتنى أضْحَى بأجْرَدَ ضاح

قد كنتُ ذاتَ حمية ما عشتَ لى ... أمشى البَرَازَ وكنت أنتَ جَناحى

فاليوم أخضع للذليل وأتَّقى ... منه وأدفع ظالمى بالراح

وإذا دعتْ قمرية شَجِباً لها ... يوما على فَنَن دعوتُ صباح

وأغضُّ من بصرى وأعلم أنه ... قد بان حدُّ فوارسى ورماحى[1]

وتعترف سلمى بنت حُرَيْث النضرية بالذلة فى رثائها زوجها زفر :

أصبحتُ نَهْباً لريْب الدهر صابرة ... للذل أُكْثِرُ تَحْنانا إلى زفر

إلى امرىء ماجد الآباء كان لنا ... حصنا حصيناً من الَّلأْواء والغير

كان العماد لنا فى كل حادثة ... تأتى بها نائبات الدهر والقَدَر[2]

وتعترف الخنساء بتضعضعها وحاجتها بعد صخر :

فقد خَلَّى أبو أوفى خِلالا ... علىَّ فكلها دخلَتْ شِعابى[3]

وتقول :

دَقَّ عظمى وهاض منى جَناحى ... هُلْكُ صخر فما أطيق بَراحا[4]

وليس لهذا أثارة فى رثاء الرجال وإن عظم حزنهم وأمضّهم الهمّ ، كمرثية متمم بن نويرة لأخيه مالك[5] ، ومرثية الأُبَيْرِد بن المعذَّر الرياحى.

---

(١) الأمالى ٢/١ وشرح الحماسة للتبريزى ٢/١٨٩ وتنبيهات الأمالى ٧٨ ورجح ماروى عن أبى العلاء أن الرواية الصحيحة (شجبا) أى فرخها الهالك وهو الهديل والشجب بفتح الجيم الهلاك وبكسرها الهالك

(٢) بلاغات النساء ١٨١

(٣) الديوان ١٤ أبو أوفى : كنية صخر

(٤) الديوان ٣٤

(٥) المفضليات ٢/٦٥ والأمالى لليزيدى ١٨ مخطوط

لأخيه بُرَيْد[1] ، ومرثية دُرَيْد ابن الصِّمة لأخيه عبد الله[2] ، ومراثى المهلهل لأخيه كُلَيْب[3] ، ورثاء أبى ذؤيب الهذلى لبنيه[4] ، ورثاء أبى زُبَيْد الطائى لابن أخته[5] ومرثية أوس بن حجر لَفضالة بن كَلَدَة[6] .

٣ — وهن أكثر من الرجال ذكرا للّوعة ، وأكثر حديثاً عن البكاء والدموع والوجيعة ؛ لأن ضعفهن وأنوثتهن وسرعة انفعالهن كل أولئك يتجلى فى تصويرهن للترح بالحديث عن البكاء ومخاطبة العيون والدموع ، حتى لتتسم مراثيهن بالنواح أكثر مما تتسم بغيره ، ونواحهن متشابه لا تمايز بينه ولا خلاف .

فمثلا تقول الخنساء :

تقول نساء شبتِ من غير كَبْرة ... وأيسرُ مما قــد لقيتُ يُشيب

أقول أبا حسان لا العيش طيب ... وكيف وقد أُفرِدْتُ منك يطيب؟

ذكرتك فاستعبرتُ والصدر كاظم ... على غصــة منها الفؤاد يذوب

لعمرى لقد أوهيتَ قلبى عن العزا ... وطأطأتَ رأسى والفؤاد كئيب

لقد قُصِمَتْ منى قناة صليبة ... ويُقْصَمُ عود النَّضْبِ وهو صليب[7]

فهى تتحدث عن شيبها قبل أوان الشيب ، وعن مرارة حياتها ، وعن دموعها وغصتها ، وحرقة فؤادها ، وعن عجزها عن التصبر ، وكآبة قلبها ، وطأطأة رأسها ، ثم عن فقدها سندها الذى كانت تعتمد عليه .

---

(١) مراث وأشعار لليزيدى مخطوط والأمالى ٣/٢

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٥٦ والأمالى لليزيدى ٣٥

(٣) الأمالى للقالى ٢/١٢٩ والأمالى لليزيدى ١١٦

(٤) حماسة الخالد بين ٣٨٧ مخطوط

(٥) الأمالى لليزيدى ٧ — ١٣

(٦) ديوان أوس بن حجر ٢٢

(٧) الديوان ١٥ النصب : العلم المنصوب أو عود النبع وهو شجر تتخذ منه القسى . أبو حسان : كنية لصخر .

وتقول أيضاً :

ألا ياعين فانهمرى بغَزْر   وفيضى فيضـةً من غير نَزْر
ولا تَعدى عزاء بعد صخر   فقد غُلبَ العزاء وعيل صبرى
لمَرْزِئَةٍ كأن الجوف منهـا   بُعَيْدَ النوم يُشْعَرُ حَرَّ جَمْر[1]

وتقول :

دق عظمى وهاض منى جناحى   هُلْكُ صخر فما أُطيق بَراحا[2]

وتقول فى توالى دموعها :

ألا ما لعينى ألا مالهـا   لقد اخضل الدمع سربالها[3]

وتقول أيضاً :

قذًى بعينك أم بالعين عُوَّار   أم أقفرتْ إذ خلتْ من أهلها الدار[4]

وإذا ما نضب دمعها ، ورقأت جفونها استمطرتها وحثتها على التسكاب :

ياعين مالك لا تبكين تسكابا   إذا راب دهر وكان الدهر ريَّابا[5]

وتقول :

يا عين جودى بدمع منك مسـكوب   كلؤلؤ جاء فى الأسمـاط مثقوب[6]

وكذلك تقول فاطمة بنت الأحجم الخزاعية :

يا عين جودى عنـد كل صباح   جودى بأربعة على الجَرَّاح[7]

وتقول صفية بنت مسافر فى بكاء أهل القَليب الذين أصيبوا يوم بدر من قريش :

يا من لعين قذاها عائرُ الرمد   حدَّ النهارِ وقرنُ الشمس لم يَقِد

---

(١) الديوان ٦٧ غزر : دمع غزير . نزر : قلة . عيل : غلب . مرزئة : مصيبة . يشعر : يلصق به   (٢) الديوان ٣٤ دق عظمى : هزل . ما أطيق براحا ، لا أستطيع التحول من مكان إلى آخر   (٣) الأغانى ٦٩/٨ والديوان ٢٠١
(٤) الأغانى ١٣١/١٣   (٥) ديوان الخنساء ١
(٦) الديوان ١٢   (٧) الحماسة البصرية ٩٥

. . . .

قومى صفىّ ولا تنسى قرابتهم وإن بكيتِ فما تبكين من بُعُدُ(١)

وتقول سليمى بنت المهلهل فى رثاء أخيها .

أعينىَّ جودا بالدموع السَّوافح على فارس الفرسان فى كل صافح

أعينى إن تَفْنَ الدموع فأوكفا دما بارفضاضٍ عند نَوْح النوائح

ألا تبـكيان المرتَجى عند كل مَشهد يثير مع الفرسان نقع الأباطح(٢)

أما الرجال فإنهم يتجلدون و يفاخرون بتجلدهم ، كأنَس بن مُدْرِكة الخثعمى، فى قوله :

كم من أخ لى كريم قد فُجِعْتُ به ثم بَقيتُ كأنى بعـده حجر

لا أستكين على ريب الزمان ولا أغضى على الأمر يأتى دونه العُذُرُ(٣)

وقول عمرو بن معد يكرب :

كم من أخ لى صـالح بوأته بيـدىَّ لحدا

ألبسـته أثوابه وخلقت يوم خُلقت جلدا

ما إن جَزِعْتُ ولا هَلَعت وما يردّ بـكاى زَنْدا(٤)

ونجد بعض الرجال يعرضون البـكاء عرضاً سريعاً عجلان ، كقول متمم، ابن نويرة فى رثاء أخيه مالك :

فعينىَّ هلا تبـكيان لمالك إذا أَذْرت الريحُ الـكنيفَ المرفَّعاً

أبى الصبرَ آياتٌ أراها وأننى أرى كل حَبْل بعد حبلك أَقْطعا

وأنى متى ما أدعُ باسمك لا تجبْ وكنتَ جديراً أن تجيب وتسمعا

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/١٧/٤ العائر : وجع العين .

(٢) مراثى شواعر العرب ١٨ صافح : ضارب بعرض السيف .

(٣) حماسة البحترى ١٩٢ (٤) حماسة البحترى ١٩٣ وشرح الحماسة للتبريزى ١/٩٢ .

وإنى وإن هازلْتِنِى قد أصابنى ... من الرزء ما يبكى الحزينَ المفجَّما (١)

وقول مهلهل فى رثاء كليب :

أبت عيناى بعدك أن تَـكُفّا ... كأن غضا القَتَاد لها شِـفار
كأنى إذ نعَى النـاعى كليبا ... تطاير بين جنبىّ الشَّرار
فدُرْتُ وقد عشا بصرى عليه ... كما دارت بشاربها العُقار (٢)

وأى فجيعة يفجع بها رجل أقسى من أن يفقد بنيه الثمانية ؟

لقد نزلت هذه الـكارثة بأبى ذؤيب الهذلى فلم يتضعضع كما تتضعضع المرأة ، لـكنه بكى وتحدث عن بكائه فى إيجاز ثم تجلد :

أودى بَنِىَّ فأعقبونى حسرة ... بعد الرقاد وعبرةً ما تقلع
سبقوا هَوَىَّ وأعْنَقُوا لهواهم ... فَتُخُرِّمُوا ولـكل جنب مصرع
فغبَرْتُ بعدهم بعيش ناصب ... وإخال أنى لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم ... وإذا المنية أقبلت لا تُدْفَع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيتَ كل تميمة لا تنفع
فالعين بعـدهم كأن جفونها ... سُمِلَتْ بشوك فهى عَوْرا تدمع
وتجلدى للشامتين أريهـم ... أنى لريب الدهر لا أتضعضع
ولقد أرى أن البـكاء سفاهة ... ولسوف يولع بالبكا من يُفْجَع (٣)

ولقد رثى الأبيْرد بن المعذَّر الرياحى أخاه بُرَيْدًا فتفجع وتوجع ، ولـكن فى رجولة كقوله :

تطاول ليـلى لم أنمه تقلباً ... كأن فراشى حال من دونه الجمر
أراقب من ليـل التَّمام نجومه ... لدن غاب قرْنُ الشمس حتى بدا الفجر

---

(١) الفضليات ٢/٦٧ و ٦٩ وجمهرة أشعار العرب ٢٩٢
(٢) أخبار المراقسه ٤٨ شفار : أى جفونها وأشفارها كشوك القتاد فلا تنطبق . عشا : من باب رضى ودعا أى عمى
(٣) جمهرة أشعار العرب للقرشى ٢٦٤

تذكرت عِلْقاً بانَ منا بنصره ونائلِهِ يا حبذا ذلك الذكر
فإن تكن الأيام فرقن بيننا فقد عذرتنا فى صحابته العُذْر
وكنت أرى هجراً فراقك ساعة ألاَ . لا . بل الموت التفرق والهجر
أحقاً عباد الله أن لست لاقيا بُرَيْداً طوال الدهر ما لألأ العُفْر ؟
فلما نعى الناعى بُرَيْدا تبدلت بى الأرض فرطَ الحزن وانقطع الظهر .
إلى الله أشكو فى بُرَيد مصيبتى وبثى وأحزانا يجيش بها الصدر[1]

٤ ـ ولقد يعبرن تعبيراً نسوياً يكثر دورانه على ألسنة النساء ، كقول الخنساء :

تعرّقنى الدهر نَهْساً وحَزّاً وأوجعنى الدهر قَرْعا وغمْزاً[2]

وكذلك تكرر كلمة (لهفى) فى قولها :

لهفى على صخر فإنى أرى له نوافل من معروفه قد تولت
لهفى على صخر لقد كان عصمة لمولاه إذ نعلٌ ، بمولاه زَلّتِ[3]

وفى قولها :

فيا لهفى عليه ولهف أمى أيصبح فى الضريح وفيه يمسى ؟[4]

وتعبر بكلمة (و يلى) :

ويلى عليه وويْلَتِى أصبحتُ حصنىَ مُنْكَسِر[5]

وتقول ناجية بنت ضَمْضَم المرية فى رثاء أخيها هرم :

يا لهف نفسى لهفة المفجوع ألاّ أرى هَرِمًا على مَوْدوع
من أجل سيدنا ومصرع جَنْبِهِ عَلِقَ الفؤاد بحنظل مَجْدوع[6]

---

(١) مراث وأشعار لليزيدى مخطوط ٨١٦ (٢) الديوان ١٤٣ وأمالى ابن الشجرى ١/٢١٥ نهساً : نهشاً . قرعا : ضربا على الرأس . غمزاً : نخساً باليد
(٣) الديوان ٢١ (٤) الديوان ١٥٣
(٥) الديوان ١٢٤ (٦) لسان العرب ١٠/٢٦٤ و الأغانى ١٦/٣٠ مودوع : اسم فرسه . حنظل مجدوع : حنظل وبيل وخم يميت .

٥ ـ وتصطبغ مراثيهن بوحدة الموضوع ، ولهذا تندر فيها الحكمة ، وتخلو من التمهيد .

على أن فى مراثى الرجال حكمة أحياناً ، وتمهيدا غزليا أحياناً أخرى[1] .
والحكمة التى فى رثاء الرجال متصلة بالموت وأحداث الدهر وفواجعه كقول أبى ذؤيب :

ولقد حَرَصْتُ بأن أدافع عنهم ... وإذا المنية أَنشَبَتْ أظفارها لا تُدْفَع
وإذا المنية أنشبت أظفارهـا ... ألفيت كل تميمـة لا تنفع
والنفس راغبة إذا رغّبتهـا ... وإذا تُرَدُّ إلى قليـل تقنع
والدهر لا يَبْقَى على حدثانه ... مستشعرٌ حلَقَ الحديد مقنَّع[2]

وقول أبى زُبَيْد الطائى فى رثاء ابن أخيه الجلاح :

إن طول الحياة غير سُعُـود ... وضلالٌ تأميل طولِ الخلود[3]

وقول الغنوى فى رثاء أخيه :

لعمر كما إن البعيد لمـا مضى ... وإن الذى يأتى غدا لقريب[4]

ولم أجد فى مراثيهن من الحكمة إلا قليلا جداً ، كقول عمرة أخت عمرو ذى الكلب فى رثائه :

كل امرىء بِمحال الدهر مكذوب ... وكل من غالب الأيام مغلوب
وكل قوم وإن عزوا وإن كثروا ... يوما طريقهم فى الشر دُعْبُوب
وكل من غالب الأيام من أحـد ... مُودٍ وتابِعهُ الشبان والشيب[5]

---

(١) الغزل فى العصر الجاهلى ٢٦٠

(٢) جمهرة أشعار العرب ٢٦٥ (٣) الأمالى لليزيدى ٧ مخطوط ، وجمهرة أشعار العرب ٢٨٦ (٤) جمهرة أشعار العرب ٢٧٤ وذكر القرشى أن اسمه محمد بن كعب وفى خزانة الأدب للبغدادى أن اسمه كعب بن سعد الغنوى ، وفى لسان العرب أن اسمه ابن سويد الغنوى (٥) حماسة البحترى ٤٢٩ ولسان العرب مادة دعب ورياض الأدب ٧٦ دعبوب : طريق مذلل موطوء مسلوك

وكذلك هذه الأبيات من رثاء سُعْدَى الْجُهَنية لأخيها أسعد بن الشَّمَرْدل :

ولقد بدالى قبلُ فيما قد مضى   وعلمت ذاك لو انَّ علماً ينفع
أنّ الحوادث والمنون كلاهما   لا يُعْتَبان ولو بكى من يجْزع
واقد علمت بأن كلّ مؤَخَّر   يوما سبيلَ الأولين سَيَتْبَع
ولقد علمت لو انّ علماً نافع   أنْ كل حى ذاهب فمودِّع[1]

وقول الخنساء :

أرى الدهر يرمى ما تطيش سهامه   وليس لمن قد غاله الدهر مرجع[2]

وأغلب الظن أن خلو مراثيهن من المقدمة الغزلية صدى لأنوثتهن ، فإن غزلهن - كما سيظهر - نادر ومستور .

أما ندرة الحكمة فى رثائهن فمرجعها إلى أنهن ينصرفن إلى النواح ، ويستغرقن فى الرثاء لا يلوين على غيره ، فلا يلحقن به سواه ، كما كان الرجال يفعلونه .

ولعل مرد ذلك أيضاً إلى أن المرأة تجنح إلى التخصيص ، والرجل يجنح إلى التعميم ، فنظرته شاملة ، ونظرتها جزئية ، ونظرته موضوعية مجردة ، ونظرتها فردية محددة ، لهذا لم تمد نظرها إلى ما وراء الفاجعة من عبر وعظات ومفارقات .

يقول بعض الباحثين إن المرأة بوجه عام « تجذب انتباهها حادثة مّا أكثر من فكرة مّا ، والرجال يهتمون بعلاقات الأشياء أكثر من اهتمامهم بالأشياء ذاتها . وهذا الرأى يتفق مع رأى جون ستيوارت مل ؛ لأنه رأى أن المرأة تفكر فى الأشياء على أنها جزئيات منفصل بعضها عن بعض ، ولا تفكر فيها على أنها مجموعات متصلة مترابطة[3] » .

ثم إن المرأة أقوى وأحدّ من الرجل عاطفة ، وعاطفة حزنها تتجلى فى هلعها

---

(١) لسان العرب ٩/١٠٩ و ٣٧٩ و١٣/٣٦٩ ورياض الأدب ١٣٢
(٢) الديوان ١٦٣   (٣) نفسية المراهق ٤٦ رياض عسكر

وجزعها وعويلها ونحيبها ، وصياحها برزئها . وليس هنا مجال للحكمة ، لأن الحكمة وليدة العقل والتفكير ،وهذه العاطفة الملتهبة تقضى على العقل والتفكير

* * *

وقد تزعمت الخنساء شواعر الجاهلية والإسلام فى الرثاء ، لكثرة ما رثت أخويها ، ولجودة مراثيها ، وحرارة عاطفتها . وقد أنشدت الخنساء النابغة بسوق عكاظ بعد أن أنشده الأعشى وحسان — وكانت له قبة حمراء تأتيه فيها الشعراء فتنشده — فقال لها : ما رأيت ذا مثانة أشعر منك . فقالت ولا ذا خصيتين[١].

وروى أنها أنشدته قصيدتها التى مطلعها :

قذى بعينيك أم بالعين عوار .

حتى انتهت إلى قولها :

وإن صخرا لتأتم الهداة به   كأنه علم فى رأســه نار
وإن صخرا لمولانا وسيدنا   وإن صخرا إذا نَشْتُو لنحّار

فقال لها : لولا أن أبا بصير ـ يريد الأعشى ـ أنشدنى آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، أنت والله أشعر من كل ذات مثانة . فغضب حسان وقال : والله لأنا أشعر منك ومنها ومن أبيك ومن جدك[٢]

ويظهر أن حسانا أراد فيما بعد أن يهون من حكم النابغة ، فقد روى عنه قوله : جئت نابغة بنى ذبيان فوجدت الخنساء حين قامت من عنده ، فأنشدته ، فقال إنك لشاعر ، وإن أخت بنى سُلَيْم لبكاءة[٣] .

وقد اعترف بعض القدماء للخنساء بإجادة الرثاء ، واعترفوا بقدرة بعض النساء .

---

(١) الشعر والشعراء ١/٣٠٢

(٢) الأغانى ٩/١٥٦ و ٨/١٨٨ وبلاغات النساء ١٦٩ وفى الشعر والشعراء ٣٠٢ أن حسانا غضب هذه الغضبة لما فضل النابغة الأعشى عليه . ومن معانى المثانة موضع الولد من الأنثى

(٣) الأغانى ٤/١٦٧

يقول أبو العباس : كانت الخنساء وليلى بائنتين فى أشعارها ، متقدمتين لأكثر الفحول ، ورب امرأة تتقدم فى صناعة ، وقلما يكون ذلك . ثم ذكر أن الجاحظ كان يُحْضِرُ ذهنه ، ويجمع نفسه حين تحدثه هاشمية جارية حمدونة ، مخافة أن تورد عليه مالا يفهمه ، لبعد غورها واقتدارها . وكان بشارٌ يقول ، لم تقل امرأة شعرا إلا تبين الضعف فيه فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال : تلك كان لها أربع خُصًى[1] . وقد ذكر ثعلب بيتاً لها فيما سماه الأبيات الغُرّ — واحدها أغرّ ، وهو ما نجم من صدر البيت بتمام معناه دون عجزه ، وكان لو طرح آخره لأغنى أوله بوضوح دلالته — وهو :

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار

وذكر لليلى الأخيلية بيتاً هو :

قوم رباط الخيل حول بيوتهم ... وأسنة زرق يُخَلْنَ نجوما[2]

وبعد فإن رثاء المرأة لابنها وزوجها وأبيها وأخيها وقومها « دليل على سمو خلقها وعلو مكانتها عند العرب فى الجاهلية ، لأنها فى نظرهم جديرة برثاء الموتى والإشادة بفضلهم[3] .

---

(١) تهذيب الكامل ٢/١٩٠

(٢) قواعد الشعر لثعلب ٣١

(٣) Nicholson.P. 89

التحميس على القتال وعلى الثأر

١ — عاش العرب في حروب تتوالد، وغارات تتوالى، فكثر فيهم القتل والجرح والأسر والغنم، وطبعى أن يَجِدَ المهزوم على هازمه، وكانت نار موجدته لا تنطفىء إلا بأن يثأر لنفسه. لهذا كان العرب كلفين بالثأر أيما كلف، يحرمون اللذات من خمر ونساء وطيب حتى يدركوا وترهم، وإن كان الواتر قريباً.

وكانت النساء دائبات على إشعال الحفيظة للثأر، وكن لا يفترن عن تذكير الرجال به، وحضهم عليه بوسائل شتى.

ولعل الرجال لم يكونوا بحاجة إلى هذا الحض، وإنما أرادت النساء أن يشركوهم في التلهف على إدراك الثأر، والتشوف لغسل الدم ومحو العار؛ لأن المنفعل في حاجة إلى أن يشعر بمشاركة غيره له في انفعاله، ولا تشذ عواطف العداوة عن هذا، « فنحن نحرص الحرص كله على استمالة الآخرين إلينا في غضبنا وفي كراهيتنا، ولا ترضى هاتان العاطفتان إلا إذا قام حكم غيرنا على صدق الدافع إلى الغضب والكراهية، ونحن لا نمل البرهنة على وجاهة الأسباب التي دفعت إلى البغض أو الكراهية، ومعنى هذا أننا لا نمل من محاولة إقناع الآخرين بأنه لابد أن يشعروا بما نشعر به[1] ».

٢ — وقد قلن شعراً في التحريض على الحرب وتشجيع المقاتلين كما سبق في الحروب. وقلن شعراً يحرضن به على الثأر كما سبق في المرأة والثأر.

وكن يزدرين الدية وقابل الدية، تقول امرأة من ضبة لقومها: ارفضوا الدية، وأذيقوا خصومكم سلاحكم، فإن لم تفعلوا وتثأروا فلا حابت نوقكم لبناً:

ألا لا تأخذوا لُبْنا ولكن ... أذيقوا قومكم حَدَّ السلاح

فإن لم تثأروا عمرا بزيد ... فلا درّتْ لبونُ بنى رَباح[2]

---

(١) مقدمة في علم النفس الاجتماعي ٢٢٨ (٢) حماسة البحتري ٣٢ اللبن: جمع لبون، وهى الناقة ذات اللبن.

وقد حرضت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب الزبيدية قومها على الثأر لأخيها عبد الله حين هم أخوها عمرو بقبول الدية ، أو حين توهمت أنه سيقبلها، فتحدثت بلسان القتيل مهتاجة حميتهم ، ناهية عن قبول الدية وعن طاعة عمرو ، منددة بهم إن لم يثأروا ، مشبهة إياهم بالنعام فى جبنه وفراره ، ثم قالت لهم : وحينئذ أنتم أذل الناس ، فلا تردوا الماء إلا بعد أن تفرغ طوائف الرجال والنساء الطاهرات ثم الحيَّض :

وأرسل عبد الله إذ حان يومه ... إلى قومه : لا تَعْقِلُوا لهمُ دمى
ولا تأخذوا منهم إفَالاً وأبكُراً ... وأترك فى بيت بصَعْدَةَ مُظْلِم
ودع عنك عمراً إن عمراً مسالم ... وهل بطنُ عمروٍ غيرُ شبرٍ لمطعم ؟
فإن أنتم لم تثأروا واتَّدَيْتُمُ ... فمُشُّوا بآذان النعـام المصَلَّمِ
ولا تَرِدُوا إلا فُضُول نسائكم ... إذا ارتملَتْ أعقابهن من الدم[1]

وبمثل ذلك حرضت بنت حكيم العبدية قومها[2] .

وكثيراً ما حرضت الخنساء على الثأر لأخيها صخر كقولها :

ولن أسالم قوما كنتَ حربهم ... حتى تعود بياضا جُؤْنَةُ القار
لا نوم حتى تعود الخيل عابسة ... يَنْبِذْنَ طَرْحا بمُهْرات وأمهار
أو تَحْفِزوا حفْزَةً والموت مكتنعٌ ... عند البيوت حُصَيْنًا وابنَ سيَّار

---

(١) شرح التبريزى للحماسة ١/١١٧ وحماسة البحترى ٣٠ والأمالى ٢/٢٢٦ وأساس البلاغة . مادة رمل . قال التبريزى : « مشوا أى امشوا ، ومن روى مشوا بضم الميم فمعناه امسحوا . والمعنى إن لم تقتلوا قاتلى وقبلتم ديتى فامشوا أذلاء بآذان مجدعة كآذان النعام . ووصف النعام بالمصلم تصغيراً لها وإن كانت خلقة . يقول كأنكم مما تعيرون ليست لكم آذان تسمعون بها فامشوا صماً عما يتكلم به الناس من عيبكم . وفى لسان العرب رواية بفتح الميم ورواية بضمها . قال : والظليم مصلم الأذنين وصف بذلك لصغرهما وقصرهما . فإذا أطلق على الناس فإنما يراد به الذليل المهان» (اللسان مادة صلم ومش) ولا شك أن فتح الميم أولى ارتملت : تلطخت بالدم

(٢) حماسة البحترى ٣٥

فتغسلوا عنكمُ عاراً بجلّلكم غَسْلَ العوارك حيضاً بعد أطهار[1]

٣ — ولقد كان تحريضها مستجاباً دائماً ؛ لأنه صادف هوى من نفوس الثائرين ، ولأنه حث من المرأة على الشجاعة وهى طبيعة فى العرب ، ثم هم تواقون إلى أن يحققوا أمل المرأة فى شجاعتهم . فلقد حرضت كَنْزَة أم شملة بن بُرْد المنقرى ولدها شملة على الثأر بقولها : إنى واثقة من شجاعة ابنى وثأره من خصومنا، فاستجاب لها وثأر :

إن يك ظنى صادقا وهو صادقى بشَمْلَةَ يحبسهمْ بها مَحْبساً أَزْلا
فيا شمل شَمِّرْ واطلب القوم بالذى أُصِبْتَ ولاتقبل منهم قصاصاً ولا عَقْلا

وقالت أيضاً :

لهفى على القوم الذين تجمعوا بذى السِّيد لم يلقوا عليا ولا عمرا
فإن يك ظنى صادقى وهو صادقى بشملة يحبسهم بها مَحْبساً وعرا[2]

٤ — وإذا ما هزم قومها قرعتهم ، قالت امرأة من غامد لما هزم ربيعة ابن مُكَدَّم جمعَ غامد وحده :

ألا هل أتاها على نَأْيِها بما فَضَحَتْ قومَها غامدُ ؟
تمنيتم مائتى فارس فردكم فارس واحد
فليت لنا بارتباط الخيول ضأناً لها حالبٌ قاعد[3]

٥ — ولقد تهدد أعداءها وتتوعدهم بالغارة ، كقول امرأة من بنى عامر :

وحرب يضج القوم من نَفَيانها ضجيج الجمال الجِلّةِ الدَّبِرات
سيتركها قوم ويَصْلى بحرها بنو نسوة للثكل مصطبرات

---

(١) ديوان الخنساء ١١٢ جؤنة : سواد . تحفزوا : تطعنوا . مكتنع : دان . حصين ابن ضمضم ومنصور بن سيار المريين . العوارك : الحوائض .

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١١٨ . أزلا : سجناً دائما . لاتقبل قصاصا : لاتقبل واحداً بواحد . العقل : الدية . السيد : اسم موضع (٣) البيان والتبيين ١/٢٠٨

فإن يك ظنى صادقا وهو صادق ... بكم وبأحلام لكم صَفِرات
تُعدْ فيكمُ جَزْرَ الجزور رماحُنا ... ويمسكن بالأكباد منكسرات[١]

٦ — ولقد تشيد بمن يشفى حتفها فيثأر لها ، كما شادت الخنساء بقيس ابن عامر الجشمى إذ قتل هاشم بن حرملة الذى قتل أخاها معاوية ، فمدحته وفدته بنفسها وبأعرابها جميعاً و ببنى سُلَيْم كلهم ظاعنهم ومقيمهم ، وذلك لأنه أقرّ عينها فذاقت النوم بعد الأرق الطويل :

فدًى للفارس الُجشَمىِّ نفسى ... أُفَدّيه بمَنْ لى من حَميم
أفديه بكل بنى سُلَيْم ... بظاعنهم وبالأَنَس المقيم
كما من هاشم أقررتَ عينى ... وكانت لا تنامُ ولا تنيم
خصصتُ بها أخا الأمرار قيساً ... فتى فى بيت مكرمة كريم[٢]

وكن يشفين بالثأر ، ويجدن فيه تضميداً لجراحهن . تقول الخنساء لعامر الجشمى :

كما من هاشم أقررتَ عينى ... وكانت لا تنام ولا تنيم[٣]

وتتحدث صفية بنت الخُزع عن جُبْرتها بقتل عبد يغوث ثأرا للنعمان ابن جسّاس :

لقد أخذنا شفاء النفس لو شُفِيَتْ ... وما قتلنا به إلا امرأ دونه[٤]

وكذلك تتحدث خِرْنِق إذ نكل قومها ببنى أسد ، وثأروا لزوجها بِشْر :

فقد قُطِعَتْ رءوس بنى قُعَيْن ... وقد نُقِعَتْ صدور من شراب[٥]

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٣٢ وأشعار النساء للمرزبانى . نفيانها : المراد ما يتطاير من دمائها . الجلة : المسنة . الدبرات : جمع دبرة وهى التى بها قرحة . أحلام صفرات : عقول ضعيفة وهذا تهديد لهم وتوعد . تقول إن صدق ظنى فى فساد عقولكم وعدتم لما نكره عادت رماحنا تقتلكم فى سرعة وتصيب مقاتلكم وأكبادكم .

(٢) ديوان الخنساء ٢٣١ وبلاغات النساء ١٦٧ والأغانى ١٣/١٤٠ ولسان العرب ١٦/٧٨ .

(٣) الديوان ٢٣١ (٤) الأغانى ١٥/٧٣

(٥) ديوان الخرنق ٧ مخطوط

٧ — أما الرجال فكانوا يتهددون الأعداء بالثأر ، ولا يدعون غيرهم إليه غالباً ، بَيْنا كانت النساء فى الغالب محرضات لرجالهن محمسات ، يكلن إليهم تحقيق الثأر ، لأنهم عليه أقدر .

فمثلا يقول المهلهل فى رثاء كليب :

خذ العهد الأكيد علىّ عمرى بتركى كلّ ما حوت الديار
وهجرى الغانيات وشرب كأسٍ ولُبْسى جُبَّــةً لا تستعار
ولست بخالع درعى وسيفى إلى أن يخلع الليلَ النهار
وإلا أن تبيــــد سَراة بكر فلا يَبْقَى لها أبداً أثار[1]

فهو يحرم على نفسه كل طيب ، ويهجر الغوانى والخمر ، ولا يغير ملبسه ، ولا يخلع درعه أو يلقى سيفه حتى يثأر ثأراً يشفى .

ويقول دريد بن الصِّمَّة :

شُلَّتْ يمينى ولم أشرب معتَّقةً إن أخطأ الموت أسماءَ بنَ زِنْباع

وكان عصمة بن حدرة اليربوعى قد نذر ألا يطعم لحماً ، ولا يشرب خمراً ، ولا يمس امرأة ، ولا يغتسل حتى يقتل من عبس سبعين رجلا بابن عم له ، فلما قتلهم قال :

الله قد أمكننى من عبس صاغ شرابى وشفيت نفسى
وكنت لا أقرب طُهْرَ عِرْسى وكنت لا أشرب فضل الكأس
ولا أشد بالوِخاف رأسى[2]

وهذا الاتجاه فى شعر الرجال مثل امرىء القيس[3] ، وتأبط شراً[4] ، والمثلم ابن عمرو التنوخى[5] ، وزيادة الحارثى[6] .

---

(١) أخبار المراقسة وأشعارهم ٤٩ وشعراء النصرانية ١٦٤ (٢) معجم الشعراء للمرزبانى ٢٧٤ الوخاف : الخطمى يغسل به الرأس (٣) الديوان ١٥٢ وشعراء النصرانية ٩٣ (٤) شرح التبريزى للحماسة ٢/١٦٠ (٥) المؤتلف والمختلف ١٨١ وشرح التبريزى للحماسة ٢/١٨ (٦) شرح التبريزى ١/١٣٠

٣ – الهجاء

١ – كان الهجاء فناً شعرياً عظيم القيمة والخطر فى الحياة الجاهلية ، لأنه حرب لسانية لا بد منها مع حرب الرمح والسنان ، تسبقها آنا وتمهدلها ، وتصاحبها آنا فتؤجج أوارها ، وتلحقها حيناً فتزيد الخزاية والنكال . وقد كان إلقاء الهجاء يصحب أحياناً بمظهر خاص للشاعر ينبيء عن الشر والغضب ، كأن يجمع شعر رأسه فى ناحية ، أو يدلى عباءته فى غير اتساق وانتظام، أو ينتعل قدماً واحدة ، و يترك الأخرى ، كما فعل لبيد بن ربيعة العامرى حين هجا الربيع بن زياد العبسى فى مجلس النعمان بن المنذر[١] .

وكذلك كان الهجاء عند الأمم الأخرى عظيم الأثر أيضاً ، حتى لقد تنسب إلى الشعراء الأقدمين قوة مخوفة تتلخص فى كلمة الهجاء La satire ، وهذه الكلمة لا تثير فى أذهاننا نحن المتحضرين غير فكرة أنه تمرين أدبى عدا عليه الزمن بعض الشيء ، ولكنه كان فى وقت ما يتقمصه ساحر ، وكانت لعنته فادحة تصيب من توجه إليهم . ونحن نعرف ما كان لأهاجى أرشيلوك من نتائج ، فهذا العاشق المطرود قد استطاع بقصائده الهجائية أن يلقى اليأس فى قلب والد معشوقته ، وأن يقوده إلى الانتحار ، وأقصى من ذلك أنه استطاع أن يفعل مثل هذا مع الفتاة نفسها .

ورواة هذه القصة يحكونها على أنها أسطورة تشيد بموهبة أرشيلوك لا بخلقه ، ولكن ليس من العدل أن نعتقد ذلك ، بل يجب أن نأخذها بنصها وحرفها ، فالحق أن أرشيلوك قضى بالموت على لكمبيس **L'ycambés** ونيو بوليه **Néobule** إذ قذفهما بلعنة سحرية لم يستطيعا منها خلاصاً . وإن الشاعر الهجاء لم ينفصل

---

(١) أمالى المرتضى ١/١٣٥

عن الساحر الآثم إلا فى العصور المتأخرة بفضل تقدم المدنية . وقد ظل الناس فى كثير من الأقطار حيناً طويلا لا يميزون بينهما[(١)] .

ولكن لم يرد عن العرب أنهم أضفوا على الشاعر الهجاء خصائص الساحر أو خصائص الكاهن كما ذهب نيكلسون فى قوله : « وكانوا يعتقدون أن الهجاء الذى يوجهه الشاعر للأعداء شديد الأثر والخطورة ، وكان لقوافيه التى تشبه بالرماح الأثر الذى للعنة التى يرسلها نبى أو قسيس ماهر[(٢)] » .

٢ — وقد شاركت النساء فى الهجاء على ندرة وإيجاز ، وتخلف قاصٍ عن الرجال .

وكان الباعث عليه إما ردّا على مثله ، وإما ضيقاً بعمل ، أو بغضة لشخص .

فمثلا لما خطب دريد بن الصمة الخنساء ، ورفضته قائلة : ما كنت لأدع بنى عمى وهم مثل عوالى الرماح وأتزوج شيخاً ، وسخط عليها وهجاها بقوله :

وقاك الله يا بنــة آل عمرو ... من الفتيان أشباهى ونفسى

وقالت إننى شيخ كبير ... وما نبأتها أنى ابن أمس

فلا تلدى ولا ينكحْك مثلى ... إذا ما ليــلةٌ طرَقتْ بنحس

تريد شرَنْبثَ القدمين شَثْناً ... يباشر بالعشية كل كِرْسِ

فأجابته بقولها :

معاذ الله ينــكحنى حَبَرْكَى ... قصير الشِّبْر من جُشَمَ بن بكر

يرى شرفاً ومكرمة أتاهــا ... إذاً أغْذَى الجليسَ جَرِيمَ تَمْر

ولو أصبحتُ فى جُشَم هديّا ... إذاً أصبحتُ فى دَنَس وفقر

قُبَيِّلَةٌ إذا سمعوا بذعر ... تَخَنَّى جمعُهم فى كل جحر[(٣)]

(١) اللغة . ج فندريس ٢٣٨ ترجمة الدواخلى والقصاص .

(٢) Nicholson P. 78 (٣) الديوان ١٢٠ والأغانى ٣٠/١٣ ولسان العرب ٢٩/١٢ والأمالى ١٦٢/٢ طرقت بنحس : جاءت بظلمة وغبرة والمراد إذا حدثت حرب . شرنبث : غليظ الكفين أو الأصابع . الكرس : البعر والبول المتجمد . حبركى : طويل الظهر قصير الرجلين أو ضعيفهما يكاد يكون مقعدا . القصير الشبر : المتقارب الخطو . جريم : تمر يابس . شثن : غليظ

فرمته بضعف الجسد ، و بطء المشية ، والشيخوخة ، و بالبخل ، ورمت قبيلته بالجبن . وفى الأغانى رواية أخرى[١] أنها رفضته وقالت لأبيها :

أتخطبنى هبلتَ على دريد ... وقد أطْرَدْتُ سيد آل بدر

معاذ الله . . . . . . الأبيات

وفى الديوان وفى الأمالى أنها قالت هذا القول لأخيها معاوية، وكان يريد أن يكرهها على زواج دريد[٢] . ولكننى أرجح أن دريداً هو الذى بدأها بالهجاء ، وأوثر الرواية الأولى لأبى الفرج ، لأن دريداً قد تغزل بها وتمناها، فكان حسبها أن تقنع برده ورفضه ، وليس هناك باعث على الهجاء ، فلما هجاها هجته . ثم إنها كانت لا تهجو إلا من يستحق هجاءها ، رُوى أن حساناً قال لها يوماً : اهجى قيس بن الخطيم . فقالت : لا أهجو أحداً أبداً حتى أراه . فجاءته فوجدته فى مشرفة ملتفاً فى كساء ، فنخسته برجلها ، وقالت: أدبر ، فأدبر ، ثم قالت : أقبل ، فأقبل ، وكأنها تعرض عبداً تشتريه ، ثم عاد إلى حاله نائماً ، فقالت : والله لا أهجو هذا أبداً[٣] . وهذه الرواية على ما فيها من مبالغة تكشف عن طبيعة الخنساء أنها كانت لا تبدأ بالهجوم ، ولا تهجو إلا من يستحق هجاءها .

وقد استشاط حزن دختنوس على أبيها لقيط بن زرارة إذ قتل فى يوم شِعْب جبلة ، وكان لواء الرباب ذلك اليوم مع رجل من أشراف الرباب يقال له النعمان ابن قَهْوَس التميمى ، وكان من فرسان العرب ، ففر وترك لقيطاً فقتل ، فهجته دختنوس بقولها :

فرّ ابن قَهْوَسٍ الشجا ... ع بكفه رمح مِتَلُّ

يَعْدُو به خاظِى البضيع ... كأنه سِمْعٌ أزَلُّ

إنك من تيم فدع ... غطفان إن ساروا وحلوا

(١) الأغانى ٩/ ١١

(٢) الديوان ١١٩ والأمالى ٢/ ١٦١ (٣) الأغانى ٣/ ١٠

لا منك عِزُّهُمُ ولا آباكَ إن هلكوا وذلوا
فَخرَ البغيّ بحِدْجِ ربّتها إذا الناس استقلوا
لا حِدْجَها ركبتْ ولا لرَغَالِ فيه مُسْتَظَلُّ
ولقد رأيتُ أباكَ وسْطَ القوم يَبْزُو أو يَجُلُّ
متقلدا رِبْقَ الفُرا ر كأنه فى الجِيد غُل[1]

فتهكمت به إذ وصفته بالشجاعة ، وهجته بالجبن والفرار السريع ، ثم حقرت من شأنه بأنه من تيم فلا يجدر أن يلتحق بغطفان ، وقالت له إن فخره وفخر قومه بغطفان كالأمة التى تفخر بسيدتها لا بنفسها ، ثم عيرته حقارة أبيه ، فقالت : إنها رأته جبانا يخضع ويخنع ، ويجمع البعر ، وإنه لا يصلح إلا لرعى الغنم حين يضع حبالها فى عنقه كالغل ، فهو عبد حقير .

وكذلك هجت الخرنق عبد عمرو بن بشر حين وشى بأخيها طرفة إلى عمرو ابن هند فقتله[2] ، ومن هجائها قولها :

ألا ثكلتك أمك عبدَ عمرو أبا لخَزَيات واخيتَ الملوكا؟
هم ركلوكَ للوركين ركْلا ولو سألوكَ أعطيت البُروكا
فيوما عند زانية هَلُوكٍ كصلِّ الرَّجْعِ مِزْهَرُها ضحوكا[3]

فهى تدعو عليه بالحتف ، وتعجب من منادمته عمرو بن هند وهو موصوم بالخزى ، وتحقر من شأنه بأن الملوك نبذوه وحقروه ورضى عن ذلك ، ولو أنهم سألوه أعز ما يملك اقدمه زلفى إليهم وخنوعا ، ثم تطعن أخلاقه بقولها إنه حلس

---

(١) الأغانى ١٠/٣٤ وسمط اللالى ٢/٨٣٥ والنقائض ٦٥٦ (روى البيت : ولا لرغال فيه مستظل) . مثل : مستقيم قوى منتصب . خاظى البضيع : مكتنز . السمع : ولد الذئب من الضبع ويزعمون أنه فى عدوه أسرع من الطير . أزل : أرسح سريع خفيف الوركين. رغال : الأمة . يبزو : يبرز عجزه أو ينحنى ظهره . الربق : حبل البهم . الفرار : الخرفان والحملان . يجل : يلقط البعر بيده .

(٢) ديوان الخرنق ٤ مخطوط

(٣) جمهرة أشعار العرب ٤٣ البروك : الإبل الباركة . صل : حية . الرجع : الغدير

مومسات يغشاهن ، و يسمع الغناء عندهن . وتهجوه مرة أخرى فتذكره بجبنه عن الثأر :

أرى عبد عمرو قد أساط ابنَ عمه وأنضجه فى غَلْى قِدْر وما يدرى
فهلاّ ابن حَسْحاس قتلتَ ومعبداً هما تركاك لا تَرِيُش ولا تَبْرى
هما طعنا مولاك فى عِطْفِ صابه وأقبلت ماتلوى على مَحْجَرٍ تجرى [1]

وكذلك هجت عاصية بنت عبد العزى الطائى بنى محارب [2] .

ولقد تهجو المرأة من يخالفها فى دينها ، كما هجت هند بنت عتبة رملة بنت شيبة بن ربيعة لما تزوجها عثمان بن عفان وهاجرت معه ، فعابت عليها إسلامها ، واتباعها دين من قتلوا أباها [3] ، وكما هجت المسلمين والإسلام عَصْماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد فقال النبى : « ألا آخذٌ لى من ابنة مروان ؟ » فسرى إليها عُمَيْر بن عدى الخطمى فقتلها [4] .

٣ — ولقد كان المرتقب من المرأة أن تكثر هجاء ضرتها أو ضراتها ، لأن العداوة بين الضرائر متأصلة متفاقمة ، ولكن لم يرد من هذا الضرب إلا قليل ، ولعلها كانت تقنع بالكيد ، والإغارة ، والنظرات الشزر ، والكلمات المرة ، والحركات الساخرة .

ثم هى تأنف أن تسجل على نفسها أنها دون ضرتها ، وأن زوجها يؤثر ضرتها عليها ، لذلك لا تهجوها حتى لا تكشف عن مَوْجدتها ، أما سكوتها فإنه يؤول على أنها حظية عند زوجها ، وأنها لا تحفل بضرتها ، وهذا من مكر النساء .

ومن الهجاء ما قالت امرأة فى هجاء أخرى قد خطبها زوجها .

---

(١) ديوان الخرنق مخطوط . ابن حسحاس ومعبد: رجلان غلباء . لا تريش ولا تبرى: كناية عن خذلانه وضعفه . عطف : جانب . محجر : موضع منخفض ذو ماء ومرعى .
(٢) شرح الحماسة للتبريزى ٥٦/٤ (٣) الاستبصار فى أنساب الأنصار ورقة ٣٢ مخطوط (٤) سيرة ابن هشام ٣١٣/٤

لا خارَ ربى لأبى الفصيل

ولا وقاه عثرة الذَّلول

بَدَّل منى أخبث البديل

هَوْ جاء مَقَّاء كشِبْه الغول

تحمل رِدْفاً واسع الفضول

مثل إهاب المِنْحَة المَنْجُول

يَبيتُ فيه الذئبُ أو يقيل (١)

٤ — ولقد تحقد على زوجة ابنها فتهجوها ، وهجاؤها هنا كسابقه مقصور على تقبيح المنظر والذم بالدمامة ، وبسوء الأخلاق .

من ذلك أن هند بنت عُصْم الدوسية حقدت على امرأة ابنها يزيد فشكتها إلى زوجها فى هجاء مر يتناول أعز ما تفخر به المرأة : الجمال والأخلاق :

أيزيدُ قد لا قيتُ منكرة عَجِلَتْ بأمك مُدْخَلَ القبر

هَوْ جاء جاهلة إذا نطقت ليست كعابا بيضة الخِدْر

سوداء ما تنفك مُتْأَقَةً ملأى مُضَبِّبَةً على جَمْر (٢)

٥ — وأحياناً كان الشر يحتدم بين المرأة وزوجها فتقليه وتهجوه ، لأنه أثارها وهاجها ، كما نشزت أم الصريح بنت أوس الكندية على أبى الصريح الكلبى فقالت :

كأن الدار يوم تكون فيها علينا حفرة ملئت دخاناً

---

(١) بلاغات النساء لطيفور . الذلول : الجمل الطيع . بديل : خلف وفى الأصل البدول وهو تحريف . هوجاء : حمقاء . مقاء : عارية من اللحم. ردفا : كانت فى الأصل رفقا وهو تحريف . الإهاب المنجول : المشقوق عن العرقوبين إلى الرأس ثم يسلخ . المنحة : الناقة أو الشاة الحلوب كانت فى الأصل (الميحة) وهو تحريف

(٢) بلاغات النساء ١٠٠ متأقة : مملوءة بالشر والغضب . مضبية على جمر : ممسكة به تريد أنها شريرة مؤذية .

فليتك في سفين بني عباد   طريدا لا نراك ولا ترانا
وليتك غائب بالهند عنا   وليت لنا صديقاً فاقتنانا
ولو أن النذور تكف منه   لقد أهديتها مائة هجانا[١]

وكذلك فعلت أم الأسود ، وحذرت النساء أن يتزوجن مثل زوجها الجبان البخيل[٢] .

٦ — وقد بقيت المرأة تمارس الهجاء في الإسلام ، كما مارسته في الجاهلية ، فقد هجا أبو وَجْزة زوجته زينب بنت عُرْفُطة فهجته في صدر الإسلام[٣] ، وهجا عبد الله بن أوفى الخزاعي امرأته وهجته[٤] ، وهجت حُمَيْدة بنت النعمان بن بشير أزواجها و يظهر أن حميدة هذه كانت كَلِفةً بالهجاء ، فقد هجت زوجها الأول الحارث بن خالد بن العاص بن هشام[٥] ، وزوجها الثاني رَوْح بن زنباع[٦] ، وزوجها الثالث الفيض بن محمد بن الحكم[٧] . و يدل على ذلك أنها ولدت من الثالث — الفَيْض بن محمد بن الحكم — ابنة تزوجها الحجاج بن يوسف ، فقدمت على ابنتها زائرة ، فقال لها الحجاج : ياحميدة إني كنت أحتمل مزاحك مرة ، وأما اليوم فإني بالعراق ، وهم قوم سوء فإياك . فقالت : سأكفُّ حتى أرحل[٨] . وحميدة في هجائها لم تخرج على سنن الجاهلية من حيث الذم الجسدي كقولها في زورجها الحارث :

نكحتُ المديني إذ جاءني   فيالك من نكحة غاويه
كُهول دمشق وشبانها   أحبُّ إلينا من الجاليه
صُنَانٌ لهم كصنان التيو   س أعيا على المسك والغاليه[٩]

---

(١) بلاغات النساء ١١٨ (٢) بلاغات النساء ١٠٠
(٣) الأغاني ١١/٧٦ (٤) شرح الحماسة للتبريزي ٤/٤٢
(٥) الأغاني ٨ ١٣٢ (٦) سمط اللآلي ١/١٧٩—١٨٠ والأغاني ٨/١٣٣ والاستبصار ورقة ١٢٦ مخطوط (٧) الأغاني ٨/١٣٥ وسمط اللآلي ١/١٨٠
(٨) الأغاني ٨/١٣٥
(٩) الأغاني ٨/١٣٢ الجالية : أهل الحجاز لأنهم كانوا يجلون عن بلادهم إلى الشام

فرد عليها بمثل هجائها :

قاطنات الحجون أشهى إلى قلـــبى من ساكنات دمشق

يتضوّعن لو تضمخن بالمســك صُنانا كأنه ريح مِرْق(١)

وهجت زوجها روح بن زنباع بقولها :

وهل أنا إلا مهرة عربيـة سليلة أفراس تجللها بَغْلُ

فإن أنتجت مهراً كريماً فبالحرى وإن يك إقرافٌ فما أنجب الفحل(٢)

٧ — اتسم هجاؤهن بالعفة فى الجاهلية وفى الإسلام ، ففى العصر الإسلامى أفحش النابغة الجعدى ــ وكان شاعراً قد عمر فى الجاهلية طويلا وأدرك الإسلام وعمر فيه أيضاً ــ فى هجاء ليلى الأخيلية فردت عليه فى غير إفحاش شديد(٣) .

والذى لحظته أن هجاءهن فى الإسلام كهجائهن فى الجاهلية مقصور على الزراية بالجسد أكثر من الزراية بالأخلاق والطباع ، كقول زوجة قتادة بن مُغْرِب فى هجائه : إن فمه قبيح ، وإن ريحه منتنة ، حتى لقد أتلفت هذه الرائحة أنفها وصماخى أذنيها :

حلفتُ ــ ولم أكذب وإلا فكل ما ملكتُ لبيت الله أهديه حافيه

لو ان المنايا أعرضتْ لاقتحمتُها مخافة فِيهِ إن فِيه لداهيـــه

فما جيفة الخنزير عند ابن مُغْرِب قتادة إلا ريح مسك وغاليـه

فكيف اصطبارى يا قتادة بعدما شممتُ الذى من فيك أثْأَى صماخِيَه(٤)

وقالت أخرى فى هجاء رجل :

---

(١) الأغانى ٨/١٣٢ المرق : بفتح الميم الإهاب المنتن ، وبكسرها الصوف المنتن .

(٢) الأغانى ٨/١٣٤ وسمط اللآلى ١/١٧٩ وبلاغات النساء ٩٦ والعقد الفريد ٤/١٦٩ وأخبار النساء ٥٣ بغل : صوابه فى رأى ابن سيده نغل وهو الخسيس الدنىء من الناس والدواب تريد الفرس الهجين . إقراف : هجنة من جهة الأب لا الأم

(٣) الأغانى ٥/١٦ وسمط اللآلى ١/٢٨٢ ولسان العرب مادة ذلغ

(٤) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٤٢ أثأى : أفسد

إن أباكَ زَهْزَقٌ دقيق   لاحسن الوجه ولا عتيق
تضحك من طُرْطُبِّه العُنُوق[١]

٨ — وهن لم يبرعن فى الهجاء براعة الرجال ، لأنه لون من التهجم والتطاول ، ومضغ الأعراض ، والسفه ، يجافى الأنوثة ، وينافى الحيـاء ، ولأن الرجال يبلون فيه أعظم البلاء ، فالقبيلة تعتـد شاعرها أو شعراءها لسانها البتار لعداتها ، المكافح عن مفاخرها ، المنافح عن حسبها وسؤددها ، يبلغونها ماتبلغها السيوف والرماح ، ولا طاقة للمرأة أن تنيل القبيلة مثل ذلك .

ثم إن الرجال كانوا حماة للنساء ينشئونهن فى الدعة والنعمة والحلية والرفه ، ويتخذونهن ثمراً حلواً لا شوكا وقتاداً ، فمن الطبيعى أن يبعدوهن عن مضايق الهجاء ومحرجاته . على أن النساء كن يشعرن أنهن لسن قديرات على الهجاء ومقارعة الشعراء قدرة الرجال ، يدل على ذلك أنه لما هجا جرير بنى مجاشع وعيّرهم ماحل بأعيَن بن ضُبَيْعة والد زوجة الفرزدق اغتم نساؤهم ــ وكان الفرزدق قد حج وعاهد الله ألا يهجو أحداً أبداً ، وأن يقيد نفسه ولا يحل قيده حتى يحفظ القرآن ــ فأتين الفرزدق فقلن له : قبح الله قيدك ، فقد هتك جرير عورات نسائك ، فَلَحِيتَ شاعر قوم ، فأحفظنه ، ففض قيده ، وهجا جريرا[٢] .

أما فى العصر العباسى فقـد أفحشن فى هجائهن ، تأثراً بالترف وانحلال الأخلاق وضعف الشهامة العربية ، وكانت الإماء رائدات الفحش والخلاعـة بالقول والعمل ، مثل عَريب[٣] . وكذلك أفحشن فى الأندلس فى أواخر الحـكم العربى[٤] .

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٤/١٧٣ ولم يذكر أنها جاهلية . زهزق : لئيم . الطرطب: صوت الراعى إذا سكن معزاه . العنوق : إناث الماعز .
(٢) النقائض ١٢٥ وطبقات الشعراء ٣٢٧ .
(٣) الأغانى ١٨/١٨٠
(٤) نفح الطيب ٢/٥٦٣ و ٥٦٤ و ٦٣٣ طبعة أوربا ونزهة الجلساء ٢٨ و ٤٢ و٤٣ مخطوط . ونزهة الأبصار والأسماع ١٢

الفخر

كان فخر العرب بشجاعتهم وكرمهم وفضائلهم يدوى فى بلادهم دويا ، وكثيراً ما اقترن فخرهم بهجاء أعدائهم .

وكان الشاعر حينما يفخر يعدد مناقب قومه ، لأن الفرد يعتز بالقبيلة لا بشخصه ، ومجد القبيلة مجده ، على أن الشعراء أحياناً كانوا يختصون أنفسهم ببعض الفخار .

١ — وقد افتخرت النساء أيضاً ، ولكن فخرهن لم يكن بأنفسهن ، وإنما كان إشادة بقبائلهن وأقاربهن .

فالخنساء تفخر بقومها فى مجال الرثاء :

وأفنى رجالى فبـــادوا معا ... فأصبـــح قلبى لهم مُسْتَفَزَّا
لذكر الذين هم فى الهيـــا ... ج للمستضيف إذا خاف عَــزّا
كأن لم يكونوا حِمًى يُتَّـــقَى ... إذ النـــاس من عَزَّ بَزّا
وكانـــوا سَراة بنى مالك ... وزين العشيرة مجـــداً وعزا
هم منعوا جارهم والنســـا ... ء يحفز أحشـــاءها الموتُ حفزا
غـــداة لقوهُمْ بمَلْمومـة ... طحون يغادرن فى الأرض وَكْزا
ببيض الصفاح وسمـــر الرماح ... فبالبيض ضربا وبالسمر وَخْزا
وخيل تكدَّسُ بالدارعين ... وتحت العجاجة يَجْمِزْن جَمْزا
جـــزنا نواصى فرسانهم ... وكانوا يظنـــون أن لن تُجَزّا
نَعَفُّ ونعرف حق القِـــرى ... ونتخذ الحمـــد مَجْداً وكنزا
ونلبس فى الحرب نسج الحديد ... ونلبس فى الأمن خَزّا وقَزّا[1]

---

(١) ديوان الخنساء ١٤٣ . من عز بز . من غلب سلب . ملمومة : كتيبة مجتمعة . طحون: تطحن كل شيء . تجمز : تعدو .

والخرنق تفخر بقومها أيضاً فى مجال الرثاء :

لا يبعـــدَنْ قومى الذين هم — سم العـــداة وآفة الجُزُر
النازلون بكل معـــترك — والطيبون معاقـــد الأُزُر[(١)]

وتفخر ببلائهم فى التنكيل ببنى أسد فى مجال رثائها لزوجها بشر :

ألا لا تفخرنْ أســـدٌ علينا — بيوم كان حَيْنـــاً فى الكتاب
فقد قُطعَتْ رءوس بنى قُعَيْن — وقد نُقِمَتْ صـــدور من شراب
وأردينـــا ابن حَسْحاس فأضحى — تجول بِشِلْوِهِ نُجُس الذئاب[(٢)]

وتقول أيضاً فى هجاء بنى أسد بالجبن والهلع من لقاء قومها :

سمعتْ بنو أسـدَ الصياح فزادها — عند اللقـــاء مع النفار نفارا
ورأت فوارس من ضُلَيْعَةٍ وائل — صـــبروا إذا نقع السنابك ثارا
بيضا يحزِّزن العظام كأنمـــا — يوقدن فى حَلَقَ المغافر نارا[(٣)]

وتفخر بزوجها أيضاً[(٤)] :

وكذلك فخرت عاتكة بنت عبدالمطلب بقومها، فنوهت بشجاعتهم وبلائهم:

سائل بنـــا فى قومنا — وليكف من شرٍّ سماعُه
قيساً وما جمعوا لنـــا — فى مجمع باقٍ شـــناعه
فيه السَّنَوَّرُ والْقَنـــا — والكبشُ ملتمعٌ قِناعـــه
بعكاظ يُعْشى الناظريـــن إذا هم لمحوا شـــعاعُه
فيه قتلنا مالـــكا — قَسْراً وأســـلمه رعاعُه

---

(١) ديوان الخرنق ١٠

(٢) ديوان الخرنق ٧ مخطوط . كان حيناً فى الكتاب : كان مقضياً . ابن حسحاس : رجل من أسد الشلو : العضو . بنو قعين : من بنى أسد

(٣) الديوان ٧ ضليعة وائل : من نسله . بيضاً : سيوفا مجلوة. يحززن: يقطن المغافر: ج مغفر ما يلبس على الرأس من زرد ليقيه

(٤) الديوان ١٩

ومُجَـــــدَّلاً غادرْنَه بالقـــاع تَنْهَسُه ضِباعه[(١)]

ولقد تفخر الشاعرة بأمها دفاعاً عنها ، من ذلك أن أم زينب بنت فروة ابن سنان كانت أمة فارسية ، فنوهت زينب بحسبها :

إن ابنة الدهقان كسرى تنُوولَتْ بطعن الكماة واختلاس المعابل

ولم تُخْتَطَفْ أمى على غير ثَلَّةٍ ولم تختطف إلا بطعن القــاتل

من اللابسات الرَّيْطَ زهراء لم تبت تَحُشُّ مع الأمىِّ وَقْدَ المراجـل

ولم يُرَ فى أفنــاء مُرَّة مثلها ولا عند قيس من غنيمة قافل[(٢)]

٢ — وفخر المرأة على قلته وضعفه ليس فيه من الأنوثة شىء ، كالعفة والجمال والرقة وحلاوة الحديث وإسعاد الزوج ورعاية الأولاد وتدبير البيت ، وإنما هو فخر بالرجال وأعمالهم .

ولعل مرد ذلك إلى استحيائها من الفخار بهـذه المميزات . وليس معنى مباهاتها بالرجال أنها كانت ذليلة القـدر مسلوبة الشخصية ، وإنما معناه أنهم حماتها وأسنادها ، فهى تشعر بالعز والمنعة وعلو القدر فى كنفهم وظلهم إذا كانوا أعزة ، كما يفخر أحدنا بوطنه أو معهده أو أبيه .

ولم تختلف الإسلاميات عن الجاهليات فى شىء ، فمثلا تمزج ليلى الأخيلية بعض الفخر بهجائها للنابغة الجعدى ، فتباهى بعزة قومها :

لنـــا تامكٌ دون السماء وأصلُه مقيم طوال الدهر لم يتحلحلا

وما كان مجدٌ فى أناس علمته من الناس إلا مجدنا كان أولا[(٣)]

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢/١٣٠ السنور : الدرع الرعاع : سفلة الناس أو الجبناء. مجدلا غادرنه : غادرت الخيل مجدلا . تنهسه : تنهشه .

(٢) بلاغات النساء ١٨٢ . المعابل : نصال السهام . ثلة : جماعة . تحش : توقد . الأمى : الغبى الجلف الجافى والمراد العبد . وقد المراجل : نارها . غنيمة قافل : راجع من الحرب بالغنائم

(٣) أشعار النساء للمرزبانى ٤ مخطوط وبلاغات النساء ١٧٠ تامك : سنام والمراد مجد عال .

٣ — أما فخر الرجال فقد كان فيه ضرب من الفخر بالقبيلة كلها حسبها وعددها وثرائها و بطولتها وظفرها ومنعتها، وضرب من الفخر الشخصى الفردى.

يمثل النوع الأول قول عمرو بن كلثوم :

أبا هنـــد فلا تعجَلْ علينـا ... وأنظرنا نُخَـــبِّرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضـاً ... ونصدرهن حمـراً قد روينا
وأيام لنـا غُرٍّ طوال ... عصينا المَلْك فيها أن ندينا
متى ننقـــل إلى قوم رحانا ... يكونوا فى اللقاء لها طحينا
وأنا المانعون لما يلينـا ... إذا ما البيض زايلت الجفونا
وأنا المنعمون إذا قدرنـــا ... وأنا المهلكون إذا أُتينـــا
وأنـا الشاربون الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدِراً وطينا[1]

. . . .

وقول لبيد

إنا إذا التقت المجامع لم يزل ... منا لِزَازُ عظيمة جَشَّامُها
ومُقَسِّمٌ يعطى العشيرة حقها ... ومُغَذْمِرٌ لحقوقها هَضَّامُها[2]

وقول أمية بن أبى الصلت :

بأنا النـــازلون بكل ثغر ... وأنا الضاربون إذا التقينا
وأنا المانعون إذا أردنـا ... وأنا المقبلون إذا دُعينـا
وأنا الحامـلون إذا أناخت ... خطوبٌ فى العشيرة تبتلينا
وأنا الرافعون على مَعَـــدٍّ ... أَكُفّاً فى المكارم ما بقينا[3]

و يتمثل الضرب الثانى فى الزهو باللذات والكرم والبطولة فى قول عنترة :

---

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى (٢) جمهرة أشعار العرب ١١٥ لزاز : قرن . جشامها : متحمل لها . مغذمر : يأخذ من هذا ويدع ذاك . هضامها : مناحها

(٣) الجمهرة ١٨٩ .

ولقد شربتُ من المُدامة بعد ما ركد الهواجر بالمَشُوف المُعْلَمِ
فإذا شربتُ فإننى مستهلكٌ مالى وعرضى وافرٌ لم يُكلَمِ
وإذا صحوت فما أقصِّر عن ندى وكما علمتِ شمائلى وتكرُّمى

. . . .

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمَّمِ
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر فى لَبانِ الأدهمِ
ما زلت أرميهم بثُغرة وجهه ولبانه حتى تسربل بالدم
فازورَّ من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعَبْرة وتحمحمِ
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مُكلِّمى[1]

وكقول طرفة :

إذا القوم قالوا من فتًى خلت أننى عُنيت فلم أكسل ولم أتبلد
فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد
وإن يلتق الحى الجميع تلاقنى إلى ذروة البيت الرفيع المصَمَّد

. . . .

أنا الرجل الضَّرْبُ الذى تعرفونه خَشَاشٌ كرأس الحية المتوقد[2]

---

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى وديوان عنترة . المشوف المعلم : الكأس أو الدينار المجلو المنقوش . (٢) شرح القصائد العشر للتبريزى وديوان طرفة. الضرب : الخفيف . خشاش : ماض متوقد : ذكى .

المدح

١ — ليس لهن فى المدح نصيب ، لأن بواعثه كانت محبوسة على الرجال ، سواء فى ذلك المدح المنبعث عن إعجاب ، أو عن رغبة فى العطاء . ثم إن مدح المرأة للرجل مما يُعاف ، ولكن جاء فى شعرهن قليل من المدح ، كمدح الخنساء لأبيها وأخيها حين استبقا على الخيل ، وهو أدخل فى الفخار بهما من المدح :

جارى أباه فأقبلا وهما يتعاوران مُلاَءَةَ الْحُضْر
حتى إذا نزت القلوب وقد لُزَّتْ هناك العُذْر بالعذْر
وعلا هتاف الناس أيهما قال المجيب هناك : لا أدرى
برزَتْ صحيفةُ وجه والده ومضى على غُلَوائه يجْرى
أَوْلَى فأولى أن يساويه لولا جلالُ السن والكِبْر
وهما وقد برزا كأنهما صقران قد حَطا على وَكْر [١]

وهذا مأزق حرج أبدعت فيه الخنساء ، لأنها مدحت أباها وأخاها معاً ، وبينت إكرام الابن لأبيه ، وإعزازه لقدره ، وجعلت تقديم الولد لأبيه فى السبق معرفة بحقه ، وتقديراً لمكانته وسنه .

وقد قيل لأبى عبيدة : ليست هذه الأبيات فى مجموع شعر الخنساء ، فقال : العامة أسقط من أن يجاد عليها بمثل ذلك [٢] .

---

(١) ديوان الخنساء ١٣٦ وأمالى المرتضى ١/٦٧ وزهر الآداب ٣/٢٣٩ . يتعاوران ملاءة الحضر : يصير غبار الجرى كثوب يلبسه هذا مرة وذاك مرة . الحضر : العدو والسباق . نزت القلوب : تاقت لمعرفة السابق . لزت العذر بالعذر : قرنت عنان السابق بعنان المسبوق . أولى : كان الابن أهلا لأن يجارى أباه فيسبقه لولا أنه امتنع أنفة ولأبيه عليه فضل السن والقدر .

(٢) أمالى المرتضى ١/٦٧

وراقت هذه الصورة فيما بعد الكميت ، فحاكاها فى مدحه مخلد بن يزيد ابن المهلب :

ما إن أرى كأبيك أدرك شأوه   أحدٌ ومثلك طالبا لم يَلحَق

تتجاذبان ، له فضيلة سنه   وتلوت بعد مصلّياً لم تَسْبُقُ

إن تنزعا وله فضيلة سنه   فبمثل شأو أبيك لم يُتَعَلَّق

ولقد لحقتَ به على ما قد مضى   من بُعْدِ غايته فأحْجِ وأخْلق(١)

ثم نسج على منوالها المؤمل بن أميل الكوفى المحاربى فى مدح المهدى :

لئن فت الملوك وقد توافوا   إليك من السهولة والوعور

لقد فات الملوكَ أبوك حتى   بقوا من بين كابٍ أو حسير

وجئت وراءه تمشى حثيثاً   وما بك حيث تجرى من فتور

وقال الناس ما من ذين إلا   بمنزلة الخليق من الجدير

فإن سبق الكبير فأهل سبق   له فضل الكبير على الصغير

وإن بلغ الصغير مدى كبير   فقد خُلِقَ الصغير من الكبير(٢)

٢ — وفى الإسلام نابت بنت لبيد عن أبيها فى مدح أمير الكوفة الوليد ابن عقبة وشكره ، ذلك بأن لبيدا كان قد آلى فى الجاهلية أن يطعم ما هبت الصبا ، ثم واصل ذلك فى إسلامه ، فلما نزل الكوفة وأميرها الوليد بن عقبة إذ هبت الصبا والأمير يخطب الناس ، فقال : قد علمتم حال أخيكم أبى عَقِيل ، وما جعل على نفسه أن يطعم ما هبت الصبا ، وقد هبت فأعينوه . ثم بعث إليه بمائة من الجزُر واعتذر إليه بقوله :

أرى الجزار يشحذ شَفْرتيه   إذا هبت رياح أبى عَقيل

أشم الأنف أصيد عامرى   طويل الباع كالسيف الصقيل

---

(١) أمالى المرتضى ١/٦٨

(٢) أمالى المرتضى ١/٦ .

وفَى ابن الجعفرى بمــا نواه   على العِلات والمـــال القليل
يُذكِّى الـكُومَ ما هبت عليه   رياح صبًــا تجاوبُ بالأصيل

فلما وصلت الجُزُر والشعر إلى لبيد قال : إنى تركت الشعر منذ قرأت القرآن ، و إنى ما أعيا بجواب شاعر . ودعا ابنة له فقال : أجيبيه عنى ، فقالت :

إذا هبت رياح أبى عَقيــــل   دعونا عند هَبتها الوليدا
أشم الأنف أصْيَدَ عَبْشَمِيًّا   أعان على مروءته لبيـــدا
بأمثال الهِضاب كأن رَكْبا   عليها من بنى حام قُعُودا
أبا وَهب جزاكَ اللهُ خـــيرا   نحرناها وأطعمنــا الوفُودا
فعد إن الكريم له مَعَاد   وظنِّى بابن أَرْوَى أن يعودا

فقال لبيد : أجبتِ وأحسنتِ لولا أنك سألت فى شعرك . قالت : إنه أمير وليس بسوقة ، ولا بأس بسؤاله ، ولو كان غيره ما سألناه . قال لبيد : أجل[1].

بعد هذا يتبين أن مدح المرأة على ندرته موجز خاطف لا تفصيل فيه ، ولا توليد لمعانيه .

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٣٨

الحنين إلى الوطن

١ — حب الوطن طبيعة راسخة فى كل نفس . ولقد يطوّف الإنسان مايطوف ، و يغترب مايغترب ، و يشهد مايشهد من ضروب الجمال فى غير وطنه، ولـكن نفسه دائماً تنازعه إلى مسقط رأسه ، وعواطفه تهوى إلى وكره الذى منه خرج ، وفى ملاعبه لَهَا ودرج .

و يظهر أن للصحراء سحراً خاصاً — على جدبها وشظفها — يجتذب أهلها إلى ألا يَرِيموا عنها ، ولا يَتَحَلْحَلُوا منها ، بل إن سحرها ليجتذب العارفين بها من غير سكانها .

وقد صور هذه المشاعر الرحالة أحمد حسنين فى رحلته اللوبية . وللجاحظ رسالة حافلة بحب الأعراب لباديتهم والحضريّين لأوطانهم نساء ورجالا يقول فيها : « وترى الأعراب تحن إلى البلد الجدب ، والمحَلِّ القفر ، والحجر الصَّلْد ، وتستوخم الريف [١] » .

بل لقد بلغ من حب العرب لديارهم أنهم كانوا إذا رحلوا للغزو أو للنجعة حملوا معهم من تربة الدار رملا وعَفَرا (ترابا) يستنشقونه عند نزلة أو زكام أو صداع . يقول شاعر من بنى ضبة :

نسير على علم بكُنْه مسيرنا بعُفّةِ زاد فى بطون المزاود
ولا بد فى أسفارنا من قَبيصة من الترب نُسْقاها لحبِّ الموالد[٢]

كانت المرأة والرجل سواء فى الحنين إلى الوطن ، يقول عمرو بن قميئة لما خرج مع امرىء القيس إلى قيصر[٣] ، وقد حنت ابنته إلى وطنها إذ شطت بها

---

(١) رسالة الحنين إلى الأوطان ٨

(٢) رسالة الحنين إلى الأوطان ١٢ العفة : بقية اللبن فى الضرع والمراد القليل من الزاد. قبيصة : قبضة وحفنة

(٣) الأغانى ١٦/١٥٨

النوى فبكت ، وتذكرت آلها :

قد سألتنى بنت عمرو عن ال   أرض التى تُنْكر أعلامَها
لما رأت ساتيدما استعبرت   لله دَرُّ اليوم من لامها
تذكرتْ أرضاً بها أهلها   أخوالَها فيها وأعمامَها[١]

٢ — وقد أسلفت فى باب الزواج أن المرأة كثيراً ما كانت تتوجس من الزيجة فى غربة ، لأنها تؤثر أن تقضى حياتها بين قومها وفى وطنها .

ولكن ما كل ما يطلب المرء يناله ، فلا بد من أن تغترب أحياناً ، فهى إذاً تشتاق إلى وطنها ، وتنفس عن نفسها بشعرها ، فمثلا تحن هند بنت عُصْم السدوسية إلى بلادها وهى عند ربيعة بن غزالة الكندى ، وتصور حنينها فى أن الماء الذى تشرب منه لا يبل أوامها ، وتود لوجاءها أحد بشربة من ماء وطنها لتعطيه أربعاً من وطن زوجها ، ثم تقول إنها تشتعل شوقا إلى ديار أهلها ومسقط رأسها ، ويزيد شوقها اشتعالا أنها يائسة من أوبة قريبة :

ألا لا أرى ماء المصَبَّح شافياً   نفوساً إلى أمواهِ بَقْعاء نُزَّعا
فمَنْ جاء من ماء السِّبال بشَرْبة   فإن له من ماء لِينةَ أربعَا
وقد زادنى وَجْداً ببَقْعاء أننى   رأيت مطايانا بلينةَ ظُلَّعا[٢]

وهى تعجب ممن يلومها فى شوقها إلى وطنها ، بل إن الملامة لتزيدها ولوعاً به ، وما ذنبها فى أن تكلف بأرض عشيرتها وتقلى غيرها ؟

وإنها لتتمنى أن تقدر الريح على نقل نجواها ، وتلطف وتظرف فى تمنيها أن تبلغ الريح تحياتها ، وفى دعائها لها بالخير ، راجية ألا تمس بتحيتها الثرى ، وإنها لحفية بالريح الشمالية تسائلها عن قومها أيقتربون ومتى يقتربون ؟

---

(١) معجم البلدان ٥/٥ ساتيدما : جبل بين ميافارقين وسعرت

(٢) بلاغات النساء ١٠٦ المصبح ، بقعاء ، السبال ، لينة : أسماء مواضع . ظلع : المراد مقيمة .

قالت وجيهة بنت أوس الضبية :

وعاذلة تغــــدو علىّ تلومنى ... على الشوق لم تَمْحُ الصبابةَ من قلبى

فمالى إن أحببت أرض عشـيرتى ... وأبغضت طَرْفاء القُصَيْبَةِ من ذنب

فلو أن ريحا بلّغت وَحْىَ مُرْسِلٍ ... حَفِىٍّ لنا جيتُ الجَنُوبَ على النَّقْب

فقلت لها : أدّى إليهم رسالتى ... ولا تَخْلطيها طال سَعْدُك بالتُّرْب

فإنى إذا هبت شمالاً ســــــألتُها ... هل ازداد صُدّاحُ النُّمَيْرة من قُرْب؟[1]

وكذلك حنت أم موسى بنت سدرة الـكلابية[2] وامرأة من غطفان[3] .

ولقد يعقد شوقها إلى وطنها صلة وجدانية بينها وبين الجمل الغريب الذى يحن إلى مراجعه ، كما حدث لامرأة من أَبَان زوجت فى كلب ، فنظرت إلى بكر من ديارها فرأته يحن إلى وطنه فقالت :

ألا أيها البـكر الابَانِىُّ إننى ... وإياك فى كَلْب لمغتربان

تَحِنُّ وأبـكى ذا الهوى لصبابة ... وإنا على البَلْوَى لمصطحبان

وإن زمانا أيها البـكر ضمّنى ... وإياك فى كلب لشرُّ زمان[4]

وسأبين فى الغزل أن بعض الحنين إلى الوطن غزل مستور ، وحنين إلى حبيب نازح لا طاقة للمرأة أن تبوح به .

٣ — وقد لازمها وفاؤها لوطنها وحبها لديارها إلى ما بعد العصر الجاهلى ، فإن ميسون بنت بَحْدَل الـكلابية لما زفت من بادية كلب إلى معاوية بن أبى سفيان لم تطق حياة الحضر ، وتشوقت للبادية بقولها :

---

(١) شرح التبريزى للحماسة ٤/١٨٧ ومعجم البلدان ٧/١١٥ . طرفاء القصيبة: شجر بهذا الموضع . حفى : مهتم معتن ملح فى السؤال . النقب : الطريق فى الجبل . هبت شمالا : هبت الريح شمالا والظاهر أنها كانت تهب من ناحية قومها مستقبلة ديار زوجها . صداح : المراد بهم أهل وناس لأن الصدح الصوت . النميرة : هضبة بين نجد والبصرة بعد الدهناء

(٢) بلاغات النساء ١٩٦ ومعجم البلدان ٣/٢٢٣ و ٨/٥١٦

(٣) معجم البلدان ١٦٩

(٤) رسالة الحنين إلى الأوطان للجاحظ ٢٢

لَبَيْتٌ تخفق الأرواح فيه ... أحبُّ إلىَّ من قصر مُنيف
وأصوات الرياح بكل فجٍّ ... أحب إلىَّ من نَقْر الدُّفوف
وكلب ينبح الأبياتَ دونى ... أحب إلى من هرٍّ أليف
ولُبْسُ عَبَاءة وتقرّ عينى ... أحب إلىَّ من لبس الشُّفوف
وخِرْقٌ من بنى عمى نحيف ... أحب إلى من عِلْجٍ عَليف(١)

وقد حدث عبد الله بن إسحاق الجعفرى قال : أمرت بملء صهريج لى فى بستان عليه نخل مُطلّ ، وذهبت بأم حسانة المرية وابنتها — زوجتى — فلما نظرت أم حسانة إلى الصهريج قعدت عليه وأرسلت رجليها فى الماء ، فقلت لها : ألا تطوفين معنا على هذا النخل لنجنى ما طاب من ثمره ؟ فقالت : ها هنا أعجب إلىَّ .

فدرنا ساعة وتركناها ، ثم انصرفنا وهى تخضخض رجليها فى الماء وتحرك شفتيها ، فقلت : يا أم حسانة لا أحسبك إلا قد قلت شعراً ، قالت : أجل ، ثم أنشدتنى :

أقول لأدنى صاحبَىَّ أُسرُّه ... وللعين دمع يُحْدِرُ الكحلَ ساكبه
لعمرى لنِهْيٌ باللّوى نازح القَذَى ... نقىُّ النواحى غيرُ طَرْق مشاربه
أحبُّ إلينا من صهاريج مُلِّئَتْ ... لِلَعْب ولم تَمْلُحْ لدىَّ ملاعبه
فيا حبذا نجد وطيب هوائه ... إذا أهضبته بالعشىِّ هواضبه
وريح صَبا نجد إذا ما تنسمت ... ضُحاً وسرَتْ جنحَ الظلام جنائبه
فأقسم لا أنساه ما دمت حية ... وما دام ليل من نهار يُعاقبه
ولازال هذا القلب مَسْقىَّ لوعة ... بذكراه حتى يترك الماءَ شاربه(٢)

(١) حماسة الخالديين ٢٣٢ مخطوط . بكر : فتى من الإبل . صعب : لم يركب . الشفوف جمع شف وهو الثوب الرقيق . خرق : سخى ظريف حسن الخليقة . علج : حمار أو حمار وحش . عليف : مطعوم لا يعمل .

(٢) محاضرات الأدباء ٢/٣٦٥ ورسالة الحنين إلى الأوطان للجاحظ ٢٠ نهى : غدير . الطرق : الماء الذى خاضته الإبل وبالت فيه وبعرت : أهضبته الهواضب : فاضت عليه السحب فى غزارة . جنائب : رياح الجنوب .

الغزل

كانت لهوات الشعراء تتجاوب بالغزل فى كل صقع من أصقاع الجزيرة ، ينفسون به عن حب مبرح ، وحرمان ممض ، وشوق لهيف ، أو يفتنُّون فى وصف مفاتن النساء الجسدية والنفسية ، و يصرحون بما نالوا من لذات ومتع .

ولقد كان الخلىّ يحاكى الشجى أحياناً فيتغزل ، وهؤلاء وأولئك خلفوا من الشعر الغزل ثروة عظيمة تنبىء عن تقدير العرب للمرأة ، وخضوعهم لسلطان الجمال والحب . ولم يكن من محض المصادفة أن بدئت المعلقات ومشهورات القصائد بالغزل و بكاء أطلال المحبوبة .

وما من شك فى أن المرأة كالرجل تحب ، وتتشوق ، وتتذكر وتتمنى ، و إذا كانت شاعرة فإن المتوقع أن تتغنى حبها فى شعر تزجيه العاطفة ، كما يتغنى الرجل . ولكن هذا الشعر الذى كنا نرقبه كثيراً غزيراً لم نمسك منه إلا نادراً قليلا ، كأنه خَلَسُ الدهر أو فلتات اللسان .

كتمان المرأة :

وليس تعليل ذلك بعسير ، لأن النساء مطبوعات على الاستحياء من الجهر بحبهن ، مجبولات على كتمان الهوى المعتلج بقلوبهن ، بينما يحب الرجل فلا يطيق أن يحتبس حبه ، فيعبر عن مشاعره بقصيد يقرضه ، أو لحن ينشده ، أو تمثال ينحته ، أو غناء يردده ، و يطير به خياله كل مطير ، فيملأ الدنيا غزلا . ولقد يَفْتَنُّ فيتغزل غزلا روحياً يصور محبوبته ملكا ، أو يتغزل غزلا حسيّا يصور جمالها و يكشف عن بِدْعها .

أما المرأة فتحب ولكنها تسرّ عاطفتها ، وتجن مشاعرها ، وتحبس حبها فى صدرها ، على أنها ليست أقل من الرجل حباً . لذلك تعمد أحياناً إلى السحر

والرُّقَى لاجتذابه ، وتتجمل وتتزين وتتمنع لاختلابه .

وحب الرجال يمتاز بأنه سافر ناطق ، وحب المرأة يمتاز بأنه محجب صامت . ثم إن المرأة مطلوبة مرغوبة ، فهى إذاً قديرة على كتمان عاطفتها ، لأن مقاليد الحب بيدها لا بيد الرجل .

وقليلا مايغلبها الحب فتبوح ، لأن الرجل أغراها بوعوده ، وسحرها بنشيده ، وفكّ عقدة لسانها ببلاغته ، أو لأنها ضاقت بما تجد ، فنبست بكلمة أو تخففت من ثقل الحب بأبيات من الشعر ، ولكن هذا نادر نزر .

« والمرأة تحب أربعين سنة وتقوى على كتمان ذلك ، وتبغض يوما واحداً فيظهر ذلك بوجهها ولسانها. والرجل يبغض أربعين سنة فيقوى على كتمان ذلك ، وإن أحب يوماً واحداً شهدت جوارحه[1] » .

وهذا طبيعى لأن إظهار المرأة بغضها لا عيب فيه ولا لوم .

لذلك كانت مية على حق فى قولها ــ وقد سئلت بعد موت قابوس : ما كان يضرك لو أمتعته بوجهك قبل موته ؟ ـــ : منعنى من ذلك خوف العار ، وشماتة الجار ، ولقد كان بقلبى منه أكثر مما كان بقلبه ، غير أنى وجدت ستره أبقى لما فى الصدور من المودة ، وأحمد للعاقبة .

وكذلك كانت عفراء ، فقد هالها ما نزل بعروة ، فكادت تبوح بسرها ، فقيل لها : أما عندك له حيلة تخفف ما به ؟ فقالت : والله لأنا أسرّ بذلك وأشوق إليه منه ، ولكن لا سبيل إلى احتمال العار[2] .

وإذا كانت مية وعفراء تُجَنَّان حبهما مخافة العار واستطالة الألسنة ، فإن عفراء بنت أحمر كانت تكتم حبها عِزّةً وتجلداً وترفعاً عن أن تتهم بما لا يليق

---

(١) المحاسن والأضداد للجاحظ ١٧٩ .

(٢) أخبار النساء لابن القيم ٣٥

بالأنثى . ذلك أنه قيل لها ما كان يضرك لو روّحت عن قلب الحارث بن الشريد وأجبته بزَورة ؟ فقالت : منعنى من ذاك قولكن عفراء قد صَبَتْ إلى الحارث[1]

لذلك أقل الشعراء الجاهليون والإسلاميون من تصوير الحبيبات يبادلنهم حباً بحب فى صراحة وجلاء . وأعتقد أن الذوق العربى كان ينفر من التصريح بذلك ؛ لأن العرب حراص على إظهار المرأة بمظهر البخيلة الممنَّعة البعيدة المنال .

يدل على ذلك قول السُلَيك بن السُّلكة إن قلبه يعاف المرأة المتهالكة الجواد بوصلها ، ويعلق بالممنعة التى لا تحوم حولها ريبة :

من الخَفِرات لم تفضح أخاها ولم ترفع لوالدها شَـنـاراً
يعاف وصالَ ذات البذْل قلبى وأتبـع المُمَنَّعة النَّوَارا[2]

وقول سويد بن أبى كاهل اليشكرى :

تُسْمعُ الحدّاثَ قولا حسنا لو أرادوا غيره لم يُسْتَمَع[3]

وقول كعب بن رُواع :

ويخالها المرح السفيه تحبه ونَوَالُها غيرَ الحديث بعيد[4]

وقول قيس بن الحدادية :

وقد جاورتنا فى شهور كثيرة فما نوّلت والله راء وسامع[5]

وقد صور رجل من بنى أسد تصوّن محبوبته بأنها تبخل حتى بما لا يُطْلَبُ ولا يحتفظ به ، ولا يمس عفتها فى شىء :

وإنى لأرجو الوصل منك كما رجا صَدِى الجْوفِ مرتادا كُداه صَلُود
وكيف طلابى وصل من لو سألته قَذى العين لم يُطْلِبْ وذاك زهيد

---

(١) أخبار النساء ٢٦
(٢) الأغانى ٤/٣٦٤ النوار : النفور من الريبة (٣) المفضليات ١/١٩٠
(٤) المؤتلف والمختلف للامدى ١٢٨ . (٥) الأغانى ١٣/٦

ومن لو رأى نفسي تسيل لقال لي   أراك صحيحاً والفؤاد جليد[(١)]

وهذا الضرب كثير في شعر الشعراء[(٢)] .

وإذا كان هذا هو الذوق العربي العام فقد وجدوا في تصوير المرأة طالبة للرجل متهالكة أو عليه غضا من أنوثتها وحيائها ، واستطالة من الرجل ، وزهوا بنفسه ، لأنه إذا يتغزل في شخصه لا في حبيبته .

ولم يخرج على هذا الذوق العربي إلا عمر بن أبي ربيعة في الإسلام ، وقد أكثر من هذا كقوله :

قالت لِتِرْب لها تحدثها   لَنُفسدَنَّ الطواف في عمر

قومي تصدّى له ليعرفني   ثم اغمزيه يا أخت في خَفَر

قالت لها : قد غمزته فأبى   ثم اسْبَطَرَّتْ تَسْعَى على أثري[(٣)]

وكرر مثل ذلك[(٤)] .

ولكن هذا كان مستهجنا منه ، حتى لقد قال له كثيِّر : لقد أسأت وقلت الهجر ، ولو أنك وصفت بهذا حرة أهلك لكنت قد أسأت إليها ، وإنما توصف الحرة بالحياء والإباء والالتواء والبخل والامتناع[(٥)] .

وقال له ابن أبي عتيق لما أنشده أبياتاً منها:

قالت الصغرى وقد تيمتُها   قد عرفناه وهل يَخْفَى القمر ؟

---

(١) شرح التبريزي للحماسة ٣/١٩٠ ومعجم البلدان ٦/٣٩٦ . الجوف : المطمئن من الأرض الغليظة . مرتاداً : طالباً منصوب على الحال . صلود : قلية الماء أي أرجو وصلك رجاء العطشان الطالب للماء من أرض لا تبض بالماء ، ولو أني سألتك قذى من عينك لبخلت به

(٢) الأعشى (الديوان ١٠٤) والشنفرى (الأغاني ٢١/٩١ والمفضليات ١/١٠٦) وأوس بن حجر (الديوان ١٤) وحاتم (الأغاني ١٥/١٥٩) وثعلبة بن صعير (المفضليات ١/١٢٦) وكعب بن زهير (حماسة البحتري ٨٣) وعلقمة (ديوان علقمة ٦)

(٣) الأغاني ١/١٧٠ و ١٠٤ وفي رواية ثم اسبطرت تشتد في أثري .

(٤) الأغاني ١/٩٢ و ٩٤ و ١١١ و ١١٩   (٥) الأغاني ١/١١٩

أنت لم تنسب بها ، وإنما نسبت بنفسك ، وكان ينبغى أن تقول قلت لها فقالت لى ، فوضعت خدى فوطئت عليه[(١)] .

صور من غزلها :

تغزلت المرأة على ندرة وقلة ، وكان غزلها يبدو فى مظاهر :

١ — فهى تبوح بالحب والشوق وإن لقيت نـكالا .

من ذلك أن رجلا من بنى عقيل تزوج امرأة من قبيلته ، دخل يوما وهى تتمثل ببيت غزل ، فقال لها : ما هذا الذى تتمثلين به ؟ لعلك عاشقة . قالت : لا . ولـكن أبيات حضرتنى . فقال : لئن سمعتك تعودين إلى مثل هذا لأوجعن ظهرك و بطنك . فأنشأت تقول :

فإن تضربوا ظهرى و بطنى كليهما ... فليس لقلب بين جنبىَّ ضارب
يقولون عزِّى النفس عمن تَوَدُّه ... وكيف عزاء النفس والشوق غالب

فطلقها[(٢)] .

وكانت امرأة من لخم اسمها سعدى تهوى ابن عم لها يقال له عيسى ، فلما خشى أهلها الفضيحة قالوا لها : إن نطقت فيه بشعر قطعنا لسانك . فقالت :

خليلىَّ إنْ أصعدتما أو هبطتما ... بلادا هوى نفسى بها فاذكرانيا
ولا تَدَعَا إنْ لامنى ثمَّ لائمٌ ... على سَخَط الواشين أن تعذرانيا
فقد شَفَّ جسمى بعد طول تجلدى ... أحاديثُ من عيسى تشيب النواصيا
سأرعى لعيسى الودَّ ما هبت الصَّبا ... وإن قطعوا فى ذاك عمداً لسانيا[(٣)]

وباحت امرأة من خثعم بحبها لـكعب بن طارق الشجاع الباسل :

فإن تسألونى من أحبُّ فإننى ... أحب و بيتِ الله كعبَ بن طارق

---

(١) الأغانى ١١٩/١ (٢) أشعار النساء للمرزبانى ورقة ١٨ مخطوط . عزى : صبرى . تود : الضمير عائد على النفس (٣) أخبار النساء لابن قيم ٣٤

أحب الفتى الجَعْدَ السَّلُولىَّ ناضلا … على الناس معتاداً لضرب المَفَارق[1]

٢ — وتصور شوقها ولهفتها إلى الحبيب ، كقول فارعة بنت ثابت فى عبد الرحمن بن هشام المخزومى ، أو قول خولة بنت ثابت فى عمارة بن الوليد ابن المغيرة المخزومى :

يا خليلى نابنى سهدى … لم تنم عينى ولم تكد
فشرابى ما أسيغ وما … أشتكى ما بى إلى أحد
كيف تَلْحُونى على رجل … آنسٍ تلتذه كبدى
مثل ضوء البدر صورته … ليس بالزمِّيلة النَّكد
من بنى آل المغيرة لا … خامل نِكْس ولا جَحِد
نظرت يوما فلا نظرت … بعده عينى إلى أحد[2]

ولقد تبتلى بالطلاق من زوجها الذى تحب ، فلا تفتأ تتشوق إليه ، كزينب بنت فروة المرية ، كانت عند ابن عم لها اسمه المغيرة ، فجرى بينهما نزاع فطلقها ، فقالت :

يا أيها الراكب الغادى مطيته … عَرِّجْ أُنَبِّيك عن بعض الذى أجد
ما عالج الناسُ من وجد ومن كمد … إلا ووجدى به فوق الذى وجدوا
حسبى رضاه وأنّى فى مسرته … ووده آخر الأيام أجتهد[1]

ومثلها أم الضحاك المحاربية كانت تحت رجل من الضِّباب ، وكانت تحبه حباً شديداً فطلقها فقالت :

هل القلب إن لاقى الضَّبابِّىَ خالياً … لدى الركن أوعند الصَّفا متحرِّج ؟

---

(١) الحيوان للجاحظ ٣/٥٤

(٢) الأغانى ٣/٣٣ ويرى الزبير بن بكار أن الشعر لابن زهير المخنث لكنى وجدت فى الأغانى ٨/٥١ رثاء أسيفا قالته خولة بنت ثابت فى عمارة بن الوليد ، مما يرجح أن الغزل لها . الزميلة : الجبان الضعيف . نكد : شؤم عسر . جحد : بخيل

(٣) أخبار النساء ٣٥ والأمالى ٢/٨٧

وأَعَجلَنا قرب المحلِّ وبيننا ... حديث كتنشيج المريضين مُزْعِج
حديث لو ان اللحم يُصْلَى بحرّه ... طريًّا أتى أصحابه وهو مُنْضَج[1]

ولها فيه شعر آخر ، وسلوان[2] .

وليس هذا بغريب من امرأة تحب زوجها حباً عنيفاً ، فهى لا تستطيب الحياة فى بعده أو هجره ، كما قالت أخرى :

وما أحْسَنَ الدنيا وفى الدار خالد ... وأقبحها لمـا تجهّز غازياً[3]

٣ — وإذا ما نكث بعهده أو اتهمته بالغدر مظلوماً قرّعَتْهُ وودّت له التعاسة،فقد كان بين رجل من عقيل اسمه صخر وابنة عم له حب ولقاء ومواثيق ، ثم زوجه أبوه غيرها على كره منه ، فرض ، وكانت ليلى أشد به وجداً وحباً ، فأرسلت إليه جاريتها لتقول له :

تَعْسًا لمَن بغـير ذنب يَصْرِمُ ... قد كنت يا صخرُ ، زماناً تزعم
أنك مشغوف بنـا متيَّم ... حتى بدا منك لنا المجَمْجَم[4]

٤ — ولقد تستر حبها ، فتتجه بغزلها إلى الحنين لوطنها ، كما سبق فى حنين هند بنت عصم السدوسية ، وحنين وجيهة بنت أوس الضبية ، وكما فى قول امرأة من أبان كانت متزوجة فى كلب ، ورأت يوماً جملا من ديارها ، وأحست أنه يحن إلى وطنه ، فجاوبته حنينا بحنين كما سبق .

وكذلك صبغت أسماء المرية صاحبة عامر بن الطفيل حنينها إلى حبيبها بصبغة الشوق إلى الوطن :

أيا جَبَلَىْ وادى عُرَيْعِرَةَ التى ... نأت عن ثَوَى قومى وحُمَّ قدومها

---

(١) الأمال ٢/٨٦ وزهر الآداب ٤/٨٠
(٢) الأمالى ٢/٨٧ وزهر الآداب ٤/٨٠
(٣) الحيوان للجاحظ ٣/٥٤
(٤) أخبار النساء ١٠٦ المجمجم : المخفى فى الصدر

ألا خليا مجرى الجنوب لعـــله ... يداوى فؤادى من جواه نسيمها
وكيف تداوى الريح شوقا مماطلا ... وعيناً طويلا بالدموع سُجومها
وقولا لركبان تميمية غدت ... إلى البيت ترجو أن تُحَطَّ جُرومها
بأن بأكناف الرَّغام غريبة ... مولَّهة ثكلى طويـــلا نَثيمها
مقطعة أحشاؤها من جوى الهوى ... وتبريح شوق عاكف مايَرِيمها (١)

بين الجاهلية والإسلام :

كثر غزل النساء فى الإسلام ، وفاض فى العصر العباسى ، تأثراً بالحضارة والنعمة ، وضعف الأخلاق البدوية ، حتى لنجد فى غزل بعضهن تكسراً لا يليق (٢) ، ولكن غزلهن فى القرن الأول للهجرة لا يختلف عن غزلهن فى العصر الجاهلى من حيث مناحيه ومعانيه إلا قليلا .

ومن أمثلته أن أبا بكر رضى الله عنه مرّ فى خلافته بطريق من طرق المدينة فسمع جارية تطحن وتنشد :

وعشقته من قبل قطع تمائمى ... متمايسا مثل القضيب الناعم
وكأن نور البدر سُنَّة وجهه ... يُنْمى ويَصْعَدُ فى ذؤابة هاشم
وأنا التى لعب الغرام بقلبها ... فبكت بحُبِّ محمد بن القاسم

فدق عليها الباب ، فخرجت إليه ، فقال : ويلك أحرة أم مملوكة ؟ قالت : مملوكة يا خليفة رسول الله . فسار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه ، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبى طالب ، وقال : هؤلاء فِتَنُ الرجال (٣) .

---

(١) الأمالى ٢/١٩٧ حم قدومها : قدر وقضى . نثيمها : صوتها وأنينها . مايريمها : مايزايلها (٢) فى كتاب السيوطى نزهة الجلساء فى أشعار النساء المخطوط شعر لبعض المحدثات فيه مجون لم نشهد مثله فى العصر الجاهلى ولا فى القرن الأول .
(٣) أخبار النساء ١١٥ سنة وجهه : دائرته أو صورته أو جبهته وجبيناه

وقد تغزلت أم خالد الخثعمية في جَحْوش العُقَيْلي ، فدعت لدياره بالسحب الغزار الواكفة ليشرب من مائها جحوش ، وينظر إلى برقها ومطرها بعينيه اللتين تشبهان عيني الصقر ، ثم فدت بنفسها عيني جحوش وقميصه وأسنانه المجلوة ، وأقسمت أنها قد ولهت به كما ولهت عفراء بعروة ، وقالت إنه مباح لجحوش أن يلج بيتها وأهلها نيام وهي لأجله تحب النجديين وتكره الحجازيين :

فليت سِماكيّا يطير ربابه ... يقاد إلى أهل الغضا بزمام

ليشرب منه جَحْوَشٌ ويَشيمَه ... بعينيْ قطاميّ أغرَّ شآمي

بنفسي عينا جحوشٍ وقميصُه ... وأنيابه اللاتي جلا ببَشام

فأقسم أني قد وجِدت بجحوش ... كما وَجَدَتْ عفراء بابن حزام

وما أنا إلا مثلها غير أنني ... مؤجَّلَةٌ نفسي لوقت حِمام

فإن كنتَ من أهل الحجاز فلا تَلجْ ... وإن كنت نجديًا فلجْ بسلام

رأيتُ لهم سيماء قوم كرهتهم ... وأهل الغَضا قوم عليَّ كرام[1]

ففي هذا الغزل إغراق في الإعجاب بجمال الرجل الجسدي ، واستطابة لزيارته ليلا والأهل هجود .

ومثله قول خيرة بنت أبي ضَيْغم البَلَوِيَّة وكانت من أظرف النساء .

فما نُطْفَةٌ من ماء بَهْسٍ عذبةٌ ... تُمَنَّعُ من أيدي الرواة أَرُوحُها

بأطيب من فيه لو انك ذقته ... إذا ليلة سحَّتْ وغاب نجومها[2]

ثم إن في غزل بعضهن لونًا من المبالغة كقول امرأة بدوية ، على شعرها مسحة الإسلام:

فلو أن ما ألقى وما بي من الهوى ... بأرعنَ ركناه صفًا وحديد

---

(١) الأمالي ٢/ ١٠ وبلاغات النساء ١٩٤ مع بعض تغيير

(٢) بلاغات النساء ٩٧ ، بهس : اسم ماء . أروحها : أشمها أو أنالها وأصيبها .

تَقَطَّر من وجد وذاب حديده وأمسى تراه العين وهو عَميد
ثلاثون يوماً كل يوم وليلة أموت وأحيا إنَّ ذا لشديد
مسافةَ أرض الشام ويحك قربى إلىَّ ابنَ جَوَّاب يزيدَ أريد
فليت ابن جواب من الناس حظنا وأن لنا فى النار بعدُ خلود[1]

والأمثلة على غزلهن شتى كغزل الخنساء بنت التَّيحان فى جَحْوش الخفاجى[2]، وغزل امرأة عامرية فى حصن[3]، وغزل أم فروة الغطفانية[4] وغزل امرأة من بنى عامر فى مالك[5]، وحنين امرأة من بنى عامر إلى كثيب قومها[6].

وقد تذكرت عشرقة المحاربية — حين هرمت — ما كان منها فى صباها فقالت إن المحبين والمحبات لم يجربوا من الحب إلا بعض ماجربت :

جريتُ مع العشاق فى حَلْبة الهوى ففقتهم سَبْقاً وجئت على رِسْل
فما لبس العشاق من حلل الهوى ولا خلعوا إلا الثياب التى أبلى
ولا شربوا كأسا من الحب مُرَّةً ولا حُلوة إلا شرابهم فَضْلى[7]

وكذلك تغزلت عُلَية بنت المهدى[8]

---

(١) مجالس ثعلب ١/٨٠ والمنظوم والمنثور لابن طيفور ورقة ٧٣ مخطوط.
(٢) بلاغات النساء ١٩٤ ولعله جحوش بن عمرو بن سلمة وقد وفد أبوه على النبى واستقطعه (الأغانى ٢٠/١٦٥) (٣) أشعار النساء المرزبانى
(٤) الحيوان للجاحظ ٣/٥٤ وفى زهر الآداب ١/١٦٧ أنه لعاتكة المرية فى ابن عمها المغيرة (٥) معجم البلدان ٤/١٩٢
(٦) أشعار النساء للمرزبانى .
(٧) شاعرات العرب ٩١ و ١٠٢ .
(٨) فوات الوفيات ٢/١٠٠

خصائص شعرها

١ — إجادة الرثاء :

استبان مما سبق أنهن لم يبرعن إلا فى الرثاء ، لأنه وثيق الصلة بنفوسهن وميلهن ، فهن رقيقات الشعور ، ضعيفات الاحتمال ، سريعات الانفعال ، فياضات العيون ، لا يطقن فقدَ الأحباب ، وهن أشــد حزناً وأحدُّ لوعة من الرجال .

على أن رثاءهن فى جملته متشابه السمات ، لا يستطيع منافسة رثاء الرجال ؛ لأن مراثى الرجال الصادرة عن عواطف صادقة تصور شخصياتهن ونظراتهن إلى الحياة .

وقد قصرن فى الأغراض التى عالجنها ، فلم تدان إحداهن شاعراً فى الغزل أو الحماسة أو الفخر أو الهجاء ، فنحن نذكر الخنساء على أنها قد أجادت الرثاء ، وشأَتْ فيه بعض الرجال ، وإن تخلفت عن الفحول فى براعة التصوير وقوة الأداء ، ولـكنا لا نستطيع أن نجد شاعرة قاربت شاعراً فى فن آخر .

وكان المتوقع أن يبرعن فى أغنيات الأطفال ، لـكن حظهن هنا ضئيل أيضاً كما سبق فى فصل الأم .

وليس لهن فى الوصف نصيب ، مع أن الرجال الذين عاشوا معهن فى البيئة نفسها قد جالوا فى الوصف جولات ، فوصفوا الطبيعة الصامتة ، والطبيعة الحية والمتحركة ، ولاسيا الخيل والابل .

وليس مرجع هذا إلى نقص فى الذكاء ، لأن بعض علماء الدراسات النفسية قد خلصوا من تجارب عدة « إلى أن هناك قدراً مشتركاً بين الناس من حاسة الجمال ، وأن هذا القدر فطرى غرزى ولد معنا ، وليس مكتسباً من تجارب أو دربة ،

ولا يشترط فيه غير اتحاد نسبة الذكاء العام بين الأفراد . أى أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الذكاء العام وما ينشأ عليه المرء من إحساس بالجمال . وتفوق إنسان على آخر فى هذه الناحية يتكون فيما بعد بالتجارب الخاصة أو ما يمكن أن يسمى بالدربة والمرانة »[1] .

ثم إنهن لاحظ لهن من المدح كما أسلفت .

٢ ـ وحدة الموضوع :

وتمتاز قصائدهن بوحدة الموضوع ، وقد أسلفت نماذج من شعرهن فى الرثاء وغيره يتبين فيها صواب هذا الحكم ، فهن قلما أوردن فى رثائهن حكمة ، ولم يقدمن لقصائدهن بمقدمات كما فعل الشعراء ، من غزل ، وبكاء أطلال ، ووصف للرحلة ، وخطاب للرفيقين الخ .

ولم يجمعن فى شعرهن أفانين عدة من وصف ومدح وفخر كما كان يفعل كثير من الشعراء . ولعل سبب ذلك استغراقهن فى الموضوع الواحد لا يشغلهن إليه سواه ، أو أن التعدد فى القصيدة كان عملا فنياً يعمد إليه الشعراء ويتوخونه ، ولكن النساء لم يبلغن هذه المكانة الفنية .

٣ ـ غلبة المقطعات :

وقصائدهن مقطَّعات ، فليست لإحداهن مُطَوَّلة . وأطول قصائد الخنساء ــ وهى زعيمتهن فى طول القصائد أيضاً ــ قصيدتها التى مطلعها :

ألا ياعين فانهمرى بغَـزْر　　　وفيضى فيضة من غير نَزْر[2]

---

(١) موسيقى الشعر ٢ لإبراهيم أنيس

(٢) الديوان ٦٧

أبياتها عشرون بيتاً . وقصيدتها التى مطلعها :

ما هاج حزنك أم بالعين عُوَّار ... أم ذَرَّفَتْ إذ خَلَتْ من أهلها الدار[١]

أبياتها خمسة وثلاثون . على أن بعض أبياتها غير مقطوع بنسبها إليها .

وقصيدتها التى مطلعها :

أعينىَّ هلا تبكيان على صخر ... بدمع حثيث لا بكىء ولا نَزْر[٢]

أبياتها تسعة عشر ، وبعضها غير مقطوع بروايته

وقصيدتها التى مطلعها :

ألا ما لعينيك أم مالهـا ... لقد أخضل الدمـع سِرْبا لها[٣]

أبياتها سبعة وثلاثون ، وليست كلها مقطوعاً بروايتها .

على حين تكثر المطولات فى شعر الرجال ، فمثلا قصيدة متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك عدتها واحد وخمسون بيتاً[٤] ، ومرثية أبى ذؤيب الهذلى لبنيه عددها سبعة وستون بيتاً[٥] ، ومرثية أبى زيد الطائى للجلاح ابن أخته أبياتها ثمانية وخمسون بيتاً[٦] .

وللرجال مطولات فى غير الرثاء أيضاً ، فمعلقة امرىء القيس عدتها اثنان وثمانون بيتاً ، ومعلقة طرفة عددها مائة وسبعة ، ومعلقة زهير أبياتها ثلاثة وستون ، ومعلقة لبيد ثمانية وثمانون ، ومعلقة عنترة أربعة وثمانون ، ومثلها مطولة الحارث بن حلزة ، ومدحة الأعشى للأسود بن المنذر أو المنذر بن الأسود عدتها

---

(١) الديوان ٧٣

(٢) الديوان ٨٥ (٣) الديوان ٢٠١

(٤) المفضليات ٢/٦٥ وجمهرة أشعار العرب ٢٩٢ والأمالى لليزيدى ١٨ ـ ٢٥ وحماسة الخالدين ٣٨٧ مخطوط. (٥) جمهرة أشعار العرب ٢٦٤

(٦) جمهرة أشعار العرب ٢٨٦ والأمالى لليزيدى ٧ ـ ١٣

خمسة وسبعون بيتاً [١] ، ومدحته لقيس بن معد يكرب أبياتها ثلاثة وثمانون [٢]، وهجاؤه لعلقمة ستون بيتاً [٣] ، وهجاؤه لشيبان بن شهاب سبعون بيتاً [٤] .

وقد نسبت إلى النساء مطولات ، ولكنها تحمل دلائل وضعها ، مثل المطولة التى نسبت إلى الدعجاء بنت المنتشر بن وهب فى واحد وأربعين بيتاً . ومن أبياتها التى تحمل دليل الوضع .

فبت مكتئبا حَـرَّانَ أندبه حتى أتتْنى بها الأنبـاء والخبر

فكلمة مكتئب وحران دالتان على أن القائل رجل لا امرأة . على أن فى أسلوبها لخولة الرجال ومعانيهم مثل :

لا تأمنُ البازل الكَوْماء ضربته بالمشرفىِّ إذا ما اخْروَّط السَّفرُ

وتَذْعَرُ البُزْلُ منه حين تبصره حتى تَقَطَّعَ فى أعناقهـا الجِرَرُ

لا يتأرَّى لمـا فى القـدر يرقبه ولا يعض على شُرْسوفه الصَّفَرُ [٥]

فهذه القصيدة ليست للدعجاء ، إنما هى لأعشى باهلة فى رثاء أخيه لأمه المنتشر بن وهب [٦] .

فما السر فى قصر قصائدهن ؟

ربما كان مبعث هذا فى الرثاء تعاطى الموضوع الواحد ، وأن دموعهن وصياحهن وأناتهن تنفس حزنهن تنفيساً أقوى وأبرز من الشعر ، فيجدن فيها بعض السلوى ، فيؤثرنها على الشعر المطول .

---

(١) ديوان الأعشى ٣ (٢) ديوان الأعشى ١٣

(٣) الديوان ١٠٤ (٤) الديوان ١١١

(٥) رياض الأدب فى مراثى شواعر العرب ١١٨ . اخروط : بعد الطريق . الجرر : ج . جرة وهى مايسترجعه البعير من بطنه . النوفل : البحر والكثير العطاء . الزفر : الكثير الأهل والعدة . يتأرى : ينتظر . شرسوفه : طرف الضلع . الصفر : دويبة فى البطن

(٦) جمهرة أشعار العرب للقرشى ٢٨٠ وطبقات الشعراء لابن سلام ٨٢ والكامل للمبرد ٢/ ٣٩٠

وأما فى شعرهن كله فلأنهن ملولات لا يصبرن على قرض الشعر مدة طويلة، والقصيدة المطولة تحتاج إلى جهد وصبر وعزيمة كما سيجئ .

٤ ــ صور وتعابير نسوية :

وفى شعرهن صور ، وتعبيرات نسوية ، كقول الخنساء فى رثاء صخر :

وتعشى البصيرَ بطعن ألـيم   وتعطى الجزيل وتحمى الذمارا
فيُلْفَى صريعا يَمُجُّ النجيـع   كمِرْجل طباخةٍ حين فارا
وهاجرة صاخدٍ حرها   جعلتَ رداءك فيها خمارا[1]

فالتشبيه بمرجل الطباخة حين يفور ، وتشبيه الرداء بخمار يليقان بالأنثى .

وكقولها فى تحريضها على الثأر لصخر :

فتغسلوا عنكم عارا تَجَلَّلَكُمْ   غسل العوارك حيضا عند أطهار[2]

وكقولها (أوجعنى الدهر) :

تَعَرَّقنى الدهر نَهْسًا وحزّا   وأوجعنى الدهر قَرْعاً وغَمْزا[3]

وكقولها (لهفى) :

لهفى على صخر فإنى أرى له   نوافل من معروفه قد تولت
لهفى على صخر لقد كان عصمة   لمولاه إذْ نعل بمولاه زلت[4]

وكقولها (ويلى) :

ويلى عليه ويلةً   أصبحتُ حصنى منكسر[5]

وكقول عاصية فى رثاء أخيها عمرو بن عاصية السلمى :

يا لهفى نفسى ضِلَّةً جَزَعا   على ابن عاصية المقتول بالوادى[6]

---

(١) ديوان الخنساء ١٠١ و ١٠٨
(٢) الديوان ١١٧ العوارك : الحوائض . عند أطهار : عند انقطاع الحيض
(٣) أمالى ان الشجرى ١/٢١٥ والديوان ١٤٣   (٤) الديوان ٢١
(٥) الديوان ١٢٤   (٦) الأغانى ١١/١٥

٥ ــ لين التعبير :

وشعرهن ألين من شعر الرجال كثيراً ، سواء فى الرثاء أو فى الفخر أو فى الهجاء أو الغزل ، لأن طباعهن رقيقة لايلائمها اللفظ الحوشى المستكره ، وتعبيرهن صورة من طبعهن ، ولأن الجزالة والفحولة والقوة فى التعبير لاتوائم نفسيتهن .

غير أن فى قليل من شعر الخنساء بعض الغريب المستكره الذى لا موسيقية فيه ؛ لأنها كانت امرأة مسترجلة كقولها :

قد راعنى الدهر فبؤسـا له   بفارس الفرسان والخنْشَليل(١)

وقولها :

يا عين بـكّى فارسـا   حَسَنَ الطعان على الفَرَسْ
يذر الـكمىَّ مجـدَّلاً   تَرِبَ المناخر مُنْقَمِس(٢)

وقولها :

يَغْشَوْن منـك غُطَامِطاً   جاشت بوابـله الرواعد(٣)

وقولها :

فى جوف رمسٍ مقيمٌ قد تضمنه   فى رمسه مُقْمَطِرَّاتٌ وأحجار(٤)

٦ ــ كثرة الترصيع :

وإذْ كانت المرأة بطبعها مولعة بالزينة وبالمظاهر الخلاب « وتغرها الظواهر وإن ساء المخبر ، فالجواهر الزائفة الحسنة الشـكل المنسجمة الصوغ تقع فى نفسها موقعاً حسناً وإن كانت قليلة القيمة »(٥) فإنها قد أكثرت من الترصيع فى الشعر كثرة تسترعى النظر .

---

(١) الديوان ١٩٠ ولسان العرب ٣٣٦/١٣ الخنشليل : السريع الماضى والجيد الضرب بالسيف

(٢) الديوان ١٥٤ وبعضهم لم يروها للخنساء . منقمس : ملق على الحضيض

(٣) الديوان ٦١ الغطامط : البحر الـكثير الماء . الرواعد: السحب ذوات الرعد والمطر

(٤) الديوان ٨٣ المقمطرات : الدواهى أو الصخور الصلاب الشداد .

(٥) فى علم النفس . الإبراشى وحامد عبد القادر ٣٦٢/٣

ا — والترصيع ضرب من الإيقاع الصوتى والانسجام الموسيقى « ولسريان النغم فى كل أجزائه أو أكثرها عد أفضل ضروب السجع وأعلاها مرتبة[(١)] » لأن التتابع فى الكلمات ورنين مقاطعها يؤلف صورة موسيقية تستجيب النفس لها، وتنسجم مع التنغيم الذى تحدثه، ويطبع الأسلوب بطابع صوتى رنان، فيساير السمع هذا التآلف الموسيقى، مدفوعا بالترقب وانتظار توقيع خاص، وتصحبه فى ذلك حال نفسية من الرضا والإعجاب والاطمئنان وغيرها « هذا إلى أن الأثر السمعى يصحبه أثر جسمى وعضلى، يجعل السامع يشعر بأن وزن الكلمات وما فى العبارات من تنغيم موسيقى يهز أعصابه، ويسير به فى صعود وهبوط، أو استواء، أو إسراع أو إبطاء »[(٢)].

وهذا النوع من الحلى الموسيقية افتتان فى طرق ترديد الأصوات فى الكلام، ليسترعى نغمه الآذان بألفاظه، كما يسترعى القلوب بمعانيه، فهو مهارة فى نسج الكلمات، وبراعة فى ترتيبها وتنسيقها، ومهما يتنوع وتتعدد طرائقه فإنها يجمعها أمر واحد هو العناية بحسن الجرس، ووقع الألفاظ فى الأسماع.

ولا شك أنه يزيد الشعر موسيقى، لأن الأصوات التى تتكرر فى البيت مضافة إلى تكرر القافية وإلى الوزن، تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم، يستمتع بها من له دراية بهذا الفن، ويرى فيها المقدرة والمهارة. وربما لا يقدر عليه إلا الأديب الذى وهب حاسة مرهفة فى تذوق الموسيقى اللفظية[(٣)].

وقديما تنبه له النقاد، فسماه ثعلب فى كتابه قواعد الشعر الأبيات المُوضَحَة، وقال إنها ما استقلت أجزاؤها، وتعاضدت فصولها، وكثرت فقرها، واعتدلت

---

(١) صور البديع. على الجندى ٢/٢٩ (٢) الأصول الفنية للأدب. عبد الحميد حسن ٣٩

(٣) موسيقى الشعر. إبراهيم أنيس ٣٩

أجزاؤها ، فهى كالحلل المُوضَحة ، والفصوص المجزعة ، والبرود المحبرة[١] .

وقد فضله قدامة وأطنب فى وصفه ، وأتى بأمثلة له من شعر امرىء القيس وزهير وطرفة وغيرهم[٢] .

ب — ولـكن هذا الترصيع الذى أكثرت منه النساء شأنه شأن القافية التى يلتزم فيها مالا يلزم ، فجماله ينشأ من ندرته ، فإذا كثر ثقل ، لأن الإسراف فى التجانس قبيح فى الموسيقى والشعر جميعاً ، حتى إن الاختلاف فى بعض الأحيان يعد عنصراً من عناصر الانسجام .

« وهذا الاختلاف لا ينفك يتزايد فى الموسيقى الحديثة ، وله قيمة فى الشعر ، وذلك ما فعله فـكتور هوجو فى بعض أشعاره ، كما اتبعه لافونتين وموسيه .

الانسجام شىء نسبى ، وليس أعذب من عودة إلى التوافق التام بعد سلسلة من الموافقات ، ولاشىء أجمل وقعاً فى الأذن من أن تسمع فجأة فى قصيدة لموسيه بيتاً يلتزم مالا يلزم فى وسط طائفة من الانسجام المعتاد[٣] .

لذلك كان قدامة على حق فى قوله إن الترصيع يحسن إذا اتفق له فى البيت موضع يليق به ، وإنه معيب إذا تواتر واتصل فى الأبيات ، لأنه دال على التعمد والتكلف[٤] .

واتفق معه أبو هلال فى هذا الرأى وقال : إن بعض القدماء قد ارتـكبوا هذا ، فبانت على أبياتهم سمة التعسف ، واستجاد قول الخنساء :

حامى الحقيقة محمود الخليقة مهدىُّ الطريقة نَفَّاع وضَرَّار

وقال هذا بيت جيد :

ثم ذكر بيتها :

---

(١) قواعد الشعر لثعلب ٣٧ (٢) نقد الشعر لقدامة ٢٤ ـ ٣٠ والعمدة لابن رشيق ٢/٢٢

(٣) مسائل فلسفة الفن المعاصرة جويو ١٧١ (٤) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ٢٨

فعَّال ســـامية ورَّاد طامية المجد نامية تَغنيه أســـفار

وقال : هذا البيت ردىء لتبرؤ بعض ألفاظه من بعض[١] .

ولقد بلغ ببعض الشعراء بغضهم للتكلف أن تجنبوا التصريع فى مطالع بعض القصائد كالأخطل ، وكان الفرزدق كثيراً ما يصرع ، وأكثر شعر ذى الرمة غير مصرع المطالع ، وهو مذهب كثير من الفحول[٢] . وكذلك فعل بن أحمر وأمية ابن حرثان الكنانى ، على أنهم كانوا يصرعون بعد البيت الأول ، وربما صرعوا أبياتا فى القصيدة الواحدة إظهاراً لمقدرتهم ، وأكثر من كان يفعل ذلك امرؤ القيس[٣] .

جـ — وقد رَصَّع الرجال كقول أبى المثلم فى رثاء صخر الغى :

آبى المضيمة آتٍ بالعظيمة متــلاف الكريمة لاسِقْط ولا وان

حامى الحقيقة نسّال الوديقة مِعْـــتاق الوسيقة جلد غير ثُنْيان

رَقَّاء مَرْقَبَة مَنَّاع مَغْلَبة ركّاب سَلْهَبَةٍ قطَّاع أقران

هَبَّاط أودية شـــهَّاد أندية حَمَّال ألوية سِرْحان فتيان[٤]

وقول عامر بن الطفيل :

ولـكننى أحمى حماهـــا وأتقى أذاها وأرمى من رماها بِمِقْضَب[٥]

ولعل أكثرهم حفاوة بالترصيع امرؤ القيس ، كقوله .

---

(١) الصناعتين لأبى هلال ٣٦٧ (٢) العمدة ١/١١٥

(٣) نقد الشعر لقدامة ٣٠ ـ ٣٤

(٤) الأغانى ٢٠/٢١ والعمدة ٢/٢٢ وقد نسبت الأبيات إلى الخنساء فى ديوانها ٢٣٩ ونسب البيت الثانى إليها فى أساس البلاغة مادة عتق . آبى المضيمة : لا يرضى الذل والظلم . نسال الوديقة : يقتحم الهواجر . معتاق الوسيقة : يعتق الطريدة وينجيها ويسبق بها . وفى روايه الوثيقة يكون المعنى أنه واف بعهده . غير ثنيان : سيد مقدم ، والثنيان هو الذى دون السيد مقاما . مرقبة : موضع مراقبة العدو . سلهبة : فرس طويلة

(٥) ديوان عامر القصيدة ٣٢ والصناعتين ٣٦٧

فتور القيـــام قطوع الـكلام   تَفْتَرُّ عن ذى غُروب خَصِرْ[١]

وقوله :

أفاد فجاد وســـــاد فزاد   وقال فزاد وعاد فأفضـــل[٢]

وقوله :

كأن المُـدام وصَوْب الغَمام   وريح الخُـزامَى ونَشْر القُطُر

يُعَـلّ به بَرْدُ أنيـــابها   إذا طَرّب الطائر المُسْتَحِر[٣]

وقوله فى وصف حصانه :

سليم الشظى عبل الشوى شنج النّسا   له حَجَبَاتٌ مشرفات عَلَى الْفَالِ[٤]

وقوله :

كأن المدام ، وصوب الغمام   وريح الخزامى ، وذوب العسل

يعلّ به برد أنيابهـــا   إذا النجم وَسْط السماء استقل[٥]

وقول زهير بن أبى سلمى .

كبْداء مقبلةً ، ورْكاء مدبرةً   قَوْداء ، فيها إذا استعرضها خَضَع[٦]

د — أما ترصيع النساء فهو كثير كقول الخنساء :

غـــداة لقوهم بملمومـــة   طحون يغادرن فى الأرض وكْزا

ببيض الصِّفاح ، وسمر الرمـــاح   فبا لبيض ضرباً و بالسمر وَخْزا[٧]

وقولها فى رثاء صخر :

سمحٌ خلائقه ، جزلٌ مواهبـــه   وافى الذِّمام إذا ما معشر غدروا[٨]

---

(١) ديوان امرىء القيس ٧٨ والعمدة ٢/٢٤ خصر : بارد

(٢) الديوان ١٧٢ (٣) الديوان ٧٩ . القطر : عود يتبخر به . المستحر : المغرد سحرا

(٤) الديوان ١٤٤ الشظى : عظم لاصق بالذراع . الشوى : الأطراف . الشنجج : التقبض النسا : عرق فى الفخذ . الحجبات : رءوس عظام الوركين . الفال : لحم الورك أو عرق عن يمين العجب ويساره

(٥) الديوان ١٧١ يعل : يسقى مرة بعد مرة (٦) نقد الشعر لقدامة ٢٥

(٧) الديوان ١٤٥ (٨) الديوان ١٢٥

وقولها :

جم فواضله ، تندى أنامله ‏ ‏ كالبدر يجلو ولا يخفى على السارى
رداء عادية ، فكاك عانية ‏ ‏ كضيغم باسل للقرن هصار
جوّاب أودية ، حمّال ألوية ‏ ‏ سمح اليدين جواد غير مِقْتار (١)

وقولها :

سمحٌ سجيته ، جزلٌ عطيته ‏ ‏ وللأمانة راع غير خوّان (٢)

وقولها :

فالحمد خُلّته ، والجود عِلّته ‏ ‏ والصدق حَوْزته إن قِرْنه هابا
خطاب مَفْصَلَةٍ ، فرّاج مظلمة ‏ ‏ إن هاب مُفْظَعَةً أتّى لها بابا
حمال ألوية ، شهاد أندية ‏ ‏ قطاع أودية ، للوتر طلابا
سم العداة ، وفكاك العناة إذا ‏ ‏ لاقى الوغى لم يكن للقرن هيابا (٣)

وقولها :

رفيع العماد ، طويل النجاد ‏ ‏ ساد عشيرته أمردا (٤)

وقولها :

يعطى الجزيل ، ولا يَلْحى الجليل ، ولا ‏ ‏ يعيا السبيلَ إذا قيل مَنْ هادى ؟ (٥)

وهذا كثير فى شعرها (٦) .

ومن الترصيع قول جنوب الهذلية فى رثاء أخيها عروة :

لقد علم الضيف والمرملون ‏ ‏ إذا اغبرّ أفق وهبتْ شمالا
بأنكَ ربيعٌ ، وغيثٌ مَريعٌ ‏ ‏ وأنك هناك تكون الثمالا

---

(١) الديوان ١٣٦ عانية : أسيرة . هصار : كاسر . مقتار : شديد البخل

(٢) الديوان ٢٤٧ .

(٣) الديوان ٤ وفى قواعد الشعر لثعلب ٣٧ أن البيت حمال ألوية لأخت مسعود بن شداد العدوية

(٤) الديوان ٤١

(٥) الديوان [illegible] (٦) الديوان ١١ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٨١

. . . .

وحىّ أبحتَ ، وحىٍّ منحت   غداة اللقاء منـــــــايا عجالا
وحىّ وردت ، وثغر سددت   وعِلْجٍ شددت عليه الحبالا
ومال حويت ، وخيل حَمَيْتَ   وضيف قَرَيْتَ يخاف الوكالا[1]

وقول ليلى الأخيلية :

ألا رب مكروه أجبت ، ونائل   فعلت ، ومعروف لديك ومُنْكَرِ[2]

وقول عاصية بنت عمرو :

شهّاد أندية ، رفّاع أبنيـــة   شدّاد ألوية ، فتّاح أسداد
نحّار راغية ، قتّال طاغيـــة   حلاّل رابية ، فكّاك أقياد
قوّال محكمة ، نقاض مبرمة   فرّاج مُبْهَمَة ، حبّاسُ أوراد
حلاّل مُمْرِعة ، حمّال معضلة   قرّاع مُقْطَعَةٍ ، طلاع أنجاد[3]

وقول ليلى الأخيلية :

وقد كان مرهوب السِّنان وَبيِّـــن اللسان ومِجْذام السُّرَى غير فاتر[4]

من هذا يتجلى ولوع المرأة بالترصيع ، وولوعها بالتسميط ، وهو سجع ثلاثة أجزاء من البيت أو سجع جميعه كما سبق .

٧ ـ كثرة الاقواء :

فى شعرهن إقواء أحيانا ، وإكفاء نادراً .

ا ـ والإقواء والإكفاء شىء واحد فى رأى أبى عبيدة وأبى جعفر[5] ، ويونس[6] . وهما مختلفان عند غيرهما . فالإكفاء فى رأى المرزبانى أن يتقارب حرفا الروىّ ، كالنون والميم واللام لقرب مخارجها ، كقول الشاعر :

بُنَىَّ إن البرّ شىء هيِّنُ   المنطق اللـــين والطُّعَيِّمُ

(١) مراثى شواعر العرب ٨٣ الوكال : الضعف   (٢) قواعد الشعر لثعلب ٣٧
(٢) الاغانى ١١/١٥   (٣) نقد الشعر لقدامة ٢٧ مجذام السرى : قطاع السير ليلا
(٥) القائد ٢١ ، ٥٦   (٦) طبقات الشعراء ٥٦ و ٥٨

والعرب قد تخلط بين الإكفاء والإقواء[١]. أما الإقواء فهو اختلاف المجرى، والمجرى، حركة حرف الروى الذى تبنى عليه القصيدة، فتكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة أو منصوبة[٢].

وقد وقع الإقواء والإكفاء فى شعر الرجال على قلة. فمن إكفاء الرجال البيت السابق، وفى قصيدة لمتمم بن نويرة إكفاء[٣]، وكذلك فى قصيدة لعميرة ابن طارق[٤].

ومن إقواء الرجال قول بشر بن أبى خازم :

ألم تر أن طول الدهر يُسْلى ... وينسى مثل ما نُسيتْ جُذام

وكانوا قومنـــا فبغوا علينا ... فسقناهم إلى البلد الشآمى[٥]

وكذلك أقوى النابغة[٦]، وسلامة بن جندل[٧]، وعمرو بن أحمد الباهلى[٨].

ب — ولا شك أن الإكفاء والإقواء عيبان فى موسيقى الشعر، لذلك لم يُقْوِ أحد من الطبقة الأولى وأشباهها إلا النابغة، ثم تنبه لإقوائه فأصلحه[٩]. ولو أن المرأة كانت أرهف فى الحس الموسيقى من الرجل ما وقع فى شعرها إكفاء ولا إقواء. لكنهما قد وقعا.

فمن الإكفاء قول ابنة أبى مسافع فى رثائه :

وأنت الطاعن النجـــلا ... ء منها مُزْبِدٌ آنْ

وبالكف حسام صا ... رم أبيض خذّامْ[١٠]

ومن الإقواء قول الخنساء :

فدًى للفارس الجشمىِّ نفسى ... أفدِّيه بمن لى من حميمِ

---

(١) المرشح للمرزبانى ١٥ و ٢٠ (٢) الموشح ١٨ وطبقات الشعراء ٥٨
(٣) النقائض ٢١ (٤) النقائض ٥٦
(٥) الموشح ٥٩ (٦) الأغانى ٩/١٥٧
(٧) ديوان سلامة المخطوط. القصيدة الحائية
(٨) الموشح ٨٠ (٩) طبقات الشعراء ٥٥
(١٠) الموشح ٢١

أفـــديه كما أقررت عينى   وكانت لا تنام ولا تنيم[(١)]

وقول خرنق :

هم جدعوا الأنوف وأوعبوها   فما ينساغ لى من بَعْدُ ريقى

و بيض قد قعدن وكلُّ كحلٍ   بأعينهن أصبح لا يليقُ[(٢)]

وقول جليلة :

إذا الخيل سارت بعد صالح صدورُها   وخُوِّفَ ابنا وائل من عشيرِها

. . . .

فيا كم حريق النار تُبْدى شَرارَها   فيقدحُ فى كل البلاد سعيرها[(٣)]

وقول ابنة تميم بن الأخثم فى رثاء أبيها الذى قتله عقبة بن هبيرة :

أعقَيْبَ لا ظفرَتْ يداكَ ألم يكن   دَرَكٌ بحقك دون قتل تميمِ

. . . .

فلَيَلْحَقَنَّكَ فى العشيرة لامةٌ   ولَتُقْتَلَنَّ به وأنت ذميمُ[(٤)]

وقد سبق فى فنون شعرهن أمثلة شتى فيها إقواء .

٨ ـ شعرهن لا يمثل أنوثتهن :

وتتسم معانى شعرهن جملة بأن طابعها مذكر ، وقد بينت أن شعرهن لا يمثل إلا لونا ناصلا من خصائص الأنوثة ، وأنه يكاد يكون صورة تامة من شعر الرجال إذا استثنينا السمات الأسلوبية والمعنوية السابقة ، فما مرد ذلك ؟

قد يقال إن ظروفهن الخاصة حجبتهن عن بعض مجالى القول التى برز فيها الرجال ، وإن الشعر لا بد أن يصور تجربة ذاتية مرت بالشاعر ، فالذى يجيد الغزل لا بد أن يكون محباً ، والذى يصف الحرب لا بد أن يكون قد عركها ، وذاق حلوها ومرها ، وواصف الخمر لا بد أنه ذاقها وأحس نشوتها ، فكيف

(١) ديوان الخنساء ٣٣٢   (٢) ديوان الخرنق ٦ مخطوط.

(٣) رياض الأدب فى مراثى شواعر العرب ١٥   (٤) المرجع السابق ١٠٧

نتطلب من المرأة أن تجيد في فنون من القول لا تمس حياتها كما تمس حياة الرجال ؟

لكن ذلك مردود ، لأن المرأة العربية كما سبق قد أسهمت في الحياة الأسرية والاجتماعية ، وشاركت في الحرب ، فلماذا قصرت في الشعر ؟ ثم لماذا لم تنبغ في الأغراض المتصلة بحياتها النسوية ؟ ولماذا لم تتفوق في الرثاء غير الخنساء ؟

على أن دعوى التجربة الذاتية فيها تضييق وقسوة ومجافاة للواقع ، وإلا لوجب أن يعيش الروائي أو الشاعر أو الكاتب ألواناً من المعيشة ، وأن يجرب ضروباً من التجارب لا تتسع لها حياته ، ولا يطيقها .

والشاعر الموهوب يستطيع أن يتمثل الجو الذي يريده ، وأن يتخيله ويتأثر به ، ويعبر عن أحاسيسه كأنه أصيل في مشاعره .

ولا شك أن العاطفة قد تكتسب ، فهناك ظروف تحتم علينا أن ننفعل ، فسرعان ما يفرض علينا شعورنا بتلك الظروف أن ننفعل ، أو على الأقل أن نتوهم أننا منفعلون . وقد قال جو بلو : « إذا كنا مستيقظين فإننا لا نتحكم في التعبير عن عواطفنا فحسب ، بل نتحكم في عواطفنا نفسها . وهناك نصيب كبير من التصنع والعرف في عواطف الحياة الاجتماعية ، فنحن نعتقد أننا نشعر بها بمجرد أن نعتقد ضرورة الشعور بها ، وليست العواطف الاجتماعية هي التي تنطبع وحدها بطابع الإلزام ، بل ذلك شأن جميع العواطف السامية ، سواء أكانت خلقية أم جمالية أم دينية أم اجتماعية »[1] .

أريد أن أقرر أن الرجل الشاعر والمرأة الشاعرة قد يستمدان من عاطفة أصيلة ذاتية فينفسان عما بهما ، وهذا لا شك فيه . وقد يتأثران عن طريق المجاملة والمواساة والمشاركة للغير ، فينقلب تأثرهما إلى عاطفة أيضاً صالحة لأن تتنفس .

---

(١) مقدمة علم النفس الاجتماعي : بلوندل ٢٣٥

وإذا كان ذلك صحيحاً فإن الدعوى بأن المرأة لم تبرع فى فنون الشعر لأنها لم تنخرط فى الحياة العامة انخراط الرجل ، فليست مستقية من ينبوع العاطفة الذى يستقى منه الرجال ، دعوى لا تقوى على النقاش .

وقد أسلفت أنها تجافى الواقع ، لأن الأدباء كثيراً ما يبرعون فى تصوير أحداث ومشاهد لم يروها .

ثم إن العالمين النفسيين الكبيرين وليم جيمز وكارل لانج قد توافقا فى سنة ١٨٨٤ و ١٨٨٥ م على نظريه فى العواطف ، دون أن يكون أحدهما على علم ببحث الآخر ، وتسمى نظريتهما نظريه جيمز لانج Games-Lange Theory.

وملخص هذه النظرية أن الانفعالات ناشئة عن تغيرات جثمانية متعددة النواحى ، فنحن لا نبكى لأننا محزونون ، بل نحزن لأننا نبكى ، ونحن لا نرتعد لأننا نخاف ، بل نخاف لأننا نرتعد ، ولها أدلة على إثبات هذه النظرية ، ولغيرها ردود عليهما ، ليس هذا مجال بحثها[1] .

ولا شك أن فى النظرية كثيراً من الصـــواب ، لأن كثيراً من الممثلين والممثلات يحتم عليهم عملهم أن يقوموا بتمثيل دور معين ، فيتظاهرون بالضحك والفرح أو البكاء والحزن ، وهم كثيرا مايشعرون بعد هذا التظاهر بالسرور أو الأسف حقيقة ، وما ذلك إلا لأن حركاتهم وسكناتهم أحدثت تغيراً جثمانياً نجم عنه الفرح أو الأسى .

ثم إن المتظاهر بالمرض قد يمرض ، والمتظاهر بالصحة والعافيةقد يصح و يبرأ .

وقد أخذ برأيهما ريبو Ribot فى كتابه علم نفس العاطفة ، فقال : « إننا فى كل دراسة نفسية للعواطف أن نختار بين أمرين مختلفين تمام الاختلاف ، وهذا الاختيار سيلزم باتباع طريقته الخاصة ، فالرأى الأول يقرر أن الحالات العاطفية ثانوية مشتقة من المعرفة وتابعة لها ، بل لا وجود للعواطف إلا بالمعرفة ، وذلك مذهب العقليين .

---

(١) فى علم النفس ٣ / ١٧٤

والرأى الثانى يقرر أن هذه الحالات العاطفية أولية أساسية مستقلة وغير متدخلة فى الذكاء ، ومن الممكن تصورها من غيره ، وهو مذهب العضويين» .

والنظرية الأولى (العقلية) هى نظرية هربات ومدرسته ، ومؤداها أن العاطفة لاتوجد إلا مرتبطة بالتصورات العقلية، فالعاطفة نتيجة لاجتماع الأفكار وإدراكها فى النفس[1] .

بعد ذلك نسأل لماذا لم تبرز المرأة فى فنون الشعر التى شاركت الآخرين والأخريات فى التأثر بدوافعها ، متظاهرةً مجاملةً فى أول الأمر، ثم منفعلةً انفعالا أصيلا بعده ؟

لقد رأت أحيانا وسمعت أحيانا أخرى عن ميادين القتال، وتناحر الأبطال، ولقد رأت مشاهد الطبيعة ، وسمعت من الشعراء إعجابهم بها ، وقريضهم فيها ، ولقد شاهدت بهجة قومها وقد ظفروا، وشهدت حسرتهم وأساهم وقد انكسروا، فأين شعرها فى هذا وأشباهه ؟

ليس السبب فى (تذكير) شعرهن هو ضيق حياتهن ، وإنما السبب فى فقدان شعرهن سمات الأنوثة ، وفى انطباعه بطابع الذكورة عدة أمور :

ا ــ أن الفن الرفيع الخالد ينبثق من عواطف فياضة طويلة الأجل ، وعواطف النساء جياشة ، لكنها منقطعة قصيرة الأنفاس « وتمتاز انفعالات الرجل من انفعالات المرأة بأنها أعمق وأطول أثراً ، وأقل ظهورا[2] » .

فمشاعر الرجل أشبه بالتيارات السفلية ، عميقة ورزينة لا تكاد تحس ، ووجدانات المرأة أشبه بالفقاعات والموجات الصغيرة ، فهى حادة فجائية فى الظاهر، ولكنها سريعة التغير ، دانية الغور إلا فى الحزن (على الأقل بمعنى الميل إلى ذرف الدموع ، والخوف ، والغريزة الوالدية ، وغريزة الخضوع ، والاستعداد للتقزز ، فكلها تبدو فى النساء أقوى منها فى الرجال[3] .

---

(١) تيارات أدبية بين الشرق والغرب .

(٢) نفسية المراهق ٤٨ .   (٣) كيف يعمل العقل ١٤٦/٢

ب ـ ثم إن الإنتاج الأدبى يحتاج إلى استعداد طبيعى ، وإلى جهد وصبر وتنقيح وإرادة ، والمرأة أضعف من الرجل إرادة كما يقرر علم النفس ، والفنان يستوحى من عقله الباطن ، ويستلم لمواكب من الأخيلة والصور ، ويتحرر من الحياة الشعورية الواعية ، ويدنو من لحظات غير واعية ، وحينئذ ترتفع الحجب التى كانت تفصل خارج نفسه عن داخلها ، فيعبر مستمداً من عقله الباطن ومن شعوره ، وإذاً فالتعبير الفنى إرادى وغير إدارى معاً . غير إرادى لأنه يستمد من الانفعال والعقل الباطن وينابيع الوحى ، وإدراى لأن المعبر يستمدمن فكره وشعوره اللغة التى يجسم بها أحلامه ويصور بها إلهامه :

«يقول لامب Lamb إن الشاعر يحلم فى يقظته، وليس ملكا لموضوعه، وإنما هو الذى يمتلك موضوعه ويصرفه ويسيطر عليه ، فهو يخلق فى السماء وهومدرك لما يقول[١] » .

ويقول رتشاردز Richarbs إن القدرة على التعبير عن التجربة الماضية هى أولى خصائص الشاعر[٢] .

فالإنتاج الفنى يرجع إلى عوامل عقلية ، تتجلى فى التحليل ، ويتضمن الانتباه الانتقائى أو التجويد، لأن النفس تعزل بعض التفصيلات وبعض الأشكال وبعض الوسائل ، وهى على وعى بَيِّن بالغاية التى تقصد إليها ، ويتضمن تداعى الأفكار والحكم والبرهنة . ويرجع إلى عوامل انفعالية ، لأن صور الإبداع لا بد فيها من عناصر وجدانية يستحيل الإبداع بغيرها[٣]، فهى الحافز أو الدافع أو الميل أو العاطفة ، أو أى عنصر من عناصر الوجدان .

ولا شك أن العامل الإرادى فى الإنتاج الأدبى يحتاج إلى جهد طويل . والأخبار مستفيضة عن شعراء العرب الذين كانوا ينقحون شعرهم ويعاودونه

---

(١) The Aesthetic Theories. by Dr Hanns. P. 142

(٢) Ebid P. 142

(٣) A. S. Eddington Space, Time and Graviiation P 200

بالصقل والتهذيب ، فلا كان أوس بن حجر وزهير بن أبى سلمى والحطيئة وأمثالهم يجودون شعرهم ، ويقفون عند كل بيت ، يعيدون فيه النظر ، لتخرج القصيدة كلها مستوية فى الجودة ، حتى لقد قال الحطيئة : « خير الشعر الحولى المحكك[١] » .

وقد وصف امرؤ القيس بن حجر ما يعانيه فى اختيار أجود ما تفيض به شاعريته ، فقال إن الأبيات تنثال عليه ، ولكنه يرد بعضها ، ويتمكن من نفسه فيكبحها كما يكبح الفارس جواده ، وقد تخير من شعره ست قصائد أو عشراً فى رواية ـ أو تخير من قصيدة كان يعالج نظمها ستة أبيات ـ لأنه نحى رديئها ، واصطفى جيادها :

أذود القــوافى عنى ذيادا ذياد غلام جرىء جوادا
فلما كثرن وعنّينى تخيرتُ منهن ستا جيادا
فأعزل مَرْجانهــا جانباً وآخذ من دُرّها المستجادا[٢]

وظل الشعراء بعد العصر الجاهلى يفخرون بتجويد شعرهم وتنقيحه ، ويعدون ذلك من ضروب التفوق والذوق والدراية برائع القول ، مثل ســواد بن كراع العكلى[٣] ، كما اشتهر أبو نواس والبحترى وغيرهما فى العصر العباسى ، وشوقى فى العصر الحاضر . بينما أكثر بعضهم من الارتجال كأبى العتاهية ، فجاء شعره كما يقول الأصمعى : « كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب ، والتراب والخزف والنوى » .

وسيطرت نزعة التنقيح والتجويد على كثير من أدباء الغرب ، فمثلا ، كان لافونتين ينظم المثل ، ثم ينظر فيه عشر مرات ، وفى كل مرة يحرر ويغير ،

---

(١) البيان والتبيين ٢/٩ و ١٣ .

(٢) ديوان امرىء القيس ٦٣ ورواها الآمدى فى المؤتلف والمختلف لامرىء القيس بن الحارث الكندى ورواها المرزبانى فى معجم الشعراء لامرىء القيس بن بكر بن امرىء القيس بن الحارث ورواها بعضهم لامرىء القيس بن عابس الكندى وكلهم جاهليون

(٣) البيان والتبيين ٢/١٢

ويحذف ويضيف . وكان شاتو بريان يبدأ الصفحة ثم يعيدها على نحو ما كان يفعل لافونتين ، ويقول بسكال : إنه حرر بعض فصول البروفنسيات خمس عشرة مرة »[٣] .

وكثيراً ما صور الأدباء عيهم أحياناً ، يقول الفرزدق وقد تحداه رجل من الأنصار أن يقول قصيدة مثل قصيدة حسان «لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحا» قاتله الله ، ما رميت بمثله ، لقد أتيت منزلى بالأمس ، فأقبلت أتصعّد وأصوّب فى كل فن من فنون الشعر ، فكأنى مفحم لم أقل شعراً قط ، حتى إذا نادى المنادى بالفجر رحلت ناقتى ، ثم أخذت بزمامها حتى أتيت ذبابا (جبل بالمدينة) فناديت بأعلى صوتى : أجيبوا أخاكم أبا لبينى ، فجاش صدرى كما يجيش المرجل ، فعقلت ناقتى ، وتوسدت ذراعها ، فما قمت حتى قلت مائة وثلاثة عشر بيتاً[١] .

ويتحدث الشاعر الكاتب ديهامل فيقول : كم من مرة استمعت فيها إلى رجال أو نساء يتحدثون وسط الجموع فى عربة قطار أو مطعم ، فتحدثنى نفسى فى كل مرة : ها قد وقعت على ضفة نفسية ، أو تسقطت ذلاقة ، أو لمحت دافعاً خفياً ، ولكننى عاجز عن أن أصوغ ما كشفت ألفاظاً ، وربما أستطيع فيما بعد أن أصور ما أحسست به ، أما الآن فلا ، وأنا أعلم أنى لم أصب التوفيق ، فسيأتى بعدى من يستفيد من تجاربنا ، وتسعفه عبقريته فيوفق إلى التعبير عما لحنا[٢] .

وإذاً فلا مندوحة فى قرض الشعر عن طبيعة ، وعن موهبة ، وعن جهد إرادى يبذله الأديب . وإن هذا الجهد الإرادى ليتمثل فى اختيار العبارات الملائمة والتنقيح ، وتصوير المعانى والمشاعر ، وهذا الجهد عظيم ، لأن إبراز العواطف والمشاعر فى صورة لفظية ملائمة شاق يحتاج إلى مقدرة وصبر ومرانة .

وقد تنبه بعض نقاد العرب لهذا ، فذكر بشر بن المعتمر الاستعداد والجهد[٣] ، وذكرهما الجاحظ[٤] ، وقرر الجرجانى أن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه

---

(٣) دفاع عن البلاغة ٦٦ الزيات

(١) النقائض ٥٤٧ (٢) النقد المنهجى عند العرب ٢٥

(٣) العمدة ١ / ١٤٢ والبيان والتبيين ١ / ١٣٥ (٤) البيان والتبيين ١ / ١١٨

الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل سبب من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان[١] .

وذكر أبو حيان التوحيدى أن الكلام ينبعث فى أول مبادئه إما من عَفْو البديهة ، وإما من كدِّ الرَّوِيَّة ، وإما أن يكون مركباً منهما وفيه قواهما بالأكثر والأقل .

ففضيلة عفو البديهة أن يكون أصفى ، وفضيلة كد الروية أن يكون أشفى ، وفضيلة المركب منهما أن يكون أوفى .

وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيه أقل ، وعيب كد الروية أن تكون صورة الحس فيه أقل ، وعيب المركب منهما بقدر قسطه منهما: الأغلب والأضعف . على أنه إن خلص هذا المركب من شوائب التكلف وشوائن التعسف كان بايغاً مقبولا رائعاً حلواً . والتفاضل بين البلغاء فى النظم والنثر إنما هو فى هذا المركب الذى يسمى تأليفاً ورصفاً[٢] .

حـ ـ ثم إن النساء أعجز من الرجال عن الابتكار ، حتى فيما يختص بالإناث وتظن لهن المقدرة فيه ، كالخياطة والطهو والغناء والرقص ، فالرجال هم الذين يبتكرون للسيدات نماذج المعارض والحلى ، وهم الذين يتفوقون فى فنون الطهو ، وتلحين الأغانى ، وتدريب الراقصات ، واختراع الأدوات المنزلية الجديدة من آلات الخياطه والنسج . « وفى هذا شرح للظاهرة المشاهدة من أن النساء أكثر تقبلا للحقائق ، والرجال أكثر ابتكاراً . فالنساء أقدر على ممارسة العمل الرتيب الذى يتطلب صبراً وتطبيقاً وذاكرة حاضرة ، أما الرجال فلهم براعه يحق الفخر بها فيما يتطلب كشفاً وبحثاً »[٣] .

---

(١) الوساطة . الجرجانى ٢١

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ٢/١٣٢

(٣) كيف يعمل العقل ٢/١٤٣

وفى رأى علم النفس وعلم الأحياء أن الذكر إيجابى والأنثى سلبية ، وقد تقرر هذا من ملاحظة الخلية المنوية للذكر وبويضة الأنثى ، فالحيوان المنوى نشيط متحرك ، يتقدم ليبحث عن البويضة ، والبويضة تتريث وتنتظر وتستسلم ، كما وضّح ذلك هافيلوك إليس Havelook Ellis [١] . وقد أشار الأستاذ إرنست كرتشمر Ernest Kretscthmer أستاذ الأمراض النفسية والعصبية بجامعة ماربورج فى كتابه (نفسيات العباقرة) إلى النساء اللاتى زاولن الفنون ، فذكر أن المرأة لم تُمْنَع تعلمَ الموسيقى والعزف على آلاتها ، لكن لم يخلد من النابغات فى الموسيقى إلا اللاتى اتصلن بالرجال ، مثل كلارا زوجة شومان الموسيقى العالمى ، وفانى أخت مندلسن ، وكورونا شروتر صديقة جيتى ، وغيرهن ، وذكر الشاعرة الألمانية أنيت فون درست هاشوف Anette Von Droste Hulshoff فقال إنها كانت أقرب إلى الرجولة فى مزاجها وكلامها ، وكانت تتزيا بزى الرجال ، وتتمنى فى بعض شعرها لو كانت صياداً منطلقاً بالعراء ، أو جنديا مقاتلا ، أو رجلا على الأقل . ولم تنظم قط فى عواطف الأمومة ، أو وصف الطفولة ، أو حنين المرأة إلى الحب والألفة البيتية ، وما شابه ذلك من معارض الشعر التى يجب أن يكْلَف بها النساء . وقال إن هذا النزوع إلى التشبه بالرجال مشهود مطرد فى نساء التاريخ المشهورات ، مثل اليصابات ملكة انجلترا ، وكاترين قيصرة روسيا ، وكرستينا ملكة السويد ، فهن ينبغن فى القدرة على بعض أعمال الرجال ، بمقدار ما ينقص فيهن من صفات الأنوثة ، لا بمقدار ما يزيد على الحاجة[٢] .

وكذلك مدام كورى ، فإنها كانت زوجة لعالم كبير تأثرت به ، ومسز براوننج الشاعرة الإنجليزية كانت زوجة للشاعر روبرت براوننج ، وجورج

---

(١) سيكولوجيا المرأة ٨٥ فرويد ترجمة محمد صدق وهذه الشجرة ١٧٣ للعقاد والأزمات الزوجية وعلاجها ٣٠ محمد زكى شافعى (٢) هذه الشجرة ٧٤ . العقاد

إليوت ألفت أحسن رواياتها وهى فى عشرة صديقها لويس ، واللادى ديلك Dilke كتبت فى الدراسة العالية حين كانت زوجة للعالم الأديب مارك باتيسون ، وكتبت فى السياسة والإدارة حين صارت زوجة لرجل سياسى[١] .

وهذا الحكم أقرب إلى الحق من حكم شوبنهور القاسى ، ذلك بأنه يرى أننا نخطىء فى تسمية النساء الجنس اللطيف ، ويجب أن نسميهن الجنس غير المتذوق ، لأنهن لا يتأثرن بالموسيقى والشعر والفنون الجميلة ، وإن كن يدعين هذا أحياناً رغبة فى إرضاء الرجال . ولسن قادرات على النظر الموضوعى إلى أى شأن من الشئون . وأشهر مشهوراتهن لم ينتجن إنتاجاً أصيلا فى الفنون الجميلة ، ولم يقدمن للعالم عملا ذا قيمة خالدة . لذلك كان الأسيويون أحكم من الأوروبيين حين اعترفوا صراحة بنقص المرأة ، وفرقوا بينها وبين الرجل فى كثير من الحقوق والواجبات[٢] .

وقفى على أثره الفيلسوف الاقتصادى برودون فى كتابه (ابتكار النظام) فرأى أن النوع الإنسانى ليس مديناً للمرأة بأية فكرة أخلاقية أو سياسية أو فلسفية ، أو بأى كشف صناعى ، فالرجل وحده هو الذى اخترع وكمل وعمل وأنتج وغذى المرأة ، وإن الدور الذى مثلته المرأة فى الآداب مثل الدور الذى مثلته فى المصنع ، فإنها لا تقوم فى المصنع إلا بما لا يحتاج إلى استعمال القريحة[٣] .

والفكرة المشتركة فى هذه الآراء أن المرأة عاجزة عن الابتكار ، وأن النساء المشهورات كن متصلات بعظماء من الرجال فحاكينهم ، واقتبسن من شهرتهم ، وكن أميل إلى مظاهر الرجولة منهن إلى الأنوثة .

وهذا حق ؛ لأننا لم نعرف شاعرة بهرت عصرها وأخملت شعراءه ،

---

(١) هذه الشجرة ١٧٣ . العقاد

(٢) كيف يعمل العقل ٢/١٣٥

ولم نعرف خطيبة أو كاتبة شدهت دهرها ، وأخملت كتابه وخطباءه .

والحكم كذلك فى العلم والصناعة ، لأن الطبيعة ضربت حجابها بين النساء والتفوق على الرجال أو مساواتهم فى هذا المضمار ، قبل أن يضرب الرجال على النساء الحجاب .

ويعزز علم النفس هذه الفكرة بتقريره أن الذكور يتفوقون على الإناث فى الأعمال التى تحتاج إلى تفكير ، كرد الأسباب إلى المسببات ، وفى القدر العقلية العامة(١) .

على أننا نجد الخنساء — أشعر النساء العربيات — امرأة مسترجلة ، فهى تَهْنَأ إبل أبيها ، وهذا من عمل الرجال . وأبوها يقول لدريد بن الصمة حين خطبها : « إن لهذه المرأة فى نفسها ما ليس لغيرها » ، ثم يستشيرها فتقول فى صراحة : « يا أبت أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح ، وناكحة شيخ بنى جُشَم ؟

ثم لما هجاها دريد ردّت عليه بمثل هجائه .

ولما قُتل أولادها فى حرب القادسية وعلمت بمصرعهم قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

وقد تنبه بَشّار إلى أنها أنثى كالرجل فقال : لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه . فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال : تلك غلبت الفحول ، كانت بأربع خُصى .

د — ويرجع السبب أيضا فى محاكاتهن للرجال واصطباغ شعرهن بالذكورة الفكرية والتصويرية إلى أنهن رأين الرجال متفوقين عليهن ، وأعجبن بهذا التفوق ، فقلدن الرجال ، ولا شك أن ما قرره تارد Tarde فى التقليد من الناحية الاجتماعية من الممكن أن ننتفع به هنا فى الناحية الأدبية . فهو يقرر أن التقاليد

(بمعنى نقل إنسان من إنسان بصفة عامة ، أو أديب من أديب ، أو أدب أمــة عن أدب أمة بصفة خاصة) يتبع سبيلا واحداً هو أن التقليد يسرى من الداخل إلى الخارج ، أى أن الأمة التي تقلد الأخرى هى الأمة التى تنقل ذوقها وأفكارها وأدبها قبل أن تنقل عاداتها ورفاهيتها ، فهى تقلد تقليدا داخلياً ، قبل أن تقلد تقليداً خارجياً ، وهو قانون ينطبق على الأفراد أيضاً.

وتارد يذهب إلى أن التقليد أيضا ينحدر من الأعلى إلى الأدنى ، بمعنى أن الأمة إذا أجدبت فى الآداب وكانت على صــلة بأمة أخرى مثرية فى آدابها ، أحست الأولى بفقرها و بثراء جارتها ، فدانت بتفوقها ، و إذاً تقف من أدب الأمة الثرية موقف المتطلع أو الآخذ ، فينحدر التقليد من الأمة المقَلَّدة إلى الأمة المقَلِّدة ، أى من الأعلى إلى الأدنى . وهذا التقليد طبيعى ، لأنه نوع من الجبر الاختيارى ، أى أنه جبر تحتمه المدنية نفسها ، وهى تفرض على الإنسان المتمدين أو المتطلع إلى الحياة أن يطيع القوانين العامة حينما يقف على الدرجة الأولى من سلم المدنية ، وهو إذا أطاعها فلأنه يجد من نفسه الحاجة إليها . وهذا ينطبق على الأمم ، وعلى العواصم وعلى الأفراد ، و ينطبق على العلم وعلى الآداب[١] .

ومن السهل تطبيق هذين القانونين على حال المرأة والرجل ، فالرجل حامى المرأة ، وهو القوام بشئونها ، وهو سندها وأملها ، أبا أو زوجا أو ابنا أو أخا ، وهو أقوى منها جسداً ، وأحصف رأيا ، وأسمى مكانا ، ثم هو أبرع منها شعراً وأقوى لسنا ، وهذه كلها دوافع إلى إعجاب المرأة به ، ومحاكاتها إياه ، وتأثرها خطاه .

ولست أبعد عن الصواب إذا حكمت حكما عاما : أن النساء فى العصر الجاهلى كن ملهمات للشعراء أعظم منهن منتجات للشعر وناقدات .

نعم هن اللاتى ألهمن الشعراء الغزل ، فأثرى الأدب بهذا الفن الجميل ، وهن اللاتى ألهبن فى الرجال روح الحماسة والمنافسة ، فصوروا عواطفهم ، وجملوا جنات الأدب بغراس ناضر ، حلو الجنَى ، دانى القطوف .

---

(١) تيارات أدبية ١١٦ ـ ١٤١

الجديد في البحث

و بعد :

فأى جديد فى هذا البحث ؟

أما الجديد فبعضه حقائق جزئية متناثرة فى غضونه لاحاجة إلى تـكريرها ، وبعضه حقائق عامة جديرة بإفرادها وذكرها .

١

كان العرب فى العصر الجاهلى متصلين بالأمم والديانات المعاصرة لهم بوسائل شتى ، وقد تأثروا بمن اتصلوا بهم ، وتجلى هذا التأثر فى ضروب من العقائد والأخلاق والعادات والنظم .

وقد بينت معالم هذا التأثر والتشابه أو التخالف فيما يتصل بأحوال المرأة .

لـكن سلطان البادية والبداوة كان غلابا ، يطبع الحياة العربية بطابعه ، ويصطبغ به العرب البداة والحضر .

٢

لقد طالما ردد بعض الباحثين المعتزين بالشعر الجاهلى أنه ثبت أمين للحياة العربية ، لـكنهم لم يحققوا هذه الدعوى بدراسات تتـكىء على الشعر الجاهلى ، وردد آخرون أن الشعر الجاهلى لم يصور الحياة العربية فى شتى مظاهرها .

وقد استنطقت الشعر الجاهلى ، فوجدته قد سجل مظاهر الحياة العربية ، وصور مفاخرها ورذائلها ، لـكن فى إجمال يوائم طبيعة الشعر وطريقته الفنية الوجدانية ، وجنوحه إلى التركيز والإيجاز والاكتفاء باللمح والإشارة .

وهذا الشعر الذى استقيت منه صحيح فى الأكثر الأعم ، لأنه بعيد عن بواعث النحل ، فهو لا يمت إلى عصبية قبلية أو سياسية ، وليس مما يتـكاثر به

الرواة المتنافسون، و يتزيد فيه القصاص والإخباريون ، ثم إنه غير مقصود لذاته ، إنما جاء عرضاً فى خلال القصائد ، وهو إلى ذلك كله لا يجافى النظم التى تحتمها البادية على قطانها

٣

كانت الصورة التى رُسِمَتْ للمرأة العربية مضطربة متناقضة ، فرسمتُ لها صوراً جلية ، إذ استمددت من الشعر الألوان والأصباغ التى رسمت بها صور المرأة ، وجليت مكانتها فى الحياة الاجتماعية والسياسية : فى الأسرة وفى القبيلة وفى المجتمع ، سواء أكانت أماأم زوجة أم بنتاً أم أختاًأم قريبة ، أم عضواً فى المجتمع ، وسواء أكانت فى سلم أم فى حرب .

٤

اتضح لى أن الشعراء كثيراً ما نسبوا إلى الأمهات أو نسبوا إليهن ، فاقتضى هذا النسب أن أعلل له ، فعرضت لنظرية التوتمية ، ونظرية الشيوعية عند العرب وفندتهما ، وأثبت بطلانهما بالنسبة إلى العرب .

ثم رجعت النسب للأم إلى أسباب شتى، ليس فيها أثر للتوتمية ولا للشيوعية .

٥

فى دراستى للبنت أثبت أن كثيرا من العرب كانوا يحبون بناتهم ، ويحدبون عليهن ، و يتكنون بأسمائهن ، و يهشون لمشورتهن ، و يرفعونهن مكاناً عالياً .

وبهذا صححت الرأى الشائع أن العرب جميعاً كانوا يبغضون البنات ، ويئدونهن .

٦

صححت الرأى الذى كان شائعاً عن المرأة الجاهلية أنها كانت فى الحضيض ، تسام الخسف ، وتعامل معاملة العبيد ، حتى جاء الإسلام فحررها من الكبول ،

ورفعها من الضعة ، وأكسبها حقوقا لم تكن لها .

فأبنت أن المرأة كانت فى الحياة الاجتماعية عزيزة عالية القدر ، ذات شخصية ورأى وحرية .

واستنبطت هذا الحكم من دراستى لمكانة الأم والزوجة والبنت والأخت والقريبة والمرأة ، فى القبيلة وفى المجتمع العربى .

وبينت أن المرأة كانت فى الحياة السياسية عضواً عاملا ، تشارك الرجال فى شئون جليلة ، وترتفع أحياناً إلى منزلتهم ، وتسودهم آونة فتملك عليهم ، أو تقودهم فى الحروب . حتى المرأة السبية كانت تعامل معاملة حسنة ، ميزت العرب من أمم كثيرة .

وإذا فلم تكن مكانة المرأة العربية أدنى من مكانة المرأة المعاصرة لها ، بل لقد جازت نساء عصرها ما عدا المرأة المصرية فى بعض أحوالها .

وخلصت من الموازنة إلى أن الإسلام قد وطد مكانتها ، وأكسبها حقاً جديداً لم يكن لها ، ذلك بأنه فرض لها نصيباً معلوماً من التركة .

٧

كشفت عن حقيقة أخرى : أن المرأة لم تكن تملك المال وتتصرف فيه فحسب ، بل كانت تنال من التركة نصيبا ، وإن لم يكن مقدراً مقرراً . فقد عثرت على نصوص استنبطت منها أن المرأة كانت ترث أحياناً ، واهتديت إلى نص فريد فذ يثبت أنها ورثت نصف الذكر فى حال ربما لم تكن الوحيدة فى المجتمع العربى .

٨

لم أجد تفرقة بين السبى والأمة فى المراجع اللغوية والتاريخية والدينية ، فلم أطمئن إلى ذلك ، لأن الروح العام للشعر الجاهلى يوحى بالتفرقة ، فاستطعت أن

أفرق بينهما فى الصفة ، والمنزلة ، والعمل ، والمعاملة ، ومنزلة أبناء كل منهما ، معتمداً على الشعر فيما ذهبت إليه .

٩

فندت — فى دراستى للإماء القيان — الفكرة الشائعة أن العرب لم يعرفوا الغناء الفارسى والرومى إلا فى الإسلام ، وأثبت أنهم كانوا على صلة بهذا الغناء فى العصر الجاهلى ، وأيدت بنصوص شعرية كثيرة أنهم عرفوا الآلات الموسيقية الأجنبية قبل الفتوح الإسلامية .

١٠

فى دراستى للمرأة الشاعرة اهتديت إلى كثير من الشواعر المنسيات ، ودرست شعرهن وشعر غيرهن ، واستطعت أن أميز الأصيل من الدخيل ، ووازنت بين شعر النساء وشعر الرجال ، واستنبطت ملامح شعر النساء فى كل فن ، وخصائص شعرهن فى كل فنونهن ، ورجعت هذه الخصائص إلى نفسية المرأة ومقتضيات حياتها .

ثم انتهيت إلى أن النساء الشواعر كن يحاكين الرجال الشعراء ، لكن أجنحتهن قعدت بهن عن التحليق فى جوائهم ، وأنهن لم يستطعن أى يسمن شعرهن بسمات الأنوثة البارزة التى تفرده وتميزه من شعر الرجال فى كل موضوع من موضوعات الشعر .

١١

واستوحيت من هذه الدراسات للمجتمع العربى أن العرب لم يكونوا — كما صورهم كثير من المؤرخين والباحثين — جموعاً من الهمج البدائيين ؛ لأن نظمهم فى الزواج والطلاق ومعاملة النساء ، وتمليكهن المال ، والإسماح بتصرفهن فيه ومعاملة السبايا ، والحجاب ، كانت أرقى من نظم الأمم المعاصرة لهم آنا ، وشبيهة بها آنا ، ولأن الإسلام أقر كثيراً من هذه النظم .

اقتراحات

١

أقترح على الذين يريدون تتبع الشعر العربى إلى ينابيعه الأولى أن يغذوا السير إلى العصر الجاهلى فيتملوه ويتذوقوه ، على أنه فيض من عواطف صادقة متدفقة ، وعلى أنه العمد الأولى ، والأسس الأصيلة للشعر فى شتى عصوره .

فمن الإجحاف بالشعر الجاهلى أن يهمل ، أو أن يدرس على أنه أثر قديم يتفكه به الدارس ، ومتحف لمخلفات من الماضى السحيق يلم بها فى نظرات عوابر ولمحات خواطف .

ولست أنكر أن هذه الدراسة يعوزها الصبر والأناة والرغبة ، ولست أعدو الحق إذ أقرر أن العصر الحاضر منكوب بنزعتين تباعدان ما بينه وبين هذه الدراسة : أقصد الغرور والاستخفاف ، وإنهما لتبدوان فيما يجول ببعض النفوس وما يجرى على بعض الألسنة والأقلام ، من الاعتزاز بكل حديث ، والزراية بكل قديم ، وإن كان الحديث وليده وصداه .

٢

وإذ قد استبان لى خطر الشعر الجاهلى وتمثيله لعصره ، أردت أن يحفل به الدارسون ، جمعاً ، وتحقيقاً ، ودراسة .

١ — ففى المكتبات عشرات من الدواوين والمجموعات الشعرية مخطوطة ، وعشرات مطبوعة طبعاً رديئاً عاجزاً ، وهى كلها تتلهف على من يحققها ، ويخرجها إخراجاً علمياً .

٢ — ومن المستطاع أن تؤسس على الشعر الجاهلى عدة دراسات ، كدراسة الحياة السياسية ، والحياة الخلقية ، والحياة الدينية ، وعلاقة الشعراء بالبيئات ، وأثرها فى إنتاجهم وخيالهم .

على أن فنون الشعر فى حاجة إلى دراسة مفصلة عميقة ، تكشف عن نشأة كل فن وخصائصه .

ثم إن سلطان الشعر الجاهلى على مابعده مفتقر إلى دراسة مستوعبة ، تبين أثره فى العصور الأخرى من حيث منهج القصيدة ، والمعانى ، والخيال ، والموسيق .

٣ — وإنه لمن الخير أن تتكىء الدراسات التاريخية والاجتماعية على الشعر الجاهلى يرفدها ويمدها .

٣

لقد درست شعر المرأة فى العصر الجاهلى ، وكشفت عن خصائصه . فأود أن يدرس آخرون شعر النساء فى العصر الإسلامى ، وفى العباسى ، ويميزوا خصائصه ، لنعرف مقدار مابين النسوة الشواعر من تشابه أو تخالف ، وهل هناك طابع عام يطبع شعرهن جميعاً ؟ وإننى لأترق فى الرغبة ، فأتوق إلى أن يدرس آخرون شعر النساء فى الأمم الأخرى ؛ لنتعرف خصائصه ، وإلى أى حد تتقارب أو تتباعد من خصائص شواعرنا ، وهل فى شعر النساء جميعاً ملامح موحدة أو سمات متشابهة ؟

٤

وليكن منهج الدارسين لأدبنا العربى كفيلا بتجلية مابه من مميزات فنية ، وما فيه من قوة وحيوية ، متجردين من التعصب له أو التعصب ضده . فما من شك فى أن لهذا الأدب خصوماً ، منهم القدماء ، ومنهم المحدثون ، لكنه تعالى على هؤلاء وأولئك ، وتأبَّى عليهم ، وبقى كالصخرة الصلدة فى طريق السيل ، كلما عج بها انكسر ثم انحسر ، ومضى عنها سليمة الحواشى عظيمة الخطر .

٥

وطالما لقيت عناء وبلبلة فى دراسة التاريخ العربى فى العصر الجاهلى ، لأنه لما يزل مهملا ، ويخولنى هذا أن ألح على المؤرخين ليعنوا بالعصر الجاهلى ، فيكشفوا ما يكتنف تاريخ العرب من بلبلة وغموض ، ويوضحوا صلاتهم بالعالم القديم ، ومكانتهم من الحضارة الخالية ، فقد آن الأوان لأن ينكشف الإبهام ، وينجلى الظلام ، ويتبلج الحق ، ويوضع العرب فى مكانهم الصحيح من ركب الحضارة .

المراجع

مرتبة هجائياً

١ — مخطوطات

٢ — كتب عربيـــة

٣ — كتب مترجمة إلى العربية

٤ — كتب إفرنجية

١ ـ المخطوطات

١ — الأجر الجزل فى الغزل . السيوطى . مخطوط بدار الكتب ٣٢ مجاميع .

٢ — الاستبصار فى أنساب الأنصار . مخطوط بدار الكتب ٣٤٩ تاريخ لم يعلم مؤلفه ، ويظهر أنه لشيخ الإسلام أبى محمد عبد الله المقدسى المتوفى ٦٢٠هـ.

٣ — إسماع الصم فى إثبات الشرف من قبل الأم . لأبى عبد الله عبد الله محمد بن الشيخ المراكشى . مخطوط بدار الكتب ٢١٣٧ تاريخ .

٤ — الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين ، المعروف بحماسة الخالديين . مخطوط بدار الكتب ١٧٠٩ أدب

٥ — أشعار النساء للمرزبانى (الجزء الثالث) مخطوط بدار الكتب ٨ أدب ش ٤٢٨٩٨

٦ — أوائل الأوائل لأبى هلال العسكرى . مخطوط بدار الكتب ٢٧٠٥ تاريخ .

٧ — إيضاح المدارك فى الإفصاح عن العواتك . للسيد محمد مرتضى الزبيدى . مخطوط بدار الكتب ٢٠١٨ تاريخ .

٨ — أيمان العرب . النجيرمى الكاتب .

٩ — جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام . لأمين الدين أبي الغنائم مسلم بن محمود الشيزرى . مخطوط بدار الكتب ٩٢٢٣ أدب .

١٠ — جمهرة أشعار العرب (الجزء الثانى) أبي زيد محمد القرشى . مخطوط بالمكتبة التيمورية ٢٢٦٨ تاريخ . وبدار الكتب ١٤١ مجاميع من ص ١٥٧ – ٢٦٠ باسم جمهرة أبي زيد القرشي .

١١ — الحماسة البصرية . جمعها أبو الحسن البصرى . مخطوط بدار الكتب ٥٢٠ أدب .

١٢ — الدرارى فى أبناء السرارى . للسيوطى . مخطوط بدار الكتب ٣٢ مجاميع .

١٣ — ديوان الأفوه الأودى . مخطوط بدار الكتب ١٢ ش أدب .

١٤ — ديوان خرنق . مخطوط بدار الكتب ٣٤ أدب ش ٥٦٨ أدب .

١٥ — ديوان الخنساء . مخطوط بدار الكتب ٤٠ أدب ش بخط الشنقيطى سنة ١٢٨٨ هـ .

١٦ — ديوان سلامة بن جندل . مخطوط بدار الكتب ١٢ ش أدب . مصور بمعهد المخطوطات ف ٦٥٤ (٧١٩) .

١٧ — ديوان عروة بن حزام . رواية المرزبانى بسنده إلى ثعلب . مخطوط بدار الكتب ٧٠ ش أدب . مصور بمعهد المخطوطات ف ١٩٦ (١٦) .

١٨ — ديوان قيس بن الخطيم . مخطوط بمكتبة تيمور ٢٩٦ شعر .

١٩ — ديوان المتلمس . مخطوط بدار الكتب ٥٩٨ أدب .

٢٠ — ربيع الأبرار . الزمخشرى . بمكتبة تيمور ٥٩٢ أدب

٢١ — شرح القصيدة الحميرية لنشوان بن سعيد الحميرى . مخطوط بدار الكتب ١٤١ مجاميع من ص ٢٧١ — ٢٨٩ .

٢٢ — شرح المعلقات السبع . ابن الأنبارى . مخطوط بدار الكتب ١٩٩٠٧ ز .

٢٣ — صور الكواكب . أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفى . مخطوط بدار الكتب ٩٠٧ ميقات . وبه صور شتى للكواكب .

٢٤ — العنوان فى مكايد النسوان . على بن عمر المعروف بابن البتنونى الأبوصيرى . مخطوط بدار الكتب ٣٥٦٨ أدب .

٢٥ — فضل العرب على العجم . ابن قتيبة الدينورى . مخطوط بدار الكتب ١٨٦٤ أدب .

٢٦ — كتاب الملاهى وأسمائها أبو طالب المفضل بن سلمة النحوى اللغوى مخطوط بدار الكتب ٥٣٣ فنون جميلة .

٢٧ — كتاب الزينة . أبو حاتم الرازى . مخطوط بالخزانة المحمدية الهمدانية . يعده للإخراج الدكتور حسين الهمدانى .

٢٨ — محاسن النساء . لأحمد بن هشام . مخطوط بمكتبة تيمور ٨٠٣ أدب .

٢٩ — مراث وأشعار . لأبى عبد الله محمد بن العباس اليزيدى . مصور بمعهد المخطوطات ف ٨٠٦ (١٩٣) .

٣٠ — مستقصى الأمثال . للزمخشرى . مخطوط بدار الكتب أدب ١٠٢ م .

٣١ — المطر والسحاب لأبى بكر محمد بن دريد الأسدى ، مخطوط بدار الكتب لغة ٢٢٩ .

٣٢ — من نسب إلى أمه من الشعراء . لمحمد بن حبيب ، مخطوط بدار الكتب ٧٥ ش أدب .

٣٣ — منتهى الطاب من أشعار العرب . جمعه محمد بن المبارك ، مخطوط بدار الكتب ١١٨٤٦ ز .

٣٤ — المنظوم والمنثور . لابن طيفور . مخطوط بدار الكتب ٥٨١ .

٣٥ - نثر الدر . صورة شمسية بدار الكتب رقم ٤٤٢٨ أدب لوح ٣٦٧ .

٥٦ — نزهة الجلساء فى أشعار النساء . للسيوطى . مخطوط بمكتبة تيمور ٨١٣ شعر .

٣٧ — نشر المحاسن اليمانية فى خصائص اليمن ونسب القحطانية . مخطوط بدار الكتب ٤٦٥٠ تاريخ . لم يعلم مؤلفه .

٣٨ — الوحشيات (الحماسة الصغرى) . لأبى تمام . مخطوط بدار الكتب ٢٢٩٧ أدب .

٢ — الكتب العربية المطبوعة

٣٩ — أبيات المعانى . أبو هلال العسكرى .

٤٠ — اتجاه الموجات البشرية فى جزيرة العرب . الأستاذ محب الدين الخطيب . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٤ هـ .

٤١ — أثر العرب فى الحضارة الأوروبية. الأستاذ عباس العقاد . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٦ م .

٤٢ — الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين . م . حاى بن شمعون . مطبعة كوهين ورزنتال بمصر ١٩١٢ م .

٤٣ — إحياء علوم الدين . الغزالى. المطبعة العثمانية المصريه ١٣٥٢-١٩٣٣م

٤٤ _ أخبار الحكماء . القفطى . مطبعة ليبزج ١٣٢٠ هـ

٤٥ _ الأخبار الطوال . أبو حنيفة الدينورى . بتحقيق فلاديمتر جرجاس . مطبعه بريل ١٨٨٨ م

٤٦ _ أخبار المراقسه وأشعارهم فى الجاهلية وصدر الإسلام . الأستاذ حسن السندوبى . الطبعة الأولى . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٥٣٨ هـ ١٩٣٩ م .

٤٧ ـ أخبار مكة . الأزرقى . رواية أبى محمد إسحاق الخزاعى. مطبعة المدرسة المحروسة بمدينة غتنغه ١٢٧٥ هـ . وطبعة المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢ هـ .

٤٨ ـ أخبار النساء . شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الزرعى المعروف بابن قيم الجوزية . الطبعة الأولى . مطبعة التقدم العلمية بمصر ١٣١٩ هـ .

٤٩ ـ الأزمات الزوجية وعلاجها . الدكتور محمد زكى شافعى .

٥٠ ـ أساس البلاغة . الزمخشرى .

٥١ ـ أساس العدالة فى القانون الرومانى . دكتور على حافظ . مطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة ١٩٥١م .

٥٢ ـ أساس الفلك والجغرافية . الأستاذ محمد فخر الدين والأستاذ عبد الفتاح الزيادى . مطبعة التوكل ١٣٥٣ هـ ١٩٣٥ م .

٥٣ ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب . ابن عبد البر . مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣١٨ هـ .

٥٤ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة . ابن الأثير . المطبعه الوهبية بالقاهرة . ١٢٨٠ هـ .

٥٥ ـ الأسرة والمجتمع . الدكتور على عبد الواحد وافى . مطبعة البابى الحلبى بالقاهرة ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥ م .

٥٦ ـ أسس علم النفس . الدكتور عبد العزيز القوصى . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ .

٥٧ ـ الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة . الأستاذ مصطفى سويف . مطبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٥١ م .

٥٨ ـ الإسلام والحضارة العربية . الأستاذ محمد كرد على بك . مطبعة دار الكتب ١٩٣٤ .

٥٩ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة . أبو الفضل أحمد بن على الكنانى

العسقلانى المعروف بابن حجر . المطبعة الشرفية بمصر ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧ م .

٦٠ — الأصمعيات من مجموع أشعار العرب . نشره وليم بن الورد البروسى . طبعة ليبسغ .

٦١ — الأصنام . هشام بن محمد الكلبى . تحقيق الأستاذ أحمد زكى باشا . المطبعة الأميرية ١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م .

٦٢ — الأصول الفنية للأدب . الأستاذ عبد الحميد حسن ١٩٤٩ .

٦٣ — أصول النقد الأدبى الأستاذ أحمد الشايب . الطبعة الثانية . مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٢ م .

٦٤ — الاعتصام . الشاطبى مطبعة المنار بالقاهرة ١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م .

٦٥ — أعجب العجب فى شرح لامية العرب . الزمخشرى . الطبعة الثانية ١٣٢٤ هـ .

٦٦ — الأعلاق النفيسة . ابن رسته . مطبعة بريل بليدن ١٨٩١ م .

٦٧ — أعلام النساء الأستاذ عمر رضا كحالة المطبعة الهاشمية بدمشق .

٦٨ — الأغانى . أبو الفرج الأصفهانى . الأجزاء الخمسة الأولى طبعة دار الكتب والباقية طبعة ساسى .

٦٩ — ألف باء . البلوى . مطبعة بولاق ١٢٨٧ هـ .

٧٠ — الأمالى . أبو على القالى : مطبعة دار الكتب ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٦م .

٧١ — أمالى ابن الشجرى . مطبعة الأمانة بمصر ١٩٣٠ م .

٧٢ — أمالى السيد المرتضى . الطبعة الأولى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧ م .

٧٣ — إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع . المقريزى تحقيق محمود شاكر . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ م .

٧٤ — الإمتاع والمؤانسة . أبو حيان التوحيدى. مطبعة لجنة التأليف ١٩٣٩ .

٧٥ — أمثال العرب . المفضل الضبي . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٠ هـ .
٧٦ — الأنساب أبو سعيد عبد الكريم السمعاني . ليدن ١٩١٢ م .
٧٧ — أنساب العرب القدماء . الأستاذ جرجي زيدان . مطبعة الهلال بمصر ١٩٠٦م ،
٧٨ — إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون ، المعروف بالسيرة الحلبية . على بن برهان الدين الحلبي ، الطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٩هـ .
٧٩ — أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء . تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦ م .
٨٠ — باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام . الأستاذ حمزه فتح الله بك . مطبعة بولاق ١٣٠٨ هـ .
٨١ — البدء والتاريخ . المطهر بن طاهر المقدسي . باريز ١٩٠٣م .
٨٢ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . السيوطي . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ هـ .
٨٣ — بلاغة أرسطوبين العرب واليونان . الدكتور إبراهيم سلامة .
٨٤ — بلاغات النساء ابن طيفور مطبعة مدرسة والدة عباس الأول بالقاهرة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م .
٨٥ — البلدان اليعقوبي : مطبعة بريل بليدن ١٨٩١ م .
٨٦ — بلوغ الأرب في أحوال العرب . السيد محمود شكري الألوسي المطبعة الرحمانية ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ .
٨٧ — بلوغ الأرب في مآثر العرب . محيي الدين الشهير بالعطار . مطبعة الصفا بلبنان ١٣١٩ هـ .
٨٨ — البيان والتبيين . الجاحظ (ا) تحقيق الأستاذ حسن السندوبي ، الطبعة الثانية بالمطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٢ م (ب) وتحقيق الأستاذ

عبد السلام هارون . مطبعة لجنـة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٨ م ـ ١٩٤٩ .

٨٩ — بين الحبشة والعرب . الدكتور عبد المجيد عابدين . طبعة دار الفكر العربى بمصر

٩٠ — تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى . الأستاذ السباعى بيومى . مكتبة النهضة ١٩٤٨ م

٩١ — تاريخ الإسلام السياسى . الدكتور حسن إبراهيم الطبعة الثانية . مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ م .

٩٢ — تاريخ التربية . الأستاذ مصطفى أمين بك .

٩٣ — تاريخ التربية . الأستـاذ أحمد فهمى القطان . مطبعة مصر ١٣٤٥ هـ ـ ١٩٢٦ م .

٩٤ — تاريخ التمدن الاسلامى . الأستـاذ جرجى زيدان . مطبعة الهلال ١٩٠٢ ـ ١٩٠٦ .

٩٥ — تاريخ حضر موت السياسى . صلاح البكرى اليافعى . المطبعة السلفية بمصر ١٣٥٤ هـ .

٩٦ — تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس . الديار بكرى . المطبعة العامرة العثمانية ١٣٠٢ هـ .

٩٧ — تاريخ العرب (مطول) الدكاترة فيليب حتى وإدورد جرجى وجبرائيل جبور مطبعة دار الكشاف ببيروت ١٩٤٩ م .

٩٨ — عمر بن الخطاب . ابن الجوزى . مطبعة صبيح بمصر .

٩٩ — التاريخ الكبير أبو القاسم على بن عساكر مطبعة روضة الشام ١٣٣٠هـ .

١٠٠ — تاريخ اللغات السامية ، الدكتور إسرائيل ولفنسون . مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٤٨ هـ ـ ٢٩٢٩ م .

١٠١ — تاريخ مكة . أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهى . من كتاب

المنتقى فى أخبار أم القرى . ليبزج ١٨٥٩ م

١٠٢ — تاريخ اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب . نشره هوتسما M. TH. Hautsma

١٠٣ — تاريخ اليهود . أبو الفتح بن أبى الحسن السامرى مطبعة جوتا بألمانيا ١٨٦٥ م

١٠٤ — تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام . الدكتور إسرائيل ولفنسون . مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٧ م .

١٠٥ — تاريخ يوسيفوس اليهودى . المطبعة العلمية ببيروت .

١٠٦ — التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح الزبيدى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

١٠٧ — تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه . الفيروزابادى . من نوادر المخطوطات . نشرها الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمه والنشر .

١٠٨ — التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية فى المدينة المنورة . عبد الحى الكتانى الفاسى . المطبعة الأهلية بفاس ١٣٦٦ هـ .

١٠٩ — تراجم رجال القرنين السادس والسابع : أبو شامة . القاهرة ١٣٦٦ هـ - ١٠٤٧ م .

١١٠ — تزيين الأسواق بتفصيل أحوال العشاق داود الأنطاكى بالمطبعة البهية المصرية م .

١١١ — تطور النظرية التربوية . الأستاذ صالح عبدالعزيز . المطبعه الأميرية .

١١٢ — تفسير الألوسى (روح المعانى) : السيد محمود شكرى الألوسى . دار الطباعة المنيرية بمصر .

١١٣ – تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)

١١٤ – تفسير الجلالين : مطبعة المعارف العلمية بمصر ١٣٤٤ هـ .

١١٥ – تفسير الزمخشرى (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ هـ .

١١٦ – تفسير الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) مطبعة بولاق ١٣٢٣ هـ .

١١٧ – تفسير الفخر الرازى (مفاتيح الغيب) .

١١٨ – تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) مطبعة دار الكتب .

١١٩ – تفسير النيسابورى (تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان) على هامش الطبرى : بولاق ١٣٢٣ هـ .

١٢٠ – التنبيه والاشراف المسعودى مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٧هـ – ١٩٣٨ م :

١٢١ – تهذيب التهذيب . ابن حجر العسقلانى . مطبعة دائرة المعارف النظامية بالهند ١٣٢٧ هـ .

١٢٢ – تهذيب الكامل للمبرد . الأستاذ السباعى بيومى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٤١ هـ – ١٩٢٣ م .

١٢٣ – تيارات أدبية بين الشرق والغرب الدكتور إبراهيم سلامة ١٩٥٢ م .

١٢٤ – تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول ابن الديبع الشيبانى الزبيدى مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣١ هـ .

١٣٥ – ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب . الثعالبى . مطبعة الظاهر بمصر ١٣٢٦ هـ – ١٩٠٨ م .

١٢٦ — الجامع الصحيح . الإمام مسلم بن الحجاج . دار الطباعة العامرة ١٣٢٩ هـ .

١٢٧ — جمهرة أشعار العرب . القرشي . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ هـ ١٩٢٦ م .

١٢٨ — جمهرة الأمثاله . أبو هلال العسكرى . على هامش مجمع الأمثال الميدانى . المطبعة الخيرية بمصر ١٣١٠ .

١٢٩ — جمهرة أنساب العرب . ابن حزم الأندلسى . تحقيق ا . ليفى . بروفنسال . مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٧ م .

١٣٠ — حجة الله البالغة . أحمد شاه ولى الدين الدهلوى : المطبعة الخيرية بمصر ١٣٣٢ هـ :

٣٣١ — حسن الصحابة فى شرح أشعار الصحابة . جابى زاده على فهمى . دار سعادت روشن مطبعة سى ١٣٢٤ هـ .

١٣٢ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . السيوطى . مطبعة الموسوعات بمصر ١٣٠١ هـ

١٣٣ — الحماسة البحترى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٩ م .

١٣٤ — الحنين إلى الأوطان . للجاحظ . مطبعة المنار بمصر ١٣٣٣ هـ .

١٣٥ — حياة الحيوان . الدميرى . مطبعة بولاق

١٣٦ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى . الدكتور أحمد محمد الحوفى . مطبعة نهضة مصر ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م .

١٣٧ — الحيوان . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة البابى الحلبى بمصر وطبعة ساسى .

١٣٨ — الخراج . أبو يوسف . الطبعة الأولى . المطبعه الأميرية ببولاق ١٣٠٢ هـ .

١٣٩ — الخراج يحيى بن آدم القرشي . تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٧ هـ . وطبعة ليدن ١٨٩٥ م .

١٤٠ — خزانة الأدب البغدادى . مطبعة دار العصور بمصر .

١٤١ — خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى السمهودى . مطبعة بولاق ١٢٨٥ هـ .

١٤٢ — دائرة المعارف . الأستاذ محمد فريد وجدى .

١٤٣ — دائرة المعارف : البستانى

١٤٤ — داعى السماء بلال بن رباح . الأستاذ عباس العقاد . طبعة سعد مصر بالقاهرة ١٩٤٥ م .

١٤٥ — دلائل النبوة : أبونعيم أحمد الأصبهانى مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن ١٣٢٠ .

١٤٦ — ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس . تحقيق الدكتور محمد حسين . المطبعة النموذجية ١٩٥١ م .

١٤٧ — ديوان امرىء القيس بشرح السندوبى مطبعة الاستقامة بالقاهرة الطبعة الثانية .

١٤٨ — ديوان أمية بن أبى الصلت . تحقيق فون سردريك شلتهتر ١٩١١ .

١٤٩ — ديوان أوس بن حجر . تحقيق رودلف جيير Dr. Rudolf Geyer ١٨٩٢ م .

١٥٠ — ديوان جرير . المطبعة السلفية بمصر ١٣١٣ هـ .

١٥١ — ديوان حاتم طى . طبعة بيروت .

١٥٢ — ديوان الحادرة (قطب أو قطبة بن أوس بن محصن) أملاه أبوعبد الله اليزيدى . نشره انجلمان Dr. G. Engelmann .

١٥٣ — ديوان حسان بن ثابت . نشره محمد شكرى المكى مطبعة الإمام بمصر ١٣٢١ .

١٥٤ — ديوان الحطيئة . بشرح السكرى . مطبعة التقدم بمصر .

١٥٥ — ديوان الحماسة لأبى تمام (ا) بشرح التبريزى مطبعة بولاق . (ب) بشرح المرزوقى تحقيق الأستاذ أحمد أمين والأستاذ عبد السلام هرون . مطبعة لجنة التأليف ١٣٧١ ﻫ .

١٥٦ — ديوان الرافعى . مصطفى صادق الرافعى .

١٥٧ — ديوان زهير بن أبى سلمى . بشرح أبى العباس الشيبانى ثعلب . مطبعة دار الكتب ١٣٦٣ ﻫ — ١٩٤٤ م .

١٥٨ — ديوان سلامة بن جندل . رواية الأصمعى والشيبانى والأحول . نشره الأب لويس شيخو اليسوعى . المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٠ م .

١٥٩ — ديوان السموءل . رواية أبى عبد الله نفطويه . نشره الأب لويس شيخو اليسوعى . بيروت ١٩٠٩ .

١٦٠ — ديوان طرفة (ا) بشرح الأعلم الشنتمرى . مطبعة برطند بمدينة شالون ١٩٠٠ م (ب) بشرح الشنقيطى ١٩٠٩ م .

١٦١ — ديوان طفيل الغنوى . رواية أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى . نشره كرنكو F. Krankow لندن ١٩٢٧ م .

١٦٢ — ديوان عامر بن الطفيل العامرى . رواية ابن الأنبارى عن ثعلب . بتحقيق ليال Sir Charles Lyall كمبردج ١٩١٩ م .

١٦٣ — ديوان عروة بن الورد . بشرح ابن السكيت . طبعة بيروت .

١٦٤ — ديوان علقمة الفحل . طبعة بيروت .

١٦٥ — ديوان عمرو بن قميئة. نشره ليال Sir Charles Lyall كمبردج ١٩١٩م

١٦٦ — ديوان عنترة بن شداد . تحقيق عبد المنعم شلبي . مطبعة شركة فن الطباعة .

١٦٧ — ديوان الفرزدق مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٤ هـ .

١٦٨ — ديوان قيس بن الخطيم نشره رودلف جبير Dr. Rubolf Geyer فينا ١٩١٤ هـ .

١٦٩ — ديوان لبيد . نشره هوبر Dr. A. Huber ليدن ١٨٩١ م .

١٧٠ — ديوان المتنبي . شرح البرقوقي . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م .

١٧١ — ديوان المسيب بن علس . ملحق بديوان الأعشى . تحقيق رودلف جيير .

١٧٢ — ديوان معن بن أوس المزنى . رواية أبي على إسماعيل بن القاسم نشرة بول اسكوارز Paul Schwarz ليبزج ١٩٠٣ م .

١٧٣ — ديوان النابغة الذبياني . بشرح البطليوسى . طبعة بيروت .

١٧٤ — ديوان نابغة بنى شيبان . مطبعة دار الكتب بمصر ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م .

١٧٥ — ديوان الهذليين . مطبعة دار الكتب ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م .

١٧٦ — ذيل الأمالى والنوادر . القالى . طبعة دار الكتب .

١٧٧ — رسالة الغفران . المعرى . تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن . مطبعة دار الكتب بمصر .

١٧٨ — رسالة القيان . الجاحظ من ثلاث رسائل . للجاحظ . نشرها يوشع فنكل المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٤ هـ .

١٧٩ — الرسالة . الإمام الشافعى . تحقيق الأستاذ أحمد شاكر .

١٨٠ — الرق فى الإسلام . أحمد شفيق باشا . مطبعة بولاق ١٨٩٢ م .

١٨١ — الروض الأنف . شرح سيرة ابن هشام . السهيلى . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م .

١٨٢ — رياض الأدب فى مراثى شواعر العرب . جمعه الأب لويس شيخو اليسوعى . طبعة بيروت ١٨٩٧ .

١٨٣ — زاد المعاد فى هدى خير العباد ابن القيم الجوزية . مطبعة صبيح بمصر ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤ م .

١٨٤ — زهر الآداب للحصرى نشره الدكتور زكى مبارك . المطبعة الرحمانية بمصر .

١٨٥ — سمط اللآلى فى شرح آمال القالى البكرى . تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمنى . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ ١٩٣٦ م .

١٨٦ — السنن الكبرى . البيهقى . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٥٥ هـ .

١٨٧ — سيرة النبى . ابن هشام . بتحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد . مطبعة حجازى بالقاهرة .

١٨٨ — شرح التنوير على سقط الزند للمعرى . مطبعة الإسلام بمصر ١٣٢٤ هـ

١٨٩ — شرح القصائد العشر . التبريزى . مطبعة صبيح بمصر .

١٩٠ — شرح الموطأ للإمام مالك . الزرقانى المطبعة الكستلية ١٢٨٠ هـ .

١٩١ — شرح نهج البلاغة . ابن أبى الحديد . مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٣٢٩ هـ .

١٩٢ — شرح الهاشميات للكميت بن زيد الأسدى . مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر .

١٩٣ — الشعر والشعراء . ابن قتيبة (ا) بتحقيق الأستاذ محمود شاكر . مطبعة الحلبي ١٣٦٤ هـ .

(ب) بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا مطبعة المعاهد بمصر ١٣٥٠هـ١٩٣٢م .

١٩٤ — شعراء النصرانية . الأب لويس شيخو اليسوعي . مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت ١٨٩٠ م .

١٩٥ — شفاء النفس . الدكتور يوسف مراد مطبعةالمعارف بمصر١٩٤٣م

١٩٦ — الصبح المنير في شرح ديوان أبي بصير ميمون بن قيس . بشرح أبي العباس ثعلب . نشره الدكتور رودلف جيير Dr. Rudolf Geyer مطبعة آدلف هلز هوسن ١٩٢٧ م .

١٩٧ — صبح الأعشى . القلقشندي . مطبعة دار الكتب بمصر .

١٩٨ — صحيح البخاري بشرح الكرماني . المطبعة المصرية ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م .

١٩٩ — صحيح سنن المصطفى . أبو داود السجستاني . المطبعة الكستلية ١٢٨٠هـ .

٢٠٠ — الصناعتين . أبو هلال العسكري . الطبعة الثانية . مطبعة صبيح بالقاهرة .

٢٠١ — صور البديع (فن الأسجاع) الأستاذ علي الجندي .

٢٠٢ — طبقات الأمم . صاعد الأندلسي . نشره الأب لويس شيخو اليسوعي . المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٢ .

٢٠٣ — طبقات الشافعية الكبرى . ابن تقي الدين السبكي . المطبعة الحسينية بمصر ١٣٢٤ .

٢٠٤ — طبقات الشعراء . محمد بن سلام الجمحي . تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٢م .

٢٠٥ — الطبقات الكبير . ابن سعد . نشره إدوارد سخو . مطبعة بريل بليدن ١٣٢١ هـ .

٢٠٦ — طهارة العرب . أحمد بن الأمين الشنقيطى .

٢٠٧ — عبقرية المسيح . الأستاذ عباس العقاد . مطبعة دار أخبار اليوم ١٩٥٣ م .

٢٠٨ — العرب قبل الاسلام . الأستاذ جورجى زيدان .

٢٠٩ عصر ما قبل الإسلام . الأستاذ محمد مبروك نافع . مطبعة وادى النيل ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

٢١٠ — العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين . نشره وليم ابن الورد البروسى . لندن ١٨٧٠ م .

٢١١ — العقائد . عمر عنايت . مطبعة دار العصور بمصر ١٩٢٨ م .

٢١٢ — علم النفس الفردى ، أصوله وتطبيقه . الدكتور إسحاق رمزى مطبعة دار المعارف بمصر .

٢١٣ — عمدة القارى لشرح صحيح البخارى . العينى . المطبعة الأميرية .

٢١٤ — العمدة فى صناعة الشعر ونقده الطبعة الأولى . مطبعة أمين هندية بمصر ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٥ م .

٢١٥ — عنوان المرقصات والمطربات . نور الدين على المغربى . مطبعة جمعية المعارف ١٢٨٦ هـ .

٢١٦ — عيون الأخبار . ابن قتيبة . طبعة دار الكتب .

٢١٧ — عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . ابن أبى أصيبعة .

٢١٨ — عيون المسائل الشرعية فى الأحوال الشخصية . الأستاذ على حسب الله . الطبعة الثانية . مطبعة العلوى بمصر ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥٠ م .

٢١٩ — الغزل فى العصر الجاهلى . الدكتور أحمد الحوفى . مطبعة لجنة البيان العربى ١٣٧٠ – ١٩٥٠ م .

٢٢٠ — الغناء للأطفال عند العرب . الدكتور أحمد عيسى بك . المطبعة الأميرية ببولاق .

٢٢١ — الفائق فى غريب الحديث . الزمخشرى . مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند ١٣٢٤ م .

٢٢٢ — الفاخر . أبو طالب المفضل بن سلمة الكوفى . نشره سالس انبروس . مطبعة بريل بليدن ١٩١٥ م .

٢٢٣ — فتح البارى بشرح صحيح البخارى . العسقلانى . المطبعة الأميرية ١٣٠١ ه .

٢٢٤ — فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى . الشرقاوى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

٢٢٥ — الفتوة عند العرب . الأستاذ عمر الدسوقى . مطبعة لجنة البيان العربى بمصر ١٩٥١ م .

٢٢٦ — فتوح البلدان . البلاذرى . مطبعة الموسوعات بمصر ١٣١٩ ه ١٩٠١ م .

٢٢٧ — فتوح الشام . أبو إسماعيل محمد الأزدى البصرى . مطبعة بيتست مشن كلكته ١٨٥٤ م .

٢٢٨ — الفصل فى الملل والنحل لابن حزم . المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧ه .

٢٢٩ — الفهرست . ابن النديم . ليبزج ١٨٧١ م .

٢٣٠ — فوات الوفات . ابن شاكر . المطبعة الأميرية ١٢٩٩ ه .

٢٣١ — فى علم النفس . الأستاذ محمد عطيه الابراشى والأستاذ حامد عبد القادر . المطبعة المصرية ١٣٥٢ ه – ١٩٣٤ م .

٢٣٢ — القاموس المحيط . الفيروزابادى .

٢٣٣ — القرآن الكريم .

٢٣٤ — قصة الأدب الفارسى . الأستاذ حامد عبد القادر . مطبعة لجنة البيان العربى ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .

٢٣٥ — قصة الملكية فى العالم . الدكتور على عبد الواحد والدكتور سعفان .

٢٣٦ — قصص الأنبياء . الأستاذ عبد الوهاب النجار . الطبعة الثانية . مطبعة النصر ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م .

٢٣٧ — قواعد الشعر . أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب رواية أبى عبيد الله محمد المرزبانى . نشره اسكيابارلى G. Schiaparelli مطبعة بريل بليدن ١٨٩٠ م .

٢٣٨ — الكامل فى التاريخ ابن الأثير . المطبعة الأميرية .

٢٣٩ — الكامل . المبرد . مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٥ هـ .

٢٤٠ — كتاب الأمالى . أبو عبد الله محمد اليزيدى . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .

٢٤١ — كتاب بكر وتغلب . مطبعة نخبة الأخبار ببومبى ١٣٠٥ هـ .

٢٤٢ — كتاب حرب بنى شيبان مع كسرى أنوشروان . مطبعة نخبة الأخبار بالهند ١٣٠٥ هـ .

٢٤٣ — كتاب المعانى الكبير فى أبيات المعانى . ابن قتيبة . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م .

٢٤٤ — كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال . علاء الدين على المتقى الهندى . مطبعة دائرة المعارف بحيدر آباد ١٣١٢ هـ .

٢٤٥ لزوم مالا يلزم . المعرى . الطبعة الأولى . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٣هـ ١٩١٥ م .

٢٤٦ — لسان العرب . ابن منظور .

٢٤٧ — اللطائف والظرائف . الثعالبي . المطبعة الوهبية بمصر ١٢٩٦ هـ .

٢٤٨ — المؤتلف والمختلف . الآمدى . نشره الدكتور فريتس كرنكو . مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .

٢٤٩ — مبادىء علم النفس العام . الدكتور يوسف مراد . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٨ م .

٢٥٠ — المبسوط . شمس الدين السرخسى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤ هـ .

٢٥١ — مجالس ثعلب . أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب . بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة دار المعارف بمصر .

٢٥٢ — مجمع الأمثال . الميدانى . المطبعة البهية المصرية بالقاهرة ١٣٤٢ هـ .

٢٥٣ — مجموعة رسائل الجاحظ . طبعة ساسى .

٢٥٤ — المحاسن والأضداد . الجاحظ . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٣٠هـ — ١٩١٢ م .

٢٥٥ — محاضرات الأدباء . الراغب الأصبهانى . مطبعة المويلحى .

٢٥٦ — المحبر . أبو جعفر محمد بن حبيب برواية أبى سعيد السكرى . نشرته الدكتورة إيلزه ليحتن شتيتر الأمريكية . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م .

٢٥٧ — المختصر فى أخبار البشر . أبو الفدا . المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٥ هـ .

٢٥٨ — مختلف القبائل ومؤتلفها . أبو جعفر محمد بن حبيب . نشره وستنفيلد . طبعة غوتنجن ١٨٥٠ م .

٢٥٩ — المخصص . ابن سيده .

٢٦٠ — المدونة الكبرى . الإمام مالك . الطبعة الأولى . المطبعة الخيرية بمصر ١٣٢٤ هـ .

٢٦١ — المرأة العربية فى جاهليتها و إسلامها . الأستاذ عبد الله عفيفى بك . الطبعة الثانية . مطبعة المعارف بمصر ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٣ م .

٢٦٢ — المرأة فى التاريخ والشرائع . الأستاذ محمد جميل بيهم . بيروت ١٣٣٩ هـ ـ ١٩٢١ م .

٢٦٣ — المرأة فى مختلف العصور . الأستاذ أحمد خاكى . مطبعة دار الكتب ١٩٤٧ م .

٢٦٤ — المرأة المسلمة . الأستاذ محمد فريد وجدى . مطبعة الترقى بمصر ١٣١٩ هـ ـ ١٩٠١ م .

٢٦٥ — المردفات من قريش . أبو الحسن المدائنى . نشره الأستاذ عبد السلام هارون فى نوادر المخطوطات . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ م .

٣٦٦ — مروج الذهب . المسعودى . مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ .

٢٦٧ — مسالك الممالك . أبو إسحاق ابراهيم الإصطخرى المعروف بالكرخى ليدن ١٩٢٧ م .

٢٦٨ — المسالك والممالك . ابن حوقل . مطبعة بريل بليدن ١٨٧٢ م .

٢٦٩ — المستطرف من كل فن مستطرف . الأبشيهى . المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٨ هـ .

٢٧٠ — مسند الإمام أحمد بن حنبل . المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣ هـ .

٢٧١ — مصارع العشاق . أبو محمد جعفر السراج . مطبعة الجوائب بالآستانة ١٩٠٧ م .

٢٧٢ — مصر القديمة . الأستاذ سليم حسن بك . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .

٢٧٣ — مطالع البدور فى منازل السرور . علاء الدين البهائى الغزولى . مطبعة إدارة الوطن بمصر ١٢٩٩ هـ .

٢٧٤ — المعارف . ابن قتيبة الدينورى . المطبعة العامرة الشرفية بمصر ١٣٠٠ هـ .

٢٧٥ — معجم الأدباء . ياقوت الحموى . مطبعة دار المأمون بمصر ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م .

٢٧٦ — معجم البلدان . ياقوت الحموى . مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م .

٢٧٧ — معجم الشعراء المرزبانى . نشره الدكتور سالم الكرنكوى مكتبة المقدسى بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .

٢٧٨ — معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع . البكرى . تحقيق الأستاذ مصطفى السقا . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥م .

٢٧٩ — المغازى . الواقدى . طبعة كلكتا بالهند ١٨٥٥ م .

٢٨٠ — المفضليات للضبى . تحقيق الأستاذ أحمد شاكر والأستاذ عبد السلام هارون . الطبعة الأولى . مطبعة المعارف بمصر ١٣٦٢هـ ـ ١٩٤٣م .

٢٨١ — مقال (المذكر والمؤنث) الرسالة العدد ٢٨٥ . الأستاذ عمر الدسوقى .

٢٨٢ — مقدمة ابن خلدون . المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٤٨هـ ـ ١٩٣٠م .

٢٨٣ — ملحق بديوان النابغة الذبيانى . أخرجه M. Hartwy Derenbourg باريس ١٨٩٩ م .

٢٨٤ — الملل والنحل . الشهرستانى . على هامش الفصل لابن حزم . المطبعة الأدبية بمصر ١٣١٧ م .

٢٨٥ — من حديث الشعر والنثر . الدكتور طه حسين . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٨ م .

٢٨٦ — منتخبات فى أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان ابن سعيد الحميرى . مطبعة بريل بليدن ١٩١٦ م .

٢٨٧ — موسيقى الشعر . الدكتور إبراهيم أنيس . دار الفكر العربى بمصر

٢٨٨ — الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء . المرزبانى . المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٣ هـ .

٢٨٩ — ميزان الاعتدال فى نقد الرجال . الحافظ الذهبى . طبع الهند ١٣٠٩ هـ .

٢٩٠ — نزهة الأبصار والأسماع فى أخبار ذوات القناع . لم يذكر مؤلفه على الكتاب ولا فى فهرس دار الكتب ولا فى فهرس المكتبة التيمورية . المطبعة العامرة العثمانية بمصر ١٣٠٥ هـ .

٢٩١ — نزهة الألباء فى طبقات الأدباء . ابن الأنبارى . المطبعة الأميرية ١٢٩٤ هـ .

٢٩٢ — نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق . يوسف رزق الله غنيمة . مطبعة الفرات ببغداد ١٣٤٢ هـ – ١٩٢٤ م .

٢٩٣ — نسب عدنان وقحطان . المبرد . أخرجه الأستاذ عبد العزيز الميمنى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ – ١٩٣٦ م .

٢٩٤ — النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية الأستاذ محمد جمعه . مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٤٩ م .

٢٩٥ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . المقرى طبعة أوروبا .

٢٩٦ — نفسية المراهق . الأستاذ رياض عسكر .

٢٩٧ — نقد الشعر . قدامة بن جعفر . نشره الأستاذ محمد عيسى منون المطبعة الوطنية بمصر ١٣٥٢ هـ ١٩٣٤ م .

٢٩٨ - نقد النثر . قدامة بن جعفر تحقيق الدكتور طه حسين والأستاذ عبد الحميد العبادى . مطبعة مصر ١٩٣٩ م .

٢٩٩ - النقائض . نقائض جرير والفرزدق . مطبعة بريل بليدن ١٩٠٧م

٣٠٠ — نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب القلقشندى . مطبعة الرياض ببغداد .

٣٠١ — هذه الشجرة الأستاذ عباس محمود العقاد .

٣٠٢ — الهنود الحمر . الدكتور على عبد الواحد وافى (سلسلة اقرأ ٨٨)

٣٠٣ — الهوامل والشوامل . أبو حيان التوحيدى ومسكويه نشره الأستاذ أحمد أمين بك والأستاذ السيد صقر مطبعة لجنة التأليف ١٩٥١ م .

٣٠٤ — وفيات الأعيان . ابن خلكان مطبعة بولاق ١٢٩٩ ه .

٣ ـ كتب مترجمة إلى العربية

٣٠٥ — أحلام اليقظة . تأليف الدكتور جورج هنرى جرين . ترجمة الأستاذ إبراهيم حافظ ومراجعة الأستاذ زكى المهندس بك . مطبعة لجنة البيان العربى بمصر ١٩٥٠ م .

٣٠٦ — الإسلام . خواطر وسوانح . تأليف الكونت هنرى دى كاسترو ترجمة أحمد فتحى زغلول باشا . مطبعة السعادة بمصر .

٣٠٧ — الإلياذة . هوميروس . ترجمة الأستاذ سليمان البستانى . مطبعة الهلال بمصر .

٣٠٨ — الإمبراطورية البيزنطية . تأليف نورمان بينتر . ترجمة دكتور حسين مؤنس والأستاذ محمود زايد . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠م

٣٠٩ — أمراء غسان . تأليف الدكتور ثيودور نولدكه . ترجمة الدكتور بندلى جوزى والدكتور قسطنطين زريق . المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٣٣م

٣١٠ — الأمومة عند العرب . تأليف ولــكن G. A. Wilken ترجمة بندلى صليبا الجوزى ١٩٠٢ م .

٤١١ — أهل الذمة فى الاسلام . تأليف ا . س . ترتون . ترجمة الأستاذ حسن حبشى . مطبعة الاعتماد بمصر .

٣١٢ — تاريخ الحضارة . تأليف شارل سنيوبوس . ترجمة الأستاذ محمد كرد على بك . مطبعة الظاهر بالقاهرة .

٣١٣ — تاريخ الحضارة الإسلامية تأليف ف . بارتولد الروسى . ترجمه من التركية الأستاذ حمزة طاهر . مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .

٢١٤ — تاريخ الشعوب السامية (العرب والإمبراطورية العربية) تأليف بروكلمان . ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس والأستاذ منير البعلبــكى . دار العلم للملايين ببيروت ١٩٤٨ م .

٣١٥ — تاريخ العالم . نشره بالإنجليزية السير جون . ا . هامرتن . ترجمة إدارة الترجمة بوزارة المعارف بمصر .

٣١٦ — تاريخ الفلسفة فى الإسلام . تأليف دى بور = De Boer ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريده مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٧هـ ١٩٣٨ م .

٢١٧ — تراث الاسلام . تأليف جماعة من المستشرقين ، نشرته لجنة النشر للجامعين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م

٣١٨ — جمهورية أفلاطون . ترجمة الأستاذ حنا خباز مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٣٩ م

٣١٩ — الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية . تأليف فون كريمر ترجمة دكتور مصطفى بدر . دار الفــكر العربى بمصر ١٩٤٧ م

٣٢٠ — حضارة العرب تأليف الدكتور جستاف لوبون ترجمة الأستاذ عادل زعيتر الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م

٣٢١ — الحضارة المصرية تأليف الدكتور جستاف لوبون ترجمة الأستاذ محمد صادق رستم . المطبعة العصرية بمصر

٣٢٢ — حضارات الهند تأليف الدكتور جستاف لوبون ترجمة الأستاذ عادل زعيتر مطبعة إحياء الكتب العربية بمصر ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م .

٣٢٣ — الحياة والحب تأليف إميل لودفيج . ترجمة الأستاذ عادل زعيتر . مطبعة المعارف بمصر

٣٢٤ — دائرة المعارف الإسلامية . ترجمها الأساتذة عبد الحميد يونس وإبراهيم خورشيد وعباس محمود وأحمد الشنتناوى

٣٢٥ — الدعوة إلى الاسلام تأليف أرنولد sir. T. Arnold ترجمة الدكتور حسن إبراهيم والأستاذ عبد المجيد عابدين والأستاذ إسماعيل النحراوى . مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٧ م .

٣٢٦ — ديانة قدماء المصريين تأليف الأستاذ استيندرف الألمانى . ترجمة سليم حسن بك مطبعة المعارف بمصر ١٩٢٣ م

٣٢٧ — روح الاجتماع تأليف الدكتور جستاف لوبون . ترجمة أحمد فتحى زغلول باشا . مطبعة الشعب بالقاهرة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م

٣٢٨ — سيكولوجيا المرأة تأليف فرويد ترجمة الدكتور محمد مختار صدقى مطبعة دار النيل .

٣٢٩ — الشاهنامة . الفردوسى . ترجمة الفتح بن على البغدادى تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام . مطبعة دار الكتب بمصر .

٣٣٠ — شمار الخضر فى الأحكام الشرعية الإسرائيلية للقرائين . ترجمة وشرح الأستاذ مراد فرج . مطبعة الرغائب بمصر ١٩١٧ م .

٣٣١ — العقد الأنفس فى ملخص التاريخ المقدس . وهو ترجمة لكتاب تاريخ الأمه الإسرائيلية من اللغة الفرنسية . ترجمة تادرس وهبى . مطبعة جريدة الوطن بمصر ١٢٩٨ هـ .

٣٣٢ — العهد الجديد . مترجم من اللغه اليونانية . كمبردج ١٩٢٧ م .

٣٣٣ — قصه الحضارة . تأليف ول ديورانت . ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ م .

٣٣٤ — قصة الحضارة الفارسية . تأليف ول ديورانت . ترجمة الدكتور إبراهيم الشواربى . مكتبة الخانجى ١٩٤٧ م .

٣٣٥ — قواعد المنهج فى علم الاجتماع . تأليف الدكتور إميل دوركهايم . ترجمة الدكتور محمود قاسم . مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ م .

٣٣٦ — كتاب الشعر . أرسطاليس . ترجمة الأستاذ إحسان عباس . دار الفكر العربى .

٣٣٧ — كتاب العهد القديم .

٣٣٨ — كيف يعمل العقل . تأليف سرل برت . ترجمة الأستاذ محمد خلف الله .

٣٣٩ — اللغة . تأليف ج فندريس . ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلى والدكتور محمد القصاص . مطبعة لجنة البيان العربى .

٣٤٠ — مبادىء علم الاجتماع الدينى . تأليف روجيه باستيد . ترجمة الدكتور محمود قاسم . مكتبة الأنجلو ١٩٥١ م .

٣٤١ — المرأة والدولة فى فجر الاسلام . تأليف نابيه أبوت **Nabla Abbot** ترجمة الأستاذ محمد عبد الغنى حسن .

٣٤٢ — مركز المرأة فى الإسلام . تأليف السيد أمير على الهندى . ترجمة الأستاذ على فهمى محمد مطبعة إلياس زخورا بالقاهرة .

٣٤٣ — مسائل فلسفة الفن المعاصرة . تأليف ج . م . جو يو : ترجمة الأستاذ سامى الدروبى . مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٨ م .

٣٤٤ — المعجم فى اللغة الفارسية . نقله إلى العربية الدكتور محمد موسى هنداوى . مطبعة مصر .

٣٤٥ — مقدمة الحضارات الأولى ، تأليف الدكتور جستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ محمد صادق رستم ، المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤١ هـ .

٣٤٦ — مقدمة فى علم النفس الاجتماعى . تأليف الدكتور شارل بلوندل ترجمة الدكتور محمود قاسم والدكتور إبراهيم سلامه ، مكتبة الأنجلو بمصر ١٩٥١

٣٤٧ — اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، تأليف الدكتور جستاف لوبون . ترجمة الأستاذ عادل زعيتر ، مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٥٠ م .

٤ — المراجع الإفرنجية

إنجليزية

348 An Introduction to the sociology of Islam, by Levy. 1933.

349 History of Arabian Music. by Farmer. London. 1929.

350 A History of the Jews. by soloman Grayzel. Philadelphia. 1948.

351. A Literary History of the Arabs. by Reynold. A. Nicholon. London 1907.

352. A Literary History of Persia, by Browne. London, 1902.

353. Arabic Before Mohammed, by O' Leary.London 1927.

354. Chambar's Twentieth Century Dictionary.

355. Educatioual Psychology. by skiner. New York, 1939.

356. Encyclopedia. Americana. New York. Chicago.

357. Encyclopedia Britannica.

358. General sociology. by Wright and Elmer Farrer and Renehart. 19٤6.

359 History of Egypt sharpe. vol. 2. Landon 1885.

360 Isarel from its Begining to the Middle of the Eighth Century, by Adolphe Lods. Loudon 1932.

361 Introduction to social Psychology Meekerzee and Elmer London 1928.

362. kinship and Marriage in Early Arabian. by Robertson smith. London 1907.

363. Lust for Life. by Irving stone. 1946.

364. Man and Woman. by Havelook Ellis.

365 Muslim Law. An Historical Introduction to the Law of inheritance. by Alexander David Russel and Abduullah Al Mamtun suhrawrdy· Loudon.

366 On the Origin of Civilisatiou and Primitive Condition of Man. by Lubbock.

367 Original sources of the Quran. by the rev. w s T. Clair Tisdall New York. 1865

368 studies in Ancient History. primitive Marriage. by Mac Leuan. 1856.

369 sources of Islam, by the Rev. w s.T. Clair Tisdall. Edinburgh. 1901.

370 space, Time and Gravitation, by A.s. Éddington. 1920

371 The Aesthetics. by Knox. New Vork. 1936.

372 The Background of Islam By plilby

373 The Caliphate. its rise. Decline and Fall by sir William Mulr. Edinburgh. 1924.

374 The Great Encyclopedla of Universal Knowledge. London.

375 The Women in ayyam El Arab Ilse Lichtenstadter. London 1935

376 The Relation between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam. by Margolioth

377 The Pscychology of Marriage, by Walter M. Gallichan, London 1927.

378 The science of Living Things. Heredity : The Stream of Life. By Eldou. Moore. London. 1935.

فرنسية

379 Essai sur l, Histoire des Arabes, par De Percevrl. paris 1848.

380 Histoire des papes. paris 1842.

381 La Grande Encyclopedie Tome 17

382 La Question Feministe. par Rosler.

393 L, Arabie Occidentale avant l, Hegire. par H. Lammans. Beyrouth. 1928.

384 La Religion des primitifs par Monseigneur Leory.

فارسى

٣٨٥ — سياسة نامة . تأليف نظام الملك . طهران ٣٢٠ هجرى شمسى

فهرست

صلات العرب بالأمم والحضارات
ومكانة المرأة فيها

الباب الأول

المرأة فى الحياة الأسرية

الفصل الأول

(الأم)

الفصل الثانى

الزوجة

الفصل الثالث

البنت ٢٧٩ – ٣١٤

الفصل الرابع

الأخت والقريبة ٣١٥ – ٣٢٥

الفصل الثالث

صناعة المرأة ٣٩٨—٤٢٩

الفصل الرابع

المرأة فى الحرب ٤٣٠—٤٦٣

الفصل الخامس

السبايا والإماء ٤٦٤—٥٢٤

الفصل السادس

المكانة الاجتماعية والسياسية للمرأة ٥٢٥—٥٥٤

الباب الثالث

المرأة فى الحياة الفنية

الفصل الأول

المرأة المغنية ٥٥٥—٥٨٩

الفصل الثانى

المرأة راوية للشعر وناقدة ٥٩٠—٦٠٢

الفصل الثالث

المرأة الشاعرة ٦٠٣—٦٨٨

فنون شعرها

الرثاء :

التحريض على القتال وعلى الثأر :

كثرة الحروب . شعر النساء فى الحروب (٦٢٨) التحريض وتشجيع الرجال المقاتلين (٦٢٨) تأثر الرجال بهذا التحريض (٦٣٠) تهديد الأعداء وتوعدهم بالغارة (٦٣٠) الإشادة بالثائرين (٦٣١) اشتفاؤهن بالثأر . موازنة بينهن وبين الرجال (٦٣٢) .

الهجاء :

قيمة الهجاء فى الجاهلية (٦٣٣) مشاركة النساء فيه (٦٣٤) ألوان من هجائهن (٦٣٤) لماذا قل هجاء الضرائر ؟ (٦٣٧) هجاء لزوجة الابن (٦٣٨) هجاء للزوج (٦٣٨) بين هجائهن فى الجاهلية والإسلام (٦٣٩) سمات هجائهن (٦٤٠) تخلفهن فيه عن الرجال (٦٤١) .

الفخر :

بماذا افتخرن ؟ (٦٤٢) خلو فخرهن من صفات الأنوثة (٦٤٤) موازنة بين فخرهن وفخر الرجال (٦٤٥) .

المدح :

لماذا قل نصيبهن منه ؟ (٦٤٧) .

الحنين إلى الوطن :

حب العرب لوطنهم (٦٥٠) حنين المرأة المغتربة إلى وطنها (٦٥١) حنينها فى العصر الإسلامى (٦٥٢) .

كتب للمؤلف

١ ـ وحى النسيب فى شعر شوقى .

دراسة لغزل شوقى من حيث بواعثه وخصائصه .

٢ ـ وطنية شوقي :

دراسة منصفة للوطنية فى شعر شوقى ، معتمدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقى ، وعلى موازنات بينه وبين غيره من الشعراء

٣ ـ الإسلام فى شعر شوقى :

دراسة لتدين شوقى ومظاهره فى شعره ، من إيمان بالله ، ومدائح للنبى ، وإشادة بخصائص الإسلام ، ودراسة لنزعته الإسلامية فى تأييد الخلافة التى كانت قائمة ، ودراسة فنية لهذا الشعر الدينى .

٤ ـ الفكاهة فى الأدب :

دراسة للفكاهة العربية وأصولها ، وتقسيمها إلى أنواع طبقا للبواعث النفسية ، ودراسة مفصلة لدلالات الفكاهة الاجتماعية والسياسية واللغوية .

٥ ـ البطولة والأبطال :

دراسة للبطولة وأسسها وأنواعها ، وعرض صور من أبطال العرب فى الجاهلية والإسلام ، وصور من أبطال مصر الحديثة مع التحليل .

٦ ـ أبو حيان التوحيدى :

دراسة لعصره السياسى والعلمى والأدبى ، وعرض لحياته وثقافته وصلاته ،

وتحليل لأخلاقه ، وتعريف بكتبه ، وتحليل لأسلوبه ، وموازنات بينه و بين معاصريه و بينه و بين الجاحظ .

٧ ـ سماحة الإسلام :

تحليل منصف لسماحة الإسلام فى نواح شتى ، معتمد على النصوص والتشريع والتطبيق والموازنات بين الإسلام وغيره من الأديان والشرائع .

٨ ـ أدب السياسة فى العصر الأموى :

دراسة للأحزاب السياسية ، وعرض نماذج من أدبها شعرا وخطابة وحوارا وكتابة ، وتحليل لهذا الأدب ، وموازنات بين بعضه وبعض .

ودراسة للعصبية القبلية والعصبية الجنسية وأثرهما فى الشعر والسياسة ، وترجمة لبعض أدباء السياسة .

٩ ـ سوسن :

قصة مصرية سامية العرض ، نبيلة الغرض .

١٠ ـ مع ابن خلدون :

عرض لآرائه فى التربية وعلم الاجتماع التى لم يعرض لها الدارسون من قبل ، ودراسة لأدبه من نثر وشعر .

١١ ـ الغزل في العصر الجاهلى :

دراسة للغزل فى الجاهلية من حيث أصوله و بواعثه وأنواعه وعلاقته بالبيئة ، مع موازنة بين الغزل فى الجاهلية والإسلام . نال به المؤلف درجة الماجستير من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى .

١٢ — المرأة فى الشعر الجاهلى :

دراسة مفصلة للمرأة فى العصر الجاهلى من الشعر ، من حيث مكانتها فى الأسرة وفى القبيلة وفى المجتمع ، أما وزوجة و بنتا وأختا وقريبة .

ودراسة للمرأة فى الحياة الفنية من حيث روايتها للشعر ، ونقدها له ، وأثرها فى الغناء ، وشاعريتها ، وأنواع شعرها ، وخصائصه ، مع موازنات بينها و بين النساء المعاصرات لها فى العالم القديم . نال به المؤلف درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز .

١٣ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى :

بحوث تمهيدية شتى ، وتوثيق للشعر الجاهلى ، ودراسة له من حيث تصويره لألوان من الحياة الاجتماعية والدينية وللعادات والمعتقدات .

١٤ — أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى :

عرض وتحليل لصور الطبيعة فى الشعر الجاهلى من حيوان ونبات وجماد وظواهر فى الأرض وفى الجو ، واستنباط الخصائص العامة فى تناول الشعراء للطبيعة ، ودراسة لأصداء البيئة فى موضوعات الشعر وأخيلة الشعراء وفنهم .

١٥ — التيارات المذهبية بين العرب والفرس :

دراسة للصلات بين العرب والفرس فى الجاهلية والإسلام ، وأثرها فى كل من الشعبين من حيث العقائد والنظم والعادات واللغة والأدب إلخ .

١٦ — المثل السائر لابن الأثير :

تقديم وتحقيق وتعليق (بالاشتراك) .

١٧ ــ الطبرى :

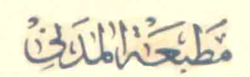
دراسة مفصلة لعصره ، و بيئته ، وحياته ، ومصادر ثقافته، وألوانها ، وتلاميذه ومؤلفاته ، وشخصيته ، ودراسة لمنهجه فى التفسير وفى التاريخ وفى الفقه .

١٨ ــ فن الخطابة :

دراسة فنية للخطيب ، وعدته ، وصفاته ، وعوامل نجاحه . ودراسة للخطابة ، وأنواعها ، وأصولها ، وأسلوبها ، وتصور الأمم لها إلخ .

١٩ ــ بطولة و بطل :

دراسة للبطولة ، وتحليل لبطولة الرئيس جمال عبد الناصر من خلال حياته وأعماله وأقواله .


مطبعة المدني